مصطفى أمين

سنة أولى حب

دار الجيل
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

سنة أولى حبّ

١٤١١هـ - ١٩٩١م.

دار الجيل
للنشر والتوزيع والطباعة
ص.ب: ٨٧٣٧
بيروت - لبنان

دخل الشيخ عبد الرؤوف مدرّس اللغة العربية، إلى فصل السنة الخامسة بالمدرسة السعيدية، وكأنه يترنح، وقام الطلبة من مقاعدهم متثاقلين متباطئين لتحيته، فلم يرد عليهم. ولم يشتم - كعادته - الطلبة الذين ظلوا جالسين في مقاعدهم دون أن يهبوا واقفين نزولاً على بيت الشعر القائل:

قم للمعلم وفّه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

وتغامز الطلبة، وهمس بعضهم: أن زوجته لا بد أنها ضربته علقة قبل قدومه الى المدرسة.

ورمى الشيخ عبدالرؤوف كراريس الإنشاء التي كان يتولى تصحيحها في اليوم السابق على مكتبه باحتقار ثم أمسك بكراسة منها، واستدار نحو الطلبة وعاد يترنح من جديد كأن مطرقة ضخمة هوت عليه.

كان الشيخ يهتز، عمامته الكبيرة البيضاء تهتز فوق رأسه الحنطي، نظارته السوداء الضخمة تهتز فوق عينيه الشبيهتين بعيني الصقر، شاربه الطويل يهتز فوق شفتيه الغليظتين، قفطانه الواسع يهتز حول جسمه الفارع، وبطنه يهتز أكثر مما تهتز العمامة والنظارة والشارب والقفطان.

وإذا كان طلبة السنة الخامسة قد درسوا في مادة الجغرافية أن اهتزاز الأرض هو الزلزال، وأنه يسبق عادة انفجار البراكين، فإنهم تعلموا أن اهتزاز الشيخ عبد الرؤوف هو علامة كارثة وقعت أو مصيبة على وشك الحلول!.

وتنفس الطلبة الصعداء عندما علموا أن أحداً من أسرة الشيخ عبد الرؤوف لم ينتقل إلى رحمة الله. لا أمه ولا زوجته ولا ابنته، وإنما التي ماتت هي اللغة العربية!

ووقف الشيخ عبد الرؤوف أستاذ اللغة العربية يرثي اللغة العربية، كأنه يقرأ نعي فقيدة عزيزة في صفحة الوفيات بجريدة «الأهرام». ولم يلبث الطلبة أن اكتشفوا من رثاء الشيخ عبد الرؤوف للفقيدة أنهم هم الذين قتلوها!.

قال الشيخ إنه رأى في كراريسهم لغة الضاد تذبح أمامه، يسفك دمها الغالي، تغتال في الطريق العام، تطعن في ظهرها بالخناجر والسكاكين!

وكان الشيخ يتكلم وكأنه يبكي، يلوح بالكراريس وكأنه يلطم خديه. وكان صوته يتهدج تارة، ثم يجلجل تارة أخرى، وهو ينتقل من مرحلة الرثاء إلى مرحلة المطالبة بالثأر والانتقام، حتى تحسبه النائب العام يترافع أمام محكمة الجنايات، ويطالب بإعدام عصابة مجرمة أثيمة من القتلة والسفّاحين.

وكان الطلبة جالسين في مقاعدهم يمثلون دور المتهمين،ويتظاهرون بالوجوم والقلق، وكأنهم مجرمون في قفص الاتهام. ومن وقت لآخر يمسح التلميذ محمود البوهي دموعه بطرف كم الجاكتة، ويخرج التلميذ علي فتحي منديلاً كبيراً يجهش فيه بصوت عال موهماً أن التأثر اشتد به

وسالت الدموع من أنفه! ويخفي عدد من التلاميذ ابتساماتهم الخبيثة خلف أيديهم، بينما ينكس آخرون رؤوسهم متظاهرين بالخزي والعار والتوبة والندم بينما هم يقرأون مجلات مسرحية وقصصاً غرامية أخفوها فوق ركبهم!

■■■

ويمضي الشيخ عبد الرؤوف في حفلة التأبين ويقول:

ـ لا بد أن بينكم وبين سيبويه ثأراً قديماً. لا بد أن أبا الأسود قتل أباكم أو ذبح أمكم. . طلبة في البكالوريا لا يعرفون «أخوات كان»؟.

ويقاطعه الطالب ابراهيم المناسترلي ويقول:

ـ لأننا ما زلنا صغار السن. . لا نعرف البنات!

وتضيع نكتة ابراهيم المناسترلي في ضوضاء الشيخ عبد الرؤوف الساخط الغاضب ويمضي قائلاً:

ـ إن الوقت جد لا هزل. إننا في مأتم خيبتكم لا في فرح نجاحكم. إنكم تكتبون اللغة العربية من الشمال إلى اليمين شأن الأجانب. كل سطر في موضوع من موضوعاتكم هو فعل فاضح في الطريق العام، جريمة هتك عرض لقواعد اللغة العربية!

ويرفع الطالب محمود البوهي صوته ويقول:

ـ الحمد لله أن عمر اللغة العربية أكثر من ١٤ سنة. . لأن جريمة الاعتداء على قاصر عقوبتها السجن!

ويصرخ الشيخ عبد الرؤوف:

ـ اسكت يا فاجر! إن اللغة العربية هي أمك وهي أختك!

ويضحك الطالب علي فتحي ويقول هامساً:

ـ أنا أعرف أمه جيداً!

ويلكع محمود البوهي بكوعه زميله علي فتحي فيصرخ من شدة الألم.

ويتجاهل الشيخ عبد الرؤوف المشاجرة ويقول:

ـ إن الاعتداء على اللغة العربية هو جريمة في أي قانون. ماذا دهاكم؟ «الفاعل» تنصبونه، و«المفعول به» ترفعونه، و«المرفوع» تجرونه من قدميه. إنها مؤامرة مدبرة ضد اللغة العربية.

ويعود الطالب ابراهيم المناسترلي لمقاطعة الشيخ عبد الرؤوف ويقول:

ـ إن الأمر اختلط علينا يا فضيلة الأستاذ، لأن «الفاعل» منصوب في قواعد اللغة الانجليزية!

ويضج الطلبة بالضحك، ويصرخ فيهم الشيخ عبد الرؤوف الذي لم يفهم النكتة ويقول:

ـ أنا أعلم جيداً أن «الفاعل» منصوب في اللغة الانجليزية. لأن كل ما يفعله الانجليز هو نصب في نصب!

ويصفق الطلبة إعجاباً بوطنية الشيخ عبد الرؤوف، ثم يعودون إلى الضحك من جهل الشيخ الذي لا يعرف أن اللغة الانجليزية ليس فيها «رفع» ولا «نصب» ولا «جر»!

ويزأر الشيخ عبد الرؤوف كالأسد الغاضب:

ـ أتضحكون من خيبتكم؟ ثلاثة بالله العظيم لن تفلحوا.. لن تفلحوا بالعربية ولا بالانجليزية.. إن جهلكم لم يقتصر على قواعد اللغة إنه جهل مركب، إنني طلبت منكم أن تكتبوا موضوع إنشاء عن زيارة المعرض الزراعي الصناعي. فإذا بكم جميعاً تكتبون عن مدينة الملاهي الملحقة بالمعرض. تنسون ذكر صناعة النسيج وتتحدثون عن لعبة المراجيح. تغفلون وصف مبنى بنك مصر وتصفون رشاقة الراقصة نعمت فهمي في القهوة البلدي!

ويضحك الطالب علي فتحي ويقول: إنني أشدت بالتقدم الذي حدث في رقص البطن، وقلت أن رقص البطن له أثره في تقدم الأمم.

وصرخ الشيخ عبد الرؤوف:

ـ ألا لعنة الله على شباب يقيسون تقدم الأمم بعدد المرات التي تهز فيها النساء بطونهن! في أوربا يتحدثون عن مضاعفة سرعة الطائرات، ونحن هنا نتحدث عن مضاعفة الراقصة نعمت فهمي لعدد المرات التي تهز فيها بطنها! إن هذه من علامات الساعة. إنها دليل أكيد على أن القيامة ستقوم قريباً جداً! تحولون المعرض الزراعي الصناعي الى كباريه؟ لا تستلفت نظركم الطيارة التي حلّق بها محمد صدقي أول مصري طار من أوروبا الى مصر، وتستلفت نظركم الحسنة التي في بطن نعمت فهمي، في بطن امرأة فاجرة تعري جسدها أمام الغرباء! إنها ليست «حسنة» إنها «سوءة» يجب إخفاؤها..

وضحك الطالب محمود البوهي وقال: إن «الحسنات» يذهبن السيئات!.

فقال الشيخ عبد الرؤوف مستنكراً:

ـ ليس في اللغة العربية كلمة «حسنة»، إن الكلمة الصحيحة هي شامة أو ندية أو خال! أو وصمة. إن الاسم يتوقف على حجم الحسنة ومكانها في الجسم!

قال الطالب علي فتحي:

إنها فوق «سرة» نعمت فهمي بسانتي ونصف!.

وقاطعه الطالب ابراهيم المناسترلي:

كلا. إنها تحت السرة!

وأمسك الطالب محمود البوهي بمسطرة في يده وقال:

ـ كلا! إنني قستها بنفسي.. إنها في الجنوب الشرقي من السرة، وتبعد عنها بسبعة مليمترات ونصف المليمتر.

وهاج الشيخ عبد الرؤوف على فجور تلاميذه وصاح فيهم:

ـ لعنكم الله أنتم ونعمت فهمي! فلنترك الحديث عنها وعن شامتها وسرّتها فهذا ليس في «المقرر» إنكم جعلتموني أتوه في بطن نعمت فهمي وأنسى الموضوع الذي أريد أن أتحدث فيه! إنني لاحظت في موضوعات الإنشاء أنكم لم تكتبوا كلمة واحدة عن التقدم الملحوظ في زراعة القطن، وأسهبتم في وصف سيقان الفارسة العارية التي كانت تقفز فوق الحصان في سيرك المعرض. تبخلون بسطر عن وصف انفعالكم بصوت الآلات الحديثة المعروضة، وتسهبون في وصف صوت المطربة رتيبة أحمد، وهي تغني أغانيها المبتذلة!

دمدم الطلبة احتجاجاً على وصف أغاني رتيبة أحمد بأنها مبتذلة.. فيما تابع الشيخ عبدالرؤوف قائلاً:

فأين هذا الكلام الفارغ من الأغنية الريفية التي تقول:

البحر ماله بيضحك ليه وأنا نازله ادلع أملا القلل
طلعت فوق الشجراية قطفت خوخة وعنباية
يا ريت حبيبي ويايا وأنا نازله أدلع املا القلل

هذا كلام عامي ولكن فيه بلاغة، وفيه تصوير، وفيه خوخ وعنب، فالحبيبة لا تتحدث عن قبلة وإنما تتمنى أن يكون معها حبيبها يأكل الخوخ والعنب الذي تأكله.. وهذا مختلف عن نوع أغاني رتيبة أحمد المبتذلة التي نقلها محمود البوهي في كراسته وكأنه يستشهد بأقوال المتنبي أو أبي العلاء المعري.

ثم فتح الشيخ عبد الرؤوف كراسة محمود البوهي وراح يقرأ منها أغنية رتيبة أحمد التي تقول:

قلبي بيطب قوي وخايفة عندك شباك نواحي العطفة
افتح درفة واقفل درفة وقوم نغير مطرحنا!

وراح التلاميذ يمصمصون شفاههم إعجاباً ويقولون: الله! أعد! أعد! لا فض فوك يا شيخ عبد الرؤوف!

ومضى الشيخ عبد الرؤوف يقرأ أغنية رتيبة أحمد الثانية التي استشهد بها الطالب محمود البوهي التي تقول:

«يا ميت ندامة على اللي حب.. ولا طالش!»

هل يجوز أن يكتب هذا الكلام الفارغ في كراريس الإنشاء؟ لا هو شعر ولا نثر، وليس فيه فن ولا خيال، فيه مسخرة! ليس فيه بديع ولا بيان، فيه قلة أدب! ليس فيه بلاغة ولا فصاحة، فيه قلة حياء! ما معنى أن تقول المطربة يا مائة ندامة على الذي أحب امرأة ولم يصل إليها؟ هذا تحقير للحب العذري! هذا تسخيف للهوى الشريف

العفيف! حب جميل لبثينة، وهوى قيس لليلي، وغرام عمر بن أبي ربيعة لصاحبات الصون والعفاف! إنها سخافة حقاً أن تقول «يا ميت ندامة على اللي حب. . ولا طالش!».

ويقف الطالب ابراهيم المناسترلي ويتظاهر بالبراءة وهو يقول:

ـ صدقت يا فضيلة الشيخ . . بدل أن يقول الشاعر «يا ميت ندامة على اللي حب ولا طالش» كان عليه أن يقول «يا ميت ندامة على اللي طال. . ولا قدرش!».

ويصرخ الطلبة مقهقهين ضاحكين، ويهتز الفصل من الضحك المدوّي، لأن الطلبة طالما استدرجوا الشيخ في دروس ماضية حتى شكا إليهم من «عدم القدرة»! وإنه بعد أن تقدمت به السن أصبح عاجزاً عن القيام بواجباته الزوجية خير قيام!

وتجاهل الشيخ عبد الرؤوف هذه الضربة التي وجهها إليه الطالب ابراهيم المناسترلي تحت الحزام، ولو أن الضربة أصابته في الصميم، ولو أن طالباً آخر غير ابراهيم المناسترلي هو الذي سخر بفحولته لأنشب فيه أظافره، لانهال عليه ضرباً وصفعاً، ولنقل المعركة إلى أمه وأبيه وخالته وعمته. ولكن ابراهيم المناسترلي هو نجل صاحب المعالي سمير المناسترلي باشا كبير ياوران جلالة الملك فؤاد، وكلمة واحدة من خادم في القصر الملكي، لا من كبير الياوران، قادرة أن تسخط الشيخ عبد الرؤوف من مدرّس في المدارس الثانوية الى مدرّس في المدرسة الابتدائية، أو الى مدرّس في روضة الاطفال، هذا اذا أشفق وزير المعارف على الثلاثين عاماً التي خدم فيها مدارس الحكومة وعلى أولاده السبعة، أما اذا لم يشفق به معالي الوزير فإن مصيره هو الاحالة الى المعاش. . وما دامت حكمة أن «العين لا تعلو على الحاجب» حكمة

مقررة في الحكومة المصرية، وما دام «ضربك شرف يا فندينا» هو شعار الموظفين من عهد الخديو اسماعيل، فقد رأى الشيخ أن يتظاهر بضعف السمع، وهي العاهة التي يلجأ إليها في الملمات، وتظاهر أنه لم يسمع النكتة، ولم يرَ ابراهيم المناسترلي وهو يقف يسخر منه، وأدار ظهره يقلب في كراريس الانشاء، حتى سكتت الضجة.

■ ■ ■

ثم عاد الشيخ عبد الرؤوف يتلفت إلى الطلبة ويقول:

ـ والحق يقال أن طالباً واحداً من أربعين طالباً عرف كيف يكتب موضوع الإنشاء.

وقال الطلبة الخبثاء: إنه ابراهيم المناسترلي طبعاً!

وفهم الشيخ عبد الرؤوف أن الطلبة يتهمونه بالنفاق. . فعاد يلوذ بعاهة الصمم ويستطرد قائلاً:

ـ طالب واحد لم يخطىء في النحو مرة واحدة. ليس في موضوعه فضيحة لغوية واحدة. إنه وحده عرف كيف يصف المعرض الزراعي الصناعي. وصف قسم بنك مصر وتحدث عن أثره في الاقتصاد المصري. وصف معروضات شركة المحلة وتمنى أن يجيء يوم يلبس كل المصريين فيه من صنع بلادهم. وصف معروضات شركة مصايد الأسماك وقال إن سواحلنا البحرية الطويلة قادرة على أن تكفي صناعة ضخمة للأسماك وكنوز البحار. وصف قسم شركة مصر لحليج الأقطان وتحدث عن القطن الذي ينهبه الانجليز بأسعار زهيدة من الفلاح المصري المعدم الفقير، وصف شركة الملاحة والبواخر التي خرجت إلى البحار تحمل العلم المصري، وذكر أن الفراعنة كانوا

أصحاب أول أسطول جاب أعالي البحار. حتى فيلم زينب الذي ألّفه الدكتور محمد حسين هيكل وبدأ استوديو مصر ينتجه، أشار إليه وتنبأ بقيام صناعة سينما عظيمة في بلادنا. لم يفته شيء. كل سطر في موضوعه. فيه لمسة إنسانية. إنه عندما وصف معروضات مصلحة السجون مثلاً، قال إنها عرضت غرفة نوم فاخرة صنعها المسجونون بأيديهم من خشب «الماهوجني» الجميل، وإن الذين توقفوا مبهورين أمام حسن صنع غرفة النوم وإتقانها وجمالها، لم يلتفت واحد منهم إلى أن هؤلاء المسجونين الذين صنعوا بأيديهم أفخر غرفة نوم محرومون من النوم على سرير، محرومون من النوم فوق مرتبة، وإنما هم ينامون على الأسفلت ويغطون أنفسهم ببطانية واحدة ممزقة لا تقيهم البرد الذي ينخر في عظامهم ولا الأسفلت الذي يلتهم لحمهم.. ما أتعس الذين يطهون الطعام الفاخر ولا يذوقونه. ويصنعون الأثواب وهم عرايا! ويبنون البيوت وهم يعيشون في العراء، يعدون غرفة النوم الفاخرة وهم ينامون على الأسفلت والبلاط.. الذي يكتب مثل هذه الملاحظة الإنسانية على غرفة نوم صنعها المسجونون المحرومون من متعة النوم على سرير أو مرتبة لا بد أن يكون في يوم من الأيام كاتباً عظيماً. أتعرفون من هو هذا التلميذ الفصيح الوحيد بين بكماء؟ العالم بين جهلاء؟ العربي بين غرباء؟.

وصاح الطلبة في صوت واحد:

- محمد عبد الكريم..

وتلفتوا جميعاً نحو زميلهم سعداء بهذا المديح وإن كان على حسابهم!

- كلكم زرتم المعرض الزراعي الصناعي، ولكنكم كنتم جميعاً عمياناً.. وكان المبصر الوحيد فيكم هو محمد عبد الكريم.. عشرة

على عشرة يا ابني، وفتح الله عليك!

وهنأ الزملاء محمد عبد الكريم بابتسامتهم. ولكن محمد نكّس رأسه تواضعاً، وكان في الوقت نفسه يحاول أن يخفي ابتسامة ساخرة!

■ ■ ■

إن الشيخ عبد الرؤوف لا يعرف أنه التلميذ الوحيد بين طلبة السنة الخامسة الذي لم يزر المعرض الزراعي الصناعي، لا لأنه زاهد في زيارته، ولكن لأنه لا يملك خمسة قروش صاغ أجرة الدخول.. لو أنه دفع هذا المبلغ لعاش خمسة أيام بغير أن يذوق الطعام. الأقدار التي منحته ثروة من الكلمات بخلت عليه ببعض قروشها. أسرفت في منحه الخيال، وقتّرت عندما أعطته الحقيقة!

إنه الطالب الوحيد في السنة الخامسة قسم أدبي الذي يتعلم بالمجان. كل زملائه في الفصل أبناء باشوات ووزراء وكبار موظفين وأعيان، وهو ابن عامل صغير في العنابر التابعة لمصلحة السكك الحديدية. زملاؤه يحضرون إلى المدرسة كل صباح في سيارات فاخرة يقودها سائقون يرتدون اليونيفورم الأزرق ذا الأزرار النحاسية اللامعة، أو يقودون سياراتهم بأنفسهم. وقد مكث أربع سنوات يقطع المسافة بين بيته في جزيرة بدران بشبرا إلى المدرسة السعيدية بالجيزة مشياً على الأقدام ساعة ونصف ساعة في الذهاب وساعة ونصف ساعة في الاياب. وفي هذا العام لاحظ أبوه أنه يستهلك حذاءه بسرعة، فامتنع عن تدخين السجائر الرخيصة القليلة التي اعتاد تدخينها، ليوفر لمحمد ثمن اشتراك الترام في الدرجة الثانية من شبرا إلى الجيزة!

إنه لم ينل المجانية لتفوقه في اللغة العربية، ولا لنبوغه في دراسته، وإنما نالها لأنه كان رئيس فريق كرة القدم في مدرسة شبرا الابتدائية.

وكانت المدارس الثانوية تتصارع على الفوز بكأس المدارس الثانوية في كرة القدم، وكانت كل مدرسة تحاول أن تخطف البراعم المتفوقة في كرة القدم بالمدارس الابتدائية، ولهذا استطاع الاستاذ المشرف على كـرة القدم في المدرسة السعيدية أن يضمه إلى فـريقها، ويحصـل له عـلى المجانية، ليضمن ألا تخطفه المدرسة الخديوية التي كانت تنافس السعيدية في الحصول على الكأس. ولولا هذه المجانية لما فكّر محمد في أن يتم دراسته الثانوية، فقد كانت أمنيته أن يحصل على وظيفة ساع بثلاثة جنيهات في الشهر، حتى يعاون أباه العامل بالعنابر على القيام بمصاريف البيت.

ودهش محمد عندما رأى أباه يرحب بدخوله مدرسة الذوات، فقد كان الأب يتمنى أن يتم ولده الوحيد دراسته العالية، حتى ولو اقتطع من طعامه، وبقي خمس سنوات بنفس البنطلون الممزق القديم، حتى ولو اضطرت أمه أن تمسح بلاط وسلالم عمارة الماوردي في شارع شبـرا لتساعد في شراء الكتب اللازمة له.

ولم يكن معقولاً أن يجرؤ محمد أن يطلب من أبيه خمسة قروش ليدخل المعرض الزراعي الصناعي أسوة بجميع زملائه التلاميذ. إنه اكتفى بـأن يتفرج عـلى المعرض من شفـاه زملائـه. . التقط منهم كلماتهم ومشاهداتهم، وانفعل بها. وضمها إلى موضوع الإنشاء الذي أشاد به الشيخ عبد الرؤوف.

إنه سمع في شوق واهتمام وصف زملائه لجسد الراقصة نعمت فهمي، رآها في شفاههم المرتعشة وعيونهم الحالمة وهي تنحني وتنثني، وتتماوج وتهتز، وتلف وتدور. رأى مفاتنها في أشـواقهم، أحس بحرارتها في وصفهم المراهق لها، ولكنه أشفق على الشيخ عبد الرؤوف

أن ينقـل إليه هـذا المنظر المثير في كراسـة الانشاء فـاكتفى بـوصف الصناعات!

قضت ظروف الحياة على محمد أن يصف أشياء كثيرة لم يشهدها. إن كل زملائه في الفصل يحبون ويعشقون وهو وحده الـذي لم يحب ولم يعرف العشق والهوى، ومع ذلك فـإنه يصف العشق كـأنه كـابده، ويصور الحب وكأنه مارسه، ويرسم الهوى وكأنـه تقلب بين أجسـاد عشرات النساء!

ان بعض زملائه الذين يعرفون إجادته الكتابة لجأوا إليه ليكتب لهم خطاباتهم الغرامية. ولم يخيّب رجاءهم، بل إنه ـ على العكس ـ أحب هذه المهمة. إنه يحب الحب مع أنه لم يحب. يعطف على كل العشاق على الرغم من أنه لم يذق طعم الهوى. وزملاؤه يسلمون إليه خطابات ملونة تفوح منها رائحة العطر ليتولى كتابة الردود.

وقد أصبح مع الوقت خبيراً في كتابة خطابات الهوى والغرام. أجاد الحديث عن السهاد والأرق، واللوعة والعذاب، ورعشة الفؤاد وخفقة القلب، وغيـرها من العبـارات الملتهبة التي تفتت الصخـر، وتفتـح القلوب المغلقة، وتصل العلاقات المنقطعة، وترفع حرارة الحب عندما يبرد، وتشعل النار في قلوب تحولت إلى رماد.

وكان محمد يطلب من زملائه العشاق الصغار أن يعاونوه في مهمته، بأن يجيئوا له بصـور حبيباتهم، وبذلك يستطيع أن يندمج في الوصف، ويتعمق في الغزل، فلا يتغزل في لون الخمر والحبيبة في لون الحليب، ولا يحن إلى سواد الليل الذي يذكره بشعر الحبيب بينما شعر الحبيب أشقر كأشعة الشمس أو أحمر كلون الشفق.. ولا يشبه بشرة المعشوقة بأنها كالورد بينما تكون هي في لون الأبنوس!

واطمأن زملاء محمد إليه لأنه يحفظ أسرارهم، ويكتم قصصهم، ويحتفظ بخصوصياتهم. ومع الوقت أصبح محمد يكتب بانتظام خطابات غرامية لعشر فتيات مختلفات. بينهن التلميذة في مدرسة الراهبات، والمعلمة في مدرسة بنات، والممثلة المغمورة في مسرح رمسيس، والراقصة المبتدئة في صالة بديعة، والبائعة الصغيرة في محلات شيكوريل، والممرضة في مستشفى قصر العيني، وبنت الجيران إلتي تعرف مبادىء القراءة والكتابة، وبنت الوزير التي تجيد ثلاث لغات!

ولم يخطىء محمد مرة واحدة، ويكتب للمعلمة الخطاب الذي يصلح للراقصة، ولا لتلميذة مدرسة الراهبات بأسلوب ممثلة مسرح رمسيس. كان يدرس شخصية كل عاشقة من رسائلها وصورها وما يرويه حبيبها عنها، ويختار الكلمات التي تناسبها. إن لكل امرأة مفتاحها الخاص، المفتاح الذي يفتح راقصة يفتح خزانة البنك الأهلي، ولكنه لا يصلح لفتح ممرضة في مستشفى القصر العيني. كل امرأة لها كلمتها. الكلمة التي تعتبرها الممثلة عشقاً وهياماً تعتبرها طالبة مدرسة الراهبات وقاحة وقلة حياء!

كان محمد مثلاً يختم كل خطاب يكتبه للراقصة ابتسام حسني بجملة «أحبك يا بنت الكلب»!

وكانت هذه الجملة الوقحة تسعد الراقصة ابتسام فتكتب إلى حبيبها الطالب سعيد توفيق تقول إنها قرأت قصة «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقي، فلم تجد فيها كلمة حب واحدة بهذه الروعة، وهذه الاثارة، وهذا الجمال!

وكان محمد يكتب للآنسة إنعام حسني الممثلة بمسرح رمسيس شعراً

منثوراً، عن الليل الذي مات بين ذراعي الفجر، وعن الفجر المصبوغ بدم العشاق، وعن العشق الذي هو المسرحية الخالدة التي لا يمكن أن يسدل عليها ستار الزمن. . ويصف صدرها الذي يتدلى منه عنقودان من العنب، فما تكاد تأكله عيناه الجائعتان حتى يسكر في جنة الأحلام!

ولا تكاد الممثلة إنعام حسني تقرأ هذا الخطاب حتى تسارع لتكتب إلى الطالب علي فتحي خطاباً تحدد له موعد لقاء لتسمع من شفتيه الجميلتين هذا الشعر المنثور!

كان محمد أشبه بترزي ماهر، يصنع لكل امرأة الثوب الذي يناسبها، ويجعلها تتصور نفسها داخل هذا الثوب وكأنها ملكة جمال.

والنساء مختلفات، امرأة لا تسكر من الخمر وتسكر من دموع عشاقها، وامرأة تنتشي من الصفعة أكثر مما تنتشي من القبلة، وامرأة تحب الرجل الذي يضربها وتحتقر الرجل الذي تضربه، وامرأة تذوب أمام الكلمة القاسية وتقسو أمام الكلمة الحانية. امرأة تحب الحب بطريقة المراسيم الجمهورية والأوامر الملكية، وامرأة تحب الحب بطريقة العرضحالات والاسترحامات والالتماسات!

ولم يتعلم محمد الحب في مدرسة. إن النساء عادة هن الجامعات التي يتخرج فيها أعظم العشاق. لقد تعلم الحب بالمراسلة فهذه الخطابات العديدة التي يكتبها والردود التي يقرأها جعلته يفهم المرأة، ويعرف ما تحب كل امرأة من هؤلاء العشر، وكل ما تكره. وهكذا أصبح من السهل عليه أن يعزف لكل واحدة منهن القطعة الموسيقية التي ترقص على أنغامها! وكان زملاؤه والعشاق يلجأون إليه في الملمات. وما الأزمات التي يتعرض لها حب الشبان الصغار. وكانوا جميعاً يؤمنون بأن الخطابات التي يكتبها محمد لحبيباتهم تفعل فيهن فعل السحر، تلعب

بعقولهن، تجدد أشواقهن، تشعل النار في قلوبهن..

وكان أكثر ما يذهل المحبوبات أنهن عندما يلتقين بأحبائهن من التلاميذ يفتقدن هذا السحر وهذه البلاغة التي تتضمنها خطاباتهم. وكان محمد يحرص في الخطابات التالية أن يعتذر عن هذا البكم الذي أصيب به العشاق، بزعم وأن من القواعد المقررة في الحب أنه كلما ازدادت حرارته تعطلت لغة الكلام، وإن جمال الحبيبة يخرس الحبيب ويشل لسانه عن الكلام. وتقتنع العاشقات بهذا الاعتذار عن التناقض الواضح بين «الحب الشفوي» و«الحب الخطي»!

وهكذا أصبح محمد عبد الكريم هو الكاتب العمومي للهوى والغرام في المدرسة السعيدية. وهو يرفض أن يتقاضى أجراً على ما يكتب. ويرفض أن يقبل هدايا من زملائه. إنه مصر على أنه كاتب هاوٍ، كل الأجر الذي يطلبه أن يرى زملاءه العشاق الصغار محبوبين وسعداء!

وكان زملاؤه يعتقدون أن محمداً خبير في العشق، وأستاذ في الحب وعالم في شؤون الهوى والغرام، ويرفضون أن يصدقوه عندما يقول لهم أنه لم يعرف الحب، ولم يعرف المرأة إلا من أفواههم، وأنه يصف الحب كما وصف المعرض الزراعي الصناعي، وأن خطاباته تنال إعجاب العاشقات، كما نال موضوعه الانشائي إعجاب الشيخ عبد الرؤوف!

■ ■ ■

وإذا بهذه الهواية تتملك محمد عبد الكريم. أحس بأنه بدأ يحب لأول مرة في حياته، ولكنه لا يحب امرأة واحدة، وإنما يحب الفتيات العشر جميعاً..!

أصبح يتعذب لأن إحداهن لم تحضر في الموعد الذي حددته للقاء

حبيبها، وكأنها أخلت بموعدها معه هو. . أصبح يشعر في شفتيه بطعم القبلات من شفتي الممثلة إنعام، وزميله علي فتحي يروي له ما حدث بينه وبين الممثلة في بيتها بشارع جلال!

أصبح يشعر بقلق غريب عندما يتأخر رد الطالبة بمدرسة الراهبات على زميله محمود البوهي، ويمضي الليل يتقلب على فراشه وهو يتساءل في حيرة عن سبب تأخرها بالرد. هل هي مريضة؟ هل لم يعجبها الخطاب الغرامي الأخير الذي أرسله إليها؟ هل وقع الخطاب في يد أبيها؟ .

وأصبح يغار عندما يحدثه زميله سعيد توفيق أنه ذهب في ليلة الخميس إلى صالة بديعة، وأن حبيبته الراقصة ابتسام تركته وجلست مع أحد اثرياء الريف طوال السهرة.

ولم يشعر محمد بتعاسة لأنه يحمل فوق رأسه هموم زملائه العشاق العشرة، بل كان فخوراً بأنه استطاع بقلمه أن يحرك قلوب عشر نساء. . نعم إن دموعهن تسقط على كتفيه، ولكن رحيق قبلاتهن يسقط في شفتيه!

إنه يحس أنه أسعد من زملائه العشرة جميعاً. كل واحد منهم يحب امرأة واحدة، وهو وحده يحب عشر نساء معاً. صحيح إنه يحبهن جميعاً «من الذاكرة»، إلا أنه يشعر بأنه يستمتع في الخيال أكثر مما هم يستمتعون في الحقيقة، وأحياناً يشعر أنه وحده الحقيقة وأن زملاءه هم ظلاله العشرة، هم أسماؤه المستعارة. لا يستطيع أن يظهر باسمه الصحيح. ألم يقرأ أن كثيراً من أعظم كتاب العالم بدأوا حياتهم الأدبية بنشر مقالاتهم بتوقيعات مستعارة، ثم أعلنوا فجأة عن أسمائهم، فانتقلوا في يوم وليلة من حضيض النسيان إلى قمة الخلود؟ سيجيء يوم

يكتب فيه خطاباً غرامياً بإمضائه. سيجيء يوم تكون له فيه امرأة يحبها!

وخفق قلبه وتنهد، عندما خطرت هذه الأمنية على خياله. هل يستطيع وهو الشاب الفقير المعدم أن يدفع ثمن الحب؟ إن الحب ليس فيه مجانية كالمدرسة السعيدية. الحب يحتاج إلى مصاريف. إن أقل ما يحتاجه الحب هو خمسة مليمات ثمن طابع البريد الذي سيلصقه على الخطاب الذي سيرسله إلى حبيبته بعنوان «يحفظ بشباك البوسطة»! إنه لا يستطيع أن يحصل على هذا المبلغ التافه، فهو لا يتقاضى مصروفاً من أبيه شأنه شأن باقي التلاميذ!

إن زميله علي فتحي يحدثه إنه كلما زار الممثلة إنعام قدّم لها زجاجة عطر يدفع فيها ثلاثة جنيهات. ثلاثة جنيهات ثمن ساعة لقاء مع الحبيبة؟ إن أجر والده في الشهر كله هو ثلاثة جنيهات! ثلاثة جنيهات تكفيه هو وأمه وأباه للطعام والسكن والمواصلات لمدة ثلاثين يوماً، أي لمدة ٧٢٠ ساعة.. وساعة واحدة مع الممثلة إنعام تكلف ثلاثة جنيهات؟

وزميله سعيد توفيق يشتري للراقصة ابتسام كلما قابلها حقيبة يد، أو فستاناً أنيقاً، أو إيشارباً.. ويقول إنه ينفق عليها عشرة جنيهات في الشهر، وهي تقول إن هذه أول مرة تحب رجلاً وترفض أن تتقاضى منه مليماً!

ما أغلى الحب على الفقراء. إنه مثل القصور والسيارات الفارعة والمجوهرات الثمينة من حق الأغنياء وحدهم!

إن الذين ينادون بمجانية التعليم ومجانية الدواء ينسون أن يضيفوا إليها مجانية الحب.. يوم يصبح الحب كالماء والهواء لكل الناس بلا ثمن!

ولكن ما له وحب الممثلات والراقصات والغانيات والباحثات عن الذهب؟ الفقراء يجب أن يحبوا الفقراء؟ ليبحث إذن عن فتاة فقيرة مثله، ابنة عامل في العنابر مثل أبيه، لا تعرف زجاجة العطر ولا الإيشارب ولا حقيبة اليد ولا الفستان الانيق. . بنت في ملاءة لف مثل أمه. ولكن، حتى هذه تحتاج إلى نفقات. يجب أن يأخذها إلى مكان بعيد عن العيون والرقباء إلى شارع الأهرام، إلى شارع الجزيرة حيث يوجد طريق التنهدات. ويجب أن يدفع لها أجر ركوبها في الترام. قد تطلب أن تشرب زجاجة كازوزة. . قد تطلب أن تأكل قطعة جبن وسميطة. قد تتوقع أن يشتري لها منديل رأس «بأويه»، فمن أين يجيء لها بهذا المبلغ؟ إن هذا المبلغ البسيط قد يقصم ظهر الأسرة كلها! إنه يستطيع أن يكذب على أبيه ويقول إنه يحتاج لمبلغ لشراء كتاب، ولكنه لم يكذب على أبيه أبداً. ولو اضطر أن يشتري الحب بكذب فما أغلى الثمن. سيقتطع أبوه المبلغ من قوته وقوت أمه.

واقشعر محمد لهذه الفكرة، فكرة أن تجوع أمه ليستطيع أن يلتقي بفتاة يحبها. وأبعد فكرة الحب الحقيقي عن رأسه، وقرر أن يكتفي بحب الحب. سيكتفي بالحب «التحريري». سيكتفي بكتابة خطابات غرامية لفتيات لا يعرفهن. سيذوق شفاههن على الورق. سيسعد بسماع كلمات الهوى وهي تنبض في سطور خطاباتهن الغرامية!

إن الحب كدخول المعرض الزراعي الصناعي، من حق القادرين وحدهم. على الفقراء أن يصنعوا الحب ليذوقه الاغنياء، كما يصنع المسجونون غرف النوم الفاخرة للقادرين، وينامون هم على الاسفلت وعلى البلاط!

فليرض بما شاء القدر أن يمنحه له، أن يحب عشر نساء من الذاكرة. أن يعد الطعام الشهي ولا يذوقه. إن من حق الفقراء أن يحلموا. .

فليستمتع بهذا الحق، ولا يكون له حلم واحد، وإنما عشرة أحلام!

وما هو الحب في حقيقة الأمر؟ إنه حلم، ولكي نستمتع به يجب أن نغمض عيوننا!..

■■■

ورضي محمد بهذا اللون الغريب من الحب كأنه ملحن أصم يكتب الموسيقى ولا يسمعها. كأنه السجين الذي يصنع غرف النوم وينام على الأسفلت. كأنه عامل عطور في مصنع، يصنع أجمل عطور في الدنيا، وقد حرم نعمة الشم. كأنه أعمى يحضر مسابقة بين ملكات الجمال في العالم..

واعتقد محمد أن المال الذي حرم منه، هو وحده الذي يستطيع أن يشتري به جهاز السمع ليشنف أذنه بألحانه، هو الذي يكسر قيد سجن الفقر الذي حرمه من النوم فوق سرير الحب، هو الذي يعيد لأنفه حاسة الشم، هو الذي سيعيد إلى عينيه حاسة البصر.

ولكن كيف يحصل على المال؟

المال أشبه بقطارات الاكسبريس التي تمر أمام بيته في جزيرة بدران.

الاكسبريس لا يقف إلا في المحطات الكبيرة، ويمر على المحطات الصغيرة ولا يتوقف، وإذا وقف أحد في طريقه داسته عجلات القطار!

المال أشبه براقصات صالة بديعة اللاتي لا يجلسن إلا على موائد الأثرياء، ولهن حاسة غريبة يستطعن بنظرة واحدة أن يفرقن بين الزبون المفلس، والزبون الذي في جيبه مئات الجنيهات..

المال يدق أبواب البنوك والمصارف وأصحاب الملايين، ويهرب من الفقراء والمحتاجين كأنه يفر من وباء!

ولم يحدث مرة أن أخطأ المال، وتاه بين العناوين، ودق باب أحد الفقراء، لأن بيوت الفقراء عادة بغير أبواب!

ذات يوم دق الباب!.

عاش محمد عبد الكريم في قصة حب زميله الطالب ابراهيم المناسترلي أكثر مما عاش في قصص حب باقي زملائه التسعة.

كان يكتب باسم كل واحد من هؤلاءالتسعة خطاباً غرامياً مرة واحدة في الأسبوع، أما ابراهيم المناسترلي فقد كان يصر على أن يكتب خطاباً غرامياً مرة كل يوم، وفي بعض الأيام مرتين في اليوم الواحد!

ومع أن حبيبة ابراهيم كانت جارته، وتقيم في البيت الملاصق لبيته، ومع أنها ابنة عمه، وابنة خالته في الوقت نفسه، إلا أن المسافة التي كانت بين العاشقين القريبين أطول جداً من المسافة بين العشاق التسعة وحبيباتهم!

ووجد محمد نفسه يغوص في قصة هذا الهوى الغريب. قصة أشبه بالدوامة منها بحكاية حب. كانت شفاه العاشقين تلتقي في ظل سيوف مشهورة، ومدافع مصوّبة، واتهامات متبادلة، وعداوات عنيفة. لم يولد الحب في جو شاعري، وإنما ولد في العواصف، وعاش في مهب الرياح تسقط عليه الصواعق ولا تلقى عليه الزهور!

كان أغرب ما في القصة أن العاشقين يقيمان في بيتين متجاورين في الزمالك، ولكن الأسرتين كانتا متخاصمتين، ولا تتبادلان التحية، بل لا تتبادلان كلمة واحدة. وذهب بهما الخصام إلى حد أن أغلقت كل أسرة نوافذ بيتها المطل على البيت الآخر، ولم تكتفيا بإغلاق النوافذ بل جاءتا بنجار يثبت هذا الإغلاق بالمسامير. ولكن الحب اقتلع

المسامير، واقتحم النوافذ المغلقة، وتعانق ابراهيم المناسترلي ونجوى المناسترلي وأسرة كل منهما تتبادل التراشق بالاتهامات، وتطلق الشتائم كالقنابل، وتعامل الاخرى معاملة الأعداء!

■ ■ ■

وكان والد ابراهيم هو صاحب المعالي سمير باشا المناسترلي كبير ياوران حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد. . وكان والد نجوى هو صاحب المعالي كامل باشا المناسترلي وزير الأوقاف السابق.

وكان الشقيقان في شبابهما، يضرب بهما المثل عندما يتحدث الناس عن الحب الأخوي الذي هو علاقة حلوة فيها محبة وصداقة وحنان، ومزيج من الأبوة والبنوة. وبلغ بهما هذا الحب أنهما عندما قررا أن يتزوجا أصرا على أن يتزوجا شقيقتين، وأن يقيما في بيتين متجاورين، طرازهما واحد، ولونهما واحد، ولا يفصل البيتين سور. وأصبحت حياتهما واحدة، إذا تغدت الأسرتان في بيت سمير باشا، تناولتا العشاء في بيت كمال باشا، وإذا دعي كمال باشا وزوجته لتناول الشاي في حفلة أصر على ألا يذهب إليها إلا إذا كان شقيقه سمير باشا مدعواً إليها.

وعاشت الأسرة في بحبوحة، مرتب سمير باشا مرتب وزير، ومرتب كمال باشا يصل إلى مرتب وزير من مجموع معاشه كوزير سابق وعضو في مجلس الشيوخ. وكانت الزوجتان مستحقتين في وقف كبير يتولى نظارته شقيقهما الوحيد، ويدر عليهما إيراداً كبيراً.

وتوفي الشقيق فجأة وخلا منصب ناظر الوقف!

وقال سمير باشا إنه أحق بنظارة الوقف، لأن زوجته هي الشقيقة

الكبرى، وقال كمال باشـا إنه أحق بنـظارة الوقف لأنـه هو الشقيق الأكبر.

وانضمتْ كل زوجة إلى زوجها تؤيده.

وتحولت المناقشة إلى خلاف، والخلاف إلى خصام، والخصام إلى حرب عظمى!

وانتقل النزاع إلى المحاكم الشرعية، واختـارت كل أسرة أعـظم المحـامين في مصر. ومـاد المحامـون يتدخلون حتى تحـولت الحـرب العظمى إلى حرب ذرية!

وسارعت كل أسرة تبني سوراً ضخماً يفصل بيتها عن بيت الاعداء، وأصبح البيتان اللذان لا يفصلهما سور واحد، يفصلهما سوران عاليان من أسوار القلاع!

وأصبح أي صديق لأسرة هو عدو للأسرة الاخرى. الحفلة التي يذهب إليها سمير باشا يرفض شقيقه كمال باشا الذهاب إليها. البيت الذي يدخله كمال باشا محرم على سمير باشا أن يدخل إليه. الخياطة التي تخيّط فساتين حرم سمير باشا لا تتعامل معها شقيقتها حرم كمال باشا. أسرعت كل أسرة تدهن جدران بيتها بلون جديد حتى لا يبقى البيتان متشابهين في لون الطلاء!

وتوقع الناس أن ينضم كمال باشا المناسترلي إلى حزب سعد، ما دام شقيقه سمير باشا المناسترلي هو كبير ياوران الملك فؤاد. . ولكن كمال باشا خيّب ظنونهم وسارع بالانضمام إلى حزب الاتحاد الـذي أنشأه الملك فؤاد ليحارب سعد زغلول.

ودهش أصدقاء كمال باشا لهذا التصرف الغريب. . ولكن كمال

باشا قال لهم إنه خشي أن يستغل شقيقه سمير باشا منصبه في القصر الملكي ليؤثر على القضاة الشرعيين، فيحكموا لصالحه في قضية الوقف، فسارع إلى الانضمام لحزب الملك حتى يقطع الطريق على شقيقه . .

وفعلاً حار القضاة الشرعيون بين الشقيقين صاحبي النفوذ الكبير، ولم يستطيعوا إرضاء الامام مالك والامام ابن حنبل في نفس الوقت، فكانوا يلجأون إلى تأجيل القضايا بغير إصدار حكم فيها!

وشبّ ابراهيم المناسترلي في بيته، ونجوى المناسترلي في بيتها، لا يسمعان إلّا السباب والشتائم والاتهامات في حق الأسرة الأخرى. الأسرتان تتقاذفان بإلقاء الطين، تنهشان بعضهما البعض بالاشاعات والأكاذيب. تلفقان التهم، تشوهان بعضهما بعضاً . .

وكان المفروض أن يرث الابناء عدواة آبائهم، أن تثمر فيهم بذرة الحقد والكراهية والضغينة التي زرعها الوالدان والوالدتان على مر السنين.

■ ■ ■

وذات يوم كان ابراهيم يقف فوق سطح بيته فرأى نجوى واقفة فوق سطح بيتها. ولم يكن رآها منذ كانت طفلة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها وقد أصبحت شابة، ونسي كل ما سمعه من أمه وأبيه ولم يذكر إلا أنها فتاة رائعة الجمال، حلوة التقاطيع، فيها جاذبية!

وتشجع وابتسم لها . . وفوجىء بها تبتسم له!

وتكرر صعودهما فوق السطح.

وأسرع ابراهيم يخبر محمد عبد الكريم زميله في المدرسة السعيدية بما

حدث، وجلس محمد وكتب لنجوى خطاباً غرامياً من نار!

ونقل ابراهيم الخطاب الغرامي بخطه، وصعد فوق السطح، ووضع قطعة من الحجر داخل الخطاب وقذف بها في حديقة كمال باشا، بناء على إشارة نجوى، وفوجىء ابراهيم بأن خالته زوجة كمال باشا رأته وهو يلقي قطعة الحجر فصرخت من النافذة وقالت:

- الجيران الوقحاء يرموننا بالطوب!

وأسرعت نجوى وانتزعت الخطاب من قطعة الحجر وأخفته في صدرها، وذهبت إلى أمها متظاهرة بالغضب لأنها رأت ابراهيم يلقي عليها الطوب!

وقالت زوجة كمال باشا إنها واثقة ومتأكدة من أن ابراهيم لم يلقِ الطوب على بيتها إلا بتحريض من والدته المجرمة!

وحملت زوجة كمال باشا «الطوبة» وذهبت إلى زوجها، وفي طريقها كانت الطوبة قد توالدت وأصبحت عشرات الطوب والأحجار والصخور، وأن المقصود بهذا هو قتل ابنتها نجوى!

وأسرع معالي كمال باشا المناسترلي بسيارته إلى نقطة بوليس الجزيرة وكتب مذكرة يسجل فيها هذا الاعتداء الخطير، ويطلب أخذ التعهد اللازم على شقيقه معالي سمير باشا المناسترلي بعدم تعريض حياته وحياة أسرته للخطر!

وسمع سمير باشا بأن ابنه ابراهيم ألقى طوبة على رأس ابنة شقيقه نجوى فسر كثيراً، واستدعاه وأعطاه خمسة جنيهات وهو يقول:

ـ لولا إنك ضعيف في التصويب بالطوب. . لأعطيتك عشرة جنيهات!

وعندما عرف محمد عبد الكريم بالأزمة التي أحدثها خطابه الغرامي، اعتقد أن «الطوبة» أصابت الحب الوليد فقتلته!

وفي اليوم التالي جاءه ابراهيم وهو يطير من السعادة ودفع له بخطاب وهو يقول:

ـ هذا رد نجوى. . أرسلته لي مع شقيقها الصغير فؤاد المناسترلي الطالب بالسنة الأولى بالمدرسة!

وقرأ محمد عبد الكريم خطاب نجوى فإذا به يكتشف أن خطابه أشعل في قلبها النار. . وأن الطوبة لم تقتل الحب، وإنما على العكس، كانت أشبه بالقبلة على شفتي الحبيبة الصغيرة!

واستمر العاشقان يتبادلان الخطابات سراً. . وكأنهما لم يصدقا كلمة واحدة من تهم أبويهما وأكاذيب والدتيهما.

طبيعة النفس البشرية أنها تتمرد على الاتهام الظالم، أنها تحدث في النفوس أثرها العكسي.

والحق هو المتهم الوحيد الذي لا يحتاج إلى شهود أو أدلة دفاع. إنه كالنور يخترق الاسوار، وكالهواء يقتحم القضبان.

وكذلك كان شعور ابراهيم ونجوى وفؤاد الصغير وهم يسمعون التهم تسقط من شفاه أمهم وأبيهم على عمهم وخالتهم. . ولم يجرؤ الأولاد على معارضة آبائهم. لم يجرؤوا على نقض الأحكام النهائية التي لا تقبل نقضاً ولا استئنافاً، وإنما

تصوروا أن هذا الحب المكتوم بين ابراهيم ونجوى هم تمرد على هذا الجو المحموم.

■■■

وخلع العاشقان سراً المسامير التي تثبت نوافذ غرفتي نومهما. فإذا أقبل الليل، أقفل كل منهما باب غرفة نومه بالمفتاح، وأطفأ النور، وفتح النافذة المغلقة بهدوء، وصفرا صفيراً متقطعاً، فيسرع كل منهما إلى النافذة، يقفان ساعات طويلة في ظلام دامس. كأنه لقاء بين شبحين. وقلوب المحبين لا تحتاج إلى ضوء.. القلوب المحبة تضيء بنور سحري، يستغني بها العاشق عن شعاع الشمس أو ضوء الكهرباء. تعوّدت عيونهما على الرؤية في الظلام. يتبادلان الاشارات والقبلات والأحاديث والضحكات، وتتولى الاشارات بالأيدي مهمة الكلمات واللمسات، فإذا جاء الصباح أكملت الخطابات الغرامية حديث الهوى والغرام.

■■■

وكان محمد عبد الكريم يحنو على هذا الحب ويخاف عليه. يعرف أنه حب خطر مهدد بالأعداء من كل جانب. كان أشبه بأب يشعر أن ابنته وابنه يرقصان على سلك مشدود في سيرك، وأن أي زلة قدم، قد تحطم رأس واحد منهما أو رأسيهما معاً. كان يشعر أنه يمنح هذا الحب روحه واهتمامه.. فكان يعلم أن كلماته هي التي خلقت هذا الحب، وشكلته، ونمّته، ومنحته اللسان الذي ينطق به.

وكان يسعده أن يقاوم بهذا الحب رجعية متخلفة وعقولاً ضيّقة. وكان يثيره أن الآباء الأعداء لم يشعروا أن قصة حب

خـالـدة ولـدت تحت أنـوفهم المتصـادمة، وأن حقـدهم الغبي وكراهتهم العمياء أثَّرا تأثيراً عكسياً في قلبي العاشقين الصغيـرين، ويستنتج من هذا أن الجيـل الجـديد لن يـرث من الجيـل القـديم أحقاده الدفينة ونظراته الضيقة وعداوته الساذجة وأحكامه الـظالمة. ويستلفت نـظره إلى أن الحب ينمـو في الـظلام أسـرع مما ينمـو في النور. الحب المحرم فيه لذة أكثر مما في الحب المبـاح. لو أننـا أبحنا الحب لفضـل الشـاب أن يـذهب إلى السينما عـلى أن يـذهب إلى حبيبته. أما عندما يصبح الحب معركة وصراعاً فإنـه يعطي للهَـوى طعـماً آخر، أشبـه بالمـرارة في الشراب التي تجعله ألـذ مذاقـاً، أشبه بالحرارة في الطعام فتجعله شهياً أضعاف طعمه وهو بارد.

الحب المضطهد الذي يتعرض للمقاومة يصبح له لسعـة لذيـذة في شفاه المحبين. فيه نشوته المثيرة، فيه مغامـراته السـاحرة. الحب المضطهد الذي يتلصص، وهو يتحسس طـريقه في الـظلام، يعيش أكـثر مما يعيش الحب الـذي يدخـل من الباب الملكي المفتـوح عـلى مصـراعيـه. القبلة المخـطوفـة أشهى من القبلة الممنـوحـة. اللقـاء المسروق أروع من اللقاء المبـاح، الحب الصحيح مثـل العبقريـة لا يفجرها إلا الألم الكاوي. والحرمـان هو الـطعام السحـري للغرام. وكـل ضربـة يتلقاهـا الحب في ظهره، لا تجعله ينكفىء عـلى وجهه وإنما تجعله يتقدم إلى الامام.

كـل هـذه المعـاني كـان يكتبهـا محمـد عـلى لسـان ابـراهيم في الخطابات الغرامية التي يرسلها إلى نجوى.

وكان محمد يشعر أن كلماتـه تؤثر في نجـوى، إن أشواق النسـاء تصفهـا كلمات أحبـائهن. الكلمـة الحلوة تفعـل في قلب المـرأة مـا تفعله الميـاه والهواء والشمس في الـزهرة. إنها تجعـل الزهـرة تنمو،

وتورّق، وتفتح، تمنحها ألوانها الفاتنة، تعطيها عبيرها وأنفاسها!

ولم يكن محمد يتعذب لأنه يروي الورود ولا يراها، يتعداها ولا يلمسها، إن الفنان الخالق لا يهمه أن يملك الجمال الذي يصنعه. إن البستاني لا يملك حديقة الورد التي يزرعها، ولكنه يحب كل وردة فيها أكثر من مالك الحديقة كلها.

وتطور حب ابراهيم ونجوى مع الأيام: لم يكتفيا بالنظرات في الظلام، ولا بالاشارات فوق السطح، ولا بالخطابات الغرامية التي يكتبها محمد عبد الكريم.

واشترى ابراهيم سلماً من الحبال له خطاف، كان يلقيه فوق السور بعد منتصف الليل، فينغرس الخطاف في أعلى السور، ويصعد ابراهيم إلى السور، ثم يسحب السلم، ويلقيه إلى الناحية الاخرى في حديقة بيت نجوى، ثم يهبط على السلم حيث تنتظره حبيبته، وقد ارتدت ملابس النوم، وغافلت أمها وأباها، وقفزت من نافذة غرفتها إلى شرفة مجاورة، ومشت على أطراف أصابعها تحمل شبشبها في يدها، وتكتم أنفاسها، إلى أن تصل إلى سور الحديقة.

وكان هذا اللقاء المثير يتم ليلة السبت، لأن يوم الأحد هو إجازة مدرسة الليسيه التي تذهب إليها نجوى..

وكان محمد عبد الكريم يعرف بهذا الموعد الاسبوعي الخطر، وكان لا يستطيع النوم في ليلة السبت هذه. ويبقى في فراشه ساهراً ينتظر الصباح ليطمئن من ابراهيم في المدرسة على أن جيوش الأعداء لم تضبط العاشقين في مغامرتهما المثيرة.

■ ■ ■

وفي صباح أحد أيام الآحاد، ذهب محمد عبد الكريم إلى المدرسة السعيدية، وتلفت في حوش المدرسة يبحث عن صديقه ابراهيم فلم يجده. ودق الجرس معلناً بداية الدروس ولم يحضر ابراهيم. وجلس محمد خلف درجه في الفصل يترقب باب الفصل في قلق ولم يحضر ابراهيم. كان يحاول أن يطمئن نفسه بأنه لا يمكن أن حادثاً وقع لابراهيم، أن يكون والد نجوى أو أمها ضبطه في حديقة البيت، لو وقع مثل هذا الحادث لركب ابراهيم سيارته وذهب إلى محمد في بيته في شبرا يبلغه ما حدث، ويستشيره فيما يفعل في هذه الأزمة الخطيرة كما اعتاد أن يستشيره في الازمات الصغيرة. ولكن لو أن والد نجوى ضبط ابراهيم فهل يتركه على قيد الحياة؟ إن الصورة التي في رأس محمد لكمال باشا المناسترلي أنه وحش وسفاح. ما الذي يمنع كمال باشا أن يطلق الرصاص على ابراهيم ويقول إنه تصور أنه لص جاء يسطو على البيت في الظلام؟ ما الذي يمنع كمال باشا الذي اعتبر الطوبة التي ألقاها ابراهيم في حديقته جريمة، محاولة اغتيال، أن يمسك بإبراهيم ويسلمه للبوليس ويقول انه جاء محاولاً قتله!؟ هؤلاء الباشوات هم باشوات في خصوماتهم، يضخمون كل شيء، ويبالغون في كل شيء. لا يعرفون في خلافاتهم مروءة، كأن الألقاب لم ترفعهم عن الدنايا، وإنما عزلتهم عن مبادىء الشرف والأخلاق.

وأحس محمد أنه يكره كل الباشوات الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم. إن الناس العاديين خصوماتهم عادية. قد يتشاجرون ويتماسكون ويتناطحون ولكنهم لا ينزلون إلى ما ينزل إليه الباشوات من تدبير المكائد وتلفيق المؤامرات..

ووجد محمد نفسه طرفاً في المعركة. كأن كمال باشا ضبطه هو، وكأنه أطلق عليه الرصاص هو، وكأن قصة هواه هو. هي التي غرقت في بحر من الدم!

وبينما كان محمد في دوامة هذه الافكار أقبل سلامة أفندي ضابط المدرسة يقول إن سعادة البك الناظر يريد الطالب محمد عبد الكريم في مكتبه!

وسقط قلب محمد في حذائه. لقد أمضى خمس سنوات في المدرسة السعيدية ولم يدخل مكتب الناظر، الناظر لا يستدعي طالباً إلا لحادث خلل أو جريمة خطيرة نكراء!

ومشى محمد يتعثر خلف سلامة أفندي ضابط المدرسة، وفوجىء بسلامة أفندي يسأله:

ـ هل عملت حاجة؟

قال محمد في رعب:

ـ لم أعمل أي شيء، لم أرتكب أي مخالفة، لماذا تسألني هذا السؤال؟

قال سلامة أفندي:

ـ إن سعادة الناظر قال لي هات لي محمد عبد الكريم فوراً!

وشعر محمد أن ساقيه لم تعودا تقويان على حمله. إن مخاوفه كانت في محلها، لا بد أن كمال باشا المناسترلي ضبط ابراهيم في بيته مع ابنته نجوى. لا بد أن البوليس قبض على ابراهيم. لا بد أن ابراهيم اعترف بالحقيقة كلها، وبأن محمد عبد الكريم هو

الـذي يكتب له الخطابات الغـرامية إلى نجـوي . وبـالـطبـع لن يجـرؤ القـانون عـلى المسـاس بـإبراهيم المنـاسترلي ابن كبـير ياوران الملك، وإنما سيكون محمد عبد الكـريم هو كبش المحـرقة. سيقـدمونـه إلى محكمـة الجنايـات بتهمة إفسـاد قاصر. . سيقـول وكيل النيـابـة أن أولاد الفقـراء يحـرضـون أولاد الأغنيـاء والكبـراء عـلى الفسق والفجور!

ودخل محمد إلى غرفة الناظر وهو يتعثر في خطواته . .

ورفع ناظر المدرسـة وجهاً متجهـماً من الأوراق التي كان يقـرؤها وقال:

ـ هل أنت محمد عبد الكريم؟

وخرجت كلمة «نعم» متعثرة بين شفتي محمد المرتعشتين.

وتأمله ناظر المدرسـة من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فـوق ثم قال:

ـ إن معالي كمال بـاشا المنـاسترلي وزيـر الأوقاف السـابق زارني الآن في مكتبي.

ومـا كاد يسمـع محمد هـذه الجملة حتى أحس بأن الغـرفة كلهـا تدور أمام عينيه، وحاول أن يتمـاسك ويتحكم في أعصـابه عنـدما سمع ناظر المدرسة يقول:

ـ وكمال باشا ينتظر أن تذهب بعد انتهاء الدراسة إلى مقابلتـه في داره بشارع الجبلاية رقم ٧ بالزمالك.

وكـاد محمد يسقط عـلى الأرض مغمياً عليـه من هول المفـاجأة.

تأكد على الفور أن والد نجوى عرف بأمر الخطابات الغرامية التي يكتبها باسم ابراهيم . .

ولاحظ ناظر المدرسة نظرات الجزع والرعب في عيني محمد رغم محاولاته إخفاءها فقال له :

ـ ما لك خائف؟

ما لي؟ إذا لم أخف من كل هذا الهول فممَ أخاف؟ ألا يتصور ناظر المدرسة المصائب التي سوف تسقط على رأسي؟

وعاد الناظر يقول له : ما لك خائف، إن هذا شرف عظيم! شرف عظيم لك وشرف عظيم للمدرسة السعيدية!

هل جنّ ناظر المدرسة؟ أي شرف عظيم أن يقدم طالب في المدرسة السعيدية إلى المحكمة بتهمة افساد قاصر، وكتابة خطابات غرامية مخلّة بالآداب وتخدش الناموس والاعتبار كما يقول قانون العقوبات!

وفهم محمد أن ناظر المدرسة لا يعرف سبب استدعائه إلى بيت كمال باشا المناسترلي، وخشي أن يفصح عن سر فزعه، فقال للناظر:

ـ إن هذه أول مرة في حياتي أقابل فيها أحد الباشوات، وهذا سبب اضطرابي!

وضحك ناظر المدرسة وقال:

ـ إن كمال باشا المناسترلي رجل ظريف جداً!

ظريف جداً؟ إن محمد سبق أن قرأ وصفاً لعشماوي الذي

يتولى تنفيذ أحكام الاعدام بأنه رجل ظريف دائماً خارج غرفة المشنقة، وسبق أن قرأ في القصص أن هولاكو الذي كان يذبح مئات الألوف كان من أخف الناس دماً!

وحاول محمد أن يبتسم لخفة دم كمال باشا ولكن ابتسامته خانته!

ومضى ناظر المدرسة يقول:

- إن كمال باشا المناسترلي جاءني بطلب أن يتولى الشيخ عبدالرؤوف مدرس اللغة العربية إعطاء دروس خصوصية لابنه فؤاد المناسترلي التلميذ بالسنة الأولى في المدرسة، نظراً لضعفه الشديد في هذه المادة، ولكن الشيخ عبد الرؤوف اعتذر للباشا من عدم قبول هذه المهمة، نظراً لكثرة أعماله، ورشحك أنت لتتولى مساعدة فؤاد المناسترلي في دروس اللغة العربية.

وتنفس محمد عبد الكريم الصعداء، وأحس بروحه تصعد من حذائه وتستقر في قلبه من جديد. وعاد الدم يجري في عروقه، وشعر بأن كل عضو من أعضاء جسمه يعزف نشيداً موسيقياً!

ومضى ناظر المدرسة يقول:

- وسيعطيك الباشا جنيهاً في الشهر مقابل هذا العمل!

وشهق محمد وقال بصوت مبحوح:

- جنيه في الشهر؟!

وتصور ناظر المدرسة أن محمد يسترخص هذا الأجر فقال له:

- إن هذا المبلغ ليس مرتباً إنما هو مصاريف المواصلات!

وبقي فم محمد مفتوحاً من الدهشة إلى أن قال له ناظر المدرسة:

- الآن عد إلى فصلك. وأرجو أن تثبت أنك أهل لثقة المدرسة!

واستدار محمد عبد الكريم، ونسي أن يرفع يده بالتحية، ونسي أن يشكر الناظر على هذه الثقة، ونسي أن يعرف مكان باب الخروج حتى وجد نفسه يصطدم بالجدار، فيعود أدراجه إلى الباب!

خرج محمد عبد الكريم من غرفة ناظر المدرسة وفمه لا يزال مفتوحاً من الدهشة. أحس كأنه انتقل من مقصلة الاعدام إلى كرسي العرش في لحظة واحدة. لم تدهشه نجاته من تهمة التحريض على إفساد قاصر، ولم يدهشه اختياره لمهمة لا يقوم بها إلا الاساتذة، وإنما الذي أدهشه المبلغ الكبير الذي هبط عليه من السماء!

جنيه؟ يعني مائة قرش! يعني اثني عشر جنيهاً في العام. يعني مرتب أبيه لمدة أربعة شهور. يعني ١٢٠٠ قرش صاغ! يعني ٢٤٠٠ طابع بريد! يعني ٢٤٠ تذكرة لدخول المعرض الزراعي الصناعي.

إنه طوال حياته لم يلمس جنيهاً بيده! إنه لن يلمسه فقط، بل سيضعه في جيبه ايضاً، سيملكه، سيتصرف فيه. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل بهذه الثروة الهائلة؟ سوف يشتري حذاء جديداً بدل حذائه المليء بالثقوب. سوف يشتري بذلة جديدة سوداء، بدل بذلته الوحيدة التي كانت سوداء منذ خمس سنوات،

وأصبحت الآن رمادية بفعل تراب الزمن؟ سوف يذهب إلى المعرض الزراعي الصناعي. سوف يدخل حديقة الملاهي. سوف يتفرج على الراقصة نعمت فهمي التي كان يحلم برؤيتها. سيمتع عينيه بجسدها العاري الذي طالما سمع أوصافه المثيرة من زملائه السعداء، بقدمها وهي تضرب الأرض وكأنها تقبلها بصوت مسموع، بيديها المفتوحتين وكأنها تعانق كل رجل يشهد رقصها، ببطنها وهي تدور وتدور معها عيون الرجال وأشداقهم وشهواتهم.

سوف يبقي من الجنيه بضعة قروش يشتري بها الحب، الحب الذي يصفه دون أن يراه، ويحلم به دون أن يلمسه، ويغنّي له دون أن يستمتع به.. حب حقيقي من لحم ودم لا من حبر وورق!

وأحس محمد فجأة بنوبة من تأنيب الضمير. إنه نسي في غمرة فرحه بهذه الثروة المفاجئة ما كان يجب ألا ينساه! نسي أمه. نسي أن يفكر في أن يشتري لها ثوباً جديداً بدل الثوب البالي الممزق الذي لم تستبدله منذ حصل على شهادة الابتدائية. نسي لونه الحقيقي لكثرة ما تغيرت ألوانه مع الزمن. ومن كثرة ما فيه من رقع مختلفة الألوان والأشكال والأحجام. يا له من ولد عاق. يذكر جسد الراقصة العارية التي لم يرها، وينسى جسم أمه الذي ينخر فيه البرد من خلال ما في ثوبها من ثقوب؟ كيف أعمته الثروة المفاجئة عن رؤية واجبه نحو أمه وأبيه؟ ألأن المال يغيّر الناس؟ ألأن أوراق البنكنوت تمتص الانسانية من القلوب؟ ألأن هؤلاء الأغنياء القساة كانوا بشراً مثلنا، قبل أن يجيئهم المال، فينتزع فضائلهم، ويغطي عيونهم فلا يبصرون، ويسد آذانهم فلا يسمعون، ويحجر قلوبهم فلا يحسون ولا يشعرون؟.

لقد كان يتصور من قبل أن المال هو العين التي يبصر بها الانسان، هو العصا السحرية التي تحول الخرائب إلى قصور، وتجعل من التعساء الأشقياء سعداء خالدين! وها هو الجنيه المنتظر يعميه. إن هذا الجنيه يمكن أن يطعم والديه لحماً ثلاث مرات كل أسبوع. يمكن أن يسمح لأبيه بالعودة إلى التدخين الذي يعذبه اضطراره إلى الاقلاع عنه. يمكن أن يشتري لأبيه وأمه سريراً ينامان عليه، فقد نزلا عن سريرهما لمحمد عندما حصل على شهادة الكفاءة، وأصبحا ينامان على المرتبة المفروشة على الأرض. وعندما اعترض محمد على هذا قالت له أمه:

- إن ابراهيم المناسترلي ابن الباشا يجيء لك في غرفة نومك، فلا يجوز أن يراك نائماً على الأرض!

وقرر محمد أن ينسى الراقصة نعمت فهمي، ومدينة الملاهي، والمعرض الزراعي الصناعي، والبذلة الجديدة، والحب الموعود، ويسلم لأمه الجنيه في نهاية كل شهر لتفعل به ما تشاء. سيخصم من الجنيه ثلاثين قرشاً أجرة المواصلات إلى بيت كمال باشا المناسترلي. كلا! لن يخصم الثلاثين قرشاً. سيعطي لأمه الجنيه كاملاً. سيمشي على قدميه إلى بيت كمال باشا. إن المسافة بين ترام الجيزة الذي يستقله بتذكرة الاشتراك وبيت الباشا هي نصف ساعة مشياً على الاقدام. فليوفر الثلاثين قرشاً لأمه، وليعتبر المشي رياضة جميلة على شاطيء النيل!

كانت هذه الخواطر ترقص في رأس محمد وهو في طريقه من غرفة ناظر المدرسة إلى حجرة فصل سنة خامسة أدبي. وعندما دخل الغرفة، وجلس في مقعده، لم يستطع أن يتابع الاستاذ توفيق مسيحة، أستاذ التاريخ، وهو يشرح إنتصارات نابوليون

بونابرت. كان لا يزال يعيش في دوامة الجنيه المنتظر، وكان يترقب انتهاء الدراسة بفارغ صبر لكي يسرع ويتصل تليفونياً بصديقه ابراهيم المناسترلي ويبلغه المهمة التي كلفه بها ناظر المدرسة في بيت حبيبته نجوى.

وما كاد الجرس يدق حتى أسرع محمد واتصل بابراهيم تليفونياً وأخبره بما حدث، فتهلل صوت ابراهيم وقال على الفور:

ـ هذا نبأ عظيم! إن معناه أنك تستطيع أن تحمل إلى نجوى رسائلي الغرامية بدلاً من فؤاد الصغير.

وامتقع وجه محمد واحتد غاضباً وقال:

ـ أنا لا أقبل على كرامتي أن أقوم بوظيفة ساعي الغرام بين عاشقين إنني أقبل أن أكتب خطاباتك الغرامية لنجوى، ولكن كتابة الخطابات شيء، وتوصيل الخطابات شيء آخر!

وتراجع ابراهيم أمام غضب محمد وقال له:

ـ أنت تعلم أن فؤاد شقيق نجوى هو الذي يحمل إليها هذه الخطابات. ويعرف أنني أحبها وأنها تحبني. . وقد قلت لي مرة إنك تحرص على ألا تكتب في خطاباتك أشياء لا يجوز أن يطلع عليها شقيقها الصغير!

قال محمد في استعلاء:

ـ إن فؤاد حر في أن يقوم بهذه المهمة، ولو كانت لي أخت لما قبلت أن أحمل لها خطابات غرامية، كنت أذبحها. .

وقال له ابراهيم في استغراب:

ـ ولكنـك تقبل أن تكتب خـطابات غـرامية لعشر فتيـات، وكل فتاة من هؤلاء لها أخ. . فكيف تقبل لهن ما لا تقبله لأختك؟

وأحـرج محمد عبـد الكـريم. أحس فعـلاً أنـه يكتب بـأسلوب القـرن العشرين، ويفكـر بـأسلوب القـرن الثـامن عشر، ولكنـه لم يستـطع أن يفسر هذا التنـاقض الذي لم يتـوقف لحظة ليفكـر فيـه، وعاد يكابر ويقول:

ـ إن فؤاد المنـاسترلي حـر في أن يقوم بهـذه المهمـة، ولكن يجب أن أحتـرم البيت الـذي أدخله. يجب أن أحـافظ عـلى ثقـة أهـل البيت الذين ائتمنوني عليه!

وضحك ابراهيم ساخراً وقال:

ـ أنـا أعذرك! إن صـراعـاً في داخلك بـين حيـاتـك في جـزيـرة بدران وحياتك في المدرسة السعيديـة. إنك تكتب بـأسلوب باريسي وتفكر بأسلوب الصعيـد المصري. . إنـك بدأت تغار على نجـوى قبـل أن تدخـل بيتها. . فمـاذا ستفعل بعـد أن تدخـل البيت. . ؟ أخشى أن تفعل بي نفس ما يفعله عمي كمال باشا!

ولم يـرد محمـد عـلى هـذا السؤال، فـإنـه لم يكن يعلم مـاذا سيفعل؟

وعنـدما ذهب إلى بيت كمـال باشـا المناسترلي فوجىء بـالبواب يقول له:

ـ إن الباشا غير موجود. .

واستدار محمد لينصرف حزيناً مقهوراً.

واستوقفه البواب وقال له:

ـ ما اسمك؟

قال: محمد عبد الكريم.

قال البواب: نعم! محمد عبد الكريم! إن الباشا أصدر تعليماته أن تنتظره في الصالون..

وتقدم البواب محمد، وصعد درجات سلم رخامي واسع، ودق جرساً فوق باب زجاجي مطعم بالنحاس، وأقبل سفرجي نوبي، وتسلم محمد عبد الكريم كأنه يتسلم طرداً باسم الباشا، ومشى أمامه في صالات واسعة مليئة بالتحف والصور الفنية الرائعة، وغاصت قدما محمد في السجاجيد الفاخرة، ثم وجد نفسه في صالون كبير، ووقف حائراً بين المقاعد المذهبة، الموشاة بالحرير، والطنافس البراقة، وتركه السفرجي وانصرف.

ووقف محمد يتأمل المقاعد المذهبة الأنيقة، وكأنه يشك في أن هذه المقاعد الانيقة معدة للجلوس، أم هي مخصصة للزينة، والتفرج عليها من بعيد.

وقبل أن يختار محمد المقعد الذي يجلس فيه سمع خلفه وقع أقدام رقيقة، وحفيف ثوب، وملأ أنفه عطر خلاب، والتفت خلفه فوجد فتاة لم تقع عينه على امرأة مثلها.. رائعة الحسن، كممثلات السينما اللواتي يشهد صورهن في المجلات التي يقرؤها مجاناً من زملائه، شعر في تلك اللحظة أن عينيه لا تكفيانه ليمتلىء بكل ما يشهده من جمال وفتنة وسحر، وتمنى لو كانت له ألف عين ليستوعب بها كل هذا الجمال.

ورأى على شفتي الفتاة ابتسامة حلوة. وتردد، هل يتقهقر إلى الوراء، أو يتقدم إلى الامام؟

ثم رآها تمد يدها إليه وتقول:

ـ أنا نجوى المناسترلي!

وفتح محمد فمه في دهشة. بحث عن لسانه فلم يجده. بحث عن كلمة يقولها فلم تسعفه الكلمات. وبعد جهد جهيد، وجد لسانه، وخرجت كلماته قلقة حائرة مترددة متلعثمة:

ـ مستحيل.. مستحيل.. لا يمكن أن تكوني أنت هي.. إنني أعرف نجوى المناسترلي.. أعرفها جيداً.. أعرفها منذ سنوات.. أنت.. لست نجوى المناسترلي!

تراجع محمد وهو يرى نجوى أمامه!

نجوى؟ هذا غير معقول. إن الفتاة التي يراها أمامه أجمل ألف مرة من الصورة الفوتوغرافية التي يحملها زميله ابراهيم المناسترلي في جيبه. الصورة التي رآها هي صورة فتاة بريئة هادئة صغيرة. ونجوى التي أمامه تضج بالأنوثة والإثارة. الصورة تظلمها كثيراً لأنها لم تستطع أن تلتقط المرأة فيها. إنها لا تحوي إلا البروفيل من وجهها. ولكنه يرى جسمها كله لأول مرة، جسماً مخروطاً من المرمر، ينبض بالفتنة والحياة. كل شيء فيها يشع ويضيء مثل القرط الماسي الذي في أذنها، مثل الخاتم ذي الفص الياقوت في أصبعها، مثل السوار المرصع في رسغها. الصورة الباهتة التي في جيب ابراهيم عجزت أن تظهر لون شعرها الذهبي العجيب، إنها عفريتة الصورة وليست أصل الصورة!

لقد رأى محمد من قبل خلخال الذهب في سيقان النساء، وكردانات الذهب في صدورهن، وأساور الذهب في أيديهن. ولكن لون الذهب في شعر نجوى مختلف. لعل هذا هو الذهب الأصلي عيار ٢٤ قيراط. إنه ذهب يلمع فعلاً. إنه يسمع رنينه فوق رأسها!

لقد رأى من قبل صورة الراقصة نعمت فهمي على غلاف مجلة «الصباح». الراقصة التي وصفها كل زملائه في كل كراريس الانشاء، الراقصة المثيرة التي يقولون أن شيئين لا تستطيع أن تقول لهما لا: هما الكأس والرجل! وتصور يومها أن نعمت فهمي هي أجمل امرأة في الدنيا، ولكنه يرى الآن فقط أجمل امرأة في الدنيا، يراها بدمها ولحمها، وليس على غلاف مجلة «الصباح».

ودعته نجوى أن يجلس، فلم يسمع دعوتها. كان مشغولاً في المقارنة بينها وبين الراقصة نعمت فهمي التي يقولون أن شيئين لا تستطيع أن تقول لهما لا: هما الكأس والرجل، وبين نجوى التي يقول كل شيء فيها لا ونعم في وقت واحد! كأنها تناديه وترفضه، تدعوه وتطرده. إنها ترتدي كل ملابسها وتبدو عارية. إنها لا تتحرك وكل شيء فيها يرقص! لقد كتب ألوف الخطابات الغرامية للفتيات، أحس وهو يكتب كأنه يتحدث إليهن، يلمسهن، يقبلهن، يعانقهن. ولكن هذه هي المرة الأولى التي يجلس فيها مع فتاة واحدة في غرفة واحدة، وأي فتاة! إن كل الفتيات اللاتي رآهن قبل ذلك يرتدين الملايات اللف في حواري شبرا، أو يركبن عربة الحريم في عربات الترام، أو يختفين داخل السيارات الأنيقة التي تنهب الأرض نهباً. ولكن نجوى مختلفة عنهن جميعاً. إنها ليست مخلوقة من طين، إنها مخلوقة من ورد، عيناها تختلفان

عن عيـون النسـاء الـلاتي يـراهن وراء البـراقـع أو تحت الحجـاب الشفـاف. إن لونهما غـريب، لا هـو أخضر ولا هـو أزرق ولكنهـما الأزرق والأخضر معاً. أشبه بمياه النيل، فيهـما صفاء وعمق، فيهـما هدوء وسحر، فيهما شيء دافىء، كأنهما فـراش دافىء مريـح تستلقي فيه النظرات. .

وكررت نجوى عليه الدعوة بأن يجلس. .

واحتـار كيف يجلس. . هل يخـرج منديله الأبيض ويضعـه تحت مقعده ليحفظ الحرير الثمين من بنـطلونه القـديم؟ وإذا به يـرى في عينيها نظرة آمرة تنوّمـه تنويمـاً مغناطيسيـاً فيجلس حيث أشارت أن يجلس. .

وسمعها تقول في صوت دافىء:

ـ إن أبي يعتـذر إذ لم يستطع انتـظارك لأنـه استدعي لاجتمـاع هـام، وكلفني بأن أقـابلك، وأتفق معك عـلى أن تحضر يوميـاً لمـدة ساعة لتشرف على دروس أخي فؤاد في اللغة العربية.

وسكتت نجوى، ولم تذكـر شيئاً عن الجنيـه، وأحس محمد بـأنه في معبـد للجمال، وليس من الـلائق ذكـر المـادة والنقـود في معبـد الجمال، وأحس بأنه لو أثـار مسألـة الجنيه فكـأنه يـرتكب الاثـم في مكان مخصص للتعبد والصلاة.

ورآهـا تتـأمله طـويـلاً، وإن كـانت تحـاول أن تخفي نـظراتهـا، ولاحظ أنها تنظر إلى بنطلونه أكثر ممـا تنظر إلى وجهـه. وشعر محمـد بالحرج. لعلها تحصي عدد البقـع التي في البنطلون. لعلهـا لاحظت الخيـاطة التي قـامت بها أمـه عنـدمـا طـالت قـامتـه فـاضـطرت إلى تـوسيعـه. . ووجـد نفسـه بغـير إرادة ينـظر إلى بنـطلونـه، فـأحس

بالذعر. لقد لاحظ أنه نسي أن يقفل أزرار بنطلونه. نسي في هرولته من دورة المياه في المدرسة إلى بيت كمال باشا المناسترلي أن يقفل البنطلون. مشى في عدة شوارع ومر بعدة ميادين وبنطلونه مفتوح، ولم ينبهه أحد إلى هذه الفضيحة التي تسير على قدمين. وسارع محمد يغلق البنطلون، وقد احمر وجهه، وتساقط منه عرق الخجل.

ولاحظت نجوى ورطته فانفجرت ضاحكة وهي تقول:

ـ إن أخي فؤاد ينسى دائماً قفل بنطلونه. . يظهر أنها موضة بين طلبة المدرسة السعيدية أن يتركوا بنطلوناتهم مفتوحة!

كانت ضحكتها حلوة. أحس أنها أشبه بمنديل يمسح عرقه، أشبه بكولونيا ترشها فوق رأسه ليفيق من حالة الفزع التي أصيب بها. ثم عاد يضطرب من جديد، فقد شعر أن هذه الضحكة هي أصابع نجوى تقفل أزرار بنطلونه!

وعادت نجوى تضحك وتقول:

ـ إنني أشكرك على أنك تركت بنطلونك مفتوحاً! إنه دليل على اهتمامك بالاسراع للحضور إلى موعد أبي. يبدو أنك فيلسوف. إن زوج ابنة خالي فيلسوف مثلك، ينسى باستمرار. كان كل مرة يشتري تذكرتين للسينما ويصحب زوجته، وعند باب السينما يكتشف أنه نسي التذكرتين في البيت، ويعود ليجيء بالتذكرتين، ولا يصل إلى السينما إلا قبل نهاية الفيلم. أو ينسى أن يعود على الإطلاق لزوجته التي تنتظره عند باب السينما! وغضبت زوجته من نسيانه التذاكر فوعدها أن لن ينسى التذاكر. وطوال اليوم كان يكرر كلمة التذاكر. . التذاكر. . التذاكر».

وطلب من زوجته أن تنتظره على باب السينما في موعد محدد. وقال لها أنه سيذهب من مكتبه إلى بيته ليغيّر ملابسه ويلحق بها على باب السينما. وهددته زوجته بالطلاق إذا نسي الموعد. وفي الموعد المحدد وصل الزوج متهللاً ومعه التذكرتان، وسرت زوجته من أنه لم ينس لأول مرة في حياته، ودخلا السينما، وخلع الزوج معطفه، وإذا بزوجته تصرخ فزعة. إنه صحيح لم ينس التذاكر، ولم ينس موعد السينما، ولكنه نسي أن يرتدي البنطلون!

وضحك محمد ضحكة أقرب إلى البكاء!

ولكن نجوى قطعت ضحكته بقولها: والحمد لله إنك لم تنس ارتداء البنطلون!

واحمر وجه محمد من جديد، وأدهشه أن نجوى تتحدث في هذه الموضوعات التي يعتبرها شائكة دون أن يحمر وجهها. دون أن يبدو عليها أنها تتحدث في موضوع كان محمد يعتقد أنه من الممنوعات التي لا يجوز أن تتحدث فيها النساء.. فما بالك بالفتيات؟

لم تضايقه هذه الجرأة، على العكس أحس بأنها أزاحت الكلفة التي كان يحس بها، بدأ يتمالك نفسه. يتحكم في أعصابه المضطربة. ويبدأ لأول مرة يضحك من كل قلبه على نفسه!

■ ■ ■

وأحس محمد لأول مرة أنه يستريح في المقعد الذي جلس فيه. كان في أول الامر يشعر بغربة عن المقعد. كان يتكلف الجلوس، يشعر كأن الكرسي مشدود، وأعصابه مشدودة في الكرسي، كان

يخشى أن يتحرك في أكثر من السنتيمترات التي يشغلها، فقد كان طوال الوقت جالساً على طرف المقعد. أما بعد ضحكات نجوى، فقد تزحزح إلى داخل المقعد، وملأه بمؤخرته، واقتضى الضحك أن يتراجع بظهره إلى مسند الكرسي. وما كاد محمد يحس بهذه الراحة حتى فاجأته نجوى بقولها:

- عندما أخبرني أبي بأن ناظر المدرسة اختارك أنت أردت أن أراك. لقد سمعت عنك كثيراً. أنا أعرف عنك كل شيء. أكثر مما تتصورا

وعندما سمع محمد قول نجوى أنها تعرف عنه كل شيء مات في مقعده. أحس أن قلبه يتوقف. أراد أن يشهق فلم يستطع، أراد أن يستفسر فلم يجد لسانه، أراد أن يفكر فأحس أن عقله مات مع كل أعضاء جسمه. إن صديقه ابراهيم لم يخبره أن نجوى تعرف شيئاً عنه، أي شيء. إنها تقول إنها تعرف كل شيء، وأكثر مما يتصور، ترى ماذا تعرف؟ . . .

وتعمد ألا ينظر إلى عينيها حتى لا تتسلط عليه بقوة جمالها، ونظر إلى سجادة الغرفة وقال:

- إن سعادة البك الناظر أخبر طبعاً معالي الباشا بما سمعه عني من الشيخ عبد الرؤوف مدرّس اللغة العربية!

ومدت نجوى يدها إلى العقد الذي يحيط بجيدها تلعب بحباته وتقول:

- إنني لم أعرف رأي الشيخ عبد الرؤوف.. ولكن أعرف رأي الشيخ ابراهيم!

وظهـرت على وجـه محمد عـلامـات البـلاهـة، فمضت نجـوى تبتسم وتقول:

ـ أقصـد ابـراهيم ابن خـالتي! إنـه أخـبرني أنـك خبـير في شؤون الحب. . وأنا يعجبني الرجل الخبير!

وتلعثم محمـد. أيقول لهـا إنها أول فتاة تحـدث إليها في حيـاتـه؟ لو قال لها الحقيقة فسوف يفقدهـا، وهو لا يـريد أن يفقـدها، ولـو كـذب عليها فسـوف تكتشف مع الـوقت أنه مبتـدىء في شؤون الهوى والغرام، ورأى أن يحتمي بالصمت فسكت. .

وعادت نجوى تقول:

ـ يعجبني العـالم المتـواضـع! العلماء عـادة لا يقـولـون أنهم علماء. والجهلاء هم الذين يدعون أنهم علماء! أريـد أن تحدثني عن تجـاربك. أي أنواع النساء تفضـل؟ السمراء أم الشقـراء؟ الطويلة أم القصـيرة؟ المصرية أم الأوربية؟ المرأة الساخنة أم المرأة الباردة!

وذهل محمد أن تسأله ابنة بيت من أكبر البيـوتات في مصر هـذه الأسئلة! وتسأله كـل هذه الأسئلة في ربـع الساعـة الأول من لقائـه بها. . ترى أي نوع من الأسئلة ستسألها له الـراقصة نعمت فهمي إذا جلس معهـا في غرفة واحدة؟ وسأل نفسه: لماذا تسمي نجـوى صديقه ابـراهيم «الشيخ ابـراهيم»، هل في الخـطابات النـارية التي يكتبهـا له مـا يجعله يبدو شيخاً؟ هل قفـزه مـرة كـل أسبوع عـلى السور يدل على أنه شيـخ؟ هل القبـلات التي يطبعهـا على شفتيهـا تضعـه في زمرة المشـايخ؟! هـل كـل هـذا الهـوى العنيف لا يكفي نجـوى ولا يعجبها وتعتبـره هوى أصحاب الفضيلة أعضاء هيئـة كبار العلماء؟!

أي نـوع من الحب تريـده هـذه الفتـاة الصغيـرة التي لم تتجـاوز العشرين ربيعا؟!

وتذكر محمد أنه يكتب أسبوعياً لعشر نساء، فقال في هدوء:

ـ إن رأيي لن يعجبك!

قالت نجوى في صوت حزين وكأنها ملكة تتنازل عن عرشها:

ـ أنا أعرف رأيك.. إنك تحب السمراء القصيرة الهادئة!

وذكرت نجوى كل أضداد صفاتها.

وكـان في استـطاعـة محمـد أن يقـول لهـا أنـه يفضـل العكس، فيعيدها إلى عرشها من جديد، ولكنه قال:

ـ إنني لا أستطيع أن أحب امـرأة واحـدة! السمـراء لا تكفيني وحدها. لا بد من شقراء الى جوارها. المصرية وحـدها لا تـرضيني لا بد من أوربية لتكمـل نقصها! المـرأة الساخنـة لذيـذة في الشتاء ولكننا في الصيف نهفو إلى «الايس كـريم»! كل امـرأة فيها ميـزات معينة، فيها نكهة مختلفة! إنني أحب عشر نساء في وقت واحد..

ونـظرت نجوى نحـو محمـد بـإعجـاب وكـأنها تلتقي لأول مـرة بكازانوفا جديد!

ومضى محمد يقول بخبث:

ـ وحـاولت كثيراً أن أخلص لامـرأة واحدة فلم أستـطع. المـرأة كـالفاكهـة، هل يمكن للرجـل أن يعيش على نـوع واحد من الفـاكهة؟ المرأة كالـطيور. هنـاك امرأة مثـل الحمامـة، وامرأة مثـل الفرخـة،

وامرأة مثل الديك الرومي، وامرأة مثل الأوزة، وامرأة مثل البطة! والرجل يجب أن يغير ويبدل، لا يستطيع أن يأكل الفراخ كل يوم، ولا يستطيع أن يأكل الأرانب كل يوم!

وخشي محمد أن تسأله نجوى عن طعم هذه اللحوم والفرق بينها، فإنه لم يسبق أن ذاق في حياته سوى اللحم والأرانب في المناسبات السعيدة! ولكن نجوى لم تسأله فقد كانت مبهورة بحديث دون جوان الجديد!

وأراد محمد أن يهرب من هذا الموضوع الشائك فبدأ يتحدث عن حبيبها ابراهيم، ولكن نجوى ألحت عليه أن يعود إلى الحديث عن تجاربه العديدة مع النساء!

واضطر محمد أن يقص عليها قصة كل زميل من زملائه العشرة الذين يكتب باسمهم الخطابات الغرامية، ويبالغ فيها، ويضيف إليها، ويصف مغامرات لم تقع، وأحداثاً لم تحصل. وعندما وصل إلى قصة ابراهيم معها سارع وغيّر ملامحها حتى بدت قصة مختلفة كل الاختلاف عن قصة نجوى!

وتركها محمد وهي مبهورة بما تسمع، وانصرف وهي تلح عليه ألا ينسى أن يحضر في نفس الموعد ليبدأ دروسه مع أخيها فؤاد وهي تقول:

ـ سوف انتظرك غداً.. لا تنس الموعد. ولا تنس أن تغلق البنطلون!

■ ■ ■

وخرج محمد مذهولاً بما فعل! لم يعرف ما الذي جعله يكذب

كل هذه الأكاذيب؟ شعر بتأنيب الضمير، كأنه أشبه بالمحتال الذي يدّعي صفة ليست له. ولكنه أحس بأنها كانت الطريقة الوحيدة ليقاوم هذه الفتنة الطاغية. . ماذا يفعل الرجل المجرد من كل سلاح عندما يواجه من يحمل جميع الاسلحة الفتاكة في العالم؟ إما أن يستسلم أو يحتال عليه، وقد اختار محمد الطريق الثاني، الطريق الذي ورثه من أجداده الفلاحين عندما كانوا يواجهون الطغاة المسلحين، وهم عزّل من السلاح.

كان الفلاح يحتال على الاقطاعي ليعيش معه. ويحتال على الباشا التركي ليأمن سوطه، ويحتال على الغازي الاجنبي ليتجنب انتقامه.

والجمال أحياناً يبدو مستبداً كالطغاة، يلهب القلوب كما تلهب سياطهم الظهور. لقد أحس محمد بذكاء ابن البلد أن هذه الفتاة تريد أن تلهو به، فلعب بها. أرادت أن تأكله فأكلها. أرادت أن تخضعه لسلطانها فادعى لنفسه عرشاً ليس له. إن قلعته من الورق، من الخطابات الغرامية. وعندما واجهت هذه القلعة الغزو الحقيقي كان لا بد أن تستسلم. ولكن ما بقي من شهامة ابن البلد جعله يقاوم، لقد تذكر صديقه ابراهيم، وتذكر الخطابات الغرامية العديدة التي كتبها باسمه. لو لم يدع هذه الادعاءات عن قدرته كساحر للنساء لسقط بين ذراعي نجوى، وربما تحت قدميها، ولفعلت به بعد ذلك ما أرادت أن تفعل بإبراهيم. إنها لم ترغب في أن تسمع اسم الشاب الذي أحبها عدة سنوات، والذي تحدت أسرتها من أجله، والذي يخاطر بحياته كل أسبوع في سبيل لقائها. كل هذا لأنها سمعت من ابراهيم أنه خبير بالنساء!

لقد تعلم من هذا اللقاء درساً جديداً لم يتعلمه من خطاباته الغرامية للنساء العشر!

الرجال يحبون الفتيات البكر، والفتيات لا يعشقن الرجال «الخام»! الرجل يريد أن يكون أول رجل في حياة المرأة، والمرأة تريد أن تكون آخر امرأة في حياة الرجل: المرأة تحب الفستان الجديد والحذاء الجديد، والمعطف الجديد! والفراء الجديد، والسوار الجديد، ولكنها تحب دائماً الرجل المستعمل.. «نصف عمر».. الرجل الذي لبسته نساء أخريات فجاءت هي وأخذته منهن جميعاً!

وتعلم أن المرأة مخلوق غريب. كان يتصور قبل حديثه مع نجوى أنها ستسأله ألف سؤال وسؤالاً عن حبيبها ابراهيم. إن المحب لا يطرب إلا لأنباء حبيبه. ولكن محمداً فوجىء بأنها لم تكن مهتمة بأخبار ابراهيم، إنها تحدثت عن أزرار بنطلون محمد أكثر مما تحدثت عن ابراهيم!

ولكن الغريب أنها تحدثت عن أزرار بنطلونه ببساطة، كأنها تتحدث عن رباط حذائه المفكوك! أيكون الشبان يبالغون في أهمية أشياء حساسة لا تعطيها المرأة كل هذه الأهمية. أم أن نجوى من كثرة ما رأت من البنطلونات المفتوحة أصبحت تنظر إليها نظرة عادية؟

لقد قرأ محمد أن طبيب أمراض النساء لا يشعر بأي إثارة أمام جسد مريضته العاري. إنه ينظر إليه بنفس النظرة التي يلقيها الخباز على ألوف الأرغفة التي يخبزها. لا يشعر الخباز برغبة في أن يأكل الأرغفة كلها، بل إنه من كثرة ما رآه من الخبز يزهد فيه ويفضل عليه قطعة بصل وبضع زيتونات!

وأقشعر محمد من هذه الفكرة. معناها أن نجوى لها خبرة في الرجال. معناها أن ابراهيم ليس الرجل الأول في حياتها. معناها أن

خطاباتها الغرامية تخفي حقيقتها كأنثى لها تجارب ومغامرات. إذن، لماذا تسأله عن مغامراته الغرامية؟ لماذا يثيرها تعدد هذه المغامرات؟ لماذا انبهرت بما ادعاه أنه يحب عشر نساء في وقت واحد؟ المرأة صاحبة التجربة ـ كما تقول قصص الحب ـ لا يثيرها الرجل صاحب التجارب العديدة، وإنما يثيرها الرجل البكر. ولكن الفتاة البريئة كالشاة هي التي تفقد إرادتهاأمام نظرة الذئب!

وبدت نجوى في عيني محمد ذئباً وحملاً في وقت واحد. كأنها جمعت المتناقضات كلها في امرأة واحدة. مزيج من المرأة والطفلة، من الملكة والجارية، من الأنوثة الفاجرة والبراءة الطاهرة، من لا ونعم!

■ ■ ■

وكان مطلوباً من محمد أن يكتب خطاباً غرامياً إلى طالبة مدرسة الراهبات. وكان هذا النوع من الخطابات أسهل الخطابات التي يكتبها، ولكنه ما كاد يبدأ بضعة سطور حتى اكتشف أنه يكتب لنجوى لا للطالبة في مدرسة الراهبات! ومزق الورقة، وعاد يكتب من جديد. ولم يستطع أن يكتب. كان يجد صورة نجوى منطبعة على الورقة البيضاء، في أعلاها وأسفلها، في يمينها ويسارها، بل إنه وجد صورتها منطبعة على جدران الغرفة. وجد شبحها نائماً في فراشه، كأنها تحاصره من كل مكان. رائحة عطرها لا تزال في كفه التي صافحها بها، لا تزال في أنفه، لا تزال في خياله. صورتها في عينيه، وتحت جلده، وفي فؤاده. حديثها يملأ أذنيه كأنه أسطوانة تدور وتدور ولا تتوقف أبداً. كل كتاب يفتحه فيه صورتها.

ومع كل هذا فهو لا يفهمها. إنها أشبه بقطعة موسيقية تهزنا ولا نعرف معنى كلماتها لأنها مكتوبة بلغة أجنبية. اللحن يقوم مقام

الكلمات، النغمة حلّت مكان المعنى. هل هي مهتمة به أم هي مهتمة بإبراهيم؟ هل هي تعجب به أم تهزأ به، لعلها صدقته عندما ادعى أنه دون جوان أم هي تظاهرت بتصديقه إمعاناً في السخرية منه.

قالت له إنها تعرف كل شيء عنه، تعرف أكثر مما يتصور. هل تعرف مثلاً أنه ابن عامل فقير في عنابر السكك الحديدية؟ هل تعرف أنه يقيم في غرفة لا تدخلها الشمس؟ هل تعرف أنه جاء إلى بيتها من أجل الجنيه، لا من أجل جمالها، ولا من أجل اللغة العربية، ولا من أجل صديقها ابراهيم؟ أتكون نجوى مثل صورته التي ادعاها لنفسه، صورة المحب الذي يهوى التغيير والتبديل، الذي يجمع القلوب كهواة الطوابع الذين يجمعون طوابع البريد؟ أيكون في دفتر طوابعها مكان خال لابن عامل فقير، بعد أن امتلأ دفترها بطوابع ابناء الباشوات واصحاب الملايين وكبار الاعيان؟ هل هذا هو سبب قولها انه يعجبها الرجل الخبير؟

ولم يعرف محمد ما إذا كان يحب نجوى أم يكرهها. هل هو الذي كذب عليها أم هي التي كذبت عليه. هل هو يعبدها كآلهة أم يلعنها كشيطان. في لحظات يهواها كأنها الملاك الحارس، وفي لحظات أخرى يخافها كأنها حيوان مرعب. كيف يجري الرجل من امرأة، ويجري إليها في نفس الوقت؟ كيف يستسلم لها ويحاربها؟ كيف يشعر أنها خالقة، خلقت فيه أشياء كثيرة، عواطف كثيرة، وفي الوقت نفسه قاتلة، قتلت فيه أشياء كثيرة، معاني كثيرة؟ قتلت فيه صداقته القوية لابراهيم. إنه لا يزال يحبه، ولكن ليس بالقدر الذي كان يشعر به قبل أن يلتقي بنجوى. بل لعله لم يعد يحبه. إنه أصبح يشفق عليه فقط. يشفق عليه لأنه خانه معها، خانه بالفكر، بالتمني.

وخيانة الفكر هي الأعمال التمهيدية لجريمة الخيانة. كان يجب عليه

أن يصدها، أن يلقي عليها درساً في الفضيلة وفي احترام العهود والمواثيق. ولكن كيف كان يستطيع أن يترافع عن قضية الاخلاص، وقد ادعى هو أنه يحب عشر نساء في وقت واحد؟

وأحس فجأة بالعار. إن هذه الفتاة لوثته. سلبته رجولته وشهامته. وأسرع إلى الحمام يستحم. ودهشت أمه أن يستحم ابنها في غير يوم الحمام الأسبوعي وهو يوم الجمعة. وتفادى نظراتها، خشية أن ترى أمه آثار الإثم في عينيه! وتصور أنه بهذا الاستحمام سوف يتطهر. سوف يغسل الإثم الذي يملأ روحه. سوف يزيل رائحة العطر من كفه.

وبعد الاستحمام أحس براحة. ثم رفع كفه إلى أنفه فإذا برائحة عطر نجوى لا تزال بها! الماء والصابون لم يستطيعا إزالة العطر من كفه، ولم يستطيعا إزالة الشعور بالإثم. وعاد يستحم مرة أخرى، ليزيل ما تصور أنه بقية قذارة نجوى ملأت خياشيمه بعد الاستحمام الثاني أكثر مما كانت بعد الاستحمام الأول. كأنها أصبحت تحت جلده، لا ينفع فيها ماء ولا صابون!

■ ■ ■

ونظر إلى ساعته فوجدها منتصف الليل. الليلة هي ليلة السبت. الليلة التي اعتاد فيها ابراهيم أن يقفز السور مرة كل أسبوع. في هذه اللحظة يلتقي ابراهيم بنجوى. يقبلها في شفتيها، يعانقها، يضمها بقوة إلى صدره. هذه الصور التي طالما انتشى محمد بها كل ليلة سبت، ما لها الليلة تقلقه، تضايقه، تزعجه؟

القبلة التي كانت كالرحيق في شفتيه أصبح لها طعم السم الزعاف. العناق الذي كان يتخيله ويجعل جسمه كله يحس بلذة عجيبة، ما له يتخيله الليلة كأنه طعنة قاتلة بسكين في صدره، فيزتجف، وتصطك

أسنانه، ويحس بألم الطعنة في صدره، وفي ظهره، وفي أجزاء عديدة من جسمه. الذراعان المفتوحتان اللتان طالما أحس بأنهما تضمانه عندما تضمان ابراهيم. ما له اليوم يراهما أشبه بالصليب، ويرى نفسه مصلوباً فوق هذا الصليب؟ ما الذي تغير فيه حتى يصبح الحلم كابوساً، والهناء تعاسة، واللذة عذاباً وشقاء؟ أيكون قد أصبح يغار من ابراهيم على نجوى؟ ترى هل ستتحدث عنه نجوى في هذا اللقاء؟ هل ستذكر لابراهيم فضيحة بنطلونه المفتوح؟ هل يغرق الاثنان الآن في الضحك والسخرية منه بينما هو غارق في الألم والعذاب؟.. هل قرأت نجوى في عينيه انبهاره بها، وفهمت أكاذيبه عن خبرته الغرامية وهي تسخر الآن من الشاب الخام الذي يدّعي أنه دون جوان؟ هل سيفضحه ابراهيم بين تلاميذ المدرسة ويروي ما قالته نجوى عنه؟

لم يستطع محمد أن يغمض عينيه. أحس بجسمه مليئاً بجروح تنزف، وكان يتعجل الصباح ويستمهله. يريد أن تشرق الشمس، ويتوسل إليها ألا تشرق. كان يريد أن يذهب إلى المدرسة ليعرف من ابراهيم ماذا قالت نجوى..

■ ■ ■

وعندما رأى ابراهيم في المدرسة أحس بالخجل من نفسه، لم يستطع أن يرفع عينيه إلى عينيه. لم يستطع أن يبدأه بالحديث.

وأقبل عليه ابراهيم وهو يبتسم. وخفق قلب محمد، خشي أن يكون ابراهيم يبتسم من أجل فضيحة البنطلون. وقال له ابرهيم:

ـ إن نجوى أخبرتني بكل ما حدث بينكما..

وصمت محمد، فقد شمّ رائحة الكارثة المقبلة.. وأسرع يضع يده

اليمنى في جيبه حتى لا يشم ابراهيم رائحة عطر نجوى!

وقال ابراهيم: إن نجوى معجبة بك، وقالت إنك أحسن أستاذ في اللغة العربية. . وإنها اكتشفت إنها أقوى في اللغة العربية من أستاذها في مدرسة الليسيه!

ومضى ابراهيم يروي لمحمد كل ما سمعه من نجوى عن الحديث الذي جرى بينها وبين محمد.

ووقف محمد مبهوتاً. إن نجوى ألّفت حواراً لم يحدث إطلاقاً بينه وبينها! كان كل الحوار عن اللغة العربية وعن الشعر العربي، وعن أن ابراهيم المناسترلي هو أعظم شاب في العالم!

واكتشف محمد في نجوى صفة جديدة لم يعرفها، إنها مؤلفة مسرحية ممتازة. وضعت على لسانه أشياء لم يقلها، ووضعت على لسانها كلمات لم يسمعها. ولم تذكر كلمة واحدة عن حديثهما عن الحب، وأهم من كل هذا كتمت سر فضيحة البنطلون المفتوح!

ورأى ابراهيم الذهول في عيني محمد فقال له:

ـ ما الذي يدهشك؟

وتمالك محمد نفسه وقال وكأنه يشترك في المسرحية التي ألّفتها نجوى:

ـ الذي يدهشني قوة ذاكرة نجوى. . إنها تذكرت كل كلمة قلتها؟

قال ابراهيم:

ـ وبذلك ستكون تلميذة ممتازة! إنها أخبرتني أنها ستطلب إلى أبيها أن تعطيها دروساً خصوصية في اللغة العربية أسوة بشقيقها فؤاد. إنني

متحمس جداً لهذه الفكرة الرائعة!

واستبدت الدهشة بمحمد. كيف استطاعت نجوى أن تبيع هذه الفكـرة لأبيها، ثم بـاعتها لابـراهيم؟ وأحس بعـطف وشفقـة عـلى ابراهيم، إننا نعطف على المغفلين الذين نخدعهم ونكره الخبثاء الذين يخدعوننا! أحس بأن كمال باشا والد نجوى رجل طيب، وابـراهيم حبيب نجوى رجل طيب. لعل كل الـرجال طيّبـون، وكل النسـاء خبيثات. ربما هـو طيّب أيضاً، ونجـوى تعبث به كـما عبثت بأبيهـا وحبيبها. ربما كان حديثهـا معه حـواراً مؤلفاً، كـالحوار الـذي روته لابراهيم. ولم تستطع هذه الشكوك أن تثبت طويلاً أمام غرور الشاب، لماذا لا تكون نجوى أعجبت به حقيقة؟ فالمرأة تتحول إلى عبقرية عندما تحب، وتتحول إلى مجنونة عندما تكره، وشعرة واحدة هي الفرق بين العبقرية والجنون.

المرأة عندما تريد أن تقتحم الصعاب، تمشي على الشوك، تفتـح طريقها وسط النيران. الحب يصقل كل مواهبها. الرغبـة تخلق فيها مواهب جديدة لم تكن فيها من قبل. كأن الحب والرغبة هما مفاتيح كنوز عبقريتها. كأنها العصا السحرية التي تفعل أشياء غريبة لم تخطر على بال أحد حتى بالها هي.

المـرأة إذا أرادت رجلاً تحـولت إلى داهية، كـأنها قائـد معركـة يضع خطط معركة حربية فاصلة. وكل حب في حياة المرأة، بل كل رغبة، هي معركة حربية فاصلة. هي معركة حياة أو موت.

الحب بالنسبة للرجل متعة، وبالنسبة للمرأة حياة أو موت.

المرأة إذا أرادت رجلاً عاشت الأربع والعشرين ساعة كلهـا لا تفكر

في شيء إلا في كيف تستولي عليه، كيف تحتفظ به، كيف تشق طريقها إليه.

والرجل إذا أراد امرأة يعيش حياته العادية، ولكنه يتحول الى ذئب في اللحظة التي يراها فيها، ثم يعود بعد انتهاء اللقاء رجلاً عادياً يفكر في أموره العادية.

ولهذا استطاعت نجوى خلال ساعات قليلة أن تحقق أشياء كثيرة. اقنعت والدها بأنها ضعيفة في اللغة العربية. أقنعته بأن محمد هو أحسن أستاذ للغة العربية. أقنعت حبيبها أن مصلحته أن يكون محمد استاذها في اللغة العربية وتجعله يتحمس لكي يقنع محمد بأن يتولى هذا المنصب الجديد!.

كان محمد قد قرأ في القصص أن المرأة مخلوق خطر، ولكنه لم يتصور أنها بهذا القدر من الخطورة إلا عندما لمس هذه الخطورة بنفسه. عندما رأى امرأة صغيرة قادرة على الخلق والابتكار، والتأليف والكذب، والتمثيل والاقناع، ورسم الخطط، وتحويل الاذكياء الى مغفلين!

ولم يحقد محمد على المرأة التي فعلت كل هذا. إننا نحترم المرأة التي ترتكب كل الجرائم من أجلنا، ونحتقر المرأة التي ترتكب جريمة واحدة من أجل رجل غيرنا. أحس محمد بأنه أصبح يحب نجوى أكثر مما أحبها، ويعجب بها أكثر مما أعجب بها، وكأنه اكتشف فيها قدرات جديدة، ومواهب جديدة، ترفعها فوق جميع النساء!

وعندما ذهب محمد إلى الدرس الثاني حرص طوال الطريق، وأمام باب بيت كمال باشا، وعندما دخل إلى الغرفة، على أن يتأكد من أن بنطلونه مقفل!

وما كادت نجوى تدخل الغرفة حتى اتجهت بعينيها إلى بنطلونه وابتسمت؟

وانتفض محمد، خشي أن تكون أزرار بنطلونه قد خانته، وغافلته، وانفتحت، وأسرع ينظر إلى البنطلون، فاطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام!

وإذا بنجوى تقول له باسمة:

ـ خسارة! لقد فقدت شيئاً من جاذبيتك! كنت تعجبني أكثر وبنطلونك مفتوح!

واحمر وجه محمد. إنه لم يتعود أن يسمع هذا الأسلوب المكشوف في الغزل! لقد سمع من قبل كلاماً عن مزايا المجتمع المكشوف، وعن فوائد الباب المفتوح في التجارة الدولية وعن ضرورة الحوار المفتوح بين المدارس الأدبية، ولكنها أول مرة يسمع فيها عن جاذبية البنطلون المفتوح! كيف تستطيع فتاة عذراء من أسرة كبيرة أن تنطق بهذه الكلمات أمام شاب لم تره إلا منذ ٢٤ ساعة؟

إن خطاباتها إلى ابن خالتها ابراهيم ليس فيها اشارة من قريب أو بعيد مما يمكن أن يعتبر من الأدب المكشوف. كان ابراهيم يروي لمحمد كل تفاصيل أحاديثه مع نجوى ولم يذكر مرة واحدة أنها قالت كلاماً خارجاً. وحتى الراقصة التي يحبها زميله في السعيدية لا تحدث صديقه بهذه اللغة. هل تصورت نجوى أن محمداً من الشعب، وأنه يجب أن تكلمه بلغة الشعب، متوهمة أن الفقراء يتحدثون بهذه الكلمات الفاضحة؟ إن محمد لا يذكر أن والده الاسطى حنفي عبد الكريم تحدث مع زوجته نبوية بهذا الأسلوب المكشوف.

ولاحظ محمد أنه لم يدخل هذه المرة الصالون الكبير الذي رأى فيه نجوى للمرة الأولى، وإنما أدخلوه غرفة صغيرة فيها مكتب أنيق،

وقالت له نجوى أنها الغرفة التي سيتولى فيها تدريس اللغة العربية.

وقال لها محمد أنه سعيد جداً بأنها أخفت عن ابراهيم قصة البنطلون..

وضحكت نجوى وقالت بابتسامة لها طعم الشهد:

ـ أردت أن تعرف أن ما يقال عن المرأة من أنها لا تكتم سراً هو دعاية كاذبة أطلقها الرجال الذين لا يستطيعون أن يحتفظوا بالأسرار!

ثم نظرت إليه بطرف عينها وقالت:

ـ ولكنني اعتقد إنك تختلف عن الرجال.. وإنك قادر على كتم الأسرار!

قال محمد:

ـ إن الأطفال هم الذين يثرثرون.. وكلما طالت قامة الانسان قصر لسانه!

قالت نجوى وهي تنظر إليه من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى وكأنها تقيسه:

ـ ولعل هذا هو السبب إنني اخترتك.. إنك طويل جداً، إنك أطول قامة من ابراهيم! أتعرف أن ابراهيم أقصر قامة مني؟ تعال نرى كم يزيد طولك عن طولي..

ووقفت نجوى، ومدت يدها، وجذبت محمداً من يده، ووقفت أمامه واقتربت منه، وأحس أنفاسها تمتزج بأنفاسه، وأحس بها تلتصق به. وشعر بكهرباء غريبة تسري في كل جسده. وفقد سيطرته على إرادته، ووجد شفتيه تقتربان من شفتيها لتقبلها.

وفجأة تراجعت نجوى إلى الوراء.. وتركت شفتيه ممددتين في الهواء.. كأنها يد مبسوطة لا يصافحها أحد!

ومشت بهدوء إلى المكتب. لم يبدُ عليها أنها غاضبة لأنه حاول أن يقبلها. ولم يبدُ عليها أنها رأت شفتيه تمتدان إلى شفتيها. وتظاهرت بأن كل ما كان يهمها قد حصلت عليه. وهي أنها أقصر قامة من محمد بحوالي عشرين سنتيمترا.

كأنها لم تشم أنفاسه. كأنها لم تسمع ضربات قلبه وهي تخفق بشدة كأنها لم ترَ الرغبة الجامحة في عينيه. كأنه كان يحلم وهو ملتصق بجسدها وأن شيئاً مما أحس به لم تحس به.. اختفت من عينيها نظرة الشيطان، وبدت في عينيها سذاجة وبراءة وطهر مفاجىء.

وفي هدوء غريب قالت نجوى في صوت كأصوات القديسات وهن يرتلن الصلاة:

ـ أريد أن تعلمني كيف أحفظ القرآن!

وارتعش ابراهيم وهو يسمع كلمة القرآن. كأنه ينتقل في لحظة واحدة من لقاء مع الشيطان إلى لقاء مع الله! كان مستعداً أن يسمع من شفتيها كل شيء إلا هذه الكلمة التي هزته بعنف وأيقظته من حلم لذيذ!

ماذا تقصد هذه المرأة الصغيرة أن تفعل به؟. عندما تذيقه في لحظة كأساً من الويسكي، وفي اللحظة التالية جرعة من ماء زمزم؟ أن تنقله بين الكباريه والمسجد. أن تمزقه بين مشاعر الهوى ومشاعر التقوى! أن تؤرجحه بين القديسة والغانية؟

وأراد أن يهرب من هذا الموقف الغريب، من التأرجح بين الراقصة

والراهبة في امرأة واحدة، فقال وهو يسترد أنفاسه، وكأنه يقطع المسافة بين الأرض والسماء عدواً:

ـ أين شقيقك فؤاد؟. لماذا لم يحضر ليأخذ درس اللغة العربية؟

قالت نجوى وهي تغمز بعينها غمزة لا يرسمها إلا الشيطان:

ـ إن فؤاد يحرس الباب.. لأن خادمتي في إجازة اليوم!

لم يفهم محمد عبد الكريم تصرفات نجوى الغريبة معه.

إذا كانت حقاً تريد درساً في الدين فلماذا وقفت ملتصقة به؟ لماذا طلبت من شقيقها الصغير فؤاد المناسترلي أن يحرس باب الغرفة التي يجلسان فيها ويصفر إذا اقتربت أقدام غريبة؟ كيف استطاعت أن تتحول فجأة من امرأة لعوب إلى قديسة؟

إنه تفرج في السينما على أفلام الممثل الكبير لون شاني الذي يسمونه «الرجل ذو الألف وجه». هل نجوى امرأة لها ألف وجه؟ أم أنه هو الذي يتوهم أشياء لم تقع ويتخيل أموراً لم تحدث، فيتصور أنها تغازله وهي في الواقع تحدثه حديثاً بريئاً، وأنها تراوده عن نفسه بينما هي تريد فعلاً درساً في الدين، أم أنها أرادت أن تمتحن إخلاصه لصديقه ابراهيم؟

لو كان هذا هدفها فقد رسب بجدارة في الامتحان. رسب بغير أن يكون له ملحق أو دور ثان!

أم أنها تجد لذة في أن تلعب به وتعبث بعواطفه، فتشعل ناره ثم تطفئها، وتحييه لتميته، وتسعده لتشقيه، وتثيره بأنوثة مصطنعة ثم تخمده ببراءة مصطنعة أيضاً؟

أم يكون هذا شأن النساء من بنات الذوات. . أم هو شأن النساء جميعاً، الحب عندهن أشبه برقصة «نيو انجلند الجديدة» وهي أن تتقدم الراقصة خطوة، ثم تتأخر خطوتين، ثم تدور حول نفسها، وتعود وتتقدم إلى الراقص ثلاث خطوات، فإذا تقدم نحوها خطوة أسرعت وتأخرت خطوتين؟

وأحس محمد وهو جالس بجوارها بأعراض حمى غريبة، كأنه يرتعش من البرد ومن ارتفاع درجة الحرارة في وقت واحد. ولم يظهر على نجوى أنها أحست بهذه الانفعالات التي تعبث به، بل سألته:

ـ هل سمعت آخر نكتة؟

وراحت تروي له أن بعض الموظفين اعترضوا على أن الاستاذ علي مرعي مدير مكتب رئيس الوزراء نال درجة استثنائية في رئاسة مجلس الوزراء. . .

فقال لهم أحد الموظفين: إنه يستحق هذه الترقية. إنه حاصل على شهادة لم يحصل عليها أي مصري قبل الآن.

وسأل الموظفون في دهشة: وما هي هذه الشهادة؟

قال الموظف الخبير: إنها شهادة «ب. أ. ص»!

وعجب الموظفون لأنهم سمعوا بأسماء جميع الشهادات في العالم وليس بينها شهادة اسمها «ب. أ. ص».

فقال الموظف العارف ببواطن الأمور: يا لكم من جهلاء! شهادة «ب أ. ص» تعني «بنت اسماعيل صدقي»! تعنى أنه متزوج من بنت رئيس الوزراء، وهذه شهادة تؤهله لا إلى درجة واحدة، بل إلى عشر درجات!

وضحك محمد للنكتة. وعجب في الوقت نفسه أن تقول نجوى نكتة في هذا الوقت بالذات! ما هي العلاقة بين الموقف الغريب المؤلم الذي هو فيه بالعلاوات الاستثنائية، وبترقية زوج بنت رئيس الوزراء؟.. ورآها تضحك. تضحك. تضحك في مأتم قلبه. تضحك وهي تحس بعذابه عندما فتحت له باب الجنة، ثم أغلقت فجأة الباب، وأعادته إلى الجحيم.

وشعر برغبة في أن يؤلمها كما تؤلمه. أن يغرس فيها ولو دبوساً صغيراً انتقاماً للخنجر الذي أغمدته في قلبه. وتظاهر بالضحك، وقال:

ـ إن شهادة «ب. أ. ص» حصل عليها فرد واحد فقط.. ولكن أخشى أن يكون عدد الذين حصلوا أو سيحصلون على شهادة «ب. و. ا. س» أكثر من الحاصلين على الشهادة الابتدائية!

وقالت له نجوى في استغراب:
ـ ما هي شهادة «ب. و. أ. س؟

قال لها محمد وكأنه يقرر حقيقة علمية:
ـ «بنت وزير الأوقاف سابقاً»!

وتراجع محمد في مقعده راضياً عن نفسه. إنه انتقم للهوان الذي سببته له. وتصور انها ستغضب للإهانة التي قصدها، وفوجىء بأنها لم تغضب، بل ضحكت وقالت له:

ـ إنها نكتة مدهشة! إنك تستحق قبلة على هذه النكتة شهادة مني بروعتها! شهادة دكتوراه في خفة الدم!

واستعد محمد ليتلقى الشهادة من شفتيها. واقترب منها، وبدون أن

يفكر، وجد شفتيه تمتدان نحوها . .

وإذا بها تتراجع وتقول:

- إنني سأكتب لك خطاباً أقول لك فيه إنني أقبلك! إن الشهادات كما تعلم لا تكتب على الشفاه وإنما تكتب على الورق!

وشعر بأن نجوى سكبت عليه دشاً بارداً . . وأنها ردّت على النكتة التي أطلقها عليها بأن جعلته هو نفسه «نكتة» تستحق الضحك إن لم تستحق الرثاء!

وغاظه أنها تنتصر عليه في كل مرة. تنصب له الشرك فيقع فيه، ثم تمد يدها وتنقذه من المصيدة، فإذا خرج منها أعادته إلى المصيدة من جديد.

إنه رأى نجم الكرة المشهور محمود مختار التتش وهو يحاور بالكرة ويرقص أفراد الفريق الذي يلعب ضده، فيتظاهر بالهجوم ثم يتقهقر، ويتظاهر أنه يندفع بالكرة إلى اليمين، وهو يتجه بها إلى اليسار. فيسقط اللاعب الذي أمامه وسط ضحك المتفرجين وسخريتهم!

إن نجوى تفعل به ما يفعله «التتش» باللاعبين، تقرب الكرة منه ثم تبعدها عنه، توهمه بأنها في قدميه، بينما الكرة دائماً في قدميها هي . وقلبه هو الكرة التي تلعب بها نجوى. تدفعها بقدمها، وتعبث بها بحذائها، وتنقلها بين رأسها وقدمها، فلا يكاد يتصور أن قلبه فوق رأسها، حتى يجد هذا القلب تحت قدميها!

أخس محمد بالمرارة التي يشعر بها فريق الكرة المهزوم. هزيمة منكرة. عشرة أهداف لصفر! لقد تعمد الخشونة في اللعب عندما قال لها أن عدد عشاقها أكثر من عدد حملة الشهادة الابتدائية. ولكنها لم تغضب

لهذا «الفاول» بل مضت تلعب وتحقق أهدافاً وتصيب هدفه عدة مرات. .

لماذا لا يظهر محمد روحاً رياضية ويعترف بالهزيمة؟ إنه فريق يلعب كرة القدم لأول مرة، ويلتقي بفريق دولي! إنها مغامرته الأولى في الحب. ما أشبهه بالذي تفرج على مباراة «الكرة الشراب» في الحارة وأراد أن يشترك في مباريات الألعاب الأوليمبية في كرة القدم!

ولو كان محمد أكبر سناً وأكثر تجربة لاعترف بالهزيمة. إن الذين يعترفون بهزيمتهم ينتصرون بهذا الاعتراف، بينما الذين يكابرون ولا يعترفون بالهزيمة تتفاقم هزيمتهم ويتضاعف عار انكسارهم. ومن طبيعة المهزوم المكابر أن يغالط نفسه قبل أن يغالط الناس. أن يغلق عينيه حتى لا يرى الحقيقة. أن يلغي عقله حتى لا يقتنع بمنطق الواقع. أن يخلق لنفسه منطقاً خاصاً به. أن يتهم الحكم في عدالته. أن يبرر لنفسه الهزيمة بدلاً من أن يبحث عن الأخطاء التي أدت إليها. وهكذا تتحول الهزيمة الأولى إلى هزيمة ساحقة. وهذا هو الذي دفع محمداً إلى أن يقول لنجوى في جدية مصطنعة:

- لقد كان في إمكاني أن أقبلك. . لولا أنني أحب صديقي ابراهيم. إن الرجل الذي يبيع صديقه من أجل امرأة ليس رجلاً!

وتصور محمد أنه ألقى على نجوى قنبلة نسفتها! فتكت بها! حولتها إلى شظايا تتطاير في الهواء! انتقم منها انتقاماً هائلاً! ألقى عليها درساً في الفضيلة ومكارم الأخلاق!

وابتسمت نجوى وقالت:

- إن هذا ما يعجبني فيك يا محمد. . إن أجمل صفاتك أنك رجل يرعى حقوق الصداقة.

وتضايق محمد من هذا الثناء. كان يفضل لو أنها شتمته. إنها أشبه بامرأة أفرغ فيها كل رصاص مسدسه فأجابت على الرصاص بقولها: برافو، ما أبرعك في إطلاق الرصاص! إن تحيتها هذه دليل على أنها لم تصب برصاصة واحدة. ولو أنها أصيبت بكل الرصاصات التي أطلقها لما بقيت على قيد الحياة، لتوجه له الاعجاب بمهارته في التصويب.. ثم هو لم يطلق عليها رصاصة، إنه ألقى عليها قنبلة.. بدلاً من أن يرى الشظايا تمزقها أصبح يشعر أن الشظايا إصابته هو!

وسكت، وكأنه يجمع بقاياه التي تناثرت في أنحاء غرفة المكتب. إن الذي يراه أمامه ليس أشلاءها إنما هو أشلاؤه هو، مزقتها القنبلة التي أراد أن يلقيها على نجوى!

وقرّبت مقعدها من مقعده، وفتحت كتاباً أمامها، وقالت:

ـ لنبدأ درس الدين.. إننا لم نضع وقتاً.. ألم تلق عليَّ درساً في الصداقة؟ أعتقد أن الدين يدعو إلى احترام الصداقة.

ونظر محمد إلى الكتاب الذي فتحته ثم قال:

ـ إن هذا ليس كتاب دين.. إنه قصة روميو وجولييت!

قالت نجوى وهي تقلب صفحات الكتاب:

ـ إنه دين الحب! كتب الدين كلها تدعو إلى الحب. الانجيل يقول إن الله محبة! إنني مثلك أؤمن بالحب! والمحبون هم الرسل الذين يحملون الهداية إلى القلوب! إن الحب يطهر القلوب، فيه جنّة وفيه نار، فيه عبادة وفيه صلاة، فيه راحة نفسية وفيه تصوف. والذين يكفرون بالحب يعيشون حياتهم ملعونين، حائرين، مثلهم مثل الملحدين الذين

يمشون في الحياة، خائفين واجفين، لأنهم افتقدوا الإيمان. افتقدوا الدرابزين الذي يستندون إليه!

ولأنني أنظر إلى الحب نظرتي إلى الدين. أعتبر جسدي أشبه بالمحراب. إنني أحب ابراهيم المناسترلي، ولكنني أتضايق عندما يقبلني.

إن القبلة أشبه بقطرات خمر في معبد، يلوث المعبد، ينجس المنبر. إنني أؤمن بالحب الشريف، الحب الطاهر الذي لا يدنسه جنس ولا قبلات.. لا يدنسه عناق ولا شهوات. لقاء الحبيبين يجب أن يكون شيئاً مقدساً كالصلاة. وأنا أبحث عن راهب يدخل معبدي بعد أن يخلع نعليه. بعد أن يتوضأ من شهواته. ولقد كنت أتمنى أن تكون هذا الراهب الذي أبحث عنه. ولكنني وجدتك تحاول أن تلوث معبدي بحذائك... أقصد بشفتيك!

وجلس محمد يرقب نجوى وهي تلقي عليه درساً في مزايا الحب الشريف ومضار الحب السافل، كأنه يسمع متصوفاً يلقي موعظة، متصوفاً يرتدي فستاناً أزرق سماوياً، وتحته سوتيان من الجرسيه البروميل. وقماش الفستان في بعض جوانبه شفاف يكشف عن أجزاء من الجسم تحرم جميع الأديان أن تظهر وتبدو للعيان.

ما أغرب هذه المرأة! إنها أشبه بفونغراف يدير أسطوانة فيها موعظة دينية، بغير أن يبدو على الفونغراف حرج من الانتقال بين حلاوة اللحن الراقص، ورهبة الحديث الديني!

لقد حيّرته معها. هل هي غانية تتلو الصلوات، أم هي راهبة تكشف عن ساقيها؟ إنها لا تستقر على منطق واحد، ولا تتخذ موقفاً واحداً. كأنها تدفعه إلى كباريه، وما يكاد يهيىء نفسه لمشاهدة الأجساد

العارية حتى يكتشف أنها حولت الكباريه إلى معبد، ولا يكاد يتوضأ ليبدأ الصلاة حتى يجد أن المعبد عاد إلى كباريه من جديد! إنها لا تستقر في داخل شخصية واحدة. كأنها غانية في فاضلة، راقصة في راهبة، خليعة في وقور، أرتيست في قديسة! وكلما وضع يده على إحدى الشخصيتين وأغلق كفه عليها، ثم فتح كفه وجد فيها الشخصية الأخرى!

وخرج محمد من بيت نجوى كالسكران، يتمايل بين الشخصيتين. وكان وهو بجوارها منتشياً بها، كما ينتشي الشارب وبجواره الكأس. ولكنه كالشارب أيضاً ما كاد يبتعد عن الكأس حتى أحس بالصداع الذي يشعر به الشارب في اليوم التالي لليلة الخمر. الأفكار الكثيرة تدق رأسه كأنها شواكيش. أحقاً تؤمن نجوى بالحب البريء، وإذا كانت تؤمن بالحب البريء، فلماذا تظاهرت أنها تقيس طول قامته إلى طول قامتها. لماذا التصقت به حتى جعلته يشرب أنفاسها، ويسكر بها، ويفقد عقله ويحاول أن يقبلها؟

وقرر أن ينقطع عن الذهاب إليها، وفي نفس الموعد في اليوم التالي، كان يطرق باب بيتها من جديد!

وفي هذه المرة لم تستقبله كغانية. وإنما استقبلته كراهبة. لم ترتد الثوب الديكولتيه الذي يكشف عن صدرها، وعن ذراعيها، والذي يرتفع إلى ما فوق ركبتها. ارتدت ثوباً أسود، مقفلاً عند الرقبة، أكمامه تصل إلى رسغيها، ذيله يصل إلى قدميها! غيّرت تصفيف شعرها، وجعلته ضفيرتين تسقطان وراءها. كل شيء فيها فيه طهارة وبراءة وسذاجة.

وأحس محمد أن عواطفه تحشمت معها. عواطفها أيضاً خلعت ثوبها

الديكولتيه المفتوح، وأصبحت وقوراً. البراءة والطهر والعفاف أمراض معدية كالفجور والرذيلة والشهوة. إن عواطف الرجال عادة هي مرآة لعواطف النساء اللواتي يقتربون منهنّ. المرأة الفاضلة قادرة أن تحول الذئب إلى حمل. والمرأة الفاجرة تستطيع أن تحول الملاك البريء إلى شيطان رجيم. إن في عيون المرأة وفي شفتيها، وفي روحها، وفي مشيتها، وفي لفتتها، وفي نظرتها، وفي إيقاعها الأنثوي، ميكروفونات تصرخ بصوت عال. إما أنها تدعو إلى الصلاة فتهزك الدعوة هزة الإيمان والعبادة، واما أن هذه الميكروفونات تدعو الرجل، تناديه، تغني أغاني الشيطان، فيجد نفسه يرقص على أنغامها!

الرجل يحتاج دائماً إلى دعوة ليتحرك. ورب رجال مصابين بالصمم لا يسمعون الصراخ، ورب رجال مجربين يسمعون صوت دبيب النمل. تتحول الهمسات في آذانهم إلى رعد قاصف. وهذا هو دائماً الفرق بين رجل ورجل، رجل يسمع النداء فيلبيه، ورجل لا يسمع النداء، أو يسمعه ولا يفهمه، أو يفهمه بعد أن يكون سبقه غيره إلى مكان الميكروفون!

وتأمل محمد نجوى في زيها الجديد. وقال لنفسه انه صحيح أن الطهارة والبراءة والسذاجة تستهوي بعض الرجال، كما تستهويهم اللوحة الفنية الرائعة. ولكنهم يقفون أمام اللوحة في خشوع. لا يفكرون في أن يلمسوها بأيديهم. لا يفكرون في أن يحملوها معهم إلى فراش احلامهم! يعجبون بها ولا يتعبدون فيها. يحترمونها ولا يعشقونها. يختارونها زوجة لأحد ابنائهم، ولكن لا يفكرون هم في الزواج بها. واذا كانوا من مدرسة الفن للفن تزوجوها، ولكنهم يحتفظون بها مع آثاث البيت، كأنها سجادة صلاة!

وأحس محمد بأنه ليس من أنصار مدرسة الفن للفن، وانه لا يحتاج

إلى سجادة صلاة. وإنما هو محتاج لنجوى الأخرى، المليئة بالإثارة والفتنة والأنوثة والاغراء.

ولم يطل انتظاره فإنه ما كادت نجوى تجلس الى جانبه حتى أحس بساقها تقترب من ساقه. نعم، كانت بين الساقين مسافة سنتيمترات. ولكنه أحس كأن في ساق نجوى مغناطيس يجذب ساقه نحوها. وأحس بأن كهرباء تسري من ساقها الى ساقه، كهرباء بغير أسلاك، كأنها ساق سالبة وساق موجبة تحدثان شرارة بغير أن تلتصقا، وبغير أن تعانق الساق الساق.

ونظر الى عيني نجوى، وهاله أن اختفت منهما الطهارة والبراءة والسذاجة والعفاف. كأن أكثر من شيطان يطل من كل عين!

في لحظة واحدة اختفت من عينيها سجادة الصلاة وحل مكانها فراش وثير. كأن دعواته استجيبت فجأة واختفت الراهبة وجلست الغانية في مقعدها!

وحرّك ساقه يقربها نحو ساقها، يخترق السنتيمترات القليلة التي كانت تصنع المنطقة الحرام، ولكنه لم يجد ساقها في المكان الذي كانت فيه. كأنها أحست بنواياه قبل أن يحرك ساقه، فأسرعت تبعد ساقها.. لتنشىء منطقة حراماً جديدة.

وعاد ينظر الى عينيها فوجد فيهما الطهارة والبراءة والسذاجة والعفاف من جديد. وذهل من قدرتها على التبدل، ومن سرعتها في الانقلاب من النقيض الى النقيض..

وفجأة رآها تعبث بضفائرها. وتميل اليه برأسها، وترسم على شفتيها ابتسامة نصفها فتنة ونصفها إغراء، وتقول له هامسة:

ـ أريدك في مسألة سرية، وأرغب ألا يعرف إنسان كلمة واحدة منها.

وتفاءل محمد بالسر الذي تريد أن تأتمنه عليه وقال:

ـ أعدك بشرفي ألا يعرف مخلوق بما ستقولين.

واقتربت نجوى أكثر، حتى أحس بكل العطر الذي في صدرها، يخترق الفستان المغلق، ويملأ أنفاسه وقالت:

ـ ولا ابراهيم!؟

قال محمد في حماسة، وقد توقع أنها ستفاتحه ببداية علاقة غرامية بينها وبينه:

ـ طبعاً.. ولا ابراهيم!

قالت نجوى:

ـ أنا أعرف أنك تقرأ خطاباتي لابراهيم، وخطابات ابراهيم لي قبل أن يرسلها.. وسكت محمد، وكأنه لا يريد أن يخون سراً قد اؤتمن عليه..

وعادت نجوى تقول:

ـ إني لاحظت أن خطاب ابراهيم الأخير فيه نبرة غريبة مختلفة عن كل خطاباته السابقة. نغمة الحب أصبحت أعلى مما كانت. كأن كل كلمة في الخطاب الأخير تلتهب. كل جملة تحترق. الخطاب كله أشبه بحريقة حب!

وسكتت نجوى. وسكت محمد. إن نجوى على حق. إنه هو الذي

كتب لها هذا الخطاب الأخير. إن قلبه خفق مع كل كلمة كتبها. خطاباته السابقة كان فيها بعض الحب الذي لم يعرفه. أما خطابه الأخير ففيه كل الحب الذي أضناه. في سطوره بعض رعشاته وكل خلجاته. قبلاته التي سكبها على الورق هي أشواقه الحقيقية لنجوى. إنه لم يتخيل للمرة الأولى في حياته. لم يرسم الحب من الذاكرة. كل كلمة في الخطاب الأخير فيها دموعه وأحلامه. فيها طعم الهوى الذي ذاقه. فيها لون العذاب الذي رآه. فيها الضنى والمنى، والعذاب والنعيم، والوصل والحرمان.

وعادت نجوى تقول:

ـ وطبعاً قرأت خطابي الأخير لابراهيم. إنه بالنسبة إلى خطابه المحترق أشبه بثلاجة.. فريجيدير.. لوح ثلج!

وأراد محمد أن يجاملها فقال:

ـ لا.. إنه خطاب بديع و...

وقبل أن يتم محمد كلامه، وضعت نجوى أصبعها على فم محمد وقالت:

ـ لا تكذب:. ولا تجاملني.. أنت تجيد اللغة العربية وتستطيع أن تحكم بأن كلامي فارغ إذا قورن بخطابه الرائع البليغ.. إنني أريد منك أن تتولى الرد على خطابات ابراهيم الغرامية. إنني أعتقد أنك إذا كتبت خطاباً غرامياً فسيكون خطاباً رائعاً!

وفوجىء محمد بهذا الطلب الغريب الذي لم يخطر له على بال! إنه مكلف بأغرب مهمة في العالم أن يكتب لنفسه خطابات غرامية ويرد عليها! أن يكون المرسل والمرسل إليه في الوقت نفسه. سيصبح أشبه

بالمجنون الذي يكلم نفسه ويرد عليها!

ولم تعذبه مهمة كتابة خطابات غرامية باسم نجوى بقدر ما عذبه أن نجوى اختارته هو لهذه المهمة كأنها تقول له أنه فوق الشبهات. وما أتعس الرجل الذي هو فوق الشبهات. لقد كان ابراهيم يقول له أن باش آغا قصر عابدين هو الرجل الوحيد في القصر الذي فوق الشبهات... كأن نجوى اختارته هو محمد حنفي عبدالكريم ليكون باش آغا قصر كمال باشا المناسترلي!

وأحس بمرارة لهذا الاختيار.

وأراد أن يعتذر فألحت عليه نجوى بأن يقبل.

وقال وهو يحاول أن يتحكم في أعصابه:

ـ ولكن هذه مهمة صعبة جداً. كيف أستطيع أن أعرف شعورك نحو ابراهيم لأصفه في خطاباتك؟

قالت نجوى وكأنها طفلة تريد أن تلعب لعبة جديدة:

ـ سأقول لك في كل يوم ما أريد أن أقوله لابراهيم. وأنت تصوغ المعنى في خطاب غرام، فيه حرارة وفيه حب، وفيه حريق!

وشعر محمد أنه يحترق في داخله. وقال لها وكأنه يريد أن يعرف سر تعلقها بابراهيم:

ـ ولكني أريد أن أعرف ما الذي يعجبك في ابراهيم حتى أركز على الصفة التي تعجبك في الخطابات؟

وفكّرت نجوى قليلاً وقالت:

ـ أكثر ما يعجبني فيه أناقته! إنه يعرف كيف يختار لون قماش بذلته التي تناسب لون بشرته. ويعرف كيف يختار الكرافتة التي تتناسب مع البذلة.

وذهل محمد. إنها أول مرة يعرف أن المرأة تحب رجلاً من أجل بذلته وكرافتته! كان يظن أن المرأة تحب الرجل من أجل شخصيته، من أجل جمال صورته، من أجل جسمه الرياضي، من أجل شبابه، من أجل مركزه، من أجل ذكائه وسرعة خاطره. .

قال لها محمد في استنكار:

ـ أتحبين ابراهيم من أجل بذلته؟ يا لهوان الرجال إذا كانت كل قيمتهم البذلات التي يرتدونها!

قالت نجوى في احتجاج:

ـ الرجل الأنيق دليل على الذوق السليم!

قال لها محمد وهو يضحك:

ـ كان الأفضل أن تحبي الترزي! إن الترزي عادة هو الذي يختار للرجال لون أقمشة بذلاتهم!

قالت نجوى في بساطة:

ـ إنني أفضل من زميلاتي في مدرسة الليسيه! كل واحدة منهن تحب سيارة! شوشو تحب ولداً لأنه يملك سيارة بويك. ميمي تحب شاباً لأنه يركب سيارة شيفروليه. كيكي تحب رجلاً يملك سيارة رولز رويس. . وغيرهن. . وغيرهن. . وكلهن يمضين وقتهن في المدرسة يتناقشن في أي السيارات أفضل. . لا في أي الرجال أفضل!

قال محمد ساخراً: قد يجيء وقت تحب فيه الفتيات الرجال من أحذيتهم! واذا انتشرت هذه الموضة فلا بد أن أشتري حذاء جديداً! وبعد أن كانت كل امرأة تبحث عن «زوج» سنجد كل امرأة تبحث عن «زوج أحذية»!

ومالت نجوى برأسها على رأس محمد وضحكت ضحكة عالية، ولكنها قطعت ضحكتها من نصفها، عندما سمعت صفيراً.

■ ■ ■

وابتعدت نجوى بسرعة بمقعدها عن مقعد محمد. .

ودخل رجل متوسط القامة، على عينيه نظارة ذهبية، وله شارب كبير، وأسرعت نجوى نحوه وارتمت بين ذراعيه، وتعلقت به تعانقه وتقبله. .

وتهلل وجه الرجل، وتقدمت نجوى وأشارت بيدها إلى محمد قائلة:

ـ الاستاذ محمد عبد الكريم أستاذ اللغة العربية.

ثم أشارت إلى الرجل وقالت:

ـ بابا. . صاحب المعالي كمال باشا المناسترلي!

وتقدم محمد نحو الباشا محيياً، فقال له الباشا بصوت ضخم:

ـ إن نجوى تقول إنك أعظم أستاذ للغة العربية في العالم.

وأحنى محمد رأسه تواضعاً، ومضى الباشا يقول:

ـ ولاحظت في المدة الاخيرة أنها لأول مرة في حياتها تنشد الشعر العربي. .

هذا شيء عظيم جداً!

وبهت محمد. الشعر العربي؟ إنه لم ينطق بيتاً واحدا من الشعر منذ دخوله إلى هذا البيت. .

وهزّ الباشا رأسه وقال بعظمة وهدوء ووقار:

ـ شيء عظيم. . إنني قررت أن أمنحك جنيهين في الشهر بدلاً من جنيه. . وتمالك محمد نفسه حتى لا يقع مغشياً عليه من هول الجنيهين! ! لقد كان أكثر ما يحلم به أن يرتفع مبلغ الجنيه الذي وعده به ناظر المدرسة إلى مائة وخمسين قرشاً!

وأسرعت نجوى تقول وهي تشير إلى النافذة:

ـ إن الجيران أرادوا أن يأخذوه للتدريس لابنهم بثلاثة جنيهات في الشهر!

وفوجىء محمد بهذه الكذبة الجديدة! وفوجىء بأن نجوى لا تذكر اسم عمها سمير باشا المناسترلي على لسانها وتسميه الجيران. وأنها توهم أباها أنها لا تذكر اسم ابراهيم الذي تقابله سراً في حديقة بيتها، وتسميه «ابن الجيران»! ليتصور والدها المغفل أنها لا تريد أن تلوث لسانها بذكر أسماء الأعداء!

وإذا بكمال باشا المناسترلي الرجل الهادىء الوقور ينتفض ويصرخ كالكلب المسعور قائلاً:

ـ إذا دخلت هذا البيت لا تدخل بيتي! حرام أن يضيع شاب مؤدب متعلم وقته مع أسافل الناس، مع حقراء، مع كلاب، مع أحط أنواع البشر. . اسمع يا محمد بك، سأمنحك خمسة جنيهات في الشهر بشرط ألا تضع قدمك في بيت هؤلاء الصعاليك!

وفوجىء محمد بالخمسة الجنيهات كأنها خمسة ملايين من الجنيهات تهبط عليه من السماء. . وفوجىء أكثر بأنه أصبح محمد بك!

وانصرف الباشا وهو يردد السباب والشتائم والاتهامات، ويلقي الطين على شقيقه معالي سمير باشا المناستريلي كبير الياوران!

■ ■ ■

وما كاد الباشا يخرج من الغرفة حتى قال محمد لنجوى في دهشة:

ـ هل كل كلامك كذب؟ . .

قالت نجوى وهي تقرب رأسها من رأس محمد:

ـ إذا لم أكذب من أجلك، فمن أجل من أكذب يا حبيبي؟

ورنت كلمة «حبيبي» في أذن محمد كطلقة مدفع! حبيبي؟ ماذا حدث في الدنيا؟ في لحظة واحدة «بك» و«خمسة جنيهات» و«حبيبي»؟ إن هذا «عز» لم تعد أعصابه تتحمله!

وأحس محمد برغبة عارمة بأن يقبلها. يقبلها ليشكرها. لا على الخمسة الجنيهات. ولكن على كلمة «حبيبي»!

ولكنها لم تترك له الفرصة ليقدم لها فروض الشكر، ففي تلك اللحظة دخل الغرفة كلب صغير أبيض. وأسرعت نجوى تجري نحو الكلب، وتحتضنه وتقول له:

ـ هات بوسه يا حبيبي!

وعندئذ عرف محمد ماذا تعني بالضبط كلمة «حبيبي»!

وخرج محمد ليكتب لنفسه خطاباً غرامياً!

■ ■ ■

واستمرت دروس محمد لنجوى، واستمرت حيرته، هي لم تزدد علماً في اللغة العربية وهو ازداد جهلاً بها. ما أشبهها بالعلم، كلما تعمقنا فيه عرفنا مقدار جهلنا!

ولاحظت أمه شحوب وجهه، واضطراب نومه، واصفرار لونه، فسألته جزعة هل هو مريض؟ وأنكر أنه مريض. وكان يعرف أنه يكذب عليها. هو مريض بمرض غريب هو «ملاريا الحب». أليس من أعراض الملاريا أن ترتفع درجة حرارة المريض ثم تنخفض، ثم ترتفع، ثم تعود وتنخفض من جديد؟ هكذا أصبحت علاقته بنجوى. إن فيها كل أعراض الملاريا حتى الضعف والهزال. في الصباح يقرر ألا يذهب اليها. وكلما انقضت ساعة ارتفعت درجة حرارة حبه وشوقه، حتى إذا حلّ موعده وجد نفسه يسرع إليها وكأنه محموم.

وفي كل لقاء يشعر أنه اقترب منها أكثر وأنه ابتعد عنها أكثر، أنها في قبضة يده وأنها أفلتت من يده. الميزان يتأرجح أمام عينيه، فلا ترتفع كفة حتى تهوي، ولا تثقل كفة حتى تخف من جديد.

ولكن لا بد أنها تحبه. لولا أنها تحبه لما اقترحت عليه أن يقف لتقارن بين طول قامتها وطول قامته مستخدمة هذه الحجة لكي تقترب منه وتلتصق به. لولا أنها تحبه لما جعلت والدها يدفع له خمسة جنيهات في الشهر. إنه سألها مرة لماذا فعلت ذلك. وكانت إجابتها أشبه بالصفعة على أوهامه. لقد قالت له إنها أرادت من زيادة المبلغ أن تدفع ثمن كتابته خطاباً غرامياً باسمها لابراهيم كل يوم!

وكان يكتب خطاباتها الغرامية لابراهيم وهو يتلوى ويتعذب. كأنه يقتطع بسكين قطعة من قلبه. أي عذاب يشعر به العاشق عندما يضطر أن يكتب يومياً خطاباً غرامياً باسم حبيبته إلى الرجل الذي ينافسه

في حبها؟ إن والده قال له صباح اليوم إنه يلاحظ أنه في أزمة. ردد والده بدون مناسبة مثلاً بلدياً يقول «اللي بيعمل ظهره قنطرة يستحمل الدوس». . . هل أحس والده أنه أكثر من الإنحناء لنجوى، وأنها من أجل هذا تدوسه بقدميها؟ إن أباه قال له وهو يودعه هذا الصباح مثلاً بلدياً آخر «اللي ما يقدرش عليه القدّوم يقدر عليه المنشار»!

إن والده لا يتحدث عادة إلا مستشهداً بالأمثال البلدية! ولكن ما هي مناسبة هذا المثل؟ أهي حكمة تسقط في فم والده؟ أهي نصيحة؟ أهي شمعة يضيئها الأب لابنه في طريق الظلام؟

هزه المثل العامي من أعماقه! يجب أن يستعمل المنشار مع نجوى ما دام لم ينفع معها «القدوم»! سوف يذهب إليها اليوم ويجذبها من شعرها، ويلثم شفتيها. . كلا إنه لن يقبّل شفتيها فقط، إنه سيقبل عنقها أيضاً، سيقبل أذنيها، سيقبل عينيها، سيقبل شعرها، سيضمها بعنف إلى صدره. سيقيّد ذراعيها وهو يعانقها حتى تعجز عن الحركة!

سوف يطيع نصيحة أبيه ويستعمل المنشار! إن محمداً كثيراً ما قرأ في القصص أن بعض النساء المتمردات لا تنفع معهن كلمات اللين والسياسة. لا يؤخذن إلا بالعنف والشدة. لعل النساء الثريات من بنات الأسر الكبيرة أشبه بالدول الغنية الكبري، لا تجدي معها كلمات الاسترحام، لا تنصت إلا لصوت القوة. إنه لا يواجه امرأة عادية، بل يواجه امرأة طاغية، كل شيء فيها مستبد حتى جمالها وفتنتها! لا بد أن ينقض عليها كما تنقض الشعوب على الطغاة. أن يفاجئها بالهجوم في اللحظة التي تصورت أنه رضي بالذل والهوان اللذين فرضتهما عليه. أي ذلك أكثر من أن يرى هذا الجمال كله ولا يذوقه؟ أن تفتح له أبواب الجنة، ثم تسرع إلى إغلاق أبوابها عندما يمد قدمه ليدخل النعيم؟ لم يعد يشعر ومعه الخمسة الجنيهات

أنه أصبح رجلاً غنياً كما كان يشعر في أول الأمر. أصبح يشعر أنه أشد فقراً مما كان. لقد باع روحه بخمسة جنيهات في الشهر. أصبحت الكنبة التي يجلس فوقها في بيته بجزيرة بدران لا تريحه، وهو قد ارتاح فيها سنوات قبل ذلك، ولكنه تعوّد أن يجلس في المقعد الذهبي المريح في بيت كمال باشا المناسترلي، المقعد المغطى بالحرير الأنيق الثمين. لقد شعر لأول مرة في حياته أن شقته الصغيرة في جزيرة بدران ضيّقة جداً، ولم تعد تسعه. إنه اكتشف لأول مرة أن الشقة قذرة. رائحتها كريهة!

هل نجحت نجوى في أن تفصله عن طبقته؟ هل ذهب ليعلمها اللغة العربية فعلمته هي الحياة الارستقراطية؟ هل أصبح ينظر إلى كل شيء بعينها؟ يقارن لمبة الغاز رقم ٥ بجوار فراشه بالثريات الكهربائية الضخمة في دارها، يقارن الحصيرة المفروشة في غرفة نومه بالسجاجيد العجمية التي تغوص فيها قدماه في بيت كمال باشا المناسترلي؟

ما أشبهه بالقصة التي قرأها في كتاب «القراءة الرشيدة» في المدرسة الابتدائية عن الغراب الذي أراد أن يقلد الطاووس فأنكرته الغربان واحتقرته الطواويس!

لماذا تعبث به نجوى كل هذا العبث؟ لم يخبره ابراهيم أن نجوى فعلت به ما تفعله بمحمد. هل هي تعامله هذه المعاملة لأنه فقير معدم؟ هل هذه هي الطريقة التي يحب بها الأغنياء الفقراء، يضعون لهم الأطعمة الشهية في واجهات المطاعم الكبرى، ويحجزونها بزجاج شفاف حتى لا تمتد أيديهم إليها؟ يتزينون بالمجوهرات الثمينة ولا يتركون للفقراء إلا بريقها يعمي أبصارهم؟ يركبون السيارات الفارعة ويتركون للفقراء حق الإعجاب بجمالها؟

أتكون جريمته أنه أحب من غير طبقته؟ هـل الحب كالتشـريفات الملكية، فيه أسبقية وفيه بروتوكول، وفيه عين لا تعلو عن الحاجب كما يقول أبوه؟

إنه لم يعد يحتمل كل هذا الهوان. لم يعد يحتمل هـذه اللعبة التي تلعبها نجوى معه بعد ظهر كل يوم. لم يعد يطيق أن يكتب لها خطابات غرامية باسم ابراهيم، ولم يعـد يطيق أن يكتب لابـراهيم خطابـات غرامية باسمها. إنه يريد أن يكتب لها باسمه الصريح. يريد أن يتلقى خطابات غرامية حقيقية. لا يريد أن تعامله كما تعامل كلبها الأبيض الذي تناديه: يا حبيبي!

بـالمنشار سـوف يحصـل عـلى كـل هـذا. إن غلطتـه الكـبرى أنـه لم ينقض عليها في اللقاء الأول، ويضعها في مكانها بين ذراعيه، أنه احتمل صفعاتها، احتمل إذلالها. صدّق والده عندما يردد المثل العامي الذي يقول «سألوا فرعون مين فرعنك؟ قال ما لقيتش حد يردني»!

الطغاة لا يصنعهم إلا العبيد. هو الذي صنع طغيان نجوى بسكوته عليه. لو أنه ردها منذ محاولتها الأولى لإذلاله لركعت خاضعـة تحت قدميه. الصبر يكلفنا أكثر مما تكلفنا الجرأة. دموع الصابرين أكثر إيلاماً من الدم الذي ينزف من جروح المحاربين. وتصور محمد لو أنه عندما أقال الملك فؤاد نيازي شكري من رئاسة الوزارة فردّ عليه نيازي بإعلان الجمهورية، لانهار الملك وتهـاوى الطاغيـة. ولكن الذي حـدث أن أعضاء الوزارة المقالة ذهبوا إلى القصر وقيّدوا أسماءهم، عقب الإقالة، في سجل التشريفات الملكي!

ما أشبه محمد بنيازي شكري. إنه هو الآخر يقيّد اسمه في سجل التشريفات في قصر نجوى عقب كل مرة تطرده من قلبها. يقيّد اسمه يومياً!

ولكنه لن يفعل ذلك بعد اليوم. سيستعمل المنشار. إنه لم ينفق ملياً من الخمسة الجنيهات التي قبضها في نهاية الشهر. إنه سيذهب إلى قصر نجوى الطاغية وكأنه ممثل الشعب. سيلقي بالجنيهات الخمسة في وجهها. وبذلك يحطم الحاجز بين فقره وغناها. ثم يأخذها بين ذراعيه بعنف وينهال عليها تقبيلاً.

■■■

ودخل بيت نجوى مرفوع الرأس، قوي العزيمة، مليئاً بالتصميم. وما كاد يراها تدخل الى الغرفة في ثوب أزرق يكشف عن أجزاء عديدة من جسمها حتى نسي أنه ممثل الشعب، ونسي مطالب الشعب، ونسي القرارات التي أصدرها. ارغمته فتنتها الطاغية على أن يقف بغير حراك. لم يجد ذراعيه ليضمها. لم يجد شفتيه ليطبع قبلة على شفتيها.

وكانت نجوى تحمل بين يديها صندوقاً كبيراً من الورق دفعته إليه وهي تقول:

ـ هذا لك!

ونظر محمد إلى الصندوق الملفوف بالورق الملون الأنيق باستغراب، وقال:

ـ ما هذا؟

قالت له نجوى:

ـ افتحه لترى ما فيه!

وفتحه محمد بيد مرتعشة، ووجد فيه جاكتة وبنطلوناً وكرافتة وقميصاً!

وزادت دهشة محمد.

ومضت نجوى تقول:

- إنني ذهبت اليوم إلى محل شيكوريل واخترت لك هذه البذلة، والكرافتة التي تتفق معها.. أرجو أن يعجبك ذوقي!

وتسمّر محمد في مقعده ولم يستطع أن يقول شيئاً. أخرسه هذا التصرف العجيب.

هل اكتشفت نجوى فجأة أن بذلته لا تليق بمقامها، فاشترت له هذه البذلة الأنيقة؟

هل أشفقت على أثاث بيتها الأنيق من ملابسه الرثة فجاءت له بهذه الملابس النظيفة لتحافظ على نظافة الأثاث الثمين، أم أنها تفعل به ما يفعل الذوات بالخدم القرويين الذين يجيئون بهم من القرية، فيدخلونهم الحمام، ثم يأتون لهم بملابس جديدة تليق ببيوت الكبراء والأغنياء؟

أم انها لا تستطيع أن تحبه وهو في ثوبه البالي الرخيص، فجاءت له ببذلة ابن ذوات ليبدو أنيقاً مثل ابن خالتها إبراهيم المناسترلي؟

أتكون بذلته الفقيرة هي التي جعلتها ترفض قبلته، كأنها تعانق البذلة، لا من داخل البذلة؟

أم أنها أحست أنه فقير بائس، محتاج، فمدت إليه يد المساعدة؟ كان يتمنى أن يجد فيها امرأة، فوجد فيها جمعية خيرية!

وكره البذلة التي يرتديها وكره البذلة الجديدة أكثر مما يكره البذلة القديمة.. إذا كان هذا شعور نجوى نحوه فلماذا تظاهرت أنها تقيس

قامتها مع قامته. لماذا التصقت به؟.

مرت هذه الخواطر بسرعة البرق على رأس محمد وهو جالس مذهولاً في مقعده. ولاحظ أن نجوى وقفت، ومشت نحو الباب، ثم أغفلته، وعادت إليه تقول له بلهجة آمرة:

- إخلع ملابسك!

وقفز محمد من مقعده وتراجع إلى الوراء في ذعر وقال:

- كيف أخلع ملابسي؟

قالت له:

- إخلع ملابسك بسرعة!

وشعر محمد برعب مفاجىء. وبحركة غير إرادية امتدت يداه تتشبثان ببذلته خشية أن تجرده نجوى من ملابسه بالقوة!

وقال وهو يتلعثم:

- كيف أخلع ملابسي؟

قالت له وهي تبتسم:

- لا تخف.. لقد أوصدت الباب بالمفتاح!

وازداد ذهول محمد. ها هي الراهبة تحولت فجأة إلى غانية! القديسة أصبحت فاجرة في غمضة عين!

وقرأت نجوى في عيني محمد المدهوشتين ما خطر بباله، فضحكت وقالت وهي تجذب جاكتته وتقول:

ـ لا تتصور يا عبيط إنني أريد أن أغتصبك! إنني أريد أن تقيس البذلة الجديدة لأتأكد أنها مضبوطة، ألا تتذكر مرة أنني طلبت منك أن تقف بجواري لأعرف، الفرق بيني قامتي وقامتك؟ فعلت ذلك حتى أتبين مقاسك عندما أذهب واشتري البذلة! أريد أن أعرف إذا كنت نجحت في معرفة مقاسك بالضبط!

وأحس محمد بالهول كله! ليتها ما قدّمت له هذا التفسير للسؤال العويص الذي كان يشغل رأسه أربعاً وعشرين ساعة كاملة كل يوم. اللغز الذي كان يحيّره ويضنيه ويعذبه، ويعلو به إلى الفضاء ويهبط به إلى الأرض! كانت حيرته لذيذة، أما يقينه فهو عذاب وهوان! إذن لم تقف نجوى بجواره لتلتصق به، وإنما لتقيس طوله حتى تجيء البذلة التي تبرعت بها على مقاسه.

إذن، لم تكن الحكاية شوقاً وحباً ورغبة ولهفة، إنما كانت عطفاً وشفقة وإحساناً على شاب فقير ابن عامل بسيط في عنابر السكك الحديدية!

وأحس بنفسه يتضاءل، ينكمش، يذوب. أحس أن قامته قد قصرت. إنها تبدو وهي واقفة أمامه أطول منه، أطول كثيراً. أحس بحقارته، بفقره، بهوانه. ها هي تشعره أنها ابنة الباشا وهو ابن الفقير المعدم. ابنة كمال باشا المناسترلي وزير الأوقاف السابق تواجه ابن الاسطى حنفي عبد الكريم!

وأحس برغبة في أن يبكي، أن يصرخ، أن يستغيث.. لم يتحمل الانتقال من قمة الجبل إلى الهاوية. المصعد الذي هبط به فجأة لم يرحم قلبه، لم يرحم مشاعره. أحس بأن كل شيء فيه يهوي. كل شيء فيه أصبح متهرئاً، ممزقاً، بالياً، قديماً، قذراً مثل بذلته العتيقة!

وعادت نجوى تجذب الجاكتة وهي تضحك وتحـاول أن تخلعها، ودفعها بعنف، فارتدت إلى الوراء مذعورة. ووضعت يدها على قلبها وقالت وهي تتألم:

ـ آه!

إن يده وهي تدفع يدها أصابت قلبها. أحس بلذة أنه آلمها. دفعة يده أوجعت قلبها. والمطرقة الهـائلة سحقت قلبه! بقي فيهـا لسان يستطيع أن يقول: آه. أما هو فإن كل شيء فيه مسحوق لا يستطيع أن يئن بكلمة الآه. وبرقت عيناه بالسرور، لأنها ذاقت قطرة من محيط الألم الذي شربه! وأعـاد هذا الشعـور له ملكـة النطق فقـال لها وكلماتـه جريحة يقطر منها دم كرامته المهيض:

ـ نعم أنا فقير، فقير جداً، أفقر مما تتصورين. ولكن فقري هذا لا يجعلني أعيش على حساب امرأة! إنني قبلت أن أجيء لهذا البيت من أجل أن أحصل على جنيه واحد في الشهر لأستطيع أن أشتري النساء، لا لأن أبيع نفسي للنساء! إنك تعاملينني كأنني جارية اشتريتهـا! أنا لست جارية. أنا رجل، وكل رجل هو ملك، وكل امرأة هي جارية لهذا الملك! إن جمالك أنساني أنك بنت وزير وباشا وأنني ابن عامل وفقير! إنني عاملتك كأنك امرأة، وأنا رجل، تجمعنا عاطفة، ولكنك أثبت أنك طفلة، تعاملينني كأنني دمية اشتريتها بنقودك. تشتـرين للعروسة فستاناً أو تصنعين لها فستاناً كما تفعل البنات الصغيرات مع عرائسهن! إن هذا يدل على تفاهتك! يدل على أنك أصغر سناً من أن تحكمي على الناس. تتصورين أن مركزك وأموالك قادرة أن تجعلك تستعبدين الناس وتسخرين منهم. ولكن اعلمي أنه يوجد أناس في هذا البلد لا يستطيع مالـك ولا جاهـك أن يشتريهم. أنـاس فقراء ولكنهم أشراف. قد يموتون من الجوع ولكنهم لا يباعون ولا يشترون!

إنك طفلة تافهة مغرورة جاهلة!

وتهاوت نجوى في مقعدها تبكي . . .

إنها أول مرة في حياتها تسمع كلاماً عنيفاً، كل من حولها يدللها، حتى أمها وأبوها يعاملانها كملكة، وكأنها من رعاياها! أساتذتها في المدرسة لا يجرؤون أن يوجهوا إليها كلمة توبيخ أو لوم! فإنهم يعلمون مكانة أسرتها ونفوذ أبيها وثروة أمها. . وها هو شاب يلهب ظهرها بكلمات كالسياط. يخلعها من عرشها. يقول لها أنها تافهة مغرورة طفلة جاهلة!

ولم يرق قلب محمد وهو يرى دموعها!.

كانت دموعها تجفف دموعه. جراحها تضمد جراحه. أنينها يغرد في أذنه. أحس برغبة في أن يذيقها بعض ما ذاقه، أن يعبث بها كما عبثت به. إن المرأة تعتبر دموعها سلاحها السري. إنها تكسب كل معاركها بعبراتها. الرجل الذي لا يغرق في بحر هائج يغرق في دمعة من عين امرأة. وقد قاوم محمد هذا السلاح السري واتجه إليها. وقال لها بلهجة آمرة:

ـ اخلعي ملابسك!

وتراجعت نجوى إلى الخلف وأسندت ظهرها إلى الحائط وقالت في ذعر:

ـ ماذا تقول؟.

قال لها محمد بحزم:

ـ أنت سمعت ما قلت جيداً!

قالت نجوى وكأنها تستغيث في همس:

ـ لم أسمع.. لم أفهم!

قال محمد وهو ينظر في عينيها بغضب:

ـ قلت لك اخلعي ملابسك!

وانتفضت نجوى في مقعدها، وهبت واقفة على قدميها..

وعاد يسألها بخشونة:

ـ هل أغلقت الباب بالمفتاح؟..

قالت نجوى في صوت هامس متحشرج:

ـ نعم..

واتجه محمد إلى الباب وهو يقول:

ـ إنني لم أعد أثق بأي كلمة تقولينها!

وعالج الباب فوجده مغلقاً..

وعاد إليها وقال بنفس اللهجة الآمرة:

ـ قلت لك اخلعي ملابسك..

وترددت نجوى قليلاً، ونظرت إلى عينيه في استعطاف، فلم تجد فيها استجابة لاسترحامها... ومدت يديها المرتعشتين وخلعت فستانها!

وقال لها محمد وهو واقف على بعد متر واحد منها:

ـ اخلعي السوتيان!

وارتاعت نجوى وقالت دهشة وهي تتلعثم:

ـ ا. ل. س. و. . ت. . ي. . ا. . ن. . ؟

قال محمد في حزم:

ـ نعم، السوتيان!

وخلعت نجوى السوتيان. .

ووقف محمد يتأمل جسمها العاري في هدوء. وكأنه يلتقط بعينيه صوراً متعددة لكل جزء من أجزاء جسدها العاري. .

وأدارت نجوى رأسها، لكيلا تلتقي عيناها بعينيه، وأغمضت عينيها!

إننا في لحظات رهيبة، عندما نلتقي بالخطر نغمض عيوننا، ونتصور أننا ما دمنا لا نرى الخطر، فإن الخطر لا يرانا. .

كانت نجوى عارية تماماً إلا من شيء واحد، وكانت تنتفض وهي واقفة. وكأنها تتوقع أمراً آخر بأن تنزع ما بقي من ملابسها. . وكانت تعد نفسها لأمر الاستسلام. ولكن محمد تركها واقفة بغير أن ينطق بالأمر المتوقع!

وفجأة قال لها محمد:

ـ ارتدي ملابسك!

واتجهت إليه نجوى تقول له في صوت مسحوق، كأنه أنين جثة مر فوقها قطار سكة الحديد:

- ألا تريد أن تقبلني يا محمد؟!

وقال محمد في برود:

- كلا . . إنني رأيت كل ما أريد أن أراه . . هيا ارتدي ملابسك لنبدأ درس اللغة العربية!

بدأت نجوى ترتدي ملابسها. الرغبة المحمومة المجنونة تنهش صدرها، والهزيمة الساحقة تعصر روحها.

كانت تبطىء وهي ترتدي كل قطعة من ملابسها. تتعمد الابطاء، كأنها تمنح لمحمد فرصة جديدة ليغير رأيه. لينقض على الفريسة التي تغلي على النار، الطبق المكشوف المغري الذي يسيل له اللعاب.

من لحظات كانت عيناها تتوسلان إليه ألا يقترب. ونفس العينين تتوسلان اليه الآن أن يقترب ويقترب. . وينقض!

وتطلعت نجوى إلى وجه محمد تبحث عن عينيه الزانيتين اللتين طالما راقبتهما وهما تخترقان فستانها. ولم تجد العينين الزانيتين. وجدت عينين جامدتين، لا روح فيهما ولا حياة. الرغبة هي التي تعطي للعيون لمعانها، فإذا انطفأت الرغبة انطفأ معها بريق العيون.

هل أصيب محمد فجأة بالعمى ولم يعد يرى جسدها العاري؟ هل لم يعجبه جسمها الذي طالما وقفت أمام المرآة تتغزل فيه، وتعجب به، وتتغنى بروعة كل قطعة فيه. ترى ما الذي لم يعجبه فيها؟

إنها قرأت مرة قصة شاب نزل في بانسيون تقيم فيه أم وابنتها. وأعجبت الأم بالشاب وتمنت أن تزوجه لابنتها الوحيدة. وعرضت عليه الفكرة فقال لها الشاب إنه وضع قراراً بألا يتزوج من الفتاة إلا إذا رآها عارية تماماً! وقالت الأم ان هذا طلب غريب لا يمكن أن تجيبه،

ولا يمكن أن تجرؤ بأن تطلب من ابنتها أن تتجرد من ملابسها أمام شاب غريب. وأصر الشاب على موقفه. وفكّرت الأم طويلاً ثم قالت للشاب: لدي فكرة. إن ابنتي تستحم كل يوم جمعة. فما رأيك أن تنتهز فرصة استحمامها وتنظر إليها من ثقب مفتاح الباب وبذلك تراها كما تريد؟ وقبل الشاب هذا الحل. ووقف نصف ساعة ينظر من ثقب الباب ويرى الفتاة وهي تستحم. وبعد ذلك سألته الأم في لهفة: هل أعجبتك ابنتي؟ وهز الشاب كتفيه وقال: لا.. إن أنفها كبير!

ترى، أسيقول محمد بعد أن جرّدها من ملابسها أن أنفها لم يعجبه هو الآخر؟!

ولم تجد نجوى في وجه محمد جواباً واحداً على أسئلتها الكثيرة. بقي واقفاً جامداً في مكانه لا يتحرك. كان يحس بسعادة غامضة في داخله. لا لأنه نجح في تعرية نجوى، ولكن لأنه عاد إلى طبقته التي انفصل عنها. ولم يعد يشعر بأنه غريب في بذلته القديمة. لم يعد ينبهر بالطبقة الارستوقراطيةبقصر الباشا الشامخ، بأثاث الغرفة الفاخر، بابنة الوزير الفاتنة. عاد إلى أصله. وقف على الأرض التي انفصل عنها، فأحس بإرادته تعود إليه، بكيانه، بصفات ابن البلد الأصيلة: شهامته، رجولته، وفائه لأصدقائه، تعففه عن أن ينتهز فرصة سقوط عدوه على الأرض فيجهز عليه. أحس بهناء غريب لم يشعر به منذ أيام طويلة. أحس بالرضا عن نفسه. إنه صمد أمام إغراء جسد نجوى العاري. لأول مرة عادت مبادئه إليه لتقاوم فتنتها الجبارة. لأول مرة لم يفقد إرادته أمامها. كأن رجولته قد عادت إلى الحياة بعد أن دفنتها نجوى في جمالها الطاغي. لأول مرة أحس بأنه أقوى منها، أطول منها، أكبر منها! لم يعد يشعر بضآلته وحقارته وفقره. على العكس أحس بقوته وبعنفوانه وسلطانه. إنه لم يجردها وحدها من ملابسها، بل جرّد الطبقة الراقية

كلها من ملابسها. عرّاها، عرّى كل الوزراء، عرّى كل الباشوات. عرّى كل أصحاب الثروات الضخمة، وبقي وحده مرتدياً ملابسه. مرتدياً بنطلونه القديم وجاكتته القديمة!

وأبعد محمد عن خاطره أنه انتقم من نجوى، أنه أهانها، أنه طاردها وهي في ملابسها ونبذها بعد أن خلعت ملابسها. كل ما فعله إنه استرد كرامته من تحت قدميها. وليس ذنبه أنها سقطت، وهو يجذب كرامته من تحت القدمين الجميلتين! هل يلام المجلود إذا جرح أصابع الجلاد وهو ينتزع من السياط؟

وأكملت نجوى ارتداء ملابسها في حنق صامت. كانت تلوي عنقها، وكأنها تشعر بأصابع مجهولة تخنقها، كأن محمد اغتصب كبرياءها، أزال بكارة جمالها. كأنها أول مرة منذ الخليقة تسمع فيها حواء كلمة «لا» من رجل!

إن «لا» كلمة نسائية، كل امرأة تحصي عدد المرات التي قالت فيها «لا» وكأنها تحصي مجوهراتها. ولهذا كانت كلمة «لا» هي أكبر إهانة يمكن أن يقولها رجل لامرأة، وخاصة إذا كانت امرأة مجردة من ملابسها.

«لا» المرأة قد تكون رفضاً أو قبولاً، قد تكون عفة أو إغراء، قد تكون دعوة أو تأجيلاً! إنها «لا» مثل الجوكر في لعبة الكونكان قد تؤدي إلى ربح أسرع أو إلى خسارة أكبر. ولكن «لا» الرجل تقطر إهانة واحتقاراً وإذلالاً. تؤلم اكثر من كل كلمات السباب في العالم، وتجرح اكثر مما تجرح أخطر التهم، فيها من السم ما يقتل نساء الدنيا كلها!

■ ■ ■

وما كادت نجوى تنتهي من ارتداء ملابسها، حتى اتجهت بخطوات ثابتة نحو الباب، وأدارت المفتاح، ثم فتحت الباب واتجهت نحو محمد وأشارت إليه بطرف اصبعها وقالت له في احتقار:

ـ أخرج من هنا!

وبقي محمد واقفاً في مكانه لا يتحرك.

وقالت له في غضب:

ـ إذا لم تخرج من هنا فسوف أصرخ وأقول إنك حاولت أن تغتصبني!

قال لها محمد ببرود:

ـ إصرخي كما تشائين! لن أخرج إلا بعد أن أنتهي من إعطائك درس اللغة العربية.

ووجدت نجوى نفسها، مدفوعة بقوة لا تدريها لأن تغلق الباب!

وأغلقت نجوى الباب، واتجهت إليه والدموع تنهمر على وجهها وقالت له:

ـ لماذا فعلت بي كل هذا يا محمد؟ أي ذنب ارتكبته؟ هل ذنبي أنني أحببتك؟

وجلس محمد في أحد المقاعد، وأخرج منديله يجفف عرقه، وكأنه جرى مشواراً طويلاً وهو واقف على قدميه، مشواراً من حي الزمالك الارستقراطي إلى حي جزيرة بدران الشعبي!

ونظر إليها متأملاً، وكأنه يراها لأول مرة في حياته وقال:

ـ وهل هذا هو ما تسمونه الحب، هناك فرق بين الحب والذل، بين

حب الرجال وعشق الكلاب. الحب عدد لا يقبل القسمة إلا على اثنين. فإذا قسم على ثلاثة كان نصيب كل واحد من الثلاثة صفراً. الحب لا يعيش إلا في ظل المساواة. يوم تدخل الطبقات من الباب يخرج الحب من النافذة. الحب لا يعرف ملكاً ولا صعلوكاً، ومن أجل هذا يرسمون كيوبيد في شكل ملاك صغير مجرد من الملابس، لا يرتدي بذلة التشريفة، ولا يتزين بالأوسمة والنياشين. ولكن الحب في نظرك لعبة، لعبة مثل عسكر وحرامية، أو لعبة مثل الاستغماية. وقد تصورت أنه من الممكن أن أزرع الحب في أي أرض، ولكنني كنت مخطئا. لعل بعض أحياء القاهرة صالحة للزراعة وبعضها الآخر غير صالح للزراعة. البذرة التي نزرعها في شبرا تنمو، ونفس البذرة التي نزرعها في الزمالك تموت. . . يظهر أن هذه الاحياء الراقية هواؤها موبوء، يزهر فيها جمال النساء وتذبل فيها قلوب النساء. الحب يحتاج الى هواء نقي، يحتاج إلى الأرض الواطئة، ربما هذا الذي يجعل الزهور تنبت في السفح وتموت فوق قمم الجبال!

قالت نجوى في استكانة:

- إنني مستعدة أن أذهب إلى لقائك في شبرا. أنا لم أختر حي الزمالك للقائنا، وإنما القدر هو الذي اختاره لنا. أريد أن أحبك بنفس الطريقة التي تحب بها البنات في جزيرة بدران.. لقد قلت لي إنك تحب عشر نساء.. أنا مستعدة أن أكون جاريتك الحادية عشرة.. أنا مستعدة أن أذهب معك إلى آخر مكان في الدنيا.

وضحك محمد ساخراً وقال:

- أتجيئين ماشية على قدميك أم راكبة في سيارتك الكاديلاك؟ إن حارتنا ضيقة جداً لا يمكن أن تمر فيها سيارتك الضخمة!

قالت نجوى:

ـ كلا، أنا مستعدة أن أجيء لك حافية. مستعدة أن ألبس ملاءة لف وأطوف معك الحواري ماشية على قدمي. إنك رجل مختلف عن كل الرجال الذين رأيتهم أو سمعت بهم. إنك علّمتني في أيام قليلة أشياء كثيرة. إنني مستعدة أن أترك ابراهيم من أجلك، مستعدة أن أهرب من بيتي وأتبعك. كنت طوال حياتي فتاة مدللة. كنت في حاجة إلى «علقة» لأفيق من أوهامي. وأنت أعطيتني هذه العلقة القاسية. إنني أشعر كأن كل جزء في جسمي يؤلمني من آثار صفعتك وضرباتك. ما زلت أحس بأثر صفعتك في وجهي. ما زلت أشعر بأثر ركلتك في ظهري. ما زلت أتألم من ضربتك فوق رأسي. وسأبقى طوال حياتي أتألم وأتوجع، إلى أن تقبلني.. تقبلني في كل مكان آلمته.. إبدأ وقبّلني فوق قلبي، فإن طعنتك في قلبي لاتزال تؤلمني!

وأحس محمد بأنه بدأ يضعف أمام كلمات نجوى التي تقطر حباً واسترحاماً. وأمسك بمقبض المقعد بيديه، وكأنه يتشبث به حتى لا يندفع ويقبلهافي كل مكان جرحها فيه.. إنه يعرف أنه جرح كل مليمتر من جسدها العاري الذي استطاع أن يقاومه ويصمد أمام فتنته وإغرائه!

■ ■ ■

وراح محمد يحدث نفسه بصوت لا يسمعه أحد سواه:

ـ اثبت يا محمد. اصمد يا محمد! إنك نجحت في مقاومتها وهي عارية! لا تستسلم لها بعد أن ارتدت ملابسها! تذكر يا محمد أنك لست محمد حنفي عبدالكريم فقط، بل أنك تمثل الشعب المصري كله! أنها ليست نجوي المناسترلي فقط، أنها الطبقة كلها، الطبقة التي تستعبد

الشعب كله. حذار أن تضعف وتكتب اسمك في سجل التشريفات!

واستعاد محمد إرادته التي كادت أن تفلت منه وقال:

ـ إنني لا أصلح لك يا نجوى. إن ابراهيم المناسترلي هو وحده الذي يصلح لك. إنه من نفس طبقتك، إنه سيفهمك أكثر مني، وتأكدي أنني لم أزهد فيك. على العكس لو كان الأمر بيدي لقبلتك وعانقتك واتخذتك حبيبة وصديقة.

قالت نجوى محتجة:

ـ ولكنك صديق ابراهيم المناسترلي وهو ليس من طبقتك. لماذا تحرم على المرأة ما تبيحه للرجل؟

قال محمد:

ـ إن الموقف يختلف. ممكن للفقير أن يصادق الغني. ممكن للمفلس أن يصادق المليونير. ولكن الحب يختلف عن الصداقة. الحب اندماج كامل. عملية التصاق روحي. يذوب شخصان في إناء واحد ويصبح لهما طعم مختلف عمّا كان وعمّا كانت. الرجل والمرأة قبل أن يحبا يختلفان عنهما بعد الحب. تماماً كما نضع الحليب فوق الشاي فلا نستطيع بعد ذلك أن نفصل بين الحليب وبين الشاي. وأنا مستعد أن أكون صديقك كما أنا صديق ابراهيم. مستعد أن أحبك كما أحبه. مستعد أن أكتب لك خطاباتك الغرامية كما. . .

وكاد يقول كما أكتب له خطاباته الغرامية، ولكنه استطاع أن يمسك الجملة قبل أن تخرج من شفتيه!

ومضى محمد يقول في صوت متهدج:

ـ ولكنني لست مستعداً أن أخون طبقتي، أن أخرج عليها. سوف

تشعر شفتاي بأنهما غريبتان بين شفتيك! سوف أحس بالغربة بين ذراعيك. إننا نحتاج لكوبري ليصل بين حي جزيرة بدران وحي الزمالك. ولا بد أن يكون هذا الكوبري واحداً منّا نحن الاثنين، إما أنا وإما أنت. ولا أقبل أن أكون القنطرة التي تدوسين فوقها لتصلي إلى جزيرة بدران، ولا أقبل أن تكوني أنت القنطرة التي أدوس عليها لأصل إلى حي الزمالك! أؤكد لك أنه في يوم من الأيام سوف تجيئين إليَّ لتشكريني، لأنني رفضت أن تكوني حبيبي، وأصررت على أن تكوني صديقتي. سوف تسعدين ألف مرة وأنت صديقتي فقط!

وابتسمت نجوى من خلال دموعها، وقالت:

ـ يجب أن تكون محامياً يا محمد. إنك قادر بقوة منطقك أن تقنع الوزير بأن يقبل أن يكون حاجب وزير في نفس الوزارة. سيعمل في الوزارة نفسها، سيعمل في نفس الطابق، سيعمل في نفس الغرفة، سيركب سيارة الوزير.. لا فرق بين الحاجب والوزير إلا في اللقب.. كنت أريد أن أكون وزيرة في قلبك، بل ملكة على هذا القلب وأنت تقنعني الآن بأن أقبل منصب الحاجب في قصر الملك. المرأة التي أحبت رجلاً لا يمكن أن تكون صديقته. أنت تطلب مني شيئاً فوق طاقة البشر، تتصور أن القلوب لها أزرار تضغط على زر فتحب حب الأخوة، وتضغط على زر فتحب حب الهوى. إننا لا نتحكم في قلوبنا، وإنما قلوبنا هي التي تتحكم فينا. إنها تلغي عقولنا، تلغي منطقنا. ويوم يتحرك العقل يتوقف القلب، ويوم يدخل المنطق من الباب يخرج الحب من النافذة!

قال لها محمد:

ـ إنك لا تتكلمين بلسان فتاة في التاسعة عشرة.. بل تتكلمين بلسان امرأة في الثلاثين.

قالت وضحكتها تجفف ما بقي من دموعها:

ـ إن تسعة عشر عاماً تعني كثيراً في حياة فتاة شرقية. إنها تساوي أربعين عاماً في حياة امرأة أوربية . إن المرأة الشرقية حصلت على الحكمة من السجون التي وضعها فيها الرجل. المسجون في زنزانته يتعلم أكثر مما يتعلم مطلق السراح. القيد يعلمه الحكمة. الذي يعلمه الفلسفة. الهوان يعلمه الدهاء. السوط يعلمه الصبر. نحن الفتيات الشرقيات سلالة الجواري والمحظيات ورثن منهن بعض ما بقي من صليل قيودهن وسلاسلهن! ومع ذلك أنت قلت لي من دقائق إنني طفلة وتافهة وجاهلة ومغرورة!

وأحس محمد بالخجل لأنها رددت نفس عباراته، فقال معتذراً:

ـ كنت أريد أن أغيظك، أن أؤلمك كما آلمتني!

قالت له:

ـ ليتك صفعتني على وجهي. . كانت الصفعة على وجهي أرحم من الركلة في كرامتي!

قال محمد:

ـ إني لم أتعمد أن أهين كرامتك. إن الأرض تتسع لكرامة كل البشر. ولكن بعض الناس يصرّون أن يجعلوا كرامتهم تمشي في الشارع وقد فردت ذراعيها. ومن هنا تصاب دائماً بالرضوض. إنك أحسست بأن كرامتك أهينت لأني أسقطت من يدك الخنجر الذي غمدته في كرامتي. البذلة الجديدة التي أردت أن تزينيني بها عرّتني أمام نفسي أكثر مما عرّيتك عندما جردتك من ملابسك. . إن حوارنا تحول إلى مبارزة، وأنت التي شهرت السيف أولاً. وليس ذنبي أن سيفك الذي

أردت أن تقطعي به رأسي سقط من يدكِ!

قالت له معاتبة:

ـ ولكن الفارس لا يحارب امرأة!

قال محمد:

ـ لم تكن حرباً بين رجل وامرأة، كانت معركة بين طبقة وطبقة، طبقة تملك كل الثروة وكل النفوذ وكل الجمال، وطبقة تملك كل الفقر وكل البؤس وكل الحرمان. طبقة تتصور أن من حقها أن تأمر، وطبقة تعرف أن ليس من حقها إلا أن تطيع. طبقة تملك الحقيقة وطبقة لا تملك إلا الاحلام! إنني لم أر امرأة داخل ثوبك، وإنما في لحظة من اللحظات رأيت طبقة بأسرها داخل هذا الفستان. وهذا هو الذي جعلني أتصرف بالطريقة التي تصرفت بها..

قالت مداعبة:

ـ كنت وحشاً!

قال محمد:

ـ عندما تفلت الفريسة البريئة عادة من أنياب الأسد وتهرب منه يسميها وحشاً.. الوحش هو الذي يقاوم سيطرة القوي، والأليف هو الذي يخضع لسلطانه. إن هذه حكمة الاسد دائماً!

قالت وهي تضحك:

ـ لعلك تقصد أن تقول حكمة زوجة الأسد. ومع ذلك فأنا لا أصدق كل فلسفتك هذه. إني أعتقد أن جسمي العاري لم يعجبك وأن

هذا هو سر تعففك. إنك لا تريد أن تجرحني بالحقيقة، فتلفها في ورق مفضض. لو أن جسمي أعجبك لنسيت مبادئك، لنسيت فضائلك، لنسيت صداقاتك.. الرجل يرفع كل هذه الشعارات عندما لا تعجبه امرأة، فإذا أعجبته المرأة خلع هذه الشعارات وهو يخلع بنطلونه!

قال محمد:

- إن جسمك أعجبني جداً. كان أروع من أحلامي، أكثر فتنة من كل تصوراتي وخيالي. كل جزء فيه قطعة فنية. كل مليمتر فيه مليء بالاغراء. أقسم لك أني لم أر امرأة عارية بهذا الجمال. أجمل بطن، اشهى صدر، أحلى ظهر، أروع ساقين، أبدع شامة في أحلى مكان!

■■■

ولم يكن محمد يكذب، فقد كانت نجوى أول امرأة عارية راها في حياته!

وهدأت نجوى في مقعدها. أحست بنشوة لذيذة وهي تسمع عبارات الإعجاب بجسدها. أحست بأن كل جروحها تلتئم. إن كلمات الإعجاب التي يقولها الرجل لمرأة هي أعظم مرهم لجروحها. إنها أشبه بحقنة فيتامين - ك - التي توقف النزيف!

كلمة الإعجاب التي يلقيها الرجل في أذن المرأة تفعل فيها ما يفعله الترياق في السم، ما تفعله زجاجة الويسكي في الرأس، ما يفعله المخدر في الجسم. غفرت نجوى لمحمد كل جرائمه عندما رأت عينيه تلمعان بالإعجاب وهو يصف تقاطيع جسدها. إنها الآن مستعدة أن تتحمل آلام العملية الجراحية لتحويلها من حبيبة إلى صديقة.. من

وزيرة إلى حاجب في مكتب الوزير!

■ ■ ■

وتوثقت الصداقة بين محمد ونجوى. واستطاع محمد أن يضع سكراً في الصداقة لتستطيب نجوى طعمها. كان يغمرها دائماً بكلمات الإعجاب، كان يرشوها بالثناء، وكان يريحها عندما يشجعها على الكلام. كأنه طبيب نفساني، أو كأنه كاهن يجلس مذنباً فوق كرسي الاعتراف، فلا يكاد يعترف بذنوبه حتى يشعر بأنه تخلص من ثقل كان يجثم على روحه.

وشعر مع الوقت أن الطفولة فيها أكثر من الأنوثة، لسانها في الثلاثين وجسدها في الرابعة عشرة. أبطال الأفلام السينمائية هم أبطال قلبها، وقصص الحب تملأ خيالها. اختفت الطبقة منها، فقدت طعم الارستقراطية الذي كان يشعر بمرارته في شفتيها. وقد بذلت نجوى مجهوداً لكي تصبح فتاة عادية. لم تعد تتكلف أو تتصنع أو تمثل. كانت وهي فتاة طبيعية أجمل كثيراً منها وهي تقلد نجوم السينما.

وأعجب محمد بهذا التغيير الكامل ومع ذلك لم يسقط في مصيدة الهوى من جديد. بقي يرعى حب نجوى وابراهيم. استمر يكتب الخطابات الغرامية باسميهما. اصبح يشعر كأنه واحد من هذه الأسرة، ولكنه لم يذب فيها. احتفظ بكل صفات ابن البلد فيها. كان فخوراً بأنه لم ينفصل عن طبقته. إنه لا ينسى أنه ابن عامل العنابر وهو جالس مع ابنة وزير الأوقاف السابق. لم يعد يشعر بقذارة بيته الحقير في جزيرة بدران. أصبح يعتقد أنه يستحق الجنيهات الخمسة التي يتقاضاها كل شهر.

تقدمت نجوى في اللغة العربية، انتهت مهمة شقيقها فؤاد في عملية

الصفير للتنبه كلما اقتربت أقدام غريبة من الغرفة. أصبح يجلس معهما في الغرفة ويقبل على دراسة اللغة العربية، رأى محمد أم نجوى وجلس معها. بدت سيدة طيبة مؤدبة، محترمة، ولكنها تفقد فجأة طيبتها وأدبها واحترامها إذا جرى على لسانها اسم شقيقتها. أصبحت صداقة محمد بابراهيم أقوى مما كانت، ولعل محمد كان يكفر عن ذنبه عندما خان صديقه بفكره في أول علاقته بنجوى.

■ ■ ■

وذات مساء دخلت نجوى إلى غرفة المكتب تتقدمها ابتسامة عريضة وقالت لمحمد:

- عندي بشرى لك. إنك ستسافر معنا إلى سوريا ولبنان. إن المدرسة السعيدية ستقوم برحلة إلى سوريا ولبنان، ومدرسة الليسيه ستقوم برحلة إلى سوريا ولبنان في نفس الوقت. واتفقت مع أبي أن أسافر أنا وأخي في هذه الرحلة وتجيء أنت معنا!

قال محمد:

- إنني قرأت عن هذه الرحلة في لوحة الإعلانات بالمدرسة ولم أتقدم لأنني لا أملك عشرين جنيهاً مصاريف الرحلة!

قالت نجوى:

- لن تدفع مليماً من جيبك.. أقنعت والدي بأن يدفع مصاريف رحلتك وتتولى رعاية أخي فؤاد أثناء الرحلة، وتتأكد من أنه لم ينس اللغة العربية!

واغتبط محمد بأن يسافر إلى سوريا ولبنان، وهو الذي لم يرَ

بعد مدينة الاسكندرية. ولكن الشك بدأ يلعب في صدره، قد تكون هذه خطة وضعتها نجوى، لتنفرد به في سوريا ولبنان، وتنجح هناك فيما فشلت فيه في مصر!

لقد لاحظ في صوتها رنين فرحة عجيبة. رأى في عينيها لمعاناً مريباً. ولم تتركه نجوى في شكوكه طويلاً، وقالت:

ـ وسيجيء ابراهيم في الرحلة. وبذلك نستطيع أن نلتقي هناك كما نريد. . أنا أستطيع أن أهرب من رحلة الليسيه وأبيت مع ابراهيم كما أشاء، وتبقى أنت مع أخي فؤاد تحرسه. لقد اتفقت مع المدرسة المشرفة على رحلة مدرستنا أن تتركني طوال الوقت مع أخي فؤاد بعد أن أقنعتها بأنه صغير السن وفي حاجة إلى الرعاية.

وغمرت الدهشة محمد وقال لها:

ـ متى رتبت كل هذه الخطط؟ لقد كنت معك منذ أربع وعشرين ساعة ولم تحدثيني عن هذه الرحلة؟

قالت نجوى وعيناها تلمعان:

ـ لم أكن قد عرفت بأمر الرحلة بعد. إنني استطعت أن أضع الخطط في دقائق لكي أمضي بضع ليال مع ابراهيم، أما التنفيذ فلم يستغرق سوى دقائق أخرى. وتطلع محمد الى عيني نجوى. اختفت منهما براءة الطفلة وسذاجة البنت العادية. أطلت من عينيها الرغبة، الرغبة التي تشبه الاعصار التي ما تكاد تلمع في عيني المرأة حتى تجرف كل شيء أمامها، الحصون والقلاع والعقبات والعراقيل والمتاريس!

لقد رأى هذا اللمعان من قبل في عينيها. رآه عندما كانت تريده هو بكل جارحة فيها. والآن.. تلمع نفس العينين من أجل تمضية بضع ليال مع ابراهيم!

وكان مفروضاً أن يبتهج محمد لأن نجوى شفيت نهائياً من حبه، ومع ذلك لم يبتهج. أحس بأن الغيرة تأكل قلبه. لماذا يغار أن يأكل غيره الحلوى التي زهد فيها؟ أيريد أن يحرم على كل الناس ما حرمه على نفسه؟

ووجد نفسه يقول لها:

ـ ومن قال لك إنني أقبل هذه المهمة؟ أقبل أن أكون ستاراً تلتقين خلفه مع ابراهيم؟ إن والدك اختارني لأرعاك وأرعى شقيقك فؤاد.. ولا أستطيع أن أخون الثقة التي أولاني إياها، وإلا لكنت أشبه بالقط الذي أعطوه مفتاح الكرار!

قالت نجوى في استغراب:

ـ إن والدي لم يخترك، أنا التي اخترتك وولاؤك لي، لا لأبي. ألم تشجعني على أن أحب ابراهيم؟ ألم تكتب لي الخطابات الغرامية له؟. أكان هذا رعاية لي وحفظاً لثقة أبي فيك؟

وأحرج محمد. إن منطقها صحيح. إنه يكتب خطابات باسم ابراهيم يدعوها للقائه في الحديقة بعد منتصف الليل. ويكتب باسمها خطابات لابراهيم تصف حرارة قبلاته وحلاوة ضماته.. فما الذي جعله يغير موقفه الآن سوى أنه يغار، سوى أنه لا يطيق أن يتصور أن نجوى نائمة مع ابراهيم في فراش واحد في بيروت، سوى أنه يخشى أن تخلع ملابسها لابراهيم كما خلعت ملابسها له؟

وانتفض محمد وهو يتصور نجوى تخلع ملابسها أمام ابراهيم. إن ابراهيم لن يصمد لجسدها العاري كما صمد. لن يرحمها كما رحمها. وعاد يقول لها في حزم:

- إنني مستعد أن أذهب إلى هذه الرحلة، بشرط ألا تنامي مع ابراهيم في غرفة واحدة.

وأحست نجوى فجأة بشعور الظفر والانتصار، وكأنها انتقلت في خطوة واحدة من منصب ساعي الوزير إلى منصب الوزير من جديد، وقالت:

- إنني سعيدة جداً أن أقبل شروطك. سعيدة أكثر مما تصورا

ولم يفهم محمد ماذا تقصد نجوى. لم يفهم أنها قرأت في عينيه ما أخفاه. لم يفهم أنها عرفت أنه يغار عليها. ما أسعد المرأة عندما ترى رجلاً تحبه ولا يحبها وقد بدأ يغار عليها. هذه الغيرة هي اعتراف بالحب المكتوم!

إنها لم تكن أبداً تنوي أن تنام مع ابراهيم في غرفة واحدة، ولم تكن اتفقت مع مدرسة الليسيه لتسمح لها بالمبيت مع غير طالبات الليسيه، وإنما تعمدت هذه الكذبة لتعري محمد من عواطفه.. ولم ترد أن تهينه كما أهانها، وتطلب إليه أن يعود إلى ارتداء ملابسه كما أمرها ذات يوم أن ترتدي ملابسها. بل قنعت بهذا الانتصار الصامت.. الذي ينتصرون نصف انتصار يحتاجون إلى طبول يكملون بها نصف الانتصار الباقي.. أما الذين انتصروا انتصاراً كاملاً فما حاجتهم إلى طبول يدقونها. إن انتصارهم الساحق هو الذي يدق الطبول!

■■■

غادرت الباخرة شامبليون ميناء الاسكندرية تحمل طلبة المدرسة السعيدية وطالبات مدرسة الليسيه إلى بيروت. وكانت المسافة قصيرة بين الميناءين يوماً وليلة. وكانت هذه المدة كافية لكي تحب كل طالبة من الليسيه طالباً من السعيدية، وأن يحب كل ثلاثة طلبة من السعيدية طالبة من الليسيه، ذلك لأن عدد الطلبة في الرحلة كان ثلاثة أمثال عدد الطالبات!

ولم تكن الرحلة ترفيهية فحسب، بل كانت ثقافية أيضاً، فقد علمت طالبات الليسيه كلمات الحب باللغة الفرنسية لطلبة السعيدية لأن مستوى اللغة الفرنسية في المدارس الثانوية في تلك الايام كان ضعيفاً جداً!

وقبل أن تصل الباخرة إلى بيروت كان عبدالله أفندي جودة الأستاذ المشرف على رحلة السعيدية، قد وقع في هوى مدام بواتييه المشرفة على أدب تلميذات الليسيه وسلوكهن. وبذلك أصبح «زيتنا في دقيقنا» كما تقول حكم وأمثال المعلم حنفي والد محمد عبدالكريم!

وحصل محمد على إجازة من كتابة خطابات الغرام باسم زملائه، فمن حسن حظه أن أغلب طالبات الليسيه، وخاصة المصريات منهن، كن لا يعرفن القراءة باللغة العربية!

وكانت مدينة بيروت في عام ١٩٣١ مدينة صغيرة، أصغر كثيراً مما هي عليه الآن، وكان أهل بيروت فخورين بأن الامبراطور غليوم، أمبراطور ألمانيا السابق، وصفها في زيارته لها بأنها درة ثمينة في تاج آل عثمان!

ولم يكن اللبنانيون سعداء بذكرى احتلال آل عثمان لهم. فقد ترك

الطغيان التركي بصماته في كل ركن في بيروت!

وكان لبنان يتحدث بعد مرور أكثر من عشر سنوات على هزيمة الأتراك في الحرب العالمية، وانسحابهم من بلادهم، عن الطاغية التركي جمال باشا الذي أمر الوالي التركي أن يهدم الكثير من أحياء بيروت القديمة، ويشق الشوارع العريضة مكانها، غير عابىء باحتجاج السكان وتشريدهم من بيوتهم، رافضاً أن يعوضهم عن البيوت التي هدمها والأراضي التي استولى عليها.

إن كل طاغية في العالم مصاب بنفس الداء، يضيق حياة الناس ويوسع الشوارع التي يمشون فيها. يخرب البيوت ويعمر السجون. يقطع ألسنة المعارضين بحجة نشر الهدوء والسكون ومنع الضوضاء.. الظلم في بيروت هو نفس الظلم في القاهرة. مع أن لبنان جمهورية ومصر ملكية. لبنان يحتله الفرنسيون ومصر يحتلها الانجليز!

وكان في بيروت عندما وصلها محمد عبد الكريم حركة بناء وتعمير. بنايات فخمة جديدة تقام في شارع فوش الممتد من الميناء إلى شارع ويجان قرب الجامع العمري الكبير. منطقة اسمها «النورية» تشبه منطقة عشش الترجمان في القاهرة، وكان بها سوق لبيع الخضر والفاكهة بالجملة. بدأ هدم مبانيها القديمة وأكواخها القذرة لتقام فيها المباني الحديثة وتشق الطرق الجديدة. وأهل بيروت يؤكدون أنهم سيحولون أقذر منطقة في بيروت إلى أجمل منطقة فيها!

واستقبل سليم بك تقلا محافظ بيروت يومذاك طلبة المدرسة السعيدية ورحب بهم، وحدثهم عن مشروعاته لإعادة إنشاء المدينة من جديد.

وحدثهم بدر أفندي دمشقية رئيس البلدية عن أن البلدية تشجع الشعب على البناء والتعمير، وتبيع للأهالي الأرض بالتقسيط، وصحبهم إلى المباني الجديدة التي اقيمت في بداية شارع اللنبي الممتد من أمام البنك العثماني الذي أصبح اسمه البنك السوري، إلى ناحية «العصّور» والذي تسمى نهايته باسم شارع المعرض نسبة للمعرض التجاري الذي أقيم في عام ١٩٢١.

ولاحظ الطلبة المصريون أن مدينة بيروت تشبه مدينة الاسكندرية من حيث أن أغلب شوارعها تحمل أسماء خواجات!

وقال لهم المحافظ سليم تقلا: عندما يستقل لبنان سوف تحمل شوارعه أسماء عربية!

وفوجىء محمد في اليوم التالي لوصوله إلى بيروت مفاجأة غريبة. كان قد اتفق مع نجوى أن يلقاها في ساحة الشهداء لتحدثه في أمر هام. وما كاد يصل الى الساحة حتى وجدها مكتظة بمئات الطلبة اللبنانيين يهتفون هتافاً كالرعد. وفي أول الأمر لم يتبين محمد الهتاف. ثم فهم أنهم يهتفون بسقوط شركة الكهرباء! إن الطلبة طالبوا شركة الكهرباء بتخفيض أجور الترام المرتفعة، فرفضت الشركة مطالبهم وأيّدت الحكومة الشركة في رفضها. وخرج الطلبة من مدارسهم يأخذون بأيديهم، ما رفضت الشركة أن تتنزل عنه لهم.

وبعث صوت الشباب الغاضب الساخط النشوة في قلب محمد. وجد نفسه بين صفوفهم، كأنه واحد منهم. راح يصرخ مطالباً بتخفيض أجور الترام الذي لم يركبه في الماضي ولن يركبه في المستقبل. حماس الشباب وبراءته وإيمانه أسكره. منع الطلبة

عربات الترام أن تتحرك. أغلبية الركاب تضامنوا مع الطلبة وغادروا مقاعدهم في عربات الترام. الذين أبوا أن ينزلوا على قرار الطلبة انتزعهم الطلبة من مقاعدهم.

أسرعت المفوضية الفرنسية إلى نجدة الشركة الفرنسية. أمرت الجندرمة «البوليس» أن يفرقوا الطلبة. جاءت مضخات مصلحة المطافىء وسلّطت المياه على الطلبة ليتفرقوا. صمد الطلبة للمياه. وهجموا على الخراطيم يقطعونها.

جاء الجنود الفرسان فوق خيولهم والجنود المشاة، ببنادقهم وهراواتهم وطلب أحد الضباط الفرنسيين من الطلبة أن ينصرفوا ويدعوا عربات الترام وشأنها. رفض الطلبة. قامت معركة حامية وأصابت ضربة عصا رأس محمد. سال الدم من رأسه. أحس أنه نال وساماً في معركة. إنها أول مرة في حياته يشترك فيها في مظاهرة. هتف بسقوط شركة الكهرباء الفرنسية لأنه أراد أن يهتف بسقوط الإستغلال، أي استغلال، سواء كان هذا الاستغلال في القاهرة أو في بيروت! أحس وهو وسط الطلبة اللبنانيين أنهم لا يهتفون بسقوط الشركة الفرنسية فقط، بل أنهم يهتفون بسقوط رمز للاحتلال الاجنبي، يهتفون بسقوط النفوذ الاجنبي، يهتفون بحياة الحرية، يهتفون بحياة الاستقلال، استقلال لبنان.

وشعر محمد أنه في هتافه هو إنما كان يهتف بحياة استقلال مصر واستقلال لبنان. كلنا في الهم شرق مهما يكن اسم الدولة التي تحتل بلادنا!

وبقي محمد في المظاهرة عدة ساعات. نسي موعده مع نجوى،

نسي طالبات مدرسة الليسيه. كل ما أحس به أنه يشترك في معركة، معركة ليست غريبة عنه، إنها معركته هو!

وفي اليوم التالي عاد إلى ساحة الشهداء من جديد. ذهب وكأنه يذهب إلى موعد غرام. موعد مع الجماهير. ورأى محمد الطلبة ينامون أمام عربات الترام ويقولون لسائقي الترام: دوسوا علينا! إن الشركة التي داست على حقوق شعبنا لن تتردد في أن تدوس أجسادنا! ويتردد السائقون في أن يسيروا بعربات الترام. ويجيء البوليس ويقبض على الطلبة النائمين على قضبان الترام، فيحل مكانهم طلبة آخرون وينامون مكانهم!

واشتركت النساء في المظاهرات. وانضم الشعب إلى الطلبة. وأصدر الفرنسيون أمراً بتعطيل الصحف التي انتصرت للشعب في قضيته.

وانضمت دمشق إلى بيروت وقرر طلبة دمشق مقاطعة نفس شركة الكهرباء الفرنسية التي تدير ترام دمشق. وانضمت بقية مدن سوريا التي ليس فيها ترام ولا كهرباء!

■ ■ ■

والتقى محمد بنجوى مصادفة في سوق الطويلة، وكانت تمشي مع بعض زميلاتها طالبات الليسيه، فتركت زميلاتها واتجهت نحوه غاضبة، وقالت:

ـ لماذا لم تجيء أمس إلى الموعد الذي اتفقنا عليه؟

قال محمد:

ـ ذهبت إلى ساحة الشهداء ووجدت نفسي في مظاهرة الطلبة.

قالت نجوى حانقة:

ـ لقد وقفت أنتظرك ثلاث ساعات.. لقد قلت لك أنني أريدك في أمر هام.. ولكن يظهر أن المظاهرة كانت أهم مني!

وسألها محمد:

ـ وما هو الأمر الهام؟

قالت:

ـ قررت أن أقطع الرحلة وأعود الى القاهرة اليوم بالقطار؟

قال لها محمد في دهشة:

ـ هل جننت؟ إن مدة الرحلة أسبوعان ولم يمضِ سوى ثلاثة أيام ولم نرَ شيئاً بعد في لبنان!

قالت نجوى:

ـ أنا جئت إلى لبنان لأراك، لا لأرى لبنان. لا بد أن أراك كل يوم!

قال محمد:

ـ إن عبد الله كرامي شقيق الزعيم عبد الحميد كرامي دعا طلبة المدرسة السعيدية لزيارة طرابلس غداً.

قالت نجوى:

ـ سأذهب معك!

قال محمد في ذعر:

ـ كيف تـذهبين معنـا؟ . . إن هذه منـطقة إسلاميه ومـاذا يقول عبد الله كرامي إذا رآني ومعي فتـاة سافـرة؟ إن كل النسـاء في هذه المنطقة محجبات!

قالت نجوى:

ـ سأرتدي بذلة وبنطلونا وطربوشاً!

قال محمد:

ـ أنت مجنونة! ماذا أقول لطلبة السعيدية؟

قالت نجوى:

ـ تقـول لطلبـة السعيـديـة أنني طـالب لبنـاني. . وتقـول لأهـل طرابلس أنني طالب في المدرسة السعيدية!

قال محمد في حيرة:

ـ ومن أين تجيئين بملابس الرجال؟

قالت وهي تضحك:

ـ سأشتريها الآن من سوق الطويلة؟

وتصور محمد أنها تداعبه ولم يعلق كثيراً على هذه الدعابة. .

ولكنـه فوجىء في سيـارة الاوتوبيس التي حملت طلبـة السعيديـة إلى طرابلس بنجوى جالسة بـين شقيقها فؤاد وابن خـالتها ابـراهيم المناسترلي، وقـد ارتدت جـاكتة وكـرافتة وبنـطلوناً، ووضعت عـلى رأسها طربوشاً طـويلاً جـداً أخفى كل شعـرها الـذهبي، وأحاطت رقبتها بكوفية من الصوف، وارتـدت فوق البـذلة معـطفاً ثقيـلاً. .

ووضعت فوق عينيها نظارة سوداء!

ولم يشك طلبة السعيدية في أن الراكب هو الشاب الوطني المعروف ناجي أفندي فوزي من طلبة طرابلس!

نجحت نجوى في تخفيها نجاحاً رائعاً، وخاصة بعد الشارب الكبير الذي لصقته تحت أنفها فبدت في صورة «قبضاي»!

ولم يستطع محمد أن يغضب، فقد أعجب بتنكرها، وخاصة عندما سمعها تتكلم بصوت تعمدت أن تجعله خشناً مختلطاً باللهجة اللبنانية!

وقالت نجوى أن الأمر لم يحتج الى مجهود كبير، فقد كانت مربيتها لعدة سنوات سيدة لبنانية!

وصادف أن كان يوم وصول طلبة السعيدية إلى طرابلس هو اليوم الذي قررت فيه المدينة أن تقوم بمظاهرة ضخمة احتجاجاً على الفظائع التي ارتكبها الايطاليون ضد الزعماء الوطنيين في ليبيا.

واشترك طلبة المدرسة السعيدية في المظاهرة ومعهم نجوى. ووقف السيد عبد الله كرامي وألقى خطاباً من نار هاجم فيه الاستعمار الايطالي في ليبيا، والاستعمار الفرنسي في سوريا ولبنان، والاستعمار البريطاني في مصر، وأفاض في شرح المذابح والجرائم التي يرتكبها الايطاليون في ليبيا.

ثم تكلم الزعيم الكبير عبد الحميد كرامي كلمات قليلة، ولكنها ألهبت الجماهير. جعلت من كل طفل شاباً، ومن كل شاب رجلاً، ومن كل رجل بطلاً...

وتحمس المتظاهرون وهاجموا القنصلية الايطالية في مدينة طرابلس، ورشقوها بالحجارة والطوب. واندفع الشعب يضرب كأنه يحطم سلاسل شعب ليبيا الشقيق وأغلاله.

وكان الشاب ناجي أفندي فوزي في مقدمة الذين هاجموا القنصلية الايطالية وضربوها بالحجارة وحاولوا أن يشعلوا فيها النار!

وأسرع رجال البوليس بقيادة ضابط فرنسي، وحاولوا تفريق المتظاهرين بالقوة، ولكن العنف دائماً يصنع الانفجار. وانقض الشعب يحاول أن يفترس البوليس..

وقامت معركة عنيفة أطلق البوليس فيها النار على الشعب الغاضب، ورد الشعب بضرب البوليس.. كأنها معركة حربية. الشعب هو قائدها وواضع خططها ومنفذها.

وقتل أحد الجنود وسقط اثنا عشر جريحا..

وتناثرت جثث القتلى والجرحى. وقبض البوليس على عدد من المتظاهرين ووضعهم في مخفر رأس التل. وهاجم المتظاهرون ومعهم ناجي أفندي واقتحموا مخفر البوليس وأخرجوا المقبوض عليهم رغم مقاومة البوليس.

وبعد انتهاء المظاهرة قال السيد عبد الله كرامي لبعض طلبة السعيدية:

ـ إن هذا الشاب المصري ناجي أفندي فوزي هو من أشجع الشبان الذين رأيتهم في حياتي.. لقد كان يهاجم الجنود ويشق طريقه بين الرصاص!

قال الطالب سعيد توفيق وهو يضحك:

- إنه ليس مصرياً! إنه شاب وطني معروف من طلبة طرابلس!

قال عبد الله كرامي:

- إنني أعرف كل طلبة طرابلس - الشام وليس بينهم هذا الشاب!

وفوجىء محمد بزملائه طلبة السعيدية يتقدمون نحوه ومعهم عبد الله كرامي، ويتجهون إلى نجوى التي كانت واقفة معه ومعها شقيقها فؤاد وابن خالتها ابراهيم المناسترلي، تتلقى تهانيهم عن بطولتها في المعركة..

وسمع محمد زميله جمال منصور يقول:

- كيف تقول لنا أن ناجي أفندي فوزي من طرابلس، بينما يقول عبد الله بك كرامي وهو أحد زعماء طرابلس، يقول لنا أن ليس في طرابلس طالب أو شاب بهذا الاسم؟

وكاد محمد يسقط مغشياً عليه واصطكت أسنانه.. وبدا الارتباك على فؤاد المناسترلي وابراهيم المناسترلي، ولكن نجوى لم يظهر عليها أي ارتباك وقالت:

- أنا لست من طرابلس الشام.. أنا من طرابلس الغرب.. من ليبيا!

وتنفس الفرسان الثلاثة الصعداء!

وعاد محمد إلى بيروت معجباً بسرعة خاطر نجوى فوق إعجابه بالبطولة الغريبة التي أدهشته في المعركة، والشجاعة الفائقة التي

ابدتها وهي تواجه الرصاص. .

وعندما عاد إلى غرفته في فندق الجران أوتيل كان متعباً مرهقاً من طول الرحلة، فما كاد يضع رأسه على الوسادة حتى استغرق في نوم طويل. .

ثم استيقظ على طرقات متوالية على باب غرفته، وتصور أنه نام إلى ساعة متأخرة من الصباح، واعتقد أن زملاءه أقبلوا يتعجلونه ليصحبهم إلى ضهور الشوير.

وبحث في الظلام عن مفتاح الكهرباء فلم يجده، واشتد الطرق على الباب، فدفع البطانية بقدمه، وقفز من الفراش.

وتحسس طريقه في الظلام الدامس إلى الباب.

وفتح الباب. . .

ورأى في الظلام شبح رجل طويل عريض. .

وتأمل الشبح فوجده يرتدي معطفاً، وهو ملثم الوجه!

وتراجع محمد الى الوراء وقال بصوت مرتعش:

ـ من أنت؟

وسمع صوتاً يقول له في لهجة لبنانية:

ـ شو؟. . ما بتعرفني؟. . أنا ناجي افندي فوزي. .

أنا نجوى!

تقهقر محمد وهو يرى نجوى أمامه في غرفة نومه بفندق الجران

أوتيل في بيروت. وأسرع يضيء عود ثقاب ليرى مكان مفتاح الكهرباء.

وأضاء النور الكهربائي ووجد نجوى لا تزال في ملابس التنكر التي ظهرت بها في مدينة طرابلس، المعطف، والكوفية، والجاكتة، والبنطلون والنظارة السوداء، والطربوش الطويل، والشارب الكبير.

وأسرع يغلق باب الغرفة.

وشعر بمزيج متناقض من الأحاسيس، كأنه يريد أن يدعوها ويطردها في وقت واحد. قال وهو ينظر في ساعته بفزع:

ـ الساعة الآن منتصف الليل... ماذا حدث؟

قالت نجوى وهي تتأمله في جلابية نومه البيضاء:

ـ شكلك لذيذ.. في الجلابية!

قال وهو ينظر إلى باب الغرفة المقفل في قلق، وكأنه يتوقع أن أحداً سيقتحم الغرفة بين لحظة وأخرى:

ـ ماذا حدث؟.

قالت نجوى وهي تتطلع إلى جسمه الممشوق، وصوتها يقطر صبابة وعاطفة:

ـ لم يحدث شيء... جئت أمضي الليلة معك!

وحبس صرخة كادت تنطلق منه، وقال لها وهو يخفض صوته أكثر حتى لا يسمعه جاره علي فتحي الطالب بالمدرسة السعيدية،

المقيم في الغرفة المجاورة:

ـ هل جننت؟ ماذا يقول الناس إذا عرفوا أن امرأة في غرفتي بالفندق؟

قالت ضاحكة:

ـ أنا لست امرأة.. أنا فتاة.. فتاة عذراء!

قال محمد غاضباً:

ـ هذا ليس وقت مزاح.. ماذا يقول الناس اذا وجدوا فتاة في غرفتي؟

قالت نجوى، وقد أحست بنشوة من ارتباكه واضطرابه، وهي تمسك بطرف شاربها المستعار:

ـ العمى! أنا رجل! أنا قبضاي! هل أصبت بالعمى ولم تعد ترى شاربي؟

وخلعت نظارتها، ونزعت شاربها المستعار..

وأحس محمد بفزع، وكأنها خلعت فستانها، ونزعت السوتيان.. بدت جميلة ومثيرة ورائعة في الجاكتة والبنطلون!

وعندما نزعت طربوشها، وسقط شعرها الأصفر في غير نظام خلف ظهرها اهتز محمد وكأنها خلعت أكثر من الفستان والسوتيان!

ووجد محمد نفسه بحركة غير إرادية يشد جلابيته وكأنه يتشبث بها خشية أن تجرده نجوى هو الآخر من ملابسه!

ولكن نجوى لم تقترب منه، بل خلعت معطفها ورقدت على السرير بالجاكتة والبنطلون. .

ووجد محمد مقعداً في نهاية الغرفة بجوار المدفأة فأسرع يجلس اليه، وكأنه يحرص على أن يزيد طول المسافة بينه وبينها. .

وأحس محمد بأنه يواجه في بيروت نفس الصراع الهائل الذي واجهه في القاهرة. إنه يريدها ويخافها، يتمناها ويرهبها. إن ليلة معها قد تكلفه عمره كله. إنها ستسعده ساعة ولكنها ستشقيه طوال حياته.

ونظر إلى المدفأة المنطفئة إلى جواره، وإلى جسد نجوى الراقد في الفراش، وأحس بقشعريرة. انتفض من البرد، وشعر كأن نجوى هي المدفأة المشتعلة.

واستطاع بجهد جبار أن يدوس على رغبته ويقول بصوت مرتجف:

ـ إننا لم نتفق على هذا!

قالت نجوى وهي تبتسم:

ـ لقد اشترطت علي قبل السفر شرطاً واحداً هو ألا أبيت في بيروت مع ابراهيم. ولكنك لم تشترط علي ألا أبيت معك. .

وسكتت قليلاً، ثم رق صوتها وقالت:

ـ ولو كنت اشترطت عليّ ألا أبيت معك في بيروت لألغيت الرحلة!

ونظرت إلى سقف الغرفة وكأنها تتحدث بلا مبالاة إلى نقوش

سقف الغرفة:

ـ إذا لم تتركني أبيت معك.. فسوف أذهب إلى غرفة ابراهيم وأبيت معه!

وانتفض محمد في مقعده.. إنها تخيره بين أمرين كلاهما مر. ولكن المبيت في غرفته أسلم من المبيت في غرفة ابراهيم. إنه على الأقل يستطيع أن يحافظ على سلامتها.

قال:

ـ إذن سأنام أنا على الأرض وتنامين أنت على الفراش!

قالت وهي تنظر إليه نظرة بريئة كان فيها من الاغراء أكثر من كل نظرات الفتنة والاغراء:

ـ لماذا تنام على الأرض؟ إن الفراش واسع يسعني ويسعك.. وإذا كنت خائفاً على نفسك مني فيمكن أن تضع وسادة بيني وبينك!

قال محمد وهو يتلوى في داخله من الرغبة، كأن في داخله رجلين، رجلاً يريد أن يحتويها ورجلاً يريد أن يهرب منها. شيطان في تائب، راغب في ممتنع.

وفجأة رأى أمامه صورة أبيه الأسطى حنفي عبد الكريم يقول أحد أمثاله البلدية «آخر خدمة الغز علقة»...

ووجد محمد نفسه يغرق في التفكير بمعنى هذا المثل القديم. إن الناس يتصورون أن معناه أن من يخدم الغازية أي الغانية مصيره أن يضرب علقة أو يأكل قتلة في نهاية الأمر. ولكنه يتصور أن

المقصود بالغوازي هم الغزاة.. إنه مثل مصري قديم تعلمه المصريون مع الزمن وقد رأوا أن كل من خدم الطغاة الذين احتلوا مصر من إغريق ورومان وفرس وترك كان مصيرهم أن يلفظهم الغزاة بأن يعصروهم ويلقوهم على الأرض كما نفعل بالنواة! إن نجوى «غازية» و«غازي» في وقت واحد.. وسوف يعطيها قلبه فتعطيه في نهاية الأمر ضربة على رأسه!

واتجه إلى الفراش، ومد يده وحمل إحدى الوسادتين، ووضعها على الأرض ونام على الأرض!

قالت له نجوى ساخرة:

ـ أنت خائف مني على نفسك؟

قال لها محمد:

ـ كلا.. أنا خائف عليك من نفسي!

وأخرجت نجوى من جيب جاكتتها مرآة وأصبع الأحمر، وراحت تلون شفتيها، ولمعت عينا محمد، فالتفتت إليه نجوى باسمة:

ـ ألا يعجبك الأحمر على الشفاه؟!

قال محمد وهو يتنهد:

ـ أريد أن أمسح أحمر شفتيك بمنديل من القبل!

قالت وهي تشعر بأنها انتصرت عليه:

ـ انتظر حتى أضع «البيديكور» في أصابع قدمي!

وانتفض محمد وقال غاضباً:

- إنني لا أقبل اقدام النساء!

وقفزت نجوى من فراشها، وأسرعت إليه، وجلست تحت رجليه، وأمسكت بيدها أصابع قدميه، وراحت تقبل كل واحدة منها وهي تقول:

- أما أنا.. فالرجل الذي أحبه أجد شرفاً في أن أقبل أصابع قدميه، يا محمد ليس في الحب كرامة!

قال محمد:

- وهذا ما يجعلني أخاف من الحب!

قالت نجوى:

- إننا لا نشعر بكرامتنا إلا وسط الذين لا نحبهم. إن صفعة رجل على وجه امرأة يحبها لها طعم القبلة. وقبلة رجل آخر لا تحبه، لها طعم الصفعة. يوم نحب، نتمنى أن نمشي تحت أقدام أحبائنا، ويوم نكره نتمنى أن نمشي فوق رؤوس أعدائنا. إنك تريد أن تجعل من الحب معركة بين جيشين. كل جيش يرفع أعلامه ويشهر سيوفه ويعد مدافعه. والحب كما أفهمه ليس حرباً، وإنما استسلام بدون قيد ولا شرط. هو قلاع مفتوحة وحصون ترفع الراية البيضاء. وليس في الحب مهزوم ومنتصر. الهزيمة والانتصار هما نهاية الحب. إننا عندما نحب نتجرد من ملابسنا. وما أشبهك برجل يرتدي بذلة التشريفة الكبرى قبل أن ينام بجوار عشيقته في الفراش، لتعرف أنها نائمة مع وزير!

قال محمد:

ـ إنني لا أرتدي بذلة التشريفة، أنا أرتدي جلابية. ومع ذلك اشعر إنك مهما خلعت ملابسك فستقبين تحت ملابسك الداخلية، وربما تحت جلدك، بذلة التشريفة الكبرى! لقد قلت لك ألف مرة أن هذا هو السبب الوحيد الذي يفصل بيني وبينك. .

قالت وهي تتحسس قدمه بشفتيها وكأنها تبحث عن رقم سري يفتح خزانته الحديدية:

ـ إذن، ليست العقبة هي صداقتك لابراهيم؟

وأبعد محمد بيده شفتيها عن ساقه وقال:

ـ طبعاً. . طبعاً. . إن صداقتي لابراهيم سبب هام يقف بيني وبينك. .

قالت نجوى ساخرة وهي تطبع قبلة طويلة على ساقه:

ـ وسبب ثالث. . إنك تخاف علي من نفسك!

وأحس محمد بكهرباء عجيبة، كأنها لم تقبل ساقه فقط، كأنها وضعت شفتيها الساخنتين على جسده كله. ووجد نفسه بغير تفكير يطوقها بذراعيه ويقبلها قبلة طويلة على شفتيها. .

وتركته يعانقها ويقبلها، ثم دفعته بيدها بعنف، وقالت:

ـ أنت غشاش! أنت كذاب! أنت خدعتني!

وفوجىء محمد بهذه الاتهامات تنهال عليه بعد أن ذاق أول قبلة نالها في حياته. ولم يشعر بأن كرامته قد أهينت، فإن كرامته ذابت في رحيق شفتيها!

وهاله أن يرى من عينيها بريق الغضب. .

ماذ فعل؟! إنه أجابها لطلبها الذي كانت تلح فيه وتطارده من أجله!

وصاحت فيه بازدراء وهي تضع على عينيها النظارة، وتثبت الشارب وتتجه نحو الباب:

ـ إنك ضللتني! وخدعتني! إنك أوهمتني أن لك علاقة غرامية بعشر نساء، وأنك دون جوان، وأنك ردولف فالنتينو، وأنك زئر نساء! إن طريقة قبلتك تدل على أنك مبتدىء. . ما زلت في سنة أولى. . إنني لا أحب العشاق المبتدئين!

وتركته وأغلقت الباب وراءها بعنف!

■ ■ ■

وجلس محمد على الفراش في ذهول، وهو يتحسس شفتيه، كما يتحسس المضروب على وجهه أثر صفعة قوية انهالت عليه!

أعطته قبلة وجرّدته من رجولته. ذاق طعم الشهد وطعم الهوان في لحظة واحدة. جلس مبهوتاً لا يتحرك، فقد القدرة على التمييز، أكان لقبلتها طعم الرحيق، ولقبلته طعم المر والصاب؟

وارتدى ملابسه، ونزل إلى صالة الفندق ولم يجد فيها أحداً في الصباح المبكر. وترك الصالة وغادر الفندق وأخذ يمشي كالمجنون في شوارع بيروت، يتطلع إلى شفاه الرجال، ويدقق النظر فيها، أتختلف شفاه الناس؟ أهناك شفاه ولدت لتلثم، وشفاه خلقت لتلعن؟ ثم رأى ابراهيم في سيارة أمام الفندق، ودعاه ليذهب معه لزيارة مدن المصايف في السيارة التي استأجرها لهذا الغرض.

وأحس محمد بأنه في حاجة لأن يغير المناظر، ويغيّر الجو. إنه يكاد يختنق في بيروت. وقبل الدعوة على الفور، وإذا به يرى نجوى قادمة ومعها شقيقها فؤاد. كانت ترتدي ثوب النساء هذه المرة. جميلة وفاتنة ورشيقة. ويبدو من عينيها أنها نامت ملء جفونها. ترى أين نامت؟ وفي أي فراش أكملت ليلتها؟ وما سر هذه السعادة التي تملأ وجهها؟ هل وجدت القبلة التي كانت تبحث عنها؟

وشعر برغبة في الهروب، وعاد يعتذر، فألح عليه ابراهيم وفؤاد أن يذهب معهما، وبقيت نجوى صامتة.

وأصر على أن يجلس إلى جوار السائق. هذا هو مكانه الطبيعي فليجلس فيه. إن سر عذابه أنه جلس في غير مكانه. ومضت بهما السيارة إلى دير القمر. ولاحظ طوال الطريق أن نجوى تضحك باستمرار تهمس بكلمات في أذن ابراهيم ثم يرتفع صوتها بضحكات عالية. واحمر وجهه خجلاً. أيضحكان منه؟ أيضحكان من الدون جوان الفاشل، من فالنتينو الخائب، من زئر النساء الذي سقط في امتحان السنة الأولى في مدرسة الحب؟

وشاهدوا الجامع الأثري الذي بناه الأمير فخر الدين، وسراي دير القمر التي بناها الامير يوسف الشهابي. ودخلوا الدهاليز والسراديب الخفية في قصر الأمراء المعروفة باسم «الخرج». واستوقف نظر محمد أن نجوى وابراهيم كانا يبقيان مدة في داخل الدهاليز والسراديب، ثم يخرجان ونجوى تتعمد أن تضحك وهي تسوي خصلات شعرها، وكأنها لم تضع وقتها بين الدهاليز والسراديب.

ومشوا في الحديقة الرائعة التي يطل عليها قصر بيت الدين،

وراءهم جمال القصر وفخامته، ولكن نجوى طوال جولتها لم تكن تنظر إلى فخامة القصر، ولا إلى روعة المناظر، بل كانت متجهة بكل عينيها تحملق في وجه ابراهيم، بل إنها تنظر إلى شفتيه. وأحس محمد بغيرة وحشية تنهشه هل تقارن نجوى بين قبلة ابراهيم وقبلته؟ هل كل هذا الاهتمام الذي تغمر به ابراهيم دليل على أن ابراهيم عرف كيف يقبلها، وفشل محمد في تقبيلها؟

وعندما ذهبوا إلى نبع الصفاء، حيث تلتقي مياه نبع القاع بمياه نبع العين، كما تلتقي الشفاه في قبلة صامتة، تذكر محمد وصف أمير الشعراء أحمد شوقي لالتقاء النهرين:

وكان همس القاع في أذن الصفا   صوت العتاب ظهوره وخفوته!

ولكن لقاء شفتيه بشفتي نجوى لم يكن همساً بل كان أشبه بالزلزال، ولم يتبعها صوت عتاب خافت وظاهر، وإنما تبعها صوت أشبه بصوت ضربات السياط!

وشاهدوا مصيف عين زحلتا، بغاباته الجميلة ونهر الصفا يجري كأنه يقبل أقدامها، كما قبلت نجوى قدمي محمد!

ولكن ما قيمة تلك القبلات على قدميه، وقد هوت نجوى بعد ذلك بالمطارق على رأسه، ليتها ما قبلته وما قتلته! إنها جعلته يشعر بمركب نقص غريب كالذي يشعر به العريس الذي يفشل في أن يكون رجلاً ليلة الزفاف!

لماذا لم يسأل زملاءه الذين يعشقون في المدرسة السعيدية ويكتب لهم الخطابات الغرامية الحارة عن طريقة التقبيل؟ إنه لم يتصور أن القبلة فن من الفنون الجميلة يحتاج إلى خبرة ودراسة وموهبة. لم يتصور أنه يوجد

علم اسمه علم التقبيل له أصول وفروع ونظريات. لم يكن يتصور أن هذه الفتاة الصغيرة استاذة في هذا العلم، تمتحن التلاميذ وتمنحهم الدرجات وتوزع الشهادات!

ولو كان محمد أكبر سناً مما هو وأكثر تجربة لعرف أن الرجال يتعلمون القبلات من شفاه النساء، كلنا مثلاً يستطيع أن يأكل ثمرة المانجو، ولكن القليل منا الذين يستطيعون أن يستمتعوا بكل حلاوتها ومذاقها. الخبير يعرف كيف يأكل المانجو دون أن تتسخ يداه، ويعرف كيف ينحتها دون أن يترك فيها ذرة من عصير. يعرف إذا كان يبدأ بالبذرة أو باللحم أو بالجلد. ثمرة المانجو أشبه بالمرأة تستلذ بالرجل الذي يعرف كيف يأكلها، ومن أين يأكلها، وأين يبدأ وأين ينتهي بها!

ولكن محمداً كان يأكل المانجو لأول مرة في حياته، التهمها ببذرتها وبجلدها، وهكذا عرفت نجوى أنه يأكل المانجو لأول مرة في حياته!

أتكون شفاه الأغنياء هي المانجو، وشفاه الفقراء هي الخيار والجميز؟ كلا إن شفاه كل النساء لها طعم واحد، ولكن الكأس التي توضع فيها هاتان الشفتان هي التي تغير مذاقها. والكأس هي شفاه الرجال، وهذه الكأس قادرة أن تغير طعم الخيار إلى مانجو، وطعم المانجو إلى خيار، وهنا تظهر خبرة الرجل في فن التقبيل!

وأحس محمد من انصراف نجوى عنه، أنه ذاق طعم ثمرة المانجو ولم يعرف كيف يأكلها؟ ولم يعد يحس بطعم المانجو في شفتيه. أحس ببراكين من الفشل، بشيء يزمجر فيه يلعن نفسه ويلعنها. ضميره قام من سباته يندب مبادئه. عاطفته الشبقة تصرخ فيه لأنه خذلها. في شفتيه طعم حلم مذبوح، طعم هوى محكوم عليه بالاعدام، طعم زهرة مشنوقة. طعم حب مهزوم.

وفي كل لقاء كانت نجوى تتعمد إذلاله وهي تتجه بكل اهتمامها إلى ابراهيم. كأنها تسعد ابراهيم وتشقيه. تعطي لابراهيم الورد وتعطيه هو الشوك. ما أتعس الذين يموت يومهم بين أيديهم. يرون رغيفهم في أفواه سواهم. أولئك الذين يهلكون من البرد في قلب امرأة لا تحبهم! إنه الآن يندم لأنه قبلها، وبالأمس كان يندم لأنه لم يقبلها. إنه اليوم حزين لأنه عزف على قيثارتها فلم تعجبها النغمة، وبالأمس كان تعيساً لأن القيثارة كانت بين يديه ولم يعزف عليها. كان يظن أن هاتين الشفتين هما أبواب الجنة، فإذا بهما أبواب الجحيم. كأن هاتين الشفتين هما بيت جحا الذي وصفه له زملاؤه الذين زاروا مدينة الملاهي في المعرض، يدخله الزائر ويتوه في دروبه وسراديبه ودهاليزه ويعجز عن الخروج. ولكنه لا يتوه في شفتيها فقط، إنما هو يموت بين هاتين الشفتين، يموت منتحراً!

هذه القبلة الملعونة أفقدته مكانته. كان يشعر أنه جوهرة تعلقها نجوى على صدرها، وهو اليوم يشعر أنه ملقى في سلة المهملات. كأنه منديل الكلينكس المصنوع من الورق، تمسح به المرأة، الأحمر من شفتيها، ثم تلقيه في السلة!

وأحس محمد أنه يكره شفتيه، كان يعضهما طوال الوقت بأسنانه، وكأنه يعاقبهما لأنهما فشلتا في امتحان القبلات. وكان يعذبه أن يرى صديقه ابراهيم سعيداً، وأن يسمعه يقول له أنه لأول مرة في حياته أصبح يؤمن بأن نجوى لا تحبه فقط، بل تعبده أيضاً. ترى هل عرفت نجوى قيمة شفتي ابراهيم عندما ذاقت شفتي محمد؟ إن البلح يبدو في فمنا كالشهد إذا ذقناه بعد طعم الخيار!

وحاول أن يكتم خيبته في نفسه، وأن يشيح بوجهه عن وجه نجوى

حتى لا يرى في عينيها نظرة الشماتة فيه، ولكنه كان يتطلع إلى عينيها باستمرار، وهما تتطلعان إلى وجه ابراهيم، وكأنها تريد أن تأكله. نفس النظرة التي كان يراها محمد في عيني نجوى عندما كانت تشحذ منه قبلة، قبلة واحدة لله!

■ ■ ■

وتنفس الصعداء عندما انتهت الرحلة، وعاد إلى بيته في شبرا. كان يريد أن ينفرد بنفسه في مكان، ليبكي ولا يرى أحد دموعه، وليصرخ ولا يسمع أحد صراخه. وفكّر في أن ينقطع عن الذهاب إلى بيت نجوى فلم يستطع، وكان يكذب على نفسه ويقول إنه يجب أن يذهب من أجل الخمسة الجنيهات التي يتقاضاها كل شهر. وفجع عندما رأى نجوى لا تشير بكلمة إلى قبلة بيروت. كأن شيئاً لم يحدث في بيروت. وكان تجاهلها لما حدث يعذبه ويضنيه. ولم يجرؤ أن يفاتحها في موضوع القبلة. فهو يريدها أن تتحدث في هذا الموضوع، وفي نفس الوقت يريد أن تتجاهل هذا الموضوع. ولو أنها تكلمت لتعذب كما يتعذب وهي صامتة. إنها تركته سكران بالعذاب، يترنح في تجاهلها.

وكلما مضت الأيام كبرت مصيبته، تضاعفت تعاسته. كل شيء يكبر مع الوقت حتى الفشل. وكان يضاعف تعاسته أن نجوى كانت تتحدث بمناسبة وبغير مناسبة عن حبها لابراهيم وإعجابها بابراهيم.. وتصر في كل لقاء أن يكتب محمد باسمها خطاب حب من نار لابراهيم..

وبعد ظهر أحد أيام الخميس قالت له نجوى:

ـ لم أشعر في حياتي أنني أحب ابراهيم كما أحبه اليوم. كل يوم نزداد تقارباً واندماجاً. إنني لأول مرة أصبحت أحلم به كل ليلة.. وفي

الماضي لم أكن أحلم به أبداً. إنني أريد أن تكتب له خطاب غرام لم تكتب مثله في حياتك. تقول له إنني أحبه وأعبده. إنني أحب هـذه الدنيا لأنه يعيش فيها. أحب شباك بيتي لأنه يطل على شباكه. أحب الريح لأنني أعرف أن بعض نسائمها ستداعب خصلات شعره بدلاً من أصابعي. أحب الكلمات لأنها تعبر عن حبي له. أحب الأرض لأنه يمشي عليها. أحب النار لأنني أرى فيها صورة الحريق الذي في قلبي. أحب كل السكر الذي في العالم لأن فيه طعم شفتيه.

قال محمد وهو يكتم غيظه وحسده:

ـ إن هذا الكلام أحلى من أي خطاب غرام... يكفي أن تكتبي كل ما قلته الآن ليكون أروع خطاب حب!

قالت نجوى في حماس:

ـ إن الكلمات لا تكفي.. أريد أكثر.. أكثر.. أكثر! لا تكتب هذا الخطاب الآن. عندما تعود إلى منزلك اجلس في هـدوء واكتب لي مشروع هذا الخطاب وهاته لي غداً..

وانصرف محمد من بيت نجوى وهو يتعثر في خطواته. أحس أن ساقيه لا تحملانه وإنما تحملان جثة. كانت السـاعة السـادسة بعـد الظهر، وكانت الشمس في طريقها إلى المغيب، ولكنه لم يرَ الشمس، أحس بظلام دامس يطويه. شعر أنه لا يمشي على قدميه وإنما يمشي على جروحه. كل شيء فيه مظلم مقبض. أصوات مجهولة تندبه، أصابع مجهولة تخنقه، إن خيبته هي التي صنعت انتصار ابراهيم، هزيمته هي سر مجد ابراهيم، فشله في القبلة هو الذي جعل لقبلة ابراهيم كل هذه الحلاوة في شفتي نجوى.

عاد محمد إلى بيته يحاول أن يكتب الخـطاب الغرامي المـطلوب.

وأحس وهو يحاول أن يكتب أنه يكتب نعيه، يصف جنازته، يحمل نعشه على كتفيه. الورقة البيضاء بدت أشبه بالكفن. كأنه يحفر قبره بأظافره، فليكن القبر كبيراً ليسعه، ضخماً ليليق بمقامه!

ولم يستطع أن يكمل الخطاب. كتبه عشر مرات ومزقه عشر مرات. لا يكاد ينتهي من صنع نعشه حتى يحطمه، لا يتم حفر قبره حتى يردمه!

وأحس بتعب وإرهاق فاستلقى في فراشه لينام بضع ساعات، ثم يصحو في الفجر ليتم الخطاب الملعون..

■ ■ ■

وفتح عينيه فجأة ووجد ابراهيم المناسترلي أمامه يدفعه بيده ليستيقظ ويقول:

ـ قم يا محمد.. اصح يا محمد.. سنقوم الآن بعملية خطف!

ـ وتصور محمد أنه يحلم فعاد إلى النوم من جديد. ودفعته يد ابراهيم بقوة، وسمعه يقول:

ـ ليس هذا وقت النوم... إنني في حاجة إليك.. سنقوم الآن بعملية خطف..

وفتح محمد عينيه في دهشة وقال:

ـ خطف؟. خطف من؟.

قال ابراهيم:

ـ سنخطف نجوى! وقد وضعت الخطة، وأحضرت مسدس والدي معي لأطلق الرصاص على من يعترض طريقي.. إننا سنذهب إلى

بيتها ونخطفها . . ودورك في العملية بسيط جداً، كل المطلوب منك أن تضع قدميك على البنزين، عندما أترك السيارة وأدخل بيت عمي، و . . .

وقاطعه محمد وقال له:

ـ هل أنت مجنون؟ لماذا نخطفها؟

ودفع ابراهيم إلى محمد بجريدة «الاهرام»، وأشار إلى صفحة الاجتماعيات وقرأ الخبر التالي:

قران كريم

«تم في الساعة الثامنة من مساء أمس عقد قران صاحب السعادة حسين باشا الأشموني سفير مصر في روما على ربة الصون والعفاف الآنسة نجوى كريمة صاحب المعالي كمال المناسترلي باشا وزير الأوقاف السابق.

وتولى صيغة العقد حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد الأحمدي الظواهري، شيخ الجامع الأزهر».

ولم يصدق محمد عينيه وعاد يقرأ الخبر من جديد مرة، ومرتين، وثلاث مرات ثم قال في ذهول:

ـ الساعة الثامنة مساء؟ هذا مستحيل. . إنني كنت مع نجوى حتى الساعة السادسة مساء وكانت آخر كلمة قالتها إنها تحبك وتعبدك.

قال ابراهيم وصوته يرتجف من اللوعة:

ـ إن هذا هو الذي جعلني أصمم على خطفها. إنني واثق أن هذا الزواج تمّ بغير علم نجوى وبغير موافقتها. أو أنهم أرغموها بالقوة على

هذا الزواج. أنا أعرف عمي، فهو مجرم، وأعرف خالتي فهي شريرة، ولا بد أنهما اكتشفا أنها تحبني وأنني أحبها، ولهذا دبرا هذه الجريمة للتفريق بيننا. إن واجبي أن أتقدم لإنقاذها فوراً، لأنني لو تأخرت فسوف تنتحر. . .

قال محمد:

ـ إنها قالت لي أمس أنها تحب هذه الدنيا لأن ابراهيم يعيش فيها.

وامتلأت عينا ابراهيم بالدموع وقال:

ـ هيا ارتد ملابسك يا محمد. . إن كل دقيقة نتأخرها قد تؤدي إلى أن نصل إليها ونجدها جثة هامدة.

قال محمد متأثراً:

ـ دعنا نفكر أولاً بهدوء. . إنني أخشى إذا اقتحمت أنت بيتها بغير اتفاق سابق مع نجوى أن تقع مذبحة. قد يتعرض لك والدها وتقتله. أو قد يتعرض لك الخدم ويقتلونك. إنني أفضل أن أذهب الآن وحدي إلى نجوى، بحجة أنني قرأت الخبر في الصحف وجئت أهنئها، وعندما ألتقي بها أتفق معها على الخطة. إن ذهابك في الصباح خطر، وخاصة أن خدم بيت كمال باشا يعرفونك، ولن يسمحوا لك بالدخول. ومن رأيي أن أتفق معها على أن تقفز في منتصف الليل إلى حديقة بيتها كما تفعل ليلة الأحد، ثم تساعدها على الصعود إلى السور على سلم الحبال الذي اعتدت أن تستعمله. وأنا أقف في حديقة بيتك أساعدها على النزول، وبعد ذلك تأخذها إلى حيث نشاء. وبهذه الطريقة لا تعرض حياتك للخطر وخطتك للفشل.

وكان ابراهيم مضطرباً وهو يستمع إلى تفاصيل الخطة الجديدة فلم

يفهمها، وقال لمحمد:

- أرجوك أن تعيد بتؤدة ذكر الخطة. .

أعاد محمد مشروع تفاصيل الخطة. .

وهز ابراهيم رأسه إعجاباً وقال:

- هذه خطة هائلة. . وأنا موافق على تنفيذها. .

قال محمد:

- تبقى مسألة. . أين ستأخذ نجوى؟ هل يوافق والدك ووالدتك على إقامتها معكم في البيت؟.

قال ابراهيم:

- لن يوافقا، إنهما يكرهانها أكثر مما يكرهان أم نجوى وأباها. وقد فكرت في أن أخفيها في عزبة زميلنا محمود البوهي في المنيا. ومن هناك نرفع قضية ونتهم كمال باشا بالتزوير، وخاصة أن نجوى ليست قاصر لكي يبت أبوها في مسألة كهذه بدون موافقتها. .

ووقف ابراهيم يلوح بالمسدس في يده وهو يقول:

- سأقتل كل من يقف في طريق حبي! إن هذا المسدس فيه ست رصاصات!

وأحس محمد بقشعريرة، وحمد الله في سره لأنه سقط في امتحان القبلات، فلو كان قد نجح في هذا الامتحان لكانت رصاصات هذا المسدس الست من نصيبه هو. .

وقال له محمد:

ـ أعطني هذا المسدس . . ولسنا الآن في حاجة لاستعماله . ووجوده معك في حالتك العصبية هذه قد يجعلك تستعمله في وقت غير مناسب . .

■ ■ ■

وتسلم محمد المسدس من ابراهيم وأخفاه في صندوق تحت فراشه .

وركب محمد مع ابراهيم في سيارته ، وقطع ابراهيم المسافة بين جزيرة بدران والزمالك في سرعة جنونية .

وأوقف ابراهيم سيارته على شاطىء النيل في الجزيرة ، بناء على طلب محمد ، وقال محمد إنه يفضل أن يقطع المسافة من النيل إلى بيت نجوى في شارع الجبلاية مشياً على الأقدام حتى لا يلفت الانظار .

وسار محمد يفكر في هذا القدر الغريب الذي جعله يشترك في جريمة خطف ، لكي يسلم المرأة التي يحبها إلى منافسه في حب هذه المرأة!

ولكنه كان يحس أن إرغام نجوى على الزواج من رجل لا تحبه هو عدوان عليه! صحيح أنه لم يعد يملك شيئاً في نجوى بعد أن لفظته ، ولكنه لا يزال يحبها . هزيمته لم تقض على هذا الحب ، بل جعلته أكثر اشتعالاً . لم يحقد عليها لأنها فضّلت ابراهيم عليه ، بل حقد على نفسه لأنه فشل في أن يحتفظ بها لنفسه .

وشعر محمد بفخر أنه استطاع في هذا الموقف الدقيق أن يرتفع على ألمه الشخصي . إننا عندما نحب حباً حقيقياً نتعذب لأن المرأة التي أحببناها سعيدة مع رجل غيرنا ، ولكننا نموت عندما نعرف أنها تتعذب مع رجل آخر . إن شعور الشماتة من صفات الحب الصغير . الحب الكبير كالرجل الكبير يرتفع عن الصغائر ، ينسى جروحه ، ولا ينسى أيامه الحلوة .

ونسي محمد في هذه اللحظات عذاباته وآلامه وإهاناته، نسي الليالي التي لم يذق فيها النوم، نسي كلمات نجوى وهي تصف بازدراء قبلته الفاشلة. لم يعد يذكر سوى اللحظة التي جرّدها فيها من ملابسها، سوى جلوسها تحت قدميه في بيروت، سوى قبلاتها الملتهبة على أصابع قدميه وساقيه! هذه اللحظات السعيدة تزيد من شعور عذابه. يجب أن ينقذها، يجب أن يساعدها لكي تبقى مع الرجل الذي تحبه. كل تضحية تهون من أجل هذه المرأة التي أسعدته دقائق معدودة.

ترى هل يستطيع أن يقابلها؟ أم سيواجهه البواب بأن الست الصغيرة غير موجودة؟

كان ابراهيم على حق عندما كان يقول أن عمه كمال باشا المناسترلي رجل مجرم وشرير. لا بد أن نجوى اعترضت على هذا الزواج. إن شخصيتها القوية لا يمكن أن تقبل أن يفرض عليها الزواج. لا بد أنها قالت أنها في العشرين من عمرها ولا يمكن أن تتزوج رجلاً في الستين من عمره! كيف يجتمع الربيع والخريف؟ كيف يتزوج الفرن الكهربائي من فريجيدير؟ لا بد أن كمال باشا المجرم ثار على وقاحة ابنته. لا بد أنه صفعها على وجهها، لا بد أنه أمر بتكميم فمها حتى لا تصرخ ويسمعها بيت عدوه وشقيقه سمير باشا المناسترلي. لا بد أن والدها المجرم قيّدها بالسلاسل وسجنها في إحدى الغرف ليمنعها من الهرب أو رفض هذاالزواج الغريب.

وماذا يفعل إذا منعه الحراس من مقابلتها؟ لن يعود أدراجه، سوف يقتحم القصر ويقول أنه أستاذ في اللغة العربية وأنه يجب أن يقابله لإعطائه الدرس. وسوف يجعل فؤاد رسوله إلى نجوى يحمل إليها خطة الهرب. إن محمد يعرف أن فؤاد تحت سيطرة نجوى الكاملة، ولا يمكن

أن يتخلى عن شقيقته في هذا الموقف الرهيب. فؤاد سوف يدبر له الطريقة التي سوف يلتقي بنجوى بواسطتها.

وأشفق على نفسه أن يرى نجوى في هذه الحالة التعسة، ودموعها تسقط على خدّيها. واضطرب عندما تصور نجوى في سجنها وسلاسلها. وأحس بشيء من الفروسية يولد فيه. لماذا يجعل ابراهيم يتحمل مسؤولية خطف نجوى؟ لماذا لا يتولى هو هذه التضحية؟ سيقدمونه إلى المحاكمة؟ سيحكمون عليه بالسجن؟ كل هذا يهون لكي يسعد المرأة التي أسعدته لحظات. لقد تمنى في يوم من الأيام أن يكون المنديل الذي يمسح الأحمر عن شفتيها. أما الآن فإنه يتمنى أن يكون المنديل الذي يمسح دموعها، يتمنى أن يكون المعول الذي يحطم سلاسلها. يتمنى أن يكون وحده منقذها من سجنها!

ووصل إلى بيت كمال باشا المناسترلي. وفوجىء بالبواب يبتسم له ويفتح له الباب. طوال الطريق كان يتصور البواب في صورة رجل متجهم كأحد زبانية الطريق. طوال الطريق كان يتخيل المشادة التي ستقع بينه وبين البواب، وكيف سيدفعه جانباً يزيحه من طريقه ويتجه إلى الباب الداخلي.. ففوجىء بالبواب يفتح له الباب على مصراعيه كأنه العريس..

ولم يجد سلاسل على الباب.. ولم يجد حراساً أشداء.. إن شيئاً في البيت لم يتغير كما عهده في اليوم السابق..

وأدخله السفرجي إلى غرفة المكتب..

وبعد دقائق دخلت نجوى..

دخلت وليس في عينيها دمعة واحدة. على فمها ابتسامتها الحلوة. ولكنها لم تتجه نحوه..

بل دارت على عقبيها . .

واتجهت من جديد إلى باب الغرفة وأغلقته من جديد . .

وعادت إليه وقد فتحت ذراعيها تضمه بقوة إلى صدرها وتقول :

ـ قبلني! قبلني يا محمد! قبلني يا حبيبي!

سحبت نجوى شفتيها من شفتي محمد في بطء لذيذ. وتطلع محمد إلى عينيها. لم يرَ في العينين «القرف» الذي رآه بعد قبلته الأولى. كانت سكرى بالقبلة الثانية. أحس برعشتها بين ذراعيه. شعر بأنفاسها وهي تمتزج بأنفاسه. لم تلطمه بأنه مبتدىء كما لطمته بعد قبلته الأولى. بدا له أن القبلة أرضت شفتيها الجائعتين.

ودهش محمد، فما الذي تغير في قبلته؟ هل من الممكن أن ينتقل التلميذ في مدرسة القبلات مرة واحدة من السنة الأولى إلى الجامعة؟ أم أن الفرق بين القبلتين أنه سرق القبلة الأولى وهي تبرعت بالقبلة الثانية؟

كثيراً ما سمع أن القبلة المسروقة ألذ كثيراً من القبلة الممنوحة. ونسي محمد في هذه المقارنة أن هذه اللذة يشعر بها السارق أكثر مما يشعر بها المسروق. وعندما تعطي المرأة القبلة برغبتها تعطي معها أشياء كثيرة. وعندما نخطف القبلة من شفتيها نكتفي في لهفتنا أن نسرق القبلة وحدها ولا نسرق معها الأشياء الكثيرة!

المرأة، وهي تمنح القبلة، تجود بروحها ونفسها وعواطفها مع القبلة. كأنها تمنح الرجل القرط الثمين الذي في أذنها، وعقد اللؤلؤ الذي يحيط

بجيدها، والخاتم الغالي الذي في أصبعها، والسوار الماسي الذي في رسغها. وعندما يخطف الرجل القبلة يكون أشبه بالنشال الذي ينشل كيس المرأة الصغير من حقيبة يدهـا، وينسى أن يخطف مـع الكيس الصغير القرط والعقد والخاتم والسوار!

واقتاد محمد نجوى من يدها، وأجلسها بجـواره في أحد المقـاعد المخملية الموشاة بالذهب، وقال لها هامساً:

- وضعت خطة لخطفك. . . وسوف ننفذها الليلة!

قالت نجوى في دهشة:

- تخطفني؟ لماذا تخطفني؟

وارتج الكلام على محمد، وتقلصت أساريره، وبرز عظم وجنتيه، وبدت عليه دهشة أكبر من دهشتها لهذا السؤال الغريب، وقال وقد التمعت عيناه:

- أخطفك لأنقذك!

قالت نجوى وقد تضاعفت دهشتها:

- تنقذني ممن؟

وقال محمد وهو يتململ من غباوتها:

- أنقذك من زواجك من حسين باشا الأشموني!

ووضع محمد يده الملتهبة على كتفها الناصعة الساطعة وكأنه يطمئنها إلى أنه لن يتخلى عنها في محنتها القاسية، وقال:

- إنني عرضت الخطة على ابراهيم، وقد وافق عليها، وسوف يقفز

السبور في منتصف الليل، ويهرب بك، وسأكون في انتظارك، وقد درسنا الموضوع ووجدنا أن من السهل إلغاء هذا الزواج. . . لأن هذا الزواج قد تم بغير إرادتك، فهو باطل قانوناً! وسوف نثبت أن والدك وحسين باشا ارتكبا تزويراً في ورقة رسمية!

قالت نجوى وقد شحب لونها:

ـ هل جننت؟ من قال لك أنني أريد أن ألغي هذا الزواج؟ أنا أحب حسين باشا الأشموني. وأنا التي عرضت عليه أن يتزوجني!

ونزل قولها على محمد نزول الصاعقة. تلاحقت أنفاسه. تهدج صوته وقال لها:

ـ إذن كنت تخدعينني أنا وابراهيم طوال هذا الوقت! كنت تعبثين بنا وتسخرين منا. لقد كنت معك أمس حتى الساعة السادسة مساء ولم تقولي لي إنك تحبين حسين باشا الاشموني. . . بل قلت لي أنك تحبين ابراهيم وطلبت مني أن أكتب إليه خطاباً باسمك. . وفي اللحظات التي كنت تصورين لي حبك لابراهيم كنت تحبين رجلاً ثالثاً، وكنت متفقة معه على الزواج. . إن الغانيات اشرف منك. لقد طلبت الراقصة ابتسام من صديقي سعيد مهلة شهر قبل أن يحل مكان عشيقها السابق! أما أنت فتملين عليّ نص خطاب غرام لرجل بينها أنت متفقة على الزواج من رجل آخر!

قالت نجوى وهي تجهش بالبكاء:

ـ أنت تظلمني يا محمد. . . عندما كنت أملي عليك الخطاب الغرامي لم أكن قد رأيت حسين باشا الأشموني!

قال محمد وقد استبد به الذهول:

ـ ماذا تقولين؟ إن جريدة «الاهرام» تقول إن عقد قـرانك تم في الساعة الثامنة من مساء أمس. . وأنا كنت معك حتى الساعة السادسة مساء. . فهل استطعت في ساعتين اثنتين أن تقابلي هذا الرجل ويحبك وتحبينه، وتتفقا على الزواج، وتحصلي على موافقة أسرتك، وتستدعي شيخ الجامع الأزهر لعقد الزواج؟. هل ممكن أن يحدث كل هذا في ساعتين اثنتين؟

قالت نجوى وقد انبسطت أساريرها:

ـ تذكر أننا في عصر السرعة!

وانتفض محمد في مقعده غاضباً وقال:

ـ كفـاك كذبـاً وخـداعـاً. إنني لست مغفلاً مثـل ابـراهيم حتى أصدقك. . . ولو فرض وصدقتك في هذه الاكذوبة فما الذي جعلك تقبلينني الآن؟

قالت نجوى وهي تختلس النظر بسعادة إلى عينيه الغاضبتين:

ـ كنت أريد أن أعبر لك عن سعادتي!

وتلوى محمد في مقعده وكأن عقرباً لدغته، وقال:

ـ ما شاءالله! تقبلينني احتفالاً بحبك لرجل آخر؟! ماذا تنوين أن تفعلي بي ليلة زفافك لحسين باشا الأشموني!؟ إنني أرفض مقدماً أن تعبري لي عن سعادتك لهذه المناسبة!

■ ■ ■

وابتلعت نجوى الإهانة، وقالت وهي تطرق برأسها:

ـ أقسم لك بأنني لم أحاول أن أخدعك. . الذي حدث أن حسين باشا الاشموني جاء أمس لزيارة أبي بعد انصرافك مباشرة، وقال أنه جاء يخطبني للأستاذ حسن فايز الملحق بسفارة مصر في روما. فقال له والدي أنه لا يستطيع أن يبت في هذا الأمر، وطلب إليه أن يتولى مفاتحتي بنفسه في هذا الموضوع لأنني صاحبة الشأن في أمر زواجي. واستدعاني أبي إلى الصالون، وقدّمني إلى حسين باشا. . ورأيته رجلاً أنيقاً يشبه ممثل السينما أدولف منجو، له شارب رفيع، وعينان واسعتان، وفم صغير، وشعر أسود تتخلله بضع شعرات بيضاء. وحدّثني حسين باشا عن العريس. وعن حياة السلك السياسي في الخارج، الحفلات الراقصة، السهرات الباذخة، مآدب القصور الكبرى، الرحلات إلى الريف الأوربي. حدّثني عن قصر التويليري وقصر فرساي في باريس، عن قصر بكنجهام في لندن، عن قصر آل سافوي في روما. وقال لي إنني إذا تزوجت هذا العريس فسأكون ملكة في هذه القصور. إنني أجمل من أي مصرية في روما. إن هذا العريس هو سكرتيره، وسكرتير السفير، له مركز ممتاز في السلك السياسي، يدعى إلى كل الحفلات الراقصة والمآدب الملكية. وبهرني حسين باشا بحديثه. جعلني أعيش في قصة ألف ليلة وليلة، أحسست أنه رجل ذواقة، خبير بالنساء، عاش حياته، أستاذاً في العشق، فسألته:

ـ كم عمر العريس؟

قال حسين باشا:

ـ عمره خمسة وعشرون عاماً.

قلت له:

ـ إنني أرفض أن أتزوج من عيال! أنا لا أتزوج سكرتير السفير. . .

أنا إذا تزوجت موظفاً في السلك السياسي فسأتزوج السفير نفسه.. أتزوجك أنت!

قال حسين باشا:

- أنا عمري ٥٩ سنة!

قلت:

إنك في عيني تبدو شاباً في ريعان الشباب.

وامتلأت عينا حسين باشا بالسعادة، وأحسست في تلك اللحظة أن عمره نقص ٣٤ سنة وأصبح في الخامسة والعشرين. كأن يداً سحرية خلقته من جديد. تورد وجهه، لمعت عيناه، رقّت كلماته حتى أصبحت أشبه بالمناجاة. رأيت في عينيه نظرة امتنان كأنني أعدت إليه شبابه كله، وفتوّته كلها، وقوّته كلها.. كأنني فتحت له باب الجنة على مصراعيه!

وفجأة سألني:

- هل أنت جادة في أنك موافقة أن تتزوجيني؟!

قلت له:

- هل تريد أنت أولاً أن تتزوجني؟

قال وهو أشبه بالمخدر:

- إنني أتمنى أن أتزوجك... لقد بقيت طوال هذا العمر بغير زواج ولكنني في هذه اللحظة فقط غيّرت رأيي!

قلت له:

- وأنا أيضاً أتمنى أن أتزوجك.

وسمعت منه كلاماً في الحب لم أسمعه أبداً، ولم أقرأه أبداً. كلام يختلف عن الشعر الذي تكتبه في خطاباتك الغرامية. سمعته يصف جمالي بما لم يستطع أحد من قبل أن يصفه. . إنه وصف جمال أمكنة لا تخطر ببالك، وصف أصابعي، وصف ما تحت أذني، وصف رموش عيني. شعرت وهو يصف جمالي كأنه أمبراطور يضع تاجاً على رأسي، ويتوجني امبراطورة!

وكان أبي قد تركني وحدي مع حسين باشا حتى يتولى إقناعي بزواج سكرتيره على انفراد. . فلما عاد أبي إلينا قال لي:

ـ هل وافقت على الزواج؟

قلت:

ـ نعم. . . ومستعدة أن أتزوج فوراً!

قال أبي:

ـ انتظري حتى تري العريس أولاً.

قلت:

ـ إنني رأيته، وأعجبني. . . أعجبني جداً. . وأحببته!

وقال أبي في دهشة:

ـ أين رأيت العريس؟

قلت:

ـ رأيته هنا. . في هذا الصالون!

قال أبي غاضباً:

ـ كيف تستقبلين شاباً غريباً في بيتي بغير إذني؟

قلت:

ـ إنك أنت الذي قدّمتني إلى العريس.. وأنا الآن أقدم لك العريس.. إنه حسين باشا الأشموني.

وما كاد أبي يسمع هذه الكلمات حتى كاد يسقط مغشياً عليه.

وقال له حسين باشا إنه وجد في نجوى أول امرأة مصرية تصلح لتكون سفيرة، وأنه أحبني حباً من أول نظرة..

قال أبي

ـ هل اخبرك حسين باشا أن عمره ٥٧ سنة؟

قلت:

ـ لقد كذب علي.. وقال أن عمره ٥٩ سنة.. ولو كان عمره ألف سنة فسوف أتزوجه؟

قال أبي:

ـ ولكن ماذا ستقول يا باشا للعريس حسن فايز؟

قال حسين باشا وهو يضحك:

ـ سأقول له أنني ذهبت لأخطبها له، فأخبرني والدها أنها مخطوبة لي!

وأسرع أبي يستدعي والدتي، ولما جاءت أبلغها الخبر وهو يقول:

ـ إنني لن أنسى لحسين باشا الأشموني أنه خاصم سمير باشا المناسترلي يوم خاصمته، ورفض أن يدخل بيته، أو يضع يده في يده..

وكانت هذه الجملة كافية لأن تقنع أمي بأن حسين باشا الأشموني هو أصلح عريس لي، وأسرعت ترحب بهذا الزواج. .

وطلب حسين باشا أن يتم عقد القران على الفور، واتصل بصديقه شيخ الأزهر، ودعاه للحضور إلى بيتنا في الحال، وجاء الشيخ وعقد قراننا. وبعد عقد القران خرجت أنا وهو لنرقص في شبرد!

وتنهّدت نجوى، وعادت تقول:

ـ إنه راقص ممتاز. . إنه أروع رجل رأيته في حياتي يرقص التانجو شعرت وأنا بين ذراعيه أنني لا أرقص وإنما أطير. . كان يهمس في أذني وأنا أرقص معه بكلمات أحلى من موسيقى التانجو. . كلمات هادئة ومثيرة، فيها حب وفيها حنان، وقبل كل شيء فيها خبرة بالنساء. . لو كانت لك يا محمد خبرة بالنساء لتزوجتك أنت. وتحديت أبي وأمي والدنيا كلها من أجلك. ولكنني لا أستطيع أن أتزوج من رجل «غشيم». . لا تغضب من صراحتي، لولا حبي لك لما واجهتك بهذه الحقيقة، إنني تمنيت طوال حياتي أن أتزوج من رجل له تجارب، رجل له ماض، رجل طاف بين قلوب النساء وأجسادهن. هذا الرجل وحده هو الذي يسعدني، هو الذي يفهمني، أنا أشبه بالقيثارة، كل أصبع تستطيع أن تداعب أوتارها، ولكن الموسيقي الفنان وحده هو الذي يستطيع أن يجعلها تعزف أعذب الالحان. . إن الموسيقي المبتدىء يستطيع أن يحرك وتراً واحداً فيها، ولكن الموسيقي صاحب الخبرة قادر على أن يحرك كل أوتارها!

وانكمش محمد في مقعده وهو يستمع لشرحها الغريب لأوتار القيثارة، وكيف أن كل وتر يخرج نغمة مختلفة عن الوتر الآخر، وتأمل جسدها وتخيل أنه يشبه القيثارة. ونظر الى أصابعه فتخيل أنها مقطوعة،

لأنها عجزت عن أن تلعب على كل أوتارها، حتى لا تستطيع أن تعزف يد أخرى عليها، ثم تمالك نفسه وقال لها وهو يبتلع هزيمته:

ـ أستودعك الله.. وأتمنى للقيثارة الهناء بين أصابع العازف الجديد..

وتهيأ للوقوف فجذبته من طرف جاكتته وهي تقول:

ـ هل تهرب مني؟

قال في حسرة:

ـ قرأت مثلاً يقول إن كثيراً ما يكون الانتصار في الحب هو الفرار!

قالت وهي تتشبث به:

ـ إنني لا أستطيع أن أستغني عنك!

قال محمد ساخراً:

ـ هل تريدين أن أتولى كتابة الخطابات الغرامية إلى حسين باشا الأشموني؟

قالت نجوى في حماس:

ـ إنني أعتبرك صديقي، وقد حدثت زوجي عنك، ووافق على أن تستمر في إعطائي دروساً في اللغة العربية حتى يحل موعد سفري إلى روما.. إن زوجي حسين باشا رجل واسع الأفق، وهذا هو سر حبي وإخلاصي له!

قال محمد وهو ينظر إلى شفتيها:

ـ إن أكبر دليل على هذا الإخلاص أنك قبلتني ولم تمض ٢٤ ساعة

على عقد قرانك عليه!

قالت نجوى محتجة:

- الإخلاص شيء والقبلات شيء آخر! إنني تزوجته لأكون حرة في أن أفعل ما أشاء.

ثم ضحكت ضحكة امرأة لعوب وقالت:

- إنني سأتعلم منه فن القبلات.. وأتولى تعليمها لك.. وبذلك تعلمني اللغة العربية.. وأنا أعلمك القبلات!

وأحس محمد بأنه لو بقي دقيقة أخرى لانهال عليها صفعاً وضرباً، وقام منتفضاً من مقعده واتجه نحو الباب دون أن يصافحها.

وقالت له وهي جالسة في مقعدها:

- ألا تنوي أن تعود... لأعلمك فن القبلات؟

قال وهو يفتح الباب دون أن ينظر إليها:

- شكراً.. سأتعلم القبلات في المدارس «الحرة»!

ولم تفهم نجوى ما يقصد محمد، فضحكت ضحكتها العالية الساخرة!

■ ■ ■

وذهب محمد إلى حيث كان ينتظره ابراهيم في سيارته، وقصّ عليه قصة الزواج، وحاول أن يحذف الكثير من تفاصيلها حتى لا يزيد آلام ابراهيم وعذابه. شعر بعطف عجيب عليه. لأن مصيبتهما مشتركة وكارثتهما واحدة، والكارثة الواحدة تقرب بين ضحاياها. كان كل

واحد منهما يبكي بالنيابة عن شريكه في المأساة. إن الدموع تربط بين الباكين برابطة غريبة. وكأن العبرات من عيون شركائنا في المصيبة تجفف دموعنا. الجرحى في المعركة الواحدة يتآسون بجروح بعضهم بعضاً كأنها المراهم والضمادات. المحنة الواحدة تجعل من المتنافسين إخوة وأصدقاء. بينما النصر الواحد يجعل من الأخوة والأصدقاء متنافسين وأعداء، ومن هنا كان محمد يحس وهو يرى الغيظ والهزيمة والحقد في وجه ابراهيم، كأنه يطل في مرآة يرى فيها نفسه!

كانت أعماق محمد تلعن نجوى، وتلعن معها كل نساء العالم. فنحن عندما نحب امرأة واحدة نحب نساء الدنيا كلها من أجلها. وعندما نكره امرأة نكره كل نساء العالم بسببها. كل شيء فيه واجم حزين مسحوق. عيناه الحالمتان احمرتا وكأن كابوساً يعيش فيهما. شعر كأن به لوثة من جنون. وعندما عاد إلى بيته أمطرت السماء.. وفكر محمد هل السماء تبكي عليه أم تبصق في وجهه؟

وخيّم على حياة محمد صمت ثقيل. الصمت الرهيب الذي يحدث عادة بعد انتهاء الزلزال العنيف. كان يمشي بين الناس كأنه يمشي بين جثث المذبوحين. يتطلع إلى كل شاب في الطريق ويتصور أنه ضحية امرأة مثله. خدعته امرأة مثلما خدعته نجوى. كأن أحلام الرجال كلهم دفنت مع حلمه في التراب. كل رجل مثخن بجراح امرأة، كل شاب مذبوح بخيانة حبيبة، كل امرأة تسير في الشارع هي نجوى.

وقرر محمد أن يُضرب عن كتابة الخطابات الغرامية باسم زملائه طلبة المدرسة السعيدية.

وعندما ذهب في صباح اليوم التالي ليبلّغ زملاءه الطلبة قراره النهائي الذي لا رجعة فيه، فوجىء بحركة غير عادية في المدرسة..

الطلبة متجمعون في حوش المدرسة، وقد وقف زميله جمال منصور يخطب فيهم بحماس شديد ويطلب إليهم الإضراب عن الدراسة لأن اسماعيل صدقي باشا ألغى دستور الأمة، وجاء بدستور جديد يحرم الشعب من كل سلطاته التي حصل عليها بدم شهدائه وضحاياه.

ورأى الطلبة الوفديين والطلبة الأحرار الدستوريين وقد نسوا خلافاتهم ووقفوا صفاً واحداً ينادون بالإضراب ويهتفون بسقوط اسماعيل صدقي!

ولم يشارك محمد عبد الكريم زملاءه في هتافهم. كان يعرف أنه إذا اشترك في هذا الإضراب فسوف يحرم من المجانية، وسوف تطالبه المدرسة بدفع المصروفات، ومن أين يجيء بالمصروفات، ووالده لا يملك مليماً أكثر من مصاريف البيت، ومرتبه الشهري الذي كان يتقاضاه من كمال باشا المناسترلي انقطع بعد أن قرر مقاطعة نجوى.

ثم ما هذا الدستور الذي يثور من أجله الطلبة؟ إنه لم يقرأ الدستور القديم، ولم يطلع على الدستور الجديد، فكيف يضرب عن الدراسة من أجل شيء لا يعرفه؟.

■ ■ ■

وخرج الطلبة في مظاهرة، وبقي هو وأقلية صغيرة من الطلبة في المدرسة، والتفت الطلبة المتظاهرون نحو محمد وهتفوا قائلين: ليسقط الخونة.. ليسقط الخارجون على إجماع الأمة!

وتلفت محمد إلى الطلبة الخونة الخارجين على الأمة فوجد أنهم ثلاثة، كان هو رابعهم!

أما الثلاثة الآخرون فكانوا ابراهيم المناسترلي نجل كبير ياوران

الملك فؤاد، وفؤاد المناسترلي نجل كمال باشا المناسترلي وزير الأوقاف السابق، وعزيز صدقي نجل اسماعيل صدقي باشا رئيس الوزارة الذي ألغى الدستور.

وشعر محمد بغصة. إنه ليس في مكانه الطبيعي. ما الذي يجمعه مع أولاد رئيس الوزارة وكبار رجال القصر وأحد زعماء حزب الاتحاد الذي كوّنه الملك فؤاد؟ أحس أنه أشبه بنغمة نشاز في هذه المجموعة. وزاد في ضيقه عندما تقدم نحوه عزيز صدقي نجل رئيس الوزراء يسأله إذا كان هو ابن ابراهيم باشا فهمي كريم وزير الأشغال!

وقال محمد إن اسمه محمد عبد الكريم لا محمد كريم. وإن والده هو الأسطى حنفي عبدالكريم العامل في العنابر!

وبدا على عزيز صدقي السرور لأنه وجد واحداً من الشعب يؤيد الدستور الذي أصدره والده بدلاً من دستور الشعب. .

وساءل محمد نفسه: ترى هل أضربت مدرسة الليسيه هي الأخرى احتجاجاً على إلغاء الدستور؟ وهل بقيت نجوى وحدها في المدرسة كما بقي أخوها وابن عمها؟ أيكون قد اختار أن يقف في نفس الصف الذي تقف فيه نجوى المناسترلي؟

وأحس محمد بذل ومهانة. إن واجبه أن يقف في أي صف لا تقف فيه نجوى المناسترلي.

ولكنه فقير ووالده معدم، هذا الفقر هو الذي حرمه من أن ينضم إلى زملائه الغاضبين المضربين، هو الذي جعله يتهم من زملائه بالخيانة والخروج على إجماع الشعب المصري. . وماذا يستطيع أن يفعل وهو الطالب الوحيد في المدرسة السعيدية الذي يتمتع بالمجانية؟ كل هؤلاء

الطلبة المضربين أبناء رجال قادرين موسرين يستطيعـون أن يدفعـوا مصاريف جديدة لأولادهم، أو يستطيعون إدخالهم مدارس خاصة . .

ورأى محمد المدرسين والفرّاشين في المدرسة ينظرون إليه نظرات غريبة. كأنهم يلومونه لأنه لم يتضامن مع زملائه. هل يذهب ويقص على كل واحد منهم قصة فقره وحكاية مجانيته، وأن الاشتغال بالسياسة هو ترف ليس من حق الفقراء، أم يسكت ويتحمل هذه النظرات التي تشبه وخز الأبر والدبابيس؟

■ ■ ■

وانتهى اليـوم الدراسي، وخـرج إلى بيته، ولاحظ في طـريقه أن فوانيس النور محطمة، وعربات الترام مقلوبة، والأشجار المغروسة قد قلعت من أماكنها. وقطع الحجارة والطوب تفرش الشوارع والميادين، وسمع الناس يتحدثون أن المدارس كلها خرجت تلعن الدستور الجديد وتهتف بسقوط اسماعيل صدقي.

ووصل محمد إلى بيته، وصعد درجات سلم البيت في تثاقل، ودخل الشقة الصغيرة فرأى أمه مشغولة في تقشير البصل، وكان وابور الغاز يحدث طنيناً يذكره بهتاف الطلبة بسقوط الخونة والخارجين على إجماع الأمة. .

وسأل أمه هل سمعت أن مظاهرات قامت احتجـاجاً عـلى إلغاء دستور الأمة؟. وتبـين له أن أمـه لم تسمع عن دستـور الأمة، فقـد مصمصت شفتيها وسألت إذا كان دستور الأمة هو رواية جديدة يمثلها يوسف بك وهبي! وانهمكت أمه في غسل الصحـون، ونشر الفوط المبلولة، ثم أمسكت يد الهاون وراحت تدق فيه وتقول:

ـ نفسي أتفرج على يوسف بك وهبي مرة واحدة قبل أن أموت!

وابتسم محمد لسذاجة أمه . . إن مصر كلها مهتمة بالدستور الذي ينص على «تمثيل» الأمة في البرلمان، وأمه مهتمة «بتمثيل» يوسف بك وهبي . . لعل أمه حكيمة من حيث لا يدري . . ألا تكون كل هذه الضجة تمثيلاً في تمثيل!؟

وأقبل والده وهو يلهث. ولاحظ محمد أن والده لم يبدأ حديثه بمثل بلدي كما اعتاد أن يفعل دائماً، بل أسرع يطلب من والدته أن تسخن له ماء، وخلع الأب بنطلونه ورأى محمد في ساق أبيه جرحاً كبيراً ينزف . . وفزع محمد وسأل والده في جزع :

ـ هل صدمتك سيارة؟

قال الأسطى حنفي عبد الكريم وهو يضحك :

ـ لا . . . أنا صدمت الدولة! إن عمال العنابر أضربوا اليوم احتجاجاً على إلغاء دستور الأمة . . أردنا أن نخرج بمظاهرة نعلن فيها سخطنا على إلغاء دستور الأمة ورفضنا للدستور الجديد الذي ينزع من الشعب كل سلطاته ويمنحها للملك. فإذا بقوة هائلة من جنود الجيش والبوليس بقيادة عوني حافظ باشا نائب وزير الداخلية تحاصرنا وتطلق علينا النار. وسمعنا عوني باشا يقول للجنود:

ـ اقتلوا هؤلاء المجرمين. كل من يقتل عاملاً سينال جنيهاً مكافأة! لا يكفيني أن تقتلوا منهم ألفاً . . . اقتلوهم جميعاً هؤلاء الكلاب!

وانهال علينا الرصاص من كل مكان. وثار العمال المسالمون. عطلوا الخطوط التليفونية. حرقوا عربات السكك الحديدية. حطموا القطارات. كان العمال الهائجون الغاضبون يحملون في أيديهم قطع الحديد والعتلات الطويلة ويهوون بها على رؤوس المهاجمين . . وجاء

الجنود بسلالم يحاولون أن يقتحموا العنابر، فحملنا خراطيم المياه الساخنة وصوّبناها على الجنود فكانوا يسقطون كالذباب.

واتصل عوني حافظ باشا نائب وزير الداخلية باسماعيل صدقي باشا واقترح عليه إحضار مدفعية الجيش المصري لتهدم العنابر على العمال الثائرين لأنهم يصوبون خراطيم المياه الساخنة على الجنود ويجعلونهم عاجزين عن إطلاق الرصاص. وقال صدقي باشا بهدوء:

ـ لا داعي لاستدعاء المدفعية. . اتصلوا بشركة المياه واطلبوا منها أن تقطع الماء عن الحي كله. .

وفوجئنا بانقطاع الماء. . وماتت الخراطيم في أيدي العمال وأصبحت عاجزة عن الدفاع. واقتحم الجنود ورش العنابر. وقامت بين العمال والجنود معركة رهيبة. سلاح العمال الأحجار وقطع الحديد، وسلاح الجنود هو الرصاص.

وسمعنا عوني حافظ باشا يقول للجنود المترددين أن يقتلوا بأيديهم مصريين مثلهم:

ـ اضرب يا ولد في المليان! سأحاكم الجندي الذي يطلق الرصاص في الهواء أمام مجلس عسكري!

واضطر الجنود أن يطلقوا الرصاص في المليان. .

وسقط ١٦ قتيلاً. . بينهم ثلاث نسوة من زوجات العمّال وقفن بجانب العمال في المعركة وطفل صغير. وقد قتلنا منهم أضعاف ما قتلوا منا. المثل يقول «اللي يرشك بالميه رشه بالدم».

ـ وبلغ عدد الجرحى من العمال ٢٧١ جريحاً . . أما أنا فقد أصبت اصابة بسيطة . . بطعنة من حراب أحد الجنود!

وأحس محمد بالخزي والعار وهو يسمع قصة معركة عمال العنابر من فم أبيه . إنه لم يشترك في مظاهرة الطلبة لأنه فقير خشية أن يفقد المجانية . وهؤلاء الألوف من العمال الفقراء ضحوا بأرزاقهم، بل ضحوا بأرواحهم في سبيل دستور الشعب . أحس بأن قدميه تغوصان في الدماء مع الذين قتلوا العمال الأبرياء . المتفرجون في المعارك التي يخوضها الشعب هم مجرمون كالذين يطلقون على الشعب الرصاص . المتفرجون في المعارك هم كالحراب التي يغمدها الطغاة في ظهور الأبرياء . فالساكت عن الحق شيطان أخرس . وقد كان محمد هذا الشيطان عندما أبى أن يتضامن مع زملائه الطلبة المتظاهرين . .

إذن فالاشتغال بالسياسة ليس ترفاً من حق القادرين وحدهم، إنه واجب القادرين والمحرومين على السواء . . . لماذا تخلى عن هذا الواجب؟ أتكون نجوى هي التي عهرته؟ أتكون هي التي عزلته عن طبقته، وجعلته يتكلم عن كبريائها، فإذا حلت ساعة الصراع نسي أن يؤدي واجبه في أول الصفوف محتجاً بأنه فقير في حاجة إلى مجانية التعليم؟

لماذا لم يحتج ألوف عمال العنابر بأنهم فقراء في حاجة إلى أجورهم؟

لماذا اشترك والده المسن في المعركة ولم يفكر في الجنيهات الثلاثة التي يتقاضاها من الدولة في كل شهر؟ لماذا لم يقنع نفسه بالمثل البلدي الذي يقول : «اللي يتجوز أمي أقول له : يا عمي» . . إذا كان دستور الأمة هو أمي فدستور صدقي هو عمي . . بل قال : «اللي يرشك بالميه رشه بالدم» !

هؤلاء العمال البسطاء غير المتعلمين عرفوا معنى دستور الأمة. بينما محمد المتعلم لم يعرف معنى الدستور. إن الدستور القديم لن يزيد أجورهم، والدستور الجديد لن ينقص هذه الأجور. إن أحداً منهم لم يفكر في دخول البرلمان ولم يطمع في أن يكون وزيراً، ولكنهم يثورون من أجل حق الشعب كله في الحرية، حق الشعب في أن يكون مصدر السلطات، حق الشعب في أن يكون سيد نفسه.

لم يكن محمد يتصور أن والده الطيب الصابر الفيلسوف يشترك في معركة، ويقاتل فيها، ويجرح. لم يسمع منه كلمة في السياسة. سمعه يتحدث عن أيام ثورة ١٩١٩ على أنها أيام حلوة لن تعود. ولكنه لم يتصور أنه يعيش في بيت واحد مع بطل! وقد قامت قبل ذلك مظاهرات لم يشترك فيها عمال العنابر. كان الطلبة يضربون احتجاجاً على تصريح ٢٨ فبراير، واحتفالاً بتأليف الوزارة الوفدية، واحتجاجاً على إقالة وزارة الشعب. ولكن عمال العنابر لم يشاركوا في هذه المظاهرات، كأنهم أبوا أن يتدخلوا في الخلافات الحزبية. ولكن عندما رأوا أن حقوق الشعب قد اعتدي عليها، هبوا ثائرين غاضبين. إنهم بطبيعتهم يبغضون الظالمين ويمقتون الطغاة، يغمضون عيونهم ولا ينامون، يصبرون ولا يستكينون، وفجأة ينقلب هؤلاء البسطاء الطيبون إلى ثوار حقيقيين.

■ ■ ■

وأحس محمد ببغض شديد لعوني حافظ باشا نائب وزير الداخلية، ذلك الجزار الذي أراد أن يدك العنابر على رؤوس العمال بقنابل المدفعية، ذلك الطاغية الذي أمر بقتل «العمال الكلاب»، وأحس بأن هتاف الضحايا يشق القبور وهي تلعنه، وأن صرخات اليتامى والثكالى تملأ أذنيه..

سأل محمد أباه:

ـ هل عوني حافظ باشا مصري؟

قال الأسطى حنفي:

ـ مصري وللأسف.. وألعن من هذا أنه يسكن في شبرا.. إنني أشعر بعار أن شبرا أخرجت مثل هذا الرجل.. هذا الرجل كان يجب أن يسكن في الزمالك مع الحكام والباشوات!

وعندما سمع كلمة الزمالك عاد يحس بجراحه من جديد.. عاد يتذكر نجوى ساكنة الزمالك!

إنها فعلت به ما فعله عوني حافظ باشا بعمال العنابر.. سفكت دمه، عاملته ككلب، جاءت بمدفعيتها الثقيلة وهدمته!

إنها طاغية هي الأخرى مثل عوني حافظ باشا!

وقطع عليه أبوه سلسلة أفكاره وقال له:

ـ سمعت أن طلبة المدرسة السعيدية أضربوا عن الدراسة وقاموا بمظاهرة ضخمة... أنت طبعاً اشتركت في المظاهرة؟

وفوجىء محمد بهذا السؤال، وأراد أن يكذب فلم يستطع، وقال:

ـ لا.. لم أشترك في الإضراب... خشيت أن يحرموني من مجانية التعليم!.

ونظر إليه الأسطى حنفي نظرة اختبار وقال:

ـ إنك فسدت منذ أن أصبحت تتردد على بيت كامل باشا المناسترلي.. هذه القصور يتحول فيها الرجال إلى أغوات!

وشعر محمد أن والده أصابه في جرحه المفتوح، فسكت في ذلة وهوان . .

ومضى الأسطى حنفي يقول:

ـ ما فائدة الشهادات في بلد ليس فيه حريات؟ إنني ما كنت أتصور أن ابني يتنكر للشعب الذي خرج منه . . أوع تكون يا واد بتحب،أصل اللي بيحبوا النسوان ما عندهمش وقت يحبوا مصر!

ومصمص الأسطى حنفي شفتيه وقال مردداً مثلاً بلدياً يقول:
ـ الناس خيبتها السبت والحد . . واحنا خيبتنا ما وردت على حد!

■■■

القاهرة نائمة. كل شيء في المدينة أغلق عينيه. فوانيس الغاز في الشوارع بقيت وحدها ساهرة لا تغلق عيونها. الشمس لا تزال تتثاءب في خدرها وراء السحب، وتتغطى بغطاء أسود فيه نقط بيضاء متلألئة يسمونها النجوم. أغصان الأشجار تنثني عارية من الأوراق، كأنها جوار عاريات يرقصن على موسيقى النسيم. رذاذ الماء يتساقط من السماء كأنهادموع العشاق تبكي لحظة وداع الليل حارس المحبين وحامي العشاق!

الساعة تقترب من الرابعة صباحاً. الساعة التي تموت فيها القاهرة كل ليلة، ثم بعد ذلك يلمس شفتيها أول شعاع من الشمس فتبعث إلى الحياة من جديد.

ودق جرس التليفون برنين متواصل مزعج، وتآمر الليل والهدوء والظلام على أن يجعل صوت الرنين يبدو مزعجاً كالصراخ.

واستيقظ صاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا رئيس مجلس الوزراء على صوت الرنين المخيف، ومد يده بتثاقل يتحسس مكان آلة التليفون الموجودة فوق مائدة إلى جوار فراشه، وضلت يده في الظلام مكان التليفون فسقط على الأرض.. وانفصلت عنه سماعة التليفون وسمع صوت سيدة ملهوفة تتكلم بنبرة ضائعة مخنوقة، ولم يفهم ما يقول الصوت، فقد كانت السماعة لا تزال ملقاة على الأرض، وأضاء صدقي باشا النور الكهربائي، والتقط سماعة التليفون التي كان ينبعث منها صوت يشبه الأنين.

ووضع صدقي باشا السماعة على أذنه وسمع صوتاً يقول بلا تحية ولا مقدمات:

ـ أنا حرم توفيق رفعت باشا وزير الحربية.. لقد خطفوا زوجي!

وكان صدقي باشا مشهوراً بقوة تحكمه في أعصابه، لا تحركه العواصف ولا تهزه الأحداث. قادراً أن يبقى بارداً كالثلج وكل من حوله يلتهبون كالجمر. يستقبل الكوارث بنفس الابتسامة التي يستقبل بها الناس العاديون ربحهم الجائزة الأولى في يانصيب المؤاساة!

وفي هذه المرة لم يستطع صدقي باشا أن يتحكم في أعصابه، قفز من فراشه، واستيقظت عيناه النائمتان، وراح يفتحهما تارة، ويغمضهما تارة أخرى، وتحول وجهه الجامد إلى تساؤل أخرس، بينما كان حاجباه يتحركان في قلق، وشفتاه ترتعشان ولا تقولان شيئاً.

ولاحظت السيدة الملهوفة على الطرف الآخر أنها تسمع أنفاساً متقطعة، ولا تسمع صدى للنبأ المزعج الذي أبلغته إلى رئيس الوزراء، واعتقدت أن الخط التليفوني قد انقطع، فأخذت تصيح:

ـ هالوه! هالوه! هل تسمعني يا دولة الباشا؟

واسترد صدقي باشا أنفاسه، وقال وكأنه يتأوه :

ـ إنني أسمعك يا هانم . . هذا نبأ مزعج جداً . . ولكن من هم الذين خطفوا توفيق باشا؟

قالت الزوجة في كلمات ترتعش من الجزع :

ـ لا بد أنهم عمال العنابر. أرادوا أن ينتقموا منه لأن الجنود أطلقوا الرصاص على العمال. ودولتك تعلم أن زوجي ليس هو الذي أصدر الأمر بإطلاق النار . . أنا واثقة أنهم سيقتلونه . إنه مظلوم . . مظلوم . . مظلوم!

قال صدقي باشا :

ـ إهدئي يا هانم . . أريد أن أعرف منك كيف وقع الحادث .

قالت حرم توفيق رفعت باشا وهي تبكي :

ـ كان الباشا مدعواً للعشاء في نادي محمد علي في الساعة الثامنة مساء. وهو معتاد أن يكون في البيت دائماً قبل الساعة الحادية عشرة مساء، ولكنه لم يعد حتى منتصف الليل. استيقظت من النوم في الساعة الثانية عشرة فلم أجده بجانبي في الفراش. واتصلت بنادي محمد علي تليفونياً فقيل لي أن الباشا انصرف من النادي واستقل سيارته قبل الساعة الحادية عشرة بدقائق، والمسافة بين نادي محمد علي وبيتنا في شبرا هي عشر دقائق. انزعجت وتصورت أن حادث اصطدام وقع لسيارة الباشا ونقل إلى المستشفى، وإذا بجنود حرس الوزارات الذين يحرسون البيت يقولون إن الباشا عاد بالسيارة ووصل إلى البيت في الساعة الحادية عشرة مساء، وإنهم رأوا السيارة وهي تدخل حديقة البيت. ورأوا السائق وهو يغادر البيت بعد أن وضع السيارة في

الجراج. ووجدنا سيارة الباشا فعلاً في الجراج. واستدعينا السائق من بيته القريب من منزلنا، فقال إنه أوصل بنفسه الباشا إلى البيت، وفتح له باب السيارة، ثم أغلق باب السيارة، وأودعها في الجراج، وانصرف الى بيته. وأكد السائق أنه لم يرَ أحداً غريباً في الحديقة أو بجوار الباب.

وكان صدقي باشا يسمع هذه التفاصيل وهو شبه مصعوق. كانت أشياء كثيرة في داخله تطلق صرخات حادة، واستعاد هدوءه بسرعة وقال:

- ولكن كل وزير يحرس بيته ثلاثة من جنود حرس الوزارات. ألم يسمع واحد منهم صوت استغاثة؟.. ألم يرَ واحد منهم أحداً يخرج من باب البيت؟ ألم يسمعوا صوت قفز أشخاص من فوق سور الحديقة؟

قالت حرم توفيق باشا:

- إنهم يقولون إنهم لم يروا شيئاً، ولم يسمعوا شيئاً، لا بد أنهم كانوا نائمين!

قال صدقي باشا وكأنه يحدث نفسه أكثر مما يحدث زوجة الوزير المخطوف:

- إذا كان هؤلاء الحراس ينامون فمعنى ذلك أن حياتنا كلها في خطر، الدولة كلها في خطر!

ثم تذكر صدقي باشا أن حياته هو وحياة الدولة لا تهم حرم توفيق باشا رفعت، وأن كل ما يهمها هو حياة زوجها، فقال لها في ثقة وتأكيد:

- إطمئني يا هانم.. إننا سوف نقبض على الجناة فوراً!

وانفجرت حرم وزير الحربية في رئيس الوزراء تقول له:

ـ أنا لا يهمني القبض على الجناة. الذي يهمني أن تعيد لي زوجي على قيد الحياة. إنه رجل مسن، مريض، ضعيف لا يتحمل هذه الصدمات! لولا المصيبة التي وضعت أنت فيها زوجي لما حدث له ما حدث. لقد كان يوماً أسود كالهباب ذلك اليوم الذي قبل فيه أن يكون وزيراً للحربية والبحرية والطيران في وزارتك!

وتحمل صدقي باشا في هدوء عصبية زوجة وزير الحربية والبحرية والطيران، وعذرها في ثورتها عليه، وعذرها على الرشاش الذي أصابه من لسانها، وعاد يطمئنها في هدوء ويؤكد لها أنه سيذهب إلى مكتبه في وزارة الداخلية فوراً وسيشرف بنفسه على عملية البحث عن وزير الحربية والبحرية والطيران.

ورمت زوجة وزير الحربية السماعة فوق آلة التليفون بعنف، دون أن تحيي رئيس الوزراء أو تشكره على هذا الاهتمام.

■ ■ ■

واتصل صدقي باشا على الفور بعوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية في بيته. ولم يدق جرس التليفون سوى دقة رنين واحدة، وقال صدقي باشا لنائبه:

ـ أخشى أن أكون أيقظتك من النوم!

فقال عوني باشا:

ـ كيف أنام وقد خطف المجرمون وزير الحربية؟ إن سليم بك زكي مدير القسم السياسي أبلغني الخبر من دقائق، وقد حاولت أن أتصل بدولتك، فوجدت الرقم مشغولاً.

وكان عوني باشا يكذب، فقد اتصل أولاً بإدريس بك شماشرجي

الملك فؤاد في قصر عابدين وروى له الحادث، ثم بعد ذلك جاء دور رئيس الوزراء . .

وقال صدقي باشا :

ـ أعتقد أن عمال العنابر هم الذين خطفوا وزير الحربية!

قال عوني باشا :

ـ لا أظن يا دولة الباشا. . . لو أن عمال العنابر أرادوا أن ينتقموا من الذين قتلهم بالرصاص لخطفوني أنا! وعلى كل فإنني سأذهب فوراً إلى بيت توفيق رفعت باشا، وبعد دقيقة سأكون هناك، فإنني كما تعلم دولتك أسكن في شبرا. . وقد أصدرت التعليمات اللازمة. وبعد دقائق سيداهم البوليس بيوت عدد من الشبان المعارضين للوزارة وعدد من زعماء عمال العنابر.

قال صدقي باشا :

ـ أصدر أمراً بحصار جميع مداخل القاهرة ومخارجها لأن العصابة سوف تحاول أن تنقل وزير الحربية إلى خارج القاهرة. وأصدر أمراً بوضع رقابة كاملة على المعارضين وتليفوناتهم وبيوتهم . .

ووضع صدقي باشا سماعة التليفون، وأشعل سيجارة، وجلس يراقب دوائر الدخان، وكأنها حلقات المشانق التي سيعلق فيها المجرمون الذين خطفوا وزير الحربية والبحرية والطيران. وكان رأسه يفكر بسرعة. لم يعد يفكر في توفيق باشا رفعت نفسه. إنه يفكر في الدولة. إن خصومه صفعوا الدولة على قفاها. هزأوا بادعائه أنه قادر على المحافظة على النظام والأمن العام. إنه وحده الذي يستطيع أن يدخل المعارضين إلى الشقوق. ماذا سيقول الانجليز الآن؟ سيقول سير

برسي لورين المندوب السامي البريطاني أن حكومة اسماعيل صدقي التي عجزت عن حماية وزير حربيتها، أعجز من أن تحمي حياة الرعايا البريطانيين في مصر. ماذا سيقول الملك فؤاد؟ سيقول إن اسماعيل صدقي فشل في الحكم. سينتهز رجال القصر الذين يكرهونه الفرصة، ويقولون للملك إن رئيس وزرائه قد شاخ، وإن المنصب الخطير في حاجة إلى شاب ليعرف كيف يقاوم ثورة الشعب العارمة.

وعندما خطرت ببال صدقي باشا تهمة أنه تقدم في السن وضع يده على ركبتيه يتحسسهما، فشعر أنهما تؤلمانه، وتحسس ذراعه فوجد أنها توجعه. أتكون هذه هي علامات الشيخوخة؟ هل السن أضعفت قواه كحاكم جبار، وأطمعت خصومه فيه فقاموا بهذه المغامرة الجريئة مستهترين بقوته وبطشه وجبروته؟

ثم تحسس صدقي باشا رأسه، ولم يشعر أن شيئاً فيه يؤلمه، فابتسم ابتسامة الرضا وحدّث نفسه بأنه ما دام هذا الرأس قوياً، فإنه قادر على أن يحكم امبراطورية كبيرة، لا مصر وحدها!

ودق جرس التليفون، ورفع صدقي باشا السماعة، وسمع صوت ادريس بك شماشرجي الملك فؤاد.

وكان إدريس بك قد بدأ حياته سفرجياً في القصر، ثم ترقى وأصبح «شماشرجي السلطان» ومعناها الخادم الذي يتولى إعداد ملابس السلطان، ومساعدته في خلع ملابسه وارتدائها. وكان رجلاً نوبياً متوسط التعليم، ويجيد عدة لغات.. واستطاع بذكائه وصلته بالسلطان أن يصبح حاكم القصر الحقيقي. كان هو الذي يفتح البوستة، ويعرض المذكرات على السلطان، ويتلقى تعليماته ويبلغها إلى كبار موظفي القصر. وعندما أصبح السلطان فؤاد ملكاً تزايد نفوذ

السلطان الصغير، وحصل على رتبة البكوية، وأصبح كبار موظفي القصر يرتعشون في حضرته، ويرتجفون عند رؤيته. فقد كان قادراً على أن يبطش بأي واحد منهم لأنه وحده الذي يستطيع أن يدخل على الملك بغير استئذان.

وكان الملك يتعالى أن يتحدث بالتليفون مع وزرائه، فكان ادريس بك هو الذي يبلغهم الأوامر الملكية.

وقال ادريس بك لصدقي باشا، إن جلالة الملك يرغب في أن يعرف تفاصيل خطف معالي وزير الحربية والبحرية والطيران.

وروى صدقي باشا الحادث لادريس بك ببساطة، وكأنه يروي حادث اصطدام عربة يجرها حمار بترام شبرا!!

ودهش ادريس بك لمتانة أعصاب رئيس الوزراء، ولم يستطع أن يشاركه في هدوئه الغريب وقال له:

ـ إن مولانا يقول أن هذا حادث خطير جداً.. إنهم اليوم خطفوا وزير الحربية، وغداً يخطفون رئيس مجلس الوزراء، وبعد غد يخطفون جلالة الملك.. إن مولانا يسأل ماذا كان يفعل كبار رجال وزارة الداخلية، هل كانوا نائمين؟

وفهم صدقي باشا على الفور ما قصد ادريس بك أن يقول له. فالملك يريد أن يحمله هو مسؤولية خطف وزير الحربية بصفته وزير الداخلية. ولكنه أسرع يشوط الكرة في «هدف الملك» ويقول:

ـ إن جلالة الملك هو الذي اختار عوني باشا حافظ ليكون نائب وزير الداخلية المشرف على شؤون الأمن العام. وأعتقد أن جلالة الملك لا يمكن أن يخطىء في اختيار رجاله!

وبهت ادريس بك. إن صدقي باشا استطاع بدهائه أن يحمله هو مسؤولية خطف وزير الحربية. لقد كان ادريس بك فعلاً هو الـذي اختار محسوبه عوني باشا حافظ ليكون نائب وزير الداخلية، وأقنـع الملك بهذا الترشيح، بحجة أنه أصلح من يحافظ على الأمن العام في البلاد. وعارض صدقي باشا في هذا الاختيار. وأصر الملك على تعيينه نائباً لوزير الداخلية رغم معارضة رئيس الوزراء ووزير الداخلية.. وها هو ذا صدقي باشا ينتهز هذا الوقت السيىء ليقول للملك إنه هو الذي أساء الاختيار!

وأسرع ادريس بك يقول:

ـ إن جلالة الملك يقول دائماً إنه لا يعرف عوني باشا، ولكن يعرف صدقي باشا، وأنه يعتمد عليك دون سواك!

ووعد صدقي باشا بأنه سيحاول أن يكون عند حسن ظن جلالة الملك.

ووضع ادريس بك سماعة التليفون حانقاً من ذكاء صدقي باشا. ولم يذهب إلى فراش الملك ويبلغه ما دار بينه وبين رئيس وزرائه، لأنه خشي أن يغضب عليه الملك لأنه اختـار عوني بـاشا الـذي فشل في المحافظة على الأمن العام..

■ ■ ■

وكان ادريس بك قد كذب على صدقي باشا عندما أبلغه أن الملك غاضب على خطف وزير الحربية، فقد كان الملك نائماً، ولم يجرؤ ادريس بك على إيقاظه ليبلغه نبأ خطف وزير الحربية!

فقـد كـانت الليلة هي ليلة الجمعـة. وهي الليلة الـوحيـدة في

الأسبوع، التي كان يترك فيها الملك جناحه الخاص في القصر، ويذهب الى جناح الملكة نازلي ويبيت معها في فراش واحد!

أما باقي أيام الأسبوع فقد كانت الملكة تنام وحدها في غرفة نومها، التي تبتعد حوالى نصف كيلومتر عن غرفة نوم الملك!

وكان لقاء ليلة الجمعة حدثاً هاماً في القصر، فيحرص موظفو القصر على ألا يزعجوا الملك في مساء الخميس بالأخبار التي تقلقه، أو بالأنباء السيئة، أو بالتقارير التي لا ترضيه، حتى لا يتعكر مزاج جلالته في هذه الليلة الهامة.

وينتظر موظفو القصر في صباح يوم الجمعة بقلق، حتى يستيقظ جلالته من النوم، فإذا كان الملك منبسط الأسارير فمعنى ذلك أن اليوم سيمر بخير على القصر ورجال القصر، أما إذا قام جلالته مقلوب المزاج، فالويل في ذلك اليوم للقصر ومن فيه. سيرفض الملك كل الترقيات. ويشطب كل العلاوات، ويمزق كل طلبات الرتب والنياشين، ويكون هذا اليوم فرصة ذهبية لكل من يريد أن يؤذي خصماً، أو ينتقم من منافس، أو يتخلص من عدد من الأعداء!

ومن اجل هذا حرص ادريس بك على ألا يزعج جلالة الملك وهو في مخدع الملكة بنبأ خطف وزير الحربية والبحرية والطيران. وآثر أن ينتظر حتى يستيقظ الملك من تلقاء نفسه دون أن يدق الباب في الموعد غير المناسب! ولهذا رأى ادريس بك أن يقوم بأعمال الملك في هذه الليلة، فيوبخ رئيس الوزراء على إهماله في شؤون المحافظة على الأمن، ويتابع بنفسه أنباء التحقيق.

■ ■ ■

وفي تلك الأثناء كانت سيارات عديدة تنطلق في طريقها إلى شبرا، سيارات مختلفة الأشكال والأحجام، سيارات حكومية وسيارات خاصة، بوكس فورد ولوريات محملة بالجنود والضباط.

وبعد دقائق كانت حديقة منزل وزير الحربية مزدحمة بكبار رجال لدولة. عوني حافظ باشا نائب وزير الداخلية بوجهه الصارم وعينيه اللتين تشبهان عيني الأفعى، واللواء رسل باشا حكمدار العاصمة بقامته الفارعة وطربوشه الأحمر الذي يعلن أنه انجليزي مائة في المائة ومحمود صدقي باشا محافظ القاهرة بقامته القصيرة، وبطنه الكبير، ووجهه المتعب الذي يدل على أنه انتقل على الفور من مائدة البوكر إلى مكان التحقيق دون أن يمر على قصره الأنيق في حي الأهرام، ومستر ألكسندركين بويد مدير الأمن العام الأوربي، الذي يرأس المخابرات البريطانية في القاهرة في الوقت نفسه، وسليم بك زكي مدير القسم السياسي برأسه الذي يشبه رأس النمس، وعينيه اللتين تشبهان عيني الصقر، والنائب العام والافوكاتو العمومي وكل ضباط القلم السياسي..

اجتمعت الدولة كلها في حديقة بيت وزير الحربية في شبرا، وأصبح كل رجل منهم فجأة شارلوك هولمز ونقولا كارتر وأرسين لوبين وغيرهم من أبطال قصص البوليس السري. كل منهم يبحث عن آثار أقدام في الحديقة، وعن بصمات الجناة، ويحاول أن يكتشف الطريقة الغريبة التي تم بها خطف وزير الحربية.

وأصدر عوني باشا أمره بالقبض على جنود حرس الوزارات الثلاثة الذين يحرسون دار الوزير، وبالقبض على سائق سيارة الوزير، وهو يقول:

ـ هذه مؤامرة واسعة النطاق، لا بد أن الحراس والسائق شركاء في المؤامرة.

وأسرع ضباط القلم السياسي ينفذون أمر نائب وزير الداخلية ويضعون القيود الحديدية في أيدي المتهمين الأربعة.

وقال مستر ألكسندركين بويد باللغة الانجليزية:

ـ إن هذا الحادث هو الأول من نوعه في مصر. سبق أن أطلق الرصاص على عدد من رؤساء الوزارات، سبق أن ضرب أحد الموظفين الصغار الفريق ابراهيم باشا فتحي وزير الحربية السابق بخنجر في محطة القاهرة، سبق أن تنكر أحد الطلبة في ثوب سفرجي وحاول أن يقتل صدقي باشا ببلطة في قطار السكة الحديد. ولكن هذه هي المرة الأولى التي يخطفون فيها وزيراً.. ويخطفونه من بيته ومن بين حراسه!

ووضع النائب العام البايب في فمه وقال:

ـ الغريب إن الجناة لم يتركوا أي أثر. لا بصمات على مقبض الباب الداخلي. ولا توجد في سور البيت آثار تدل على أنهم قفزوا من السور، ولا يوجد في الصالة الداخلية للبيت أي دليل على حدوث أية مقاومة.

قال عوني باشا نائب وزير الداخلية:

ـ لا تنس يا باشا أن توفيق رفعت باشا رجل ضعيف، ضئيل الحجم، قصير القامة، ومن السهل أن يكممه الجناة ويضعوه في حقيبة ويقفزوا بها فوق السور!

قال النائب العام:

ـ ولكن هذا لا يمنع حدوث مقاومة، كأن تسقط نظارته على الأرض أثناء عملية تكميمه . .

قال محمود صدقي باشا محافظ العاصمة :

ـ ربما وضع الجناة على وجه وزير الحربية قناعاً مخدراً، ففقد القدرة على الحركة والنطق. وأعتقد أن الجناة استعملوا القفازات في أثناء عملية فتح الأبواب حتى لا يتركوا أي بصمات .

قال مستر ألكسندركين بويد بلغة عربية مكسرة، فصيحة الكلمات، وانجليزية النطق :

ـ لا يمكن أن يكون لعمال العنابر خبرة بهذه الطرق الحديثة في الإجرام!

قال عوني باشا نائب وزير الداخلية :

ـ لا بد أنهم استعانوا برجال المعارضة في هذه العملية. إن المعارضين من كبار المجرمين، وبعضهم من الذين اشتركوا في تدبير حوادث سنة ١٩١٩ .

قال النائب العام :

ـ إنني انتهيت الآن من معاينة الأسوار. إنها كلها من الحديد المدبب، وليس من السهل القفز فوقها. ولهذا، فإنني أعتقد أن الجناة دخلوا وخرجوا من أحد الأبواب .

قال عوني باشا مغتبطاً بذكائه :

ـ وهذا هو الذي جعلني أقرر من أول الأمر أن أقبض على جنود حرس الوزارات الثلاثة ومعهم سائق الباشا . . إنهم شركاء، مائة في

المائة، للجناة!

وقال سليم بك زكي رئيس البوليس السياسي:

- إنني واثق من رجال حرس الوزارات، وقد تحريت عنهم واحداً واحداً بنفسي قبل أن أسند إليهم هذه المهمة الخطيرة. وقد سألت الآن رئيس حرس الوزارات فأكد لي ثقته في هؤلاء الجنود.

قال عوني باشا بعنف:

- طبعاً، كل واحد منكم سيدافع عن مرؤوسيه. قلت لك اقبض على جنود حرس الوزارات.

أنا رجل محقق قديم وأرى أن الشبهات كلها تحيط بهم!

ورفع سليم بك يده بالتحية العسكرية وقال:

- لقد نفّذنا الأمر في الحال، وقبضنا عليهم وأرسلناهم إلى سجن المحافظة مكبلين بالحديد، بعدن أن جرّدناهم من أسلحتهم!

■ ■ ■

وجاء أحد ضباط البوليس وهمس في أذن سليم بك زكي..

وتقدم سليم بك نحو نائب وزير الداخلية وقال له هامساً:

- إن أحد ضباطي قبض الآن على عامل في العنابر، كان يحوم حول بيت الوزير...

قال عوني باشا حافظ في اهتمام:

- إن القاعدة التي تقول إن المجرم يحوم دائماً حول مكان الجريمة

قاعدة صحيحة.. هاتوا هذا العامل إلى هنا لأتولى بنفسي التحقيق معه..

وأسرع سليم بك زكي وعدد من الضباط إلى باب الحديقة الخارجي، ثم عادوا يدفعون أمامهم رجلاً ينزف الدم من رأسه وفمه حتى اختفت ملامحه تماماً تحت وابل الدم المتساقط. وكان الرجل يتعثر في مشيته ويئن أنيناً متقطعاً. كان الضرب والصفع والركل بالأقدام قد ترك بصماته في كل مكان من جسمه المحطم ومن ملابسه الممزقة!

وتوقف موكب التعذيب أمام عوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية الذي نظر إلى الرجل والشرر يتطاير من عينيه وسأله باحتقار:

- ما اسمك؟

قال الرجل بصوت مرتجف:

- اسمي حنفي عبد الكريم.

قال عوني باشا:

- وما هي صنعتك؟

قال الرجل بصوت متهدج مجروح:

- عامل في العنابر.

وهز عوني باشا رأسه وقال له وهو يمد أصبعه في وجهه حتى كاد يدخلها في عينه:

- أين أخفيتم معالي توفيق باشا رفعت وزير الحربية والبحرية والطيران؟

وارتجف الأسطى حنفي وقال:

ـ أنا لم أرَ في حياتي توفيق باشا رفعت!

قال عوني باشا بصوت كالرعد وقد اتقد وجهه بلهيب شيطاني:

ـ أنت كاذب ومجرم . . قل أين هو توفيق رفعت باشا؟

قال الأسطى حنفي في هدوء:

ـ أقسم لك إنني لا أعرف.

قال عوني باشا وهو يتأمله ويدقق في ملامحه بنظرات جزار يعاين الشاة قبل ذبحها:

ـ لماذا كنت تحوم حول بيت توفيق رفعت باشا؟

قال الأسطى حنفي في براءة:

ـ لم أحم حول البيت . . أنا كنت في طريقي من بيتي في جزيرة بدران إلى عملي في العنابر، ودوريتي تبدأ في الساعة الخامسة صباحاً. وأنا، والله، لم أخطف توفيق باشا رفعت.

قال عوني باشا وقد أطلت منه فجأة خبرته القديمة في التحقيقات:

ـ وكيف عرفت أن توفيق رفعت باشا قد خطفوه؟

قال الأسطى حنفي ببساطة:

ـ كان الضباط يضربونني ويقولون لي: أنت خطفت توفيق باشا رفعت.

قال سليم بك زكي وقد اتقدت عيناه بحقد مكتوم:

ـ إنه كاذب . . لم نقل له أبداً إن أحداً خطف توفيق باشا . . كل ما قلناه إننا سألناه أين «أخفى» توفيق باشا؟ .

قال الأسطى حنفي :

ـ مفهوم من سؤالي أين أخفيت توفيق باشا ، أنني متهم بخطفه . .

قال عوني باشا وقد اضطربت أوصاله :

ـ إنك رجل خبيث. تجيد الهروب من الأسئلة! أنت مجرم معتاد الإجرام!

قال الأسطى حنفي في توسل :

ـ أبداً يا سعادة البك ، إن صحيفة سوابقي بيضاء . .

وصفع عوني باشا بيده وجه الأسطى حنفي وهو يقول وكأنه يدوس سيجارة بقدمه :

ـ أنا باشا يا كلب! كيف تجرّدني من الرتبة التي أنعم بها علي جلالة الملك؟

قال الأسطى حنفي في توسل اشترك فيه صوته الممزق مع وجهه الواهن الممزق :

ـ عفواً يا معالي الباشا!

وعاد عوني باشا وصفعه من جديد وهو يقول له في ازدراء :

ـ أنا لست صاحب معالي . . أنا صاحب سعادة فقط . . هل جعلتم أنفسكم ملوكاً بدل الملك تنعمون على الوزراء بالألقاب؟

وسكت الأسطى حنفي واحتار ماذا يقول! . .

وصرخ عوني باشا قائلاً وكأنه ذئب ينقض على فريسة، وكان لكل حرف من حروف كلماته مخالب كمخالب الذئاب:

- أرني يديك . .

ومد الأسطى حنفي في تردد يدين خشنتين قاسيتين . . وتأملهما عوني باشا يبحث فيهما عن آثار رضوض من قفزة فوق سور بيت وزير الحربية فلم يجد.

وعاد يصرخ فيه أن يخلع بنطلونه ليعاين ساقيه.

وخلع الأسطى حنفي البنطلون، ولمح عوني باشا أن ساق الأسطى حنفي مربوطة بقماش أبيض . . فأمره بأن ينزع الرباط . .

ورأى عوني باشا أثر جرح عميق . . فقال له وقد تغيرت ملامحه فبدا سفاكاً للدماء!

- هذا الجرح أصبت به أثناء قفزك سور البيت!؟

قال الأسطى حنفي وقد امتزجت الكلمات بالدم والدموع:

- إنني أصبت به في حوادث العنابر من حربة أحد الجنود.

قال عوني باشا وقد أحس أن الفأر وقع في المصيدة:

- ولهذا جئت تنتقم من وزير الحربية الذي يتبعه هذا الجندي.

قال الأسطى حنفي في صوت ذبيح، كأنه أنين يجيء من بعيد:

- إن الجندي الذي جرحني هو جندي بوليس من السواري!

وثار عوني باشا وقال في غضب:

ـ إنك تعرف الإجابة على كل الأسئلة.. هـذا دليل عـلى أنك مجـرم فعلاً..

ثم التفت إلى الضباط، وقال وهو يحرك طرف أنفه بسبابته:

ـ اضربوه بالسياط حتى يعترف!

وانهال الضباط بالسياط على الأسطى حنفي، وسقط على الأرض تحت ضربات السياط وهو يصرخ:

ـ أنا مظلوم.. والله العظيم مظلوم!

وصاح فيه عوني باشا:

ـ إخرس.. لا ترفع صوتك! إن الناس لا يـزالون نـائمين فـلا تزعجهم بصوتك القبيح..

وعضّ الأسطى حنفي على تأوهاتـه، حتى لا يزعـج النائمـين في بيوتهم..!

واستمر ضرب السياط، وعوني باشا ينظر إلى الدم الذي ينزف من حنفي في ابتهاج ويقول:

ـ السياط في أيدينا.. وقد خلقت ظهوركم لهذه السياط!

وضاع صوت حنفي في صراخ السياط. كان الأسطى حنفي قـد سمع أن السياط ترتجف في أيدي الظالمين، ولكنه اكتشف أن المظلوم هو الذي يرتجف وليس الظالم. ولاحظ في الوقت نفسه أنه كلما توالت ضربات السياط قلّت آلامها، كأن الجراح تضمد الجراح!

ولم يكتف الجلادون بضرب حنفي بالسياط، بل كانوا ينهالون عليه بأقذر الشتائم وأقبح السباب. . وفي بعض الأحيان توجع الشتائم الأبرياء أكثر مما توجعهم ضربات السياط!

ولم يستطع الأسطى حنفي أن يتحمل أكثر مما احتمل، فرفع رأسه المضرجة بالدم وقال بصوت مخنوق:

- سأعترف. . سأعترف!

وأمر عوني باشا حافظ الضباط بوقف الضرب بالسياط، وتقدم نحو حنفي وقد بدت عليه خيلاء الانتصار. . وقال حنفي بصوت يقطر دماً وعذاباً وألماً:

- نعم خطفت توفيق باشا وزير الحربية. .

قال عوني باشا في حماس القائد الذي يرى عدوه يرفع يديه مستسلماً:

- وأين أخفيته؟

وسكت حنفي ولم يرد.

وصاح فيه عوني باشا:

- قتلته طبعاً. . انتقاماً منه لأن الجنود أطلقوا الرصاص على عمال العنابر!

وتأمل حنفي السياط المرفوعة في أيدي الضباط وقال:

- نعم قتلته. . انتقاماً منه لأن جنوده قتلوا زملائي العمال.

قال له عوني باشا وقد صعد الدم إلى رأسه، والتهب جبينه كأنه محموم:

ـ وأين أخفيت جثة وزير الحربية؟

قال الأسطى حنفي في استسلام:

ـ ألقيت جثته في النيل..

وعاد عوني باشا يسأله وقد أحس بأن جثته هو ربطت مع جثة وزير الحربية، وأن الجريمة ستودي بمستقبله!

ـ ومن هم شركاؤك؟

قال حنفي وهو يبكي:

ـ ليس لي شركاء.. أنا الذي ارتكبت الحادث وحدي!

وصرخ فيه عوني باشا وقد تحول فجأة إلى شبه مجنون:

ـ أنت كاذب! إنك تحاول أن تحمي شركاءك! تحاول أن تكون بطلاً يا كلب!؟

قال حنفي وهو يبكي:

ـ أقسم بالله العظيم أن ليس لي شركاء..

وأمر عوني باشا ضباطه بأن يضربوا حنفي من جديد. وتحمل حنفي الضرب ثم قال:

ـ سأعترف.. زملائي هم ابراهيم القط وأنطوان فرح ومحمد نوفل العمال في العنابر..

ثم ابتلعته غيبوبة طويلة.. طويلة!

■ ■ ■

فوجىء محمد حنفي عبد الكريم بالمعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي فرج يدفع باب غرفته، ويقول له هامساً:

ـ أخفوا كل ما في البيت من أسلحة. أحرقوا كل ما عندكم من أوراق. البوليس قادم الآن لتفتيش البيت.

وشعر محمد بأنه أصيب بكل البلاهة التي في الدنيا، لم يتحرك من مكانه، كأنه لم يرَ شيئاً ولم يسمع شيئاً.

وهزه المعلم وهدان بعنف وقال له:

ـ قم! تحرك! إن الأسطى حنفي قتل توفيق باشا رفعت وزير الحربية، وقبضوا عليه، واعترف.. وهم قادمون الآن لتفتيش البيت..

وحملق محمد في وجه المعلم وهدان باستغراب! أيمكن أن يكون والده الرجل الطيب قاتلاً؟ ويقتل وزيراً؟ إنه لا يستطيع أن يذبح فرخة، فكيف يستطيع أن يقتل أحد أصحاب المعالي الوزراء؟..

لقد حدثه أبوه مرة أنه كان في سنة ١٩١٩ عضواً في خلية سرية برئاسة الدكتور أحمد ماهر، وكان يتحدث عن تلك الأيام باعتبارها «أيام الشقاوة». أيكون والده عاد فجأة إلى أيام الشقاوة من جديد؟

لكن، كيف يستطيع هذا الرجل الضعيف المريض المسن أن يهاجم وزيراً ويقتله؟ أين رأى الوزير في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟ وبماذا يقتله؟ أيقتله بقضيب حديد من القضبان التي يعمل عليها في العنابر أم يقتله بمسدس؟

وارتعش محمد عندما خطر المسدس على فكره. وأعادت هذه الرعشة إليه الحركة التي تدفقت في جسمه، ووجد نفسه يقفز من

الفراش، ويركع تحت السرير، ويمد يده إلى الحقيبة، ويفتحها، ويفتش تحت الملابس فتعثر يده على مسدس كبير الياوران الذي أخذه من زميله ابراهيم المناسترلي عندما أراد أن يستعمله في خطف نجوى. واطمأن إلى أن المسدس لا يزال موجوداً في مكانه، ودسه في جيبه، ثم أسرع يعدو إلى سطح البيت، وأخفاه في جدار بين سطح بيته وسطح الجيران.

وما كاد يعود إلى الشقة حتى وجد الضباط ورجال البوليس يملأون غرفها الصغيرة، ويفتشون كل ركن فيها، ويعبثون بمحتويات كل صندوق، ويحفرون بلاط الغرف بحثاً عن مخابىء. وبدت أمه كالمذهولة وهي واقفة بينهم، وفوجىء بأحد الضباط يقبض عليه دون أن يوجه إليه أي سؤال، ثم رأى ضابطاً آخر يقبض على أمه، ولم ينزعج محمد لنبأ القبض على أبيه بقدر ما انزعج وهو يرى أمه في يد رجال البوليس يدفعونها أمامهم في قسوة وعنف وينهالون عليها بالشتائم والسباب!

ودفعهما رجال البوليس إلى سيارة بوكس فورد حملتهما الى قسم شبرا..

■■■

وفي القسم وجدا رجلاً بديناً، قصير القامة، في عينيه نظرات قاسية، يتحدث دائماً وهو يضغط على أسنانه ثم يحك أنفه بسبابته. ولاحظ محمد أن الضباط يحترمون هذا الرجل احتراماً غير عادي. اللواءات ينحنون كرقم «٢» وهم يتحدثون إليه، والذين أقل من لواءات ينحنون كرقم «٨» حتى تكاد جباههم تلامس الأرض، وهو واقف بجسمه المستدير أشبه برقم «٥»!

وسمعهم ينادونه بلقب سعادة نائب الوزير، وعرف من قسمات

وجهه الشرس أنه ينطبق عليه وصف والده لعوني باشا حافظ الذي كان يأمر جنوده بأن يقتلوا عمال العنابر كما يقتلون الكلاب!

وسمع عوني باشا يقول لأمه:

ـ من هم الأشخاص الذين يزورون زوجك في البيت؟

قالت أمه وهي ترتجف:

أنا لا أظهر أمام الرجال، ولا أفتح لهم الباب..

وصرخ فيها عوني باشا:

ـ قولي الحقيقة يا عاهرة!

وسقطت دمعة من عيني أم محمد ولم تفتح فمها.

وانتفض محمد بين يدي الجنديين اللذين يمسكان به وحاول أن ينقض على عوني باشا ويفترسه، وإذا بضابط يعاجله بضربة هراوة على رأسه يسقط بعدها على الأرض بلا حراك، ويفتح عينيه فيجد نفسه مكبلاً بالحديد في يديه وقدميه وملقى على الأرض بإحدى الغرف..

وسمع صراخاً، صراخ رجال وصراخ نساء! وتبين في هذه الصرخات المختلفة صوت أمه، فكان يحس بهذه الصرخات كأنها سكين تطعنه مع كل صرخة. ما أتعس المقيدين الذين تمنعهم الأغلال من أن يتحركوا لإنقاذ أمهاتهم وأحبائهم من سياط الجلادين!

إن رأسه لا يزال يؤلمه من أثر المطرقة التي هوت عليه. يداه تتعذبان من ضغط القيود الحديدية. قدماه تنزفان من السلاسل والأغلال. ولكنه يتألم أكثر ويتعذب أكثر وينزف أكثر من كلمة «عاهرة» التي قالها عوني باشا لأمه!

الألم الذي رآه في عينيها في تلك اللحظة كان أكثر ألف مرة من كل الآلام التي شعر بها طوال حياته المليئة بالدموع والحسرات والمصائب والأحزان. ماذا فعلت أمه لتهان هذه الإهانة بلسان نائب الوزير؟ إذا كان زوجها قاتلاً فما هي جريمتها؟! ولو كانت شريكة في الجريمة فإنه خير لها أن يشنقوها من أن يشنقوا شرفها على لسان نائب الوزير! في كل بلاد الدنيا المتهم بريء إلى أن تثبت إدانته، أما هنا، مع عوني باشا، فإن المتهم مجرم حتى ولو ثبتت براءته!

رأى محمد وهو في سجنه صورة وجه عوني باشا وهو يتشكل بأشكال مختلفة، يراه مرة غولاً، ومرة حية رقطاء، ومرة كتلة مستديرة من الشرور، ومرة كأحد زبانية جهنم. وشعر بهوان شديد لأن الضربة عاجلته قبل أن ينقض عليه ويخنقه دفاعاً عن شرف أمه.

وفتح الباب ودخل أحد الجنود يحمل رغيفاً وبعض الطعام، وقال له الجندي:

- إن زملاء والدك من عمال العنابر أحضروا لك هذا الطعام.

قال محمد في لهفة:

- وهل أعطوا أمي طعاماً؟

قال الجندي وهو يربت على كتفه في حنان:

- لقد قدمت لها الطعام.. قبل أن أحمل لك الطعام وطلبت مني أن أقول لك: «تشجع إن الله معنا»، وأن أطمئنك عليها بأنها «قدها وقدود»!.

كان محمد محتاجاً هذه الكلمة الحلوة ليطمئن على أمه. إن والده رجل ويستطيع أن يتحمل السجن، ويتحمل الإهانات، ولكن أمه

المسكينة لم تخرج من باب الشقة أبداً، إلا لتدخل السجن. .

وهمس الجندي في أذنه بألم:

ـ لقد قبضوا على ثلاثة عمّال من العنابر، هم ابراهيم القط وأنطون فرح ومحمد نوفل، وضربوهم واعترفوا أنهم قتلوا وزير الحربية بالإشتراك مع والدك، وألقوا جثته في النيل. . وقد ذهب الغواصون يبحثون في المكان الذي أرشدوا إليه عن جثة الوزير. . أما والدك فقد حملوه في سيارة وحده ووضعوه في سجن الأجانب!

وسأل محمد السؤال الذي بقي طوال الوقت يدور في رأسه:

ـ ولكن هل اعترفوا كيف قتلوه؟

قال الجندي وهو يخفض صوته أكثر حتى لا يعرف أحد أنه يذيع أسرار التحقيق:

ـ اعترفوا بأنهم ذبحوه كالخروف. . والشعب يقول أنهم أبطال، لأنهم انتقموا من الوزير الذي أمر بإطلاق الرصاص على عمال العنابر!

قال محمد مصححاً معلومات الحارس:

ـ ولكن وزير الحربية ليس هو الذي أمر بإطلاق النار. . الذي أمر بإطلاق النار هو عوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية!

قال الجندي في بساطة:

ـ العمال يقولون أنهم سيذبحونهم واحداً واحداً!

■ ■ ■

ولأول مرة منذ القبض عليه شعر محمد باطمئنان عجيب، طافت

إبتسامة ثقة فوق شفتيه المرتعشتين. أحس بفرحة كبيرة، فرحة حقيقية، أعادت كل قواه إليه: إن الخاطر الذي طاف برأسه عندما رأى عوني باشا يشتم أمه طاف بألوف العمال. إنهم لن يذبحوا واحداً من الخرفان، بل سيذبحون جميع الخرفان، سيذبحون جميع الطغاة والمستبدين، سيذبحون الذي أمر بقتل «العمال الكلاب»، الذي شتم أمه بسباب وضيع حقير!

إننا نشعر بالقوة عندما نحس أننا لسنا وحدنا، إن هنا من يشاركنا مشاعرنا. إن اللعنات لا تخرج من أفواهنا وحدها. لعنة من فم مظلوم قد تقطع مسافة طويلة قبل أن تصل إلى السماء، ولكن اللعنات من أفواه ألوف المظلومين تتحول إلى طاقة أكبر تصل إلى السماء بقوة هائلة. همسة واحدة قد تضيع مع الريح، ولكن ألوف الهمسات تصنع الرعد. زفرة واحدة قد تذوب في الهواء، ولكن ملايين الزفرات تخلق الاعصار!

إذن، فالذي قام به والده ليس عملاً فردياً، إنما هو غضبة شعب بأكمله. لن تذهب تضحيته هباء، سيقبض على عامل، ويجيء مكانه عامل آخر. سيشنق عامل وسيولد بدلاً منه عامل جديد: لن ينتهي العمال.. وإنما سوف ينتهي الطغاة.. كل الطغاة!

■ ■ ■

ووصل نبأ مصرع توفيق رفعت باشا وزير الحربية إلى إدارات الصحف، وأسرع المصورون إلى دار الفقيد في شبرا يلتقطون صور البيت والحديقة والسور. ووقف المصورون ينتظرون انتهاء عوني باشا حافظ من محادثة تليفونية مع دولة اسماعيل صدقي باشا ليلتقطوا لسعادته صورة بصفته المشرف على التحقيق.

وكان رئيس الوزراء قد اتصل بعـوني باشـا في مكتب المأمـور في قسم شبرا فقيل له أن نائب وزير الداخلية ذهب إلى بيت الفقيد.. واتصـل صدقي بـاشا ببيت تـوفيق باشـا وطلب محادثـة نائب وزيـر الداخلية ليسأله عن آخر تطورات التحقيق.

وذكر عوني باشا أنه أمكنه الحصول على اعتراف كامل من الجناة الأربعة بأنهم ذبحوا وزير الحربية ووضعوه في حقيبة وألقوه في النيل، وانه واثق أنه سيعرف أسماء الزعماء الذين حرّضـوهم على الجـريمة، خلال نصف ساعة..

وطالت المحادثة، فانتهز الاستاذ ميشيل نظر مصور جريدة «البلاغ» هذه الفرصة وفكر في أن يصور السيارة التي استقلها وزير الحربية قبل أن يقع حادث الخطف..

وذهب المصور إلى جراج بيت الوزير، وفتح باب الجراج، والتقط صورة للسيارة..

ثم خطر له أن يصور السيارة من الداخل..

وفتح المصور باب السيارة الخلفي ليلتقط صورة المقعد الخلفي..

وإذا به يصرخ بأعلى صوته، فقد رأى جثة توفيق رفعت باشا فوق المقعد الخلفي..

ثم سقط الاستاذ ميشيل نظر مغشياً عليه عندما رأى توفيق رفعت باشا يتحرك في مكانه، ويرفع رأسه ويقول:

- ماذا حصل؟!

وأسرع الضباط والمصورون على صوت الصراخ وما لبثوا أن تسمّروا

في أماكنهم، عندما رأوا توفيق رفعت باشا وزير الحربية والبحرية والطيران يخرج من السيارة، وهو يعدل نظارته فوق أنفه ويقول للواجمين في دهشة:

ـ ماذا تفعلون هنا؟

وأسرع سليم بك زكي رئيس البوليس السياسي يحاول اللحاق بعوني باشا حافظ قبل أن ينتهي من محادثة صدقي باشا ليخطره بالنبأ الكبير!

وكان عوني باشا قد انتهى في تلك اللحظة من الحديث مع رئيس الوزراء وتلقى تهانيه على نجاحه العظيم في القبض على المجرمين والحصول على اعترافاتهم بعد ساعتين من وقوع الجريمة!

وقال سليم بك زكي مضطرباً:

ـ إن توفيق باشا حي!! وجدناه يا افندم.. وجدناه حياً!

وفوجىء عوني باشا بالنبأ. سقطت نظارته من فوق عينيه، فأسرع يلتقطها قبل أن تقع على الأرض وهو يقول:

ـ برافو. سأذهب إليه ليتعرف بنفسه على الجناة!

وأسرع عوني باشا يقفز درجات السلم الخارجية، وإذا به يرى أمامه وزير الحربية..

وفتح عوني باشا ذراعيه واحتضن جسم توفيق رفعت باشا الصغير وراح يغمره بالقبلات وهو يقول:

ـ ألف مبروك.. لعل معاليك تؤمن الآن بكفاءة رجال الأمن

العام. . إننا ضبطنا الأربعة الذين خطفوك واعترفوا جميعاً اعترافاً كاملاً بتفاصيل الجريمة!

قال وزير الحربية وهو ينظر إلى الوجوه المحدقة فيه، وكأن كل من حوله سكارى، وهو وحده المتمتع بكامل قواه العقلية:

ـ أي جريمة؟

قاال نائب وزير الداخلية:

ـ جريمة خطف معاليك!

قال وزير الحربية:

ـ أنا لم يخطفني أحد!

وربت عوني باشا على كتف وزير الحربية وقال:

ـ أنا أعرف أن الصدمة كانت عنيفة! وأن المجرمين وضعوا كمامة مخدرة على رأس معاليك، فلم تعرف ما حدث لك. . ولكن كل تفاصيل الجريمة دقيقة بدقيقة عندنا! وقد كذبوا كذبة واحدة عندما أرادوا أن يضللونا ويقولوا أنهم ذبحوا معاليك وألقوا جثتك في النيل. . ولكننا استطعنا بتحرياتنا الخاصة أن نعرف مكان معاليك على الفور!

قال توفيق رفعت باشا ساخراً:

ـ أي تحريات؟ وأي جريمة؟ وأي كمامة مخدرة؟ إن كل ما حدث أنني نمت في السيارة في طريقي من نادي محمد علي إلى البيت. . والحمار سائق السيارة لم يوقظني وتركني في الجراج. . ولم أشعر بشيء إلا عندما فتح مصور جريدة «البلاغ» باب السيارة وصرخ صرخة عالية أيقظتني من نومي الهانيء. .

وأمر عوني باشا حافظ بإحضار سائق السيارة، فجيء به مقيّداً في الأغلال الحديدية، وسأله نائب وزير الداخلية عن حقيقة ما حدث، فقال السائق:

- إنني فتحت باب السيارة أمام باب البيت، وانتظرت دقيقة، وتصورت أن الباشا قد نزل من السيارة، فأغلقت الباب ووضعت السيارة في الجراج وعدت إلى بيتي!

وصرخ فيه عوني باشا:

- هل كنت سكران؟

قال السائق بغير تفكير:

- كلا... لم أكن أنا السكران!

■ ■ ■

وفتح باب زنزانة في سجن الأجانب، وكان الأسطى حنفي عبدالكريم مكوماً في أحد الأركان يئن من جروحه..

وفجأة رأى الأسطى حنفي السياط تنهال على رأسه من جديد..

وسمع الضباط يقولون له:

- أيها الكذاب الأفّاق.. كيف تكذب علينا وتعترف أنك ذبحت توفيق رفعت باشا؟

ودهش المعلم حنفي. لقد ضربوه بالسياط لأنه أنكر أنه ذبح توفيق رفعت باشا، ثم ضربوه بالسياط لأنه لم يذبح توفيق رفعت باشا...

وأحس بألم السوط يكوي ظهره فصرخ يقول:

ـ أؤكد لكم أنني ذبحت توفيق رفعت باشا.. ذبحته.. قتلته!

قالوا له وهم ينهالون عليه ضرباً:

ـ إن توفيق باشا حي يرزق.. وقد رأيناه بأعيننا.. وظهر أنك كذاب ولم تخطفه.. أنت مجرم.. أنت خدعت الحكومة.. أنت أزعجت السلطات.. أنت أقلقت الملك ورئيس الوزراء!

قال المعلم حنفي في إصرار:

ـ أنا مقتنع وواثق.. أنني ذبحت بنفسي توفيق باشا رفعت وزير الحربية وألقيت بجثته في النيل..

وهزه سليم بك زكي من كتفه بعنف وقال:

ـ نحن نقول لك إنه حي لم يمت.. وأنت تقول إنك مقتنع أنك ذبحته.. من الذي أقنعك؟

قال المعلم حنفي في إيمان غريب:

ـ اقنعني السوط الذي في أيديكم! ولو ذقتم أنتم هذا السوط لاقتنعتم أيضاً أنكم ذبحتم وزير الحربية!

ودفعه أحد الضباط بيده، وركله آخر في ظهره، وهو يقول:

ـ إننا سنفرج عنك الآن.. وحذار أن تفتح فمك وتقول ما حدث.. فهذا يعتبر إذاعة لسر من أسرار الدولة، ومصيرك أن نجيء بك إلى هنا ونضربك بالسياط من جديد..

وكان الأسطى حنفي قد وصل إلى الباب، فقد حملته ركلة الضابط من آخر الغرفة الى أولها..

واستدار الأسطى حنفي، وعاد إلى آخر الغرفة وجلس في ركن وهو يقول:

ـ كيف تفرجون عني وأنا قد ذبحت وزير الحربية والبحرية والطيران؟

وحمله الجنود من يديه وساقيه، وألقوه خارج باب السجن وأغلقوا باب السجن . .

ومشى الأسطى حنفي يتعثر في خطواته، ويتحسس جراحه، وكلما رأى رجلاً في الطريق توقف أمامه وقال له هامساً في هدوء:

ـ أنا الأسطى حنفي عبد الكريم الذي ذبح وزير الحربية والبحرية والطيران وألقى بجثته في النيل السعيد!

ولا ينتظر الأسطى حنفي جواباً، بل يمضي في سيره، ويستوقف رجلاً ثانياً وثالثاً وعاشراً . . ويقول لهم هامساً نفس الجملة دون أن يفقد هدوءه!

ووصل إلى بيته في شارع مفرش الحمص بجزيرة بدران . .

ورأى البيت مزدحماً بأصدقائه من عمال العنابر وبجيرانه، وبالمعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي فرج التي اعتاد أن يتردد عليها، وصبيان المعلم وهدان . .

وارتفعت الزغاريد من نوافذ الجيران، وتعالت الهتافات للحق الذي انتصر على الظلم . . فقد انتشرت بينهم أنباء ظهور توفيق رفعت باشا على قيد الحياة . . وأقبل المهنئون يشدون على يد الأسطى حنفي ويقولون له:

ـ مبروك. . دولة الظلم ساعة. . ودولة الحق إلى قيام الساعة!

وفوجئوا بالمعلم حنفي يقول لهم همساً:

ـ الحقيقة. . . بيني وبينكم. . أنا ذبحت وزير الحربية والبحرية والطيران وألقيت بجثته في نهر النيل السعيد!

وانفجروا ضاحكين، فقد اعتقدوا أن الأسطى حنفي يسخر من الحكومة التي تلفق التهم الظالمة الأبرياء!

ولكنهم فوجئوا بالمعلم حنفي لا يشاركهم ضحكهم ويؤكد ويقسم أنه قتل فعلاً وزير الحربية!

وعبثاً حاول محمد أن يقنع والده الأسطى حنفي أن وزير الحربية لم يذبح، وأنه على قيد الحياة، وأن أحداً لم يخطفه، وأن أهل شبرا كلهم يتحدثون عن فضيحة الحكومة، ويسخرون من تلفيقاتها، ويتندرون بقلق الوزراء وفزعهم عندما سمعوا بخطف زميلهم وزير الحربية. .

وكان الأسطى حنفي يؤكد لمحمد أنه ذبح وزير الحربية بيده، ويروي تفاصيل عملية الخطف والذبح وإلقاء جثة الوزير في النيل. .

وتطلع محمد في عيني أبيه، فخيّل إليه أنه يرى داخل العينين صورة السياط التي ضرب بها. . أيكون الذي يتكلم الآن هو صوت السياط، لا صوت أبيه؟.

وسكت محمد حزيناً مكتئباً. .

وبدأ الأسطى حنفي يخلع ملابسه، ورأى محمد في ظهر أبيه وبطنه وساقيه خطوطاً سوداء وزرقاء وحمراء، خطوطاً عديدة متشابكة، بأطوال مختلفة، وبعروض مختلفة.

ولم يقرأ محمد في هذه الخطوط قصة العذاب الهائل الذي تعرض له والده، وإنما قرأ تفسيراً لمواد دستور الأمة الذي كان يجهله!

كان كل أثر لسوط على جسم أبيه هو مادة من مواد هذا الدستور الذي قام الشعب وأجمع على إلغائه! هذا الجرح الكبير يقول أن الأمة هي مصدر السلطات. هذا الجرح الذي ينزف يقول بأنه لا يجوز أن يبقى بريء في السجون. هذا الخط الأزرق يقول بأن لا جريمة بغير قانون. هذا الخط الأحمر يقول: لا يجوز إكراه متهم على الإعتراف.

كل مادة من مواد الدستور مكتوبة على جسد أبيه بآثار السياط. إن ما حدث له قد يحدث لملايين غيره.. ملايين الأبرياء.. ملايين الناس الطيبين الذين يطالبون بسيادة الدستور والقانون!

وصعد محمد إلى السطح وأحضر المسدس من مخبئه، وأمسكه في يده يلوح به، ثم وضعه في حقيبته تحت السرير. وأمسك بيده قلمه!

وخطر ببال محمد أن يسجل المعاني التي استوحاها من أثر السياط في مقال..

فجلس وكتب..

■ ■ ■

وإذا به دون أن يشعر يكتب خطاباً غرامياً، خطاباً كله غزل وهوى مبرح، وشوق جائع، في معشوقة لم يعرفها من قبل، أو أنه لم يفهمها من قبل! يكتب لأول مرة في حياته خطاباً غرامياً بإمضائه هو، إلى معشوقة يحبها حباً جارفاً أكثر من أي غرام أحس به أو سمع عنه. إنها معشوقة يفتقدها ولا يجدها، يحتاج إليها وهو محروم منها، يريد أن يضحي بحياته كلها ليستمتع بها.

ووجد محمد نفسه وهو يكتب كأنه اكتشف هذه المعشوقة لأول مرة، وعرف اسمها. لقد سمع بهذا الاسم من قبل، ولكنه لم يكن يتصور أنها تعني كل ما عنته، لم يكن يعتقد أنها بكل هذه الروعة والجمال. وإذا كانت الصحة تاجاً على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، فإن الحرية تاج على رؤوس الأحرار لا يفقده إلا المستعبدون!

الآن فقط فهم معنى الحرية التي يعبر عنها الدستور، ويهتف الناس بحياتها، ويستشهدون من أجلها. الظلم علمه مرادفات للحريات لم يكن يعرفها. كأن السياط لا بد أن تشرح الكلمات التي أجملتها الدساتير! لعدالة هي أحد أسماء الحرية، فلا عدالة بلا حرية. ويوم يرفع الحاكم السوط بيده اليمنى، يسقط ميزان العدالة من يده اليسرى. الحرية هي أن أمشي دون أن أتلفت حولي، وأن أعمل دون أن أتلفت خلفي. أن أنتقد الحاكم وأذهب إلى بيتي، لا أن أنتقده وأذهب إلى السجن. أن أكتب ما أريد لا ما يريد السلطان.

ألا أعبد إلا الله، ولا أخاف إلا الله، ولا أسجد لغير الله. الحرية فيها إله واحد في السماءوالطغيان فيه سلطان واحد على الأرض وحوله سلاطين صغار يطغون ويستبدون.

ومضى محمد يصف في مقاله ما فعله عوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية في قضية ادعاء خطف وزير الحربية، وكيف داس بقدمه فوق كل حرية من هذه الحريات.

وفكر محمد في الجريدة التي يرسل إليها هذا المقال الذي وصف فيه كل ما لمسه بنفسه من ظلم وطغيان واستبداد واعتداء على الحرية والكرامة والإنسانية.

وقرر أن يرسل المقال إلى جميع الصحف اليومية التي تعارض حكومة

صدقي باشا، وكتب أربع نسخ من المقال، وأرسل النسخة الأولى إلى الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب جريدة «البلاغ»، والنسخة الثانية الى أحمد حافظ عوض بك صاحب جريدة «كوكب الشرق»، والنسخة الثالثة إلى الأستاذ محمد توفيق دياب صاحب جريدة «الجهاد»، والنسخة الرابعة إلى الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة «السياسة».

وعندما انتهى محمد من كتابة المقال أحس براحة غريبة، كأنه انتزع من قلبه كل همومه وعذابه وشقائه وآلامه في هذا الورق، وألقاه في صندوق البريد . .

إننا عندما نكتب أحاسيسنا على الورق نحس بنفس الراحة التي يشعر بها الرجل المثقل بالذنوب بعد أن يجلس على كرسي الاعتراف، أو بهذه الراحة التي يحس بها المريض النفساني وهو مستلق على ظهره يروي قصة حياته أمام الطبيب النفساني. الكلمة عندما تبقى محبوسة في داخلنا تعذبنا، فإذا نطقنا بها تضاءل هذا العذاب . .

وانتظر محمد بفارغ الصبر صباح اليوم التالي ليقرأ مقاله. وتصور وجه عوني باشا حافظ وهو يقرأ المقال منشوراً، ستكون لكلماته وقع السياط. ستحدث فيه خطوطاً سوداء وزرقاء وحمراء كالخطوط التي تركتها سياطه في جسد والده الأسطى حنفي عبد الكريم.

واشترى محمد نسخة من جريدة «الجهاد»، وراح يبحث فيها عن مقاله: في الصفحة الأولى؟ لم يجد شيئاً . . في الصفحة الثانية؟ لا شيء . . في الصفحة الثالثة؟ ولا كلمة! ولم يجد مقاله حتى في صفحة الوفيات.

وأعاد جريدة «الجهاد» إلى البائع، واستبدلها بجريدة «السياسة»،

فلم يجد فيها هي الأخرى شيئاً. .

ولم يفقد الأمل. . انتظر صحف المساء، واشترى نسخة من «البلاغ» ونسخة من «كوكب الشرق» فلم يجد كلمة أو إشارة. . أو الجملة المعتادة «تلقينا مقالاً مذيلاً بإمضاء محمد عبد الكريم ونعتذر عن عدم نشره لضيق المقام»! حتى هذا الكليشيه الذي يعتبر اسماً مؤدباً لسلة المهملات لم يجده.

وكانت هذه أول مرة في حياة محمد التي يشتري فيها الصحف. وكان ثمن الصحيفة خمسة مليمات، وكانت تبدو مبلغاً ضخماً في نظر محمد يضحي به من أجل أن يرى صورة السياط التي ستقع على ظهر عوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية.

واستمر ثلاثة أيام يشتري الصحف الأربع، ويرى خيبة أمله في كل صفحة من صفحاتها.

وشعر بالضيق، وكره الصحف والصحفيين، ثم تذكر أنه قرأ أن الحكومة تراقب الرسائل المرسلة إلى صحف المعارضة، وتصادر بعضها. . . ربما صودرت رسائله لأنها تهاجم حكومة صدقي باشا.

وخطر بباله أن يذهب إلى إدارة جريدة «البلاغ» ليطمئن على وصول مقاله، فاستقبله الأستاذ محمد بيومي الجنيد سكرتير التحرير واخبره إن عوني حافظ باشا نائب وزير الداخلية أصدر أمراً الى الصحف يحظر فيه نشر أي شيء عن حادث توفيق رفعت باشا، ويهدد بإغلاق كل جريدة تخالف هذه التعليمات. .

وطاف محمد بباقي إدارات الصحف، وسمع من محرريها نفس التعليمات.

وأحس بأن يد عوني باشا تمتد من مكتبه بوزارة الداخلية وتـطول وتطول حتى تصل إلى بيته في جزيرة بدران بحي شبرا، وتكمم فمه. تمنعه من حقه في أن يصرخ، وأن يتأوه، وأن يستغيث!

بل إنه أحس أن يد عوني باشا لا تكمم فمه وحده، بل إنها تكمم أفواه ملايين المصريين. وأحس برغبة في أن يقطع هذه اليد التي تكممه، والتي صفعت والده، كما أحس برغبة في أن يقطع اللسان الذي قال لأمه أنها عاهرة.. نفس اللسان الذي أصدر الأمر بقتل «العمال الكلاب»!

وأحس أن يده قصيرة جداً، لا تستطيع وحدها أن تصل إلى يد الباشا ولسانه! إنه في حاجة إلى أيدٍ كثيرة، تربط في بعضها البعض، وتطول وتطول، حتى تصل إلى يد ولسان عوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية!

أين هؤلاءالعمال الذين قال عنهم حارسه في قسم شبرا أنهم سيذبحون جميع الطغاة واحداً واحداً؟

■ ■ ■

وعاد محمد إلى بيته حزيناً، مهموماً، مقهوراً، مهزوماً..

وعندما فتح الباب رأى والده جالساً، وبجواره المعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي فرج.. وكانا يجلسان صامتين، منكسي الرأس، حزينين مفجوعين، كأنهما في مأتم فقيد عزيز.

وحملق محمد فيهما وهو يقول:

- ماذا جرى؟

وسكت أبـوه. وقال المعلم وهدان في صوت يشبـه رنين القـدح المكسور:

ـ إن مصلحة السكك الحديدية فصلت الأسطى حنفي من عمله في العنابر. أحالوه على القسم الطبي فقال أن الاسطى حنفي لا يصلح للعمل، لأنه مريض بقواه العقلية، واستدلـوا على ذلـك بأنـه يؤكد باستمرار، وفي كل مناسبة، بأنه ذبح وزير الحربية!

ونظر محمد في لوعة إلى أبيه.

وابتسم الأسطى حنفي وقال:

ـ إن الأطباء هم المجانين! إنهم لا يريدون أن يصدقوا الحقيقة.. الحقيقة هي أنني ذبحت بيدي توفيق رفعت باشا وزير الحربية والبحرية والطيران، وألقيت بجثته في النيل السعيد.

وخيّم الحزن والأسى فوق محمد، وقد عرف أن والده لم يفقد عمله فقط، بل فقد عقله أيضاً! أتكون السياط هي التي أفقدته عقله، أم أنه هو الذي ألغى عقله ليعيش في عصور الطغيان؟

وصحب المعلم وهدان محمداً إلى ركن في الغرفة، وانفرد به، ودسّ في يده ثلاثة جنيهات، وهو يقول في أسف:

ـ إن الحكومة التي سلبته عقله ضنّت عليه بأن تدفع له مليماً واحداً معاشاً أو مكافأة، هو الذي خدم في العنابر عشرين سنة! ولكن زملاء الأسطى حنفي جمعوا هذا المبلغ المتواضع. قرش صاغ من كل واحد منهم. أنت تعلم تفاهة أجورهم. إنهم الآن يقتطعـون من أجورهم أجور مائة وسبعين عاملاً مقبوضاً عليهم منذ حوادث العنابر ومـائتي عامل فصلوا من أعمالهم بسبب هذه الحوادث.

وخرج المعلم وهدان من البيت . .

ودخل محمد إلى غرفة نومه وفتح كفه، ونظر إلى الجنيهات الثلاثة!

سيكفي هذا المبلغ أن نعيش لمدة شهر واحد . . وماذا نفعل بعد ذلك؟ وماذا يتبقى من هذا المبلغ لينفقه على علاج أبيه؟ لو ترك أباه بلا علاج فسوف تسوء حالته العقلية، ويجن جنوناً كاملا. ولو أنفق هذا المبلغ على علاج أبيه، فسيموت أبوه وأمه وهو من الجوع!

إن قرار الفصل هو قرار بطرد الأسرة من بيتها، بطرد التلاميذ من مدارسهم، بطرد الأحياء من الحياة! أيعرف هؤلاء الذين يتحكمون في أرزاق الناس ماذا يعني فصل عامل أو رفت موظف؟

إنه حكم بالإعدام على أسرة بأكملها. سلاح التجويع أشد هولاً من كل أسلحة القتل. التجويع هو قتل بطيء. الجائع يموت مرة كل يوم، بل إنه يموت ثلاث مرات كل يوم في مواعيد الافطار والغداء والعشاء. المحكوم عليه بالإعدام يأكل ما يشتهي قبل التنفيذ، والمحكوم عليه بالفصل والرفت، يموت هو وأسرته جوعاً!

قرار من سطر واحد بطرد عامل أو موظف لا يستغرق أكثر من نصف دقيقة في عملية الإمضاء، ولكنه يساوي عمراً من العذاب والشقاء والحرمان لأطفال أبرياء وأم لم ترتكب جريمة تستحق عليها كل هذا العقاب. الجوع كافر، يجرد الطفل من طعامه، والرجل من مبادئه، والمرأة من ثيابها.

إن في بعض بيوت الدعارة زوجات فاضلات وأخوات شريفات وبنات طاهرات، حولهن قرار فصل ظالم إلى عاهرات!

وعاد محمد ينظر إلى الجنيهات الثلاثة من جديد وهو يهز رأسه ويقول:

ـ هـذه الجنيهات الثلاثة معناها أن حكم الإعدام علينا نحن الثلاثة قد تأجل ثلاثين يوماً . .

وركع محمد على قدميه ليخرج حقيبته من تحت السرير وفتح الحقيبة ليودع فيها المبلغ . .

وما كاد يفتح الحقيبة حتى لمح المسدس . .

ولمعت عيناه . .

وتذكر مقاله الذي لم يرَ النور. تذكر كلماته التي صادرها الطغاة!

ما دام القلم الذي في يده، قد كمّمه الظالمون، فلماذا لا يترك المسدس يتكلم؟!

إن الذين يمنعون القلم من أن يتكلم، هم أنفسهم الذين يضغطون على زناد المسدس لينطلق منه الرصاص!

امتلأ رأس محمد بفكرة قتل عوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية. ما دام عمّال العنابر لم يقتلوه، كما توعدوا وأكدوا، فسوف يتولى هو قتله نيابة عنهم!

كان والده المعلم حنفي يقول إن هذا الجيل يختلف عن جيل عام ١٩١٩. عيب هذا الجيل أن كل واحد فيه ينتظر من الآخر أن يؤدي واجبه نيابة عنه، ولا يقوم هو بهذا الواجب. الرجل فيه يجلس في القهوة يلعب النرد ويسب مواطنيه لأنهم لا يتحركون. ونفس الرجل الذي يلوم مواطنيه ليس مستعداً أن يضحي «بعشرة طاولة» ليخرج الانجليز من مصر.

لا، سوف يثبت محمد بمسدسه أن الجيل الجديد ليس أقل بطولة

ورجولة وفداء من الجيل القديم. كل ما يحتاج إليه هذا الجيل هو مثل يقتدي به، رجل يقف فيقف وراءه الملايين، يتحرك فيتحرك وراءه الملايين. لعل طلقات مسدسي توقظ النائمين في مخادعهم، تحرك الغافلين، تهز الحالمين. ولكن الناس ليسوا في حاجة إلى سماع طلقات مسدس. لقد رأوا العمال يسقطون صرعى برصاص الجنود، وكان منظر المذبحة كفيلاً بأن يفتح عيونهم. رأوا السياط وهي تلعب ظهور الأبرياء، وكان صوتها وصراخ المضروبين وأنين المظلومين قادراً أن يوقظ النائمين. . منظر أبيه المعلم حنفي وحده يكفي أن يحرك ملايين اللاهين غير المبالين!

ولكن الناس كانوا يضحكون عندما يسمعون الأسطى حنفي يقول لهم: أنا ذبحت وزير الحربية وألقيت بجثته في النيل السعيد! لو أنهم تأملوا جيداً هذا الرجل المذبوح وهو على قيد الحياة، هذا الذي شوهت السياط جسمه وعقله، لعرفوا أنهم ليسوا أمام نكتة تضحك أو نادرة تثير الابتسام، بل لعرفوا أنهم يرون أمامهم منشوراً ثورياً، منشوراً ثورياً من لحم ودم!

ما هو المنشور الثوري؟ إنه صراخ شعب جريح. إنه ورقة سطّرت بدم المظلومين. إنه أعصاب محترقة تحوّلت إلى كلمات من نار!

وساءل محمد نفسه لماذا هو وحده الذي يشعر كلما رأى أباه المشوه، العاطل، المعتوه، أنه يقرأ منشوراً ثورياً يحرّضه على الانتقام لكل عامل قتيل، ولكل أسرة مشرّدة، ولكل طفل لا يجد الطعام، ولكل مظلوم في زنزانة، ولكل ضعيف هرسته أقدام الأقوياء؟ أيكون هو وحده الذي يجيد القراءة، وكل الملايين في هذا البلد أمّيون لا يكتبون ولا يقرأون؟

هل هو ثائر فقط من أجل ما قاله عوني باشا من أن أمه عاهرة؟ هل

هو ثائر فقط لأن سياط عوني باشا سلبت من أبيه عقله؟ لنفرض أن هذا صحيح، فكيف يثور فرد واحد من أجل أم واحدة ولا يثور الملايين من أجل أمة بأسرها؟ كيف يغضب رجل واحد لأن ظالماً جرّ أباه من عقله، ولا يثور الملايين لأن ظالماً جرّد كل واحد منهم من ثيابه؟.

إن حرية الناس هي ثيابهم التي تخفيهم عن عيون الحكام، والحاكم الظالم عندما يجرد الناس من حرياتهم إنما يعريهم، يكشف عوراتهم، يذلهم وهم يمشون أمامه مجرّدين من ثيابهم!

والحاكم عندما يضع رقابة على البريد ويفتح خطابات الناس، عندما يسلط رقابة على التليفونات ويتسمع أحاديثهم الشخصية، عندما يسلط بوليسه السري عليهم، يحصي أنفاسهم، ويتتبع خطواتهم، إنما هو يقوم بعملية تعرية كاملة لكل فرد من هذا الشعب. لماذا لا يثور الناس على كل هذا الهوان؟.

ويتوقف محمد فجأة عن المضي في خاطره. إنه بغير أن يشعر وقع في عيب الجيل الجديد الذي كثيراً ما ذكره أبوه.. إنه يسب مواطنيه لأنهم لا يتحركون وهو قاعد في مكانه.. إذن، يجب أن يتحرك، يجب أن يعيد للجيل الجديد اعتباره!

وانقطع محمد عدة أيام عن الذهاب إلى المدرسة السعيدية. كان شغله الشاغل أن يراقب الطريق الذي يقطعه عوني حافظ باشا يومياً من منزله في شارع شوكلاني إلى وزارة الداخلية بشارع الشيخ ريحان.

وقرر أن يقتله في شبرا.. ليعطي للحي الذي يقيم فيه شرف التخلص من الباشا الجزار!

وكان يقف كل يوم في شارع شبرا يرقب الطريق، ليختار المكان الذي يقف فيه ليطلق الرصاص.

ولاحظ محمد أن عوني باشا يستقـل دائماً سيـارة الوزارة البـويك السوداء، ويجلس دائماً في الناحية اليمنى من المقعد الخلفي، ويجلس حارس مسلح بجوار سائق السيارة في المقعد الأمامي.

ولاحظ أن مواعيد عوني باشا دقيقة كساعة محطة مصر. إن سيارته تمر في الساعة الثامنة إلا عشر دقائق أمام المخبز الأفـرنجي في شارع شبرا، ويكون الباشا في طريقه إلى مكتبه في وزارة الداخلية في الصباح. وفي الساعة الرابعة تماماً تمر السيارة أمام مخبز شبرا، ويكون الباشا عائداً من مكتبه ليتناول الغداء. وفي الساعة السادسة مساء تمر السيارة أمام مخبز شبرا، ومعنى هذا أن الباشا عائد إلى مكتبه في المساء، وفي الساعة التاسعة مساء تماماً تكون السيارة مرة رابعة أمام مخبز شبرا. ومعنى هذا أن الباشا عائد إلى بيته ليتناول العشاء!

عجب محمد لدقة الباشا العجيبة في مواعيده، لحرصه على أن يذهب إلى مكتبـه في الصباح والمسـاء، ولأنه لا ينقـطع في يوم الجمعـة عن الذهاب إلى مكتبه. أتكون ممارسة الظلم والطغيان والاستبداد مهنة لذيذة، يمنحها الظالم كـل وقته، فهي هـوايته وتسليتـه، وهي لذتـه ورياضته؟

هل يتلذذ الظالم بالظلم كما يتلذذ القاضي العادل بتحقيق العدالة؟ هل يشجيه صراخ المظلومين كما يشجي الرجل العادي غناء المطربات والمطربين؟ هل الدم الذي يريقه يسكره ويملأ روحه بنشـوة لذيـذة؟ الرجل عندما يموت ضميره يفقد إحساسات الناس العاديين، يسعده ما يشقيهم، ويطربه ما يؤذي آذانهم ويرضيه ما يفجعهم. الضباع تسعد بمنظر الجثث سعادة الشبان المراهقين وهم يشهدون مباراة انتخاب ملكة الجمال!

وقرّ رأي محمد على أنه لا يستطيع أن يطلق الرصاص قبيل الساعة الثامنة صباحاً، ففي هذا الوقت يكون شارع شبرا غاصاً بتلاميذ المدارس في طريقهم إلى مدرسة التوفيقية ومدرسة شبرا ومدرسة المعارف ومدرسة النيل. . وخشي محمد أن تصيب إحدى رصاصاته الطائشة تلميذاً بريئاً وتقتله. ثم هو لا يستطيع أن يقتل الباشا في الساعة الرابعة بعد الظهر، فهذا هو موعد خروج التلاميذ من مدارسهم وموعد انصراف عمال العنابر من دوريتهم الأولى.

وفكّر محمد أن يقتل الباشا في الساعة التاسعة مساء عند عودته إلى بيته لتناول العشاء، وبعد أن درس هذا الموعد تبين أنه الوقت الذي يمتلىء فيه الشارع برواد سينما دوللي، وسينما الأمير، وسينما شبرا بلاس، وسينما روي عند انصرافهم من حفلة الماتينيه.

وأخيراً وقع اختياره على الساعة السادسة مساء. إنه موعد ملائم لأن الزحام يقل على الأرصفة في شارع شبرا ويغلق المخبز الأفرنجي بابه. وينصرف بائع الكازوزة، وتغلق المحلات الصغيرة التي تخدم التلاميذ أبوابها.

واختار محمد أن يقف على الرصيف، بجوار المخبز الافرنجي، في التقاء شارع شبرا بشارع جزيرة بدران.

إنه من هذا المكان يستطيع أن يراقب الطريق الذي تجيء منه سيارة الباشا، ويراقب أيضاً ساعة محطة مصر.

وحدّد محمد يوم الثلاثاء موعداً لارتكاب الجريمة. واختار محمد يوم الثلاثاء لأنه يتفاءل به، فهو يوم مولده، ويوم ظهور نتيجة شهادة الكفاءة ومعرفته أنه واحد من العشرة الأوائل، والموعد الذي تمّت فيه مباراة المدرسة السعيدية والمدرسة الخديوية في كرة القدم وانتصر فيها

فريق السعيدية انتصاراً عظيماً.

■■■

واستيقظ محمـد صباح يـوم الثلاثـاء عند الفجـر، وتوضـأ وصلّى الفجر.

إنها المرة الأولى في حياته التي يؤدي فيها صلاة الفجر.

وذهب إلى المدرسة السعيدية.

كان يتطلع إلى وجوه الناس فيراهم أجمل مما رآهم في يوم من الأيام. الشوارع تضحك والنسيم يبتسم. إننا عندما نكون سعداء نرى كل ما حولنا جميلاً رائعاً، وعندما نكون تعساء تبدو نفس المناظر الجميلة كأنها خرائب وقبور.

وأبـدى استعداده لأن يكتب خـطابات غـرامية لـزملائـه الطلبـة العاشقين وكان قد انقطع فترة طويلة عن كتابة خطابات الحب عقب فجيعته في نجوى. كره الحب وكره النساء وكره خطابات الغرام.

ورأى فؤاد المناسترلي شقيق نجوى مقبلاً عليـه وينتحي به جـانباً ويقول له:

ـ إن أختي نجوى تريد أن تراك اليوم في الساعة السادسة مساء لأمر هام جداً.

وانتفض محمد. لماذا اختارت نجوى هذه الساعة بالذات لتلتقي به؟ لماذا اختارت هذا اليوم بالتحديد لتطلب مقابلته؟ إنه انقطع عن زيارتها منذ وقت طويل ولم تطلب أن تراه. كل ما حدث أن فؤاد سأله عن أسباب انقطاعه فقال له كذباً أنه يعمل معلماً في مدرسة ابتدائية

ليلية، ولا يستطيع أن يحضر إلى بيت كمال باشا المناسترلي ليتابع الإشراف على تعليمه وتعليم نجوى اللغة العربية.

ما الذي جعل نجوى تتحرك في هذا اليوم بالذات، وتحدد له موعد اللقاء في نفس اليوم والساعة اللذين قرر فيهما أن يقتل عوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية؟ كيف يتفق موعد اللقاء مع الحب مع موعد اللقاء مع الموت؟ أتكون نجوى تحبه وأحس قلبها بأنه سيواجه الخطر في هذه اللحظة، فاختارت اللحظة نفسها للقائه لتنقذه من الخطر؟ إن قلوب العشيقات تصبح أحياناً أشبه بقلوب الأمهات، فيها رادار ينذر بالخطر قبل حدوثه. ولكن ما الذي جعله يتوهم أن نجوى تحبه؟ كل تصرفاتها معه تدل على أنها لا تحبه إلا كما تحب كلبها الصغير. أتكون نجوى أحست بالخطر الذي يهدد طبقتها بقتل عوني باشا الذي يحرس هذه الطبقة فهبت لنجدته وإنقاذه؟ لقد عرف أن نجوى امرأة أنانية، لا يهمها إلا نفسها، ولو كانت تهتم بالآخرين لما داست على قلبه وقلب ابراهيم.

وأيقظه صوت فؤاد المناسترلي من خواطره، وهو يقول له:

ـ لا تنس أن تحضر في الموعد. الساعة السادسة مساء بالضبط!

واهتز محمد من جديد لكلمة «الساعة السادسة مساء» وقال:

ـ إنني سألقي درساً هاماً في الساعة السادسة مساء اليوم.. سأحضر لزيارتكم غداً في الساعة السابعة مساء!

وانصرف فؤاد عائداً إلى فصله في المدرسة، ووقف محمد يبتسم ساخراً ويقول لنفسه:

ـ غداً الساعة السابعة مساء؟! ربما أكون غداً جثة هامدة، أو في زنزانة بأحد السجون!

كان محمد مؤمناً بأن يوم الثلاثاء قد يكون آخر يوم له على قيد الحياة. ولم يشعر برهبة من لقاء الموت، كان يذهب إليه وكأنه في طريقه الى موعد غرام، كل ما كان يتمناه أن يذهب إلى الموت حاملاً على كتفه جثة عوني باشا حافظ. إن الفدائي الذي يذهب إلى الموت، لا يشعر بقلق، ولا بخوف. لا يقدم ساقاً ولا يؤخر ساقاً. خطواته على الأرض ثابتة. إنه يحس بنفس الإحساس الذي يشعر به الرجل العادي وهو في طريقه إلى فيلم سينمائي. إننا عندما نذهب الى مشاهدة فيلم كل ما يهمنا أن نشتري التذكرة، ومسدس الفدائي هو تذكرته. وما دامت هذه التذكرة معه فهو لا يشعر بأي قلق، ولا يفكر بأن سقف دار السينما سيقع فوق رأسه، أو أن الكهرباء سوف تنقطع أثناء عرض الفيلم، أو أن جاره سيشوش عليه أثناء مشاهدته الرواية. كل هذه الاحتمالات لا تخطر ببال الرجل الذي يذهب إلى السينما... كل ما يهمه أن تكون معه التذكرة.. وقد أحس محمد أن معه التذكرة عندما تحسس المسدس في جيبه.

وقبل أن يضع المسدس في جيبه دخل الحمام، وتأنق في ارتداء ملابسه، وحرص أن ينظف معطفه القديم من التراب العالق به. ونظر إلى المرآة وهو يثبت طربوشه فوق رأسه. ثم اتجه إلى الصالة، وانحنى على يد أبيه وقبلها، وانحنى على يد أمه وقبلها، فاحتضنته وقبّلته في وجنتيه. وارتعش محمد وهو بين ذراعي أمه. فقد أحس بذراعيها تضغطان عليه وهي تضمه إلى صدرها. أتكون قد أحست بأن هذا هو آخر لقاء بينها وبين ابنها؟ وتغلب محمد بسرعة على مشاعره وقال لوالديه دون أن يرفع عينيه إلى عيونهما:

ـ إنني سأتأخر الليلة.. سأحضر حفلة ساهرة في المدرسة!

وقالت له أمه: ربنا يفتح عليك يا محمد.

وقال أبوه:

- لا بد أن هذه الحفلة لمناسبة أربعين وزير الحربية الذي ذبحته وألقيت بجثته في النيل السعيد!

وارتسمت ابتسامة مريرة على شفتي محمد، وقد خطر بباله أن مصرع نائب وزير الداخلية بالفعل قد يعيد العقل إلى الرجل الذي ذبح وزير الحربية بالوهم!

ثم توجه محمد إلى مسجد الخازندارة، وتوضأ وصلى. وأدهشه أن قدميه حملتاه بغير وعي إلى هذا المسجد. إنه لم يكن متديناً من قبل. إنه لم يكن يؤدّي الصلاة في أوقاتها. ما الذي جعله يحرص على تأدية الصلاة قبل إطلاق النار؟ هل جاء يستأذن الله لأنه سيستولي على إحدى سلطاته واختصاصاته؟ أليس الله وحده هو الذي يحيي ويميت؟ أو ليس قتل هذا الرجل اعتداء على سلطة من سلطات الله؟

وأقنع محمد نفسه أنه لا يقتل، وإنما يحارب. والدين حرّض على الجهاد. إنه يحارب اليوم من أجل الدين. ألم يحث الدين على الشورى؟ ألم يلعن الدين الطغاة والمستبدين؟ ألم يقل عمر بن الخطاب أحد الخلفاءالراشدين: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

هذه الرصاصة لن تقتل مؤمناً، وإنما ستقتل الطاغوت. ستقتل فرعوناً طغى وتجبر. ستدك صرحاً من صروح الجبروت والاستبداد.

■ ■ ■

وخرج من الجامع، ووقف على ناصية شارع شبرا وشارع جزيرة بدران ينتظر قدوم الفريسة.

وأقبلت الساعة السادسة ولم تقبل سيارة فرعون!

وبدأ محمد يتململ في وقفته.

ومرت خمس دقائق ولم تقبل السيارة. وبدت الدقائق الخمس كأنها خمس ساعات، ثم كأنها خمسة أيام. إنها أول مرة يتأخر فيها عوني باشا عن موعده!

ومر ربع ساعة ولم تظهر سيارة نائب الوزير السوداء. أيكون عوني باشا قد مرض فجأة؟

وتأثر محمد لمرض الرجل الذي قرر أن يقتله. كأنه أشفق عليه أن يموت موتاً طبيعياً ولا يموت برصاص مسدسه.

واستدار محمد ليعود إلى بيته يائساً، قرر أن يؤجل العملية إلى اليوم التالي، والتفت إلى يساره فجأة فرأى سيارة عوني باشا تقبل من بعيد، ثم تقترب. وانبسطت أساريره... بدت على ملامحه نفس علامات السعادة التي تبدو على وجه المحب عندما يرى حبيبته قادمة بعد أن يئس من قدومها..

وبسرعة؛ أخرج مسدسه، وانطلقت أربع رصاصات في السيارة... ثم استدار محمد، ووضع المسدس في جيب معطفه، ومشى وئيداً في شارع جزيرة بدران، بخطوات ثابتة، لا هي متعثرة ولا هي سريعة. وسمع خلفه صياحاً وضجيجاً، لم يتبين منه إلا كلمات «قتلوا الوزير! قتلوا الوزير!».

ولم يسرع محمد في خطواته، ولم ينظر خلفه، بل مضى في خطواته الهادئة الوئيدة، ثم انحرف إلى يمينه في شارع حوض الزهور، شارع ضيّق، مظلم، طويل. وفجأة سمع أصوات صفارات متتابعة،

وأقداماً تجري. ومد محمد في خطواته، وانحرف إلى يساره في حارة ضيقة، وعاد يمشي بخطواته الهادئة الوئيدة.

ووجد شابة تمشي في الحارة مقبلة عليه، على وجهها نقاب أسود، ووجد نفسه بغير تفكير يتوقف أمام السيدة المجهولة ويقول لها هامساً:

- ضعي هذا المسدس في حقيبة يدك. سأنتظرك غداً في الساعة السادسة مساء في حديقة الجبلاية بالجزيرة. سأكون واقفاً بجوار جبلاية القرود!

وبغير تردد أمسكت الشابة المسدس الذي كان لا يزال ساخناً من أثر إطلاق الرصاص، ودسته في حقيبة يدها، ومضت في طريقها بغير أن تنبس ببنت شفة!

ومشى محمد بهدوء في الطريق المعاكس. وازدادت الضجة عنفاً. وتكاثر عدد الأقدام التي تعدو، والصفارات التي تدوي، والصرخات التي تستغيث..

والتفت خلفه فوجد الشابة التي أعطاها االمسدس تتحدث إلى الجنود. ثم رأى عدداً من الجنود والأهالي يعدون متجهين إليه.

وتأكد محمد أن المرأة المجهولة التي سلمها المسدس أرشدت رجال البوليس إليه... وأبطأ في خطواته يتوقع القبض عليه بين لحظة وأخرى..

ولكن الجنود والأهالي لم يتوقفوا بجانبه، بل مروا به بسرعة، وسمع أحدهم يقول له:

- هل رأيت رجلاً قصيراً يرتدي جلباباً وفي يده مسدس؟. إن هذه

الآنسة قالت لنا إنها رأته يعدو في هذا الاتجاه!

ـ أمسكوا القاتل. . أمسكوا القاتل!

وأحس محمد بأن قلبه يزغرد بين جنبيه. كلمة «امسكوا القاتل» أطربت أذنه كأحلى أغنية سمعها في حياته! إذن فقد نجح في أن يقتل عوني باشا حافظ! إذن، فإن الرصاصات الأربع التي انطلقت من مسدسه استقرت في جسد الباشا الجزار. ووجد نفسه في نشوة غريبة. يريد أن يرقص، يريد أن يغني، يريد أن يصفر، يريد أن يتشقلب، يريد أن يستوقف الناس جميعاً ويقول لهم أنا محمد حنفي عبد الكريم الذي قتلت نائب وزير الداخلية الذي قتل العمال الأبرياء، الذي قال عن أمي إنها عاهرة، الذي سلب أبي عقله!

ولم يشعر بأي ندم. إنه لم يقتل إنساناً، إنه قتل وحشاً. لم يسفك دماً بريئاً، بل سفك دم قاتل. العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم!

وتردد محمد في أن يستوقف الناس ويقول لهم إنه هو القاتل خشية أن يضحكوا منه كما يضحكون من أبيه الذي يؤكد أنه ذبح وزير الحربية. ثم أقنع نفسه بأن القدر جعله يفلت من أيدي رجال البوليس، فمعنى ذلك أن القدر نفسه يعده ليتم المهمة التي بدأها. سيقتل الطغاة واحداً واحداً. الأمنية التي رددها له حارسه في قسم شبرا بأن العمال قرروا ذبح جميع الطغاة واحداً واحداً، سيحولها إلى حقيقة. سيحاول أن يجعل الدنيا كلها تعرف أن الجيل الجديد خير من الجيل القديم، وأن عمال العنابر لم يسكتوا عن الجريمة التي ارتكبت ضدهم، وضد زوجاتهم وأولادهم. الجلادون قتلوا من عمال العنابر ١٦ عاملاً، وهو لم يقتل سوى واحد فقط. . بقي خمسة عشر جلاداً ليقول محمد «خالصين»!

وتذكر فجأة الشابة التي سلمها المسدس. كيف نسيها في غمرة فرحته بقتل فرعون الصغير؟ لولا شجاعتها وبطولتها لكان الآن بين أيدي رجال البوليس يضرب بالسياط ليعترف على شركائه في الجريمة! إنه مدين لهذه المرأة المجهولة وحدها بإنقاذ حياته. لقد تصرفت وكأنها عضو في العصابة وشريكة في المؤامرة. هي التي ضللت الأهالي والبوليس ووصفت القاتل بأنه قصير القامة يرتدي جلابية ويمسك مسدساً في يده.

هي التي أشارت إلى أن القاتل اتجه إلى شارع يوسف عيروط.

وحاول محمد أن يتذكر شكل هذه المرأة التي أنقذت حياته فلم يستطع أن يتذكر شيئاً من ملامحها. لم يستطع في الظلام أن يتبين هل هي شقراءأم سمراء، طويلة أم قصيرة، بدينة أم نحيفة، جميلة أم قبيحة؟ كل ما يذكر أنها كانت ترتدي السواد. ترى من تكون هذه الشابة؟ هل هي آنسة أم سيدة؟

إنها بطلة مثل جان دارك، وجان دارك كانت فتاة عذراء. لا بد أنها ابنة أحد العمال الذين أمر عوني باشا حافظ بقتلهم كالكلاب: لولا أنها مجروحة مثل جرح محمد لما تصرفت هذا التصرف البطولي. السياط تصنع العبيد، وفي الوقت نفسه تلد الابطال. لا بد أنها جائعة مثله، فقيرة مثله، ضائعة مثله. لا بد أنها كانت تشكو أن عيبنا أن كل واحد منا ينتظر من الآخر أن يؤدي واجبه نيابة عنه، فلما حانت لها الفرصة لتؤدي واجبها تقدمت في بطولة لتشترك في المعركة. لو أنه قابل في هذا الزقاق نفسه نجوى المناسترلي ابنة كمال باشا المناسترلي، فهل كان يطمئن لها كما اطمأن لهذه الفتاة المجهولة؟ لقد أشفق على نفسه أن يسلم نجوى قلبه، فهل كان يرضى أن يسلمها حياته ومصيره؟ ولو انه وثق فيها، فهل كانت تحاول أن تحفظ سره، أم أنها كانت ستشي به إلى

البوليس عندما تعلم أنه قتل باشا، مثل أبيها الباشا!؟

لا . . إن هذه الفتاة المجهولة مختلفة عن نجوى. إنها فتاة من طبقته، من نفس الأرض التي أنبتته، من شبرا، من جزيرة بدران. تسكن بيتاً حقيراً مثل بيته، لا قصراً شامخاً مثل قصر نجوى. ترتدي ملابس مقفلة لا تكشف عن صدرها ويديها، ولا تمشي شبه عارية مثل نجوى. . هذه هي الفتاة التي كان يبحث عنها طوال حياته. . وجدها في زقاق بجزيرة بدران ولم يجدها في شارع الجبلاية بالزمالك!

ترى، هل هي جميلة، حتى لو كانت بشعة الخلقة فسوف يحبها. جمال المرأة ليس في تقاطيع جسدها، ولا في ملامح وجهها. جمالها في روحها. هذه الشابة ذات النقاب الأسود تبدو في عينيه كأنها ملكة جمال. كأنها أجمل امرأة في العالم. المرأة البطلة فيها من الجاذبية والسحر والإغراء أكثر مما في ملكات الإغراء!

ولكن ما الذي جعله يقترح عليها أن يلقاها في حديقة الجبلاية؟ أيكون عقله الباطن هو الذي اختار هذا المكان القريب من بيت نجوى، ليخرج من موعده الساعة السادسة مع الفتاة المجهولة، ويذهب في موعد الساعة السابعة مساء مع نجوى؟!

إن لقاءه مع هذه الفتاة المجهولة البطلة هو لقاء مع الملاك، ولقاءه مع نجوى هو لقاء مع الشيطان!

الفتاة المجهولة أنقذت حياته ونجوى دمرت حياته.

الفتاة المجهولة رمز للوفاء، ونجوى رمز للخيانة. .

ما الذي جعله يجمع بين اللقاءين في ساعتين متتاليتين في يوم واحد؟ وماذا يفعل لو أرادت الفتاة المجهولة أن تبقى معه أكثر من ساعة؟ هل

يتركها ويذهب إلى نجوى؟ كلا! إنه لن يتركها. بل إنه لن يذهب إلى نجوى في هذا الموعد.. سيكون يوم الأربعاء للفتاة المجهولة وحدها، ولن يشاركها شريك في هذا اليوم العظيم!

■ ■ ■

وضحك محمد من نفسه. أنسته الفتاة المجهولة أنه ارتكب منذ دقائق جريمة قتل!

ووجد قدميه تحملانه بغير وعي إلى موقع الحادث ليرى جثة الجزار القتيل.

وكان شارع شبرا قد امتلأ بالناس. لا موقع فيه لقدم. توقفت عربات الترام والأوتوبيس والسيارات. توقف المرور. كأن ساعة محطة مصر وقفت عند الساعة السادسة مساء ولم تتحرك دقيقة بعد ذلك. لا تزال سيارة نائب وزير الداخلية واقفة في مكانها. عدد كبير من رجال البوليس يحيطون بالسيارة يمنعون الناس من الاقتراب منها. خرج الناس من بيوتهم ليشهدوا مكان الحادث. توقفت دور السينما عن عرض الأفلام وغادرها الناس ليشهدوا منظر فيلم أكثر إثارة هو فيلم مصرع نائب الوزير. القاهرة كلها بنسائها ورجالها وأطفالها جاءت إلى شارع شبرا تلتقط تفاصيل الحدث الكبير.

واندمج محمد وسط الجماهير. ورأى عدداً كبيراً من المارة وقد التفوا حول رجل معمم، وهو يتكلم فيهم بصوت عال، كأنه يخطب فيهم. واقترب محمد من الرجل، وهو يفسح لنفسه طريقاً في وسط الصفوف المتراصة. وتبين أن الرجل المعمم هو إمام جامع مسجد الخازندارة الذي كان يؤدي فيه صلاة المغرب منذ أكثر من ساعة. وسمع إمام المسجد يقول:

ـ لقد رأيت الجاني بعيني وهو يطلق الرصاص، ولو رأيته الآن بين ألف رجل لأخرجته من وسطهم في الحال.

وأحس محمد لأول مرة بالذعر، وأخفى وجهه خلف رجل يقف أمامه، ومضى إمام مسجد الخازندارة يقول:

ـ لقد سمعت الجاني بأذني وهو يقول بينما يطلق النار: «يا قاتل العمال... يا عدو الشعب... إن الشعب لن يترك أعداءه على قيد الحياة!».

وذهل محمد، فهو لم ينطق بكلمة واحدة وهو يطلق النار! وشاهد الرؤية وهو رجل وقور وإمام جامع ورجل دين، يقسم ويؤكد أنه سمعه بأذنه يقول هذه الكلمات النارية؟ هل الرجل يقول الحق؟ إنه يبدو عليه وكأنه يؤمن بكل حرف يقوله. وكأنه سمعه من فم الجاني فعلاً. هل نحن في لحظات معينة نتخيل أننا نسمع كلاماً لم نسمعه، أو أننا نتصور أننا سمعناه لأننا كنا نتمنى أن نسمعه؟

كان محمد يقول لنفسه إنه تمنى أن يقول هذه الجملة النارية التي نسبها له فضيلة الشيخ إمام مسجد الخازندارة. كان فعلاً منفعلاً بمعاني هذه الكلمات وهو يطلق النار، ولكنه في الواقع لم يقل هذه الكلمات لا قبل إطلاق النار، ولا أثناء إطلاق النار!

ودهش محمد، أن جميع الواقفين في الشارع أجمعوا على أن الجاني كان قصير القامة وأنه كان يرتدي جلابية! أصبحت الاكذوبة التي أطلقتها الفتاة المجهولة حقيقة يؤكدها الذين شهدوا الحادث والذين لم يشهدوه!

وكان الخلاف الوحيد بينهم هو في لون الجلابية. بعضهم يقول انها زرقاء، وبعضهم يقول انها خضراء..

ونظر محمد إلى لـون معطفـه فوجـده بني اللون، ونظر إلى بـذلته فوجدها بنية اللون أيضاً، ولم يستطع أن يقاوم ابتسامته!

وأقبل تاجر سجائر، يقع دكانه في مواجهة المخبز الإفرنجي الذي وقع أمامه الحادث وقال في حماس:

ـ أنا رأيت الجاني بعيني. إن إبصاري قوي جداً. ستة على ستة. الجاني قصير القامة. ويرتدي جلباباً أزرق. وهو في الأربعين من عمره. ووجهه مملوء بحفر، كأنها آثار جدري قديم. ولم أر في حيـاتي رجلاً يستطيع العدو بهذه السرعة الفائقة. إنني أعتقد أنه أحد أبطال العدو الذين اشتركوا في الدورة الاوليمبية السابقة.. نعم، هناك علامة هامة رأيتها في وجهه. إنه يدق عصفورة خضراء بجوار أذنه اليمنى!

وقاطعه ماسح أحذية يقول إنه رأى الجاني بنفسه، وإنه شاهده وهو يقفز إلى سيارة كانت تنتظره، واتجهت به ناحية محطة مصر..

واشتبك تاجر السجائر وماسح الاحذية في مشادةعنيفة، لأن كلاً منهما يؤكد روايته!

ووقف محمد مشدوهاً بين الواقفين الذين يصفون الجاني أوصافـاً بعيدة جداً عن وصفه الحقيقي، وكل واحد منهم يؤيد روايته الكاذبة بأغلظ الايمان!

وفي أول الأمـر أعتقـد محمـد أن كـل هؤلاء الـرواة هم شركـاء متبرعون انضموا إلى المؤامرة، وأنهم يقومون بمهمة وطنية مقصود بها تضليل البوليس والمحققين. وعندما تتبع المناقشات اكتشف أن كـل الشهود لم يروا الحادث أصلاً.. كـان الشارع مليئاً بالنـاس عندمـا وقع، ولكن الشهود الحقيقيين اختفوا، إما لأنهم يكرهـون الحكومـة ولا يرغبون في مساعدتها، وإما لأنهم يعـرفون أن الشـاهد في ذلـك الوقت يعامل معاملة أسوأ مما يعـامل المتهم. يضيـع وقته، وتتعـطل

أعماله، فإذا أدلى بشهادته أمام البوليس سجلها الضابط في المحضر الرسمي كما يريد هو لا كما يقول الشاهد، فإذا اعترض ضربوه وهددوه، وربما جعلوه أحد المتهمين!

أما الشهود المتبرعون، فهم هواة التدخل فيما لا يعنيهم، يحرصون على شهود كل مأدبة، في الفرح يزعمون أنهم أقارب العروس، وفي المـأتم يؤكدون أنهم أصهار المرحوم، وفي الحوادث يقسمون أنهم يشهدونها من أولها إلى آخرها. يرون أن الاقرار بعدم معرفتهم ذل تـأباه كبرياؤهم. يدعون أشياء لم يروها، ويحضرون مشاهد لم يحضروها، ويسمعون اقوالاً لم يسمعوها. إنهم يمقتون كلمة «لا أعرف» ولهذا يدعون معرفة كل شيء، إنهم شهود زور متطوعون!

ولم يكن محمد مستعداً في تلك اللحظة لأن يشغل نفسه بتحليل عقليات الناس، فقد كان مهتماً بأن يعرف ماذا جرى فعلاً لعوني باشا حافظ؟

وكل ما فهمه من احاديث الناس أن دماً غزيراً كان ينزف من رأس عوني باشا حتى غطى الدم جميع ملامحه وأخفاها. ولكن كان الألف رجل وامرأة وطفل الواقفون في الشارع، يروون تفاصيل الحادث، ألف رواية، كل واحدة تختلف اختلافاً بيّناً عن الأخرى. رواية تقول إن الرصاصات الأربع أصابت رأسه، والرابعة أصابت الحارس، ورواية ثالثة تقول إن نائب الوزير مات على الفور، ورواية رابعة تقول إنه مات وهو في طريقه إلى المستشفى. ورواية خامسة تقول إنه لم يسلم الروح ولكن إصاباته قاتلة، وأن الحارس هو الذي أسلم الروح؟

واتفق الألف شاهد على أمر واحد هو أن عوني باشا حافظ يستحق

القتل فعلاً . وأن القاهرة كلها ترقص من الفرح!

وأسعد هذا الاجماع محمداً كثيراً . كل ما كان يريد أن يقنع نفسه به أنه لم يرتكب حادثاً فردياً . إنه نفذ إرادة شعب بأكمله. إنه لم ينتقم لنفسه وإنما انتقم للأمة كلها . . .

■ ■ ■

وفوجىء محمد بالمعلم وهدان صاحب قهوة سيدي فرج يظهر فجأة ويصيح في الجماهير بصوته الجهوري :

ـ حذار أن تأكلوا من هذا الكلام! الحكاية كلها كذب في كذب! علي الطلاق بالثلاثة من زوجاتي الثلاث أن الحكومة هي التي اخترعت هذا الحادث. إنه تماماً مثل حكاية ذبح وزير الحربية التي اخترعتها الحكومة لتقبض على العمال وتضربهم بالسياط. أنا كنت واقفاً أثناء الحادث، لم يطلق أحد الرصاص، إن صوت الرصاصات الأربع هو طرقعة انطلقت من موتوسيكل، ولكن الفزع صور للوزير أنه سمع صوت رصاص. . وستثبت لكم الأيام غداً أن هذه حكومة كذابين ونصابين وأفاقين ومجرمين!

وانتظر محمد أن يهب الشهود الذين أقسموا أنهم رأوا الجاني لمناقشته ولتفنيد روايته، ولكن أحداً لم يفتح فمه. بل على العكس، رأى الواقفين جميعاً يهزون رؤوسهم موافقين على نظرية المعلم وهدان. كأنهم كانوا ينتظرون صوتاً يرتفع يقول لهم أن الحكومة كاذبة ليسارعوا إلى تأييده.

وسمع محمد أحد الواقفين يقول للمعلم وهدان :

ـ كلامك حكم يا معلم وهدان. . كيف أصبنا بالعمى ولم نرَ هذه

الحقيقة الواضحة وضوح الشمس؟

وقال رجل آخر:

ـ وسيدّعي الوزير أنه أصيب. . وسيلف رأسه بالشاش والأربطة وستنتهز الحكومة الفرصة وتقبض على مئات العمال. وتخرب بيوت ألوف العمال. وتقتل مئات العمال. . الذين شربوا دم الناس يبقون دائماً عطاشى إلى دم جديد!

وتقدم أفندي يبدو أنه طالب في مدرسة عالية وقال في ثقة:

ـ كلامك مضبوط. الحكومة لم تكتف بمذبحة عمال العنابر، بل تريد مذبحة جديدة. إنها تعلم أن العمال ضدها ويجب أن تبيدهم جميعاً ولا أستبعد أنها تخفي نائب الوزير في أحد البيوت الملكية، أو ترسله في مهمة إلى أوربا، وتدّعي أنه مات، وتقبض على عدد من زعماء العمال وتحاكمهم وتشنقهم! ولا أستبعد، إذا ثبت أن هناك أربع رصاصات أطلقت، أن يكون الذي أطلقها هو أحد رجال البوليس السري بإيعاز من الحكومة، لتنتقم من العمال وتقتلهم!

وربت المعلم وهدان على كتف الشاب الطالب وهو يقول له:

ـ ينصر دينك يا أفندي. . هذا كلام الأفندية المتعلمين الذين يفهمونها وهي طائرة.

وشعر محمد بزغبة في أن يدافع عن الحكومة، ويقول أنها لم تكذب في هذه المرة، ولكنه تردد، فقد رأى من اقتناع الجماهير بكلام الافندي والمعلم وهدان أنه لو قال لهم الحقيقة فسينهالون عليه ضرباً!

وأحس بحزن عندما صدّقت الجماهير على الفور أن الرجل الذي أطلق الرصاص على عوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية هو أحد

رجال البوليس السري، وأنه شريك في مؤامرة، الغرض منها ضرب الشعب والانتقام من العمال.

وبدت الكآبة على وجه محمد. كأن بطولته دفنت في قبر من شكوك الجماهير. .

وعاد إلى بيته، ورأى المعلم وهدان يلحق به، ليمشيا معاً إلى الحارة. . وفي الطريق تشجع محمد وقال:

ـ اظن يا معلم أن الذي قام بهذا الحادث هو شاب وطني!

وتوقف المعلم وهدان عن السير وصاح بأعلى صوته:

ـ لا تكن طفلاً يا محمد. اسمع كلام الكبار. أكبر منك بيوم أفهم منك بسنة؟ الحكاية كلها مسرحية دبرتها الحكومة للانتقام من العمال. .

ولم ينم محمد. بقي ساهراً إلى الصباح ينتظر صدور صحف الصباح لعل صحف الصباح عندما تنشر الحادث على حقيقته يعرف الناس الحقيقة، ويعلمون أن الجاني لم يكن أحد رجال البوليس السري. وما الذي يضمن أن يصدق الناس ما تقوله الصحف، وقد كذبوا ما رأوه بأعينهم؟

وفي الساعة السادسة صباحاً دق الباب بعنف. وذعر محمد، فقد فهم أن البوليس جاء يقبض عليه، ولكن الذي جاء لم يكن البوليس وإنما المعلم وهدان صاحب قهوة سيدي فرج، وكان يحمل في يده كل صحف الصباح. .

ودفع المعلم وهدان الصحف بيده إلى محمد وهو يقول:

ـ اقرأ لتعرف أن كلام عمك المعلم وهدان لا يمكن أن ينزل الأرض أبداً . .

وما كاد محمد يقرأ الصفحة الأولى حتى جحظت عيناه من الدهشة والذهول والمفاجأة!

نشرت الصحف بلاغاً رسمياً من وزارة الداخلية يقول إنه في الساعة السادسة مساء أمس أطلق رجل يرتدي جلابية أربع رصاصات على سعادة عوني باشا حافظ نائب وزير الداخلية . ولم تصب رصاصة واحدة نائب الوزير، وإن الله حفظ حياة عوني باشا . وإن الرصاصات اصابت زجاج السيارة، فتطايرت شظايا الزجاج وأصابت وجه عوني باشا إصابات سطحية . وإن صحة عوني باشا جيدة، وسيستأنف عمله في وزارة الداخلية صباح اليوم . وتفضل جلالة الملك وأنعم على عوني باشا بالوشاح الأكبر من نيشان النيل تقديراً لوطنيته وإخلاصه للعرش والبلاد .

ووقع جلالة الملك مرسوماً بتعيين عوني باشا وزير دولة في وزارة الداخلية .

وأعلنت وزارة الداخلية عن مكافأة خمسة آلاف جنيه لكل من يدلي بمعلومات تؤدي للقبض على الجاني وشركائه .

وبدت على محمد علامات خيبة الأمل . إن رصاصاته الأربع لم تقتل عوني باشا . ولم تجرحه، بل إنها أنعمت عليه بالوشاح الاكبر من نيشان النيل، ورفعته من درجة نائب وزير إلى درجة وزير!

والشعب الذي عرض من أجله حياته للخطر أصبح يؤمن بأن الجاني هو أحد رجال البوليس السياسي، وأنه شريك في مؤامرة الغرض منها

ضرب الشعب والانتقام من العمال!

■ ■ ■

وذهب محمد إلى المدرسة السعيدية، وفوجىء بزملائه طلبة المدرسة السعيدية يقولون له نفس الكلمات التي سمعها من الطالب في الليلة السابقة في شارع شبرا، بأن الحادث دبّرته الحكومة، وأن الجاني هو مائة في المائة أحد رجال البوليس السري. .

وقص عليه زملاؤه أن البوليس بدأ من الفجر يهاجم بيوت المعارضين وينتزعهم من مخادعهم ويزج بهم في السجون. .

وتذكر محمد موعده في الساعة السادسة مساء مع الفتاة المجهولة!

ما الذي سوف تقوله هذه الفتاة اليوم؟ لا بد أنها سمعت إشاعة أن الجاني أحد رجال البوليس السياسي، إنها نظرت إليه بالأمس كأنه بطل واليوم ستنظر إليه كأنه عميل من عملاء البوليس السياسي. . احترمته أمس كأحد منقذي العمال، وستحتقره اليوم كأحد السياط التي يضرب بها العمال؟ أمس تصورت أنه أفرغ أربع رصاصات في نائب الوزير، واليوم ستعرف أنه قاتل غشيم لم تصب رصاصاته إلا زجاج السيارة!

ولو أنها لم تشعر بكل هذه المعاني، فلا بد أنها ستعرف قصة الخمسة آلاف جنيه التي وعدت بها الحكومة من يدلي بمعلومات عن القاتل. . إنها وحدها التي لديها هذه المعلومات. . ما الذي يضمن له أنها لن تبلغ الحكومة عن الموعد، وبدلاً من أن يجدها أمام الجبلاية سيجد رجال البوليس في انتظاره؟

وقرر ألا يذهب، ثم قرر أن يذهب. . وعاد وقرر ألا يذهب. . ثم

قرر أن يذهب. وبعد انتهائه من الدراسة في المدرسة السعيدية، عاد إلى بيته وحيرته تطارده. هل يذهب؟ أم لا يذهب؟

وكلما اقتربت الساعة السادسة تضاعفت حيرته وتردده.

وفجأة سمع من بعيد صوت أبيه المعلم حنفي يردد بلا مناسبة المثل البلدي الذي يقول:

- اللي تخاف منه.. مفيش أحسن منه!

دخل إلى حديقة الجبلاية في الجزيرة متلصصاً، كأنه فأر في مصيدة، يتلفت في رهبة وقلق، ينظر أمامه ووراءه وإلى يمينه وإلى يساره في وقت واحد.

عيناه تدوران في كل مكان. اضطربت خطواته وهو يتوهم أن خلف كل شجرة وكل قطعة حجر وكل باب عيناً ترقبه. لم يشعر بهذا الخوف قبل أن يطلق الرصاص على عوني باشا حافظ. أيكون بعد أن نجا من الموت في المرة الأولى أصبح يعرف قيمة الحياة؟ أيخاف من الفتاة المجهولة التي جاء ليلتقي بها ولم يخف من لقاء نائب وزير الداخلية وفرعون الصغير؟ هل كان المسدس الذي في جيبه هو الذي منحه الجرأة والإقدام، فلما خلا جيبه من المسدس خلا قلبه من الجرأة والإقدام؟

كل غصن يهتز في الحديقة كان يهز محمد في أعماقه. لم يكن يبحث عن الفتاة المجهولة، كان يبحث عن أبواب ومنافذ يستطيع أن يهرب منها إذا أطبق عليه البوليس.

وأراد أن يعود أدراجه، وهو يلوم نفسه على هذا التردد. لقد دخل المصيدة بقدميه ولا وقت للتراجع والهروب. ورأى أحد حراس الحديقة يقترب منه. وأجفل قليلاً، وانتظر أن يرفع الحارس يده ويطبق عليه،

ولكن الحارس ابتسم. وشجعته ابتسامته فسأله:

ـ أين جبلاية القرود؟

وأشار الحارس إلى كومة من الصخور في وسط الحديقة.

كانت هذه أول مرة في حياة محمد يدخل فيها حديقة الحيوانات في الجزيرة. سمع بأمرها من زملائه الذين كان يكتب لهم الخطابات الغرامية. وكثيراً ما كتب هذه الكلمات من الخطابات وهو يحدد للحبيبات موعد اللقاء مع الأحباء. كل ما يعرفه أنه مكان هادىء. وفعلاً وجد عدداً قليلاً من الزوار أغلبهم من النساء والاطفال. لا يمكن أن يكون كل النساء والاطفال الموجودين في الحديقة بوليساً سرياً جاء للقبض عليه. واطمأن بعض الشيء، وقلق بعض الشيء. ووقف يتأمل القرود وهي تقفز فوق الجبلاية. وكانت كل حركة تزعجه، صراخ الأطفال العابثين، نداء الأمهات على أولادهن، أزيز النحل. بوق السيارات خارج الحديقة. ربما تكون الفتاة المجهولة واحدة من هؤلاء النساء الجالسات فوق المقاعد. أتكون هي هذه الفتاة الطويلة الشقراء؟ إنها تبدو أجنبية أكثر مما هي مصرية. ملامحها أقرب إلى سكان لندن من سكان جزيرة بدران؟ أتكون إذن هذه القصيرة السمراء التي تقرأ في مجلة، ثم ترفع رأسها بين وقت وآخر وتنظر إليه، فإذا التقت عيونها أسرعت تخفض عينيها وتعود إلى القراءة من جديد؟ أتكون هذه المرأة البيضاء ذات الجسم المليء الذي يشبه فنطاساً مليئاً بالزبد؟ ممكن أن تكون الفتاة المجهولة واحدة من كل هؤلاء. إنه أصيب فجأة بالعمى عندما رآها عقب إطلاق النار، ولم يستطع أن يتبين في الظلام أي شيء من ملامحها، وطولها، وعرضها، ولونها!

وتنبه فجأة إلى أن اهتمامه بأن يبحث عن الفتاة المجهولة أنساه

الخطر الأكبر. . . أنساه أن يتأمل الرجال الموجودين في الحديقة ليعرف هل هم من رجال البوليس السري، كأن الشباب عندما يرون المرأة ينسون الخطر المحدق بهم. تلهيهم حلاوة الحياة عن مرارة الموت!

وبدأت الشمس في المغيب، وبدأ الذين في الحديقة يتحولون إلى أشباح، ولم تقبل الفتاة المجهولة. أتكون عدلت عن الحضور بعد أن عرفت أنه ليس البطل الذي توهمته؟ إنه لم يصب الوزير «اللوح» وإنما أصاب «لوح» سيارة الوزير! إنه واحد من رجال البوليس السري الذين اشتركوا في مؤامرة مقصود بها إقامة حمام دم جديد للعمال كما يؤكد المعلم وهدان. أتكون واقفة الآن خلف أشجار الحديقة تشير إلى موضعه لضباط البوليس الذين جاءوا للقبض عليه؟

■ ■ ■

وفجأة سمع صوتاً نسائياً يقول له في صوت خافت: مساء الخير. .

ولم يلتفت إلى مصدر الصوت، وإنما تحركت عيناه فجأة ترقبان جنود البوليس الذين سيهاجمونه ويقبضون عليه. ولم يجد أحداً من الجالسين في المقاعد يتخرك من مقعده، وأحس لأول مرة بالاطمئنان، واستدار خلفه، ورأى امرأة تخفي وجهها بحجاب أسود كثيف. . لم يتبين من خلاله لا عينيها ولا شفتيها ولا أنفها ولا فمها. . سواد في سواد في سواد؟ . . كأنها صورة للممثل السينمائي دوجلاس فيربانكس في فيلمه الأخير «الشبح»!

ورأى الشبح وجه محمد وقد ارتسمت عليه دهشة مفاجئة وذهول غريب، فقالت الفتاة المجهولة في صوت هامس:

ـ يظهر أنك لا تعرفني؟ . . أظن أنه يجب أن أقدم لك نفسي. .

وأعطيك بطاقة تحقيق السخصية!

وجزع محمد من كلمة «بطاقة تحقيق الشخصية». إنها كلمة بوليسية يقولها عادة الضباط عندما يقبضون على متهم!

وفتحت الفتاة المجهولة حقيبة يدها، وأخرجت منها المسدس، وقدمته له وهي تقول بنفس الصوت الهادىء الخافت:

ـ هذه هي بطاقة شخصيتي، لعلك عرفتني الآن!

وما كاد محمد يدس المسدس في جيبه حتى استدارت الفتاة الشبح، وتهيأت للانصراف. . .

وأسرع محمد يمسكها من يدها ويقول في رجاء:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟ إنني أريد أن أتكلم معك!

قالت الفتاة الشبح وهي تدفع يده: لقد أديت المهمة التي كلفتني بها. . وبذلك انتهت مهمتي. . مساء الخير!

وعادت تتهيأ للانصراف. .

وجذبها محمد من يدها وأجلسها بجواره على مقعد خشبي، وأحست بقوة يده وهي تقبض على ذراعها بعنف، فاستسلمت وجلست وهي تقول متوسلة:

ـ ارجوك. . إنني مضطرة إلى الانصراف فوراً!

قال لها وملامحه تنطق بشعور طفل يتشبث بقطعة من الشوكولاته:

ـ إنني أريد أن أشكرك. . كنت أمس بطلة عظيمة. .

قالت وقد ارتفعت همساتها قليلاً، فبدت حلاوة صوتها:

ـ إنني لست بـطلة، إن أي امرأة مكـاني كانت ستفعـل نفس ما فعلت؟

قال محمد وهو يحاول أن يخترق بعينيه ما خلف نقابها الأسود ثم ترتد نظراته وقد فشلت في أن تخترق الجدار السميك:

ـ لقد فكرت في أنك قد تبلغين البوليس!

قالت ساخرة:

ـ من أجل أن أحصل على الخمسة آلاف جنيه؟

قال محمد في خجل:

ـ إذن أنت قرأت الصحف. . وعرفت أنني فشلت في قتل الوزير. .

قالت:

ـ ليس المهم أنك فشلت، المهم أنك حاولت. البطولة أن تتكلم والناس خائفـون من فتح أفـواههم. ليس مهماً أن تصيب كلماتـك الهدف. . يكفي أن رصاص مسدسك تكلم وسمعه الملايين!

وتمنى محمد فـي تلك اللحظة أن يعانق الشبح ويغمره بالقبلات. كان يتمنى أن يسمع هذه الكلمات بالذات من أي إنسان، ولكنه لم يسمعها، وإنما سمع عكسها تماماً، فمضى يقول لها في حماس:

ـ تصوري أن الناس يقولون إن هـذه مؤامرة دبـرتها الحكـومة، وإن الجاني أحد رجال البوليس السري. .

قالت في همس:

ـ سمعت كل هذا وهم معذورون. لم يعد أحد يصدق ما تقوله الحكومة من كثرة ما كذبت على الناس. . ولا يهمك أن الناس لم يصدقوا، المهم أن الحكام صدقوا، وخافوا، وأصيبوا بالرعب. . ولولا ذلك لما أعلنوا مكافأة خمسة آلاف جنيه، ولولا ذلك لما قبضوا على ألوف المعارضين والعمال. لقد فرحت أنك لم تقتله. . إنك حققت غرضك بغير أن ترتكب جريمة قتل. . أنا لا أؤمن بالاغتيال السياسي. . قد تستطيع رصاصة أن تقتل طاغية، ولكنها لا تستطيع أن تقتل الطغيان!

قال محمد وقد صدمه رأيها في الاغتيال السياسي:

ـ ما دمت ضد الاغتيال السياسي، فلماذا أخذت المسدس؟ لماذا ضللت البوليس وقلت له إني رجل قصير أرتدي جلابية؟

وضحكت ضحكة حلوة وقالت: من أخبرك أنني ضللت البوليس.

ـ سمعتك بأذني. . وتصورت أنك ترشدينهم إليّ . . ما الذي جعلك تفعلين من أجلي كل هذا؟.

قالت وهي تخفض عينيها إلى الأرض، كأنها تستوعب كل الصور التي التقطتها لمحمد وهو يتكلم:

ـ شعرت أنك تثق بي، وأردت أن أثبت لك أن ثقتك في محلها. عندما رأيتك تأتمني على حياتك ومصيرك ومستقبلك أحسست بفخر لقد كنت أول إنسان وثق بي. . كنت أول إنسان قال لي: أنا أثق بك. لم يقلها بلسانه، وإنما قالها بتصرفه عندما أعطاني المسدس!

وهزمته هذه الكلمات، وأراد أن ينتهز هذه الفرصة ليقول لها:

ـ ما دمت تثقين بي، فلماذا لا ترفعين هذا الحجاب الثقيل لأرى وجهك؟

قالت ضاحكة وهي تتراجع إلى الخلف وقد رأت أصابعه تتحرك وكأنها تتهيأ للانقضاض على حجابها السميك:

ـ أخشى أن أخيّب ظنك.. أفضل أن أبقى محجبة حتى تتخيلني كما تتمنى!

قال محتجاً:

ـ لو كنت أقبح امرأة في العالم، فإن بطولتك وشجاعتك جعلتاك في عيني أجمل امرأة في العالم.. إخلعي الحجاب!

قالها بنفس اللهجة الآمرة التي فاجأ بها نجوى، وجعلها تسارع إلى خلع ملابسها.

ولكن المرأة المجهولة لم تسارع إلى تنفيذ أمره كما فعلت نجوى.. ومد محمد يده فجأة إلى حجابها ونزعه..

وارتاع وهو يرى وجهها للمرة الأولى.. أذهلته المفاجأة التي لم ينتظرها!

قالت له باسمة: لم أعجبك؟!

قال محمد في حماس وهو يحملق فيها مذهولاً:

ـ فعلاً لم تعجبيني! إن كلمة «الإعجاب» لا تصلح لوصف مشاعري! إنني مذهول! إنك امرأة جميلة بمعنى الكلمة. إنك تشبهين جان دارك. الصورة التي نشرتها المجلات للممثلة الفرنسية التي مثلت

فيلم جـان دارك هي صورتـك. شعرك الأسود، عيناك الحـالمتان، رموشك، شفتاك، أنفك، السحر في لون شفتيك، البراءة في عينيك، الطهر المنسكب على وجهك، تماماً مثل جان دارك. قديسة في امرأة رائعة الجمال، لا ينقصك إلا جناحان لتصبحي واحدة من الملائكة!

واحمر وجهها وهي تسمع هذا المديح كـأنها تسمعه لأول مـرة في حيانها، وأسرعت تسدل الحجاب على وجههـا، وتقف على قـدميها وتقول:

ـ الآن وقد رأيت وجهي الذي تمنيت أن تراه، فدعني أذهب!

قال محمد وهو يغمغم:

ـ تذهبين؟ كيف تذهبين وتأخذين معك كل هذا الجمال؟ . . إنك لم تعطني منه شيئاً!

قالت ساخرة:

ـ أعطيتك المسدس!

قال عاتباً: لكي أنتحر؟!

قالت منزعجة: إن حياتك أثمن من أن تضحي بها من أجل امرأة، إن بلدك يحتاج إليك!

قال محمد وهو يمسك بذراعها، ويهزها هزاً عنيفاً:

ـ لا يمكن أن أتركك تذهبين. . أريـد أن أسألـك بعض أسئلة، أسئلة هامة!

قالت وقد أحست بيده القوية الشابة تضغط على ذراعها البضة:

ـ سأجلس دقيقة واحدة، لا أستطيع أن أبقى أكثر من دقيقة!

وكشفت الكم الذي يغطي رسغها ونظرت إلى الساعة وقالت: إنها الآن السادسة و١٦ دقيقة!

قال محمد محتجاً: دقيقة لا تكفي.. أعطيني خمس دقائق. أعطيني خمس دقائق فقط، وخذي عمري!

قالت باسمة: إنك أضعت حتى الآن أربع دقائق منها... أبدأ أسئلتك.. كان المفروض الآن أن تكون أنت بين المحققين ينهالون عليك بالأسئلة.. يا ليتني أبلغت عنك وأنقذت نفسي من هذه الأسئلة المحرجة!!

قال محمد: إنك منحتني حياتي، فدعيني أستمتع بهذه الحياة... أولاً، قبل أن أسألك يجب أن ترفعي الحجاب، لأرى عينيك حتى أعرف أنك لا تكذبين علي!

قالت وهي تضحك وتشعر أنها تقترب منه كل دقيقة أكثر من الدقيقة التي سبقتها:

ـ إن من حقي أن أرفض الإجابة على السؤال الذي لا يعجبني!

قال محمد وهو يتجاهل تحفظها:

ـ ما اسمك؟

قالت وكأنها تعترف بجريمة نكراء:

ـ زبيدة. اسم بلدي جداً!

ولم يعجبه الاسم فعلاً.. فقد خطرت بباله آلاف الأسماء إلا هذا

الاسم. إنه اسم جارتهم ست زبيدة الخياطة التي لا يحبها!

قال: هل أبوك عامل في العنابر؟

قالها وكأنه لا يوجه سؤالاً، كان يريد أن يبهرها بقوة استنتاجاته وفراسته!

وصمتت قليلاً، ثم قالت في نبرة حزينة:

ـ لا . . ليس عاملاً في العنابر، ولكنه رجل فقير، فقير جداً!

وتأمل ملابسها السوداء. إنها ملابس متوسطة. ولا يبدو عليها الفقر الشديد. فقر أمه . . واستنتج أنها تعمل فقال لها:

ـ وهل تعملين؟

قالت: ممرضة!

وتهيأت للقيام، وصرخ فيها محمد أن تجلس ولكنها أصرت على أن تذهب وقالت: إن موعد المستشفى قد اقترب . .

قال: متى سأراك؟

قالت بحزم: لن تراني. لو علم أهلي أنني أخرج وأقابل رجلاً غريباً لقتلوني!

ثم ابتسمت وقالت: إن عبد الوهاب يقول في أغنيته الأخيرة «وكان سلام التلاقي أصبح سلام الوداع»!

وتظاهر محمد أنه يخرج مسدسه من جيبه وقال مداعباً:

ـ سأقتل نفسي إذا لم تحددي لي موعداً.

وتظاهرت زبيدة بالذعر:

ـ إذن سأقابلك في نفس هذا الموعد يوم الأربعاء المقبل!

ثم التفتت إليه ضاحكة وقالت وهي واقفة على قدميها، ومدت أصبعها وكأنها تنذر طفلاً شقياً:

ـ وستكون هذه آخر مرة ألقاك فيها. . ولو ألححت في مقابلة ثالثة فسأقتلك أنا هذه المرة!

وأحس محمد أن الموعد التالي بعيد جداً. لقد كان يتمنى أن يراها غداً، أن يراها بعد ساعة، أن يراها بعد دقيقة واحدة ولكنها لم تقف لتستمع لاحتجاجاته. أسدلت الحجاب السميك على وجهها. وتركته دون أن تصافحه.

■ ■ ■

وأراد أن يمشي معها إلى باب الحديقة، فألحت عليه أن يبقى في مكانه ولا يخرج إلا بعد ربع ساعة من خروجها. ولم يعترض، وارتمى على المقعد الخشبي يرقب ظهرها وساقيها وهي تمشي في جلال إلى باب الحديقة، ورأى في ظهرها وجهها البريء الذي فتنه!

وابتلع الظلام زبيدة. ووجد محمد نفسه يفكر في أبيه، في المثل العامي الذي سمعه من شفتيه «اللي تخاف منه. . مفيش أحسن منه». أيكون هذا الأب المعتوه فيلسوفاً؟ قارىء أفكار؟ ضارب رمل يعرف الأحداث القادمة قبل وقوعها؟ أيكون المجانين طبقة أعلى من طبقتنا، يرون أشياء لا تطولها أبصارنا فنتهمهم بالجنون؟ ألم نتهم أكثر عباقرة العالم بالجنون؟ أيكون العقلاء هم المجانين والمجانين هم العقلاء؟

المثل العامي الذي أطلقه والده ومحمد متردد في الذهاب إلى موعد

حديقة الجبلاية، هو الذي قضى على تردده، هو الذي رجح كفة ميزان الذهاب على كفة عدم الذهاب. كان أشبه بكأس من الخمر أعادت إليه شجاعته وجرأته. وما الذي جعل والده المعتوه يردد هذه الحكمة بالذات، الحكمة المناسبة في الوقت المناسب، فيما المفروض أن المجنون هو الشخص الذي يقول الشيء غير المناسب في الوقت غير المناسب.

أيكون القدر عندما سلب أباه عقله عوضه عما فقده. فمنح قلبه قوة جديدة قادرة على أن تقرأ الأفكار وترى الغيب؟. كل حكمة قالها والده أيام تردده على نجوى كانت تحذيراً وإنذاراً. كانت أشبه براية الخط الحمراء التي يرفعونها على الشاطىء محذرين السباحين من البحر الهائج الذي تبتلع أمواجه المستحمين. ولكن المثل الذي ردده اليوم كان دعوة وتشجيعاً ليذهب إلى زبيدة..

كم كان يفقد لو أنه استسلم لهواجسه ولم يذهب إلى لقاء هذه الفتاة المجهولة؟ كان سيخسر نصف عمره، بل كان سيخسر عمره كله. كانت زبيدة ترياقاً سريعاً لكل السموم التي ملأت قلبه. كانت بلسماً شفى جروحه. لقد مزقه فشله الذريع في قتل عوني باشا حافظ. كأن الرصاصات أصابته هو وأخطأت فرعون الصغير. لعنات المعلم وهدان على الجاني شريك الحكومة في المؤامرة كانت تملأ أذنيه حتى تخيل في لحظة من اللحظات أنه بغير أن يدري أصبح سوطاً في أيدي الطغاة، وجاءت زبيدة لتعيد إليه الثقة بنفسه والايمان بالعمل الذي قام به.

وبدأ محمد يقارن بين نجوى وزبيدة. بين امرأة الساعة السادسة وامرأة الساعة السابعة. نجوى في التاسعة عشرة وزبيدة في الخامسة والعشرين. ولكن نجوى تبدو كأنها دكتورة في الحب، بينما زبيدة في السنة الأولى من مدرسة الهوى والغرام.

القلق الذي كان يسيطر على زبيدة، نظرات الخوف التي كانت تملأ

عينيها وهي تتحدث إليه، احمرار وجهها وهو يصف جمالها، كل ذلك يدل على أن هذه هي مغامرتها الأولى في لقاء رجل. ما أكبر الفرق بينها وبين نجوى في لقائه الأول معها. كانت نجوى أشبه بأستاذه في جامعة الحب تلقي درساً على تلميذ مبتدىء. كانت عالمة في جغرافية جسدها، تعرف أي جزء منها يحدث الزلازل وأي جزء يثير البراكين. كانت تتحدث إليه وكأنها تتلوى بين ذراعيه. والكلمات تخرج من شفتيها منتشية، وكأن الكلمات كانت، قبل أن تنطق بها، نائمة مع رجل بين هاتين الشفتين!

لم يشعر محمد وهو ينظر إلى شفتي زبيدة أنه يريد أن يقبلها. كانت تخرج من شفتيها كلمات مقدسة كالصلاة. أحس برغبة في أن يسجد أمام هاتين الشفتين أكثر من إحساسه برغبة في أن يعترضهما بشفتيه. نجوى شهوانية الشفتين، وزبيدة عذراء الشفتين.. شفتا نجوى أشبه بالمدينة المفتوحة وشفتا زبيدة أشبه بالقلعة المحصنة.. نجوى عندما تتكلم تبدو أكبر كثيراً من سنها، وكل كلمة من كلماتها عن الحب أشبه بامرأة لعوب أحبت وعشقت وغيّرت الرجال أكثر مما أبدلت جواربها الحريرية، لو أنها ولدت تحب وتعشق لما كفت التسعة عشر ربيعاً لتعلمها كل ما تعلمت من طرق الحب واساليب الغرام.. وزبيدة أكبر من نجوى بست سنوات، ومع ذلك كلماتها خجولة، كأن الكلمات تغطي وجهها بنفس حجابها السميك. ولكن زبيدة استهوته، خفق قلبه لها أكثر مما خفق جسده لنجوى. بهرته القديسة الكبيرة أكثر مما استهوته الشيطانة الصغيرة. أغرته براءة زبيدة أكثر مما أغراه فجور نجوى. ربما لم تكن ملامحها بكل هذه الفتنة التي تخيلها. لعل بطولتها وشجاعتها هما بعض ملامحها التي فتنته. إن الرجل عندما يجد امرأة تشاركه نفس آرائه وأفكاره يحس بنفس اللذة التي يشعر بها وهو بين ذراعي امرأة تسقيه

خمرة الحب. هذا الانطباق الفكري فيه لذة تفوق لذة الانطباق الجسدي.

■ ■ ■

وقطع حارس الحديقة أفكار محمد التي كانت تعزف نفس النغمة مع أفكار زبيدة وهي ملتصقة به، فقال له:

ـ الساعةالآن السابعة موعد إغلاق الحديقة!

وردد محمد بذهول، وكأن الحارس ضبطه بين أحضان زبيدة:

ـ الساعة السابعة؟ الساعة السابعة؟

إنه لم يسمع من كلمات الحارس سوى كلمتين اثنتين «الساعة السابعة»... لم يسمع منه أن هذا موعد إغلاق باب الحديقة. كأن الحارس جاء ليذكره بموعد الساعة السابعة، موعده مع نجوى!

ومشى محمد إلى باب الحديقة وهو شبه مخدر. وأحس بعرق يتساقط من رأسه. وعجب أن يقطر عرقاً في الشتاء! أيكون هذا العرق تساقط منه أثناء المجهود الذي بذله وأفكار زبيدة تتعانق مع أفكاره؟ لقد أحس في تلك اللحظات أنه ضم أفكاره إلى أفكار زبيدة، وكانت أفكارهما ترتعش في عناق طويل، أفكارها تعصر أفكاره، أفكاره تلثم أفكارها.

ووضع يده في جيبه ليخرج منديله، ودهش عندما لمست يداه المسدس!

لمدة ساعة كاملة نسي أن مسدساً في جيبه، نسي أنه يجب أن يسارع لإعادة المسدس إلى صاحبه ابراهيم المناسترلي، نسي أنه حاول اغتيال

نائب وزير الداخلية. أتكون زبيدة هي التي فعلت به كل هذا؟

واقترب من بيت ابراهيم المناسترلي في شارع الجبلاية وسأل عنه البواب فقال انه موجود في غرفة مكتبه يستذكر دروسه.

ودخل على ابراهيم، ودهش ابراهيم لزيارة محمد بعد هذه الغيبة الطويلة. وقال محمد إنه جاء يستشيره في مسألة هامة وهو أن نجوى كلفت شقيقها فؤاد المناسترلي أن يطلب إليه أن يحضر لمقابلتها في أمر هام. وهو متردد في إجابة الدعوة بعد أن قاطع نجوى هذه المدة الطويلة بعد أن علم بزواجها من حسين باشا الأشموني سفير مصر في روما. وقال له ابراهيم في حماس:

ـ يجب أن تذهب لمقابلتها لنعرف آخر أخبارها. لقد سمعت من أمي اليوم أنها تشاجرت مع زوجها ومصممة على الطلاق!

وفهم محمد من حماس ابراهيم أنه لا يزال يحبها، ولا يزال يأمل أن تعود إليه!

وجذب إبراهيم محمداً من المقعد ليقوم ويذهب فوراً إلى نجوى..

وأخرج محمد من جيبه المسدس وهو يقول:

ـ لقد أحضرت لك المسدس الذي نسيته عندي..

وخشي محمد أن يفحص ابراهيم المسدس ويكتشف أنه أطلقت منه أربع رصاصات ولكن محمد فتح أحد الأدراج فإذا به تسعة مسدسات أخرى، وألقاه بغير اهتمام بين هذه المسدسات!

واستراح محمد وهو يرى باب الدرج يغلق، وكأنه أزاح حملاً ثقيلاً كان فوق كتفيه، ووضعه داخل الدرج المقفل. الآن أصبح سره في

الدرج المغلق. لن يتصور البوليس أنه أطلق الرصاص على رجل الملك بمسدس كبير ياوران الملك، وأنه أخفى آلة الجريمة في مكان لا يخطر على بال إنسان!

وما كاد يسترد أنفاسه حتى سمع ابراهيم الناسترلي يقول له:

ـ هل قرأت حكاية الأعمى الذي أطلق النار على عونى باشا حافظ! تصور أنه أطلق الرصاص على بعد ثلاثة أمتار ولم يستطع إصابته. أنا أستطيع أن أصيب برصاصة واحدة الفانوس المعلق فوق قفص القرود في جبلاية الجزيرة على بعد مائة متر. تعال أريك مهارتي في التصويب. وفزع محمد وهو يرى إبراهيم يتجه إلى الدرج المقفل، ويمد يده يبحث عن المسدس وصاح فيه. وصوته يرتعش:

ـ أرجوك يا ابراهيم، إنني أمقت صوت الرصاص!

وتراجعت أصابع يد ابراهيم من فوق المسدس، وراح يضحك ضحكاً متواصلا:

ـ شاب طويل عريض مثلك يخاف من الرصاص؟ إن الرصاص الآن يلعب به الأطفال.. المغفل الذي أطلق النار على عوني باشا لا بد أنه كان طفلا صغيراً، ولو كان أكبر قليلاً لما أضاع أربع رصاصات في زجاج السيارة! وعلى كل حال فإن والدي يقول أن عوني باشا أصيب بالرعب بعد الحادث، وأن مولانا أراد أن يرفع روحه المعنوية فأنعم عليه بالوشاح الأكبر من نيشان النيل، ورفعه إلى درجة وزير. الوزراء كلهم ميتون من الرعب، والوحيد المحتفظ بأعصابه هو صدقي باشا رئيس الوزراء!

وفرح محمد بهذه الأنباء. إذن كانت زبيدة على حق عندما قالت له

إن الرصاصات الطائشة حققت أغراضها، وإنها لم تذهب في الهواء. لم يعد يهمه ما يقوله المعلم وهدان، كل ما كان يهمه هو أن يسمع الحكام صوت هذه الرصاصات . .

وعاد محمد يجلس في مقعده، وأراد أن يستزيد من سماع معلومات عن رعب الوزراء . . كلما أصيبوا بالرعب، أحس هذا الشعب بالاطمئنان.

ولكن ابراهيم قال له:

- إنك نسيت موعدك مع نجوى . . . هيا أسرع واذهب إليها، وأنا في انتظارك لأعرف نتيجة هذه المقابلة.

ودفع ابراهيم محمد بيديه ليخرج من الغرفة، ويسرع إلى الذهاب إلى بيت الجيران . . .

وخرج محمد من بيت سمير باشا المناسترلي ليدخل بيت كمال باشا المناسترلي. وحمد الله على أن الظلام أخفاه عن عين بواب كمال باشا، فلو رآه خارجاً من منزل الأعداء، لعلق له كمال باشا المشنقة عقاباً له على جريمة الاتصال بالعدو! . .

وأدخله السفرجي إلى غرفة، وذهب ينبىء الهانم الصغيرة بقدومه.

وعاد محمد يفكر في زبيدة من جديد . . لا يزال مسحوراً بجمالها الطيب وفتنتها البريئة. وتلفت حوله وانتفض. إن الخادم أدخله في غرفة الذكريات. وعادت صورة نجوى مثيرة أمامه . . وندم لأنه ذهب إلى بيت نجوى. كأنه يرتكب خيانة. إنه مثل نجوى المناسترلي تماماً. ألم تعانقه نجوى وتقبله في شفتيه قبل مضي أربع وعشرين ساعة على عقد قرانها؟ ها هو ذا يرتكب نفس الجريمة. لم تمضِ دقائق على فراقه

لزبيدة ومع ذلك يمضي بقدميه إلى بيت نجوى. ويحاول محمد أن يبرر لنفسه هذا التصرف بأنه أراد أن يرى نجوى ليؤكد ما استقر في قلبه من أن زبيدة طردت نجوى من حياته. وكان يعلم أنه يخدع نفسه، وأنه أراد أن يقارن بين المرأتين. لا يزال شيء من نجوى يرسب فيه، كأنه مرض مزمن تذهب أعراضه ثم تجيء. يتصور أنه شفي منه ثم يكتشف أنه يشكو من نفس الداء العضال!

ثم دخلت نجوى، فاتنة، رائعة، مثيرة، أكثر فتنة وروعة وإثارة مما رآها في يوم من الأيام. كانت تمشي وكأنها ترقص.. لم تدخل الغرفة فقط، بل دخلت قلبه أيضاً.

ولم تكن وحدها، كان معها رجل طويل القامة، رياضي الجسم، شعره أسود فاحم، في الأربعين من عمره، على شفتيه ابتسامة مريحة. وعجب محمد لأن نجوى لم تدخل قلبه وحدها، بل دخلت وفي يدها رجل!

ووقف محمد ليستقبل نجوى مع الزائر الغريب المريح...

وقالت نجوى وهي تشير إلى محمد بلهجة رسمية:

- محمد عبد الكريم أستاذي في اللغة العربية..

ثم أشارت إلى الرجل وقالت في صوت يقطر حناناً وحباً:

- زوجي حسين باشا الأشموني.

ومد حسين باشا يده وصافح محمد وضغط على يده بقوة، قوة شاب في العشرين، لا شيخ في السابعة والخمسين. ولم تدهش محمد الاصابع القوية التي تكاد تسحق يده، بقدر ما أدهشه ما يبدو على الباشا من شباب غريب! كل شيء فيه ينبض بالقوة والفتوة والشباب. ليس في

رأسه شعرة واحدة بيضاء. ليس في وجهه التجاعيد التي هي الامضاءات التي يوقع بها الزمن على بشرة البشر. هذه الخطوط التي تحفرها الأيام تسجل بها عدد سنوات العمر كأنها شهادة ميلاد معلقة على وجه الناس. أتكون نجوى خدعته عندما قالت له أنه في السابعة والخمسين من عمره، فأرادت أن تخفف عليه الصدمة ليرثي لها بدلاً من أن يرثي لنفسه؟

وقال حسين باشا لمحمد، وعلى فمه ابتسامة لا تفارق شفتيه:

ـ سمعت عنك كثيراً من نجوى. وقد تصورتك أصغر سناً مما أنت!

وتلفت محمد الى عيني نجوى فوجدهما تضحكان ضحكتها الساحرة الفاتنة، فقالت وكأنها تعترف بذنبها:

ـ كل ما قلته إنك طفل صغير!

وغاص محمد في مقعده. تضايق من هذا الوصف. اعتقد أن نجوى كذبت عليه وعلى زوجها في وقت واحد، فأفهمته أن حسين باشا عجوز، وأفهمت حسين باشا أن محمد طفل صغير. ماذا قصدت بهاتين الكذبتين المتلاحقتين؟

وقال محمد في احتجاج وكأنه ينفي تهمة ظالمة:

ـ عمري إحدى وعشرون سنة إلا تسعة أشهر وسبعة أيام.. إني لست طفلاً!

وضحك حسين باشا، وقال وهو يضع يده على ساق نجوى، كما يبسط الشاعر بالبرد كفه صوب الموقد حتى يشعر بالدفء:

ـ إن الشباب عيب يتمناه الشيوخ. ومع ذلك فأنت تبدو كأنك أكبر

من عمرك، إنك تبدو في الثلاثين. إن عمر الرجل لا يحسب بعدد أيام حياته وإنما بعدد تجاربه. أما عمر المرأة فإنه يحسب بعدد المرات التي خفق فيها قلبها.

قالت نجوى وهي تميل برأسها على رأس حسين باشا:

- إذن، فعمري أنا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام.. إنني ولدت فعلاً يوم أن رأيتك يا حسين، ولدت يوم ذقت السعادة!

وابتسم محمد، وتذكر ما قاله ابراهيم له منذ دقائق من أن نجوى على خلاف مع زوجها، وأنها اعتزمت الطلاق.. إننا جميعاً نحوّل أحلامنا إلى اخبار!

وقال حسين باشا وقد استغرقته نشوة وسعادة مؤمناً بأن هذه المرأة الصغيرة عشقته لذاته:

- إن السعادة هي اكسير الحياة. السعداء يبقون شباباً طوال حياتهم. والأشقياء يصابون بالشيخوخة في طفولتهم. كنت أمس أزور عوني باشا حافظ لأهنئه على نجاته من الاعتداء الأثيم الذي وقع على حياته وذهلت عندما رأيته. الرعب الذي رآه جعله يبدو في الثمانين من عمره مع أنه ليس كبير السن.. إنه سيبلغ الستين بعد شهور.. إنني شعرت بالأسى وأنا أراه في هذه الحالة التعسة. لم يستطع الوسام الذي أنعم به جلالة الملك ولا ترقيته إلى درجة وزير أن يرفعا حالته المعنوية!

قالت نجوى في حماس:

- هذا المجرم الذي أطلق عليه الرصاص يجب أن يعدم رمياً بالرصاص.. يجب أن يعامل هؤلاء الناس كما تعامل الكلاب المسعورة!

وتأمل محمد بدهشة وجه نجوى وهي تصدر عليه حكم الإعدام. اختفت الفتنة من عينيها وحل مكانها الشرر. اختفى لون الإغراء في شفتيها واستحال إلى قسوة. في لحظة واحدة ذاب كل ما فيها من حسن وروعة وجمال. تحولت إلى جلاد بملابسه السوداء، وفي يده سيف يقطر منه دم المذبوحين. كأنها فرعون صغير آخر مثل عوني باشا. كأنها تكرر نفس أوامر الجزار بقتل العمال الكلاب. إنها نطقت، دون أن تدري، كلمات عوني باشا بحروفها. لم يبق إلا أن تقول له أن أمه عاهرة!!

كأن آراءها المشوهة شوهت وجهها، حولتها إلى مسخ بعد أن كانت ملكة جمال.. هل تشوه آراء الناس وجوههم في عيوننا إذا تصادمت مع آرائنا، أو تزين ملامحهم إذا اتفقت آراؤهم مع آرائنا؟ كأن وجوه الناس مرايا لمعتقداتهم. الآراء التي تعجبنا نفتن بجمال أصحابها، والآراء التي تغضبنا تنفرنا من وجوه قائليها؟ أيكون دون أن يدري قد رأى جمال زبيدة بأذنيه؟ إن الناس يقولون أن أم كلثوم ليست امرأة جميلة، ولكنها عندما تقف على المسرح يراها الذين يطربون بسماع صوتها كأنها أجمل امرأة في العالم. أتكون آذاننا هي عيون أخرى لنا؟ ترى وتبصر وتنبهر وتنفر؟

وعادت نجوى تقول:

- إن قلبي كان يتقطع عندما روى لي حسين باشا حالة عوني باشا عندما رأى الرصاص ينهال عليه. إن الرجل الذي أطلق عليه الرصاص وحش ليس في قلبه ذرة من شهامة أو مروءة!

وسكت محمد. لم يتقطع قلب نجوى عندما سمعت أن عوني باشا أمر بقتل ١٦ عاملاً بريئاً من عمال العنابر، ولكن قلبها تقطع لأن وجه عوني باشا أصيب بجروح سطحية!

قال حسين باشا دون أن يبدو عليه كثير التأثر لما أصاب «الشهيد» الجزار:

ـ وقد أكد لي عوني باشا بأن البوليس سيقبض على المجرم بين لحظة وأخرى. . وقال لي أن المجرم لم يكن واحداً. إنه رأى بعينه أربعة رجال يطلقون الرصاص في وقت واحد.

وكتم محمد ضحكة كادت تفلت منه. . إن عوني باشا رأى الرجل الواحد أربعة رجال، الخوف مثل الخمر، يهيىء لنا أن نرى الشخص الواحد شخصين أو عدة أشخاص. . ووجد محمد نفسه يقـول وهو يحاول أن يخفي شماتته لأنه استطاع أن يخيف الرجـل الذي أخـاف الألوف:

ـ ما دام عوني باشا خائفاً إلى هذا الحد، فلماذا لا يستقيل؟ هل السلطة عنده أغلى من الحيـاة؟ إن الذي حـاول أن يقتله هذه المـرة وفشل، سيحاول مرة ثانية وقد ينجح!

قال حسين باشا والذكاء يقفز من عينيه:

ـ السلطة بالنسبة للحـاكم هي الحياة. وهـو يحافظ عـلى السلطة ليحافظ على حياته، ويحافظ على حياته ليحتفظ بالسلطة. السلطة هي الشعور بالتفوق، صاحبها يحس أنه أقوى من الذين يحكمهم. وهو يتلذذ بإضعافهم لتزداد سلطته. يقطع رقابهم لتصبح قامته أطول من قامتهم. وسلطة الحكم هي ألذ أنواع السلطان! ولنجيب الهلالي كلمة مشهورة بأن الوزير عندما يدخل الوزارة يفقد نصف عقله، وعندما يخرج من الوزراة يفقد النصف الباقي. كلنا نعيش السلطة.

الذين يجمعون المال يحاولون أن يحصلوا على السلطة، والمرأة عندما تعنى بزينتها وأناقتها وشعرها إنما هي تحاول أن تحصل على سلطة، وهي

تشعر أنها بسلطة جمالها قادرة على أن تفعل في الرجال ما يفعله الطاغية في الشعوب. . وكما أنك لا تستطيع أن تقول لامرأة أن تنزل عن جمالها وفتنتها فإنك لا تستطيع أن تقول لحاكم أن ينزل عن سلطان حكمه. فكما أن المرأة تريد أن تكون كل يوم أجمل من اليوم السابق، فكذلك يريد الحاكم أن يكون في كل يوم أقوى من سابقه. وكلما شاخ الطاغية فعل مثل المرأة العجوز التي تكثر من البودرة والمساحيق والزيوت لتخفي تجاعيدها عن العيون. . الحاكم في هذه الحالة يلجأ إلى بودرة البطش، إلى مساحيق الطغيان، إلى زيوت الإرهاب ليغطي علامات الشيخوخة في وجه حكمه. . الطغيان والبطش والإرهاب هي المساحيق التي يخفي تحتها الحكام ضعفهم وشيخوختهم!

قال محمد وهو يتابع تحليل حسين باشا في اهتمام:

ـ ولكن. . . ألا يشعر صاحب السلطة أن مصلحة الوطن تستوجب عليه أن ينزل عن هذه السلطة؟ ما قيمة أن يعيش رجل واحد ويموت وطن بأسره. . يجب أن يفكر الحاكم في مصلحة الوطن!

وقهقه حسين باشا وقال:

ـ مصلحة الوطن؟. السلطة تصبح هي الوطن في نظر الحاكم. كل من يقف ضد السلطة هو واقف ضد الوطن. كل من يقاوم السلطة إنما يقاوم الوطن. كل من يعتدي على السلطة هو معتدٍ على الوطن. والحاكم لا يخدع الشعب بهذا الوهم، إنه يؤمن فعلاً بأن الوطن تضاءل وذاب في شخصه، فالخارج عليه خارج على الوطن، والمؤمن به مؤمن بالوطن. وكلما حمى سلطانه اعتقد أنه يحمي سلطان الوطن. وكلما ضرب مخالفيه في الرأي آمن بأنه يضرب أعداء الوطن. والذي يهتف بحياته إنما يهتف بحياة الوطن، والذي يهتف بسقوطه إنما يهتف بسقوط

الوطن. ويوم تطلب من الحاكم أن يتخلى عن السلطة يشعر كأنك تطلب منه أن يتخلى عن الوطن!

قال محمد معترضاً:

ـ ولكني أعرف زعماء كانوا يكرهون السلطة: جورج واشنطن مثلاً، رفض أن يكون رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة. سعد زغلول كان يمقت رئاسة الوزارة. قالت زوجته يوم خروجه من الوزارة «إن هذا أسعد يوم في حياتي» وغيرهما كثيرون..

قال حسين باشا:

ـ إن اعتراضك في محله. كل ما قلته صحيح وقالته كتب التاريخ، ولكن هؤلاء زهدوا في السلطة لأنها كانت أصغر منهم. إن جورج واشنطن كان محرر أميركا وبطل استقلالها، وهذا سلطان أرفع من سلطان رئيس الجمهورية، وسعد زغلول كان زعيم الأمة، وسلطانه كزعيم الشعب أقوى ألف مرة من سلطانه كرئيس للوزراء، فهو كان يكره السلطة الصغيرة لأنه كان يحب السلطة الأكبر. كان سعد زغلول يعين رؤساءالوزارات ويسقطهم بكلمة من فمه، فما حاجته لأن يصير هو رئيس وزارة؟ إن سلطة الحاكم هي امرأة جميلة فاتنة، ولكن سلطة زعيم الأمة أشبه بسلطة هارون الرشيد في بلاط من الجواري والمحظيات.

قال محمد وقد أعجبته طريقة حسين باشا في المناقشة، واحترامه للرأي الآخر، مما جعل الحوار معه ممتعاً وإن لم يعجبه تشبيه الشعوب بالجواري والمحظيات، فقال معترضاً:

ـ إن زعماء الشعوب لا يعاملونها كمحظيات وجوار، وإنما الطغاة هم

الذين يحولون الشعب إلى سوق للرقيق، والـذي يدهشني ألا يشبـع الطاغية من السلطة. أفهم أن يتمنى الإنسان السلطة، ويبذل كـل التضحيات للوصول إليها، ولكن ما الذي يجعله يتمسك بها. . إذا كانت السلطة امرأة كما تقول فإن المعروف أن الرجل يزهد في المرأة بعد أن يذوقها. إنهم يقولون أن قبلتهـا الأولى أطعم من قبلتها الثـانية، وقبلتها الثانية ألذ من قبلتها الثالثة، وقبلتها العاشرة تتحول إلى قبلة أخوية. وقبلتها الألف تصبح أشبه بركوب الترام في ساعات الزحام!

واستلقى حسين باشا على ظهره وهو يضحك:

ـ هذه هي المرأة العادية. أما المرأة غير العادية فكلما ذقت شفتيها وجدت فيهما حلاوة أكثر من المرة السابقة. . والسلطة هي امرأة غير عادية. هي أجمل امرأة في العالم، فيها كـل السحر والجمـال والفتنة والإغراء. هي غانية تسجد للرجـل القوي، وتدوس على الـرجل الضعيف. . وصاحب السلطة لا يشبع منها، كما لا يشبع العاشق من المرأة غير العادية. ولكي تعرف شعور الحاكم الذي فقد سلطته تصور أنك تعاشر امرأة فاتنة، وتركتك إلى رجل آخر، ألا تشعر بذل وهوان؟ ألا تتمنى أن تدفع نصف عمرك، بل ربما عمرك كله، لتعود إلى هذه المعشوقة ولو ليلة واحدة؟. هذا هو شعور الحاكم الذي يفقد السلطة!

■ ■ ■

جعلت هذه الكلمات محمد يتخبط كالغريق. . ماذا يقصد حسين باشا الأشمـوني بهذا التشبيـه. . ؟ هل معنى هـذا أنه يعـرف قصته مـع نجوى، يعرف أنها هجرته من أجل أن تتزوج الباشا السفير!

وفوجىء محمد بنجوى وقد مدت ذراعها وأحاطت بها حسين باشا وضمته الى صدرها وهي تقول له وقد مالت عليه:

ـ إنك ألذ عبقري رأيته في حياتي كلامك رائع. إنها أول مرة في حياتي أرى محمد عبد الكريم يسمع كلاماً يعجبه.. ألا تلاحظ أن محمد يبدو كأنه منوّم تنويماً مغناطيسيّاً ؟

ودهش محمد لأن نجوى وضعت في فمه كعادتها كلاماً لم يقله، وصوّرت شعوراً لم يحس به..

وأحس محمد بحرج غريب، لا هو قادر أن يعترض، ولا هو قادر أن يسكت. ورأى أن خير ما يفعله هو أن ينصرف على أن يشهد بعينيه امرأة كان يحبها بين ذراعي رجل لا يحبه!

ووقف يستأذن في الانصراف، ولكن حسين باشا وقف فجأة وقال له:

ـ إنني مرتبط الآن بموعد مع وزير الخارجية.. أرجوك أن تبقى مع نجوى حتى لا تبقى وحدها!

وصافح حسين باشا الأشموني محمداً وهو يقول له:

ـ إنني سعيد جداً بمعرفتك.. إنك شاب ممتاز فعلاً!

ومشى حسين باشا إلى الباب، ولحقته نجوى، وتعلقت في عنقه، وراحت تقبله في شفتيه أمام محمد وهي تقول له.

ـ حذار أن تتأخر يا سونة!

ولم يتضايق محمد من القبلات التي رآها، ومن الضمات التي شاهدها، بقدر ما ضايقته كلمة «سونة».. أحس بأن نجوى تتعمد أن تهينه وتكيد له وتنتقم منه بهذه التصرفات الغريبة.

إنه لم يسمعها تدلل ابراهيم بغير اسمه، لم يسمعها تدلله هو بغير

اسمه . . أراد أن يسخر من كلمة «سونة باشا» ولكن مشاعره المجروحة لم يكن فيها مكان للسخرية، لقد صعقته الكلمة صعقاً!

وخرج حسين باشا وقد أخرج منديله يمسح آثار الأحمر من فوق شفتيه . .

وعادت نجوى وأغلقت الباب . .

ثم جلست إلى جانب محمد، ومالت عليه بغتة، وهمّت أن تضمه إلى صدرها وهي تقول له هامسة:

ـ أمك ولدتك ليلة القدر . . حظك من السماء . . ستسافر معنا إلى ايطاليا . إن سونة زوج نموذجي!

■ ■ ■

أوشك محمد أن يضعف . ويرتمى بين أحضان نجوى . ملأ عطرها أنفه وأصابه بدوار لذيذ . أشعلت أنفاسها الحارة جسده، وكأنها عود ثقاب اقترب من بئر بترول . حديثها الهامس عن رحلته معها إلى أوربا، كان أشبه ببساط من الريح، تفرش تحته، ليطير به إلى عالم الأحلام .

كان يحلم طوال حياته أن يسافر إلى أوربا، كما يحلم الجائع بسوق العيش . كان يعرف أن فقره يحول بينه وبين أن يشتري تذكرة سفر إلى قليوب، لا إلى أوربا . وكان يقنع نفسه بأنه إذا حصل على شهادة البكالوريا، ودخل كلية الحقوق، وتخرج بعد خمس سنوات، وأصبح ترتيبه الأول بين المتخرجين، فإن من الممكن أن توفده الجامعة إلى أوربا للحصول على شهادة الدكتوراه . مثله تماماً كمثل بائع البيض الذي يحلم بأن يبيع البيض، ويشتري بثمنه فراخاً، وتلد الفراخ

ويبيعها ويشتري بقرة، وتلد البقرة ويتكاثر البقر، ويشتري أرضاً، ويزرع الأرض وتغل إنتاجاً كبيراً، فيشتري أرضاً أكثر وأكثر، ثم يصبح غنياً، ثم أغنى الأغنياء ويتزوج من بنت السلطان، فإذا لم تخضع بنت السلطان لأوامره، أمسك عصاه وهوى بها على رأسها هكذا. . وتهوي عصا بائع البيض على البيض وتهشمه!

ولكن محمد لم يضرب البيض بالعصا، كان يحافظ عليه، بأن يكب على الدرس ويلتفت إلى المدرسين أثناء الدرس، حتى تتحقق له هذه الأمنية بعد خمس سنوات. . وها هي ذي نجوى تعرض عليه أن يتزوج بنت السلطان من الآن، أي أن يسافر إلى أوربا معها فوراً.

أوشك محمد أن يضعف، ويرتمي بين ذراعيها، ما دامت قبلاتها هي ثمن التذكرة التي ستحمله إلى أوربا، ولكنه أسرع واستجمع قواه، ورد ذراعها التي أحاطت عنقه وهو يقول لها:

ـ هل أنت مجنونة. .؟ إن الباب غير مغلق بالمفتاح!

قالت له في زهو المنتصرة:

ـ إذا أردت أن تغلق الباب فاذهب أنت واغلقه، أنا الآن امرأة متزوجة لم أعد أخاف من أحد!

ونظر محمد إلى عينيها فوجد أن نظراتها توسوس له، وتشجعه، وتستدرجه، وتناديه وكأنها تصرخ فيه قائلة: تحرك يا جبان. . اذهب واقفل الباب!

وأطلت زبيدة عليه من داخله، وأطل وجه والده المعلم حنفي، وأطلت صورة نجوى نفسها وهي تحكم عليه بالإعدام مثل الكلاب،

فتردد، ثم استجمع قواه، وعاد يقول لها:

ـ أريد أن أعرف كيف أذهب معك إلى أوربا، وأنت متزوجة، وأنا لا أملك مليماً؟

قالت نجوى، وكلها تيه وإعجاب بدهائها وقدرتها على وضع الخطط، وتحقيق المستحيل:

ـ المسألة في غاية البساطة! قال لي زوجي أن هناك وظيفة أمين محفوظات خالية في سفارة مصر بروما. وأن الوزارة طلبت منه أن يرشح شاباً في هذه الوظيفة. وخطر بفكري على الفور أن تتولى هذه الوظيفة. فقلت له أنك مدرس ممتاز للغة العربية، وأنني أحتاج إلى متابعة دروس في اللغة العربية أثناء وجودي في روما. ورحب على الفور بتعيينك في هذه الوظيفة. ولما قلت له أنك لم تحصل على البكالوريا بعد قال أنه صديق حميم لوزير الخارجية ويستطيع أن يعينك بطريق الاستثناء. ويمكنك أن تتم دراستك أثناء وجودك في روما. إن السفارة تعمل في الصباح فقط. وأخبرني زوجي أن هناك مدارس ليلية وجامعات ليلية. إنني أفكر في مستقبلك. أفكر في أن هذه فرصة العمر لك. ومرتبك سوف يكفيك للحياة في روما، ويمكنك أن تشتري سيارة، ويمكنك أن ترسل إلى أسرتك في القاهرة عشرة جنيهات كل شهر، إن مرتب الوظيفة ٧٠ جنيهاً في الشهر!

وفتح محمد فمه في دهشة وذهول. . إن نجوى حلت جميع مشاكل حياته في لحظة واحدة. سيسافر إلى أوربا ويحقق حلمه الأكبر. سيكمل تعليمه في أوربا بغير أن يشقى ويتعذب خمس سنوات كاملة ليصبح أول خريجي الحقوق. ومن يعلم إذا كان سيوفد في بعثة عندئذ، أم يخطف البعثة ابن أحد الوزراء أو محسوب أحد أصحاب النفوذ؟

سيملك سيارة، وهو الذي لا يحلم بأن يملك دراجة في يوم من الأيام. وفوق هذا سوف يحل المشكلة التي تضنيه تفكيراً، وهي ماذا تفعل أسرته بعد أن فصلوا أباه من عمله في العنابر. إن أمه بدأت منذ يومين تبيع حلل النحاس بعد أن ذابت الجنيهات الثلاثة التي تبرع بها عمال العنابر. لقد قالت له أمه اليوم فقط إنها لن تبيع السرير الذي ينام عليه إلا بعد أن تبيع كل شيء من أثاث البيت!

وها هي ذي أبواب السماء تنفتح فجأة، سوف يستطيع أن يرسل إلى أسرته عشرة جنيهات كل شهر، سوف يستطيع أن يعالج والده من مرضه العقلي، لن تموت أسرته من الجوع!

هل ممكن أن يفتح الشيطان باب الجنة؟ هل ممكن أن تفعل نجوى من أجله كل هذه المعجزات وقد كان يلعنها منذ دقائق، لأنها هاجمت الرجل الذي أطلق الرصاص على فرعون الصغير؟

كيف يجتمع في امرأة واحدة كل هذا النبل، وكل هذه السفالة؟ أن تطعنه بخنجر بيمينها، ثم تحمله إلى سماء أحلامه بيسارها!

■ ■ ■

وعاد إلى نجوى جمالها في عيني محمد! عادت امرأة ساحرة من جديد. عادت فتنتها تخطف بصره، عادت أنوثتها الطاغية تسيل لعابه، عادت صورتها تصعقه، عادت توقظ فيه عواطف جارفة توهم أنه دفنها يوم أبلغته نبأ زواجها من رجل عجوز. وبدأ يخجل من نفسه، هل هو شاب هوائي، لا يثبت على رأي، يهاجم ثم يتراجع، يصمد ثم يستسلم، تغضبه كلمة وتسعده كلمة؟ الرجل، عادة، يضعف أمام المرأة التي تهتم به. الاهتمام هو المفتاح السري الذي يفتح القلوب المغلقة، نظرة اهتمام تسعده، ونظرة عدم اهتمام تشقيه، وها هي

ذي امرأة لا تنساه في شهر عسلها، تهتم بأن تحصل له على عمل، تهتم بأن يتم دراسته في الخارج، تهتم بأن يكفيه مرتبه ليساعد أسرته الجائعة.

ووجد محمد نفسه يسأل نجوى:

ـ ولكن لماذا فعلت لي كل هذا؟

وأبرقت عينا نجوى وقالت:

ـ لم أفعله من أجلك.. فعلته من أجلي!

وألقى محمد عليها نظرة إعجاب، كأنها قبلة طويلة يطبعها على شفتيها:

ـ إنك امرأة نبيلة!

قالت نجوى وقد توهجت عيناها:

ـ لا... إنني لست امرأة نبيلة، أنا امرأة سافلة، سافلة جداً! إنك تخطىء إذا تصورت أن المرأة جمعية خيرية. إنها مخلوق أناني. إنني فعلت هذا لأنني أنانية جداً.. لا أريد أن أغادر مصر وأتركك فيها وحدك. ستجيء امرأة أخرى وتأخذك مني.. إنني لا أثق بأي رجل من هنا إلى هذا الباب!

وارتجف محمد أمام هذا الاعتراف الصريح. إنه من لحظات رسمها في خياله بصورة امرأة نبيلة. صب في الصورة عرفانه لجميلها، وتقديره لنبلها. صب في الصورة دم قلبه، عصارة روحه. وها هي ذي نجوى تصر على أن تمزق هذه الصورة..

ومضت نجوى وقد التهبت غرائزها فجأة تقول:

ـ إنني أريد أن أمتلكك! أمتلكك وحدي! لقد قلت لي في الفندق ببيروت أنك لا تريد أن تأخذني لأنني فتاة عذراء. . وقد تزوجت حسين باشا الأشموني لأزيل العقبة بيني وبينك؟ الآن، لم يعد لديك أي عذر. إنني تزوجته لأنني رأيته رجلاً «واسع الأفق»، رجلاً يمكن أن يكـون «البرافان» الذي يخفي علاقتنا. . وهذا هو سبب إسراعي بالزواج منه!

قال محمد وقد صدم بروح العبث والاستهتار التي تشع في عينيها:

ـ إلا يكفيك زوجك؟

قالت نجوى:

ـ بصراحة. . إنه لا يكفيني. . أنت وحدك الذي تكفيني!.

قال محمد، وهـو يحاول أن يتحكم في الـرجفة العنيفـة، بعد أن صدمته صراحتها العارية:

ـ ولكنه يبدو شاباً. ومنذ لحظات كنت تعانقينه وتقبلينه وتتعلقين في ذراعه وتنادينه: «يا سونة»!

قالت نجوى وهي تضحك ضحكة عابثة:

ـ ما أغباك يا محمد. . كنت أتصور أنك أذكى من هذا. . إنني أريد أن أجرده من مخالبه وأنيابه حتى لا يعضك. . أن أوهمه بأن لا علاقة بيني وبينك، فلو كانت بيننا علاقة لما قبّلته أمامك. . أردت أن أجعله يطمئن إليك عندما قلت له إنك طفل صغير، وهو يعرف مني أنني لا أحب الشبان. . إنني رسمت كل شيء لحياتي المقبلة معك؟. سوف أتردد عليك كل يوم في شقتك بروما. . لن أحضر في مواعيد دراستك الليلية حتى لا أعطل الدراسة. . إن حسين هو سفير مصر في روما،

ولكنه يشغل في الوقت نفسه، منصب سفير مصر في يوغوسلافيا. وسيمضي في يوغوسلافيا يومين كل أسبوعين. وفي هذين اليومين سوف أكون معك.. ولن يعيش حسين طويلاً.. وبعد وفاته نستطيع أن نتزوج.. لن يعترض أبي يومئذ على أنني تزوجت من أحد رجال السلك السياسي..

وكان محمد يطرق إلى الأرض وهي تتكلم. لم يستطع أن يرفع بصره إليها، تذكر فقره وبؤسه، تهاوت أحلامه وأمانيه، تذكر قصة بائع البيض الذي قرر أن يبيع البيض ويتزوج بنت السلطان.. ليس هو الذي هوى بالعصا على البيض. إنها هي التي أمسكت بالعصا وهشّمت البيض..!

ثم رفع رأسه وقال:

- إنني في دهشة من أن تفكر فتاة في التاسعة عشرة من عمرها كل هذا التفكير..؟ أن تضع كل هذه الخطط. أن تؤلف المسرحيات وتوزع الأدوار التي وضعتها على الممثلين الذين اختارتهم. إن دور حسين باشا في هذه الرواية هو دور الزوج المغفل. أما دوري أنا فهو دور العشيق الذي اشترته الزوجة بمالها ونفوذها. قد يقبل حسين باشا أن يقوم بدوره. ولكن دوري لا يعجبني.. إنني لا أصلح للقيام بهذا الدور.. أنا لم أدرس فن التمثيل، ولا أنوي أن أدرسه.. ولقد ذكرت لي ختام المسرحية الذي ينتهي بزواجك.. ولكن ما الذي يضمن أن يعاد تمثيل المسرحية، وتسندي إلي دور الزوج المغفل، وتختاري شاباً فقيراً آخر ليقوم بدور العاشق الذي يبيع نفسه بالمال؟ إن قدرتك المذهلة في التأليف والتمثيل والإخراج، تجعلك قادرة على أن تغيري في الأدوار كما تريدين؟. أنت حدثتني بصراحة، وأنا الآن أحدثك بنفس الصراحة. أنني أفضل أن أقوم بدور المتفرج!

وامتقع وجه نجوى. غلى دمها في عروقها. بدت في عينيها علامات سخط وحنق. كأن مناظر المسرحية التي رسمتها بيدها قد انهارت فجأة فوق رأسها. شعرت كأن محمد أذل كبرياءها، حقّر أنوثتها، سحق جمالها وفتنتها. ولا يغضب المرأة شيء أكثر من أن ترى الرجل الذي تصورت أنه في قبضة يدها، قد أفلت فجأة منها لتصبح هي في قبضته!

وتوهجت عيناها وهي تقول له:

ـ أنت لم تفهمني!

قال في هدوء:

ـ بل فهمتك تماماً، وأنت التي لم تفهميني؟ أنا فقير حقاً، ولكن لا أبيع نفسي.. أنا رخيص جداً. ولكنني لست للبيع. كل أموالك لا تستطيع أن تشتريني. أنا مثل الشارع يدوس عليه الناس بأقدامهم ولا يستطيع واحد منهم أن يشتريه. لا أقبل شريكاً في المرأة التي أحبها، حتى ولو كان هذا الشريك سفيراً وباشا. قد يدهشك موقفي هذا، وقد تتصورين إنني غاضب عليك لأنك عرضت علي أن تشتريني. أبداً، لست غاضباً إنني على العكس، أشكرك، أشكرك من كل قلبي. كنت أظن أن الفقراء لا كرامة لهم.. الفقر هرس كرامتهم وكبرياءهم وهو يهرس كل شيء فيهم. ولكن عرضك المهين أيقظ كبريائي. أحسست لأول مرة في حياتي بأن لي كبرياء. إنه شعور لذيذ كان فقري يحرمني من أن أستمتع به!

قالت نجوى وقد أحست فجأة بضآلتها هي:

ـ إن الذي يرفض العرض السخي الذي عرضته عليك، هو واحد من اثنين، إما مجنون. أو يحب امرأة اخرى!

قال محمد ضاحكاً:

ـ لست مجنوناً!

قالت نجوى والغيرة تأكلها:

ـ إذن، تحب امرأة أخرى..

قال محمد وقد ملأت صورة زبيدة عينيه:

ـ نعم!

وقالت نجوى وهي تتخبط كالغريق:

ـ من هي؟ لا بد أنها ابنة أحد الكبراء.. لا بد أن أباها أغنى من أبي.. لا بد أنها أجمل مني!

قال محمد وهو يترفق بها:

ـ إنها ابنة رجل فقير.. فقير جداً مثل أبي. وأنت أجمل منها.. أجمل كثيراً!

قالت وهي تحملق فيه:

ـ متى عرفتها؟ طبعاً، عرفتها قبل أن تعرفني.. وهذا هو السر الحقيقي لأنك رفضت من أول الأمر أن تقوم علاقة بيني وبينك؟. إخلاصك لها هو الذي جعلك تتردد في أن تعانقني عندما جرّدتني من ملابسي. حبل الوفاء لها هو الذي شدّك حتى لا تنام في الفراش بجانبي في بيروت.. قل لي متى عرفتها؟

قال محمد وكأنه يحلم:

ـ لم أرَ وجهها إلا اليوم! رأيت وجهها لأول مرة من ساعة، في السادسة مساء اليوم.. قبل أن أجيء إلى مقابلتك بساعة!

وأحست نجوى بذل وهوان. ألهبتها الغيرة، ملأتها الحسرة، شعرت برغبة في أن تنشب أظافرها فيه، وصرخت صرخة مدوية وهي تقول:

ـ أنت كلب حقير قذر!

وأصيبت نجوى بحالة هستيريا، وراحت تصرخ وهي تكرر كلمات «كلب.. حقير. قذر..»!

وجاء كمال باشا المناسترلي على صوت صراخها، جاء يجري فزعاً وهو يقول في اضطراب:

ـ ماذا حدث؟ ماذا حدث؟.

وانهمرت الدموع من عيني نجوى وهي تقول:

ـ حاول أن يعانقني ويقبلني! نسي أنني سيدة محترمة متزوجة! لقد سمعت أنه صديق ابراهيم المناسترلي.. ولا بد أنها مؤامرة دبرها عمي وخالتي للقضاء على زواجي!

وما كاد كمال باشا المناسترلي يسمع اسم ابراهيم المناسترلي واسم شقيقه وزوجته حتى احتقن وجهه، وأفلتت أعصابه، وراح يزأر كأسد هائج ويصرخ ويصيح:

ـ يا ياسين! يا آدم! يا اسماعيل.. يا عثمان..

وأقبل السفرجي والبواب والسائق والطباخ يهرولون نحو الباشا. وأشار كمال باشا بيده إلى محمد باحتقار وقال:

ـ اخرجوا هذا الكلب القذر الحقير من هنا!

وأسرع الخدم ينهالون على محمد بالضرب والصفع والركل، وهم يدفعونه أمامهم الى خارج البيت!

■ ■ ■

وعاد محمد إلى بيته محطماً. كان يلوم نفسه بعد لقائه بزبيدة التي أنقذت حياته، ذهب يلتقي بالمرأة التي أرادت أن تحطم حياته، أن تلوثه، أن تستغله، أن تشتريه! إن ما حدث له هو انتقام من الله لزبيدة. إنها يد الله التي ضربته على رأسه وليست أيدي خدم كمال باشا المناسترلي! السماء هي التي قالت له: «أنت كلب حقير قذر» وليست هي نجوى!

ولكن ما الذي جعله يقول لنجوى أنه يحب امرأة أخرى؟ إنه وجد شفتيه تنطقان بكلمة «نعم» عندما سألته نجوى هل هو يحب امرأة أخرى؟ خرجت هذه الكلمة بغير إرادته. لقد رأى في تلك اللحظة شبح زبيدة أمامه، وخشي أن يجرحها إذا أنكر أمام نجوى أنه يحبها. شعر أن حبه لزبيدة أشرف من أن يتوارى أو يختبىء وراء حجاب من الكذب. لقد كان صادقاً في كل كلمة قالها لنجوى. فلماذا لا يصدق معها عندما سألته عن سر قلبه؟ لعل هذه الصراحة هي التي جعلت نجوى تتحول إلى نمرة مفترسة مجنونة تنهش لحمه وعظمه وشرفه وكرامته. ولم يندم على أنه اعترف بحبه لزبيدة، برغم الإهانات التي لحقت به، برغم الجروح التي في رأسه، والكدمات التي في جسمه والخدش الذي في يده..

ورأى والده يدخل إلى غرفته ويتأمله ويقول:

ـ هل أنت خارج من معركة حربية؟

قال محمد وهو يضحك:

ـ كنت في مظاهرة. وهتفنا بحياة «الحق». . . فضربنا البوليس!.

قال المعلم حنفي:

ـ في المرة القادمة اهتفوا بحياة الظلم! هل سمعت أن أحداً دخل السجن لأنه هتف بحياة الطغيان، أو هتف بحياة الاستبداد؟ لولا أنني قمت بواجبي وذبحت وزير الحربية وألقيت بجثته في النيل السعيد، لقدت مظاهرة تهتف بحياة الاستبداد والظلم والطغيان!

ومضى المعلم حنفي يتفحص الجروح والكدمات في محمد وهو يقول:

ـ يا بني.. إن الذي يريد أن يتزوج عروساً جميلة يجب أن يكون مستعداً لأن يدفع مهرها.. مهر الحرية هو الدم الذي يراق في سبيلها!

وألقى محمد على وجه أبيه نظرة إعجاب. وساءل نفسه ما الذي جعل والده يتوقف هذه الليلة عن ترديد أمثاله العامية التي يحرص على ترديدها..

وفجأة سمع محمد والده يقول مثلاً جديداً:

ـ الراجل اللي تصرف عليه ست تبقى هي الراجل وهو الست!.

وتركه المعلم حنفي مذهولاً في غرفته وخرج!

■ ■ ■

جاء يوم الأربعاء الموعود.. اليوم الذي سيلتقي فيه محمد بزبيدة للمرة الثانية..

كان محمد يعيش طوال هذا الأسبوع في انتظار هذا اليوم..

وذهب إلى المدرسة السعيدية، وتتابعت حصص اليوم في تثاقل. بدت الدروس طويلة جداً. انتهت الحصة الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة.. وبدأت الحصة السادسة والأخيرة..

إنها الآن الساعة الثالثة بعد الظهر. بعد ثلاث ساعات سوف يلتقي بها.. وفجأة جاء ضابط المدرسة ودعاه لمقابلة «سعادة البيك الناظر» ودهش محمد لهذا الاستدعاء غير المنتظر..

ودخل إلى غرفة الناظر فوجد معه الشيخ عبد الرؤوف أستاذ اللغة العربية، ودهش عندما رأى دموعاً في عيني الشيخ عبد الرؤوف..

وقال له ناظر المدرسة بوجه متجهم:

ـ يؤسفني أن أبلغك أن معالي وزير المعارف أصدر قراراً بفصلك من المدرسة السعيدية، وحرمانك من دخول جميع مدارس الحكومة.

ونزل النبأ على محمد نزول الصاعقة وقال بصوت مضطرب:

ـ لماذا؟ أنا لم أفعل شيئاً!

قال ناظر المدرسة:

ـ أنا غير مكلف بأن أشرح لك الأسباب.. أنت تعرفها جيداً.. إن مهمتي فقط أن أبلغك قرار معالي الوزير..

واتجه محمد بعينين متوسلتين يستنجد بالشيخ عبد الرؤوف.

وقال الشيخ عبد الرؤوف:

ـ إن معالي كمال باشا المناسترلي وزير الأوقاف السابق وعضو مجلس الشيوخ ذهب إلى معالي وزير المعارف وأبلغه أنك حاولت

اغتصاب ابنته حرم سعادة حسين باشا الأشموني سفير مصر في روما.

قال محمد ملتاعاً:

ـ أقسم لك إنني مظلوم!

قال الشيخ عبد الرؤوف والدموع تنهمر من عينيه:

ـ أنا واثق أنك مظلوم، وأنا أيضاً مظلوم.. وسعادة البيه ناظر المدرسة مظلوم. إن معالي وزير المعارف أمر بخصم خمسة عشر يوماً من مرتبي لأنني رشحت طالباً فاسقاً ليدرّس اللغة العربية، ويدخل بيوت الأشراف، وينتهك أعراضهم. وأمر الوزير بخصم خمسة أيام من مرتب سعادة البيه الناظر لأنه وافقني على ترشيحك!

قال ناظر المدرسة في حزن واكتئاب:

ـ لقد كان القرار يقضي بنقلي ناظراً لمدرسة ابتدائية، ونقل الشيخ عبد الرؤوف مدرساً في مدرسة ابتدائية، وحرمانك من دخول جميع الامتحانات..

ولكن سعادة حسين باشا الأشموني أثبت أنه رجل شهم ونبيل وصاحب مروءة. وعلى الرغم من أنه المجني عليه الأول فإنه ألح على معالي وزير المعارف حتى قبل الوزير أن يكتفي بخصم خمسة أيام مني، وخمسة عشر يوماً من الشيخ عبد الرؤوف، وفصلك من جميع المدارس الحكومية دون حرمانك من دخول جميع الامتحانات!

وقال الشيخ عبد الرؤوف وهو يخرج منديلاً كبيراً يجفف به دموعه:

ـ لا تيأس يا محمد من رحمة الله.. يمكنك أن تدخل مدرسة أهلية.. وتدفع مصروفات وتدخل امتحان البكالوريا!

وشهق محمد وقال:

ـ أدفع مصروفات؟ إننـا في بيتنا لا نملك ثمن الطعام! إنني أعتمد في طعامي على الوجبة الغذائية التي تقدمها المدرسة لي مجاناً!

قال الشيخ عبد الرؤوف:

ـ سأدفع لك يا محمد قسط المصروفات.. إنني أملك قيراطين في قريتي.. سأبيعها، وأدفع لك القسط الأخير.

وامتلأت عينا محمد بالدموع وقال:

ـ لا يمكن أن أقبل هذا.. يكفي أنهم خصموا من مرتبك نصف شهر بسببي!

قال الشيخ عبد الرؤوف في إصرار:

ـ إنها جريمة أن يحال بين شاب مجتهد مثلك والحصول على شهادة البكالوريا.. سأدفع القسط.. واعتبره ديناً عليك.. تدفعه بعد أن تحصل على الليسانس!

قال محمد ساخراً في مرارة:

ـ وكيف أحصل على الليسانس وأنا محروم من دخول أي مدرسة حكومية، والجامعة تابعة للحكومة؟

قال الشيخ عبد الرؤوف:

ـ إن الظلم لا يمكن أن يبقى طويلاً. دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة!

وتدخل ناظر المدرسة وقال:

ـ أنا من رأيي أن تكتب يا محمد خطاب شكر لسعادة حسين باشا الأشموني على موقفه النبيل!

وصرخ محمد قائلاً:

ـ أشكره؟ أشكره على ماذا؟ أشكره أنه ذبحني بسكين، ولم يذبحني بسيف كما أراد وزير المعارف؟ أشكره لأنه حكم علي بالسجن المؤبد ظلماً، ولم يحكم علي بالاعدام كما قرّر وزير المعارف؟! إن هذه أول مرة يطلب فيها من الشاة أن تشكر الجزار الذي ذبحها!

ـ لا داعي لأن تشكره.. يكفي أن تكتب له خطاب اعتذار عن الخطأ الذي ارتكبته!

وتلوى محمد في وقفته وقال:

ـ اعتذاري عن جريمة لم أرتكبها هو اعترافي بهذه الجريمة! إنني أفضل أن أموت واقفاً، على أن أعيش راكعاً!

وهزّ ناظر المدرسة رأسه وسكت..

وقال الشيخ عبد الرؤوف:

ـ مثل هذا الشاب الذي يقول هذا الكلام، ليس هو الذي يعتدي على أعراض البنات الصغيرات!

قال ناظر المدرسة:

ـ إن محمد لا يقدر الموقف النبيل الذي وقفه حسين باشا الأشموني. لقد كان من رأي وزير المعارف تقديمك إلى محكمة الجنايات بتهمة محاولة الاعتداء على عرض سيّدة من المصونات من البيوتات الكبيرة في

البلاد. ولكن حسين باشا توسط في منع هذه المحاكمة حرصاً على مستقبلك!

قال محمد هازئاً:

ـ حرصاً على مستقبلي أم حرصاً على مستقبله هو؟ إن حسين باشا الأشموني رجل ذكي، وهو يعرف أن أي رشاش تصاب به سمعة السفير تفقده منصبه على الفور، كان يخشى إذا عرضت هذه القضية على المحكمة أن تكتب عنها الصحف، وتصاب سمعته ويفقد منصبه كسفير. ومن هنا تفضل وتوسط وطلب أن يتم إعدامي سراً بدلاً من إعدامي علناً!.

ومد محمد يده وصافح الشيخ عبد الرؤوف مودعاً وهو يقول:

ـ الله معنا!

■ ■ ■

ولم يعد إلى الفصل، ليجمع كتبه، فضل أن يغادر المدرسة تاركاً كتبه في الدرج، وقرّر أن يكلف أحد زملائه بإحضارها إلى بيته. خجل أن يقول لزملائه إنه فصل من المدرسة.

■ ■ ■

ومشى في الشوارع هائماً على وجهه في انتظار موعد زبيدة.. هل يروي القصة لها كما حدثت؟ هل يمكن أن تصدق أنه فعل كل هذا من أجلها؟ وأنه فصل من المدارس لأنه اعترف بأنه يحبها، ولأنه أبى أن يخونها؟ قد تظن أنه يمن عليها بالموقف الذي وقفه.. قد تظن أنه اختلق

هذه القصة ليسدد لها دينها. قد تصدق أنه غازل نجوى فعلا. لقد سمع أن عقول النساء صغيرة. إنها ستلومه لأنه ذهب وقابل نجوى بعد أن قابلها. غيرتها عليه قد تعميهـا فلا تـرى الحقيقة، ولماذا يقول الحقيقة؟ لقد قال الحقيقة مرة ودفع ثمناً غالياً هو فصله من المدرسة السعيدية وجميع مدارس الحكومة.. ربما لو قال الحقيقة مـرة أخرى لفصلته زبيدة من قلبها. الصمت مؤلم، ولكن الكلام أشد إيلامـاً، وخاصة إذا كان هذا الكلام هو الحقيقة!

وما كادت الساعة تقترب من السادسة حتى كان محمد قد انتهى من وضع الأكذوبة التي سيقولها لزبيدة!

وجلس ينتظرها في مقعد أمام جبلاية القرود. ولم تمض دقائق حتى وجدها بجواره. الحجاب السميك لا يزال يخفي وجهها. وأضافت إلى السواد نظارة سوداء تحت الحجاب..

وقبض محمد بأصابعه الحارة على يدها الباردة، ولاحظ أن يدهـا ترتعش في يده، وسألها: هل أنت مريضة؟

قالت: كلا.. أنا خائفة فقط!

وراحت زبيدة تتلفت حولها في قلق، تماماً كما كان يفعل محمد في المرة السابقة عندما كان يتوقع أن يرى البوليس كامناً له في حديقة الجبلاية ليقبض عليه!

وضحك محمد من هلعها وقال:

ـ لماذا أنت خائفة؟ هل أطلقت الرصاص على وزير؟

وابتسمت وقالت:

ـ خائفة أن يراك أهلي معي!

قال محمد:

ـ هل يقتلونك؟

قالت في لوعة:

ـ ليتهم يقتلونني.. سيقتلونك أنت!

وسألها محمد في استغراب:

ـ ولكن لم تكوني خائفة كل هذا الخوف في المرة الماضية!

وقالت وقد أطرقت برأسها إلى الأرض:

ـ لأنه لم يكن لدي في المرة الماضية ما أخاف عليه. المفلس لا يخاف أن يمشي وحده في الظلام. كلما امتلأ الجيب بالثروة، امتلأت النفس بالخوف.

قال محمد في دهشة: هل ورثت ثروة؟

قالت وهي تضحك: ثروة لم تخطر على بالي.. ولهذا أخاف عليها أن تسلب مني! في المرة الماضية كنت شجاعة جداً لا يهمني أي شيء، والآن أصبحت جبانة جداً أخاف من كل شيء!

قال محمد: ما الذي تغير؟

قالت زبيدة وهي تتنهد: تغير كل شيء ألا تفهم؟ ألا تحس..؟ أصبحت أحبك!

وفوجىء محمد بكلمة «أحبك».. لم يتوقعها في تلك اللحظة!.

ووجد نفسه تهتز لكلمة «أحبك» لقد نطقتها زبيدة بطريقة غريبة. ليس فيها نغمة هوى ولا رنة غرام. إن كلمة «أحبك» فيها موسيقى راقصة. في كل حرف منها حريق يشتعل. شفاه المحبين تعطيها وهي تنطق بها طعم الشهد، ونشوة الخمر.. ولكن كلمة «أحبك» التي نطقت بها زبيدة اختلفت عن كلمة أحبك التي سمعها من نجوى، والتي قرأها في القصص، والتي شاهدها في أفلام سينما أوليمبياالتي شاهدها بدعوة من زملائه. ليس فيها ذلك الشبق المعتاد، ليس فيها اللحن الراقص، ليس فيها طعم الخمر الذي يسكر قلوب العشاق. قالت زبيدة كلمة «أحبك» وكأنها ترتل؟. بدا رنينها غريباً في أذنه، كأنها دعوة إلى العناق. ولم يشعر برغبة في أن يضمها إلى صدره ويغرقها بقبلاته، وإنما أحس بدافع يدفعه أن يقف ويؤدي صلاة شكر لله!

وعجب محمد. أيكون قد شعر بهذا الإحساس الغريب لأنها تغطي وجهها بالحجاب السميك؟

وطلب إليها أن تخلع حجابها فترددت، ثم خلعته. ولم تتغير صورتها في عينيه. على العكس، أحس برهبة أكبر، وبطهر أكثر، حتى الكذبة التي أعدها ورتبها عن سبب جروحه وكدماته تردد أن يقولها أمامها. كأننا لا نستطيع أن نكذب ونحن داخل مكان شريف.

فعندما لاحظت جروح رأسه ويده سألته في جزع قائلة:

- هل ضربوك لأنك هتفت بسقوط صدقي باشا؟

قال محمد في أسى:

- ضربوني لأنني قلت كلمة الحق.. لم يضربوني فقط، لقد فصلوني من جميع مدارس الحكومة!

قالت وهي تهز رأسها:

ـ هذا عقاب بسيط.. يبدو أنك لم تقل الحق كله.. قلت نصف الحق.. لأنك لو قلت الحق كله لقطعوا رأسك؟

قال محمد في مرارة:

ـ ليتهم قطعوا رأسي.. إن قطع الرؤوس أهون من الحرمان من العلم. الرجل الجاهل هو رجل بلا رأس!

قالت زبيدة:

ـ الرجل بلا رأس خير من الرجل بلا قلب.. ما دام قلبك ينبض، فإنك قادر على أن تنتصر على هذه الكارثة! الضربات التي تقع على رأس الرجال المؤمنين لا تسقطهم على الأرض، وإنما تثبت أقدامهم على الأرض..

قال محمد وهو ينظر إلى قدميه ليتأكد أنهما تلمسان الأرض:

ـ مشكلتي أنني فقير، فقير جداً. لا أملك نفقات مدرسة حرة. إنني كنت طالباً بالمجان في المدرسة السعيدية!

قالت في حزم:

ـ في استطاعك أن تبحث عن عمل، أي عمل، وتكمل دراستك!

قال وهو يعض شفتيه:

ـ البلد الآن في أزمة خانقة. الحكومة منعت التعيينات في الوظائف الخالية.

ـ إن الحكومة التي فصلتك من جميع المدارس، لا يمكن أن تعينك في

وظيفة حكومية. ابحث عن عمل خارج الحكومة. ابدأ بأي عمل، حتى لو بدأت ماسح أحذية. إنني سأبقى أحبك وأنت ماسح أحذية كما أحبك اليوم!!

وأحس محمد أن زبيدة سقته جرعة كبيرة من العزيمة والأمل. وبدأ يروي لها قصة حياته كلها بصدق وإخلاص. حدثها عن فقره، عن إصابة أبيه بمرض في قواه العقلية، عن فصل أبيه من عمله. عن الجنيهات الثلاثة التي جمعها عمال العنابر وكيف تبخرت خلال شهر كامل. عن نحاس بيته التي بدأت أمه في بيعه. عن سريره الذي سوف يباع غداً، وينام لأول مرة منذ سنوات على البلاط من جديد. روى كل شيء عن حياته بأدق التفاصيل المؤلمة المهينة..

وكانت زبيدة تستمع إليه والدموع تتساقط من عينيها. وأخرجت منديلها ومسحت دموعها وقالت:

ـ إن صراحتك جعلتك تكبر أمام عيني. الرجال عادة لا يذكرون أمام المرأة التي يحبونها إلا مفاخرهم وانتصاراتهم. أما أنت فلم تحدثني إلا عن هزائمك ودموعك. الرجل الذي لم يعرف الهزيمة لن يعرف النصر، والرجل الذي لا يعرف الدموع لن يعرف الحب. إنني واثقة أنك قادر على أن تشق طريقك، وتحول كل هذه الهزائم إلى انتصارات. كثير من العظماء بدأوا حياتهم فقراء معدمين، وكثير من التافهين بدأوا حياتهم أصحاب ملايين. إذا أردت أن تثبت لي أنك تحبني حقيقة فابدأ من الآن في البحث عن عمل. كل نقطة عرق تبذلها من جبينك، سيكون لها طعم الرحيق في شفتي. كل طريق تشقه لنفسك هو طريق تشقه لحبنا!

قال محمد وعيناه تلمعان في عزيمة:

ـ أعدك أنني سأعمل كثيراً لأنني أحبك كثيراً!

قالت له: والآن أكمل قصة حياتك!

قال محمد: إنني رويت لك قصة حياتي من يوم أن ولدت إلى يوم أن التقيت بك!

قالت زبيدة: إنك نسيت أن تذكر أهم شيء في القصة؟

وجزع محمد. اعتقد أنها تشير إلى قصته مع نجوى التي أخفاها فعلاً ولم يشر إليها بكلمة واحدة..

وتلعثم محمد وقال: لم أخف شيئاً هاماً..

قالت زبيدة وهي تبتسم: نسيت أن تقول لي أهم شيء.. نسيت أن تقول لي ما هو اسمك يا حبيبي.

■■■

حفيت قدما محمد بحثاً عن عمل. كان يغادر بيته قبل الفجر بقليل، ليقف أمام أبواب المصانع والشركات قبل دخول العمال والموظفين. وكانت تصدمه دائماً لافتة كبيرة مكتوب عليها «لا وظائف خالية». الأزمة المالية الخانقة أرغمت المؤسسات علي تخفيض عدد موظفيها وعمالها. القاعدة دائماً أن يبدأ التوفير بذوي الدخول الصغيرة. كل الأبواب موصدة في وجهه. الذين كانوا يركبون السيارات أصبحوا يستقلون الترام. والذين كانوا يستقلون الترام أصبحوا يمشون على الأقدام. والذين كانوا يمشون على الأقدام أصبحوا يمشون حفاة لأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا ثلاثين قرشاً ثمن حذاء جديد. المطاعم استغنت عن عدد من عمالها، كأن الناس لم يعودوا يأكلون. فالذين كانوا

يترددون على المطاعم أصبحوا يفضلون أن يأكلوا في بيوتهم لتوفير جزء من ثمن الطعام. والذين كانوا يطهون في منازلهم أصبحوا يكتفون بشراء الجبن والزيتون ليوفروا ثمن الغاز!

خفضت الحكومة مرتبات الموظفين والعمال. أوقفت جميع المشروعات الجديدة. انخفض سعر القطن انخفاضاً هائلاً. أفلس كثير من التجار. حجزت البنوك العقارية على أطيان الفلاحين، وراحت تبيعها بالمزاد العلني. المزاد يتأجل مرة بعد مرة لعدم وجود مشترين. الأزمة لم ترحم غنياً أو فقيراً، داست الأغنياء وهرست الفقراء.

في هذا الجو الكئيب القاتل كان محمد عبد الكريم يبحث عن عمل، يدق كل باب، يكتب مئات طلبات الاستخدام. ذاب نعل حذائه وامتلأ بالثقوب، أطلت أصابع قدميه من بوز الحذاء وكأنها خرجت تتفرج على هذا الشاب الذي يقطع شوارع القاهرة من أولها إلى آخرها ويعود إلى بيته خائباً مهزوماً يائساً!

وذات يوم قال له المعلم وهدان أبو خطوة، صاحب قهوة سيدي فرج أن صديقه الحاج مغازي المكوجي بشارع الملك يبحث عن شاب يشغل وظيفة «صبي مكوجي»، وقال أنه أوصى به الحاج مغازي خيراً، وطلب اليه أن يذهب لمقابلة الحاج ليتسلم عمله الجديد.

ولم يغضب محمد لترشيحه، هو الشاب المتعلم الذي على أبواب شهادة البكالوريا، لوظيفة صبي مكوجي، كان مستعداً أن يقبل وظيفة ماسح أحذية كما قالت له زبيدة. تعبت قدماه من المشي في الشوارع بغير فائدة. وذهب إلى الحاج مغازي، ودهش عندما رأى على باب محله أيضاً اللافتة المعهودة «لا وظائف خالية». وتهيأ ليعود أدراجه

يائساً، ثم تشجع ودخل الدكان، وعندما قال للحاج مغازي إنه جاء من طرف المعلم وهدان أحسن استقباله، وأجلسه على كرسي. وكانت هذه أول مرة منذ شهور يجلس فيها على كرسي.. لقد باعت أمه آخر كرسي في البيت. ولم يسمح له الذين كان يذهب إليهم طالباً عملاً أن يجلس على كرسي. كانوا يتركونه واقفاً ساعات طويلة. ثم يقولون له الكلمة المعتادة «آسفون، لا توجد وظائف خالية».. وأحس محمد بالراحة وهو يجلس على الكرسي، كأنها أول مرة في حياته يذوق جسمه طعم الكراسي!

وقال الحاج مغازي لمحمد إن مهمته ستكون مساعدته في كي الملابس، وتوصيلها إلى الزبائن، وتولي حسابات المحل، وإنه سيدفع له جنيهاً واحداً في كل شهر!

وفرح محمد بهذا المبلغ الزهيد. ولم يشك من أنه سيمشي كل يوم من شبرا إلى شارع الملك بحدائق القبة على قدميه. من كثرة ما مشى على قدميه بحثاً وراء الوظيفة المستحيلة، بدت المسافة الطويلة بين جزيرة بدران وشارع الملك قصيرة جداً. وكانت ساعات العمل تبدأ من الساعة السابعة صباحاً وتنتهي في الساعة الثامنة مساء، ولم يكن الحاج مغازي يعترف بعطلة يوم الجمعة أو عطلات الأعياد. كل الذي وافق عليه أن يحصل محمد على إجازة بعد ظهر يوم الأربعاء من كل أسبوع، ليستطيع أن يقابل زبيدة في موعدها المعتاد.

■ ■ ■

وعندما التقى بزبيدة، في أول موعد بعد توليه وظيفة صبي المكوجي، أبلغها النبأ فخوراً، وكأنه تولى منصب الوزير، وشاركته زبيدة في فرحته، وقبّلته في جبينه!

وكانت المرة الأولى التي يذوق فيها قبلتها. كان يتمنى أن تكون على شفتيه، ولكنها أصرت على أن تكون على جبينه. . المسافة بين الجبين والشفاه قصيرة في حساب السنتيمترات، ولكنها مسافة طويلة جداً في حساب العشاق!

وعندما احتج محمد على المكان الذي اختارته زبيدة لتطبع فيه قبلتها الأولى، ابتسمت وقالت له:

ـ إنها ستقبّله على شفتيه عندما يحصل على وظيفة أكبر!

وتحسر محمد. . وظيفة أكبر؟ لقد شقي وتعب وتعذب شهوراً حتى حصل على هذه الوظيفة التافهة. . كم عاماً سوف ينتظر ليصل إلى شفتيها يا ترى؟

وفي ظهر أحد الأيام قال له الحاج مغازي، وهويناوله عدداً من قطع المكوى:

ـ ستحمل هذه الملابس إلى بيت الدكتور أحمد ماهر في شارع الملك. إنه البيت الأبيض الكبير إلى اليمين، بعد محلنا بشارعين. . لقد اعتدت أن أحمل المكوى بنفسي إليه لأنه زبون قديم، ولكني أشعر اليوم بروماتيزم في مفاصلي، ولا أستطيع أن أمشي على قدمي خطوة واحدة.

وحمل محمد المكوى بين يديه وذهب إلى بيت الدكتور أحمد ماهر ودق جرس الباب. .

وفوجىء محمد بالدكتور أحمد ماهر نفسه يفتح الباب!

كما فوجىء بأن الدكتور ماهر لم يستدع خادماً ليحمل المكوى، كما يحدث كلما دق باب أحد الكبراء الذين يحمل إليهم المكوى. .

أصر الدكتور أحمد ماهر على أن يحمل المكوى بنفسه . . كما أصر على أن يجلس محمد على مقعد في الصالة، حتى يجيء له بنقود أجرة المكوى . .

ورفض محمد أن يجلس وبقي واقفاً. ولم يتحرك الدكتور ماهر من مكانه، بل طلب منه أن يجلس على المقعد . . واضطر محمد أن يجلس تحت إلحاح الدكتور العجيب . . وجاء الدكتور بعد قليل يحمل زجاجة كازوزة وكوباً من الزجاج، وسكب بنفسه الزجاجة في الكوب، وقدمه إلى محمد وهو جالس على المقعد!

ذهل محمد من تواضع الدكتور ماهر الذي لم يشهد له مثيلاً بين زبائن الحاج مغازي من الكبراء والصعاليك!

وسأله الدكتور ماهر عن صحة الحاج مغازي، وراح يستفسر عن الروماتيزم وكيف يعالجه، وهل ذهب إلى طبيب أم لم يذهب بعد، وهل يتعاطى دواء، وما هو اسم هذا الدواء؟

ولم يصدق محمد أنه أمام الدكتور أحمد ماهر، وزير المعارف السابق، وأحد كبار أعضاء الوفد المصري. إنها نفس صورته التي رآها في المجلات ولكنه لا يتصرف تصرفات وزراء. الوزير السابق الوحيد الذي قابله في حياته كان كمال باشا المناسترلي والد نجوى. شعر محمد وهو مع كمال باشا أنه مع وزير حقاً، له أبهة الوزير، وعظمة الوزير، ولكن الدكتور ماهر بدا رجلاً بسيطاً جداً، كأنه المعلم وهدان صاحب قهوة سيدي فرج . .

وشجعه تواضعه على أن يقول له :

ـ إن اسمي هو محمد حنفي عبد الكريم. إن والدي هو الأسطى

حنفي عبد الكريم العامل في العنابر. والدي قال لي إنه عرفك سنة ١٩١٩ ولا أظن أنك تذكره!

قال الدكتور ماهر في حماس:

ـ كيف لا أعرفه؟ لقد كان والدك بطلاً!

ودهش محمد من أن الدكتور أحمد ماهر يذكر أباه بعد كل هذه السنين، وفوجيء به يسأله عن صحته باهتمام!

وقصّ محمد على الدكتور ماهر قصة أبيه، واتهامه بذبح وزير الحربية، وفقده قواه العقلية، وطرده من وظيفته في العنابر، ثم وجد نفسه بغير أن يفكر يفتح له قلبه، ويروي له بصراحة تامة قصة طرده من المدرسة السعيدية، وهي القصة التي لم يبح بها لمخلوق، لا لأمه، ولا لأبيه، ولا لزبيدة!

أحس براحة غريبة وهو يتحدث لهذا الرجل الغريب الذي يقابله لأول مرة، كأنه وجد صدر أم حنون، يرتمي فيه، ويبكي!

وقال محمد إنه بحث عن وظيفة فلم يجد سوى وظيفة صبي مكوجي.

وقال له الدكتور ماهر:

ـ أنا سعيد جداً إنك قبلت أن تبدأ بهذه الوظيفة. إن هذا دليل رجولة كامنة فيك!

ثم نظر الدكتور ماهر إلى ساعته ووقف وقال:

ـ أنا آسف. . إنني مضطر أن أذهب إلى سباق الخيل في مصر الجديدة قبل بداية الشوط الأول. . تعال وقابلني هنا الساعة الثامنة من

مساء اليوم بعد أن تنتهي من عملك عند الحاج مغازي . .

وهرول الدكتور ماهر بقامته القصيرة وجسمه البدين دون أن ينتظر جواباً من محمد.

وتضايق محمد من الدكتور ماهر الذي أحبه. . كان يفضل أن يكذب عليه ويقول له أن لديه موعداً هاماً. موعداً مع زعيم . . ولكنه قال له إنه يريد أن يلحق بالشوط الأول من السباق. كأنه مهتم بالخيول أكثر مما هو مهتم بقصته، هو الآدمي المذبوح!

وقرر محمد ألا يذهب إلى الموعد. . شعر أن الدكتور ماهر صعد به إلى السماء، ثم هبط به إلى الأرض!

ورآه الحاج مغازي مهموماً، وسأله عن السبب، فروى له ما جرى بينه وبين الدكتور ماهر، وكيف دعاه لمقابلته في الساعة الثامنة مساءً، وأنه قرر ألا يذهب. .

وصاح فيه الحاج مغازي:

ـ لا تكن عبيطاً! لو دعاني هذا الرجل إلى مقابلته وكنت في آخر الدنيا، لذهبت إليه مشياً على الأقدام، إنه إنسان!

■ ■ ■

وذهب محمد إلى بيت أحمد ماهر في الموعد ودق جرس الباب ففتح له الخادم، ودعاه لأن يجلس في الصالون!

قال محمد:

ـ أنا لست من الضيوف. . أنا محمد عبد الكريم صبي المكوجي.

قال الخادم النوبي:

ـ إن الدكتور ماهر قال: إذا جاء صبي المكوجي فأجلسه في الصالون.. واطلب منه أن ينتظرني!

وبعد قليل دخل الدكتور أحمد ماهر، بخطوات نشيطة كأنه يعدو، وصافح محمداً، وجلس بجانبه وقال له وهو يخرج عشرة جنيهات:

ـ خذ هذه وأعطها للأسطى حنفي!

وتردد محمد في أن يأخذ العشرة الجنيهات.. إنه لم يجيء يطلب إحساناً من الدكتور ماهر.

ونظر إليه الدكتور ماهر بحنان وقد قرأ بذكائه العجيب ما يدور في فكره:

ـ هذا ليس إحساناً يا محمد.. لقد راهنت بريال باسم المعلم حنفي على حصان «أوتسايدر» في الشوط الأول اسمه «راجل».. وقد كسب الريال عشرة جنيهات.. وهذا حق والدك وليس حقي!

وامتلأت عينا محمد بالدموع. لقد فهم الآن فقط لماذا تركه أحمد ماهر ليلحق بالشوط الأول. إنه بلا شك بخبرته في السباق كان يعرف أن هذا الحصان سيفوز، وقد أراد أن يقدم هذا المبلغ للأسطى حنفي بهذه الطريقة حتى لا يجرح شعوره!

وقال محمد:

ـ وإنني شاكر جداً!

قال الدكتور ماهر وهو يبتسم:

ـ لماذا تشكرني؟ إنني لم أدفع مليماً من جيبي!

وسكت قليلاً ثم قال:

ـ إنني فكّرت في أن وظيفة صبي المكوجي لا تصلح لك. . ولقد اتصلت بصديقي الاستاذ عزيز ميرهم عضو مجلس الشيوخ الوفدي، واتفقت معه على أن يعينك في وظيفة كاتب بمكتبه بمكافأة بستة جنيهات في الشهر. إنها وظيفة صغيرة، ولكن يجب أن تبدأ من أول السلم!

وأراد محمد أن يتكلم فقاطعه الدكتور ماهر:

ـ أنا أعرف ماذا تريد أن تقول. . تريد أن تقول إنك تشكرني. . الطريقة الوحيدة لشكري هي أن تنجح في عملك. اذهب الآن إلى مكتب عزيز ميرهم في بولاق، إنه ينتظرك. وقد اتفقت معه على أن تبدأ عملك من الساعة التاسعة مساء اليوم. . أنا لا أؤمن بأن أؤجل عمل اليوم إلى الغد!

وخرج الدكتور ماهر من الغرفة في خطوات سريعة، وكان بقامته القصيرة وبطنه المستدير، يتدحرج كالكرة!

وجلس محمد مشدوهاً في مقعده بصالون الدكتور ماهر. لم يصدق أن كل هذا ممكن أن يتحقق في يوم واحد. . وبعد لحظات عاد الدكتور ماهر يقول له:

ـ نسيت أن أقول لك شيئاً يا محمد. . لقد اتفقت مع الأستاذ محمد عبد الصمد صاحب مدارس رقي المعارف الأهلية بشبرا، وهي بجوار بيتكم، على أن يقبلك مجاناً في المدرسة حتى تحصل على شهادة البكالوريا، وقد اتفقت مع عزيز ميرهم على أن يكون عملك في مكتبه بعد انتهاء الدراسة.

ثم خرج الدكتور أحمد ماهر من الغرفة وهو يتدحرج كالكرة!

وفكر محمد في أن يخرج من بيت الدكتور ماهر ويذهب فوراً إلى الحاج مغازي المكوجي ليقدم استقالته، ويشكره على أن قلبه اتسع له في محنته. وتردد في أن يقدم استقالته. قد يكون الدكتور ماهر وعده بالأوهام. الدكتور ماهر من رجال السياسة، والمعروف أن رجال السياسة يبيعون للجماهير الوعود والأحلام، فلينتظر حتى تتحقق هذه الوعود. قد يرفض عزيز ميرهم منحه الوظيفة. قد يرفض محمد عبدالصمد منحه المجانية. قد تكون كل هذه الوعود أحلاماً في الهواء.

ووضع محمد يده في جيبه، وأخرج العشرة الجنيهات، وتأملها بإمعان. إنها عشرة جنيهات حقيقية وليست حلماً أو وهماً في الهواء.

وأعاد المبلغ بسرعة إلى جيبه، ووضع يده على جيبه. تصور أن القاهرة امتلأت بالنشالين الذين لا يفكرون إلا في أن ينشلوا هذه الجنيهات العشرة من جيبه. وتردد أن يركب الأوتوبيس إلى بولاق. خاف أن ينشله النشالون في الأوتوبيس. وتردد أن يذهب بالعشرة الجنيهات إلى بولاق حيث مكتب عزيز ميرهم. لقد سمع أن بولاق فيها حي عشش الترجمان التي يسكنها جميع النشالين في القاهرة. واتجه محمد الى شبرا. ذهب إلى أمه، أيقظها من النوم ودسّ في يدها الجنيهات العشرة. ثم أيقظ أباه من النوم وروى له أن الدكتور أحمد ماهر قال عنه أنه بطل، وأنه أعطاه عشرة جنيهات.

وهز المعلم حنفي رأسه وقال:

ـ لا بد أن الدكتور ماهر عرف أنني ذبحت وزير الحربية وألقيت بجثته في النيل السعيد!

وتمنى محمد في تلك اللحظة أن يرى زبيدة، أن يزف إليها البشرى. وتنهد في حزن. إنه لا يعرف أين تقيم. إن كل ما يعرفه عنها أن اسمها

زبيدة وتعمل ممرضة . . وخطر بباله أن يطوف بكل مستشفيات مدينة القاهرة يبحث عن ممرضة باسم زبيدة . ثم تذكر أن الدكتور ماهر قال له أن الأستاذ عزيز ميرهم ينتظره في الساعة التاسعة مساءً! إنها الآن بعد التاسعة مساء . وطلب من أمه عشرة قروش ، وركب سيارة تاكسي . إنها أول مرة في حياته يستقل سيارة تاكسي .

وطلب من سائق التاكسي أن يحمله إلى شارع بولاق وأن يسرع . وبقي طوال الوقت جالساً على حافة المقعد الخلفي يراقب العداد خشية أن يتعدى مبلغ العشرة القروش التي في جيبه . ولكن الله سلم . لم يكتب عداد التاكسي سوى ثمانية قروش . وتنفس محمد الصعداء ودفع العشرة القروش الفضية ، وانتظر حتى يتسلم القرشين . وفجأة رأى العداد يكتب تسعة قروش . وانخلع قلبه حزناً على القرش الضائع . ووضع القرش الباقي في جيبه ومشى في شارع بولاق يسأل عن مكتب عزيز ميرهم .

ووجد أن أغلب المارة في الشارع يعرفون عنوان المكتب . وصعد إلى مقابلته ، فاستقبله على الفور مرحباً . وقال له إن الدكتور ماهر قال إن محمد صديقه ، وإنه يشرفه أن يعمل صديق الدكتور ماهر في مكتبه .

ورآه رجلاً لطيفاً ، دائم الابتسامة ، كبير الرأس ، الجزء الأمامي من رأسه أصلع ، والجزء الخلفي غزير الشعر . ولاحظ أن المكتب مليء بالعمال . يعاملون عزيز ميرهم بلا كلفة ، كأنه صديق كل واحد منهم . وشرح له عزيز ميرهم مهمته . إنها مهمة بسيطة ، استقبال زبائن المكتب ، تلخيص شكاوى العمال ، ونسخ بعض المذكرات .

وقال له عزيز ميرهم بأدب غريب :

ـ إنني آسف ، لا أستطيع أن أدفع لك مرتباً أكثر من ستة جنيهات

شهرياً. إنني رجل فقير. وعلى كل حال أعدك بألا تعمل أكثر من ست ساعات في اليوم. إنني أطالب بألا تزيد ساعات العامل على ست ساعات في اليوم، وواجبي أن أبدأ بنفسي!

قال محمد وهو يضحك:

ـ إن آخر مرتب لي هو جنيه واحد في الشهر. ومدة ساعات العمل ١٣ ساعة في اليوم، ولا إجازة أسبوعية!

وفتح عزيز ميرهم فمه في دهشة وصاح:

ـ هذا استغلال قبيح.. لا بد أنك كنت تعمل عند أحد الرأسماليين الجشعين الأجانب الذين يمتصون دم الشعب!

قال محمد وهو يضحك:

ـ كلا.. كنت أعمل عند الحاج مغازي المكوجي في شارع الملك.

قال عزيز ميرهم وهو يغرق في الضحك:

ـ إنني أعرفه جيداً.. إنه أحد زعماء العمال المتحمسين لآرائي في ضرورة تحديد ساعات العمل بست ساعات ووضع حد أدنى لأجور العمال!

وأحس محمد بعد نصف ساعة كأنه يعرف عزيز ميرهم من زمان.. إنه رجل «هليهلي» كل شيء فيه طبيعي، مثقف آراؤه تقدمية، يؤمن بالمبادىء الاشتراكية. وهو قوي متطرف، صريح صراحة مذهلة، يقول إن أغلب السياسيين في مصر أمّيون لا يقرأون ولا يكتبون! ويقول إنه يتوقع أن يؤلف العمّال في مصر الوزارة خلال عشرين سنة. في سنة ١٩٥٠ سيكون أغلب الوزراء من العمال. سيكون في الوزارة ثلاث

وزيـرات على الأقل. سيصبح ثلث أعضاء البـرلمـان من النسـاء. سيقبض البوليس على كل امرأة تمشي في الشارع وقد وضعت على رأسها حجاباً بتهمة ارتكاب فعل فاضح علني في الطريق العام!

واستغرق محمد في الضحك، وقرر أن يخبر زبيدة بمصيرها إذا ألّف عزيز ميرهم الوزارة!

بدت آراء عزيز ميرهم غريبة جديدة، ولكنها أعجبت محمداً. وتمنى في قرارة نفسه أن يؤلف عزيز ميرهم الوزارة قبل يوم الأربعاء التالي، لتنزع زبيدة حجابها قبل لقائهما القادم!

وعرف من عزيز ميرهم أنه في عام ١٩١٩ ألّف حزباً باسم الحزب الديمقراطي، وأنـه كان يضم عـدداً من التقدميـين أمثال مصـطفى عبدالرازق والدكتور محمود عزمي والدكتور محمد حسين هيكل.

ثم أقنعه الدكتور ماهر أن يحل الحزب وينضم إلى سعد زغلول، وينفذ أفكاره من خلال الوفد.

واكتشف محمـد بعد أيـام من عمله في المكتب، أنه ليس مكتب محاماة، إنه خلية ثورية، ففي هذا المكتب يجتمع أحمد ماهـر ومحمود فهمي النقـراشي وعزيـز ميرهم وينـظمون حـركة مقـاطعـة الشعب للانتخابات التي سيجريها اسماعيـل صدقي بـاشا لانتخـاب برلمـانه الجديد، وكان حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريـين قد تنـاسوا خصوماتهم الماضية، وعقدوا ائتلافاً، وأصدروا قراراً يدعو الشعب إلى مقاطعة هذه الانتخابات.. وأبقوا قرارهم سراً، إلى أن تتم الترتيبات لضمان نجاح المقاطعة الإجماعية.

ولم يكن محمد في يوم من الأيام عضواً في حزب من الأحزاب. وإذا

به يجد نفسه يعيش في أحد مراكز القيادة الوفدية. الرجل الذي انتشله من ورطته هو الدكتور أحمد ماهر أحد أساطين الوفد، والرجل الذي يعمل في مكتبه هو عزيز ميرهم من أبرز أعضاء الهيئة الوفدية، وصاحب المدرسة الذي منحه المجانية هو الأستاذ محمد عبد الصمد، وهو رئيس لجنة الوفد في شبرا.

ويبدأ محمد يتحمس للوفد من باب عرفان الجميل للذين أنقذوه من الغرق. ولم يلبث أن وجد الوفديين يتكلمون لغته.. إنهم يهاجمون الطغيان والاستبداد. إنهم يطالبون بحق الشعب في أن يحكم نفسه بنفسه. إنهم يهزون عرش الملك فؤاد، ويقاومون الدستور الجديد الذي أصدره الملك، وسلب من الشعب كل سلطاته، واستولى عليها. إنهم يتحدثون عن مذبحة عمال العنابر. إنهم يلعنون عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية، ويقولون إن الذي أطلق عليه الرصاص يستحق أن يقام له تمثال في أكبر ميدان!

أيكونون هم الذين يتكلمون لغته أم هو الذي يتكلم لغتهم؟ أينشدون أغنيته، أم أن الشعب كله يغني أغنية واحدة؟ لقد رأى في مكتب عزيز ميرهم ألوفاً مثله. طلبة طردوا من مدارسهم. موظفين فصلوا من وظائفهم. وعمالاً رفتوا من عملهم. أبرياء لفقت لهم التهم. شرفاء ضربوا بالسياط. بل رأى مجانين.. مجانين مثل أبيه المعلم حنفي، فقدوا عقولهم بسبب العسف والإرهاب والظلم والطغيان!

ولم يعد يشعر أنه موظف يعمل في مكتب عزيز ميرهم. لقد أصبح شريكاً في المعركة، أحد الوفود التي ستلقى فيها!

■ ■ ■

وعندما ذهب للقاء زبيدة في حديقة الجبلاية نسي أحـاديث الهوى والغرام، وراح يحدثها عن المعركة التي يخوضها، أصبح يشعر بقوته لأول مرة. كان يتصور في أول الأمر أنه وحده في المعركة، وقد اكتشف أن الشعب كله مشترك فيها.

وكانت زبيدة تتحمس لحماسه، وتشجعه على أن يمضي في طريقه، وتهون أمامه المصاعب، وتؤكد له أن هذا الشعب لا بد أن ينتصر على غاصبيه ومستعبديه.

وتكرر لقاء زبيدة ومحمد كل مغرب أربعاء.. موعد مقدس لا يتغير أبداً، مهما كثرت أعماله، ومهما تشابكت مشاغله..

وكان يحرص على أن يطلعها على كل خطوة يخطوها. قال لها إن أمه اشترت حلل نحاس جديدة من مرتبه في الشهر الأول. إن عزيز ميرهم ارسل والده الى طبيب للأمراض العقلية يعالجه مجاناً. إن أمه اشترت له سريراً، وسيعود ينام على سرير من جديد. إنه اشترى بذلة جديـدة لأول مرة منذ عدة سنوات. إنه اشترى ثوباً جديداً لأمه!

وكانت زبيدة تفـرح لكل هـذه الأنباء، وكـأنها هي التي اشترت فستاناً جديداً، أو أنها هي التي ستنام في السرير الجديد!

وجاءها ذات يوم وهو يرقص من الفرح! إن عزيز ميرهم قال إنه معجب بعمله، ويقدر كفاءته، ولهذا فانه قرر أن يرفع مرتبه من ستة جنيهات في الشهر إلى عشرة جنيهات.

وما كادت زبيدة تسمع هذا الخبر، حتى رفعت الحجاب من فوق وجهها، وقبّلته في شفتيه!

وأسكرته القبلة.. عاش طويلاً يحلم بهذه القبلة وينتظرها، ولكنها

كانت أحلى وألذ وأشهى من القبلة التي حلم بها على مدى الأيام!

ثم أعادت زبيدة الحجاب فوق وجهها من جديد!

وأفاق محمد من نشوته وقال لها:

ـ إنني أريد أن أحدثك في مسألة هامة. . لقد قررت أن أتزوجك!

وارتعشت زبيدة وقالت في دهشة!

ـ تتزوجني أنا!؟

قال محمد وهو يمسك بيدها ويضغط عليها بكفه:

ـ طبعاً. . أتزوجك أنت! إن هذا قرار لم أصدره الآن، وإنما أصدرته منذ رأيتك، منذ تسلمت المسدس. .

قالت وهي تعبث بأصابعها فوق يده:

ـ زواج عرفان الجميل!؟

قال محمد مستدركاً:

ـ وقررت أن اتزوجك عندما رأيتك بحجابك في هذه الحديقة للمرة الأولى. . وسمعتك تتحدثين!

قالت ضاحكة:

ـ الأذن تعشق قبل العين أحياناً!

قال محمد جادًا:

ـ وقررت أن أتزوجك عندما رفعت الحجاب، ورأيت جمالك الطاهر!

قالت ساخرة:

ـ ولماذا لم تخبرني منذ المرة الأولى أنك تريد أن تتزوجني؟

قال محمد:

ـ كنت أشعر أنني فقير معدم. كنت مهدداً أنا وأبي وأمي بالطرد من بيتنا. فكيف أتحدث عن بناء بيت جديد؟ ولكنني الآن أستطيع أن أفتح بيتاً. مرتبي عشرة جنيهات، وهو يكفي لأن نعيش معاً عيشة طيبة. إنني أخبرت أمي أنني أحبك وقررت أن أتزوجك. كادت أمي أن ترقص من الفرح، وقالت إنه يسرها أن تقيمي معنا في بيتنا بجزيرة بدران. وإذا أردت أن يكون لك بيت مستقل فلا مانع عند أسرتي، سأعطي أمي ثلاثة جنيهات كل شهر. هذا هو نفس المرتب الذي كان يتقاضاه أبي قبل أن يفصل من العنابر. أظن أنه يكفينا أن نعيش ملوكاً بسبعة جنيهات في الشهر!

قالت زبيدة وهي تتحسس شعر رأسها، كأنها تتحسس التاج الذي يشير إليه محمد:

ـ كنت أفضل لو أنك عرضت علي الزواج وأنت تتقاضى جنيهاً في الشهر!

قال محمد في بساطة:

ـ إنني واثق إنك تحبينني لشخصي لا لمرتبي الكبير!

قالت وهي تتنهد:

ـ ما أتعس المرأة المقطوعة الذراعين عندما تتلقى أجمل قفازين في العالم.. هدية!

قال محمد وهو يتأمل ذراعيها في إعجاب:

- إنني أضع قفازي في أجمل يدين في العالم!

قالت زبيدة في حسرة:

- إنني لا أستطيع أن أترك عملي كممرضة!

قال محمد:

- لا مانع أن تحتفظي بعملك كممرضة.. إنني أوافق عزيز ميرهم على رأيه بأنه في سنة ١٩٥٠ ستكون في مصر ثلاث وزيرات في وزارة كل وزرائها عمال..

وضحك محمد ثم قال:

- ومن يعلم.. ربما تكونين أنت وزيرة الصحة.. وأصبح أنا زوج وزيرة الصحة!

قالت زبيدة دون أن تضحك:

- إن عقدي كممرضة يمنعني من الزواج، إذا تزوجت فسأفقد وظيفتي.

قال محمد في حماس:

- يمكنك أن تستقيلي وتعملي في مستشفى آخر..

قالت زبيدة، وهي تحاول أن تغير موضوع الحديث عن عملها في المستشفى.

- ولكنني يا محمد أكبر منك بخمس سنوات.

قال محمد محتجاً:

ـ كلا.. إنها أربع سنوات وتسعة شهور فقط.. ولو كنت أكبر مني بخمسين عاماً فسوف أتزوجك، إنني لا أتزوج شهادة الميلاد، إنني أتزوج الروح!.

قالت زبيدة:

ـ كلما تقدمت السن بالمرأة، زاد الفرق بين عمرها وعمر زوجها الذي يصغرها سناً.. الفرق بيننا الآن خمس سنوات أو أربع.. ولكن بعد عشر سنوات قد يصبح هذا الفرق عشرين أو ثلاثين عاماً.. نحن النساء كالفاكهة نصاب بالعطب بسهولة. المرأة هي نوع معين من الأشجار تتساقط أوراقها بكثرة في الخريف فتبدو جرداء.. أما الرجل فأوراقه كثيرة، وعندما تسقط بعض أوراقه في الخريف تبقى أوراق كثيرة.. فيحتفظ بجماله!

فقال محمد وهو يضحك:

ـ أنت تبدين أكبر مني سناً وأنت وراء هذا الحجاب السميك.. وعندما خلعت حجابك أصبحت في العشرين من عمرك. وكلما خلعت شيئاً من ملابسك الطويلة السوداء نقصت سنوات عمرك.. وأعتقد أنك عندما تخلعين ملابسك كلها ستصبحين في الرابعة عشرة من عمرك.

وعادت زبيدة تتنهد وتقول:

ـ أخشى أن يكون زواجي عقبة في طريق حياتك. إن أمامك مستقبلاً عظيماً، ولا أريد أن تتعثر في طريقك وأنت تحمل فوق ظهرك امرأة أكبر منك سناً.. تأكد أني أتمنى من كل قلبي أن أكون زوجتك

أمام الله والناس، ولكن هذا صعب. . صعب جداً!

قال محمد معترضاً:

ـ لا يوجد شيء اسمه صعب في طريق المحبين. الحب الكبير قادر على أن يزيل العقبات ويحطم الصعوبات. . إنني انتصرت على الصعوبات الهائلة التي قابلتني وأنا أبحث عن عمل لأنني أحبك. . وأنا أؤمن بأنك تحبينني بقدر ما أحبك.

قالت زبيدة:

ـ نعم أحبك يا محمد فوق ما تتصور. . ولكن!

قال محمد بعصبية:

ـ لا شيء اسمه «ولكن» في قاموس الحب. . لو كان الأمر بيدي لحذفت هذه الكلمة «ولكن» من قاموس اللغة العربية.

قالت ضاحكة:

ـ عندما تحذف كلمة «ولكن» من القاموس سوف أتزوجك!

قال محمد جاداً:

ـ أنا لا أضحك. إنني قررت أن أتزوجك فوراً. .

وصرخت زبيدة في جزع:

ـ فوراً؟

قال محمد في تأكيد:

ـ نعم فوراً. . وأريد أن أعرف عنوان بيتك، لتذهب أمي وتخطبك من أمك غداً. .

قالت زبيدة في حسرة:

ـ إنها لن تجد أمي . . أمي ماتت.

ولم يلحظ محمد الدمعة التي سقطت على جفون زبيدة، فمضى يقول في حماس:

ـ إذن، سآخذ أبي معي، وأذهب وأخطبك من أبيك . . سأذهب له صباح الغد، ونعقد القران بعد ظهر الغد، ويتم زفافنا مساء الغد!

ولمعت عينا زبيدة، رأت نفسها فجأة وكأنها في ثوب زفافها، ومحمد بجوارها، وسمعت صوت دفوف مسحورة تعزف أنشودة العروس «اتمخطري يا حلوة يا زينة . . يا داخلة من جوه جنينه»!

ورأى محمد الفرحة في عيني زبيدة التي جفت دمعتها فقال:

ـ إنني أعددت كل شيء . . حصلت على إجازة من مدرستي ومن عملي لمدة ثلاثة أيام . . أظن أنه ممكن أن نختصر شهر العسل الرسمي إلى يومين، لأن حياتنا كلها ستكون شهور عسل متواصلة.

وارتعشت زبيدة، وكأنها أفاقت فجأة من الحلم اللذيذ وقالت:

ـ وإذا رفض أبي؟

قال محمد في تصميم:

ـ إن عمرك الآن ٢٥. لست قاصراً. القانون يحمي تصرفاتك. إن من حقك أن تتزوجي من تشائين برغم اعتراض أبيك . . إذا رفض أبوك نذهب فوراً إلى المأذون ونضع والدك أمام الأمر الواقع.

قالت زبيدة:

ـ إنني مسؤولة يا محمد عن حياة سبعة أشخاص . . أبي وستة أطفال صغارهم أخوتي وأخواتي . . لو تزوجتك فسوف أفقد عملي كممرضة، وسوف يتضور هؤلاء السبعة جوعاً . . ولهذا سوف يرفض أبي بطبيعة الحال أن أفقد عملي كممرضة لأنه رأس مالنا نحن الثمانية . إنني على استعداد لأن أضحي بحياتي من أجل أن أتزوجك ولكنني لا أملك أن أضحي بحياة سبعة أشخاص أبرياء!

قال محمد في ضيق، وقد أحس بأن ظروفها حاصرته :

ـ إنني ضحيت من أجلك بمرتب سبعين جنيهاً في وظيفة أمين محفوظات في سفارة مصر بروما، لأنني رفضت أن أذهب إلى هناك وأتخلى عنك. وقد قمت بهذه التضحية في الوقت الذي كان فيه أبي وأمي يتضوران جوعاً، وكانت أمي تبيع نحاس البيت، والسرير الذي أنام عليه .

قالت زبيدة :

ـ لماذا لم تخبرني بهذا؟ قلت لي إنك قصصت علي كل شيء في تاريخ حياتك!

قال :

ـ هذه هي القصة الوحيدة التي احتفظت بها لنفسي، لأنني لم أرد أن أفاخر بتضحيتي. إننا عندما نعلن تضحياتنا نعلن هذه التضحيات. وها أنت ترفضين التضحية بوظيفتك . . مع أنه من السهل جداً أن تجدي عملاً كممرضة في أي مكان آخر!

قالت زبيدة متوسلة :

ـ أعطني فرصة يا محمد. . أعطني مهلة. . حتى أمهد الأمر.

قال محمد:

ـ أعطيك ٢٤ ساعة فقط!

قالت زبيدة مستعطفة:

ـ ٢٤ ساعة لا تكفي يا محمد. . إنني في حاجة إلى مهلة مدتها سنة. . !

وصرخ محمد كالمجنون:

ـ سنة؟ هل جننت؟ إنني لا أستطيع أن أنتظر سنة!

قالت له:

ـ لو أنك أخبرتني منذ مقابلتنا الأولى أنك تريد أن تتزوجني، لأمكنني أن أبدأ في التمهيد على الفور، ولكانت مدة المهلة التي طلبتها قد ضاقت بعض الشيء. .

قال محمد في حزم:

ـ إنني أعطيك مهلة أسبوع. . إنني أريد أن أسألك سؤالاً واحداً محدداً: هل تريدين زواجي أم لا؟. أريد إجابة في كلمة واحدة نعم أو لا. . ؟

قالت زبيدة:

ـ أنت تعلم جيداً أنني أتمنى أن أتزوجك!

قال محمد:

ـ إذن لماذا هذه المهلة. . أيحتاج والدك لسنة كاملة لإقناعه؟ هل أبوك هو عصبة الأمم؟ وهل زواجنا هو إلغاء الامتيازات الأجنبية

ويحتاج إلى عام لإقناع دول العالم بإلغائها؟ إن أسبوعاً هو مدة طويلة جداً.. يكفي أنني انتظرت طوال هذه الشهور!

ولمعت عينا محمد، وعادت إليه لهجته الآمرة، التي تبرز فيها جاذبيته وشخصيته القوية المسيطرة:

- إن هذا هو أول أمر أصدره إليك، باعتباري زوجك. يوم الأربعاء القادم ستكونين قد انتهيت من إقناع أبيك بهذا الزواج.. فإذا لم يقتنع فسنذهب إلى المأذون ونتزوج بالرغم منه!

وسكتت زبيدة ولم تتكلم..

وصاح فيها محمد:

- هل سمعت ما قلت؟

قالت زبيدة في خضوع:

- نعم!

قال محمد في نفس اللهجة الآمرة:

- وهل ستفعلين ما أمرتك به؟

قالت زبيدة:

- إنني مستعدة أن أذهب خلفك يا محمد إلى آخر الدنيا!

وأراد محمد أن يقبلها فقالت له زبيدة:

- دع القبلة ليوم الأربعاء القادم!

■ ■ ■

وأشرقت شمس الأربعاء، وبدأ محمد يتصرف كعريس. إنه

حصل في السابق على إجازة ثلاثة أيام من ناظر مدرسة الاسماعيلية، بحجة أنه مشغول في مسائل هامة في مكتب الأستاذ عزيز ميرهم، وحصل على إجازة ثلاثة أيام من الأستاذ عزيز ميرهم لأنه سيتزوج، وأقرضه عزيز ميرهم عشرين جنيهاً يستعين بها على مصاريف الزواج. على أن تسقط على عشرين شهراً!

وارتدى بذلته الجديدة. واشترى لأبيه بذلة جديدة ليصحبه إلى والد زبيدة ليطلب يدها، وحلق شعر رأسه وذقنه عند الحلاق، ونظر إلى وجهه وجسمه في المرآة مئات المرات، أكثر من مجموع المرات التي تطلع فيها للمرآة طوال حياته. وأبى أن يذهب إلى موعد زبيدة ماشياً على الأقدام، وأبى أن يركب الترام، وأصر على أن يركب سيارة تاكسي. هذا اليوم هو أعظم يوم في حياته، فإذا لم يركب التاكسيات في هذا اليوم فمتى يركب التاكسيات؟.

وذهب إلى حديقة الجبلاية في الجزيرة قبل الموعد بساعة، وجلس في مقعده المعتاد ينتظر زبيدة..

ثم غافل حارس الحديقة، وقطع وردة حمراء جميلة من إحدى الشجرات، وعلقها في عروة الجاكتة..

وانتظر.. وانتظر.. وانتظر.. وانتظر طويلاً!

ولكن زبيدة.. لم تحضر!

■■■

لم تحضر زبيدة، وبدأ الظلام يغمر الحديقة، كما غمر قلب محمد، وجاء حارس حديقة الجبلاية يقول:

ـ الساعة الآن السابعة . . موعد إغلاق الحديقة .

كان صوت الحارس يشبه نعيق البوم . وتلفت محمد حوله في ذهول ، فرأى الحديقة خلت من الناس فجأة . حتى الخضرة والأشجار اختفت وراء الظلام . لم يبق في الحديقة سواه، وسوى القرود والحارس . كل قرد سيجد أليفته داخل القفص . الحارس سيعود إلى بيته فيجد زوجته في انتظاره . وهو وحده الذي سيهيم في الليل بغير زوج أو أليف . وارتجف في مكانه ، ثم قام من مقعده في تثاقل ، وخرج من باب الحديقة يتعثر في مشيته ، كأنه يريد أن يؤخر في خطواته ، يبطىء فيها ، ربما تجيء زبيدة !

ويغلق الحارس باب الحديقة ، ويتسمر محمد أمام الباب . لن يعود إلى بيته ، سوف ينتظرها هنا ، لا بد أنها ستجيء . ويستنجد محمد بآخر شعاع من أشعة الشمس الغاربة قبل أن تغيب في الظلام . يتوسل إلى هذا الشعاع أن يتمهل ، أن يتوقف قليلاً ، إنها قادمة الآن ، إنها في الطريق . ولكن الشعاع الأخير لم يسمع نداءه فيغوص في مياه النيل ، تاركاً محمد وحده في الظلام .

ويحس محمد أنه يغرق مع هذا الشعاع الأخير في النيل . كل دقيقة تمر يرتفع الماء ويغمر جزءاً منه . الماء الآن يغطي قدمه ، يرتفع إلى ساقه ، يصل إلى ركبته ، يعلو إلى وسطه . . لا يكف ماء اليأس عن الارتفاع ، إنه يكاد يغرق ، الماء يصل إلى عنقه . ثم يتوقف الماء ، ثم ينحسر قليلاً أمام خطوات قادمة . إنها خطوات امرأة ، إنها خطواتها هي ، ثم يتبين الشبح في الظلام فإذا بها سيدة عجوز تسحب طفلاً في يدها !

لعلها ستجيء الآن . لعلها تأخرت في المستشفى بسبب عملية جراحية مفاجئة . ويعيش في هذا الأمل لحظات . وتبدأ مياه اليأس

والقنوط في الانحسار، ثم يموت هذا الشعاع بين يديه عندما يقول لنفسه إنه لو حدث هذا العذر المفاجىء لاستطاعت زبيدة أن توفد إحدى زميلاتها الممرضات لتعتذر له عن تخلفها.

لعل حادثاً وقع في الطريق، وعطل عربات الترام والأتوبيس. ولكن كان يمكنها أن تستقل تاكسي في يوم زواجها كما فعل هو. لعلها ذهبت إلى الحلاق ليزين شعرها بمناسبة هذا اليوم العظيم؟ لا يمكن أن يستغرق تصفيف الشعر كل هذا الوقت الطويل. لغلها ذهبت إلى الخياطة لتصنع ثوباً للزفاف، وتأخرت في البروفات؟ مستحيل أن تستغرق البروفات كل هذه الساعات.

خلق محمد لزبيدة كل عذر يمكن أن يخطر بباله، ثم نقض هذا العذر. كان قلبه يتهمها ويدافع عنها. تتوالى فيه أحكام البراءة والإدانة مع كل نبضة من نبضاته!

وراح محمد يمشي أمام باب الحديقة ذهاباً وإياباً.. يرقص قلبه كلما سمع خطوات قادمة.. ويموت قلبه عندما يتبين أن صاحبة الخطوات ليست زبيدة..

وفجأة سمع خطوات بطيئة تقترب منه، إنها هي. والتفت وراءه في لهفة. ووجد أمامه جندي بوليس. وتقدم نحوه وقال له محمد في صوت يقطر دماً:

ـ كم الساعة؟

واقترب الجندي من مصباح، وأخرج ساعة كبيرة من صدره، وقال:

ـ إنها الآن الساعة الثانية عشرة، بمنتصف الليل تماماً.

ولم يصدق محمد، ومد عنقه يتطلع إلى الساعة في يد الجندي، فرأى عقرب الدقائق يطبق على عقرب الساعات.

وتنهد محمد في أسى. مضت عليه ست ساعات ينتظر في الحديقة، وأمام باب الحديقة!

وأحس كأن عقربي الساعة أشبه بسيفين يقطعان أحلامه وأمانيه!

■■■

ومشي يتخبط في الظلام، ووجد نفسه في شارع فؤاد الأول أمام جمعية الإسعاف. إن قلبه يحدثه أن حادثاً وقع لزبيدة. كانت قادمة إلى موعده، وكانت في عجلة أن تذهب إليه لتبلغه موافقة أبيها على زواجها. ولم تر إشارة المرور الحمراء، وهي تعبر الشارع فصدمتها سيارة.

وقرر محمد أن يدخل جمعية الإسعاف ليستفسر من قسم الحوادث عن الحوادث التي وقعت بعد ظهر اليوم. وسأل سكرتير القسم هل وصل إليه بلاغ عن حادث لفتاة وقع بعد ظهر اليوم؟

ووضع السكرتير نظارته على عينيه، وراح يقلّب صفحات دفتر كبير أمامه.. ثم قال: إن حوادث اليوم كلها وقعت لرجال!

واستدار محمد ليخرج.. وفجأة سمع سكرتير الإسعاف يقول له:

- إنتظر.. إن آخر بلاغ تسلمناه الساعة الخامسة والنصف بأن امرأة صدمتها سيارة أوتوبيس!

وانخلع قلب محمد. وعاد السكرتير يقرأ: وقع الحادث في شارع شبرا.

واستند محمد على مكتب السكرتير يمنع نفسه من السقوط! إنها هي! إن قلب المحب لا يمكن أن يكذب أبداً! الساعة الخامسة والنصف هي موعد خروجها من بيتها في شبرا لتلحق بموعده في الساعة السادسة.

وسمع السكرتير يقول: وعندما وصلت سيارة الإسعاف وجدتها حيّة.. وأسرعت بها سيارة الإسعاف إلى مستشفى قصر العيني، ولكنها توفيت قبل وصولها إلى المستشفى بخمس دقائق!

وتهاوى محمد.. واستجمع قواه وقال في صوت متحشرج:

ـ ما اسمها؟

قال السكرتير وهو يثبت نظارته فوق أنفه:

ـ اسمها زليخا دحروج عاشور..

وفرح محمد. إن اسم حبيبته هو زبيدة! وخطر فجأة برأسه خاطر أسود. قد تكون زبيدة كذبت عليه، واستبدلت باسم «زليخا» الشعبي اسم «زبيدة» وهو اسم متوسط الشعبية!

وعاد محمد يسأل السكرتير: وهل مكتوب في البلاغ وصف ملامحها؟ هل هي سمراء أم بيضاء؟ طويلة أم قصيرة؟

قال السكرتير ببرود: مثل هذه الأوصاف لا تكتب في الدفتر كل ما هو مكتوب هنا أن المصابة عمرها حوالى ستين سنة!

وإذا بمحمد يهجم على السكرتير ويقبّله ويقول له:

ـ عمرها ستون سنة؟! ألف مبروك! ألف مبروك..

ونظر السكرتير إلى محمد في دهشة، وقد تصور أن الشاب فقد عقله! وفي تلك اللحظة دخل أحد متطوعي الإسعاف، وهجم عليه محمد يقبّله وهو يقول:

ـ عمرها ستون سنة! عمرها ستون سنة! ألف مبروك!

وتركهما محمد في ذهول. وقال السكرتير وهو يشير بيده، بأصابعه الخمس، ويديرها، علامة الجنون!

إنه يرقص من الفرح لأن سيارة قتلت سيدة عمرها ستون سنة!

وما كاد محمد يغادر باب جمعية الإسعاف حتى توقف عن الرقص. عادت إليه كآبته من جديد.. راح يسأل نفسه إذا لم يكن وقع لها حادث، فلماذا لم تحضر في الموعد؟ وأحس بأنه يغوص في بحر اليأس من جديد.. لم تعد قدماه تقويان على حمله، فقد عادت الهموم تتراكم فوق رأسه من جديد.

ومشى في الشارع ينظر إلى وجوه الناس باحثاً فيها عن وجه زبيدة. وهيّأ له الوهم أن كل المارة يشيرون إليه بأصابعهم ويضحكون! وكأنه يسمعهم يقولون في صوت واحد ساخرين: هذا العريس الذي تركته عروسه ينتظر! توهّم أن السجائر في شفاه المارة هي السكاكين التي ذبحوه بها. توهّم أن الأحمر في شفاه كل النساء هو قطرات دمه في أفواههم. كلمات المارة أفاع ترقص في الهواء وتريد أن تلدغه. بوق السيارات هو نعيب أسراب البوم والغربان جاءت تشيّع جنازته!

ومضى يقطع الشوارع حتى الصباح، ولم يعرف إلى أين يذهب؟ لا يستطيع أن يذهب إلى بيته في جزيرة بدران لأن أباه وأمه سيسألانه عن موعد عقد القران. لن يذهب إلى مكتب عزيز ميرهم لأنه سيقرأ في عينيه قصة العريس الذي خاب في ليلة الزفاف. وعندما مر بخاطره

اسم عزيز ميرهم شعر كأنه رأى شعاع الشمس وقد عاد فجأة، يجب أن يذهب فوراً إلى مكتب عزيز ميرهم. لو أن زبيدة أرادت أن تتصل به فإنها ستتصل به في تليفون مكتب عزيز ميرهم. إنها تعرف أنه يعمل في المساء. ستجد رقم تليفون عزيز ميرهم بسهولة في دفتر التليفون.

وأسرع في خطاه إلى المكتب. واستقبله عزيز ميرهم بدهشة وقال له: هل انتهى شهر العسل بهذه السرعة؟

قال محمد إنه لم يتزوج بعد، وأن خطيبته ستتصل به الآن تليفونياً لتخبره عن الساعة التي سيتم فيها عقد القران.. وأنه يرجوه أن يستدعيه فوراً إذا سألت عنه آنسة في التليفون!

وذهب محمد إلى غرفته المجاورة لغرفة الأستاذ عزيز. وجلس وحاول أن يقطع الوقت بالعمل، فلم يستطع. كان كله آذاناً تنتظر رنين جرس التليفون..

وقفز من مقعده.. ودخل إلى مكتب الأستاذ عزيز، فوجد السماعة على أذنه وهو يقول:

ـ أهلاً.. أهلاً.. يا مكرم بك!

وفهم أن الأستاذ مكرم عبيد سكرتير الوفد هو الذي يتحدث، وليست زبيدة، فعاد يجر قدميه إلى مكتبه..

وطالت المحادثة التليفونية. وتضايق محمد من أن مكرم عبيد يشغل التليفون! صحيح أنه يتحدث عن الترتيبات الخاصة بمقاطعة الانتخابات، ولكنه هو الآخر ينتظر موضوعاً هاماً خطيراً هو سر تأخر زبيدة عن موعدها!

وانتهت المحادثة. وسمع صوت السماعة والأستاذ عزيز يضعها على

آلة التليفون وتنفّس محمد الصعداء.

ودقّ جرس التليفون مرة ثانية، وقفز محمد من مقعده، فإذا هو الدكتور أحمد ماهر، ومرة ثالثة فإذا هو الأستاذ محمد توفيق دياب صاحب جريدة «الجهاد» ومرة رابعة فإذا المتكلم الأستاذ محمود فهمي النقراشي!

وضاق محمد بزعماء الوفد جميعاً، وبالوفد كله، ألم يجدوا يوماً يحدّثون فيه عزيز ميرهم في التليفون إلّا هذا اليوم العصيب؟ إنه يعمل في هذا المكتب منذ شهور ولم يحدث في يوم من الأيام أن دقّ جرس التليفون كما دقّ في هذا اليوم!

لا بد أن زبيدة مضت عليها ساعات تطلبه في التليفون وتجد الرقم مشغولاً..!

وصمت رنين التليفون، واستراح محمد. وحلّت ساعة الغداء، وتهيّأ الأستاذ عزيز لإغلاق المكتب ليذهب ويتناول غداءه، فقال له محمد إنه سيبقى في المكتب..

وجلس محمد في غرفة الأستاذ عزيز بجوار التليفون ينتظر المكالمة الموعودة. لم يكتشف أنه لم يتناول عشاء في اليوم السابق، ولم يتناول إفطاراً اليوم، ولا غداء.. اليوم الخميس والأستاذ لا يحضر بعد ظهر الخميس، ولا يوم الجمعة. سيبقى جالساً بجوار التليفون ينتظرها.

وتذكر أنه لم يخبر والديه بأنه سيبيت خارج البيت، لا بد أن والده يبحث الآن عنه كما يبحث هو عن زبيدة. لا بد أنه ذهب هو الآخر إلى الإسعاف ليسأل عن الحوادث التي أصيب فيها شبان في يوم الأربعاء. لا بد أن قال أحد أمثاله الشعبية عندما لم يجد اسمه بين المصابين في دفتر الحوادث..

ودق جرس الباب، وأسرع يفتحه، فوجد والده أمامه.. وعانقه الأسطى حنفي في لهفة وهو يقول «مسير الحي يتلاقى»!

وقال محمد معتذراً بأن الأستاذ عزيز كلفه بأعمال هامة جداً، تقتضي أن يبقى في المكتب ثلاثة أيام متوالية!

قال المعلم حنفي: وزبيدة؟

قال محمد متلعثماً:

ـ زبيدة؟ نعم زبيدة! إنني فكّرت في أن أؤجل بعض الوقت. نحن الآن في وقت كفاح لا وقت زواج. العشق ممكن في كل وقت، ولكنه وقت الجهاد الآن!

وتطلع محمد في عيني أبيه، فوجد أنهما لا تصدقانه. قرأ فيهما ألماً صامتاً وعذاباً وخيبة أمل، وكأنه يطل بصورته في المرآة!

وتنهّد المعلم حنفي وقال في آهة حزينة:

ـ خسارة زبيدة! إن قلبي كان يقول إنها تحبك! المثل يقول «اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش»!

قال محمد بعصبية:

ـ ولكن هل أنت عرفتها؟

قال المعلم حنفي وصوته يقطر تعاسة:

ـ عرفتها في عينيك يا بني، عندما كنت تتحدث عنها.. عرفتها في نغمات صوتك وأنت تنطق باسمها.. إنها خسارة، خسارة كبرى!

وضاق محمد بإعجاب أبيه بالمرأة التي داست على قلبه يوم زفافه فقال:

ـ إنني اكتشفت أنها لا تصلح لي! إن لها تجارب في العشق!
وضحك المعلم حنفي وقال:

ـ إن للمطربة نعيمة المصرية أغنية مشهورة تقول فيها:

ـ ما تخافش عليا.. أنا واحدة سجوريا!

في العشق يا روحي.. واخده البكالوريا!

قال محمد في استغراب:

ـ هل تقبل يا أبي أن أتزوج فتاة تحمل بكالوريا في العشق!؟

قال المعلم حنفي:

ـ أنا لا أصدق أنها تحمل بكالوريا في العشق.. هذا اسم فاضلة لا اسم راقصة.. أنت الذي تحمل بكالوريا في العشق لا هي!

وتركه المعلم حنفي وانصرف..

وبقي محمد في مقعده مذهولاً! ما الذي جعل والده يدافع عن زبيدة كل هذا الدفاع، وما الذي جعله يكيل لها الاتهامات الكاذبة؟ إنه لم يكن يصف زبيدة، إنما كان يصف نجوى المناسترلي!

إن قلبه يقول له إنها لا تحمل شهادة البكالوريا في العشق، ولا حتى الشهادة الابتدائية.. إنها تحمل شهادة الميلاد في العشق. وهو الذي كتب بفمه هذه الشهادة على شفتيها.. لماذا يظلمها؟ لأنها ظلمته.. لأنها تجاهلت يده الممدودة بأشرف دعوة في الدنيا. لأنها لم تحضر إلى موعد حديقة الجبلاية، لأنها لم تطلبه في التليفون حتى الآن!

ألأننا عندما نحب نظلم الناس، ونظلم الذين لا ينفذون إرادتنا؟

صدقي باشا يحب السلطة، ولهذا يملأ السجون بالأبرياء! عوني باشا حافظ يعبد السلطة، ولهذا يقتل عمال العنابر الشرفاء!

أيكـون محمد أصبـح طاغيـة هـو الآخـر دون أن يـدري، إنـه اتهم زبيدة، وحاكمها، وحكم عليها دون أن يسمع منها كلمة دفاع. إن الحب يعمينا كما تعمينا السلطة.. يجعلنا نقسو على من يخالفوننا في رأينا.. يجعلنا نلطخهم بالطين ونحن نعلم أنهم أشراف.. نلفق لهم التهم ونحن نؤمن بأنهم أبرياء..

إنه دون أن يشعر فعل بزبيدة ما فعلته به نجوى. نجوى لطخته بالأكاذيب عندما أبى أن يكون عشيقاً لها، وهو لطخ زبيدة بالأكاذيب عندما لم تنفذ الأمر الذي أصدره إليها بأن تتزوجه يوم الأربعاء.. إنه تحمل من نجوى الاتهام الظالم لأنه وقف موقفاً مشرفاً، وما يدريه أن زبيدة تقف الآن موقفاً مشرفاً كالذي وقفه؟ إنه يفعل بها نفس ما فعله عوني حافظ باشا بأبيه عندما ضربه بالسياط لأنه لم يعترف بقتل وزير الحربية!

وقرر أن يعطي زبيدة فرصة للدفاع عن نفسها.. إنه يأبى أن يكون ظالماً مثل نجوى أو مثل عوني باشا حافظ!

وخرج من المكتب ليستأنف البحث عن زبيدة من جديد..

وبدأ البحث في جزيرة بدران. لقد التقى بها أول مرة في حارة متفرعة من شارع حوض الزهور. لا بد أنها تسكن هناك، أو أنها كانت تزور قريبة لها تسكن هناك..

وبدأ يطرق أبواب شارع حوض الزهور والحواري المتفرعة منه، باباً باباً، يسأل كل بيت عن ممرضة شابة اسمها زبيدة. وكان الجواب

المتكرر أنه لا توجد فتاة بهذا الاسم!

كان يتطلع في وجه كل امرأة. كان يقف الساعات الطويلة صباح كل يوم في شارع حوض الزهور وشارع يوسف عيروط، وشارع جزيرة بدران. يحملق في الوجوه بحثاً عنها، بلا جدوى!

ولم ييأس محمد من فشله، فراح يطوف بجميع مستشفيات القاهرة واحداً واحداً يبحث عن ممرضة اسمها زبيدة. ثم يقف أمام أبواب المستشفيات يرقب الممرضات في دخولهن وخروجهن لعله يرى زبيدة في واحدة منهن!

وأهمل مدرسته، وأهمل عمله، وأصبح الأستاذ عزيز ميرهم كلما رآه يداعبه بقوله:

ـ لم يدق جرس التليفون بعد!

وأصبح محمد جثة بلا روح، موظفاً بلا عمل، اسماً بلا مسمى. أصبح يكره كل ممرضة وكل امرأة وكل مستشفى وكل آلة تليفون.

واستدعاه عزيز ميرهم ذات يوم وقال له:

ـ عندي دواء سحري للحب الفاشل!

قال محمد: ما هو؟

قال عزيز: العمل. . الفشل في الحب صنع العباقرة! المثل الذي يقول إن وراء كل عظيم امرأة، هو مثل غير صحيح. إن صحة المثل هو أن وراء كل رجل عظيم امرأة طعنته في ظهره!

وجعلته هذه الكلمة يفيق فجأة من غيبوبة الهزيمة. كانت أشبه بالقشة التي تعلق بها قبل أن يبتلعه بحر اليأس!

وعاد يعمل بكل عقله وقلبه وأعصابه . . وساعده على ذلك اقتراب موعد الانتخابات التي أعلنت المعارضة مقاطعتها . . .

■ ■ ■

وفي يوم الانتخاب لزم الناس بيوتهم . رفضوا أن يدلوا بأصواتهم . أضرب عمال الترام . أضرب عمال العنابر . أضرب سائقو التاكسيات . خلت المدن فجأة من الناس ، أصبحت مدناً مهجورة ، لا ترى في شوارعها إلا جنود الجيش والبوليس المسلحين . . بقيت لجان الانتخابات خالية . أوراق الانتخاب بيضاء لا تجد من يملؤها .

ثم سمع الناس أن الأوامر صدرت من الحكومة إلى الموظفين الذين يديرون لجان الانتخاب ، بأن يزوّروا النتائج ، وأن يسجلوا أن الشعب أدلى بأصواته ، وبدأ هؤلاء ينفذون الأوامر الصادرة ويحولون ملايين الغائبين إلى ملايين الحاضرين !

وخرج الشعب فجأة على لجان الانتخاب ، وانقض عل المزورين ، يمزق الأصوات المزيفة ، ويهاجم المزورين . وقامت معارك عنيفة سقط فيها قتلى وجرحى . وقلبت الجماهير الغاضبة عربات الترام وأحرقتها ، واقتلعت الأشجار وفوانيس النور في الشوارع وقامت معارك عنيفة في كل مدينة وقرية ، وفي كل حي وشارع . الشعب يقاتل بالطوب والجنود يقاتلون بالبنادق والمدافع ، وسقط قتلى . . في كل مكان .

وكانت اللجنة المشرفة على مقاطعة الانتخابات كلفت محمد أن يشرف على حركة المقاطعة في مدينة ميت غمر . .

واستطاع محمد أن ينظم المقاطعة تنظيماً رائعاً . فلم يخرج من الألوف من سكانها فرد واحد على إجماعها .

ثم علم محمد أن مدير الدقهلية اتصل تليفونياً بلجان الانتخاب في دائرة ميت غمر، وأصدر أمره إلى رؤساء اللجان أن يقوموا بعمليات التزوير ويثبتوا في دفاترهم كذباً أن أغلبية أهالي ميت غمر حضرت الانتخابات . .

وطلب محمد من الأهالي أن يهاجموا مقار لجان الانتخابات ويخطفوا صناديق الانتخاب . .

وسمع محمد أن كثيرين من أعضاء اللجان رفضوا أن يقوموا بالتزوير، ولكن رئيس لجنة قرية قراديس أثبت أن مائة في المائة من الأهالي أدلوا بأصواتهم، مع أن واحداً منهم لم يغادر بيته في ذلك اليوم .

وأسرع محمد إلى قرية قراديس .

واشترك مع الأهالي في الهجوم على دائرة الانتخاب . .

وتصدى البوليس للأهالي فهاجموه، وانتزعوا البنادق من أيدي الجنود، وقبض الشعب على الجنود!

واستغاث رئيس لجنة الانتخاب بمدير الدقهلية، فأرسل المدير قوة ضخمة مسلحة برئاسة الصاغ عبد المجيد الشريف مساعد حكمدار الغربية .

وأحاطت القوة الضخمة بالجماهير الغاضبة .

وسمع محمد الصاغ عبد المجيد الشريف يقول للجنود :

ـ عاملوا المتظاهرين برفق، حاولوا أن تجعلوهم ينصرفون بالحسنى!

وسرّ محمد من موقف الضابط عبد المجيد الشريف، وكان قد رأى صورته في الصحف بأنه الضابط الذي احتضن سعد زغلول عندما

أطلق عليه محمد عبد الخالق الرصاص في محطة مصر، وحمل الزعيم وهو مضرّج بدمائه وتلوثت ملابسه بدم سعد، واحتفظ بهذه الملابس طوال هذه السنوات كأنها أكبر وسام حصل عليه في حياته.. وقال محمد لنفسه إنه ليس عجيباً أن الضابط الذي رأى دم زعيم الشعب يسيل على ملابسه يرفض أن يأمر بإراقة دم الشعب.

وفجأة صاح أحد الأهالي:

ـ مصيرك مصير الملك ألفونسـو.. يا فؤاد!

وكان شعب إسبانيا قد ثار في تلك الأيام على الملك ألفونسو ملك اسبانيا وأرغمه على التنازل عن العرش والفرار من بلاده..

ولم يكن أحد من أهالي قرية قراديس قد سمع عن الملك ألفونسو أو إسبانيا.. ولم يفهموا معنى كلمة «مصيرك مصير الملك ألفونسو.. يا فؤاد» كل ما فهموه هو أن يهتفوا بسقوط الملك فؤاد المجرم..

ودوت أصوات الألوف تهتف بسقوط الملك فؤاد المجرم!

وإذا بمأمور مركز ميت غمر يصيح في الجنود:

ـ أطلقوا عليهم الرصاص!

وأسـرع الصاغ عبـد المجيد الشـريف مساعـد الحكمـدار يقـول للمأمور:

ـ لماذا تصدر هذا الأمر؟ أنا قلت ألا يطلق أحد النار!

وصاح مأمور ميت غمر:

ـ إن لدي أمراً من عوني باشا حافظ وزيـر الدولـة المشرف عـلى

الإنتخابات بإطلاق النار إذا سمعت هتافات عدائية!

واتجه المأمور يصيح في الجنود وسط اعتراضات مساعد الحكمدار:

ـ أطلقوا النار!

وصدع الجنود بأمر المأمور، ولم يطيعوا أمر الحكمدار وأطلقوا النار على الرجال والنساء والأطفال. .

وجنّ جنون أهل القرية. . وانقضوا على الضباط والجنود يضربونهم بالحجارة والنبابيت. .

وهرب المأمور الذي أمر بإطلاق النار إلى بيت عمدة القرية واختبأ في البيت. .

أما عبد المجيد الشريف الذي أصدر أمراً بمنع إطلاق النار فقد انهال عليه الأهالي الغاضبون بالنبابيت حتى أسلم الروح!

وجاءت قوة من الجيش وأنقذت المأمور والجنود من أيدي الفلاحين الغاضبين. .

وعاد محمد إلى القاهرة سعيداً بانتصار الشعب في المعركة. . ولكنه كان تعيساً. إن الرجل الذي أمر بقتل المضربين نجا من الموت، وإن الرجل الذي رفض قتل المصريين، هو الذي قتله المصريون الغاضبون. . فالذين يسقطون بأيدي الشعوب في معاركها، قد لا يكونون دائماً هم الجلادين. . أحياناً يسقط الضحايا الأبرياء!

وفوجىء محمد في اليوم التالي ببلاغ رسمي يصدره اسماعيل صدقي باشا يشكر فيه الشعب على أنه اشترك في الانتخابات. . ويعلن أن نسبة الذين أدلوا بأصواتهم هم ٦٧ في المائة وسبعة أثمان! وزادت دهشته

عندما رأى أن البيان الرسمي يقول إن ٩٩ في المائة من ناخبي ميت غمر أدلوا بأصواتهم، بينما هو رأى بعينه أن ناخباً واحداً في المدينة كلها لم يذهب إلى مقر لجنة الانتخاب إلا لضرب أعضاء اللجنة المزورين!

وكان يعذب محمد أن المعركة التي أشرف عليها انتهت بمقتل الضابط الذي رفض إطلاق الرصاص على الشعب. العصي في أيدي الجماهير الغاضبة عمياء، لا تبصر، لا يهمها من تضرب، كل ما يهمها أن تضرب وتضرب، شأنها شأن البنادق في أيدي الجنود في المعارك، إنها هي الأخرى تصاب بالعمى، كثيراً ما يخطىء رصاصها القائد الذي أعلن الحرب، وتصيب جندياً يعارض الحرب ويؤمن بالسلام!

وكان يدهشه التحول الغريب الذي رآه في قرية قراديس. عندما ذهب إلى القرية قبل الانتخاب، فوجىء بسلبية الأهالي، وعدم مبالاتهم. وأسقط في يده، واعتقد أن هذه القرية وحدها ستخرج عن إجماع قرى ميت غمر وتصوّت في الانتخابات. وفوجىء بأن هؤلاء اللامبالين يتغيرون فجأة يوم الانتخابات، ويردون على تهديد العمدة بالبقاء في بيوتهم، ويردون على تزوير الانتخابات بمهاجمة صناديق الانتخاب، وتتحول هذه القطط الوديعة إلى نمور مفترسة عندما ترى الرصاص ينطلق إلى صدور نسائها وأطفالها. الطغيان هو الكبريت الذي يشعل نيران الثورات. هو الذي يحول اللامبالين إلى ثوار، ويجعل من المتفرجين مقاتلين. الرصاص غالباً يصيب الأبرياء. ويدفعهم هذا الرصاص دفعاً إلى أن يتحولوا إلى ثوار ومقاتلين. كل ثورة مدينة بحياتها للذين حاربوها، ولو أنهم تركوها وشأنها لماتت في طفولتها بالشيخوخة!

■ ■ ■

وانهمك محمد مع لجنة مقاطعة الانتخابات في جمع الوثائق

والمستندات التي تثبت تزوير الانتخابات، وكان مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد قد قرر أن يتقدم ببلاغ إلى النائب العام يتهم فيه اسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء بتزوير الانتخابات ويطلب محاكمته أمام محكمة الجنايات.

ووقع في أيدي اللجنة عدد من الوثائق الخطيرة، تعليمات من المديرين إلى مأموري المراكز بالتزوير، أوامر بأن يعتبر الناخبون الذين ماتوا أحياء، اشتركوا في التصويت، قضاة ووكلاء نيابة ورجال بوليس اشتركوا في تقديم هذه الوثائق التي تدين الحكومة بطبخ الانتخابات.

وكان بين الذين يترددون على مكتب عزيز ميرهم شابان متحمسان، أحدهما مسيحة أفندي، والآخر هو الشيخ زكي..

وكان مسيحة أفندي طويل القامة يضع على رأسه طربوشاً قصيراً، وفوق عينيه نظارة زجاجية، وكان إذا تحمس اهتز الطربوش، واهتزت النظارة كأنهما يشاركان مسيحة أفندي في الثورة على الطغيان والاستبداد.

وكان الشيخ زكي يضع على رأسه عمامة بيضاء، وتبدو عليه علامات التقى والورع، وكان يجد دائماً من آيات القرآن ما يصف به الطاغوت إسماعيل صدقي، وفرعون الملك فؤاد. والشيطان الرجيم عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية.

وكان مسيحة أفندي صديقاً حميماً للشيخ زكي، وكان محمد معجباً بصداقتهما، ويراها أشبه بعلم ثورة سنة ١٩١٩ الذي كان يتعانق فيه الصليب مع الهلال.

وكانا يمتازان عن كل المترددين على مكتب عزيز ميرهم، بأنهما

أكثرهم حماسة، وإخلاصاً، وتفانياً في خدمة قضية الشعب.. واستطاعا أن يدخلا إلى قلب محمد عندما سمعهما يقولان في حماس إن كل ما يفعله الوفد من مقاومة هو كلام فارغ. يجب أن يعود الجهاز السري الذي كان يرأسه الدكتور أحمد ماهر أثناء ثورة ١٩١٩ إلى الظهور من جديد. يجب أن يرد الشعب على أعدائه المسلحين بالرصاص، بنفس السلاح الذي يحملونه.. إن الرجل المجهول الذي أطلق الرصاصات على عوني باشا حافظ أفاد الشعب أكثر مما أفادته المظاهرات والاحتجاجات والبيانات..

كان عزيز ميرهم يخالفهما في هذا الرأي، ويقول إن سنة ١٩٣١ غير سنة ١٩١٩ وإن معركتنا الآن من أجل الدستور، ومعركتنا الماضية من أجل الاستقلال.. والاستقلال نحصل عليه بالرصاص، أما الدستور فنحصل عليه بثورة شعبية تقتلع المقاعد من تحت الطغاة..

ودخل مسيحة أفندي والشيخ زكي مكتب محمد ذات مساء.. وحرصا أن يغلقا الباب وراءهما، وأخرج الشيخ زكي من جيبه وهو يرتجف، وينظر حواليه، خطاباً دفع به إلى محمد..

وقرأ محمد الخطاب فوجده صورة فوتوغرافية لخطاب أرسله محمد علام باشا مدير حزب الشعب إلى صدقي باشا رئيس الوزراء ورئيس حزب الشعب..

والخطاب عبارة عن تقرير كتبه علام باشا يقول فيه إنه نفذ تعليمات صدقي باشا، واتصل بمديري الأقاليم، وأبلغهم أوامره بتزوير الانتخابات، وبادعاء أن أغلبية الناخبين اشتركوا في التصويت، وخرجوا على قرار المعارضة بمقاطعة الانتخابات. وأن علام باشا أبلغ المديرين أن يطلقوا الرصاص على كل من يهتف بهتافات عدائية. لا يهم

صدقي باشا عدد القتلى من المصريين، ولكن يهمه أن تظهر نتيجة الانتخابات الرسمية بأن أكثر من خمسة وستين في المائة من الناخبين أدلوا بأصواتهم . .

وقال الشيخ زكي إنه وزميله سرقا الخطاب من عرفه الجمل سكرتير عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية، أسكرا السكرتير، وذهب مسيحة أفندي بالخطاب إلى أحد المصورين والتقط له صورة فوتوغرافية، ثم أعاده إلى جيب السكرتير الذي كان غائباً عن الوعي . .

واهتم محمد بهذه الوثيقة الخطيرة، ودخل بها عند عزيز ميرهم، وما كاد يطلع عليها، حتى طلب استدعاء مسيحة أفندي والشيخ زكي وسألهما عن تفاصيلها، فكررا عليه نفس ما قالاه لمحمد . .

واتصل عزيز ميرهم على الفور بالدكتور ماهر، الذي حضر على الفور، وقال إنها أخطر وثيقة تثبت تزييف الانتخابات، ويجب قبل كل شيء التأكد من أن هذا هو إمضاء محمد علام باشا مدير إدارة حزب الشعب.

واتصل الدكتور ماهر بالنحاس باشا والأستاذين مكرم عبيد والنقراشي فحضروا على الفور إلى مكتب عزيز ميرهم، واطلعوا على الوثيقة.

وتهلل وجه النحاس باشا وقال إنها لو كانت صحيحة فإنها ستنسف حكومة صدقي باشا. إنها أهم ألف مرة من كل الوثائق التي حصل عليها ليضمنها بلاغه إلى النائب العام. وقال الأستاذ مكرم:

ـ إن الوثيقة صحيحة ألف في المائة. . إن المعلومات التي فيها صورة طبق الأصل للمعلومات التي عندي عن الأوامر السرية التي صدرت

بتزوير الانتخابات. واستدعى النحاس باشا مسيحة أفندي والشيخ زكي وعانقهما وقبّلهما، وأخرج من جيبه عشرة جنيهات وقال وهو يضحك:

ـ هذه مصاريف تصوير الوثيقة!

وثار الشيخ زكي ومسيحة أفندي في وقت واحد على النحاس باشا. وقال الشيخ زكي:

ـ نحن فقراء حقاً يا دولة الباشا.. ولكننا نرفض أن نقبض ثمن وطنيتنا!

فقال النحاس باشا:

ـ إن هذا ليس ثمن الوطنية، هذه الوثيقة ثمنها مليون جنيه.

ولكن الوفد فقير. أنا أدفع فقط ثمن مصاريفكما!

وصرخ مسيحة أفندي وكأن عقرباً لدغته:

ـ إنا يشرفنا أن نحرم أولادنا من الطعام، وننفق ثمن الطعام في الحركة الوطنية..

وتأثر النحاس باشا وسقطت الدموع من عينيه وراح يربت على كتفي الشيخ زكي ومسيحة أفندي وهو يقول:

ـ بارك الله فيكما؟

وكانت هذه أول مرة في حياة محمد يرى فيها النحاس باشا. رأى فيه رجلاً طيباً مؤمناً مخلصاً، متواضعاً، واثقاً وثوقاً عجيباً أن النصر قريب، وأنه سيتحقق في خلال بضعة أيام.

وأحس أنه يحب النحاس باشا ويعجب بـوطنيته وإيمـانه بحقـوق الشعب.

واستدعى عزيز ميرهم محمداً إلى مكتبه وقال له إنه سيكلفه بمهمـة، وهي أن يذهب إلى أرشيف محكمة جنايات مصر ويحاول أن يُطلع على أحكـام بتوقيـع محمد عـلام باشـا عندمـا كان مستشـاراً في محكمـة الاستئناف، وأن يقارن بين الامضاء الذي في الخطاب، وإمضاء علام باشا في الأحكام التي أصدرها..

وكانت مهمة مرهقة، اقتضت من محمد الاطلاع على آلاف القضايا حتى وجد إمضاء علام باشا، ولاحظ أن الامضاءين واحد تماماً.

وعاد فرحاً إلى عزيز ميرهم وأخبره بالنتيجة وقال له:

ـ ما دام الشيخ زكي ومسيحة أفندي هما اللذان أحضرا الخطاب فكان الواجب أن نثق بهما، ونحن نعرف وطنيتهما وإخلاصهما..

وقال عزيز ميرهم: إن المسألة خطيرة، وقد يقعان في مؤامرة بحسن نية..

وحضر الدكتور ماهر أثناء الحديث، وأبلغه محمد نتيجـة البحث الذي قام به..

وفوجىء محمد بالدكتور ماهر يقول:

ـ هذه المسائل لا يمكن الحكم فيها بالعين المجردة. يجب أن تعرض على خبير في الخطوط ليقرر الحقيقة..

قال محمد:

ـ لا أستطيع أن أحصل على صـورة فوتـوغرافيـة للأحكـام التي

أصدرها علام باشا، إنهم يسمحون فقط بنسخ صورة من الحكم. . ولا بد من مقارنة إمضاء علّام باشا بالامضاء في الوثيقة الخطيرة. . ومن أين نجيء بإمضاء علام باشا؟

ـ المسألة بسيطة. . يكتب عزيز ميرهم خطاباً إلى علام باشا يطلب مقابلة. . وسيتصور علام باشا أن عزيز ميرهم يريد الاستقالة من الوفد، والانضمام إلى حزب الشعب، وسيسارع بكتابة خطاب يرد عليه ويرحب بمقابلته، ويوقع عليه بإمضائه. . وبذلك يكون لدينا الامضاء الذي نريده.

وجلس عزيز ميرهم وكتب الخطاب المطلوب.

وجاء في اليوم التالي رد من علام باشا يرحب بالمقابلة وعليه توقيعه، كما توقع الدكتور ماهر تماماً.

وأعطى الاستاذ مكرم الخطابين إلى خبير في الخطوط يعرفه، وجاء تقرير الخبير يؤكد أن إمضاء علام باشا صحيح مائة في المائة.

ورقص محمد من الفرح.

وكتب النحاس باشا بلاغاً من نار إلى النائب العام، وضع فيه الوثائق العديدة التي حصل عليها والتي تثبت تزوير الانتخابات، واعتمد بصورة أساسية على الوثيقة التي بإمضاء علام باشا مدير إدارة حزب الشعب، وأقرب رجل إلى رئيس الوزراء.

وأرسل النحاس باشا نص بلاغه إلى الأستاذ توفيق دياب لينشره في جريدة «الضياء» في صباح اليوم التالي، ومعه نص وثيقة علام باشا بالزنكوغراف.

وأمر توفيق دياب بنشر البلاغ في الصفحة الأولى مع عنوانات

ضخمة مثيرة، كلها أصابع تشير إلى حكومة صدقي باشا وتتهمها بالتزوير والتزييف. وبدأت ماكينة الطباعة تدور.

وفي الساعة الأولى بعد منتصف الليل دق جرس التليفون في مكتب توفيق دياب وسمع صوتاً يقول:

ـ أنا اسماعيل صدقي باشا رئيس مجلس الوزراء..

وبهت توفيق دياب لأن صدقي باشا لم يتصل به في يوم من الأيام، وقال:

ـ أهلاً وسهلاً دولة الباشا.. مساء الخير.. أو على الأصح، صباح الخير.

قال صدقي باشا دون أن يرد التحية:

ـ سمعت أنك ستنشر غداً بلاغاً من النحاس باشا إلى النائب العام ضدي يتهمني بتزوير الانتخاب.

قال توفيق دياب:

ـ نعم هذا صحيح..

قال صدقي باشا بصوت هادىء:

ـ أحب أن ألفت نظرك إلى أن الخطاب الذي استند فيه النحاس باشا إلى تزوير الانتخابات، مزور. وأحب أن أحذرك أنك إذا نشرت هذا الخطاب بعد أن نبهتك إلى أنه مزور، لا يعفيك من المسؤولية، فإن القانون لا يحمي صحفياً ينشر وثيقة مزورة وهو يعلم بتزويرها. إن هذا يعرضك ويعرض جريدتك لأشد أنواع العقاب.

وسكت صدقي باشا قليلاً ثم قال في صوت يفيض رقة وعذوبة:

ـ صباح الخيريا أستاذ توفيق.. إنك أوحشتنا كثيراً.. أنا في خدمتك دائماً!

اتصل الأستاذ توفيق دياب صاحب جريدة «الضياء» تليفونياً بالأستاذ مكرم عبيد سكرتير الوفد، وأبلغه حديث رئيس الوزراء الغريب بأن الوثيقة مزورة.

وضحك الأستاذ مكرم ضحكة متواصلة وقال:

ـ إن هذه واحدة من ألاعيب صدقي باشا، إن جواسيسه أخبروه بالفضيحة التي تنتظره إذا نشر بلاغ رئيس الوفد إلى النائب العام، وفيه الوثيقة التي تدين انتخاباته وتدمغها بالتزوير. فأراد أن يحبس نشر الفضيحة بادعاء أن الوثيقة مزورة! نفس الطريقة التي اتبعها مع عمال العنابر، عندما هزمت خراطيم مياههم الساخنة جنوده فأمر بحبس المياه عنهم! نفس طريقته عندما أراد رئيس الوفد ومحمد محمود باشا أن يزورا بني سويف فأرسل جنوده يمنعوننا من دخول محطة مصر، وعندما اقتحمنا الحصار بالقوة، ودخلنا القطار برغم إرادته، تحرك القطار.. ثم فوجئنا بأن القطار لا يتجه بنا إلى بني سويف، بل يحملنا إلى صحراء حلوان ويتركنا وسط الصحراء، لأن صدقي أمر بتحويل القطار! إن خبير الخطوط أكد أن الإمضاء في الوثيقة هو إمضاء علام باشا.

قال الأستاذ توفيق دياب:

ـ إن صدقي باشا يؤكد أن الوثيقة مزورة.. هل يجرؤ أن يخترع مثل هذه الأكذوبة؟

وعاد مكرم يضحك ويقول:

ـ هل ما زلت تصدق صدقي باشا؟ أبعد أن أعلن أن سبعة وستين في

المائة وسبعة أثمان اشتركوا في الانتخابات، والشعب كله يعرف أنه لم يشترك في الانتخابات إلا أقل من واحد في المائة. . أبعد هذا تستكثر عليه أي أكذوبة؟ أنشر ولا يهمك. . إن صدقي لن يجرؤ على أن يحاكمك. . لأن محاكمتك ستكون محاكمة له ولانتخاباته. . هذا هو رأيي. . والرأي الأخير لك طبعاً!

ثم سكت مكرم قليلاً:

ـ وعلى كل حال يمكنك أن تطلب رئيس الوفد في التليفون وتروي له ما حدث وتبلغه رأيي.

قال توفيق دياب:

ـ ولكن رئيس الوفد نائم الآن. . . الساعة قبيل الثانية صباحاً.

قال مكرم: أوقظه. . سيضحك كثيراً عندما يعلم بأكذوبة صدقي باشا الجديدة. حقاً إنه رجل جريء. . جريء على الحق!

وأيقظ توفيق دياب رئيس الوفد من نومه وروى له الحديث الذي جرى بينه وبين صدقي باشا ورأي مكرم باشا في ضرورة النشر. .

وقال رئيس الوفد ساخراً: ماذا يقصد صدقي باشا بنصحه لك ألا تنشر البلاغ لأن الوثيقة مزورة؟ أيخاف عليك أن تسجنك محكمة الجنايات؟ إنك تهاجمه كل صباح بقلم من نار. وهو يتمنى أن تقطع رقبتك لا أن تسجن فقط. . أتعرف قصة القط والفأر؟!

قال توفيق دياب: لا أعرفها!

قال وهو يضحك: يحكى أن قطاً رأى فأراً يمشي فوق جدار. فوقف يتربص به حتى ينقض عليه ويأكله. وحدث أن انزلقت قدم الفأر وهو

يسير فوق الجدار. فصاح القط: اسم الله! فضحك الفأر وقال للقط: سيبني أنت.. وخللي العفاريت تأكل نصفي!

وعاد يضحك ويقول لتوفيق دياب:

- قل لصدقي باشا «سيبنا أنت.. وخللي العفاريت تأكل نصفنا!» لو كان صدقي يعتقد أن الوثيقة مزورة، لتركنا ننشرها ثم هاجمنا، والدليل أنها صحيحة، هو أنه تدخل لمنع النشر.. أنشر على بركة الله.. ليس صدقي هو الذي سيضعك في السجن.. أنت الذي ستضعه في السجن!

وقال توفيق دياب:

- إني مستعد أن أذهب إلى المشنقة ما دامت الوثيقة صحيحة.. وانتهت المحادثة، وأصدر توفيق أمره إلى المطبعة بالاستمرار في الطبع. وتحركت آلات الطباعة بسرعتها المجنونة تقذف بآلاف النسخ..

وأحاط البوليس بمطبعة «الجهاد» وصادر أغلب الأعداد المطبوعة. وأمر النائب العام بالقبض على الأستاذ محمد توفيق دياب فوراً، بناء على بلاغ من رئيس الوزراء بأنه نبه توفيق دياب إلى أن الوثيقة مزورة، ومع ذلك أصر على نشرها مع علمه أنها مزورة!

وصدرت تعليمات من النائب العام إلى الصحف بعدم الإشارة تلميحاً أو تصريحاً لبلاغ رئيس الوفد عن تزوير الانتخابات لأنه موضع تحقيق..

وبهذه الطريقة الجهنمية ضرب صدقي باشا عصفورين بحجر، منع نشر بيان النحاس باشا الذي يفضح تزوير الانتخابات في الصحف الأخرى، وفي الوقت نفسه قبض على رئيس تحرير أوسع الصحف الوفدية انتشاراً.

وأعلن صدقي باشا أنه سيطلب محاكمة رئيس الوفد لأنه شريك في تهمة التزوير. . وسارع عزيز ميرهم وكتب خطاباً إلى النائب العام يقول فيه إنه هو الذي سلّم هذه الوثيقة للرئيس، وقال له أنها صحيحة مائة في المائة، وإنه يتحمل المسؤولية الكاملة عنها.

وأمر النائب العام بالقبض على عزيز ميرهم. .

وأسقط في يد الوفديين، كيف يتصرف النائب العام هذه التصرفات الغريبة الشاذة، والوثيقة صحيحة مائة في المائة!

وصدر قرار بإحالة الأستاذين توفيق دياب وعزيز ميرهم إلى محكمة الجنايات. .

■ ■ ■

وفوجىء محمد عبد الكريم بهذا القرار العجيب. . إن الذي أجرى انتخابات مزورة لا يتهم بالتزوير، والذي قدم وثيقة تثبت تزوير الانتخابات يحاكم أمام محكمة الجنايات بتهمة نشره وثيقة مزورة عن الانتخابات الحرة!

وأصبح محمد من جديد بلا عمل. انقطع زبائن المكتب بعد القبض على عزيز ميرهم صاحب المكتب. انقطع الزوار والعمال. الزائران الوحيدان المخلصان اللذان واظبا على الحضور كانا مسيحة أفندي والشيخ زكي.

وحلّ موعد امتحان البكالوريا فلم يتقدم للامتحان لأنه لم يفتح كتاباً، حتى ساعة اليد التي اشتراها بثلاثة جنيهات من آخر مرتب قبضه. . هذه الساعة التي يحبها. . أصبح يفكر في بيعها.

وتوالت المحن والأزمات على محمد. انقطع المرتب. عادت أمه تبيع حلل النحاس من جديد. أظلمت الدنيا في وجهه. لم يفكر في أزماته الشخصية، كان يفكر في الظلم الذي يتعرض له عزيز ميرهم وتوفيق دياب. وفي ظهر كل يوم كان محمد يحمل الطعام إلى الأستاذ عزيز في سجن الاستئناف، وفي الطريق كان يفكر في زبيدة، في حظه السيىء مع النساء. كل امرأة عرفها تخونه أو تتخلى عنه. المرأة التي تريده لا يريدها، والمرأة التي يريدها لا تريده.. نجوى التي طاردته، ومنّته بمرتب سبعين جنيهاً في السلك السياسي، وحاولت أن تكون عشيقته، هرب منها.. وزبيدة التي أراد أن تكون زوجته هربت منه!

لماذ هربت منه زبيدة؟ لا يمكن أن يكون عرض الزواج هو سبب هروبها.. هل قال كلمة ضايقتها؟ إنه يستعيد كل كلمة قالها لها، ولا يجد فيها كلمة تجرح أو تسيء.. هل فعل شيئاً جعلها تكرهه؟ لقد حاول أن يرضيها في آخر مرة بكل طريقة، حتى أنه عندما أراد أن يقبلها للمرة الثانية، وقالت له فلنؤجل القبلة إلى يوم الأربعاء القادم، استسلم ولم يعترض.

أتكون زبيدة غضبت لأنه استسلم لرفضها؟ المرأة تحب الرجل الذي يقاتل ولا يستسلم. الذي لا تعرف شفتيه كلمة «لا»؟ الرجل الذي يعرف كيف يقتحم الشفاه المطبقة.. الذي لا يدق الباب قبل أن يدخل. أيكون أدبه معها هو الذي أضاعه؟ إن المرأة تتوقع من كل رجل في العالم أن يكون مؤدباً معها إلا الرجل الذي تحبه.. إن براءة عيني زبيدة لا تشجع على قلة الأدب.. حديثها كان يغسله من شهواته.. ماذا كانت تتوقع منه أن يفعل ولم يفعله؟ ربما لم تعجبها قبلته الأولى كما لم تعجب نجوى قبلته الأولى. هل لا يزال «غشيماً» في علم القبلات؟ إنه يذكر أن زبيدة لم تتأفف بعد قبلته كما فعلت نجوى. إنها، على

العكس، ذابت بين شفتيه. كانت شفتاها أشبه بقطعة «ملبسة» فيها طعم السكر وهي تذوب في شفتيه.

وكان وهو يحمل الطعام من بيت عزيز ميرهم في بولاق إلى سجن الاستئناف في باب الخلق لا يكف عن التحديق في وجوه النساء بحثاً عن زبيدة. كان يحدق في وجه المرأة العجوز، وفي وجه الشابـة، وفي وجه الطفلة. لعل المرأة العجوز قريبتها، قد تكون الطفلة الصغيرة إحدى أخواتها الست، ربما كانت هذه الشابـة هي زبيدة نفسهـا، وكان لا يتطلع أبداً إلى وجوه الرجال..

■ ■ ■

وفي ميدان عابدين سمع صوت شاب يقول له:

ـ هل أصبت بالعمى؟.

وتلفت حوله فوجد سعيد توفيق زميله السابق في المدرسة السعيدية، ووقفا في الشارع يتعانقان ويتبادلان القبلات..

وقال سعيد:

ـ تصور أنني كنت أسير في مواجهتك وأحدق فيك، ومررت بجوارك مباشرة فلم ترني.. هل ضعفت عيناك بسبب المذاكرة؟.. أعتقد أنك كنت أول البكالوريا هذا العام!

قال محمد بحسرة:

ـ لم أدخل امتحان البكالوريا.. سأتقدم في الدور الثاني!

قال سعيد في عجب:

ـ هل كنت مريضاً؟

قال محمد:

ـ نعم كنت مريضاً بقلبي . . أصبت بالذبحة الصدرية!

وهز سعيد رأسه في أسى وقال:

ـ أما أنا فقد حصلت على البكالوريا . .

قال محمد:

ـ ستدخل كلية الحقوق طبعاً!

قال سعيد في زهو:

ـ كلا . . سأتم دراستي العالية في أوربا . . إنني عيّنت أميناً للمحفوظات في سفارة مصر بروما!

ودون أن يدري محمد ظهرت على وجهه علامات الدهشة والاستغراب ولاحظ سعيد توفيق دهشته فقال له:

ـ من حقك أن تدهش يا محمد، إن هذه الوظيفة لا يحصل عليها إلا من يحمل الليسانس، ولكن سعادة حسين باشا الأشموني سفيرنا في روما استطاع أن يعينني بطريقة الاستثناء . . إنه رجل عظيم . . أعظم رجل قابلته في حياتي!

وتمالك محمد نفسه وقد أحس أنه وقع بطريقة المصادفة على قصة مثيرة وسأله:

ـ هل أنت قريب الأشموني باشا؟ .

وتردد سعيد قليلاً وقال:

ـ إن أختي أميرة كانت زميلة زوجته في مدرسة الليسيه، وقدّمتني إلى

السفير فأعجب بي وقال إنني شاب ممتاز، وأكبر من سني، وأنه معجب بآرائي، وأنني لست طفلاً صغيراً كما وصفتني زوجة السفير. .

وعاد محمد يسأله، وهو يحاول أن يحبس سخريته وتهكمه في فمه:

ـ وهل ستأخذ معك إلى روما حبيبتك الراقصة ابتسام؟

وصاح سعيد محتجاً:

ـ هل جننت؟ سأكون مشغولاً جداً في روما. . وظيفتي في الصباح في السفارة، ودراستي في المساء في الكلية. . وسأتولى فوق ذلك تدريس اللغة العربية لزوجة السفير!

وشهق محمد وقال:

ـ ولكنك ضعيف جداً في اللغة العربية. . وقد كنت أنا الذي أكتب خطاباتك الغرامية للراقصة ابتسام. .

قال سعيد في اعتزاز:

ـ تصور. . أنا كنت أعتقد أيضاً أنني ضعيف في اللغة العربية، ولكن صاحبة العصمة حرم سعادة السفير قالت، إني أعظم أستاذ للغة العربية رأته في حياتها!

ثم سكت سعيد توفيق قليلاً وقال في براءة:

ـ ولو اكتشفت، بعد سفري إلى روما، أنني فشلت في تدريس اللغة العربية، فسوف أطلب تعيينك يا محمد مساعداً لأمين المحفوظات. . إن صداقتي بالسفير قوية جداً!

قال محمد وهو يبتسم ابتسامة لم يفهمها سعيد توفيق لحسن الحظ:

ـ أنا واثق أنك صديق السفير. . ولكن ظروفي تمنعني من الاشتغال خارج مصر. .

وصافح محمد زميله سعيد وتمنى له التوفيق في مهمة نشر اللغة العربية في ايطاليا!

ومشى محمد في طريقه إلى سجن الاستئناف وهو يضحك. وها هي ذي المسرحية التي ألفتها نجوى يعاد تمثيلها من جديد. نفس الأدوار. نفس الحوار. كل ما حدث أن سعيد توفيق سيقوم بالدور الذي أسندته إليه!

وعندما عاد محمد إلى مكتب الأستاذ عزيز ميرهم كان لا يزال يفكر في دروس اللغة العربية التي تحرص نجوى عليها. . ترى كم هو عدد مدرّسي اللغة العربية في حياتها؟ تصرفاتها العجيبة تدل على أن في قلبها حركة تنقلات للمعلمين، كالحركة الواسعة التي تعلنها وزارة المعارف في نهاية كل عام دراسي. . وتصور وجه نجوى إذا اقترح سعيد ترشيحه مساعداً له.

■ ■ ■

وبينما كان محمد سارحاً بأفكاره في تقدم اللغة العربية على يدي نجوى المناسترلي دق جرس التليفون. .

وسمع محمد صوت الدكتور أحمد ماهر يقول له:

ـ تعال فوراً يا محمد إلى بيتي. . إنني أنتظرك الآن. . اركب سيارة تاكسي واحضر بسرعة!

وسكت محمد ولم يقل كلمة. . ليس في جيبه قرش واحد من أجرة التاكسي من بولاق إلى القبة!

وفهم أحمد ماهر على الفور سر سكوت محمد وقال له:

ـ أنا أعلم أنك لم تقبض مرتبك بسبب القبض على الأستاذ عزيز.. اركب تاكسي وسأدفع أنا أجرة التاكسي!

واستقل محمد أول سيارة تاكسي، وطلب إلى السائق أن يسرع إلى شارع الملك.

وقفز من السيارة عند باب الدكتور ماهر وطلب من السائق أن ينتظر..

ووجد الدكتور ماهر ينتظره في الصالون، فأجلسه إلى جواره وقال له:

ـ إنني اخترتك من الأربعة عشر مليوناً من المصريين لتقوم بمهمة خطيرة جداً.

قال محمد في سعادة غامرة:

ـ إن هذا شرف عظيم لي!

قال الدكتور ماهر:

ـ إنك ستؤدي خدمة لهذا الوطن وخدمة للأستاذ عزيز ميرهم الذي أعرف أنك تحبه، وخدمة لي.

قال محمد:

ـ إنني لن أنسى طوال عمري موقفك معي.

قال الدكتور ماهر:

ـ أنا لم أفعل شيئاً لك.. ولا أنوي أن أفعل شيئاً لك. المهمة التي

سأكلفك بها قد تكلفك حياتك. . وأغلى خياة هي التي يبذلها الانسان دون أن ينتظر ثمناً.

وسكت الدكتور ماهر قليلاً وقال:

ـ هل تعرف عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية؟

ولمعت عينا محمد وقال:

ـ هل تريدني أن أقتله؟. إنني مستعد أن أقتله الآن!

قال أحمد ماهر بهدوء:

ـ إنني أعرف أنك حاولت قتله. . وأنك أطلقت عليه الرصاصات الأربع!

وذهل محمد. كيف عرف الدكتور ماهر هذا السر الذي لا يعرفه أحد سواه، وسوى زبيدة؟. وتشبثت عينا محمد بالدكتور ماهر، وقال له في لهفة:

ـ هل تعرف زبيدة يا دكتور؟

وضحك الدكتور وقال:

ـ زبيدة؟ من هي زبيدة هذه؟

وتراجع محمد، وكأن كلمة أفلتت من لسانه دون أن يدري، وعاد يسأل الدكتور ماهر في لهفة:

ـ كيف عرفت أنني أنا الذي أطلق الرصاص!؟

وابتسم الدكتور ماهر وقال في هدوء:

ـ أنت الذي قلت لي . .

وقال محمد مؤكداً:

ـ إن كلمة كهذه لم تخرج من لساني!

قال الدكتور ماهر:

ـ تذكر جيداً!

قال محمد غاضباً:

ـ إنني متذكر جيداً كل كلمة دارت في مقابلتنا . . كانت هذه المقابلة أعظم شيء جرى في حياتي، ولا يمكن أن أنسى كل كلمة قلتها أنت أو كل كلمة نطقت أنا بها.

قال الدكتور ماهر في بساطة:

ـ عندما كنت تتحدث عمّا فعله عوني باشا حافظ في عمال العنابر وفي أبيك، كان كل حرف من كلماتك يقطر مرارة. كان الشعاع الذي يخرج من عينيك أشبه برصاصات تنطلق. إن خبرتي قالت لي وأنا أسمعك وأراك، إن هذا الشاب إما أن يكون أطلق على عوني باشا الرصاص، وإما أنه سيطلق عليه الرصاص. . ولما مضت الأيام ولم تنطلق رصاصات على عوني باشا مرة أخرى تأكدت أنك أنت الذي أطلق الرصاص في شبرا.

قال محمد في عزم:

ـ وأنا مستعد أن أطلق عليه الرصاص مرة أخرى. . وأعدك بأنني في هذه المرة سأقتله!

قال أحمد ماهر:

ـ هذه المرة ستقتله بطريقة أخرى، وليس بإطلاق الرصاص. . وإذا نجحت في مهمتك فلن تقتله وحده، وإنما ستقتل وزارة صدقي باشا كلها. . إن النقراشي تلقى معلومات مؤكدة بأن عوني حافظ باشا نائب وزير الداخلية هو الذي دبر حكاية الوثيقة المزورة. وأن هناك ملفاً كان في مكتبه بوزارةالداخلية فيه تفاصيل هذه المؤامرة، وأنه سحب هذا الملف السري من مكتبه، وأخذه معه إلى بيته في شارع شوكلاني رقم ١٧ في شبرا بعد ظهر أمس. . المطلوب منك أن تهاجم البيت وتدخل غرفة مكتبه وتسرق هذه الوثيقة وها هو رسم للدور العلوي في البيت، ومحدد فيه بعلامة حمراء مكان غرفة مكتبه، وهو المكان الطبيعي الذي يخفي فيه الوثيقة.

وسوف تحتاج إلى سلم من الحبال له خطّاف، وعدد من المفاتيح الصناعية، وستذهب الآن إلى ناظرك الأستاذ محمد عبدالصمد، في مدرسة الاسماعيلية، وسوف يسلمك هذه المهمات، ولن يسألك عمّا سوف تفعل، فهو لا يعرف ماذا ستفعل. .

وستذهب في الساعة الأولى من صباح غد إلى بيت الأستاذ عبدالعزيز إبراهيم عضو الهيئة الوفدية، وهو يقيم في المنزل رقم ١٩ بشارع شوكلاني، وهو البيت الملاصق لبيت عوني باشا حافظ. سيكون سائقه في استقبالك. ومن هناك تقفز السور، وتدخل إلى البيت، وتقوم بمهمتك.

قال محمد: إنني أحتاج إلى مسدس.

قال الدكتور ماهر: لا أريد استعمال المسدس. . . ولو حدث وقبض عليك، فعليك أن تعترف بأنك لص جاء يسرق بيت وزير الدولة. . وسوف يحكم عليك وتسجن. . ولن يلوث هذا الحكم

شرفك . . إن عزيز ميرهم وتوفيق دياب في القفص الآن وسيدخلان السجن بتهمة التزوير . . كل هذه الأحكام ستلغى عندما ينتصر الشعب!

قال محمد :

ـ إنني أحتاج إلى اثنين من المساعدين في هذه المهمة ، يقومان بعملية المراقبة . إنني أعرف شابين وطنيين أثق بهما كما أثق بنفسي وأعتقد أنهما مستعدان أن يضحيا بحياتهما في أي عملية وطنية .

وسأل الدكتور ماهر :

ـ من هما؟

قال محمد :

ـ الشيخ زكي ومسيحة أفندي ، وهما من أكبر المتحمسين لإثبات أن الوثيقة صحيحة مائة في المائة ، وهما من أعز أصدقاء الأستاذ عزيز ميرهم .

وسكت الدكتور ماهر قليلاً وقال :

ـ أنا لا أعرفهما . . كل ما أعرفه أن هذه المهمة لا تحتاج إلا لشخص واحد هو أنت . . كل مهمتك أن تحصل على الوثيقة ، وتسلمها للمعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي فرج .

وصاح محمد في ذهول :

ـ هل تعرف المعلم وهدان أبو خطوة؟

قال الدكتور ماهر وهو يبتسم :

ـ نعم أعرفه. . وهو يعرفك جيداً. . وقد سألته عنك قبل أن أعطيك العشرة الجنيهات، شهد لك شهادة عظيمة. . وإن كان قد قال لي أن عيبك الوحيد هو أنك تصدق أن أحداً أطلق الرصاص حقيقة على عوني باشا حافظ! لا مانع عندي أن أقول لك إن المعلم وهدان سيقوم بمهمة ضخمة من أجل حمايتك!

واستطرد قائلاً:

ـ قبل الساعة الأولى من صباح اليوم سوف يكون الحاج وهدان جالساً مع حراس حرس الوزارات الثلاث الذين يحرسون بيت عوني باشا، وبعد دقائق، ستكون جوزة المعلم وهدان دارت على شفاههم جميعاً، وفقدوا الوعي تماماً، وهكذا تستطيع أن تقوم بمهمتك بكل ثقة. . .

وقبل أن يفيق محمد من دهشته وقف الدكتور ماهر وصافحه وهو يقول:

ـ هل أنت مستعد يا محمد؟

ووقف محمد مشدوداً وقال:

ـ مستعد!

قال الدكتور ماهر:

ـ عليك أن تذهب بعد استلام المهمات من الأستاذ عبد الصمد إلى مكتب عزيز ميرهم مباشرة، وأن تجلس بجوار التليفون، فقد تتغير الأوامر بين لحظة وأخرى. إن كلمة السر هي «الزفاف»!

وأخرج الدكتور ماهر من جيبه خمسين قرشاً وقال له:

ـ إن أجرة التاكسي أربعون قرشاً . . وعشرة قروش لطعامك!

كانت لهجة الدكتور ماهر معه هذه المرة مختلفة عن لهجته السابقة. كان في المرة الأولى إنساناً مليئاً بالحنان، ولكنه في هذه المرة كان أشبه بقائد يقود معركة.

■ ■ ■

وخرج محمد، واستقل التاكسي إلى مدرسة رقيّ المعارف، وما كاد ناظر المدرسة يراه حتى سلم له لفافة، ولم يقل له كلمة واحدة.

وعاد إلى مكتب عزيز ميرهم وجلس ينتظر في قلق، تماماً كما انتظر زبيدة!

وعند منتصف الليل دق جرس التليفون وقال له صوت لا يعرفه:

ـ لقد تأجل الزفاف. .

وقبل أن يفتح فمه بكلمة واحدة انقطعت المحادثة. .

وتضايق محمد، وتذكر أن زفافه إلى زبيدة قد تأجل أيضاً، وتمنّى ألا يتأجل هذا الزفاف إلى الأبد كما تأجل زفافه إلى زبيدة!

وفي اليوم التالي دق جرس التليفون، وسمع نفس الصوت يقول له «تأجل الزفاف»!

وسمع صوت السماعة وهي تسقط على آلة التليفون!

وتكرر تأجيل الزفاف ثلاث مرات. .

وفي الليلة الرابعة دق جرس التليفون وتوقع محمد النبأ المعتاد بتأجيل الزفاف، وسمع الصوت يقول له «الزفاف الليلة. .»!

حمل محمد اللفافة التي تحوي سلم الحبال والمفاتيح، ومضى يقطع شارع بولاق في خيلاء. كان يحس أنه عريس، وأن هذه هي ليلة زفافه فعلاً. ولم يكن يحمل في جيبه نقوداً تكفي ليستقل سيارة تكسي إلى شبرا. كان في جيبه أربعة قروش، وهي كل ما بقي من الخمسين قرشاً التي أعطاه إياها الدكتور ماهر. ومع ذلك كان يشعر أنه أغنى رجل في العالم، وهذه ليلة زفافه إلى أجمل امرأة في العالم.

ودفع ستة مليمات ثمن تذكرة الترام إلى شبرا. وعندما وقف الترام في محطة مصلحة التليفونات رأى فتاة واقفة على محطة الترام. وعلى وجهها حجاب أسود. وخيّل له أنها زبيدة. هي زبيدة بنصها وفصها. وتحرّك الترام. ونسي محمد مهمته الخطيرة. قفز من الترام أثناء سيره. كاد ينكفىء على وجهه. وأسرع نحو السيدة المحجبة. وكلما اقترب منها تأكد أنها زبيدة. وما كاد يقترب منها حتى اكتشف أنها ليست زبيدة. إنها تشبه زبيدة فعلاً ولكنها أطول قامة منها. وتراجع ثم عاد يتقدم. قد تكون هذه أخت زبيدة. وأقبل نحو السيدة يقول لها في أدب:

ـ هل حضرتك أخت زبيدة؟..

وقالت السيدة في صوت أجش بعيد جداً عن صوت زبيدة:

ـ عيب يا أفندي! أنا مثل والدتك! أنا لست من اللائي يقفن على محطات الترام! أنا أعمل «رئيسة» في مصلحة التليفونات! عيب أن تكلم سيدة محترمة بعد منتصف الليل!

وقال محمد وهو يعتذر:

ـ آسف. إنك تشبهين ممرضة اسمها زبيدة.

وصاحت فيه السيدة بغضب:

ـ أنـا ليس لي أخوة ولا أخـوات. . . إذا لم تنصرف فسـأستنجد بالبوليس ليقبض عليك. .

وأسرع محمد في خطواته، وهو يتصور وجه الدكتور ماهر عندما يعرف أن البوليس قبض عليه بتهمة معاكسة السيدات بعد منتصف الليل، بدلاً من أن يقبض عليه بتهمة سرقة الوثيقة الخطيرة من بيت وزير الدولة!

واستقل محمد عربة ترام أخرى، وحرص على ألاّ ينظر إلى النساء الواقفات على محطات الترام، خشية أن يرى زبيدة تنتظره في كل محطة!

ووصل الترام إلى ميدان المحطة واستقل ترام شبرا، وعند شارع شـوكلاني غـادر الترام ومشى في شـارع شوكـلاني يتـطلع إلى أرقـام البيوت. . .

واقترب من البيت رقم ١٧ حيث يسكن وزير الدولة، وتعمد أن ينتقل على الرصيف الآخر مبتعداً عن جنود حرس الوزارات الثلاثة الذين يحرسون البيت، ومشى مسافة طويلة على الرصيف المقابل، ثم عبر الشارع، وعاد أدراجه وهو يتأمل من بعيد بيت وزير الدولة. .

وتوقف أمام المنزل رقم ١٩ وهو بيت النائب السابق عبد العزيـز ابراهيم، فوجد سائق السيارة ينتظره. وفتـح السائق بـاب الحديقـة بهدوء، ومشى به في الظلام إلى السور الذي يفصل البيت عن بيت وزير الدولة. ثم تركه واقفاً بجوار السور، ومضى في سبيله دون أن يتحدث إليه بكلمة واحدة.

ونظر محمد إلى الساعة فوجدها الواحدة إلا عشر دقائق.

وانتظر الدقائق العشر، ومرت كل دقيقة كأنها يوم كامل.

وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة تماماً، رمى خطّاف السلم إلى أعلى السور، وراح يصعد درجات السلم المصنوع بالحبال في حذر شديد، وعندما وصل إلى أعلى السور، رفع الخطّاف، وعاد يثبته في الناحية الأخرى من السور، وهبط على السلالم، ووصل إلى حديقة بيت الوزير. وزحف على قدميه فوق الحشائش، وهو يحمل سلم الحبال، وكلما وجد شجرة اختفى خلفها وتوقف قليلاً يسترد أنفاسه، ويتسمع حوله، فوجد هدوءاً كاملاً لا صوت ولا حركة. كل أنوار البيت مطفأة. وطاف حول البيت، يبحث عن نافذة مفتوحة في الدور الأول، يدخل منها. ودار على النوافذ كلها، فوجدها مغلقة إغلاقاً تاماً. .

خطر بباله أن يحاول الدخول من باب البيت الداخلي، وصعد درجات السلم الموصلة إلى الباب، فوجده من الحديد. وحاول أن يعالج قفل الباب، فوجده نوعاً غريباً من الأقفال لا تنفع معه المفاتيح والطفّاشات. وأسقط في يده، ورأى شجرة كبيرة بقرب شرفة من الشرفات. وتذكر الخريطة التي معه. إن هذه الشرفة بجوار غرفة مكتب عوني باشا حافظ. . . وإن كانت غرفة المكتب لا تطل على الشرفة، وتسلق محمد الشجرة الضخمة في هدوء، ثم رمى خطّاف السلم، على الشرفة، وفشلت محاولته الأولى، ثم نجحت المحاولة الثانية، وثبّت الخطّاف في جدار الشرفة. وتعلق بالسلم، ثم صعد على درجاته في هدوء وهو يحبس أنفاسه. .

وسمع وقع أقدام، فتسمر فوق السلم. والتصق بجسده في جدار الشرفة. ثم تبين أن الأقدام لا تتجه إليه. إنها تسير في الشارع. هدوء الليل وسكونه جعلاه يتصور أن الأقدام تقترب منه. خفّ صوت الأقدام تدريجاً، ثم اختفى في ظلام الليل.

وتابع صعود درجات السلم المصنوع من الحبال. وأحس بكفيه تؤلمانه من تعلقهما بالحبال. وأحس أن حذاءه الجلدي لا يثبت بسهولة على الحبل، وتمنى أن يخلع حذاءه ويصبح حافياً. ثم تذكر أنه لو خلع حذاءه فسيرميه في أرض الحديقة، ويحدث صوتاً. وعدل عن خلع الحذاء.

ورأى ضوء نور كشّاف يغمر المكان فجأة. وأحس بالرعب. وكاد يسقط من السلم وهو يحاول الالتصاق بالجدار. واختفى الضوء بسرعة. كان الضوء الكشّاف لسيارة أوتوبيس تمر في شارع شوكلاني أمام بيت الوزير.

وتنفس الصعداء، وقفز في هدوء فوق جدار الشرفة. وتوقف لحظة. ولم يسمع صوتاً. ورأى باباً خشبياً مغلقاً يطل على الشرفة، ثم بجوار الباب نافذة. وتحسّس النافذة فوجدها مفتوحة. وتنفس الصعداء. كأنه رأى أبواب السماء مفتوحة. لن يحتاج إلى استعمال عدد من المفاتيح حتى يفتح الباب. المفاتيح لها صوت عندما نجربها في الأقفال. يستطيع الآن أن يدخل هذه الغرفة. ثم يتجه إلى الغرفة المجاورة حيث مكتب عوني باشا. وأطل على الغرفة فوجد ظلاماً دامساً ورأى فراشاً وأنصت فلم يسمع أنفاساً. لا بد أنها غرفة نوم مهجورة. الأثرياء لهم غرفة نوم للصيف وغرفة نوم للشتاء. هذه الغرفة من الناحية البحرية فلا بد أنها غرفة نوم الصيف. ما أسعد هؤلاء الأغنياء الذين لهم غرفتان للنوم.. وعلى بعد أمتار في جزيرة بدران غرف ينام فيها ١٩ شخصاً في الغرفة الواحدة!

ورفع ساقه، وأدخلها في النافذة المفتوحة، وانتظر فترة. وسمع أصوات ضفادع. وأزعجه صوتها. وما لبث أن اطمأن إلى صوت الضفادع، وأقنع نفسه أن دبيب خطواته سيضيع في ضوضائها وعاد

يرفع ساقه الأخرى. وأصبح جسمه كله فوق حافة النافذة.

تمّ كل هذا بهدوء غريب. وشعر محمد بالرضا يغمر نفسه. لقد أتم أخطر مرحلة في المغامرة بنجاح. كانت أدق مراحل الرحلة هي مرحلة كيف يستطيع أن يدخل إلى بيت عوني باشا. تحسس النافذة المفتوحة بيده فوجدها مصنوعة من الصلب. هذا ليس بيتاً إنما هو قلعة.. لم ير محمد من قبل باب نافذة مصنوعاً من الصلب. أبواب النوافذ عادة من الخشب. ولكن باب هذه النافذة مغطى بالخشب من الخارج حتى يبدو كأنه نافذة عادية، ومن الداخل مبطن بالصلب. لا بد أن عوني باشا لجأ إلى هذا الصلب بعد أن أطلق عليه الرصاص، حتى لا يصل الرصاص أو القنابل إلى داخل البيت، والدليل على ذلك أن الخريطة التي أعطاه إياها الدكتور ماهر ليس فيها أي إشارة أن الأبواب والنوافذ في بيت وزير الدولة كلها من الصلب. وحمد الله لأنه وجد هذه النافذة المفتوحة، فلولاها لعجز عن دخول البيت... إن يد الله هي التي فتحت هذه النافذة. وهي التي تركتها مفتوحة. هذا دليل على أن الله يرعى مغامرته الخطرة..

ومنحه شعوره بأن الله معه قوة وعزماً، ووضع قدميه في هدوء على أرض الغرفة المهجورة، ومشى خطوة على أطراف أصابعه..

وفجأة انبعث نور قوي في الغرفة.. انتقاله فجأة من الظلام الدامس إلى النور الساطع جعله يصاب بالعمى ولا يرى شيئاً.. وتسمر واقفاً في مكانه..

ورفع يده يغطي وجهه كأنه يتفادى الضوء الذي يعميه.. واستطاع بصعوبة أن يرى امرأة شبه عارية.. لم يستطع أن يتبين من النور القوي ملامحها..

وقبل أن يتمالك نفسه، سمع صوتاً يقول له:

ـ ماذا تعمل هنا. . يا محمد؟

وصعق في مكانه. كأن مطرقة هائلة هوت على رأسه.

وتبين ملامح المرأة شبه العارية. . وصاح في صوت أرعشته الدهشة والمفاجأة التي لم يتوقعها وقال:

ـ زبيدة؟!! ماذا تفعلين أنت هنا؟!

ولم ترد زبيدة على سؤال محمد عما جاء بها إلى بيت عوني باشا حافظ وزير الدولة.

ومرت فترة صمت وذهول.

أحس محمد، وهو يتأمل زبيدة، في قميص نومها الأزرق القصير الشفاف، الذي يكشف عن مفاتن كثيرة ومثيرة في جسدها البض العاري، كأنه هبط في كوكب آخر، ولم يهبط في بيت وزير الدولة. . كان يتمزق بين شعورين متناقضي الافتتان، وهو يرى جمال جسد زبيدة العاري يعربد في ثوبها الشفاف، زبيدة التي لم يرها من قبل إلا ملفوفة بالسواد، كأن حجابها السميك الذي كان يخفي وجهها، ينسدل حتى يصل إلى أصابع قدميها، والمرات النادرة التي كشفت زبيدة له عن وجهها لم تستمر إلا لحظات سريعة خاطفة. ثم سارعت تسدل الحجاب السميك الأسود على وجهها. زبيدة يراها الليلة شبه عارية كما ولدتها أمها. إنه لم يحلم في يوم من الأيام أن يراها شبه عارية. لم يجرؤ أن يحلم بها في هذه الصورة المثيرة. طهارة صورتها التي ملأت رأسه قيّدت خياله بسلاسل من حديد. لم يحلم بنصف هذا وهو يتخيلها بين ذراعيه في ليلة زفافها الذي لم يتم.

كانت عيناه الجائعتان تلتهمان كل جزء من أجزاء جسدها العاري الفاتن المثير. كانت عيناه أشبه بجائع لم يذق الطعام عدة أيام، ووجد نفسه فجأة منفرداً بمائدة ملكية فاخرة، تزاحمت فوقها مئات الأصناف الشهية، وهو حائر ماذا يأكل أولاً، وكأنه يريد أن يأكل كل ما على المائدة دفعة واحدة!

وكان شعوره الآخر، هو شعور الذهول، أن يرى المرأة التي يحبها في بيت عدوه، وهي مجردة من ثيابها. . كأن الوزير الذي جاء يسرق منه أهم وثيقة عنده، سبقه وسرق منه أهم شيء في حياته. . المرأة التي أراد أن يتزوجها!

أتكون زبيدة خادمة سرير في منزل الوزير؟ أيكون الوزير التقى بها في المستشفى الذي يتردد عليه لعلاج جروحه من حادث إطلاق الرصاص وتناثر الزجاج في وجهه، واستطاع بنفوذه وثروته وسلطانه أن يقنعها بأن تكون عشيقة الوزير بدلاً من أن تكون ممرضة الوزير؟ أيكون هذا هو السبب الذي جعل زبيدة تعترض على أن تتزوج من محمد فوراً؟ أيكون هذا هو السبب في أنها طلبت تأجيل الزواج لمدة سنة، لأنها قدّرت بذكائها أن عشق الوزراء قصير العمر، ولا يمكن أن يعيش أكثر من سنة، فلما رأت محمد يعترض على أن ينتظر هذه المدة، تأكدت أنه يأبى أن يقوم بمهمة العجلة الاحتياطية في السيارة، ولهذا لم تحضر في موعد الأربعاء؟

مرت هذه الأسئلة والمشاعر على خاطر محمد بسرعة البرق، وتوقفت هذه الأسئلة والمشاعر، عندما رأى زبيدة تقفز من الفراش، وتتجه إلى ستارة كبيرة حمراء، وتخرج من خلفها «روب دي شامبر» وترتديه. ولم يستطع الروب دي شامبر أن يقوم بمهمة حجابها الأسود السميك. على العكس ضاعف من فتنتها وإثارتها. هناك أشياء معينة عندما نغطيها

يزيد عريها، وتتضاعف إثارتها. زجاج اللافتات في محلات المجوهرات يضاعف من لمعان أحجار الماس المعروضة خلفها!

وبقي محمد واقفاً متسمراً في مكانه لم يتحرك خطوة واحدة.

وأقبلت زبيدة نحوه تقول له هامسة في صوت فيه من الحب أكثر مما فيه من اللوم:

ـ لماذا جئت هنا يا محمد؟ هل جننت؟ إنك تعرض نفسك إلى الخطر.. وتعرضني معك إلى الخطر!

قال محمد منفعلاً:

ـ أنا لا يهمني الخطر! أنا الذي أسألك ما الذي جاء بك إلى هنا.. لماذا أنت في بيت عوني باشا حافظ؟

قالت زبيدة في هدوء:

ـ لأنني زوجته!

قال محمد كأن سيارة دهسته:

ـ زوجته؟ زوجته؟ هل تزوجته قبل يوم الأربعاء الذي حددناه لزواجنا!

قالت وهي تتنهد:

ـ كلا... بل قبل عشر سنوات!

قال محمد في غضب:

ـ ولكنك قلت لي أنك ممرضة.. كنت إذن تكذبين علي!

قالت زبيدة في حنان:

ـ أنا لم أكذب عليك يا محمد في كلمة واحدة!

قال محمد، وشرار الغضب يتطاير من عينيه:

ـ أنت تلعبين بالكلمات.. هل كنت ممرضة قبل أن تتزوجيه؟

قالت باسمة:

ـ لا... بعد أن تزوجته إن كل العلاقة التي بيني وبينه هي علاقة بين مريض وممرضة. مهمتي أن أقدم له الدواء في مواعيده. أن أحلل البول في الصباح لأعرف كمية السكر. أن أشرف على نظام طعامه الصحي. أن أدلك جسمه قبل أن ينام لأنه يشكو من روماتيزم حاد في جميع أطراف جسمه. مهمتي أن أعطيه حقن الأنسولين!

قال محمد ومشاعر الغيرة تلذعه:

ـ إذن أنت تحبينه!

قالت ساخرة:

ـ والدليل على حبي له أنني احتفظت بالمسدس الذي أردت أن تقتله به، ولم أسلمك للبوليس!

قال محمد وهو لا يزال لا يصدقها:

ـ ولماذا، بعد أن عرفت أنني أطلقت الرصاص على زوجك، لم تبلغيه؟.

قالت وهي تضغط على أسنانها:

ـ لأنني تمنيت عدة مرات أن أقتله!

قال محمد وقد أصيب بعقدة عدم تصديق أي امرأة:

ـ وإذا كنت تكرهينه كل هذه الكراهية، فما الذي جعلك تتزوجنيه. . وما الذي جعلك تعيشين معه عشرة أعوام؟ إنك تحدثينني كأنني طفل صغير ممكن أن يصدق كل كذبة تقولينها له. كنت أتصور أن الوزراء وحدهم هم الذين يكذبون. وعرفت الآن أن العدوى أصابت زوجات الوزراء!

قالت في صوت حزين:

ـ لك حق يا محمد. إنني تصرفت تصرفاً لا يليق بزوجة وزير! أتعرف قصة زوجة مسيو كايو وزير مالية فرنسا في عام ١٩١٣؟ حدث أن قامت جريدة «الفيجارو» الفرنسية بحملة عنيفة هاجمت مسيو كايو، واتهمه رئيس تحريرها بأنه استغل نفوذه كوزير وسرق أموال الدولة، وكان اتهاماً ظالماً. فما كان من زوجة كايو إلا أن ذهبت إلى مكتب رئيس التحرير، وقابلته، وأخرجت مسدساً من حقيبتها، وأفرغته في صدر رئيس التحرير، وقتلته في الحال. وبرأتها محكمة الجنايات، وقالت في حكمها أن من حق الزوجة أن تغضب للظلم الذي تعرض له زوجها، وأن تقتل الرجل الذي رمى زوجها ظلماً بالوحل والطين! أتعرف لماذا فعلت هذا زوجة الوزير كايو! لأنها كانت تحبه. لأنها كانت تؤمن أنه مظلوم. أما أنا زوجة الوزير المصري، فقد أخفيت المسدس الذي استعمل لقتل زوجي الوزير، وضللت البوليس لكي يفلت الجاني. لماذا؟ لأنني لا أحب زوجي، ولأنني أعتقد أنه رجل ظالم، ظلمني، ويظلم الآن شعباً بأكمله! لو كنت أحبه، ولو كنت أعتقد أنك ظلمته، لجئت إليك في موعدي في حديقة الجبلاية كما فعلت، ولما سلمتك المسدس، بل أفرغت رصاصاته فيك! إن عينيك تقولان إنك لا تصدق كلمة واحدة مما قلته. إنك تريد أن تقول الآن كيف يتحرك قلب امرأة من الطبقة الحاكمة لآلام الشعب، كيف تحس

هذه المرأة التي تعيش في قصر باذخ بآلام السياط التي تلهب ظهور الملايين، كيف تتعذب لقتل عمال العنابر؟؟ اعلم أنني لست من الطبقة الراقية، إنني من صميم هذا الشعب مثلك. إذا كان والدك اتهمه عوني حافظ ظلماً بأنه خطف وزير الحربية وفقد عقله، فإن عوني حافظ اتهم أبي ظلماً، وكاد يفقد عقله! إذا كان والدك ذاق سياط عوني حافظ بضع ساعات، فإنني وأبي ذقنا سياط عوني حافظ عشرة أعوام، وما زلنا نذوقها حتى الآن! أبي رجل فقير مثل أبيك. كان أبي كاتب نيابة عندما كان عوني حافظ رئيس نيابة. وأعجب بأبي لأنه ـ كما كان يقول له ـ «حمار شغل». وكان ينقله معه في كل منصب يتولاه. وأعجبت الحكومة ببطش عوني وقسوته وإيمانه بسياسة العنف، فعينته مديراً للأمن العام في وزارة الداخلية، ونقل أبي سكرتيراً له. وفي ذلك الوقت كان أبي قد أصبح أباً لستة أطفال، أنا أكبرهم وكانت حالة أبي المالية تضطرب سنة بعد سنة بسبب مصاريفنا. ومرضت أمي بالذبحة الصدرية، ولم يجد أبي ثمن الدواء، فاقترض جنيهاً من عوني. وعندما شفيت أمي من أزمتها رأى أبي أن يأخذني أنا وأخوتي الخمسة لنشكر عوني على نبله أثناء مرض أمي. ولا أعرف هل كان هذا عرفان جميل من أبي، أم كان نوعاً من نفاق الموظفين. وكان عمري ١٥ سنة. كنت طالبة في المدرسة السنيّة، وكانت آمالي واسعة في الحياة. وكنت جميلة. أجمل كثيراً مما تراني الآن! وذهبنا إلى بيت عوني بك نشكره، وما كاد عوني بك يراني حتى رأيت في عينيه نظرات مخيفة أرعبتني. كان أشبه بالوحش. له مخالب وأنياب. واقشعر بدني من منظره. وكنت أراه للمرة الأولى. ولست أعرف هل كان مخيفاً حقاً، أم أن ما كنت أسمعه من أبي وهو يروي لأمي أنباء قسوته وشدته، هو الذي جعلني أصاب بهذا الفزع العجيب...

وانتهت الزيارة، وكأنني انتهيت من مشاهدة أحد أفلام الرعب.

وفي اليوم التالي جاء أبي بعد انصراف الدواوين، وكان مصفر الوجه، مضطرباً، وقال لأمي أمامي أن سعادة مدير الأمن العام طلب يدي . .

وصرخت أمي ملتاعة وقالت:

ـ لا يمكن أن أدفن ابنتي وهي على قيد الحياة. . . إن عمرها ١٥ سنة وعمره خمسون سنة!

وقلت لأبي:

ـ إنني سألقي بنفسي من النافذة إذا تمّ هذا الزواج، وإنني أفضل الموت على الزواج من هذا الوحش.

وبكى أبي، ولم يحاول أن يضغط علي، وقال إنه يؤيّدني في رفضي . .

وذهب أبي إلى عوني بك، وقال له إنني لم أوافق على الزواج في الوقت الحاضر، لأنني أرغب في الحصول على شهادة البكالوريا، وعندما أحصل على الشهادة فلا مانع من الزواج، وادعى أنني قلت إنه شرف كبير لي أن أتزوج من مدير الأمن العام. وهكذا اضطر أبي أن يكذب، لينتزع الأنياب من فم الوحش، وليكسب وقتاً يحاول فيه أن ينقل إلى وظيفة أخرى بعيدة عن بطشه وجبروته . .

وإذا بعوني بك يقول:

ـ إذا لم أتزوج زبيدة خلال أسبوع واحد، فسأفصلك من وظيفتك.
وكان لعوني من النفوذ والسلطان ما يجعله قادراً على أن يطرد في الحال موظفين أكبر كثيراً من أبي الذي كان في الدرجة التاسعة.

وعاد أبي إلى بيتنا مهزوماً مقهوراً. كان وجهه أشبه بوجه أبيك عندما

عاد إليك مضروباً بالسياط. كان يحدث نفسه كالمجنون! وأخبرنا بما حدث، وقال إن نتيجة هذا التهديد أن نموت نحن الثمانية من الجوع. . وتصورت أمي وأبي وأخوتي يتضورون جوعاً، وقلت لأبي وأنا أبكي إنني أفضل أن أضحي بحياتي من أجل أمي، ومن أجله، ومن أجل أخوتي. . وبكى أبي واحتضنني، وسقطت دموعه الساخنة على وجهي، وكانت توجعني كأنها السياط. .

وإذا بأمي ترفض تضحيتي، وتقول إنها تفضل أن نموت جميعاً من الجوع، ولا أتزوج هذا الوحش.

وقال أبي:

ـ ولكنك مريضة بالقلب وتحتاجين إلى دواء مستمر. . وإذا فقدت وظيفتي فلن نجد ثمن الدواء!

وقالت أمي وهي تبكي:

ـ الجوع لن يقتلني. . ولكن الذي سيقتلني هو هذا الزواج. .

قال أبي:

ـ إن أحداً لن يقف معنا في هذه المحنة. . الدولة كلها تخاف من بطش عوني بك. .

قالت أمي:

ـ لنا الله!

وكان أبي ضعيفاً أمام دموع أمي، فانقلب يؤيّد الرفض، ويتحمس له، ويقول:

ـ لن أبيع ابنتي بملايين الدنيا كلها!

وذهب أبي وقال لعوني بك إنه يرحب بفصله من وظيفته . .

وتوقع أبي أن ينفجر فيه عوني بك، وأن يصدر قراراً بفصله على الفور، ولكنه فوجىء بابتسامة حلوة وعوني بك يقول له:

ـ هل أنت مجنون يا عرفه؟ هل تصورت حقاً أنني سأفصلك لهذا السبب التافه؟ كنت أداعبك. كيف يخطر ببالك أن أفصلك وأنت تعمل معي منذ أكثر من عشر سنوات! إن عملنا معاً طوال هذه المدة هو أشبه بأكل عيش وملح . . إنني ساصدر قراراً بترقيتك يا أستاذ عرفه الجمل إلى الدرجة الثامنة!

وعاد أبي إلى بيتنا، وهو يطير من الفرح، وقصّ علينا ما حدث، وقالت أمي:

ـ إن عوني تراجع عندما صمدت في وجهه. قالوا لفرعون إيه فرعنك؟ قال ما لقيتش حد يصدني!

قال أبي:

ـ إن سعادة عوني بك أثبت بتصرفه هذا أنه رجل نبيل، إنه كان يستطيع أن يفصلني بسطر واحد يكتبه بخطه.

قلت لأبي:

ـ إن عوني فعل ذلك لكي يحصل باللين ما لم يستطع أن يحصل عليه بالعنف!

قال أبي:

ـ على كل حال نحمد الله أننا نجونا بأعجوبة . .

واقترح علينا أن نذهب إلى سيدنا الحسين، ونقرأ الفاتحة، فإن بركته هي التي أنقذتنا. . وقد نسيت أن أقول لك إننا كنا أيامها نقيم في حي الحسين. وذهبنا نحن الثمانية وقرأنا الفاتحة في جامع الحسين، وصلى أبي ركعتين شكراً لله. وقالت أمي إنها لم تعد تشعر بالألم في قلبها. وعشنا كأننا في عيد، بعد أن عشنا يومين وكأننا في مأتم. .

وبعد أسبوع فوجىء أبي بثلاثة موظفين من الإدارة المالية بوزارة الداخلية، يدخلون مكتبه، ويطلبون جرد عهدته في خزانة الأمن العام. وبعد أن انتهى الجرد قالوا إن العهدة ناقصة سبعمائة جنيه! وذهل أبي. فإن مفتاح الخزانة معه، ولم يفارقه، وطلب إعادة الجرد. وعاد الموظفون يقولون إن مبلغ سبعمائة جنيه قد اختلس من الخزانة. . وتركوه ودخلوا مكتب عوني بك!

وبعد دقائق دق عوني بك الجرس واستدعى أبي، وطلب من الموظفين الثلاثة أن يغادروا الغرفة ويقفلوا الباب. .

وقال عوني بك لأبي:

ـ أنا لست غاضباً عليك. . أنا أقدر ظروفك. . أنا أعرف أنك اضطررت لاختلاس هذا المبلغ بسبب مرض زوجتك!

وصرخ أبي وقال إنه لم يختلس مليماً واحداً.

فقال له عوني بك:

ـ أنا طلبت من المراجعين عدم إبلاغ النيابة كما يقضي القانون، وطلبت إعطاءك مهلة ٢٤ ساعة لإعادة المبلغ. .

قال أبي وهو يبكي:

ـ من أين أجيء بسبعمائة جنيه في أربع وعشرين ساعة؟ أنا لا أملك في بيتي سبعمائة مليم . .

قال له عوني :

ـ أنا مستعد أن أسدد المبلغ عنك، على أن تكتب اعترافاً بأنك اختلست المبلغ . . وعندما أتزوج زبيدة سوف أعيد إليك الاعتراف .

وسكت عوني قليلاً ثم قال له :

ـ وعلى كل حال، فلا أريد أن أرغمك على شيء . . سأعطيك ٢٤ ساعة تفكر في الموضوع . .

وعاد أبي إلى البيت وأبلغنا ما حدث، وكنت على ثقة من نزاهة أبي وأمانته، وتصورت أبي في السجن فانفجرت بالبكاء وقلت إنني مصممة على الزواج من عوني. وهذه المرة سكتت أمي ولم تقل شيئاً . .

وذهب أبي وأبلغ عوني بك موافقتي، فقام من مكتبه وعانقه وقبّله ثم طلب إليه أن يوقع اعترافاً أعده له، ووقعه أبي بحسن نية، وكان على ثقة أن عوني بك لن يستعمل هذا الاعتراف وقد أصبح زوج ابنته . . . وأكد له عوني بك أنه سيعيد له الاعتراف ليمزقه بنفسه بعد الزفاف . .

وجاء عوني بك إلى بيتنا، وقدّم لي هدايا فاخرة، وقبّلني أول قبلة في حياتي، وكان طعمها في فمي يشبه شربة زيت الخروع . .

ثم فوجيء أبي بأن عوني بك لا يريد زواجاً أمام المأذون، وإنما يريد زواجاً عرفياً . .

وهاج أبي. تحوّل هذا الفأر الضعيف الهزيل إلى أسد يزأر، وقال إنه يفضل أن يذهب إلى السجن بتهمة الاختلاس . . على أن يوافق على الزواج العرفي . .

وفي تلك اللحظة تمنيت أن يكون معي مسدس لأقتل عوني حافظ!

ورأى عوني الشرر في عيني أبي وعيني أمي، وعيني.. وتراجع، وأرسل في إحضار المأذون، وعقد القران..

ولم يدفع مهراً.. وقال لأبي إن المهر هو السبعمائة جنيه التي سددها في الخزانة بدلاً من النقود المختلسة!

وزفوني إلى الجحيم. العروس يودعها أهلها بالزغاريد والطبول. أمي وأخوتي ودّعوني بالعويل ولطم الخدود. كلهم كانوا يعرفون أنني الفدية التي قدموها لتذبح، حتى لا يدخل أبي السجن.

ولم يحاول عوني أن يهدىء من روعي، كلما رآني أبكي تضاعفت وحشيته. إفترسني ليلة زفافي بلا مقدمات. وعندما صرخت صفعني على وجهي، وغبت عن الوعي!

وكلما نام بجواري لا أحس بذلك الهناء الحالم الذي تشعر به المرأة بجوار الرجل، وإنما أشعر بألم الصفعة. بعد عشر سنوات من زواجنا ما زلت أشعر بعذاب الصفعة وكأنها سقطت على وجهي من ثوان. حتى اليوم أحس كل مرة يقترب مني عوني فيها كأنه يغتصبني من جديد.

وذهبت إلى أبي وقلت له إنني لم أعد أتحمل هذا العذاب. كلما اقترب مني هذا الرجل والتصق جسمه بجسمي، لا أحس بجلده، وإنما أحس بسكين تمزق أحشائي. كلما قبّلني أحسست شفتاي بكل المرارة التي في هذه الدنيا.

وبكى أبي وقال إن عوني رفض أن يسلمه اعترافه بالاختلاس كما

وعده، وإصراري على الطلاق، معناه أنه سيدخله السجن.

وعدت إلى بيت عوني ذليلة كسيرة مهزومة. وعرفت يومها أنني أسيرة هذا البيت لا سيدته، وأنه محكوم علي بالسجن المؤبد، وأن ثمن خروجي من هذا السجن أن يدخل أحب إنسان إلى قلبي السجن، وكنت أحياناً أعزي نفسي بأن تضحيتي لم تكن بلا ثمن. إن أمي أصبحت تتردد على الطبيب بانتظام. انتقل أبي من غرفته المتواضعة في حي الحسين إلى شقة أكبر في شبرا. لأول مرة أصبح أخوتي البنات ينمن مع أمي في غرفة، وأخوتي الصبيان ينامون في غرفة أخرى مع أبي، مع أنهم عاشوا طوال هذه السنين ينامون جميعاً في غرفة واحدة. أصبح أخوتي يتعلمون في المدارس. نال أبي الدرجة الثامنة ثم الدرجة السابعة. كنت أحاول أن أقنع نفسي بأنني اشتريت بعذابي بعض السعادة لهم.

وماتت أمي. صدقت نبوءتها عندما قالت إن زواجي بهذا الوحش هو الذي سيقتلها. كنت أحاول أن أخفي عنها دموعي، ولكنها كانت ترى هذه الدموع تسقط على خدها وتكويه بالنار قبل أن تسقط من عيني.

وزاد مرتب عوني، وكلما زاد دخله زادت قسوته. وأصبح وكيل وزارة مساعداً، ثم وكيلاً للداخلية، ثم نائباً لوزير الداخلية، وباشا، ووزيراً للدولة. وكلما ارتفع في درجات المنصب انحط في سبابه الذي يوجهه لي. وكان يقول لي: «يا بنت المختلس؟ يا بنت المجرم.. لولاي لكان أبوك في السجن وتشردتم في الشوارع»! وكلما ضعفت صحته ضعفت مقدرته كرجل، وكان يتهمني دائماً بأنني السبب فيما أصابه. إنني باردة كالثلج. لا روح فيَّ ولا حياة. وكان يجيء لي بقمصان نوم مثيرة حتى تثيره. ولم يستطع القميص الشفاف أن يحيي الموتى. وضاعف عجزه كرجل من قسوته، وسوء معاملته، وتهديده لي بأنه سيزج بأبي في السجن.

وذات يوم كان نائماً بجواري. وحاول أن يغتصبني ففشل. وبدل أن يخجل من نفسه صاح فيَّ:

ـ أنت عاهرة! إنني رجل محترم لم أتعود أن أنام مع العاهرات.. وهذا سر ما أصابني!

■■■

واستطردت زبيدة:

ـ أنت تألمت يا محمد عندما قال: عوني حافظ لأمك: يا عاهرة! أما أنا فقد شعرت أنه ذبحني بهذه الكلمة! أنا التي تحملت كل هذا العذاب وهذا الهوان عشر سنوات، ولم أفرط في شرفي. وفي تلك اللحظة قررت أن أقتله، أو أتحول إلى عاهرة!

وخانتني شجاعتي أن أتحول إلى عاهرة، كل ما سمحت به هذه الشجاعة أن أصبح قاتلة! وقررت أن أذهب إلى بيتنا في حارة علوي المتفرعة من شارع حوض الزهور، لأعطي مبلغاً لأخي الأكبر محمود الذي يعمل موظفاً في وزارة الحربية ليشتري لي مسدساً بحجة أنني أحتاجه للدفاع عن نفسي بسبب الاعتداءات التي تقع على الوزراء.. وانتظرت أخي في بيته فلم يحضر، وعدت أدراجي وأنا أصلي لله أن أجد المسدس...

وفجأة رأيتك أمامي تعطيني مسدسك! وتطلب مني أن أخفيه وأقابلك في اليوم التالي في حديقة الجبلاية. تصورت عندئذ أنك لست شاباً ولا رجلاً، أن الله أرسل ملاكاً من السماء يحمل مسدساً. لم أعرف عندئذ جريمتك. لم أعرف هل أنت قاتل سياسي أم قاتل عادي. كل

هذا لم يهمني . . كل ما كان يهمني أن المسدس أصبح في حقيبتي . وعندما رأيت رجال البوليس يتابعونك . ضللتهم لانني كنت لا أريد أن يقبض البوليس على ملاك أرسله الله من السماء!

وعندما عدت إلى بيتي رأيت ضجة أمامي . وسمعت الخدم يقولون إن رجلاً أطلق الرصاص على الباشا . وفرحت . وشعرت أنك فعلت ما تمنيت أن افعله ، أنك أردت أن تقتله من أجلي أنا . أحسست أنني أحبك . أحسست كأنك الرجل الوحيد الذي فهمني . . أنك أبي وأخي وابني وكل شيء في حياتي . لم أكن قد تطلعت في وجهك . لم أكن أذكر ملامحك . كان المسدس الذي في حقيبتي هو أنت .

دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب ، وأخرجت المسدس وقبّلته . قبّلت قبضته وكأنني أقبل يدك التي لمست قبضته . قبّلت زناده وكأنني أقبل أصبعك التي ضغطت على الزناد . قبّلت فوهة المسدس وكأنها عيناك اللتان لم أكن أعرف لونهما . .

وعرفت بعد ذلك أن زوجي لم يصب إلا بجروح سطحية . وقررت أن أتم المهمة التي لم تتمها . وفي نفس الليلة عندما عاد إلى البيت وقد ضمّد وجهه بالضمادات البيضاء لم أشعر بأي عطف عليه . أحسست أن دمه الذي نزف منه هو قطرة من الدم الذي أراقه من دمي ، ومن دم ألوف العمال الأبرياء . وقررت أن أقتله في هذه الليلة .

وانتظرت حتى نام ، وحملت المسدس في يدي وذهبت لأقتله في غرفة نومه ، في نفس الفراش الذي اغتصبني فيه . وعند وصولي إلى باب الغرفة جبنت . تذكرت مصير أبي وأخوتي . وأكذب عليك إذا قلت لك إن هذا الشعور وحده هو الذي غمرني . كانت في قلبي عاطفة غريبة جديدة أخرى ، لم أعرف وقتئذ ماذا تعني ، كنت أرغب أن أعيش إلى

الغد حتى أراك في موعد حديقة الجبلاية . .

ورأيتك . ولم أحبك بعد أن رأيتك ، لأنني كنت قد عبدتك قبل أن أراك . ولكنني أحببت الحياة . وجدت للحياة طعماً مختلفاً عن طعمها في فمي طوال السنوات العشر الماضية . ولأول مرة اختفت تعاستي مع عوني . كانت حياتي طوال الأسبوع يوماً واحداً هو يوم الأربعاء ، بل ساعة واحدة في هذا اليوم . من أجل هذه الساعة كنت أتحمل راضية كل قسوة عوني وبذاءته ووحشيته . إن ساعة واحدة مع رجل تحبه المرأة ، تساوي عندها عمراً كاملاً من الشقاء ولم أفكر أن أكون عشيقتك . كل ما تمنيته أن أراك ساعة واحدة كل أسبوع . نصف ساعة . . خمس دقائق . . دقيقة واحدة تكفيني !

وفوجئت بك تطلب مني أن أتزوجك فوراً . وحاولت أن أقنعك بإعطائي مهلة لأدبر أموري . ولكنك لم تشأ أن تفهم . لم تشأ أن تنتظر ، وأصررت أن يكون زواجنا بعد أسبوع . وقلت لي إن هذا هو أمرك الأول لي باعتبارك زوجي . وخشيت أن أصدمك بأن أقول لك الحقيقة ، وعدت إلى بيتي أفكر في هذه الورطة التي أوقعت نفسي فيها . وخطر ببالي أن الحل الوحيد هو أن أهرب معك . وتذكرت سلطة زوجي ونفوذه ، إنه قادر أن يجدنا في أي مكان نهرب إليه.. وخشيت عليك أنت وعلى مستقبلك ، ورأيت أن ليس أمامي إلا أن أنسحب من حياتك وأعيش على ذكرى اللحظات التي أمضيتها معك .

وأكذب عليك إذا قلت لك إنني كنت تعيسة بهذه التضحية . على العكس ، أصبحت سعيدة لأول مرة في حياتي . لأنني ذقت الحب لأول مرة في حياتي .

وأمضيت وقتي في القراءة . إنها هوايتي الأولى والأخيرة . ولكنني

تفرغت لقصص الحب. حفظت عن ظهر قلب قصة «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقي. حفظت أشعار المجنون في ليلى. حفظت قصة مصرع كليوبترا لشوقي. أصبحت أعيش في قصص الحب كلها. أتخيلك أنت قيس؟. أتخيلك أنت مارك انطوان.. أتخيلك جميل وأنا بثينة.. تحول عوني حافظ إلى شبح. لم أعد أكرهه لم أعد أحس بوجوده، لم يعد في قلبي أي مكان لعاطفة سوى الحب.. إن الذين يحبون لا يعرفون كيف يكرهون..

■ ■ ■

وسكتت زبيدة...

وبقي محمد ساكتاً. لم يفتح فمه بكلمة واحدة. لم يقاطعها. لم يسأل. لم يستفسر. كان وجهه جامداً. لا يعبر عن أي عاطفة. لم تهزه كوارثها المتلاحقة، ثم فتح فمه ليتكلم، ثم عاد وأطبق شفتيه.

وتعلقت عينا زبيدة بشفتيه، ثم قالت له:

- ما لك ساكت يا محمد؟. تكلم... قل أي شيء!

قال محمد:

- كل ما أستطيع أن أقوله إنك كاذبة في كل كلمة قلتها!

قالت ملتاعة وهي تتراجع كأنها أصيبت برصاصة قاتلة من مسدس وضعه في شفتيه:

- أنا كاذبة يا محمد؟

قال محمد:

- إنني لم أعد أصدقك... لم أعد أصدق أي امرأة في العالم...

حتى أصبحت أخشى أنني لن أصدق أمي. . . أصبحت أعتقد أن الأنوثة هي الكذب. . . كل ما في المرأة محاولات لإخفاء كذبها. . . ملابسها صنعت لتكذب، لتبرز أشياء وتخفي أشياء.

مساحيقها تكذب، تظهرها على غير حقيقتها. . . الكورسيه الذي تحيط به بطنها يكذب، يخفي حجم جسمها الحقيقي. . . علاقة الصدر تكذب. تصور ثدييها بصورة غير صورتها. . . عطرها يكذب، يجعل أنفاسها تنطق بمعان لا تعنيها. . المرأة هي التي أوحت إلى الشعراء والفنانين بأعمالهم الخالدة. . لماذا؟ لأنها جعلت أصابعهم تكذب وهي ترسم، وتجعل من الحقيقة خيالاً، ومن الخيال حقيقة. . . وجعلت شياطين الشعراء تكذب وتبالغ في تصوير العواطف، فتجعل من مغامرة عشق قصة هوى خالدة. . . إن تجربتي معك جعلتني أشك في كل شيء أكفر بكل معنى. كنت وأنا أسمعك تتحدثين أتصور نفسي جالساً في مسرح رمسيس أتفرج على مسرحية ليوسف وهبي، فيها مبالغات وخيانات وإطلاق رصاص. .

وأكمل محمد:

ـ ولقد كدت أنسى نفسي وأصفق عندما انتهيت من حديثك كما كنت أفعل وأنا أسمع الممثلة أمينة رزق تروي مأساتها في مسرحية «أولاد الفقراء»!

قالت زبيدة وهي تهز رأسها:

ـ إن الذي يحب امرأة يصدق كل كلمة تقولها: حتى ولو كانت غير معقولة. . إن عدم تصديقك لي يدل على أنك لا تحبني!

قال محمد:

ـ لم أكن أحبك، كنت أعبدك.

قالت زبيدة في ألم:

ـ إنني مستعدة أن أدفع عمري كله لتصدقني. لا شيء يؤلم المرأة التي تحب أكثر من أن تسمع من تحب يشك في صدقها!

قال محمد وهو يتفادى أن ينظر إلى جسدها الفاتن حتى لا يقع تحت سيطرتها:

ـ في استطاعتك أن تثبتي لي أنك صادقة لو فعلت ما سوف أطلبه منك الآن!

ولمعت عينا زبيدة، تصورت أنه يـريدهـا في تلك اللحظة لتقـدم الدليل على أنها امرأة صادقة...

قالت وهي تتراجع خشية أن تضعف:

ـ إن قلبي زنى معك.. أما جسدي فأتوسل إليك أن تدعه طاهراً كما كان دائماً!

قال محمد غاضباً:

ـ إنك تتصورين كل الرجال أنذالاً مثل زوجك عوني حافظ! لست بالرجل الذي ينتهز الفرص ليغتصب امرأة يريدها... الذي أريده منك هو شيء آخر، بعيد جداً عما فهمت!

وتنفست زبيدة الصعداء وقالت في لهجة ذليلة:

ـ آسفة يا محمد... إن الشك مرض معد. شكـك في صدقي، جعلني أشك في نواياك. إنني مستعدة أن أفعل أي شيء تطلبه مني.

قال محمد بحزم:

- إنني جئت إلى هنا لأحصل على ملف قضية الوثيقة المزورة.

قالت زبيدة في حسرة:

- إنني توهّمت أنك قمت بهذه المغامرة لتراني؟.. وأنك تبعتني، حتى عرفت أين أقيم، وعرضت حياتك للخطر من أجلي... كان وهماً لذيذاً عشت فيه بضع دقائق... ليتك انتظرت قليلاً قبل أن تواجهني بالحقيقة التي أيقظتني..

قال محمد:

- إن عوني حافظ أحضر هذا الملف من مكتبه في وزارة الداخلية منذ بضعة أيام، وهو موجود في مكتبه هنا... إن هذا الملف سينقذ بريئين من السجن.

قالت زبيدة في دهشة:

- إن معلوماتك صحيحة... فعلاً أحضر عوني هذا الملف من مكتبه، ولكنه غير موجود هنا!

قال محمد في انفعال:

- كيف تقولين إنه غير موجود هنا؟. إنني واثق أنه موجود هنا، كما أثق أنك واقفة أمامي:. اذهبي واحضري هذا الملف إذا كنت صادقة..

قالت زبيدة:

- إنني رأيت عوني وهو يحرق هذا الملف وسألته عنه، فقال إنه ملف

قضية الوثيقة المزيفة.. ولم تعد له أهمية بعد أن قدّمت القضية إلى المحكمة.

قال محمد:

- إنني لا أصدقك!

قالت زبيدة وهي تبكي:

- أقسم أنني صادقة يا محمد.. إنني مستعدة أن آخذك إلى المكتب، وتأخذ كل ما فيه من أوراق.. ولكنني أؤكد لك أن الملف الذي تطلبه قد أحرق وأصبح رماداً.. صدّقني يا محمد إنني لم أكذب عليك أبداً... ولكن يمكنني أن أعرف ماذا كان في هذا الملف، وأخبرك به، أعطني فرصة..

قال محمد ساخراً:

- فرصة كالفرصة التي أعطيتها لك في الجبلاية واختفيت بعدها.. المؤمن لا يلدغ من امرأة مرتين!

قالت:

- أعدك أن أقابلك يوم الأربعاء القادم ومعي كل الأسرار التي تريدها. أنا أعرف أن عوني حافظ هو الذي دبّر مؤامرة الوثيقة المزورة. أنا رأيته يوم القبض على توفيق دياب وعزيز ميرهم يفرك يديه في سعادة ويقول: إن الفخ الذي دبرته لرئيس الوفد وقع فيه.. إن الملك فؤاد كلمني في التليفون شخصياً وهنأني على عبقريتي وقال لي: برافو عوني باشا.. صدقي باشا صافحني بشدة، وإن كنت شعرت أنه كان يحسدني لأنني أثبت للملك أن عوني حافظ هو سيد الكفاءات وليس اسماعيل صدقي... ومن أجلك سوف أتغلب على عواطفي

ومشاعري! وسوف أحاول لأول مرة في حياتي ألا أكون باردة معـه. سأغمض عيني وأتخيلك أنت. وأنا واثقة أنني قادرة في تلك اللحظات أن أنتزع من عوني حافظ كل ما أريد، أعطني مهلة أسبوع وسـوف ترى.

قال محمد وهو يحاول أن يقنع نفسه بأن يصدقها ولا يستطيع:

ـ كيف أنتظر أسبوعاً. . ومحكمة الجنايات ستبدأ المحاكمة بعد أربعة أيام؟

قالت زبيدة في توسل:

ـ إذن أعطني مهلة ثلاثة أيام. . ثلاثة أيـام فقط. . سأقـابلك في الساعة السادسة في الجبلاية. ثق بي يا محمد هذه المرة. . صدقني يا محمد!

قال محمد وهو في حيرة بين أن يكذبها وأن يصدقها:

ـ أعطيني سبباً واحداً لأصدقك.

وسكتت زبيدة لحظة، ثم قالت:

ـ سأعطيك السبب الذي يجعلك تصدقني.

ومدت ذراعيها نحو عنقه، والتصقت بـه، وقبّلته في شفتيـه قبلة طويلة حلوة لذيذة شهية، نسي فيها كل ما يؤمن به عن أكاذيب النساء. وعندما انتهت القبلة، ترنح. كان لا يزال سكران بخمر القبلة. كان لا يزال يشعر أنه في جنة شفتيها. كانت القبلة أشبه ببساط من الريح حمله إلى عالم من اللذة والنشوة والهناء.

وقال محمد وهو يعود إلى شفتيها من جديد:

ـ الآن فقط. صدقتك يا حبيبتي!

وفي هذه اللحظة سمعا مقبض باب الغرفة يتحرك!

كان صوت المقبض كأنه صفعة هوت على وجهيهما، على قلبيهما، على جسديهما.. وأيقظتهما هذه الصفعة مذعورين من الحلم الرائع الذي خدرهما، وحملهما إلى نعيم سحري.

وأحس العاشقان أن دقات قلبيهما التي كانت تعزف معاً أحلى أغنية في العالم، قد توقفت فجأة عن العزف.. ابتعدت شفاههما المتلاصقة في رعب.. تراخت يدا زبيدة اللتان كانتا تحيطان بعنق محمد. كأن القيامة قامت في اللحظة التي ولدت فيها سعادتهما..

وسمعا دقاً متواصلاً على الباب.

وكأن الدق ليس على الباب، وإنما فوق قلبيهما، فوق رأسيهما.. ثم سمعا صوتاً أجش يقول في عنف:

ـ زبيدة.. افتحي الباب!

■ ■ ■

قالت زبيدة في صوت مرتجف هامس:

ـ إنه زوجي!

وتسمّر محمد في مكانه من الرعب، وشدّته زبيدة من يده وأرادت أن تخفيه في الشرفة، ثم عدلت، وجذبته لتخفيه تحت السرير، ثم عدلت، وأخيراً جذبته من يده وأخفته خلف الستارة القطيفة الحمراء، بين ثيابها المعلقة فوق الشماعات..

وعادت يد عوني باشا حافظ تدق الباب بعنف وهو يقول:

ـ إني أسمع صوت رجل في الغرفة!

واتجهت زبيدة إلى المائدة التي بجوار فراشها، وأخذت منها كتاباً، ثم مشت بخطوات بطيئة نحو الباب، وأدارت المفتاح، وفتحت الباب.

واندفع عوني باشا نحو الغرفة، وهو يفتش بعينيه فيها ويقول:

ـ إنني سمعت صوت رجل هنا.. أين هو؟

وتطلعت زبيدة إلى وجه عوني باشا فرأت أنه نسي أن يضع على عينيه نظارته، فاطمأنت أنه لن يرى شيئاً!

وقالت له بهدوء عجيب:

ـ نعم.. كان هنا رجل.. ولا يزال في الغرفة!

قال عوني باشا وهو يتجول في الغرفة كضبع هائج:

ـ من هو هذا الرجل؟

قالت زبيدة وهي تضحك:

ـ مجنون ليلى!

ـ لقد كنت أحفظ مسرحية «مجنون ليلى».. وكنت أقوم بدور ليلى ودور المجنون في الوقت نفسه.. كنت أقلد صوت زينب صدقي في دور ليلى، ودور أحمد علام في المجنون.. ولما طرقت الباب كنت أمثل المشهد عندما فوجئت ليلى بعد زواجها من ورد بن ثقيف، برؤية حبيبها قيس يجيء إليها في بيت زوجها فقالت له:

ـ أحقاً حبيب القلب؟ أنت بجانبي؟ أحلم سرى؟ أم نحن منتبهان؟

أبعد تراب المهد من أرض عامر بأرض ثقيف، نحن مجتمعان؟!

ثم دفعت زبيدة بقصة «مجنون ليلى» إلى عوني باشا وهي تقول له:

ـ ما رأيك يا عوني أن نمثل هذه المسرحية معاً.

الآن؟ أقوم أنا بدور ليلى.. وتقوم أنت بدور المجنون!

قال عوني حافظ:

ـ أنا لست مجنوناً لأقوم بدور المجنون.. أنت هي المجنونة.. لأنك تحدثين نفسك وتقلدين صوت أحمد علّام وزينب صدقي!

قالت له زبيدة وهي تفيض رقة وعذوبة:

ـ إنني لا أستطيع أن أنام.. تعال نتسل بقراءة قصة المجنون معاً.

قال عوني باشا في دهشة:

ـ هل أنت مجنونة؟ أنا لا أحب الشعر وأكره الشعراء..

قالت زبيدة وصوتها يرق:

ـ كل حياتك عمل عمل عمل.. تعال الليلة نغير حياتنا.. أنت أحمد علام وأنا زينب صدقي.. ولنجعل هذا السرير خشبة المسرح، إذ تكون أنت زينب صدقي وأنا أحمد علام!

وتطلع عوني حافظ إلى زبيدة في ذهول، وقال لها:

ـ ماذا جرى لك الليلة؟.. ماذا حدث لعقلك؟ هل أنت سكرانة؟.

وجلست زبيدة فوق الفراش، وأجلسته بجوارها، وتعمّدت أن

يكون ظهره إلى ناحية الستارة التي يختبىء خلفها محمد.

ومالت عليه في دلال وقالت وهي تمد شفتيها نحوه:

ـ تعال، شمّني.. أنا لم أذق الخمر طوال عمري.. ولكنني سعيدة الليلة..

وقرّب عوني حافظ أنفه من فم زبيدة، وملأت أنفاسها الحارة وجهه، وأحس بأشياء غريبة جديدة، كأن صوتها المثير وأنفاسها الحارة أيقظت ما كان نائماً من مشاعره، وبعثت إلى الحياة ما كان ميتاً فيها..

ولم يصدق عوني حافظ أذنه، وتمنى أن تكون نظارته معه، ليرى تعبير وجهها. أحقاً أنها تريده؟ تريده لأول مرة بعد عشرة أعوام؟

وأحس في داخل جسده الفاني بحركة غريبة. كأن بعثاً بدأ فيه، فنزعت أعضاء ميتة كثيرة من جسمه أكفانها، وعادت إليها الحياة.. وارتعش جسمه كأن الخائف المهزوم فيه تحول إلى مغامر يؤمن بالنصر!

وعادت زبيدة تقترب منه وتقول:

ـ علشان خاطري يا عوني! اذهب واحضر نظارتك من غرفتك، وعد لنقرأ «مجنون ليلى» معاً..

وكأن زبيدة نوّمت عوني حافظ تنويماً مغناطيسياً. أصبح فجأة وزير الدولة بلا إرادة. ووقف على الفور، وتحرّك إلى الباب في خطوات بطيئة نشوى!

وما كاد يخرج من الغرفة، حتى أطفأت زبيدة النور، وأسرعت إلى الستارة، وجذبت محمد من يده، وهي تقول:

ـ أخرج الآن.. أخرج فوراً..

قال هامساً وهو يتشبث بالستارة. .

ـ سيعود الآن ويراني.

قالت له وهي تهمس ضاحكة:

ـ إنه يحتاج لعشر دقائق على الأقل ليجد النظارة. . إنه بالنظارة نصف أعمى، وبلا نظارة أعمى تماماً. .

ومشى محمد على أطراف أصابعه يتبع زبيدة، وفتحت زبيدة باب الشرفة، وقبّلته وهي تقول:

ـ موعدنا يا حبيبي ليس بعد ثلاثة أيام كما وعدتك. . موعدنا غداً. . الساعة السادسة مساء!

وأغلقت باب الشرفة وراءه، ثم راحت ترقب محمد وهو ينزل على سلم الحبال، ويتعلق بالشجرة، ثم يهبط إلى أرض الحديقة. وبقيت واقفة وراء النافذة، إلى أن رأت محمداً يقفز فوق السور، إلى بيت الجيران. .

وعندئذ ذهبت إلى فراشها واستلقت فوقه وأمسكت الوسادة وراحت تقبلها في عنف. .

وأقبل عوني باشا حافظ يتحسس طريقه في الظلام وهو يقول:

ـ لماذا أطفأت النور، كيف يمكن أن نقرأ في الظلام؟

قالت زبيدة وهي تضحك:

ـ ألا تعرف أن المسارح تطفىء الأنوار عادة قبل فتح الستارة؟

وتوقف عوني باشا عند الباب لا يستطيع أن يرى طريقه في الظلام،

ومدت زبيدة يدها وأضاءت أباجورة حمراء إلى جوار مخدعها وهي تقول:

ـ هذا ضوء رومانتيكي يصلح للمنظر الغرامي الذي سنقرؤه معاً!

■ ■ ■

ما كاد محمد يصل سالماً إلى أرض حديقة منزل النائب السابق عبدالعزيز ابراهيم، ويسترد أنفاسه، بعد أن قطع المسافة بين بيت عوني باشا حافظ وسور حديقته، وهو يزحف على بطنه، ما كاد يطمئن إلى أنه وصل إلى أرض الأمان، وما كاد ينتهي من حزم السلم والمفاتيح من الورق الذي كان تركه خلفه، حتى أحس فجأة بشعور غريب. أحس أنه يريد أن يعود إلى بيت عوني باشا من جديد.. لقد رأى ضوءاً أحمر ينبعث من غرفة نومها. نهشت الغيرة قلبه. إنه يعرف ماذا يعني الضوء الأحمر. يجب أن يعود ويقفز السور، ويزحف على بطنه من جديد ويتعلق بالشجرة ويصعد إلى شرفتها على سلم الحبال.

المغامرة الأولى قام بها لحساب الشعب، والمغامرة الثانية لحسابه هو. لعلها الآن بين ذراعيه. لعله الآن يجردها من ملابسها. لعله يلتصق بها. إنه لم يطق أن يرى عوني باشا وهو يقرب أنفه من فم زبيدة ليشم رائحة الخمر التي تخيلها. تمنى محمد في تلك اللحظة لو أن المسدس كان معه ليفرغ رصاصة في رأسه. أحس برغبة عارمة في أن يزيح الستارة الحمراء التي كان يختبىء خلفها، ويطبق بيديه على عنقه ويخنقه. شعر أنه يكره عوني حافظ وهو يقترب من زبيدة أكثر من كراهيته له وهو يضرب أباه بالسياط، أكثر من كراهيته له وهو يقول لأمه: يا عاهرة!

كيف استطاع أن يتحكم في أعصابه في تلك اللحظات؟ المجهود الذي بذلته أعصابه وهو يشهد زبيدة مع عوني أضعاف المجهود الذي

بذله، وهو يقفز السور ويتسلق الجدران!

ويعود يفتح اللفافة، ويخرج سلم الحبال، ويلقي بخطافه على السور، ويجذب السلم ليتأكد أن الخطاف ثبت فوق السور، ووضع قدمه على أولى درجات السلم، ثم توقف. تردد أن يكرر المغامرة. وأقنع نفسه بأنه لا يريد أن يقوم بهذه المغامرة، من أجل أن يرى زبيدة بين أحضان عوني، إنما عودته هي جزء متمم لمهمته الأولى. إنه يريد أن يسمع بأذنه الأسرار التي سوف تنتزعها زبيدة من عوني.

ويضع قدمه من جديد على السلم، وهو يعلم تماماً أنه لم يقتنع بهذه الحجة، إنه يخدع نفسه، كل ما يريده أن يضبطها بين ذراعي عوني باشا.

ووصل محمد إلى أعلى سور الحديقة، والتفت إلى ناحية نافذة غرفة زبيدة، فرأى النور الأحمر ينطفىء، ويسود الغرفة ظلام دامس.

هل أنهت زبيدة مهمتها وحصلت على الأسرار؟ ولكنه سمع زبيدة بأذنه تقول لعوني باشا إن المسارح تطفىء الأنوار عادة قبل فتح الستارة.. أيكون إطفاء النور علامة على أن الفصل الأول من المسرحية قد انتهى وابتدأ الفصل الثاني؟.

ثم خيّل له أنه يسمع صوت حركة، فأسرع يهبط على سلم الحبال عائداً إلى حديقة النائب السابق عبد العزيز ابراهيم من جديد. ومشى إلى باب الحديقة. وعالج الباب الحديدي فوجده مفتوحاً، وخرج من الباب، وأدهشه أن سائق النائب قد اختفى. كأن التعليمات التي لدى السائق أن يذهب لينام. حتى إذا ضبط محمد، تحمل محمد وحده مسؤولية الجريمة. وأغلق الباب وراءه، ومشى بهدوء أمام منزل عوني باشا، ورأى جنود جرس الوزارات الثلاثة جالسين على دكة أمام

الباب. وهم شبه مخدرين. وسمع أحدهم يشير إليه وهو يقول:

ـ إنها قطة! والله الغظيم قطة!

وإذا بالآخر يقول له:

ـ لا.. هذا قط لا قطة! علي الطلاق إنه قط!

وقال الثالث وهو يتهيأ للوقوف في تثاقل:

ـ ولماذا الخلاف.. سأذهب وأحضره لنعرف هل هو قط أم قطة؟

وأسرع محمد في خطواته، خشية أن يمسكوا به ليتأكدوا هل هو قط أو قطة!

وسمع الجندي الثالث يعود أدراجه ويقول بصوت عال:

ـ لا قط، ولا قطة.. إنه فأر!

وابتسم محمد وتأكد عندئذ أن المعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي فرج، قام بمهمته خير قيام، وأن الحشيش الذي جاء به كان من النوع الممتاز!

ترى هل وفق في مهمته كما وفق المعلم وهدان؟ أم أن زبيدة خدّرته هو أيضاً، وأن جمالها وفتنتها وإثارتها لا تقل في مفعـولها عن حشيش المعلم وهدان؟ أيكون دخل إلى بيت عوني باشا وهو كالأسد، وخرج منه وهو كالقطة، أو القط، أو الفأر؟

قالت له زبيدة إنها ستجيء بالأسرار غداً لا بعد ثلاثة أيام، وفهم من ذلك أنها تأكدت أن الفأر دخل المصيدة، ولا داعي للانتظار، ما كانت تريد أن تحققه في ثلاثة أيام حققته في ليلة واحدة، وهي ترى

عوني باشا يفقد إرادته أمام سحر صوتها. هل ستجيء في الموعد، أم ستفعل به ما فعلته في موعد يوم الأربعاء المشهور؟ أتكون صادقة هذه المرة؟ أم هو يتمسك بأهداف وهم أوهى من نسيج العنكبوت؟

لقد فوجىء بزبيدة في صورة لم يتخيلها. كانت تنشد شعر شوقي عن الحب بعذوبة غريبة. كانت تمثل الحب وكأنها زينب صدقي، بل كأنها نجوى المناسترلي. . أيكون كل نساء العالم ولدن ممثلات؟ التمثيل هو نوع من أنواع الكذب، والكذب هو الفن الذي برزت فيه المرأة وتخصصت فيه؟

هل كانت زبيدة تمثل على عوني باشا، أم تمثل عليه، أم تمثل عليهما معاً؟ إذا كانت زبيدة تكره عوني باشا كل الكراهية التي رآها في عينيها وهي تروي تاريخها معه، فكيف استطاعت في لحظات أن تتقمص دور الغانية اللعوب، وتندمج فيه؟ إن الممثلة التي تتفوق في أدوار الحب تتفوق عادة في أدوار الحقد والكراهية.

لقد رأى قبل ذلك نجوى وهي تعانق زوجها الأشموني باشا بذراعيها، وتقبله بشفتيها، وتخونه بعينيها في وقت واحد. . أتكون زبيدة هي الأخرى مؤلفة مسرحية؟ هل شاء حظه التعس ألا يقع إلا في براثن المؤلفات المسرحيات؟

ثم هذه القبلة التي طبعتها زبيدة على شفتيه، والتي لا يزال في فمه طعمها الشهي، هل من المعقول أن تكون قبلتها الثانية. .؟ لا بد أنها ذاقت آلاف القبلات من قبل لتستطيع أن تسكب هذا الرحيق بين شفتيه. كانت قبلتها الأولى قبلة قديسة على رأس مجرم، حولته إلى تائب. أما قبلتها الأخيرة فكانت أشبه بنداء الشيطان.

أنسته حذره. أنسته شكوكه. أنسته المهمة الخطيرة التي جاء من أجلها.

■ ■ ■

ووجد محمد نفسه أمام قهوة المعلم وهدان أبو خطوة. خلت من الزبائن. أطفئت الأنوار. رأى باب القهوة موارباً، وفتح الباب بهدوء، فوجد المعلم جالساً يدخن الجوزة، وما أن رآه المعلم حتى تهلل وجهه، ومد يده إلى اللفافة وهو يقول:

ـ هل هذا هو الملف المطلوب. .

قال محمد:

ـ لا، إن في داخل اللفافة السلم والمفاتيح.

قال المعلم وهدان في دهشة:

ـ وأين الملف؟

قال محمد في حسرة:

ـ لم أعثر عليه: الملف غير موجود في المنزل.

قال المعلم وهدان في غضب:

ـ كيف لم تعثر عليه؟ يا خيبة شباب هذه الأيام. . لو كنت مكانك في هذه المهمة ولم أجد الملف، لأحضرت عوني باشا حافظ نفسه بدلاً من الملف!

قال محمد:

ـ كيف أحضره. . لم أكن أحمل مسدساً!

قال المعلم:

ـ تخنقه بيديك. . لماذا خلق الله لنا اليدين؟ لنخنق بهما الأعداء عندما لا نجد معنا أسلحة! إنك سوّدت وجهي يا محمد! أضعت كل مجهوداتنا في الهواء. يا خسارة الحشيش الذي دخنه جنود حرس الوزارات. . إنه نوع ممتاز من الحشيش لم يدخنه رئيس الوزراء نفسه في حياته!

قال محمد:

ـ أعطني فرصة يوماً واحداً. . وسأحصل على كل شيء!

قال المعلم وهدان:

ـ فرصة؟ أي فرصة! هذه الأمور لا تتكرر أبداً. هذا آخر يوم من دورية جنود حرس الوزارات، وسيتغيرون بجنود آخرين. . وقد لا يجيء دور هؤلاء إلا بعد عام. . إنك فاشل يا محمد!

وقام المعلم وهدان من مقعده، وألقى الجوزة على الأرض، وأطفأ النور، ودفع محمد إلى خارج الباب، ثم أغلق الباب، ومشى عائداً إلى بيته دون أن يوجه إليه تحية أو سلاماً.

ضاعت من شفتي محمد قبلة زبيدة. امتلأت شفتاه بمرارة الفشل. وجد نفسه يتضاءل ويتضاءل. لم يكن جنود حرس الوزارات مخدرين عندما وصفوه بأنه قطة أو فأر!

الشعور بالفشل شعور قاتل، إنه مزيج من الذل والخيبة، خليط من الشقاء والهوان، كوكتيل يجمع اليأس والغيظ والندم والانسحاق في كأس واحدة. ولقد كره المعلم وهدان، فنحن نكره الذين يقولون لنا إننا فاشلون، ونمقتهم إذا كنّا نعرف أننا فاشلون فعلاً!

تعوّد محمد أن يرى في المعلم وهدان ضمير الشعب، الكلمة التي يلقيها بغير مبالاة تصبح شعار الشعب في كل مكان. ألم يقل يوم حادث إطلاق الرصاص في شبرا إن الحادث دبرته الحكومة، ولم تمضِ دقائق إلا وأصبحت هذه الجملة التي سخر منها محمد عندما سمعها، على ألسنة الملايين في كل مكان. على ألسنة الجهلاء، على لسان طالب المدارس العليا، على ألسنة زملائه طلبة المدرسة السعيدية؟ هل تصبح كلمة «فاشل» هي الأخرى على لسان الملايين؟ هل سيسمعها من الدكتور أحمد ماهر ومن الأستاذ محمد عبد الصمد ناظر مدرسته؟

لماذا لا يذهب إلى الدكتور ماهر ويخبره بحقيقة ما حدث، ويقول له إنه سيجيء له بكل ما في الملف بعد بضع ساعات فقط، بعد الساعة السادسة مساء؟

وتردد أن يدق باب الدكتور ماهر في الساعة الثالثة صباحاً، ويوقظه من النوم، ليقول له إنه لم يجد الملف المطلوب، وقرر أن ينتظر إلى الصباح.

وفي الصباح عاد يتردد من جديد في الذهاب. ما يدريه أن زبيدة ستحضر في موعدها. ما يدريه أنها ستفعل به ما فعلته به يوم موعد يوم الأربعاء؟ لو أنه ذهب صباح اليوم وأخبر الدكتور ماهراً أنه فشل، وعاد وذهب إليه في المساء وقال له إنه فشل أيضاً فسوف يصبح الفشل مركباً. . إن يكفيه فشل واحد. . . !

الفشل الذي يشعر به الآن يقيّد حركاته، يشل تفكيره. الفشل أشبه بسلاسل من الحديد تغل أقدامنا فلا تتحرك، وتغل عقولنا فلا تفكر وتعمي أبصارنا فلا نستطيع أن نرى مواقع السلاسل لنحطمها، ونحاول من جديد. .

وعاد محمد يفكر في موعد الساعة السادسة مساء. . ماذا يفعل لو أنها لم تحضر؟ لن يذهب إلى الدكتور ماهر، بل سيذهب إليها هي. سيقتحم بيتها هذه المرة من الباب. . لن يقفز من السور كما فعل في المرة السابقة، سيطبق على رقبتها بالسلاح الذي أشار به المعلم وهدان، سلاح يديه اللتين خلقهما الله لنخنق بهما أعداءنا!

أصبحت زبيدة فجأة هي كل أعدائه، عوني باشا حافظ لم يعد عدوه، إنه ضحية أعدائه. ضحايا أعدائنا هم حلفاؤنا الطبيعيون.

وأحس بإشفاق على عوني حافظ. إنه مخدوع مثله، مغفل مثله. المغفلون يشعرون دائماً كأنهم أعضاء في ناد واحد، بغير حاجة إلى إبراز بطاقة العضوية. كلهم لا يلومون سذاجتهم، فهم يخفونها تحت اسم رقيق هو طيبة قلوبهم. وكلهم يحملون مسؤولية ما جرى لهم على أنهم وثقوا بمن لا يستحق الثقة، وأمنوا لغير الجدير بالاطمئنان. .

وتنبه محمد فجأة أنه أصبح هو وعوني باشا عضوين في نادٍ واحد هو «نادي المغفلين»!

شكوكه في زبيدة جعلته يبرىء عوني باشا من التهم التي دمغه بها، وهي أنه طاغية وجزار وجلاد. الحب يعمينا كما تعمينا الكراهية. كأننا عندما نكره عدواً جديداً تضطر قلوبنا أن تفرج عن العدو القديم. لأن القلب كما لا يتسع لحب شخصين في وقت واحد، لا يتسع لكراهية شخصين في وقت واحد.

ولم يستطع محمد أن يغمض عينيه طوال الليلة، ولم يستطع أن يقرأ في كتاب، وكان كلما فتح كتاباً لم يفهم سطوره. أصبح أعمى مثل عوني حافظ. . زبيدة قادرة على أن تنتزع من الذين يحبونها عيونهم فلا

يبصروا الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى تدقيق النظر، أو إلى النظارات!

كيف لم يرَ في عينيها أنها كانت تخدعه؟ لا بد أنها كذبت عليه عندما قالت له إن عوني باشا أحرق الملف السري. . لا بد أنها كذبت عليه عندما أعطته موعداً بعد ثلاثة أيام ثم موعداً بعد أقل من ٢٤ ساعة. . كيف كذبها ثم عاد وصدقها؟ إنه الحشيش الذي كان في قبلتها. هذا المخدر الذي جعل الجنود يتصورون أنه قطة، وجعله هو يتصور أن زبيدة صادقة في حبه.

ثم يقلب الاسطوانة ويعود يذكر جسدها المثير، وقبلتها التي تقطر شهداً، وصوتها الذي يمتزج فيه الحنان والوداعة وأنغام موسيقية رائعة، وكلما دارت هذه الاسطوانة، شنفت قلبه، وأطربت فؤاده، فيحبها من جديد، ويثق بها من جديد، ويؤمن بالمعبود الذي كفر به منذ دقائق! كأن قلب المحب لا تنطبق عليه نظريات المنطق، ولا أصول الحساب. يجمع قلب المحب اثنين مع اثنين فيجدهما أربعة، ثم يجدهما خمسة ثم لا يجدهما على الاطلاق، ويضرب قلب المحب اثنين في اثنين فيجدهما أربعة ثم ثلاثة ثم صفراً، ويطرح المحب اثنين من اثنين فيجد نتيجة الطرح صفراً ثم ألفاً ثم مليوناً من الأرقام!

■ ■ ■

وحرص محمد على أن يذهب إلى حديقة الجبلاية قبل الموعد بساعتين!

وكانت هذه أول مرة يدخل فيها الحديقة في الساعة الرابعة. لقد غادر بيته على عجل عندما سمع والده يقول بغير مناسبة المثل الشعبي «الناس خيبتها السبت والحد. . واحنا خيبتنا ما وردت على حد»!

واهتز محمد عندما سمع هذا المثل الغريب. وسأل نفسه أيكون المعلم وهدان أخبر والده بأنباء خيبته في إحضار الملف، أم أن والده المعلم حنفي قرأ أنباء هذه الخيبة على وجهه فنطق بهذا المثل الغريب؟

ولم يطق أن يبقى في بيته أكثر مما بقي حتى لا يسمع حكماً وأمثالاً جديدة تثير سخطه على نفسه.

وراعه أن الحديقة مزدحمة أكثر مما اعتاد أن يراه. في كل ركن، وفوق كل دكة، وبجوار كل شجرة فتى وفتاة. كأن اليوم عيد الحب. وخرج العشاق يحتفلون باليوم السعيد. كل اثنين يتهامسان، أو يتناجيان أو يتضاحكان، أو يتواعدان.

وتأمل العشاق، فرأى أن أغلب الشبان طلبة وأغلب الشابات طالبات صغيرات. كلهم هربوا من مدارسهم ليلتقوا في مواعيد غرام. كل بنت تحمل كتبها تحت يدها، كأن الكتب هي جواز السفر الذي أتاح لها الخروج من البيت. وجاءوا جميعاً يتعلمون في مدرسة كتبها القبلات، وكراريسها الضمات، وصفحاتها حشائش حديقة الجبلاية.

كل الناس في مصر تحب، ليس هو وحده الذي يعشق. ولكن هل كل الذين يحبون يشقون كما يشقى، ويتعذبون كما يتعذب؟ هل يصادفون المشاكل التي يصادفها، ويواجهون خيبة الأمل التي يواجهها؟

وخيّل إليه أن كل فتاة في الحديقة هي زبيدة أو نجوى، كل صاحبة شعر أسود هي زبيدة. وكل صاحبة شعر أشقر هي نجوى. وكل هؤلاء الشبان العاشقين هم مثله ومثل عوني باشا حافظ!

كل فتاة من الجالسات هنا تكذب على صاحبها، تواعده ولا تجيء، تقسم له على الإخلاص وتخونه، تتحدث عن حب خالد يعيش إلى الأبد، ثم تغدر به في اليوم التالي. لعل عزاءه أنه وحده الذي يعرف أنه

مغفل، وأن كل هؤلاء العشاق لا يعرفون أنهم مغفلون، ، وتمنى محمد أن تهبط عليه شجاعة مفاجئة، فيقف فوق الدكة الخشبية ويخطب في العشاق الشبان الموجودين، ويحذرهم من النساء، ويبصرهم بخيانات المرأة، كل امرأة، ويؤكد لهم أن أبواب جنة الحب، لا توصل الداخل إليها إلا إلى الجحيم!

وتمنى لو أن أذنه تستطيع أن تسمع وشوشات البنات. لقد سمع هذه الوشوشات طوال الوقت الذي كان يقرأ فيه خطابات العاشقات إلى زملائه طلبة المدرسة السعيدية، ليرد على خطابات الغرام. كل واحدة تؤكد أن هذا حبها الأول والأخير. كل واحدة تقسم أنها لم تنم الليل. كل واحدة تؤكد أن حبيبها هو أعظم رجل في العالم! كيف لم يتعلم من كل هذه الأكاذيب ألا يصدق أي امرأة في العالم؟ كيف وقع في براثن نجوى المناسترلي، وعندما أراد أن ينجو منها سقط في مخالب زبيدة، كالمستجير من الرمضاء بالنار!

وتتوقف لعنات محمد على المرأة، لينظر إلى الساعة، يتعجل الساعة السادسة، وتتحول عيناه في لهفة وقلق وشوق نحو الباب يترقب حضورها، وعندما تتعب عيناه من التحديق في الباب، ينكس رأسه ويعود إلى لعن المرأة من جديد. .

■ ■ ■

وأصبحت الساعة السادسة ولم تحضر زبيدة. . ولم يشعر إلا وكفّان تخفيان عينيه. . وتوقع أن يسمع صوت زبيدة تقول له «أنا مين؟» وكاد يقول أنت زبيدة. ثم تردد عندما أحس أن الكفين خشنتان. إنه يعرف كفي زبيدة جيداً. فلطالما ضغط عليهما بكفيه، ولطالما دخلت أصابعه بين أصابعها وهو يستمع إليها. . ثم ارتفعت الكفان عن عينيه ورأى

خلفه جمال منصور زميله السابق في المدرسة السعيدية وبجواره فتاة صغيرة، رشيقة، أنيقة، دقيقة الملامح وكأنها إحدى العرائس الخشبية التي تعرض في لافتات محلات بيع لعب الأطفال.

وقدّم جمال منصور الفتاة إلى محمد وهو يقول:

ـ الآنسة إقبال حافظ.. طبعاً تعرفها؟

قال محمد في دهشة:

ـ لم يحصل لي الشرف..

قال جمال:

ـ الطالبة في مدرسة الراهبات.. التي كنت تقرأ خطاباتها لي.. ولقد شاهدت صورتها معي!

قال محمد:

ـ نعم.. أذكرها تماماً.. ولكنها أجمل من الصورة..

وضحكت إقبال وقالت:

ـ ما رأيك في أسلوبي في اللغة العربية.. هل تظن أنني في حاجة إلى مدرِّس في اللغة العربية؟

وذعر محمد عندما سمع كلمة «مدرِّس في اللغة العربية».. كان قد نسي كل شيء عن مادة تدريس اللغة العربية التي تخصصت فيها نجوى المناسترلي. ترى، هل كل بنات مصر أصبحن فجأة شغوفات بدراسة اللغة العربية؟

وذعر أكثر عندما رأى إقبال تجلس على الدكة بينه وبين زميله جمال

منصور. ماذا يحدث لو جاءت زبيدة ورأته جالساً إلى جوار فتاة حسناء؟ سوف تتصور على الأقل أنه جاء بشاهدين يشهدان أن بينه وبين زوجة وزير الدولة علاقات غرامية!

ونظر محمد إلى الساعة، ثم إلى باب الحديقة وتمنّى لأول مرة في حياته ألا تحافظ زبيدة على موعدها، وتتأخر في الحضور!

ولاحظت إقبال الحركة فقالت وهي تضحك:

ـ هل تنتظر موعداً غرامياً؟ إنها فرصة جميلة أن نخرج نحن الأربعة معاً في سيارة جمال ونتنزه في طريق السويس الذي يسمونه طريق العشاق!

قال محمد في اقتضاب:

ـ إنني أنتظر أمي!

وضحك جمال منصور وقال:

ـ هذه أول مرة أسمع فيها أن ابناً أعطى أمه موعداً في حديقة الجبلاية!

قال محمد وهو يتأنى في تأليف كذبته:

ـ إن والدتي تزور صديقة لها في عمارة بجوار الحديقة، واتفقت معها على أن أنتظرها هنا لأصحبها إلى الطبيب..

قال جمال منصور:

ـ إن والد إقبال هو من أعظم أطباء مصر.. إنه الدكتور حسن حافظ الطبيب المشهور.. إنه شقيق عوني باشا حافظ وزير الدولة!

واصفر وجه محمد واضطرب، توقع أن تصل زبيدة بين لحظة وأخرى، وأن تراها ابنة شقيق زوجها. وتمنى في تلك اللحظة أن تحدث كارثة فتسقط قنبلة تنسف الآنسة إقبال حافظ، أو أن تنشق الأرض وتبتلعها، أو تحطم القرود أقفاصها وتأكلها. وقالت إقبال:

ـ إنني مستعدة أن آخذ والدتك إلى والدي لعلاجها. .

قال محمد وقد هبطت على رأسه فكرة عبقرية من السماء:

ـ إن والدتي مريضة بمرض جذام في يدها وفي فمها. وعندها حالة غريبة. كلما رأت فتاة جميلة أصرت أن تصافحها، وتقبلها في فمها!

قالت إقبال وهي تقفز من مقعدها مذعورة:

ـ ولكن الجذام مرض معدٍ جداً. . فكيف تسمح لها أن تصافح الناس وتقبلهم؟

قال محمد:

ـ انتظري حتى تريها بنفسك. . فإنها عندما تصاب بالنوبة يعجز خمسة رجال عن منعها من الاندفاع لتقبيل الفتاة الجميلة التي تراها!

وأسرعت إقبال تجذب جمال منصور من يده وتقول وهي تبتعد في خطى سريعة إلى باب الحديقة:

ـ آسفة، لا أستطيع أن أنتظر. . إن عندنا موعداً هاماً!

وضحك محمد، واستلقى على ظهره، وهو يرى الآنسة تسرع في خطواتها حتى لا تفاجئها أمه المجذومة في حديقة الجبلاية!

وتوقف عن الضحك، ومسح الدموع التي سالت في عينيه. إنها أول

مرة يضحك منذ فشله الذريع في الحصول على الملف. وراح يردد «اللهم اجعله خيراً»!

■ ■ ■

وبعد دقائق رأى زبيدة قادمة بنظارتها السوداء، وحجابها السميك الأسود، ومعطفها الأسود الطويل، فبدت امرأة عجوزاً، تختلف تماماً عن الشابة الفاتنة التي رآها في اليوم السابق بقميص النوم العاري.. ولم يتمالك نفسه من الضحك، وقال لنفسه إن زميله جمال منصور لو رأى زبيدة لما شك لحظة في أنها أمه العجوز!

وصافح محمد زبيدة وهو يضحك.. وجلست بجواره، وسألته ما الذي يضحكه، فروى لها ما حدث له مع ابنة شقيق زوجها، فاستغرقت معه في الضحك الطويل!

ثم سارعت ورفعت الحجاب عن وجهها لتؤكد له أنها ليست عجوزاً! ولكنه لم يرَ وجهها فقط، تصور أنه يراها شبه عارية كما رآها في الليلة السابقة، وتذكر فجأة النور الأحمر، فاحمر وجهه وسألها:

ـ ما الذي حدث أمس؟

قالت:

ـ فعلت كما أمرتني.. جئت إليك بالأسرار التي تريدها!.

قال في غضب:

ـ لا تغيّري الموضوع.. إنني لا أسألك الآن عن الأسرار..

أسألك لماذا أضأت النور الأحمر!

وقالت وهي تضحك:

ـ حتى أحصل على الأسرار التي طلبتها!

قال والغيرة تأكله:

ـ ألم يكن في إمكانك الحصول على الأسرار بغير هذه الطريقة الداعرة؟ لقد فكرت بعد أن تركت البيت، أن أقفز السور من جديد وأعود إليك!

قالت زبيدة، وقد أسعدها أنه يغار عليها حتى من زوجها:

ـ ليتك فعلت!

وتجاهل إجابتها وعاد يقول وهو ينتفض:

ـ أريد أن أعرف ماذا دفعت ثمناً لهذه الأسرار؟ إنني لم أستطع أن أغمض عيني، لأنني تصورتك طوال الليل وكأنك تتمرغين معه على الفراش!

قالت زبيدة وهي تضحك:

ـ طوال الليل؟ إنك متفائل جداً! إن مسرحية «مجنون ليلى» لم تستغرق في فصولها الثلاثة أكثر من ثلاث دقائق!

قال محمد:

ـ لا أصدقك! إنك تريدين أن تهوني الأمر علي. . لقد كنت أتمزق وأنا أشاهدك من وراء الستارة تغازلينه كأنك زينب صدقي في دور ليلى، وكأنه فعلاً أحمد علام في دور المجنون!

قالت زبيدة في حزم:

ـ هذا ليس وقت هذا الكلام الفارغ. دعني أقل لك ما حدث،

فأنت قلت لي إن محاكمة توفيق دياب وعزيز ميرهم ستبدأ غداً. وبعد أن أروي لك كل ما حدث، لديك العمر كله، لتعاتبني، ولتتشاجر معي كما تشاء.

قلت لزوجي إنني كنت أزور صديقتي صالحة هانم زوجة كمال باشا المناسترلي. .

وما كاد محمد يسمع اسم كمال المناسترلي حتى قاطعها في ذهول وقال:

- هل تعرفين زوجة كمال باشا المناسترلي؟

قالت زبيدة وهي تتابع قصتها:

- نعم أعرفها. . ولكن هذا لا شأن له بموضوعنا. . قلت له إنني زرت صديقتي بمناسبة سفر ابنتها نجوى مع عريسها حسين باشا الأشموني إلى روما. كاد محمد أن يسألها: هل تعرفين نجوى أيضاً، ولكنه أمسك وقال:

- لم تخبريني من قبل أنك صديقة حرم كمال باشا المناسترلي.

قالت زبيدة وقد نفد صبرها:

- ما الذي جرى لك اليوم؟ . كلما بدأت أحدثك في الموضوع الخطير الذي يهمك تثير موضوعات فرعية. . إنك لم تطلب مني قائمة بأسماء صديقاتي.

قال محمد مستدركاً:

- آسف إنني قاطعتك. . إن ابراهيم المناسترلي ابن شقيق كمال

باشا كان صديقي في المدرسة السعيدية . . استمري في روايتك .

قالت زبيدة وقد تصورت أنه لا يقدر الجهد الذي بذلته :

ـ قلت لزوجي : إن زوجة كمال باشا أخبرتها إحدى صديقاتها من زوجات كبار موظفي القصر قالت لها إن الملك قال إنه ثبت له أن عقل عوني باشا حافظ أكبر عقل في الدولة ، وأن ما فعله في رئيس الوفد وأدى إلى وضع توفيق دياب وعزيز ميرهم في السجن هو «ضربة معلم» . . طبعاً ، ستقاطعني الآن وتسألني هل قالت لك ذلك زوجة كمال باشا فعلاً؟ وأجيبك بأنني أنا الذي اخترعت هذه الأكذوبة!

وضحك محمد وقال :

ـ أنا لم أقاطعك هذه المرة! أنت التي قاطعت نفسك!

واستطردت زبيدة تقول :

ـ وعندما سمع عوني حافظ هذا الكلام تخدر أكثر مما هو مخدر . تحوّل بين يدي إلى طفل صغير، يريد أن يسمع بقية الحدوتة ، فقلت له وأنا أضحك :

ـ لن أقول لك بقية ما قال الملك . . فقد أقسمت ألا أقوله لأحد! .

وتشبث بي يريد أن يعرف ماذا قال الملك . . وقلت له :

ـ قل لي أولاً كيف دبّرت ضربة المعلم هذه لأنني لأول مرة في حياتي شعرت أنني فخورة بك بعد أن سمعت ما قاله الملك . .

قال : إنني أردت أن أنسف اتهامات المعارضة عن تزييف الانتخابات ، وعلمت أنه وقعت في أيديهم وثائق تثبت تزوير الانتخاب . ورأيت أن خير رد على رئيس الوفد أن أثبت أنه هو المزوِّر ،

فجئت باثنين من رجالنا الذين دسسناهم على الوفد، وجعلتهما يزوران خطاباً بإمضاء محمد علام باشا مدير حزب الشعب يعترف فيه بتزوير الانتخابات بالاتفاق مع صدقي باشا. . وحصلت على إمضاء علام باشا دون أن يعلم. ووضعت الخطة في سرية كاملة، لم يعرف بها أحد من موظفي الوزارة. رفضت أن أطلع عليها أحداً من ضباط القسم السياسي خشية أن تكون المعارضة تسربت إلى أحد ضباط القسم. لم أخبر رئيس الوزراء صدقي باشا بالخطة في أول الأمر خشية أن ينسب الفضل لنفسه أمام الملك. الشخص الوحيد الذي ائتمنته على الخطة هو إدريس بك شماشرجي الملك.

وحرصت على ألا تتم المقابلة بالقصر، ولا في مكتبي بوزارة الداخلية، ولا في بيتي. تمت المقابلة في بيت إدريس بك نفسه في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. .

وذهل إدريس بك عندما سمع الخطة، وأسرع يعرضها على الملك، فقال الملك:

ـ لو نجحت هذه الخطة الجهنمية فسنقضي تماماً على دعوى المعارضة بأن الانتخابات مزوّرة، وأن جميع المصريين لم يشتركوا فيها. .

وقال الملك إن المصلحة هي أن يعلم صدقي باشا بالخطة حتى يساعدنا في عملية التنفيذ، وعملية القبض على رئيس الوفد بتهمة التزوير. وأطلعت صدقي باشا على الخطة ولم أخبره أنني أطلعت الملك عليها، ووافق صدقي باشا على الخطة، وطلب مني أن أكتب مذكرة بها. وخشيت أن يكون صدقي باشا قد طلب هذه المذكرة لتكون مستنداً عنده ضدي، إذا انكشفت الخطة. . وكتبت المذكرة، واكتفيت

بأن أتلوها شفهياً عليه. واحتفظت بالمذكرة في ملف وضعته في مكتبي. ثم لاحظت أن يداً مجهولة حاولت أن تفتح مكتبي، وفهمت أن أحداً يريد أن يسرق المذكرة، فجئت بها إلى البيت لأحتفظ بها هنا. ثم خشيت أن تحدث نفس المحاولة في بيتي، فقررت أن أحرقها. وهذا هو الملف الذي دخلت علي ذات مساء ورأيتني أحرقه بيدي.

قلت لعوني وأنا أميل برأسي على رأسه:

- إنك عبقري فعلاً! لم أكن أتصور أن في مصر عبقرياً مثلك.. ولكن كيف استطعت أن تزوّر الوثيقة نفسها؟..

قال عوني مزهواً بعبقريته:

- المسألة بسيطة جداً جئت بالرجلين الوفديين اللذين قررت أن يقدما الوثيقة لرئيس الوفد واتفقت معهما على دورهما، وجئت بإمضاء علام باشا وصورته على ورقة بيضاء، في ستديو مسيو هنزلمان مصور جلالة الملك الخاص. ولكي أضمن ألا يفتح أي من الرجلين فمه، جعلت أحدهما هو الذي يملي الخطاب، والثاني هو الذي يكتب الخطاب بخطه.. ثم بعد ذلك صورنا الوثيقة فبدت الصورة بحيث لا يظهر التزوير في إمضاء علام باشا إلا لخبير متخصص.. ثم عملت أن تقع الوثيقة في يد رئيس الوفد فصدقها، واستعان بخبير اتفقنا معه على أن يقول إن الإمضاء صحيح! وكانت الوثيقة المزورة هي قشرة الموز التي وضعناها تحت قدم رئيس الوفد، فمشى عليها، وتزحلق، ووقع!

قلت لعوني:

- برافو! هذه فكرة عظيمة حقاً! هل كان الرجلان اللذان استعنت بهما من أعضاء الوفد؟

قال عوني:

ـ لا، إنهما من شبان الوفد المتحمسين. الذي أملى الخطاب اسمه مسيحة أفندي، والذي كتب الخطاب بخطه هو الشيـخ زكي، وهما اللذان توليا تسليم الخطاب إلى عزيز ميرهم!

قال محمد غاضباً:

ـ مستحيل أن يفعل مسيحة أفندي والشيخ زكي هذا. إنني أعرفهما كما أعرفك، إنهما شابان وطنيان ثائران متحمسان.. أنا أثق بهما كما أثق بنفسي..

قالت زبيدة وهي تتهيأ للوقوف:

ـ إن عيبك أنك تثق فيمن لا يستحق الثقة، وتشك في الذين فوق الشكوك والشبهات.

وأمسك بها وهو يقول:

ـ متى أراك؟

قالت وهي تبتسم:

ـ الساعة السادسة.. في نفس اليوم الذي سيحكم فيه ببراءة توفيق دياب وعزيز ميرهم.

قال محمد:

ـ وإذا حكم عليهما بالسجن؟

قالت وهي تضحك:

ـ لن تراني.. لأنني سأكون أنا أيضاً في السجن بتهمة قتل عوني باشا

حافظ وزير الدولة . .

■■■

صاح الحاجب بصوت رهيب: محكمة!

وهب الجالسون في قاعة محكمة جنايات مصر وقوفاً .احتراماً وإجلالاً . .

وفتح الحاجب باب غرفة المداولة، وخرج منها ثلاثة مستشارين، يتقدمهم محمود غالب بك رئيس محكمة الجنايات، بقامته الطويلة، وجسمه النحيف، وعينيه الضيقتين اللتين يطل منهما ذكاء وقّاد، وردنجوته الأسود، وقد حلى صدره بوشاح العدالة.

واتخذ القضاة الثلاثة مقاعدهم فوق المنصة، وقال غالب بك بصوت خافت، وعلى فمه ابتسامته الساخرة التي لا تفارق شفتيه:

ـ فتحت الجلسة.

وصاح حاجب الجلسة: القضية المتهم فيها الأستاذان توفيق دياب وعزيز ميرهم.

ودار غالب بك بعينيه بين الحضور، ورأى قاعة المحكمة قد غصت بجماهير غفيرة. ضاقت مقاعد القاعة بالجالسين. جيء بمقاعد إضافية ليجلس عليها المحامون بعد أن احتلت الجماهير المقاعد المخصصة لهم. المكان المخصص للصحفيين امتلأ بهم. رؤساء تحرير جاءوا يشهدون محاكمة زميلهم. صحفيون شهروا أقلامهم ليدوّنوا ما يجري في الجلسة. عدد كبير من زعماء المعارضة والنواب والشيوخ السابقين حرصوا على أن يشهدوا المحاكمة الكبرى، محاكمة المعارضة والصحافة أمام محكمة الجنايات!

وفي مقدمة المحامين كان يجلس ثلاثة من نقباء المحامين. إنها المرة الأولى التي يترافع فيها ثلاثة من نقباء المحامين في قضية واحدة. نجيب الغرابلي باشا وزير العدل السابق ونقيب المحامين الحالي، بوجهه الوقور، ورأسه الأشيب، وعينيه الحالمتين. ومكرم عبيد وزير المالية السابق ونقيب المحامين السابق برأسه الذي لا يستقر في مكان واحد، بعينيه اللتين يطل منهما ذكاء ألف رجل، وبنظارته التي تضحك دائماً وتتحرك مع حركات رأسه. ثم ابراهيم الهلباوي بك نقيب المحامين الأسبق، والذي استطاع بطلاقة لسانه وقوة بيانه أن يبقى خمسين عاماً كاملة واحداً من أعظم المحامين في البلاد. ولم يكن الهلباوي بك من حزب الوفد، وأراد وهو أحد زعماء حزب الأحرار الدستوريين، أن يتطوع للدفاع عن المتهمين الوفديين، ليعلن أن القضية ليست قضية حزب الوفد، بل هي قضية مصر كلها!

وتطلع المستشار غالب بك إلى قفص الاتهام، فرأى فيه الأستاذين توفيق دياب وعزيز ميرهم. توفيق دياب تبدو عليه علامات الجد. زم شفتيه، وكأنه يحاول أن يرغمهما على ألا تتحركا. عاش حياته كلها وهو واحد من أكبر خطباء مصر الذين يهزون أعواد المنابر. ومركزه كمتهم يمنعه اليوم من الانطلاق كما يريد. كأن القفص الحديدي هو قفل معلق في فمه. كان يدافع كل يوم بمقالاته النارية عن الوفديين، واليوم جاء دور الوفديين للدفاع عنه!

وعزيز ميرهم يجلس بجواره، وقد شبك يديه، وفي عينيه نظرة فيلسوف. كأنه نسي في تلك اللحظات أنه متهم أمام محكمة الجنايات، وراح يفكر في النظم الاشتراكية التي يمكن إدخالها في مصر.

ثم نقل المستشار غالب عينيه في قفص الاتهام إلى مقعد النيابة، واستقرت عيناه على محمود منصور بك رئيس النيابة بجسمه الطويل

وقوامه الرفيع، وعلى فمه ابتسامة يحسبها السذج ابتسامة بلهاء، وهي تخفي خلفها ذكاء حاداً ودهاء عجيباً وقدرة فائقة على التحقيق، ومهارة في ذبح المتهم بالسكين، والمتهم يتصور أنه يطوق عنقه بمنديل من حرير!

واتسعت ابتسامة السخرية على فم المستشار غالب بك وهو ينقل عينيه بين قفص الاتهام وبين منصة النيابة، وكأنه يتساءل بينه وبين نفسه، هل العدالة أن تجلس النيابة في قفص الاتهام، ويجلس المتهمون في منصة النيابة، أم أن كلاً منهما يجلس في مقعده الصحيح؟

ولعل سخرية المستشار غالب بك كانت أعمق من هذا. فالمتهم الحقيقي في القضية غائب عن القفص. إنه رئيس الوفد الذي أرادت الحكومة أن تصمه بالتزوير لأنه طعن في نزاهة الانتخابات، ولم تجرؤ على تقديمه إلى محكمة الجنايات، واكتفت بتقديم توفيق دياب وعزيز ميرهم.

والمدعي الحقيقي هو إسماعيل صدقي باشا، الذي كان يجب أن يجلس في مقعد النيابة بدلاً من محمود بك منصور.

القضية هي في الواقع قضية المعارضة والدولة. المعارضة تتهم الدولة بالتزوير، والدولة تتهم المعارضة بالتزوير. كل من الفريقين مدع ومدعى عليه في نفس الوقت، والمطلوب من القضاة الثلاثة أن يصدروا أخطر حكم في حياتهم.. من المجرم المزوِّر؟ الدولة أم المعارضة؟

وزاحم محمد عبد الكريم، حتى استطاع أن يحشر نفسه بين الصحفي الوفدي محمد حسن عبد الحميد المحرر بجريدة «الضياء»، وبين أنور أحمد الطالب بكلية الحقوق الذي قام بعد ذلك بعشرين عاماً

بتمثيل دور الزعيم مصطفى كامل في السينما، وأصبح فيما بعد وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية!

وتطلع محمد إلى المنصة التي يجلس فوقها القضاة الثلاثة. كأنه يحاول أن يستشف من خشبها القديم أسرارها.

فوق هذه المنصة نفسها جلس أعظم قضاة مصر. جلس المستشار سعد زغلول وأصدر حكمه ضد حاكم مصر الخديو عباس منتصراً لفلاح صغير في مديرية الشرقية.

فوق هذه المنصة جلس الشيخ محمد عبده وأصدر حكمه بسجن أحد كبار رجال الدولة لأنه ضرب خادمه.

فوق هذه المنصة قال القاضي قاسم أمين بك كلمته المشهورة: «أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بالعدل».

فوق هذه المنصة أصدر المستشار أحمد طلعت باشا حكمه ببراءة الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير «السياسة» بعد أن اتهم رئيس الوزراء سعد زغلول بأنه كذاب ودجال وخائن ونصاب، وقال في حكمه إن من حق الصحفي أن يهاجم الحاكم كما يشاء.

فوق هذه المنصة أصدر القاضي حسين درويش باشا حكمه ببراءة النحاس باشا في قضية سيف الدين التي لفقها ضده الملك فؤاد.

وتساءل محمد: ترى هل تموت العدالة بموت القضاة العظام؟ هل تدفن معهم في نفس قبورهم، هل يستطيع القضاة في عصرنا الحاضر أن يرفعوا رؤوسهم في وجه الطغيان كما رفعها من سبقوهم؟ كل شعب لا تحميه إلا ثلاثة حصون، حصن البرلمان، وحصن حرية الصحافة، وحصن القضاء. واليوم سقط حصن البرلمان، وحصن حرية

الصحافة، ولم يبق سوى حصن القضاء؟ فهل يسقط الحصن الأخير لا سمح الله؟ مدينة مفتوحة بلا قلعة تحميها؟ وماذا يحدث لهذا الشعب لو سقطت قلعته الأخيرة في يد الطغاة؟ سيزداد عدد السياط في أيدي الجلادين. سيتضاعف عدد الأبرياء في السجون. سيفقد كثير من الناس عقولهم كما فقد المعلم حنفي أبو محمد عبد الكريم قواه العقلية.

وحاول محمد أن يقرأ في عيني المستشار غالب بك الساخرتين الرد على سؤاله، فلم يجد رداً، ترى هل هو يسخر من المتهمين؟ أم يسخر من المحامين؟ أم يسخر من النيابة؟ أم يسخر من العدالة؟ أم يسخر من كل هؤلاء جميعاً؟ . . .

العدالة في كل أمة هي شرفها، وأُمّة بغير عدالة، هي دولة بغير شرف.

■■■

واتجه محمد بعينيه إلى قفص المتهمين. وخيّل إليه أن عدد الموجودين في القفص ثلاثة لا اثنين. كل الموجودين في الجلسة يرون في القفص شخصين اثنين، وهو وحده يراهم ثلاثة!

إنه يرى زبيدة في القفص . . . يراها تارة في قميص نومها شبه العاري فيحكم بإدانتها، ثم يراها خلف حجابها الأسود السميك فيحكم ببراءتها. لو أن المعلومات التي حملتها له تثبت صحتها فسيؤمن بأنها صادقة، لم تكذب عليه في الحب كما لم تخدعه في صحة المعلومات . . ولو ظهر أن معلوماتها مضلّله فسيحكم عليها بالإعدام!

إنه جاء إلى جلسة محكمة الجنايات لا ليسمع الحكم ببراءة توفيق دياب وعزيز ميرهم فقط، بل جاء قبل كل شيء ليسمع الحكم عليها . . أو الحكم لها!

وعاد محمد يتطلع إلى القفص من جديد، وإذا به يتخيل أن القفص لم يعد فيه ثـلاثة متهمـين فقط. لقد أصبحـوا أربعة. . . هـو محمد عبدالكريم رابعهم!

رأى نفسه في داخل القفص. هو أيضاً يحاكم اليوم. هو أيضاً يترقب الحكم. هـو أيضاً يسـأل: هل يحكم عليـه بالإدانة أم يحكم عليـه بالبراءة؟ لقد رأى الاتهام في عيني المعلم وهدان أبو خطوة عندما قال له أنه فاشل. ورأى الاتهام في عيني محمد عبد الصمد ناظر مدرسة رقى المعـارف عندما أعاد له سلم الحبال والمفاتيح. ورأى الاتهـام للمرة الثالثة عندما قابل الدكتور ماهر في اليوم التالي للمغامرة وأبلغه أنه لم يجد الملف المطلوب وإنما حصل على معلومات هامـة عن تزويـر الوثيقـة وادعى أنه سمع هذا الحديث الذي جرى في غرفة النوم بين وزير الدولة وزوجته. ولم يعلق الدكتور أحمد ماهر بكلمـة واحدة عـلى الأسرار.. وارتجف محمد، وتوهم أن أحمد ماهر قرأ بذكائه العجيب في عينيه أنه لم يحصل على الملف، وإنما حصل على قبلة من زوجة الوزير وعلى موعد معها بالجبلاية. . . وعندما ذكر محمد له اسم الشيخ زكي ومسيحـة أفندي ابتسم الدكتور ماهر وقال له: الشيخ زكي ومسيحـة أفندي؟ أليس هما الشخصين اللذين اقترحت اسميهما ليصحباك في الهجوم على بيت عوني باشا حافظ؟ أحنى محمد رأسه خجلاً، ولم يجب يومها بكلمة واحدة. واكتفى الدكتور ماهر بأن قال له «شكـراً». ولم يفهم محمد عندئذ معنى كلمـة «شكراً». هـل كان يعنيهـا الدكتـور ماهـر؟ هل المعلومات التي قدمها ستفيد في القضية، أم أن الدكتـور ماهـر يعني بكلمة «شكراً» أنه مغفل وحمار وفاشل، وأنه عجز عن إحضار الملف المطلوب، واكتفى بالحصول على «دردشة» لا تستطيـع أن تقف على قدميها كدليل أمام محكمة الجنايات؟

■ ■ ■

وكان المستشار محمود غالب قد انتهى، خلال سرحان محمد في كل هذه الأمور، من سؤال المتهمين الأسئلة التقليدية عن اسميهما وعمريهما وصنعتيهما ورأييهما في التهمة الموجهة إليهما.

ووقف رئيس النيابة وطلب استدعاء رئيس خبراء الخطوط.

وأقبل رجل عجوز يحمل ملفاً فيه أوراق كثيرة، ومعه عدد من النظارات وأقسم اليمين، ورد على أسئلة المحكمة، بأنه اطلع على الوثيقة التي قدمها رئيس الوفد في بلاغه إلى النائب العام، ووجد بالبحث الدقيق، أن إمضاء محمد علام باشا على الوثيقة مزوَّر، إذ أضيف إلى الوثيقة، بعد كتابتها، وليس إمضاء أصلياً.. وأن الذي قام بهذا التزييف هو مزيِّف من الدرجة الأولى، لأن العين المجردة لا تكشف أن الإمضاء أضيف إلى الوثيقة.

وأن المزيِّف صوّر إمضاء علّام باشا على حدة، وصوّر الوثيقة على حدة، ثم جمع الصورتين، في صورة واحدة أخفت عملية التزييف.

وطلب رئيس النيابة سماع أقوال الخبير الثاني فأكد أقوال الخبير الأول.

وطلب بعد ذلك سماع أقوال الخبير الثالث فأكد أقوال الخبير الأول والخبير الثاني بأن الوثيقة التي قدّمها رئيس الوفد مزيّفة مائة في المائة. ووقف الأستاذ مكرم يطلب مناقشة الخبراء في شهادتهم، وإذا بالقاضي محمود غالب يمنعه من توجيه الأسئلة إلى الخبراء...

وبدا من تصرف محمود غالب أنه مقتنع بأن الوثيقة مزوّرة مائة في المائة..

وجلس الأستاذ مكرم، وهو يشيح بيديه، علامة احتجاجه على منعه

من مناقشة شهود الإثبات . .

ثم طلبت النيابة استدعاء محمد علام باشا مدير حزب الشعب الذي نسب إليه الخطاب موضوع القضية . ودخل رجل قصير القامة، عريض المنكبين، على عينيه نظارة كبيرة، ووقف يدلي بأقواله . .

ولم يكتف علام باشا بالإدلاء بأقواله، بل أضاف إليها أن دولة إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء، أراد أن يمنع الجريمة قبل وقوعها، وحذّر توفيق دياب من نشر الوثيقة في جريدة «الضياء»، وأكد له أنها مزوّرة، ونشرها يعرّضه للمسؤولية القانونية . . ومع ذلك أصر توفيق دياب على النشر مع علمه بالتزوير.

وذكر علّام باشا أنه تلقى خطاباً من عزيز ميرهم يطلب تحديد موعد، فكتب إليه خطاباً وقّعه بإمضائه، يحدد موعداً للمقابلة، ولم يحضر عزيز ميرهم في الموعد، مما يدل على أن الغرض من خطاب عزيز ميرهم هو الحصول على صورة إمضائه ليقوم عزيز ميرهم بتزويره في الوثيقة . وأن إمضاءه على الوثيقة مزوّرة .

ولم يكن علام باشا يتكلم كشاهد إثبات، وإنما كان يستفيد من خبرته السابقة كمستشار في محكمة الاستئناف، ويضع حيثيات حكم يثبت قصد التزوير على عزيز ميرهم وتوفيق دياب .

وأراد مكرم عبيد أن يقاطع علام باشا فمنعه القاضي محمود غالب من المقاطعة . . وحدثت دمدمة بين الحضور، ورفع غالب بك الجلسة للاستراحة .

وسرى بين الحاضرين على الفور نبأ يؤكد أن الحكم بإدانة توفيق دياب وعزيز ميرهم جاهز، وأن القصر أملى الحكم على القاضي محمود

غالب، وأنه سوف ينطق به كالببغاء!

وكان الشباب الوفدي يحب مكرم عبيد، واعتبر منع القاضي له من مناقشة الشهود ومناقشة علام باشا دليلاً على أنه قاض مغرض، لا ذمة له، ولا ضميرا

وفي كل حزب من الأحزاب عدد من الأنصار المتحمسين يتلقون أخبارهم من «باعة الكشري». وهم باعة سياسيون متجولون يبيعون لكل حزب الإشاعات التي توافق هواه، وترمي خصومه بالطين والتراب، وتلقي على أنصاره الزهور والرياحين!

وبعد دقائق قليلة من بدء الاستراحة كان «باعة الكشري» قد باعوا لكل الذين حضروا الجلسة إشاعة تقول إن المستشار محمود غالب يحب المطربة المعروفة ملك، ويتردد باستمرار على كازينو البوسفور الذي تغني فيه، وإن عوني باشا حافظ وزير الدولة قابل المطربة ملك في بيتها بشارع الملك، وأملى عليها الحكم القاسي المطلوب على عزيز ميرهم وتوفيق دياب، وإن المطربة ملك أملت الحكم على حبيبها القاضي محمود غالب الذي يمثل الآن مسرحية معروفٌ مقدماً فصلها الأخير.

وما كاد محمد يسمع هذه الأنباء من باعة الكشري حتى اضطرب، ولعن المرأة التي ما دخلت في شيء إلا أفسدته، ولعن مع المرأة والمطربات، جميع القضاة!

وتحسّر محمد على قضاة زمان! من فوق المنصة التي يجلس عليها محمود غالب أثبت القضاة في محضر الجلسة في ثورة ١٩١٩ أنهم ينضمون إلى الثوار، وأنهم يرفضون أن يطبقوا القانون في الوقت الذي يدوس فيه الانجليز على كل قانون، وأنهم لا يستطيعون أن يحكموا على سارق القروش بالسجن في الوقت الذي تسرق فيه بريطانيا أمة

بأسرها. ولا يستطيعون أن يحكموا بالإعدام على رجل قتل فرداً واحداً، بينما الجيش البريطاني يقتل كل يوم في الشوارع مئات المصريين الذين لم يرتكبوا جريمة إلا المطالبة بالاستقلال!

على هذه المنصة نفسها جلس مستشاران مصريان سنة ١٩٢٥، هما كامل ابراهيم بك وعلي عزت بك يصارعان رئيس الدائرة الانجليزي مستر كرشو الذي كان يصر على الحكم على الدكتور ماهر والنقراشي بالإعدام بتهمة تدبير اغتيال الإنجليز أثناء الثورة، ويتمسك المستشاران المصريان بحكم البراءة، ويهددهما القاضي الانجليزي ببطش الإنجليز والجيش البريطاني والمندوب السامي البريطاني الملك الحقيقي للبلاد وقتئذ، فيرفضان أن يخضعا للتهديد، ويرغمانه على إصدار حكم البراءة، فينطق به المستر كرشو مضطراً ويستقيل احتجاجاً عليه في اليوم التالي!

وتحسّر محمد على قضاة زمان الذين كانوا يتلقون الحكم من وحي ضمائرهم لا من شفاه المطربات!

وقرر أن يضيف اسم المستشار محمود غالب إلى قائمة الذين يجب قتلهم لإنقاذ البلاد!

وانتهت الاستراحة وأعيدت الجلسة.

■ ■ ■

ووقف مكرم عبيد وطلب استدعاء الأمير عباس حليم لسماع أقواله كشاهد نفي.

واعترض رئيس النيابة بأنه لا يوجد شخص اسمه الأمير عباس حليم!

وكان اعتراض النيابة في محله، فقد كان الأمير عباس حليم قد وجه خطاباً عنيفاً إلى الملك فؤاد، حذّره فيه من إلغاء دستور الأمة، وتوعده بثورة الشعب إذا مسّ الدستور الذي حصلت عليه الأمة بدم أبنائها وشهدائها!

وغضب الملك فؤاد على الأمير، وجرّده من جميع ألقابه، وأصبح أمام القانون عباس أفندي حليم، لا الأمير عباس حليم!

وفهم مكرم سبب اعتراض النيابة فقال:

ـ فليكن.. نطلب استدعاء الشريف عباس حليم!

قال رئيس النيابة:

ـ لا يوجد أحد اسمه الشريف عباس حليم.. يوجد عباس حليم أفندي فقط!

قال مكرم:

ـ إن الشعب هو الذي منح عباس حليم لقب «الشريف». والشعب وحده هو الذي يستطيع أن يجرده من هذا اللقب الذي منحه إياه عن جدارة واستحقاق لأنه يقف في معسكر الشعب ضد الطغاة والغاصبين!

قال رئيس النيابة:

ـ النيابة تعترض على استدعائه.. لأنه لا علاقة له بالقضية..
ووقف نجيب الغرابلي باشا وقال:

ـ والدفاع متمسك باستدعائه.. وسيثبت للمحكمة أن له علاقة وثيقة بالقضية..

وكان محمد قد وقع تحت تأثير أخبار «باعة الكشري» وتوقع أن

يرفض المستشار محمود غالب استدعاء عباس حليم الذي تعارض الحكومة في استدعائه للشهادة، لأنه سيقول أشياء ستغضب الملك والحكومة بطبيعة الحال.

وإذا بمحمود غالب يصدر قراراً باستدعاء عباس حليم للشهادة متحدياً النيابة..

ثم أعلن تأجيل الجلسة إلى اليوم التالي..

ودهش محمد لهذا القرار العجيب، ورأى عند باب المحكمة صديقه الأستاذ جورج مكرم عبيد، شقيق مكرم، وكان قد تعرّف به أثناء تردده على مكتب الاستاذ عزيز ميرهم..

وقال محمد لجورج:

ـ كيف يصدر محمود غالب هذا القرار الجريء، وكل الموجودين في الجلسة يقولون إنه يحب المطربة ملك، والمطربة ملك تحبه. وإن عوني باشا حافظ أملى على المطربة الحكم الذي يريده، وأملت المطربة الحكم على رئيس محكمة الجنايات؟..

قال جورج وهو يضحك:

ـ لا تصدق هذا الكلام الفارغ. محمود غالب يحب الطرب حقاً، ولكنه لا يحب المطربة ملك، ولا المطربة ملك تحبه... إن المطربة ملك تحب المستشار عبد السلام النحاس ابن شقيق النحاس باشا، وسوف يتزوجها برغم معارضة النحاس باشا والأسرة كلها!

ولم يعد محمد يلعن القضاة، وإنما راح يلعن إشاعات باعة الكشري!

■■■

وذهب محمد في اليوم التالي، وكان ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٣١ ليحضر الجلسة الثانية للمحاكمة، فلاحظ أن عدد الحاضرين تضاعف عن الجلسة الأولى.

إن النيابة منعت الصحف الصادرة صباح ذلك اليوم من أن تنشر المناقشة الخاصة بعباس حليم، بحجة أن فيها تعريضاً بالذات الملكية، ولكن منع نشر الخبر، لم يحل دون انتشاره أكثر مما لو كان قد نشر!

وجاءت الجماهير لتسمع الأمير عباس حليم يهاجم الملك فؤاد في قاعة محكمة الجنايات..

وسرت إشاعة أن الأمير عباس حليم، لم يحضر لتأدية الشهادة أمام المحكمة، وإنما جاء ليضرب رئيس النيابة بالكرباج، لأنه قال إنه لا يوجد شخص اسمه الأمير عباس حليم!

وكان معروفاً عن الأمير عباس حليم أنه يستعمل الكرباج أكثر مما يستعمل لسانه في المناقشة... فقد حدث قبل ذلك بأسابيع أن كتب الأستاذ سليمان فوزي صاحب مجلة «الكشكول» مقالاً هاجم فيه الأمير عباس حليم بقسوة، فما كان من الأمير إلا أن أخذ كرباجه وذهب إلى إدارة مجلة «الكشكول»، وبحث عن سليمان فوزي حتى وجده، ثم انهال عليه ضرباً بالكرباج وهو يقول:

ـ القانون يبيح لي الرد على ما ينشر عني.. وهذه طريقتي في الرد!

وثار الصحفيون لأن الأمير ضرب صحفياً بالسوط، معتدياً على حرية الصحافة وهو الرجل الذي يطالب بالدستور..

والغريب أن الرأي العام انضم إلى الأمير ضد الصحفي، فقد كان الأمير محبوباً من الشعب، وكان صاحب مجلة «الكشكول» مكروهاً من

الشعب لأنه تخصص في مهاجمة الوفد وسعد زغلول.

وحدث مرة أخرى أن لاحظ الأمير عباس حليم أن بعض طلبة المدرسة الابراهيمية التي تجاور القصر الذي يقيم فيه، يغازلون بناته. . وغضب الأمير، وحمل سوطه، واقتحم المدرسة، ودخل الفصل المطل على قصره، وأراد أن يضرب بالكرباج جميع التلاميذ بغير استثناء!

وركع أمامه ناظر المدرسة وقال له:

- أترك لي يا أفندينا عملية ضرب جميع التلاميذ، لا تلاميذ فصل واحد، عقاباً لهم على اعتدائهم على شرف أفندينا!

واقتنع أفندينا عباس حليم أن يترك هذه المهمة لناظر المدرسة، وانصرف من المدرسة الابراهيمية، وهو يطرقع كرباجه في الهواء!

ولهذا لم يكن غريباً أن يتوقع الذين حضروا جلسة محكمة الجنايات أن يضرب صاحب السمو الأمير الجليل رئيس النيابة طويل اللسان بالكرباج!

ودخل عباس حليم المحكمة، وبدت على الحاضرين خيبة أمل، عندما رأوا الأمير يدخل بدون كرباج!

وفتحت الجلسة، وأمر المستشار غالب بك باستدعاء عباس حليم. . ودخل عباس حليم، بجسمه الرياضي الضخم، وشعره الأشقر، ووجهه المشرب بالحمرة، وعينيه الواسعتين الزرقاوين، وهو يمشي بخطوات عسكرية إلى أن وقف أمام منصة القضاء.

وسأله نجيب الغرابلي باشا عن معلوماته عن الوثيقة. .

وأجاب عباس حليم بصوت ضخم، بلغة هي خليط بين العربية والعامية، وكان ينطقها بلكنة تركية، وبلهجة ألمانية !

ومع ذلك كانت كلماته قوية، تندفع وكأنها مدفع رشاش.

وقال الأمير عباس حليم أنه كان يزور الأستاذ عزيز ميرهم في مكتبه ورأى شخصين يقدمان له صورة فوتوغرافية لخطاب بإمضاء علام باشا، يقول فيه إنه أبلغ إلى المديرين أوامر صدقي باشا بتزوير الانتخابات. وأنه اطلع على الخطاب وصدّقه على الفور، لأن كل ما فيه صدق وحقيقة لا شك فيها، فالبلد كله يعرف أن الحكومة زوّرت الانتخابات، وأنه لم يستغرب أن يكتب علام باشا هذا الخطاب، لأن الذين يرتكبون جريمة إلغاء دستور الأمة، وهي الجريمة الكبرى، قادرون على أن يرتكبوا جريمة أصغر وهي تزوير الانتخابات!

وأراد رئيس النيابة أن يقاطع الأمير عباس حليم فمنعه القاضي غالب بك من المقاطعة.

وسأله مكرم عبيد:

- ومن هما الشخصان اللذان رأيتهما يسلمان الوثيقة إلى عزيز ميرهم؟

قال عباس حليم:

- إنهما مسيحة أفندي والشيخ زكي!

وقف رئيس النيابة على الفور يقول:

- إننا نرحب باستدعائهما.. لنثبت أمام المحكمة أن هذه الرواية كاذبة ولا أصل لها!

ونـظر الأمير عبـاس حليم بعينين يتـطاير منهـما الشـرر إلى رئيس النيابة . . وتوقع القاضي غالب بك أن يهجم الأمير على رئيس النيابة، فشكره، وأعلن انتهاء شهادته . .

ودهش محمد لأن رئيس النيابـة رحّب باستـدعاء مسيحـة أفندي والشيخ زكي!

ووقف مكرم عبيد وقال:

ـ إن الدفاع لا يوافق على استدعاء مسيحة أفندي والشيخ زكي.

وهبّ رئيس النيابة يقول:

ـ ولكن النيابة تتمسك بسماع أقوال مسيحة أفندي والشيخ زكي، ما دام الأمير عباس حليم ذكر اسميهما أمام المحكمة. وسوف يثبت للمحكمة بعد سماع أقوالهما، أن هذه الوثيقة زوّرت في بيت الأمة، وبعلم رئيس الوفد وعزيز ميرهم وتوفيق دياب!

وقال المستشار غالب بك:

ـ إن المحكمة قررت استدعاء مسيحة أفندي والشيخ زكي لسماع أقوالهما غداً . .

قال الأستاذ إبراهيم الهلباوي:

ـ ونلتمس من المحكمة أن تأمر باستدعاء خبراء الخطوط الثلاثة في جلسة الغد لأن الدفاع يريد مناقشتهم.

واعترض رئيس النيابة وقال محتداً:

ـ الخـبراء الثلاثـة أدلوا بكـل ما لـديهم، وأثبتوا بـالحجة الـدامغـة أن

الوثيقة مزورة . . وشهادتهم أفحمت الدفاع . .

وأراد الأستاذ مكرم أن يشكك في هذه الشهادة فمنعته المحكمة . .

قال الهلباوي بك بصوت ضعيف:

ـ أنا رجل عجوز، وسمعي ضعيف جداً. ولم أتبين ما قاله الخبراء إلا عندما قرأته مكتوباً اليوم في الصحف، فأرجو من عدالة المحكمة أن تعطي لرجل مسن مثلي فرصة لاستيضاح بعض النقط من الخبراء . . والدفاع يتعهد للنيابة ألا يناقش الخبراء!

واستجاب القاضي محمود غالب لطلب الهلباوي، وقرر استدعاء الخبراء الثلاثة، وأجّل الجلسة إلى صباح اليوم التالي.

■ ■ ■

وفتحت الجلسة في الساعة التاسعة من صباح ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٣١.

وأمر رئيس المحكمة باستدعاء مسيحة أفندي . .

ودخل رجل طويل القامة، على عينيه نظارة، وفوق رأسه طربوش، واسع الخطوات، حاد الذكاء، هادىء الأعصاب، واثق كل الثقة من نفسه.

وأقسم مسيحة أفندي بأن يقول الحق، وكل الحق، ولا شيء إلا الحق. وسأله رئيس النيابة:

ـ هل تتردد على مكتب الأستاذ عزيز ميرهم؟

قال مسيحة أفندي:

ـ نعم!

قال رئيس النيابة:

ـ وهل رأيت عباس حليم في مكتب عزيز ميرهم؟

قال مسيحة أفندي:

ـ لم أره في حياتي.. إلا في الصور التي تنشرها المجلات!

قال رئيس النيابة:

ـ إنه يقول إنه رآك تسلم وثيقة إلى عزيز ميرهم..

قال مسيحة أفندي:

ـ وهل معقول أن أسلم مثل هذه الوثيقة في حضور شخص غريب؟

قال مكرم:

ـ ولكن عزيز ميرهم يقول إنك سلّمت له هذه الوثيقة؟

قال مسيحة أفندي في هدوء:

ـ عزيز ميرهم لا يقول الحقيقة للأسف.

وقال مكرم عبيد إنه يكتفي بهذه الشهادة في الوقت الحاضر، ويطلب استدعاء الشيخ زكي، على أن يناقش مسيحة أفندي في أقواله بنهاية الجلسة.

وأمر رئيس المحكمة باستدعاء الشيخ زكي...

ودخل شيخ وقور، في الثلاثين من عمره، يرتدي الكاكولا، وعلى رأسه عمامة بيضاء... ومشى في وقار وجلال إلى أن وصل إلى المنصة،

وأقسم أن يقول الحق . .

وسأله مكرم وهو يقدم إليه الوثيقة :

ـ هل رأيت هذه الوثيقة من قبل؟

قال الشيخ زكي :

ـ نعم رأيتها . . أنا رجل أقسمت اليمين ولا يمكن أن أحنث في يميني!

وبدا على جميع الحاضرين الارتياح ، لأن الرجل المؤمن الشيخ زكي اعترف بالحقيقة ، ولم ينكر كما فعل مسيحة أفندي!

وسأله رئيس النيابة :

ـ وأين رأيت الوثيقة يا صاحب الفضيلة؟

وقال صاحب الفضيلة على الفور:

ـ رأيتها منشورة في جريدة «الضياء» في البلاغ الذي قدّمه رئيس الوفد عن تزوير الانتخابات!

وارتسمت خيبة الأمل، على وجوه جميع الجالسين في مقاعد المتفرجين بمحكمة الجنايات.

وكاد محمد يفقد أعصابه، وينتفض من مقعده ويصيح فيه «أنت كاذب» ولكنه تمالك نفسه وبقي جالساً في مكانه . .

وابتسم مكرم ابتسامة خبيثة وقال :

ـ هل درست في الأزهر؟

قال الشيخ مزهواً :

ـ نعم ولي الشرف!

قال مكرم :

ـ إن بعض الناس يقولون إنك لا تعرف القراءة والكتابة ! وصرخ الشيخ زكي :

ـ هذا كذب وافتراء!

قال مكرم متجهاً إلى المحكمة :

ـ هل تسمح لي المحكمة أن أمتحنه في الإملاء . . لأن معرفة الشيخ زكي للقراءة والكتابة مسألة هامة في تصديق أقواله ، فهو يقول أنه اطلع على الوثيقة في الصحف، وهناك من يقول إنه لا يعرف القراءة والكتابة .

وهاج الشيخ زكي وماج وقال:

ـ هذه إهانة للعلماء! إنني مستعد لا لامتحان الإملاء فقط، بل لامتحان في الفقه والبلاغة أيضاً.

قال مكرم :

ـ نكتفي بامتحان الإملاء . . .

وبحث مكرم عن جريدة أمامه ثم قال:

ـ آسف إن نسخة جريدة «الضياء» التي كانت معي تركتها في غرفة المحامين . . . سأملي عليه من خطاب علام باشا الذي تقول النيابة إنه مزور.

وبدأ مكرم يملي الخطاب، والشيخ زكي يكتب، وبعد أن انتهى

الشيخ زكي من تأدية امتحان الإملاء، قدّم الورقة مزهواً إلى مكرم وهو يقول:

ـ ستعلم أن الذي قال عني إنني جاهل أنه هو الجاهل الكذاب!

.وأمسك مكرم بيده اليمنى الورقة التي كتبها الشيخ زكي، وأمسك بيده اليسرى صورة الوثيقة المزورة وقال:

ـ يا حضرات القضاة! الوثيقتان بخط واحد هو خط الشيخ! نحن لم نزور الوثيقة! وإنما الحكومة هي التي دفعت هذا المسكين البائس ليدس علينا هذه الوثيقه، محاولاً أن يوقعنا نحن في جريمة التزوير الصغرى، ليغطي جريمة التزوير الكبرى. . جريمة تزوير الانتخابات. . جـريمة تزوير إرادة الشعب!

وثار الشيخ زكي وقال محتداً:

ـ هذا كذب! هذا تضليل! هذا افتراء!

ووقف إبراهيم الهلباوي بك وقال في صوته الخافت:

ـ من أجـل هذا إلتمسنـا من المحكمة استـدعاء خبـراء الخطوط الثلاثة. . . وقد وعدنا النيابة بالأمس ألا نناقشهم. . ونحن عند وعدنا سنطلب إليهم أن يقرروا إذا كان خط الوثيقة هو خط الشيخ زكي!

وأمر رئيس المحكمة باستدعاء الخبراء الثلاثة. . فحضروا، وعرض عليهم رئيس المحكمة الوثيقتين. .

وقال الخبراء على الفور إن الخط في الوثيقتين واحد!

وأمر رئيس المحكمة بالاستراحة! ليتيح لخبراء الخطوط مزيداً من الوقت لدراسة الوثيقتين وكتابة تقرير كامل. : وطلب من البوليس أن

يمنع الشيخ زكي ومسيحة أفندي من الانصراف إلى أن تنتهي الجلسة.

وانتهت الاستراحة، وأعيدت الجلسة، وتقدم الخبراء الثلاثة بتقريرهم المفصّل بأن الخط في الوثيقة المزورة هو خط الشيخ زكي دون سواه!

وصرخ الشيخ زكي في إصرار:

ـ أنا بريء، براءة الذئب من دم ابن يعقوب. هذا ليس خطي.. وأطلب استدعاء خبير رابع..

وبدأ مكرم يحاور الشيخ زكي ويداوره، حتى ضيّق عليه الخناق، وإذا بالشيخ زكي ينفجر بالبكاء ويقول:

ـ سأعترف! سأقول لكم الحقيقة! إن هذا خطي فعلًا! وأنا نقلت الوثيقة من مسودة قدّمها لي مسيحة أفندي، ومسيحة أفندي هو الذي وضع بمعرفته توقيع علام باشا على الخطاب..

وأمر المستشار محمود غالب على الفور بالقبض على شاهدي الإثبات مسيحة أفندي والشيخ زكي، وتحويلهما إلى متهمين..

ثم أمر بإدخالهما قفص الاتهام!

■ ■ ■

ولم يتمالك محمد نفسه، وجد نفسه يصفق لقرار رئيس المحكمة، واشتركت الجماهير في التصفيق، ودوت الهتافات بحياة العدالة..

وأمر رئيس المحكمة بالإفراج عن الأستاذين توفيق دياب وعزيز ميرهم، وتأجيل القضية إلى يوم ١٥ ديسمبر لإجراء تحقيق جديد..

وعاش محمد هذين الأسبوعين في ترقب. ترى هل يستطيع مكرم أن

يحصل في الجلسة التالية على اعتراف كامل من المتهمين، بأن عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية هو الذي دبّر هذه المؤامرة، وهو الذي كلفهما بهذه المهمة القذرة؟

وكان قد أحس براحة غريبة، بعد الإفراج عن عزيز ميرهم وتوفيق دياب. أحس بأن زبيدة خرجت معهما من القفص! كل كلمة قالتها ثبتت صحتها. النساء لسن كاذبات.. إنهن صادقات.. كذب نجوى المناسترلي لا يجوز أن يكون دليلاً على كذب كل النساء في العالم!

وأهم من كل هذا فقد ثبت أنها تحبه، وأكبر دليل على حبها له أنها جاءت له بكل هذه الأسرار.

وشعر برغبة عارمة في أن يسارع إلى رؤية المعلم وهدان أبو خطوة في قهوة سيدي فرج، وفي مقابلة الأستاذ محمد عبد الصمد في مدرسة رقيّ المعارف، وفي لقاء الدكتور أحمد ماهر.. كأنه يريد أن يحصل من هؤلاء الثلاثة بالذات على حكم برد اعتباره. إنه ليس فاشلاً كما قال المعلم وهدان بكلماته، وكما قال الأستاذ عبد الصمد بصمته، وكما قال الدكتور ماهر بابتسامته.

ثم آثر أن ينتظر حتى يصدر الحكم، وأحس كأن الخمسة عشر يوماً التي أجلت فيها القضية هي ١٥ عاماً، بل ١٥ قرناً من الزمان!

وعوضه عن هذا الانتظار قبلة من عزيز ميرهم. لقد علم بالدور الذي قام به، وقال له إن الأستاذ توفيق دياب يريد أن يقابله ليشكره..

ولم يكن محمد في حاجة لأن يشكره أحد، كان كل ما يحتاج إليه أن يصدر الحكم بالبراءة.

ترى: هل يتخيل القاضي محمود غالب أنه، بتأجيل القضية، أجل

لقاءه بزبيدة خمسة عشر يوماً؟ لو كان محمود غالب يحب المطربة ملك لما أجل الحكم إلى هذا الموعد البعيد!

وأخبره عزيز ميرهم أنه علم أن عوني باشا حافظ وزير الدولة زار ليلاً سجن الاستئناف، وأنه قابل مسيحة أفندي والشيخ زكي في زنزانتهما، وأنه أقسم لهما بشرفه أنه سيحكم عليهما بالبراءة إذا أنكرا أن له صلة بالوثيقة، أما إذا اعترفا بصلته، فسوف يقتلهما داخل السجن.

ورأى عزيز ميرهم لأول مرة متشائماً. لقد تلقى معلومات مؤكدة بأن الملك فؤاد ثائر على القاضي محمود غالب، وأنه قال إن محمود غالب حوّل القضية إلى مهزلة، وبدلاً من أن يحاكم رئيس الوفد حاكم الحكومة، وأن الحكومة أرسلت إلى محمود غالب تبلغه غضب الملك وتهديده إذا أصدر حكم البراءة!

وقال عزيز ميرهم إنه لا يدهش إذا ضعف محمود غالب، فالضغط عليه من كل مكان، وإذا لم ينجح الضغط عليه، فيمكن الضغط على عضوي اليمين واليسار.

وعقدت الجلسة الأخيرة..

وحاول مكرم عبيد أن يحصل على اعتراف من مسيحة أفندي والشيخ زكي بدور عوني باشا حافظ، فأصرا على الإنكار، وأكدا أنهما ارتكبا التزوير من تلقاء نفسيهما، وبدون تدبير أو تحريض من أحد!

وفشلت كل محاولات مكرم ومناوراته..

وملأ اليأس قلب محمد. عرف أن المعلومات التي لدى عزيز ميرهم صحيحة.. عاد يلعن القضاة من جديد..

ونطق محمود غالب بالحكم... براءة توفيق دياب وعزيز ميرهم

وسجن الشيخ زكي ومسيحة أفندي خمس سنوات مع الشغل!

وفي تلك اللحظة أحس محمد أنه أسعد رجل في العالم. القلعة الأخيرة لم تسقط في يد الطغاة. صمدت للتهديد والوعيد. بقي للأمة شرفها.

■ ■ ■

جلس صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا في مكتبه بالدور العلوي ببيته في الزمالك.

كان يرتدي بيجاما حريرية بيضاء فوقها معطف من الصوف الثقيل. وفوق رأسه طاقية حمراءتشبه الطرطور، وعلى عينيه نظارته.

الساعة الخامسة صباحاً. الوزراء نائمون. زعماء المعارضة نائمون. الملك نائم. الدولة كلها نائمة. إنه الموعد الذي يقرأ فيه رئيس الوزراء التقارير السرية التي وصلت طوال الليل من عواصم المحافظات والمديريات عن حالة الأمن العام في البلاد.

التقارير كلها اليوم بمعنى واحد وبعبارات مختلفة. هذا تقرير من أحمد زكي مصطفى بك مدير المنيا يقول فيه: إن الأهالي رقصوا في الشوارع عندما سمعوا خبر الحكم ببراءة توفيق دياب وعزيز ميرهم. هذا تقرير من حسن فهمي رفعت بك محافظ القنال يقول: إن الشعب خرج في مظاهرة كبيرة تهتف بحياة القاضي العادل محمود غالب وبسقوط الحاكم الظالم إسماعيل صدقي. هذا تقرير من هارون بك أبو سحلي مدير الدقهلية يقول: إن طلبة مدارس المنصورة أضربوا وخرجوا يحملون نعشاً كتبوا عليه «وزارة إسماعيل صدقي التي صرعها حكم القضاء العادل». هذا تقرير من حسين صبري باشا محافظ الاسكندرية وشقيق الملكة نازلي يقول فيه: إن النساء قابلن حكم البراءة بالزغاريد، وإن الأهالي كانوا يعانقون بعضهم البعض ويقبلون

بعضهم بعضاً، ويرددون كلمة «مبروك، مبروك». هذا تقرير من سليم بك زكي مدير القسم السياسي يقول فيه: إن مظاهرات خرجت في القاهرة تهتف بسقوط إسماعيل صدقي المزور. وتطالب باستقالة حكومته بعد أن أدانها القضاء..

وأزاح صدقي باشا هذه التقارير المقبضة، وخلع نظارته. وأشعل سيجارة، وراح يفكر في الصراع القائم بينه وبين الشعب؟.. لا هو يفهم هذا الشعب، ولا الشعب يفهمه. لا هو يثق بهذا الشعب ولا الشعب يثق به. إنه لا يكره هذا الشعب. إنه أطلق على حزبه اسم «حزب الشعب» وأطلق على الجريدة التي تنطق بلسانه وتدافع عن حكمه اسم «الشعب» كل ما هناك أنه يؤمن بأن هذا الشعب طفل صغير يجب أن يوضع تحت الوصاية. شعب قاصر اقتضت مصلحته أن يحجر عليه المجلس الحسبي. شعب ضعيف مريض، رأى وهو الطبيب الأخصائي العالمي أن يضعه برغم إرادته في الفراش، ويقفل النوافذ، خشية أن يصاب بالزكام، أو خوفاً من أن يقع في الشباك. منعه من الكلام حتى لا يصاب حلقه بالالتهاب، وحتى لا يقول كلاماً بذيئاً لا يتفق مع آداب السلوك. منعه من الحركة حتى لا يسقط على الأرض ويصاب بالرضوض. وعندما يخرج هذا الطفل المريض على النظام، فهو يخرج على «الريجيم» الذي فرضه عليه الطبيب لمصلحته، وعندما يضربه صدقي باشا، لا يقصد أن يعاقبه ويؤذيه، كل ما يقصده أن يربيه، لكي يلتزم بأوامر «الريجيم» حتى لا ينتكس، وتنهار صحته من جديد.

لماذا يغضب عليه هذا الطفل الذي لا يريد إلا مصلحته؟ لماذا يطالب بأن يكون من حقه وهو الطفل القاصر أن يختار الطبيب الذي يعالجه؟ كلما أعطينا هذا الطفل الحق في اختيار أطبائه اختار حلاقي

الصحة بدلاً من أن يختار الأطباء الأخصائيين. زعماء الأكثرية كلهم من حلاقي الصحة، الذين يفضلهم القروي الجاهل، على الأطباء العالميين ليس فيهم واحد في كفاية إسماعيل صدقي، وعبقريته، وعلمه، وتجربته، وقدرته على حكم البلاد. وهو عندما زوّر الانتخابات لم يقصد أن يسلب الشعب حقاً من حقوقه. إنه فعل ذلك لمصلحة الشعب نفسه، وليمنعه أن يختار حلاق صحة يجهل علم طب الدول والحكومات؟ . . هذا الشعب الطفل لا يقدر خدماته. يهتف بسقوطه، بينما جميع الأجانب في مصر يجمعون على كفايته وعبقريته. جريدة «التايمس» البريطانية تقول إنه لو كان اسماعيل صدقي في أي بلد في أوربا لأصبح أحد أعظم رؤساء الوزارات في أي دولة كبيرة. صحيح أنه يعطي مرتباً شهرياً لمستر مرتون مراسل جريدة «التايمس» في القاهرة، ولكن «التايمس» هي أعظم جريدة في العالم ومن غير المعقول أن تقول هذا الكلام الخطير في مقال افتتاحي بغير أن تقتنع به. الفرق بين هذا الشعب الذي لا يفهمه وبين الأجانب الذين يفهمونه كالفرق بين الجهل والعلم، بين العاطفيين والواقعيين، وعندما يكبر هذا الطفل ويتعلم سيعرف كيف يفضل الطبيب الأخصائي العالمي على حلاق الصحة. . ولهذا يجب أن يبقى هذا الطفل مقيّداً في سريره إلى أن يكبر ويتعلم الحكم على الأشياء!

ويتنهد صدقي باشا في حسرة، لأن هذا الشعب يصر على أنه ليس طفلاً، كل الأطفال لا يعترفون بأنهم أطفال! الشعب يدّعي أن عمره آلاف السنين، عرف الديمقراطية قبل أن تعرفها كل دول العالم. كان فيه مجلس نواب منتخب قبل كثير من دول العالم العريقة في المدنية، وجاء الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ وألغي مجلس النواب. الشعب يقول أن الديمقراطية لا تكتسب إلا بالممارسة. الطفل يجب أن يسقط

على الأرض ليتعلم المشي على قدميه، ولو بقي في السرير لعاش حياته مشلولاً عن الحركة. لا بد أن يسمح للطفل بالكلام، سيخطىء في أول الأمر، ثم يتعوّد على الكلام، ولو منعناه من الكلام إلى أن تصبح كل كلماته فلسفة وحكماً ونظريات عبقرية، فسوف يصاب بالخرس مع الأيام.. الطفل يجب أن يمرض ليشفى، لتكون فيه مناعة تحميه من الأمراض المستعصية والأوبئة التي يصاب بها الضعفاء العاجزون.

ويسخر صدقي باشا من كل هذه الحجج. هذا كلام حلاقي الصحة تبريراً لعدم استخدام الأطباء الأخصائيين!

ويتذكر صدقي باشا أن معركته مع هذا الشعب قديمة.. قديمة جداً! لقد كان من أول المصريين الذين انضموا إلى سعد زغلول في ثورة ١٩١٩، وأصبح عضواً في الوفد، وكتب بأسلوبه الفرنسي الرائع أول احتجاج للوفد على احتلال الانجليز لمصر، وأول برقية تطالب مؤتمر الصلح في باريس بالاعتراف باستقلال مصر. ثم اختلف مع سعد زغلول في باريس. كان من رأيه أن يقبل سعد الاستقلال على خطوات تطبيقاً لمبدأ «خذ وطالب». وكان سعد يصر على الجلاء التام والاستقلال التام لمصر والسودان. وكان محمود أبو النصر عضو الوفد يؤيد صدقي في هذا الرأي. وفوجىء الرجلان بالوفد يجتمع ويقرر فصلهما من عضوية الوفد من غير محاكمة. وأرسل صدقي باشا الدكتور يوسف نحاس يعرض على سعد أن يقدم استقالته فوراً، بدلاً من قرار الفصل، مبدياً تخوفه من عاقبة هذا القرار، وما سيجلبه عليه من إساءة وامتهان حين يعود إلى مصر.

وقال الدكتور يوسف نحاس لسعد:

ـ لا أفهم، وأنت القاضي الذي اشتهر بالعدل، والذي كـان لا يرضى أن يحكم على شخص في مخالفة بسيطة قبل سماع دفاعه، يسمح بالحكم على رجلين من زملائه بالموت الأدبي، من غير أن توجه إليهما تهمة معينة، ولا تعطيهما فرصة لدفعها عنهما؟

قال سعد:

ـ إن قانون الوفد يجيز فصل أي عضـو ترى الهيئة أنه لم يعد يمكنها العمل معه من غير إبداء الأسباب او توجيه تهم معينة.

قال الدكتور يوسف نحاس:

ـ ولكن هذا كثير. وأنا واثق من أن ضميرك الحي لا يرتاح إليه كل الارتياح، فإن كان العمل مع هذين الرجلين أصبح عسيراً، فلماذا لا تكلفهما بالاستقالة؟ إن صدقي باشا ومحمود أبو النصر مستعدان لتقديم الاستقالة فوراً.

قال سعد:

ـ لقد تكلمنا في ذلك، ولكن قيل إنهما قد يعودان إلى مصر ويتقولان على الوفد بما يسيء إلى سمعته.

قال يوسف نحاس:

ـ إن الوفد أكرم على الأمة من أن تنال منه مثل هذه التقولات.

قال سعد:

ـ لا مانع عندي من أن يستقيلا. . ولكن يجب أن أعرض الأمر على زملائي أعضاء الوفد، والرأي للأغلبية.

وهنا دخل محمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك، وأبلغهما سعد بما استقر عليه رأيه فعارضا معارضة شديدة، وانضم إليهما أغلبية الوفد في رفض الاستقالة والإصرار على الفصل الصريح . .

■ ■ ■

وعاد صدقي باشا إلى مصر، وفوجىء بأن الشعب اعتبر قرار سعد زغلول بفصله، هو أشبه بقرار الحرمان الذي يصدره الباباوات. الناس ترفض أن تصافحه، تأبى أن تنصت إليه، الشعب يعامله كمنبوذ، أصدقاؤه يهربون منه، مصر كلها تغلق أبوابها في وجهه!

وفي تلك اللحظة بدأ الانفصال الشبكي بين إسماعيل صدقي والشعب المصري . . .

وأشعل صدقي باشا سيجارة أخرى، وراح يمضي في رحلته. لقد دخل وزيراً للمالية في وزارة عبد الخالق ثروت باشا، وكان ساعده الأيمن في الحصول من الانجليز على تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذي تحولت به مصر من مستعمرة بريطانية إلى مملكة صحيح أن الانجليز احتفظوا بتحفظات أربعة من بينها بقاء الاحتلال البريطاني، وحمايتهم للأجانب والأقليات وإشرافهم على المواصلات في قناة السويس، وبقاء الحكم المصري الانجليزي في السودان. ولكنه كان يعتقد أنه نجح في الحصول على خطوة هامة في سبيل الاستقلال، وتصوّر يومها أنه سيدخل التاريخ من أوسع الأبواب، وأن المصريين سيحملونه على الأعناق. وإذا بسعد يقول إن هذا التصريح حماية مقنعة، بل حماية بالثلث. وأن التحفظات هي مسمار جحا، بل هي ليست مسماراً واحداً بل أربعة مسامير. وأصبح الشعب يلعن الذين جاءوا بتصريح ٢٨ فبراير!.

وعندما جاءت أول انتخابات سنة ١٩٢٤ رشح نفسه في دائرة سنــد بسطا، حيث يملك هو وأسرته آلاف الأفدنة، حيث كانت عزوته وقوته وأنصاره وأصهاره. ورشح سعد زغلول ضده محامياً مغموراً اسمـه محمد نجيب الغرابلي أفندي، وإذا بهذا الشعب يتخلى عنه، ويسقط الباشا المشهور، وينتخب الأفندي المغمـور. ويصاب صـدقي باشـا بخيبة أمل جديدة في هذا الشعب، ويزداد يقينه بأنه غير جدير بـأن يحكم نفسه بنفسه، يختـار حلاق الصحـة، ويرفض اختيـار الطبيب العالمي العظيم..

وفي سنة ١٩٢٥ تولى منصب وزير الداخلية في وزارة أحمد زيـور باشا، وأعلن الحرب على هذا الشعب الذي عـامله معاملة المنبـوذ، الذي أسقطه في الانتخـابات، وسلّط عليـه كل وسـائل الإرهاب، وبطش بكل من حاول أن يرفع رأسه، وحاصر بيت سعد بـالجنود، ومنع عنه الوفود والزائرين. وأرغم كثيرين من النواب الوفديين على الاستقالة من الوفد والتبرؤ من سعد زغلول. وبعد أن نجح في إدخال الشعب في الشقوق، أجرى الانتخابات لعضـوية مجلس نـواب جديـد. وأسقط سعد زغلول في الانتخابات الثلاثينية، وهدّد الناخبين، وتوعد المرشحين، وأنفق الأمـوال الطائلة لشـراء ذمم هذا الشعب المعـدم الفقير، وظهرت نتيجة الانتخابات، وأعلن أن أنصار الحكومة نالوا الأغلبية، وأنصار سعد أصبحوا أقلية. ورقص الوزراء فرحاً. وعانقه الملك فؤاد مشيداً بنجاحه العظيم في سحق سعد زغلول.

واجتمـع مجلس النـواب في جلستـه الأولى. ورشحت الحكـومـة عبدالخالق ثـروت باشـا رئيساً لمجلس النـواب، ورشح سعـد نفسه ضد مرشح الحكومة...

وجـرت الانتخابـات، وفوجىء صـدقي باشـا بأن سعـد زغلول

يكتسح ثروت باشا، وينال أغلبية الأصوات . .

وذهل صدقي باشا كيف حدث هذا! إنه هو الذي اختار النواب بنفسه. إنه هو الذي ساعدهم بأموال الدولة ونفوذها، هو الذي زوّر لهم في الانتخابات ليضمن لهم النجاح. كيف ينقلبون في يوم وليلة من خصوم لسعد إلى مؤيّديه؟ ثم علم أن كثيراً من النواب الذين تصور أنهم مع الحكومة خدعوه، وأن كثيراً منهم ما كادوا يرون سعد زغلول أمامهم، حتى ركعوا أمامه تائبين مستغفرين بأنهم خرجوا عليه في يوم من الأيام . . واضطر صدقي باشا أن يطالب بحل مجلس النواب الجديد. وأصدر الملك مرسوماً بحل مجلس النواب بعد افتتاحه بسبع ساعات . . فكان أقصر مجالس النواب عمراً في التاريخ . .

وبذا أصبح صدقي باشا يؤمن بأن هذا الشعب هو طفل لا يعرف مصلحته. يجب أن يوضع في الفراش ليشفى من أمراضه. يجب أن يضرب ليتأدب. يجب أن يبقى مغمض العينين حتى يعرف كيف يرى طريق الصواب. يجب أن يبقى مغمض اليدين حتى لا يعتدي على رجال الأمن العام. يجب أن توضع على فمه كمامة حتى لا ينطق بكلمات تخدش الناموس والاعتبار. يجب أن توضع السلاسل في قدميه حتى لا يمشي في غير الطريق المستقيم!

وعندما تولى رئاسة الوزارة عام ١٩٣٠ وضع برنامجه موضع التنفيذ. فألغى البرلمان الذي انتخبه الشعب، وجاء ببرلمان اختارته الحكومة. ألغى الدستور الذي يمنح الشعب حريات واسعة، حتى أن عبد العزيز فهمي باشا وصفه بالثوب الفضفاض، وجاء بدستور «محرق» على مقاس الطفل الصغير. ميني دستور. . . مثل الميني جوب الذي لم يعرفه العالم إلا بعد ذلك بأربعين سنة!

وابتسم صدقي باشا. إن هتافات الشعب لم تعد تهمه. . الشعب

المصري ليس هو الذي يؤلف الوزارات ويسقط الوزارات. كتابة اسمه على نعش تحمله الجماهير لا يثيره. الجماهير أضعف من أن تحيي رؤساء الوزارات أو تميت رؤساء الوزارات. زغاريد نساء الاسكندرية شماتة فيه لا تثيره. إنه معجب بجمال نساء الاسكندرية، سواء زغردن أو لطمن الخدود.. إن عشيقته الكونتس أليس من بنات اسكندرية، ومن أجل شعرها الأشقر الجميل فإنه مستعد أن يغفر لنساء اسكندرية جميعهن هذه الزغاريد التي أطلقنها ابتهاجاً ببراءة توفيق دياب وعزيز ميرهم..

■■■

وتلمع عينا صدقي باشا عندما يذكر صديقته الحسناء... ويجري الدم حاراً في عروقه من جديد. ويشعر أن اسم الكونتس أشبه بإكسير الشباب، أعاد له شبابه الذاهب في بعض لحظات.

وينظر إلى الساعة، فيجدها الساعة السابعة صباحاً. إنه موعد استيقاظها من النوم، فليهرب من لعنات الشعب إلى صوتها الساحر الجميل. ويتصورها نائمة في فراشها الواسع بقصرها الذي بناه لها على شاطىء النيل. ويمسك بسماعة التليفون، ويضع أصبعه في قرص التليفون يدير أرقامه... وتشعر أصابعه بلذة مثيرة، وهو يدير أرقام الكونتس، كأن أصابعه تلمس جسمها البض الناعم المليء بالحرارة والجمال.

هذا الرجل الذي جاوز الستين يتحول إلى ابن الثلاثين أمام كل امرأة جميلة. ويتحول إلى ابن العشرين أمام المرأة التي يحبها. الطاغية الجبار تلمسه عصا سحرية وتخلق منه دون جوان.. الشفاه القاسية التي تصدر الأوامر بإطلاق الرصاص في المليان، وبالسجن،

وبالاعتقال. . . هذه الشفاه تصبح ناعمة، تلقي عبارات غزل يعجز عنها أعظم الشعراء. كان صدقي أستاذاً عالمياً في الاقتصاد، ولكنه كان أستاذاً أكبر في الهوى والغرام. . . له قدرة عجيبة على سحر النساء. الكلمة التي يقولها للمرأة تطرب لها كأنها أغنية. كان يجد لذة عجيبة في أن يتباهى بعضلاته في عالم الهوى، فلا ينتزع المرأة إلا من زوج شاب يصغره بثلاثين سنة، أو من شاب جميل الصورة مشهور بأنه فاتن النساء!

وكانت أغلب مغامراته مع نساء غير مصريات، فقد كان لا يعرف كيف يحب باللغة العربية. كان غزله دائماً باللغة الفرنسية التي كان يجيدها حديثاً وقراءة وكتابة، كأنه عضو في مجمع الخالدين بباريس. . ولعل الجو الأجنبي الذي كان يعيش فيه هو الذي جعله يتجه هذا الاتجاه، أو أنه اختار أن تكون مغامراته في الأوساط الأجنبية حتى لا تصل أنباؤها إلى زوجته التي كان دائماً يحسب لها حساباً. .

وسمع صدقي باشا على الطرف الآخر من التليفون صوتاً نسائياً نصف مستيقظ ونصف نائم يقول:

ـ هالوووووه!

وكان في الواوات العديدة بصوت الكونتس الحسناء من الأنغام والأحلام، والدعوة والنداء ما جعل صدقي باشا يشعر أنه لم يعد في العشرين من عمره، وإنما أصبح في الخامسة عشرة!

وقال لها في صوت رقيق:

ـ هل أيقظتك من النوم يا حبيبتي؟

قالت الكونتس في صوت ساهم حالم:

ـ لا . . . كنت أقرأ شعراً!

قال صدقي باشا وهو مسحور بصوتها:

ـ هل كنت تقرئين شعراً في الحب؟

قالت الكونتس:

ـ لا ، كنت أقرأ قصيدة للشاعر الانجليزي المشهور برسي شيلي يقول فيها:

لا تخشوا استمرار حكم الطغاة إلى الأبد.
لا تذعنوا لكهنة دين الطغيان الملطخ بالدم.
إنهم يقفون على حافة نهر قوي جبار. . .
لوثوا مياهه النقية!
لا تخافوا بطشهم. . ستغرقهم مياه النهر الجبار!

قال صدقي باشا ضاحكاً:

ـ هل هذا الشعر من نظم الشاعر شيلي أم من نظم عباس العقاد؟

قالت الكونتس:

ـ ومن هو عباس العقاد؟

قال صدقي:

ـ إنه كاتب يشتمني كل يوم في الصحف. . إن قراءتك لهذا الشعر تدل على أنك انضممت للمعارضة!

قالت الكونتس:

ـ فعلاً. . إنني أفكر جدياً في الانضمام إلى المعارضة!

قال صدقي باشا وكأنه يهمس بالحب في أذنها:

ـ في هذه المعركة بالذات. . أنا واثق من أنني قادر على هزيمة الوفد من الجولة الأولى!

قالت الكونتس:

ـ إنني لا أمزح. . إنك رجل طاغية. . مستبد. . قاسي القلب! إن شعر شيلي ينطبق عليك تماماً!

قال صدقي باشا في ذهول:

ـ ماذا حدث؟

قالت الكونتس في حزن عميق:

ـ مضت علي ٢٤ ساعة لم أرك. . وعدتني أن تحضر إلى عشاء هنري بك نوس رئيس مجلس إدارة شركة السكر. بقيت حتى الساعة الأولى صباحاً أنتظرك فلم تحضر. إن الحاكم الذي يتجاهل رغبات شعبه هو طاغية مستبد قاسي القلب!

قال صدقي باشا في حسرة:

ـ تمنيت أن أحضر ولو لدقيقة واحدة. وقد كنت مشغولاً جداً. فقد صدر حكم غريب ببراءة الذين زوروا الوثيقة التي قدمها رئيس الوفد يتهمني فيها بتزوير الانتخابات، وقامت مظاهرات تهتف بسقوطي.

قالت الكونتس:

ـ كان كل الموجودين في مأدبة هنري بك نوس يتكلمون عن هذا الموضوع، وقال هنري نوس إن مصر لا تستحق إسماعيل صدقي.

وقال المسيو إميل ميرييل رئيس مجلس إدارة البنك العقاري أن المصريين لا يقدرون أن صدقي باشا ضحّى بمرتبات قدرها عشرون ألف جنيه كان يتقاضاها من عضوية البنوك والشركات ليصبح رئيس وزراء بثلاثة آلاف جنيه فقط في العام. وقال المليونير سلفاجو إن الحكم الذي أصدره القاضي المصري باعتبار شهود الإثبات متهمين يدل على أن الشارع هو الذي يحكم لا القضاة! وقال البارون إمبان إن رئيس مجلس إدارة البنك البلجيكي قال له إنه يعتبر صدقي باشا واحداً من أعظم ثلاثة اقتصاديين في العالم. وقال مسيو موصيري، صاحب بنك موصيري يكفي صدقي فخراً أنه قضى على الإرهاب ولم نعد نسمع دوي القنابل ولا إطلاق الرصاص على الوزراء!

قال صدقي باشا متحسراً كأن في صوته أسى دفيناً:

ـ لو كان المصريون جميعاً مديري بنوك ورؤساء مجالس إدارة شركات لكانت مهمتي سهلة. ولكن لا كرامة لنبي في وطنه.. تصوري أن مواطناتك نساء الاسكندرية زغردن عندما سمعن بحكم محكمة الجنايات.. لأنه صدر ضدي!

قالت الكونتس وكأنها تتبرأ من مدينتها من أجل حبيبها:

ـ أنا لست اسكندرانية، أنا لبنانية!

قال صدقي باشا:

ـ لبنانية مولودة في الاسكندرية. وهذا جعلني أحب الاسكندرية أكثر.. وأنا اليوم أبني شارع الكورنيش في الاسكندرية لأخلق مدينة الاسكندرية من جديد.. والشعب يهاجمني لأنني أبني الكورنيش، ويتهمني اليوم بأنني بنيته لأسرق منه بضعة آلاف من الجنيهات لأنه مشروع لا فائدة منه، وسوف يتهمني الشعب غداً بأنني بنيت

الكورنيش في الاسكندرية لأن المرأة التي أحبها مولودة في الاسكندرية!

قالت الكونتس:

- إن أهل باريس لعنوا الوزير أوتمان لأنه بنى أضخم شوارعها.. وعندما مات أقاموا له تمثالاً!

قال صدقي باشا هازئاً:

- إن الطوب الذي أعدوه لإقامة تمثال لي، استعملوه في إلقائه علي!

قالت الكونتس في صوت متخاذل:

- إنني قرأت مرة أن الشعوب كالمرأة لا تحب إلا الرجل الذي يصفعها على وجهها!

قال صدقي باشا ساخراً:

- لو كان هذا حقيقة.. لكان من واجب الشعب المصري أن يقدسني!

قالت الكونتس وكأن قلبها يذوب في صدرها:

- يكفي أنني أحبك، ألا يكفيك هذا؟

قال صدقي باشا، وكأنه يحاول أن يخنق العاطفة التي استولت عليه واستبدت به:

- يكفيني نصف هذا الحب، إنني أنسى في حبك كراهة شعب بأسره!

قالت الكونتس في صوت يفيض بالصبا والهوى:

- يجب أن أراك الليلة، وإلا فسوف تسمع أنني اشتركت في أول مظاهرة تهتف بسقوط الوزارة... إنني صاحبة مصلحة في سقوط

الوزارة لأستطيع أن أراك كل ليلة!

قال صدقي باشا في حنان غامر. وكأنه يرق بين ذراعيها:

ـ سوف أراك الليلة مهما حدث!

■ ■ ■

وأنهى صدقي باشا المحادثة، وشعر أنه أصبح أنشط كثيراً مما كان، زادت حيويته، تضاعفت رغبته في العمل. الحاكم يحتاج دائماً إلى شيء ينعشه، قد يكون هتاف الجماهير، وقد يكون كأساً من الويسكي، وقد يكون انتصاراً سياسياً ضخماً، وقد يكون صوت امرأة يحبها!

وما كاد صدقي باشا يضع سماعة التليفون، ولا يزال صوت الكونتس الساحر يملأ أذنيه، وكأنه أغنية حلوة انتهت، ولا يزال صداها يتجاوب في أذنيه، وإذا بالتليفون يدق من جديد.

وسمع صدقي باشا صوت عوني باشا حافظ وزير الدولة يقول له في صوت مضطرب:

ـ ألقيت الآن قنبلة على صاحب الفضيلة الشيخ الأحمدي الظواهري شيخ الجامع الأزهر، وهو خارج من بيته.. وأصابت القنبلة السيارة، ولم تصب شيخ الأزهر..

ووضع صدقي باشا السماعة وابتسم للمفارقة العجيبة.. أن ينتقل في دقيقة واحدة من التفكير في الكونتس أليس، إلى التفكير في شيخ الأزهر!

ولكن لماذا يلقون قنبلة على شيخ الأزهر؟

لماذا يغضب الأزهريون أيضاً على الوزارة؟ لقد فعلت وزارته أشياء كثيرة لإرضاء الأزهريين! الأزهريون يعارضون دخول الفتيات إلى الجامعة وعلي عيسى باشا وزير المعارف أصدر أوامر مشددة بفصل الطالبات عن الطلبة في الجامعة، حتى أصبحت المعارضة تسميه «وزير التقاليد»!

الأزهريون اعترضوا على تدريس الرقص التوقيعي في معهد التمثيل، فأصدرت الحكومة قراراً بمنع الرقص التوقيعي!

كان الشعب لا يرضى بأي شيء بديلاً عن حريته!! إنه فتح مطعماً باسم مطعم الشعب ليأكل العمال وجبة الطعام بقرش صاغ واحد، ولكن العمال قاطعوا مطعم الشعب وراحوا يهتفون بحياة حرية الشعب كأن الحرية لديهم أثمن من الطعام!

إنه بنى لهذا الشعب طريق الكورنيش، ولكن الشعب هزأ به وقال إنه لا يريد إلا طريق الحرية! إنه أرسل فرق الموسيقى تعزف في الحدائق، وامتنع الناس عن سماعها، لأنهم لا يريدون أن يسمعوا سوى نشيد الحرية. ولكن الشعب هزّ كتفيه سخرية بما قاله السنيور موسوليني رئيس وزراء إيطاليا لعبد الفتاح يحيى باشا وزير الخارجية من أنه معجب بالإصلاحات الضخمة التي قامت بها حكومة مصر. وقال الناس إن من الطبيعي أن يثني طاغية إيطاليا الكبير على طاغية مصر الصغير! وإن مصر في حاجة إلى حكومة ديمقراطية يعجب بها المصريون ويسخط عليها الأجانب. الشعب يقول ما قيمة الطعام لأفواه مكممة؟ وما قيمة الشوارع الجديدة للمقيدين بالسلاسل والأغلال؟ ما قيمة الموسيقى للذين وضع الحاكم أصبعه في آذانهم يمنعهم أن يسمعوا ما يريدون!

إنها عقلية الأطفال! يريدون حريتهم ليأكلوا الطعام الـذي يفسد معدتهم، ليخرجوا عن طاعة معلميهم، ليمتنعوا عن الاستحمام في الموعد المخصص لهم، ليملأوا ملابسهم النظيفة بالبقع والأوساخ! إنهم يريدون حريتهم في أن يخرجوا على «النظام»!

وما هي الحرية؟ إن كل إنسان في العالم حريته مقيدة.. إن اسماعيل صدقي باشا رئيس وزراء مصر ليس حراً يفعل ما يشاء.. الملك فؤاد يقيّده.. يتدخل في شؤون وزارته.. يعين وزراء لا يريدهم.. يفرض عليه موظفين لا يثق بهم.. وسير برسي لورين المندوب السامي البريطاني يقيد حريته.. يعترض على مشروعات يريد أن ينفذها. يمنعه من اتخاذ إجراءات يريد اتخاذها.. صحيح أنه يضيق بتقييد حريته.. ولكنه لا يمشي في الشوارع يهتف بسقوط الملك والمندوب السامي البريطاني، ولا يكسر الفوانيس، ولا يقلب عربات الترام والأوتوبيس.. الحرية للكبار فقط، ولا حرية للأطفال!

ولكن ما الذي يجعله يتحمل كل ما يتحمل من الشعب والملك والمندوب السامي.. لماذا لا يستقيل من رئاسة الوزارة، كما نصحته صديقته الكونتس الحسناء، ويمضي لياليه بين ذراعيها؟.

وراح صدقي باشا يتهم نفسه بالسذاجة:

ـ ترى، لو استقال من رئاسة الوزارة، فهل ستبقى الكونتس الحسناء تحبه كما تحبه الآن؟ ترى، هل هي تحبه لشخصه، أم أنها تحبه لأنه صاحب السلطة؟.. السلطة امرأة ساحرة كالكونتس الحسناء. فيها سحرها وجاذبيتها.. السياسيون يتعقبون السلطة كما يتعقب الرجل المرأة الحسناء.. إنها لكل واحد منهم خفقة قلبه ومعشوقة روحه وضوء حياته وغاية أمله.. وعندما يحصل على السلطة يحس بنفس

الشعور الذي أحس به عندما حصل على الكونتس الحسناء. . يغار عليها. . يتصور أن كل رجل ينظر إليها يريد أن يسلبها منه. . يشك في أقرب الناس إليه. . يريدها لنفسه وحده. . لا يقبل شريكاً ولا يتحمل منافساً. . وعندما يعشق الرجل امرأة عشقاً مجنوناً، يشك في كل كلمة، ويغار من كل نظرة، ويقلق من أي بسمة توجه إليها. . يتصور أن كل رجل في العالم يريد أن يستولي عليها. . كل الناس مفتونون بها فتنته بها. كل الناس لا يفكرون إلا أن يغافلوه ليسرقوها منه. . ومن أجل هذا لا يستطيع أن ينام خشية أن تفلت منه إذا أغمض عينيه. . وهو يحرسها، ويراقبها، ويغلق النوافذ والأبواب حتى لا يدخل منها لصوص الغرام!

ولكنه يعتقد أنه أحق المصريين بهذه المرأة الجميلة، أجدرهم بها، أقدرهم على إسعادها. وهو يعتقد أن أي مصري سواه لا يصلح لها. فكلما أحببنا امرأة توهمنا أننا وحدنا الذين نستطيع إسعادها!

وعاد صدقي باشا يفكر من جديد في الكونتس الحسناء، وهو يرتدي ملابسه، استعداداً للذهاب إلى مكتبه. .

وكان يسمع ضحكاتها المجلجلة. فتشنف أذنه كأنها قطعة موسيقية خالدة. وكان يرى عينيها الزرقاوين الوضاءتين، يخرج منهما شعاع من نور يضيء قلبه العجوز، وكان يتصور جسدها اللين الذي ينبض بالشباب والحياة. .

إنها امرأة جميلة فاتنة لذيذة. . كالسلطة تماماً! فيها جذوتها وفيها نشوتها، ولها سلطانها. .

وخطر بباله خاطر غريب. .

ترى. . أتوجد «معارضة» تحاول أن تستولي على الكونتس. . كما

تحاول المعارضة أن تستولي على السلطة؟

ترى من تكون هذه المعارضة؟

إن الكونتس ذكرت له أربعة أو خمسة أسماء من الذين كانوا معها في سهرة هنري بك نوس، وكلهم عجائز فوق الستين، فوق مستوى الشبهات.. هل من المعقول ألا يكون بين المدعوين أحد الشبان؟! إنه يحب السلطة والكونتس في وقت واحد. قلبه يتسع للاثنين معاً.. ما الذي يمنع أن تحب الكونتس أيضاً اثنين في وقت واحد؟!

ولم يلبث رئيس الوزراء أن أبعد الخاطر السخيف عن رأسه، ومضى يتم ارتداء ملابسه، وعاد يفكر في مشاكل الدولة..

ودق جرس التليفون من جديد.

وسمع صوت عوني باشا حافظ يقول له:

- إنني أتكلم من منزل فضيلة شيخ الجامع الأزهر. إن جندي حرس الوزارات الواقف على باب بيت الأستاذ الأكبر شاهد شاباً يحوم حول المنزل، ويقول إنه هو نفسه الذي ألقى القنبلة.. وقد رأيت ألا نقبض عليه. وكلفت الضابط محمد عبده من البوليس السري أن يتتبعه ليعرف شركاءه. لأنني أعتقد أن هذا سيوصلنا إلى العصابة كلها، وقد أمرت الضابط بألا يقبض على الشاب إلا بعد أن يحصل على أمر مني شخصياً. وأن يقوم وحده بهذه المهمة، حتى لا يتسرب أمرها إلى أحد.

قال صدقي باشا:

- أحسنت التصرف.. لو ثبت أن زعماء الوفد وراء هذه القنبلة وحوادث إطلاق النار على الوزراء، فسيكون هذا أعظم رد على حكم

براءة توفيق دياب وعزيز ميرهم . .

■ ■ ■

واستقل صدقي باشا سيارته وذهب إلى وزارة الداخلية بصفته وزيرها . .

وبعد ساعتين استقل سيارته وذهب إلى وزارة المالية بصفته وزيرها .

وبعد ساعتين انتقل إلى رياسة مجلس الوزراء بصفته رئيس الوزراء . ثم ذهب إلى نادي محمد علي وتناول الغداء ، وعاد مباشرة إلى وزارة المالية وبقي يعمل فيها .

وفي الساعة السابعة مساء دق جرس التليفون في مكتب صدقي باشا في وزارة المالية . .

وقال عوني باشا حافظ :

ـ أخبار سارة جداً يا دولة الباشا . . الشاب الذي ألقى القنبلة على شيخ الأزهر ذهب إلى مكتب عزيز ميرهم . .

قال صدقي باشا في سرور :

ـ برافـو! إن عزيز ميرهم ليس مزوراً فقط ، بل هو قاتل أيضاً!

قال عوني باشا :

ـ ليس هذا فقط . . خرج من مكتب عزيز ميرهم وذهب إلى جريدة «الضياء» وقابل توفيق دياب .

قال صدقي باشا :

ـ العصابة كلها وقعت في أيدينا! إنني أريد أن أتفرج على وجه

المستشار محمود غالب عندما يرى الذين برّأهم بالأمس يدخلون قفص الاتهام اليوم!

قال عوني باشا:

- المسألة أخطر من ذلك بكثير.. بعد توفيق دياب، ذهب وقابل الدكتور ماهر في بيته بشارع الملك.

قال صدقي باشا:

- إن الدكتور ماهر كان الرأس المدبر لاغتيالات الإنجليز في ثورة ١٩١٩.

قال عوني باشا:

- وبعد ذلك عاد الشاب إلى بيته، ثم خرج منه يحمل في يده لفافة.

قال صدقي باشا:

- لا بد أنها قنبلة أخرى!

قال عوني باشا:

- ثم ذهب إلى حديقة الجبلاية في الجزيرة، وجاءت سيدة محجبة وتسلمت منه اللفافة وخرجت..

قال صدقي باشا:

- وهل قبضت على الشاب؟!

قال عوني باشا:

نعم، قبضت عليه، وهو في سجن الأجانب الآن!

قال صدقي باشا:

- والسيدة المحجبة.. قبضتم عليها طبعاً.. وضبطتم اللفافة التي فيها القنبلة..

قال عوني باشا:

- للأسف.. كنت أصدرت أمري للضابط محمد عبده بألا

يقبض على الشاب إلا بعد أن يحصل على أمر مني شخصياً، وعندما خرج من حديقة الجبلاية، واتصل بي تليفونياً من نقطة بوليس الجزيرة، وأمرته بالقبض على الشاب والسيدة، عاد فلم يجد السيدة ووجد ذلك الشاب وحده وقبض عليه.

قال صدقي باشا:

ـ ولكن السيدة مهمة جداً.. يجب القبض عليها!

قال عوني باشا:

ـ إننا سنقبض عليها خلال ساعة.. فالشاب مضطرب جداً وبدأ ينهار!

قال صدقي باشا:

ـ وهل اعترف؟!

ـ يا دولة الرئيس.. أنت تعرف جيداً.. إنه حتماً سيعترف!

■ ■ ■

عاد عوني باشا حافظ إلى بيته مع خيوط الفجر. صعد درجات السلم الخشبي الموصل إلى الطابق العلوي في تثاقل، كأنه يحمل فوق ظهره وزارة الداخلية كلها.

ما أتعس وزير الدولة في وزارة الداخلية. إنه أشبه بجندي الدورية. ولكن جندي الدورية يعمل ثماني ساعات في اليوم وهو يعمل أربعاً وعشرين ساعة كل يوم. جندي الدورية يقبض على لصوص البيوت، ووزير الدولة يقبض على لصوص السلطة. وهم أخطر أنواع اللصوص في العالم، إنهم عصابات باسم أحزاب، قطاع طريق باسم معارضة، مصاصو دماء باسم صحفيين..

وبدأ يخلع ملابسه، ويلقيها بغير ترتيب ولا نظام خلافاً لعادته.

وارتدى بيجاما من الصوف الثقيل، وارتمى على فراشه مجهداً مكدوداً مرهقاً.

سينام الآن ملء عينيه. إنه يعمل من الساعة السابعة صباحاً بغير انقطاع حتى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي. عشرون ساعة كاملة في تحقيقات وتحريات وبحث وتنقيب وتفتيش ومطاردة. نسي أن يتناول طعام الإفطار، والغداء والعشاء. اللقمة الوحيدة التي دخلت فمه هي قطعة ساندويتش بالسردين قدّمها له النائب العام أثناء التحقيق. أكلها وهو واقف على قدميه. يا له من شعب ناكر للجميل. لا يقدر العناء الذي يضني من يشرفون على شؤون الأمن العام. يحسدونهم على سياراتهم الفارعة. وعلى مرتباتهم الضخمة. ويطلقون النار عليهم. ولا يتصورون أنه لولا عوني باشا وأمثاله لغرقت البلاد في الفوضى. صحيح أنه لا يحمي الشعب. وإنما يحمي السلطة. ولكن السلطة هي رأس الشعب. ولو قطع رأس السلطة، لعاش هذا الشعب بغير رأس!

وتقلّب عوني باشا في فراشه. أعجبه التشبيه. ذكره برأس آخر يريد أن يقطعه. رأس هذا المجرم الذي لا يريد أن يعترف. لقد أتعبه أكثر مما أتعبه أخطر المجرمين العتاة. لبث طوال هذه الساعات يحاوره ويداوره. فشلت كل المحاولات في إرغامه على الاعتراف. يبدو صريحاً جداً وهو غامض جداً. يقول كل شيء ولا يقول شيئاً. تحمل المجرم ضرب السياط دون أن يتأوه، رأى البوليس يضرب أباه وأمه ضرباً مبرحاً فلم تهتز فيه شعرة واحدة. هذه طبيعة الفدائي المتعصب. إيمانه بعدالة قضيته يجعله يتحمل ما لا يستطيع أن يطيقه أقوى الأقوياء. إنه لا يريد أن يعترف بأنه ألقى القنبلة على شيخ الأزهر. مع أننا واجهناه بجندي حرس الوزارات الذي اشتبه فيه. وواجهناه بعدد من شهود الزور جئنا بهم من مخبري المحافظة. إنه أبى أن يذكر اسم السيدة

المجهولة التي التقى بها في شارع الجبلاية. مع أننا هددناه بأنه إذا لم يتكلم فسنعرف مكانها، ونقبض عليها، ونترك الجنود يغتصبونها أمام عينيه. لم يهتز وكأنه مؤمن بأن هذه المرأة أقوى من فرقة في الجيش، تستطيع وحدها أن تقاوم غزو جميع جنود البوليس!

واجهناه بأننا نعرف كل شيء عن حركاته بعد الحادث. إننا كشفنا جميع اتصالاته.. إننا وضعنا أيدينا على جميع أسراره، وتوقعنا أن ينهار أمامنا، ولم يعترف فلم يفتح فمه وأصرّ على أنه لن يتكلم إلا أمام النائب العام. جئناه بالنائب العام فإذا به يفاجئنا بأنه أعد شهود النفي قبل أن يرتكب جريمته. رتّب أدلة البراءة وكأنه محام قدير يترافع أمام محكمة الجنايات. هذا يدل على أنها مؤامرة واسعة النطاق، وليست جريمة فردية، مؤامرة وزعت بدقة أدوارها على عدد من الناس، وأجادوا حفظ أدوارهم. لا بد أن وراء المؤامرة رأساً مدبراً يعرف كيف يدبر المؤامرات.

ثم إن إصرار المجرم على أنه لا يذكر اسم السيدة المجهولة التي التقى بها في الجبلاية دليل واضح على أنه يخفي سراً خطيراً، يحمي شخصيات كبيرة. إنه يعرف تماماً أننا لو وضعنا يدنا على هذه السيدة المجهولة فسنضع أيدينا على مفتاح القضية الكبرى، المفتاح الذي سيكشف الأسرار المطوية، والشركاء المختفين، وكل التنظيم السري الذي يعمل تحت الأرض ويدبر الجرائم والاغتيالات.

لقد اضطر عوني باشا أن يؤجل التحقيق إلى ظهر اليوم التالي، لأنه أحس بالتعب والإرهاق. أما المجرم فلم يتعب، لم تظهر عليه أية علامة من العلامات التي تسبق حالة الانهيار قبل الاعتراف. لم يطلب رحمة من الذين كانوا يضربونه بالسياط بلا رحمة. لم يصرخ. لم يتأوه. لم يركع على قدميه يقبّل أقدام ضاربيه. لم ترتسم على وجهه تغيرات الألم

والعذاب والهوان، والضباط يصفعونه على وجهه ويركلونه بأحذيتهم وينهالون عليه بالشتائم والسباب. كل ما كان يفعله أن يردد كلمة «يا رب». . وكأنه يتصور أن الله سينزل من سمائه، ويدخل سجن الأجانب، ويشل أيدي الضباط التي تحمل السياط. .

ولم يجيء الله في تلك اللحظة. ولكن كانت تلمع في عيني المجرم نظرة إيمان غريب كأنه مؤمن إيماناً عجيباً بأن الله سيجيء!

كل بريء يلقى كل هذا التعذيب كان سيعترف حتماً بأنه مرتكب الجريمة التي لم يرتكبها. ولكن هذا المجرم، نسيج وحده في تحمله، فهو لا يريد أن يعترف، كأنه لا يريد أن يستريح من سياط الضباط. لقد شعر عوني باشا أن الضباط تعبوا من الضرب، ولكن المجرم لم يتعب!

ويحاول عوني باشا أن ينسى كل ما جرى في هذه الساعات العشرين لينام، ويغمض عينيه فلا يستطيع أن يرى النوم. ويعدل نفسه على الناحية الأخرى من الفراش، ثم يعود إلى الناحية الأولى، ثم يضع الوسادة فوق رأسه، ثم يعود ويضعها تحت رأسه، ولكنه لا ينام، ويشعر بصداع قاتل مميت. كأن المجرم يضربه بنفس السياط. والسياط كلها تقع على رأسه. سياط عنيفة. إن اليد التي تهوي بالسوط أقوى ألف مرة من يد رجل واحد. أتكون هذه هي يد الله التي استنجد بها المجرم؟

ويحس عوني باشا برعشة في كل أطرافه، بخوف لم يشعر به في حياته. ويطمئن نفسه بأن الله لا يمكن أن يهب لنجدة مجرم حاول أن يقتل شيخ الإسلام، ويستريح لهذا التبرير. ويهدأ قليلاً. ثم تعود آلام الصداع من جديد. ويمد يده ويفتح الدرج الصغير في المائدة المجاورة لفراشه، حيث يضع أدويته وعقاقيره، وتتحسس أصابعه في الظلام أنبوبة الأسبرين فلا يجدها. ويضيء نور الأباجورة، ويضع نظارته فوق عينيه، ويعود إلى البحث، ويجد أنبوبة الأسبرين، ويكتشف أن

الأنبوبة خالية. إنه واثق أنها كانت ملآنة إلى آخرها. هل الله أيضاً أفرغ أنبوبة الأسبرين حتى لا يجد مسكناً لهذا الصداع المميت؟

■ ■ ■

ويتجه عوني باشا إلى غرفة نوم زوجته بحثاً عن الأسبرين، ويحاول فتح البابا فيجده مغلقاً، ويدق البابا فلا يسمع صوتاً. ويحس بضيق إن زوجته نائمة تحلم وهو سهران يتعذب، ويدق على الباب بعنف، ويخرج من ثقب الباب شعاع النور. لقد استيقظت زوجته وأضاءت الأباجورة، ثم يسمع خطواتها تسير متثاقلة إلى الباب. ثم تتوقف فجأة وتصيح في صوت مذعور:

- من؟

ويجيب:

- أنا عوني.

ويسمعها تقول:

- ماذا تريد؟

ويضيق بأسئلتها وآلام الصداع تفتك برأسه:

- هل هذا وقت تحقيق؟ إفتحي الباب!

وتفتح زبيدة الباب وهي تغالب النوم في عينيها فيدخل إلى الغرفة وهو يقول:

- إنني أشعر بصداع شديد.. هل لديك أسبرين؟

وتتطلع زبيدة إلى وجهه المتعب المكدود وتقول:

- ما لك؟ هل أنت مريض؟ متى عدت؟ إنني لم أسمع صوت السيارة عندما دخلت من باب الحديقة.

قال عوني باشا وهو يضع كفه على رأسه ويضغط عليه كأنه يسكت صراخ الآلام التي تنطلق منه:

- إن رأسي يكاد ينفجر! إنها الآن الساعة الخامسة والنصف صباحاً.. أنا قادم الآن من سجن الأجانب.

قالت زبيدة وهي تنظر إلى ساعتها:

- ماذا حدث؟ هل ثار المسجونون أيضاً؟

قال عوني باشا وقد ضاق بأسئلتها كما يضيق كل زوج بأسئلة زوجته:

- الدنيا مقلوبة رأساً على عقب، وأنت نائمة في سابع نومة! لقد ألقيت قنبلة صباح أمس على شيخ الأزهر، وقبضنا على الجاني، وهو طالب في مدرسة رقي المعارف، اسمه محمد حنفي عبد الكريم.

وهوى النبأ كمطرقة هائلة فوق رأس زبيدة. تسمّرت في مكانها. تسمّر كل شيء فيها. شفتاها. حركة عينيها. قدماها. كأن صاعقة انقضت عليها وحوّلتها إلى تمثال جامد لا حركة فيه ولا حياة.

ولاحظ عوني باشا انصعاقها المفاجىء فقال لها:

- لماذا وجمت هكذا؟..

وتمالكت زبيدة بقية أعصابها التي لم تحركها الصاعقة وقالت:

- كيف لا أحزن؟ أنا كمسلمة يحزنني ويدهشني أن تلقى قنبلة على شيخ الإسلام.

وأدارت زبيدة ظهرها إليه، واتجهت إلى الدولاب وفتحته متظاهرة

بأنها تبحث عن الأسبرين. وكانت في الواقع تحاول جاهدة إخفاء انفعالاتها في داخل الأدراج والرفوف. كانت واثقة أن تعبيرات وجهها سوف تفضحها لو بقيت تواجه زوجها، بعد أن سمعت نبأ الصاعقة!

كيف ارتكب محمد هذه الجريمة الجديدة دون أن يخبرها؟ إنها كانت معه مغرب أمس. صحيح أنها لم تستطع أن تبقى معه في حديقة الجبلاية سوى بضع دقائق، وتركته لاضطرارها إلى الإسراع إلى بيت أبيها لعيادة والدها المريض. ولكن محمد لم يحدثها عن القتل وإنما حدثها عن الحب. لم يتكلم عن القنبلة التي سيلقيها وإنما تكلم عن القبلة التي يريدها من شفتيها ورفضت إعطاءه إياها لأنها في عجلة من أمرها. إنها تفهمه تماماً. تسمع كلماته قبل أن ينطق بها.. تتم له الجملة عندما يبدأها. تقرأ أفكاره وكأنها تقرأ في كتاب مجهول. المرأة عندما تحب تجيد قراءة ما في رأس حبيبها. وعندما تشك فيه تعود أمّية تجهل القراءة والكتابة، أو تصاب بالعمى فتقرأ ما في رأسه بالمقلوب. ولكنها تحب محمد ولا تشك فيه، تؤمن به كما تؤمن بنفسها. تقول له كل شيء ويقول لها كل شيء. إنها مكثت معه بضع دقائق في المرة الأخيرة. دقائق مرّت كالبرق. ساعة العاشقين عند اللقاء دقيقة، وعند الفراق دهر كامل. ولكن هذه الدقائق كانت كافية لأن يخبرها محمد بأنه سيلقي قنبلة في صباح اليوم التالي على شيخ الأزهر. لقد قال لها أكثر من مرة إنه أصبح مقتنعاً بعدم جدوى القتل السياسي، بعد أن لمس بنفسه نتيجة إطلاق الرصاص على عوني باشا. كل ما فعلته هذه الرصاصات أنها ضاعفت شهية الطغاة للبطش والإرهاب والانتقام. أعطتهم المبرر لارتكاب جرائم جديدة بحجة مقاومة الإرهاب.

هل كان محمد يكذب عليها عندما كان يقول لها كل هذا؟ لا يمكن

أن يكذب محمد عليها. إنها أصبحت قطعة منه، وأصبح هو قطعة منها. الأغبياء وحدهم هم الذين يكذبون على أنفسهم. ومحمد ذكي. الرجال يبدأون في الكذب على النساء عندما يبدأ حبهم يشيخ. كما تزين المرأة وجهها بالمساحيق لتخفي التجاعيد. وحب محمد لم يضعف، بل يزداد قوة وشباباً. كان محمد أمس يحدثها عن أحلامه في أن يتزوجها. عن البيت الصغير الذي سوف يعيش فيه معها وكأنه يعيش في الجنة، عن الطفلة التي ستلدها له وسوف يسميها زبيدة باسمها! الذي يتحدث عن أحلام المستقبل ليس هو الذي يرتكب جناية قتل بعد ذلك الحديث ببضع ساعات! الفدائيون لا يحلمون بجنة على الأرض، وإنما يحلمون بجنة في السماء!

وكانت زبيدة تقطع الأفكار التي تدور في رأسها بكلمات «الأسبرين ليس هنا» و«أين الأسبرين يا ربي»؟.. وتنقل رأسها في داخل الدولاب، بين رف ورف، وكأنها تخبىء في الأدراج أفكارها ولا تبحث فيها عن أنبوبة الأسبرين.

وعندما وصلت أفكارها إلى نتيجة لا تقبل الشك بأن محمد بريء، أخرجت رأسها من الدولاب وصاحت مبتهجة:

ـ الحمد لله.. الحمد لله.. وجدت أنبوبة الأسبرين..

وراحت تمشي في الغرفة، وتلوح بأنبوبة الأسبرين في يدها، وكأنها تلوح بوثيقة براءة محمد. مشت وكأنها ترقص إلى المائدة المجاورة لفراشها، وأمسكت إبريق الماء الموضوع فوق المائدة، وسكبت قليلاً من الماء في كوب زجاجي.. ودعت عوني باشا إلى أن يجلس بجوارها على الفراش، وناولته الكوب وهي تقول:

ـ إنني استرحت الآن.. استرحت جداً.. لأنني وجدت أنبوبة

الأسبرين. . الصداع سيخرج من رأسك كما تخرج الشعرة من العجين!

ووضعت زبيدة كفها على رأس عوني باشا، تجسه وتقول:

ـ الحمد لله . . الحمد لله . . لا توجد حرارة!

كانت تريد أن تقول الحمد لله. الحمد لله. لقد اقتنعت بأن محمداً بريء. . ولكنها اكتفت بأن تقول نصف الجملة لنفسها. وتقول نصف جملة أخرى لزوجها!

وعندما تطمئن الزوجة العاشقة على حبيبها تضاعف بلا وعي من عنايتها بزوجها، وكأنها تعوضه بالقليل الذي تمنحه إياه على الكثير الذي سلبته منه. .

ودعته في حنان أن يرقد على فراشها. إن فراش المرأة هو دائماً كرسي الاعتراف الذي يجلس فوقه الرجل! شيء في هذا السرير يفك عقدة لسان الرجل، يجعله يقول كلاماً لم يكن ينوي أن ينطق به. يدفعه إلى أن يذيع أسراراً كان مصمماً على كتمانها!

■ ■ ■

وجاءت زبيدة بزجاجة كولونيا، وبدأت تدلك بها رأسه، وجسمه، وكأنها تخدر أعصابه وتضعف مقاومته، وعندما اطمأنت إلى سيطرتها عليه قالت له متظاهرة بعدم الاهتمام:

ـ هل اعترف المجرم؟

قال عوني باشا:

ـ لقد فعلنا المستحيل معه ولم يعترف بعد. تصوري أن المجرم كان

ينظر إلينا طوال التحقيق، كأنه هو البريء، وكأننا نحن حكومة المجرمين!

وانطلقت زبيدة تضحك بلا وعي، تضحك في بلاهة. هذا هو محمد فعلاً بفصه ونصه. إنها تتصوره في زنزانته وكأنه هو الذي يحقق مع المحققين!

ودهش عوني باشا لضحكها المتواصل، وقال لها في استغراب:

ـ ما الذي يضحكك؟

قالت وهي لا تزال تضحك لتكسب وقتاً تجد فيه كذبة ترد على هذا السؤال المفاجىء:

ـ سمعت نكتة من أخي محمود عندما ذهبت إلى بيت أبي!

قال عوني باشا مستنكراً:

ـ وهل هذا وقت نكت.. أنا أعيش الآن في مأساة!

قالت زبيدة وهي تضحك:

ـ ما ذنبي؟ أنت الذي ذكرتني بالنكتة عندما قلت حكومة مجرمين! النكتة تقول إن جندياً من جنود الدرك كان يقف أمام رياسة مجلس الوزراء..

وسمع الجندي طالباً يهتف: تسقط حكومة المجرمين! تسقط حكومة اللصوص!

وانقض الجندي على الطالب وقبض عليه وهو يقول:

ـ ضبطتك.. تهتف بسقوط الحكومة الحاضرة!

قال الطالب متظاهراً بالبراءة: وماذا يدريك إنني أهتف بسقوط الحكومة الحاضرة؟ ربما كنت أهتف بسقوط حكومة سعد باشا، أو حكومة زيور باشا، أو حكومة عدلي باشا أو حكومة النحاس باشا!

وقال الجندي غاضباً:

ـ أتظن إنني مغفل؟ لقد مضى علي في خدمة البوليس ثلاثين سنة، ولم تجيء عندنا حكومة مجرمين ولا حكومة لصوص إلا هذه الحكومة.. تعال معي إلى القسم!

قال عوني باشا باشمئزاز:

ـ هذه نكتة سخيفة! لو رددها أخوك مرة أخرى فسيجد نفسه في السجن! إياك أن ترددي هذه النكت مرة أخرى! نكت هذا الشعب طويل اللسان تدوي أكثر من القنابل، وتقتل أكثر من الرصاص! ولو علم دولة صدقي باشا أن زوجة وزير في الوزارة تردد النكت التي تقال ضد الوزارة، فإن هذا سوف يسيء إلى مركزي كوزير في الوزارة.

وتوقفت زبيدة عن الضحك. ولكنها دهشت لحكم الطغاة الذي تزلزله نكتة!

وأرادت أن تعود إلى الموضوع الذي يهمها فقالت:

ـ ولكن كيف أتعبك هذا المجرم.. إنك قادر أن تلعب بأصبعك بآلاف المجرمين!

قال عوني باشا، وهو يتحسس رأسه، وكأنه يبحث عن الشاكوش الذي بدأ يدق عليه بدلاً من السياط:

ـ إننا راقبنا المجرم لمدة ١٢ ساعة بعد الجريمة. أنا الذي أمرت بعدم

القبض عليه على الفور، حتى نعرف كل شركائه. ولكنه كان أعد مقدماً الإجابة المقنعة على كل سؤال. سألناه ماذا كان يفعل في هذه الساعة المبكرة بجوار بيت شيخ الأزهر في ضاحية الزيتون؟ فأجاب ببساطة غريبة أنه كان يزور الحاج مغازي الفقي المكوجي بشارع الملك، في منزله بحارة الشربين خلف بيت شيخ الأزهر. سألناه عن سر هذه الزيارة المبكرة؟ قال إنه ذهب يستفسر عن صحة هذا المكوجي لأنه يلازم الفراش بسبب إصابته بالروماتيزم. وأنه كان مضطراً أن يزوره في هذا الوقت المبكر قبل ذهابه إلى مدرسة رقي المعارف التي هو طالب بكالوريا فيها. سألناه عن علاقته بهذا المكوجي؟ قال إنه كان يعمل صبي مكوجي عنده. وتصورنا أننا حاصرناه في ركن لن يفلت منه. وسألناه: هل من المعقول أن يعمل طالب في البكالوريا صبي مكوجي؟ وأجاب إنه اضطر إلى هذا العمل لأن الحكومة فصلت أباه من العنابر، وفوجئنا به يحول التحقيق من قضية قنبلة شيخ الأزهر إلى قضية إطلاق الرصاص على عمال العنابر، وأحسسنا أنه أراد أن يجعلنا نتوه في القضية التي طويناها وأردنا أن ينساها الناس.. وأسرعنا نقفل التحقيق.. وذهبنا إلى بيت الحاج مغازي المكوجي فوجدناه فعلاً في حارة خلف بيت شيخ الأزهر وأن الذي يزور البيت يجب أن يمر في الذهاب والإياب على بيت شيخ الجامع. وهاجمنا بيت المكوجي فوجدناه في فراشه يشكو من مرض الروماتيزم. جئنا بطبيب من المحافظة ليتأكد هل هو مريض أم متمارض، فأكد الطبيب أنه مريض فعلاً لا يستطيع الحركة. وكرر المكوجي نفس الحديث الذي دار بينه وبين محمد عبد الكريم المسجل في التحقيق!

فقالت زبيدة وقد لمعت عيناها فرحاً:

ـ هذا دليل على أنه بريء!

قال عوني باشا هاتفاً:

ـ بل هو دليل على أنه مجرم عتيق. مجرم معتاد الإجرام. حرص أن يختار شهوداً طبيعيين. وهذا دليل على مهارة المتآمرين لإعداد المؤامرة. حسبوا حساب كل شيء. استعدوا لكل احتمال. لقد ثبت لنا أن هذا المكوجي يكوي ملابس الدكتور ماهر، وهذا خيط هام... أحد الخيوط التي توصل إلى أن الدكتور ماهر على رأس هذه الجرائم..

قالت زبيدة:

ـ وهل يكفي أن يكوي المكوجي ملابس الدكتور ماهر ليكون ذلك دليلاً على اشتراكه في الجريمة؟.. إن مكوجي شارع شوكلاني الذي ذبح زوجته كان يكوي ملابسك. فهل قال أحد إنك شريك له في ذبح زوجته؟

قال عوني باشا:

ـ هذا خيط وليس دليلاً.. والجرائم السياسية تعتمد على الشكوك.. أما الجرائم العادية فتعتمد على الأدلة. هناك شك آخر على أنها مؤامرة. سألنا المجرم: قلت إنك حرصت على أن تذهب لزيارة المكوجي في هذا الموعد المبكر لأن الدراسة تبدأ في مدرسة رقي المعارف في الساعة الثامنة صباحاً. ما رأيك أن تحرياتنا ودفاتر المدرسة تقول إنك لم تذهب إلى المدرسة في ذلك الصباح؟

قال المجرم إنني ذهبت إلى المدرسة، وعند الباب نظرت في الساعة فوجدتها تجاوزت الثامنة صباحاً، وناظر المدرسة رجل دقيق يعاقب الطالب المتأخر عن الساعة الثامنة بالحجز ساعتين بعد انصراف التلاميذ، وبالضرب.. ولما كان لدي عمل بعد موعد انتهاء الدراسة، فقد آثرت ألا أدخل المدرسة هذا اليوم.

وسألنا محمد عبدالصمد ناظر المدرسة فقال إنه فعلاً يعاقب الطلبة المتأخرين، ويأمر بضربهم بالمسطرة أمام باقي التلاميذ في الطابور، حتى ولو كانوا طلبة البكالوريا!

وانفجرت زبيدة بالضحك، عندما تصورت حبيبها محمد، وضابط المدرسة يضربه بالمسطرة على قفاه كالأطفال..

وصاح عوني باشا غاضباً:

ـ وماذا يضحكك الآن؟

قالت زبيدة، وهي لاتزال تضحك:

ـ تذكرت نكتة أخرى!

قال عوني باشا مزمجراً:

ـ وبعدين؟ لقد نبهت عليك بألا ترددي أي نكتة تسمعينها. إنني عندما أسمع نكتة منك ضد الحكومة أعتبر شريكاً معك في تهمة سب الحكومة! إنني أطلب إليك إذا أراد أحد أن يقول أمامك نكتة ضد الحكومة أن تنسحبي على الفور، وتخبريني باسم من يقول النكتة لأقطع رقبته!

وتصورت زبيدة أن الملايين من سكان مصر أصبحوا فجأة بغير رؤوس! إن المصريين كلهم يقاومون الطغاة بالنكت! لقد وجدوا في أوراق البردى نكتاً أطلقها المصريون سخرية من فرعون! الشعوب تستطيع أن تسقط الطغاة بالنكتة الساخرة! قوة الطاغية أن يفرض احترامه ومهابته على الشعب. فإذا سخر الشعب منه فقد احترامه وضاعت مهابته، فإن النكتة قادرة على أن تسقطه من فوق قلعته، قادرة

على أن تقتحم القلعة بغير سلاح، أن تدكها بغير مدفـع، أن تجعل من ضحكـات الشعب الساخـرة غـازاً خـانقـاً يجعله عـاجـزاً عن الحركة، مشلولاً، والمدفع في يد الرجـل المشلول لا يخيف المجردين من السلاح!

وعاد عوني باشا يتم تلخيص التحقيق:

ـ وسألنا المجرم لماذا ذهب إلى مكتب عزيز ميـرهم بعد ارتكـاب الجريمة؟

فقال إنه يعمل كاتباً عنده. وأيّد عزيز ميرهم هذه الرواية طبعاً.. لأنه شريك في المؤامرة مائة في المائة!

وسألنا المجرم لماذا خرج من مكتب عزيز ميرهم وذهب إلى جريدة «الضياء»، وقابل رئيس تحريرها توفيق دياب؟ فأجاب المجرم أن عزيـز ميرهم أوصى توفيق دياب بتعيينه محرراً بالجريدة، وذهب فعلاً وقابل توفيق دياب الذي وافق على تعيينه بعشرين جنيهاً في الشهر، وأعطاه مبلغ عشرة جنيهات على الحساب! هل هذا معقول؟ طالب لم يحصل على شهادة البكالوريا يتقاضى مرتباً قدره عشرون جنيهاً في الشهر، بينما الحكومة حددت مرتب حامل الليسانس بستة جنيهات في الشهر؟ في هذا الاتفاق الغريب رائحة المؤامرة، رائحة الجريمة. العشرون جنيهاً ليست مرتباً، إنما هي ثمن إلقاء القنبلة على شيخ الأزهـر. والعشرة الجنيهات هي مقدم الأتعاب. ولكن توفيق ديـاب، لأنه شـريك في المؤامـرة، ولأنه أراد أن ينتقم من الحكـومـة لأنها سجنتـه في قضيـة الخطابات، أيد رواية المجرم أمام النائب العام. وعندما سأله النائب العام: كيف تمنح تلميذاً مرتباً قدره عشرون جنيهاً في الشهر؟ أجاب إن مرتبات المحررين في عالم الصحافة، هي مسألة تقديرية، الحكم فيها لصاحب الجريدة وحده. مسألة لا تخضع لكادر ولا لشهادات دراسية،

وأنه يعتقد أن محمـد عبدالكـريم يساوي عشرين جنيهـاً في الشهر. بينـما لو جاء إليه أحد أصحاب المعالي الوزراء الحاليـين، وطلب أن يعين محرراً في جريدته لما استحق أكثر من ثلاثة جنيهات!

وأرادت زبيـدة أن تضحك، وهي تـرى زوجها غـاضباً سـاخطاً حانقاً، لأنه لا يساوي سوى ثلاثة جنيهات في عالم الصحافة، ولكنها سارعت تغطي شفتيها بمنديلها، وكأنها تحاول أن تمنع ضحكة انطلقت من قلبها، وأرادت أن تدوي خارج الشفاه!

ومضى معالي وزير الدولة يقول:

ـ وقاحة! قلة أدب! إن المعارضين ينتهزون وقوفهم أمام المحقق، ويقولون في محاضر التحقيق كلاماً لا يجرؤون أن يكتبوه في صحفهم خشية من قانون العقوبات. وهذا ما فعله الدكتور ماهر. فلقد أراد النائب العام أن يجامله لأنه وزير سابق. لم يستدعه إلى النيابة. بل انتقل إليه في داره. ومع ذلك لم تنفع معه المجاملة!

كان النائب العام قد سأل محمد عبد الكريم لـماذا ذهب إلى بيت الدكتور ماهر يوم ارتكاب الجريمة؟ فقال إن الدكتور ماهر عندما علم أن أباه فصلته الحكومة من العنابر، أعطاه عشرة جنيهات. وعندما تسلم العشرة الجنيهات من توفيق دياب كان هذا المبلغ أول عشرة جنيهات كاملة تلمسها يده. وكان أول ما فكر فيه أن يذهب إلى الدكتور ماهر ويرد له المبلغ شاكراً. ولكن الدكتور ماهر رفض أن يسترد المبلغ. وهذا كلام فيه ثغرات كثيرة تلقي ظلالاً على علاقة المجرم بالدكتور ماهر. وعندما ذهب النائب العام إلى بيت الدكتور ماهر ليسمع أقواله، إذا بالدكتور ماهر يقول إنه يرفض الإجابة، قبل أن يتم التحقيق في حادث تعذيب المعلم حنفي عبد الكريم، وضربه بالسياط، حتى فقد قـواه

العقلية ليعترف كذباً بقتل وزير الحربية الذي لا يزال على قيد الحياة، لأن هذه الجريمة مرتبطة بمقابلته لمحمد عبد الكريم، ولأن جريمة تعذيب المعلم حنفي وقعت قبل جريمة إلقاء قنبلة على شيخ الأزهر. وأن شيخ الأزهر نجا من القنبلة، أما المعلم حنفي فقد تم إعدامه وهو على قيد الحياة، فالرجل الذي يفقد عقله هو ميت أمام القانون. والمفروض أن تهتم العدالة أولاً بمصرع إنسان قبل أن تهتم بإصابة سيارة شيخ الأزهر برضوض!

وأحرج النائب العام، عرف أن الدكتور ماهر يقصد أن يحول حكاية المعلم حنفي إلى قضية تصل إلى محكمة الجنايات، واضطر أن يسجل في محضره، أنه رأى عدم سماع أقوال الدكتور ماهر لعدم الأهمية!

كانت زبيدة تسمع كل هذه التفاصيل مبهورة. كلها آذان. كانت تشعر كأنها تمشي مع محمد في كل خطوة خطاها. لقد وصف لها محمد من قبل، زياراته هذه باختصار شديد، في مقابلته الأخيرة والمرأة تحب أن تسمع ألف مرة أنباء الرجل الذي تحبه وفي كل مرة من هذه المرات الألف تشعر بلذة كأنها تسمع الأنباء للمرة الأولى. إنها لا تمل تكرار اسمه. إن قلبها يردد اسم حبيبها مع كل دقة من دقاته إنها تريد أن تسمع اسم حبيبها بأذنها، كما تسمعه بقلبها، وتريد أن تسمعه بعينيها، وتريد أن تسمعه بيديها.

إنها ترى هذا الاسم مكتوباً بحبر سحري على كل جدار. مطبوعاً على كل طعام تضعه في فمها. كل أغنية تسمعها إنما تتحدث عنه. كل فيلم تشهده هو بطله. كل كتاب تفتحه تجد فيه صورته. عندما تسمع اسم الرجل الذي تحبه على شفتي عدوها تغفر له ذنوبه. كأنه استغفر عن ذنوبه كلها وهو يذكر اسم حبيبها! لا يهمها ما يقوله الناس عنه.

كل ما يهمها أن يرددوا اسمه. فكأنهم يعزفون اللحن الوحيد الذي يرقص قلبها على أنغامه.. ولا يهمها هل أجادوا العزف، أم نشزوا في عزفهم.. إن نغمة واحدة من اللحن تكفيها... هي اسمه!

■ ■ ■

ولاحظ عوني باشا صمت زبيدة، وتوهم أنها ملت الحديث عن هذه القضية، التي أطال شرح تفاصيل التحقيق فيها فقال معتذراً:

ـ أخشى أن أكون صدعت رأسك بهذه الحكاية!

قالت زبيدة محتجة:

ـ على العكس! إن حديثك لذيذ جداً. إنني أتتبعه وكأنني أتتبع فيلماً بوليسياً مثيراً.

وعجب عوني باشا من عقلية النساء! إنها المرة الأولى منذ عشر سنوات التي يسمع فيها زبيدة تصف حديثه بأنه لذيذ جداً. فقال وهو يثبت الطاقية البيضاء فوق رأسه:

ـ ولكنه لم يكن فيلماً لذيذاً بالنسبة لي. كان أشبه بالكابوس. تصوري أن المجرم يقع في يدي ولا أستطيع أن أجعله يتكلم؟! ماذا سيقول الملك؟ ماذا سيقول إدريس بك؟ ماذا سيقول صدقي باشا؟!

قالت زبيدة في حماس:

ـ وماذا يريدون؟ هل يريدون منك أن تلفق القضية لبريء وتترك الجاني الحقيقي الذي ألقى القنبلة؟ ولنفرض أنك لفقت القضية، ثم تولى النحاس بعد ذلك الحكم، وقدّمك إلى محكمة الجنايات.

وانتفض عوني باشا وقال:

ـ النحاس لن يجيء إلى الحكم أبداً. . إدريس بك أكد لي هذه الحقيقة وقال لي «خلي قلبك جامد»! إنني لم أذكر لك أخطر نقطة في القضية. إن ضابط البوليس الحمار الذي كلفته بمراقبة المجرم، رأى المجرم وهو يسلم لسيدة مجهولة في حديقة الجبلاية لفافة فيها قنبلة!

قالت زبيدة مذهولة:

ـ قنبلة!؟ قنبلة!؟

قال عوني باشا في تأكيد:

ـ نعم قنبلة!! الضابط واثق مائة في المائة أنها قنبلة. وكان المفروض أن يقبض عليهما متلبسين ولكنه لم يفعل، لأنني أصدرت أمراً بألا يقبض على الجاني قبل استئذاني شخصياً. وخشي الضابط أن يغضبني إذا قبض عليهما فوراً. فجرى إلى نقطة بوليس الجزيرة واتصل بي تليفونياً، وأبلغني ما حدث، فأمرته أن يقبض عليهما فوراً. ولكن، لسوء الحظ، أفلتت السيدة المجهولة ومعها القنبلة.

ولم يجد الضابط في الحديقة سوى المجرم وحده فقبض عليه. . وكان الخطأ الذي ارتكبته أنني أمرت أن يتولى الضابط وحده هذه العملية، خشية أن تتسرب أخبارها إلى المعارضين. . ولكن المصيبة الكبرى هي إفلات هذه السيدة منا. . .

وانعقد لسان زبيدة من وقع هذه المفاجأة الجديدة. لبثت فترة في ذهول. ثم عادت تسترد أنفاسها، وتحاول أن تتخلص من الذهول الذي كان يقبض على عنقها وكأنه يريد أن يخنقها. . وقالت في صوت مرتجف:

ـ وهل رأى الضابط السيدة المجهولة؟ هل أخبرك بأوصافها؟

قال عوني باشا:

ـ للأسف، كانت تضع حجاباً سميكاً على وجهها...

وحمدت زبيدة الله، لأنها رفضت أن ترفع الحجاب هذه المرة، أثناء وجودها في حديقة الجبلاية، بالرغم من إلحاح محمد، لأنها كانت في عجلة من أمرها للذهاب إلى بيت أبيها المريض..

وكأن عوني باشا لم يشأ أن يتركها في اطمئنانها طويلاً فعاد يقول:

ـ ولكن الضابط الذي رآها في حديقة الجبلاية يؤكد أنه يستطيع أن يخرجها من بين ألف سيدة محجبة إذا رآها مرة أخرى، إن صورتها منطبعة في رأسه تماماً..

قالت زبيدة هازئة:

ـ ولكن نصف سيدات القاهرة محجبات.

قال عوني باشا وهو يثبت النظارة فوق أنفه:

ـ إن لصدقي باشا نظرية، أوافقه عليها، وهي أن هذه السيدة لا بد أن تكون عضواً في لجنة السيدات السعديات برياسة شريفة هانم رياض. هذه اللجنة اشتركت في عملية مقاطعة الانتخابات، ووزعت منشورات ضد الحكومة، لدينا قائمة بأسماء جميع أعضاء هذه اللجنة. وقد أصدر صدقي باشا أمراً بأن يهاجم البوليس الليلة جميع بيوت هؤلاء الأعضاء، ويفتشها بحثاً عن أسلحة وقنابل، وهو يعتقد أننا سنعثر على اللفافة التي سلمها هذا المجرم إلى السيدة المجهولة. وسيصحب الفرقة التي ستقوم بالتفتيش نفس الضابط الذي رأى السيدة المجهولة في حديقة الجبلاية، وبهذه الطريقة

يستطيع بسهـولة أن يقبض عليهـا. إننا لا بـد أن نقبض على هـذه المرأة. سوف نقبض عليها بأي ثمن!

وضحكت زبيدة ضحكة هستيرية، أرادت أن تخفي فيها رعدتها من التصميم على القبض عليها وقالت:

ـ هل يتصور صدقي باشا بذكائه العظيم، أن السيدات يجلسن في بيوتهن محجبات، حتى يستطيع الضابط العبقري أن يعرف السيدة التي كانت في حديقة الجبلاية؟

وسكت عوني باشا قليلاً، ثم قال:

ـ غريبة! كيف فاتت هذه النقطة على ذكاء صدقي باشا، وكيف فاتت على ذكائي؟.

قالت زبيدة، تطمئنه على ذكائـه، وكأنها تـطمئن نفسها في ذات الوقت:

ـ في لحظات.. يتحول أذكى الأذكياء ليصبح أغبى الأغبياء! بدل كل هذا المجهود المضني.. لماذا لم تسألوا المجرم عن اسم السيدة التي كانت معه؟.

وضحك عوني باشا لسذاجتها، وكأنه يسترد ملابس أذكى الأذكياء التي جردتها منه منذ دقائق:

ـ كيف يخطر ببالك أننا لم نسأله؟ إننا قضينا كل هذه الساعات نسأله عن السيدة المجهولة. سألناه ألف مرة فرفض أن يجيب. قلنا له لو كنت بريئاً فعلاً فاذكر اسم السيدة. فرفض أن يثبت براءته بهذا الطريق. قلنا له إذا أصررت على إنكار اسمها فهذا اعتراف ضمني بأنك أنت حاولت قتل شيخ الأزهر. فـإذا به يقـول إنه يفضـل أن يحكم عليه

بالإعدام، على أن يذكر اسمها!

قالت زبيدة، وقد برقت عيناها:

ـ لا بد أنه يعبد هذه المرأة.. وإلا لما ضحى بحياته من أجل أن يحميها!

قال عوني باشا باحتقار:

ـ لو كان هذا الشاب بريئاً فلا بد أنه مجنون. ولو كان مجرماً فهو عاقل. لا توجد امرأة في العالم تساوي أن يضحي رجل بأظفره من أجلها. أنا أراهنك. إنه هو الآن في السجن، مقيد بالسلاسل والأغلال.. أما هي.. فتبحث الآن عن عشيق جديد، يملأ مكانه الخالي في فراشها!

ووجدت زبيدة نفسها، بغير وعي، تصرخ فيه:

ـ اخرس!

ذهل عوني باشا وصاح غاضباً في زبيدة:

ـ كيف تجرئين على أن تقولي لي: إخرس؟ كيف تدافعين عن عشيقة رجل مجرم؟!

قالت زبيدة وقد أفلتت أعصابها:

ـ لأنك شتمتني الآن!

قال عوني باشا:

ـ أنا لم أشتمك.. أنا شتمت عشيقة المجرم!

قالت له وهي تبكي:

ـ إنك قلت إنه لا توجد امرأة في العالم تساوي أن يضحي رجل بأظفره من أجلها! أنا واحدة من نساء العالم التي لا تساوي قلامة ظفر!

قال عوني باشا يهدئها:

ـ أنا لم أقصد إهانتك. . أنت التي تدافعين عن عشيقة مجرم!

قالت زبيدة وهي لا تزال تبكي:

ـ إنني لا أدافع عنها. أنا أدافع عن الحب. أدافع عن الذين يضحون بحياتهم من أجل المرأة التي يحبونها. . لو أنك أحببت في يوم من الأيام، لعرفت أن الذين يحبون على استعداد لأن يدافعوا عن حبهم بحياتهم وأرواحهم وكل ما يمتلكون. الحب إله معبود يستحق أن تقدم له أرواح المحبين كقرابين. الموت في سبيله حياة. التضحية من أجله لذة. الفناء فداء له هو أسمى مراتب الخلود.

وضحك عوني باشا وقال:

ـ إن شعر شوقي الذي تقرئينه في قصة «مجنون ليلى» أضاع عقلك. . أنصحك أن تبتعدي عن الشعر. . إنه كلام فارغ. . حبر على ورق!

قالت زبيدة وكأنها تحدث نفسها:

ـ حبر على ورق؟ إنني أحياناً عندما أقرأ ديوان شاعر عظيم، أتصور أن الشاعر لا يكتب دائماً شعره بالقلم والمداد. أحياناً يكتب شعره بالسكين. أحياناً يكتبه برموش عينيه. أحياناً يكتبه بأعواد الورد. وهو لا يغمس القلم في محبرة، بل يغمسها في دموع عينيه، أو دم جروحه إنني وأنا أقرأ «مجنون ليلى» لشوقي أحس كأنه كتبها بقلم أحمر شفاه!

قال عوني باشا:

ـ بمناسبة الشعر. عندما سألنا المجرم عن اللفافة التي سلمها للسيدة المجهولة في حديقة الجبلاية أجاب أنها كتب شعر. وهي «الأربعين» للعقاد، «ديوان أحمد رامي» و«رباعيات عمر الخيام»، وقصة «روميو وجولييت» للشاعر خليل مطران.

قالت زبيدة وهي تبتسم ابتسامة لم يفهم عوني حافظ معناها:

ـ كل هذه الدواوين موجودة عندي. إنها أعز ما عندي من الكتب. هذا يدل على أن المجرم ذوقه سليم في اختيار دواوين الشعراء.

قال عوني باشا:

ـ إنني لم أصدق في أول الأمر هذه الرواية. لم أسمع عاشقاً يقدم هدية لحبيبته دواوين شعر؟. المفروض أن يقدم لها زجاجة عطر، أو حقيبة يد، أو وعاء للبودرة؟.. وقد أثارت هذه الرواية شكوكي. فقد ذكر المجرم أنه اشترى هذه الكتب من محمد محمود صاحب مكتبة الوفد بشارع الفلكي. قبضنا على صاحب المكتبة وقرر أنه فعلاً باع هذه الكتب للمجرم، وإنها ملفوفة في لفافة صفراء. نفس نوع اللفافة التي قال الضابط أنها كانت فيها القنبلة!

قالت زبيدة بإيمان:

ـ ما دام الشهود صدّقوا على كل ما قاله فهذا دليل على أنه بريء!

قال عوني باشا في ابتسامة خبيثة:

ـ بل هذا دليل على أنه مجرم. الشهود الذين استشهد بهم جميعاً من الوفديين، أحمد ماهر وفدي، توفيق دياب وفدي، عزيز ميرهم وفدي، محمد عبد الصمد صاحب مدارس «رقي المعارف» وفدي، المكوجي

وفدي . . حتى المكتبة التي اشترى منها الكتب اسمها «مكتبة الوفد» . . ثم إن هناك مسألة أخرى أهم من هذا كله . نظراته لي أثناء التحقيق فيها حقد وكراهية . في عينيه شيء يقول إنه يريد أن يقتلني . إن فراستي لا يمكن أن تخيب . هذا رجل يريد أن يقتل الوزراء وكبار رجال الدولة . . ولو أنه كان بريئاً فعلاً ، لذكر اسم السيدة المجهولة التي سلمها اللفافة!

■ ■ ■

قالت زبيدة :

ـ ربما تكون هذه السيدة متزوجة . الرجل الشريف يجب أن يحمي المرأة التي أحبته .

قال عوني باشا وهو يهز كتفيه :

ـ إذا كانت تحبه حقيقة ، فإنها سوف تتقدم إلى النائب العام وتقول له : «أنا السيدة المجهولة التي تبحثون عنها» . وبذلك تضحي بالزوج الذي لا تحبه من أجل أن تنقذ الرجل الذي تحبه من المشنقة! ألم تقولي لي الآن إن الذين يحبون على استعداد لأن يضحوا بحياتهم من أجل أحبائهم؟ إذا كان هذا الشاب قبل أن يضحي بحياته . . فلا أقل من أن تضحي المرأة بزوجها الذي لا تحبه!

وكادت زبيدة تقول له : «أنا السيدة المجهولة» ، ولكن الجملة توقفت على شفتيها . . فقد تذكرت أن زوجها طاغية جزار . . وعادت تقول له :

ـ قد يكون زوج هذه السيدة صاحب نفوذ ، ضابطاً في القسم السياسي مثلاً ، فإذا علم أن المتهم هو حبيب زوجته قتله في السجن ، ومنحته الحكومة وساماً ، لإخلاصه لها وحماسه ضد خصومها . وبذلك

تفقده الزوجة إلى الأبد. . بدلاً من أن تفقده إلى حين. .

وضحك عوني باشا ساخراً وقال:

ـ كيف تفقده إلى حين؟ إنها الآن ستفقده إلى الأبد، لأنه من المؤكد أنه سيحكم عليه بالإعدام.

قالت وهي تضغط على شفتيها من الغيظ:

ـ كيف يحكم عليه بالإعدام، وأنت تقول إنكم لم تعثروا حتى الآن على أدلة كافية؟ فشلتم في أن تحصلوا منه على اعتـراف، وفشلتم في العثور على السيدة المجهولة. . أنا أعتقد أنه لا توجد أي أدلة على هذا الشاب تسمح بتقديمه إلى محكمة الجنايات. . ولو نجحتم في تقديمه إلى محكمة الجنايات فإنها لن تحكم عليه بالسجن ساعة واحدة، لا أن تحكم عليه بالإعدام. . يظهر أنك نسيت الحكم الذي أصدره محمود غالب في قضية الخطاب المزور. . مثل هذا القاضي لن يأخذ الناس بالشبهات ويحكم على شاب بـالإعدام لمجرد أن وزير الدولة قرأ في عينيه أنه لا يحبه. . إنني أعتقد أنه يوجد الآن محمود غالب في كل محكمة!

قال عوني باشا في حماس:

ـ لن يجرؤ قاض آخر أن يفعل ما فعله محمود غالب!

■■■

قالت زبيدة:

ـ العدالة مرض معد، مثل الظلم تماماً. ظالم كبير واحد في بلد يفرخ آلاف الظالمين الصغار. وقاض عادل كبير في محكمة يشيع العدل في البلد كله. لقد سمع قضاة مصر بآذانهم كيف خرجت المظاهرات تهتف

للقاضي العادل. اليوم ستجد كل قاض في مصر يريد أن يكون بطلاً مثل محمود غالب. المتردد ينقلب إلى جريء. الخائف يصبح شجاعاً. الجبان يتحول إلى مقدام. كل ما يحتاجه هذا البلد هو القدوة الصالحة. أخشى أنكم إذا قدمتم شاباً بريئاً إلى القضاء اليوم،جاء قاض شجاع ليحكم على المحققين ويضعهم في قفص الاتهام.. كما فعل محمود غالب!

وانتفض عوني باشا وقال:

ـ إن هذه الحكومة لا تستطيع أن تتحمل صفعة أخرى كصفعة محمود غالب وتبقى في كراسيها. من أجل هذا أنا مصمم على اعتراف كامل من المتهم. واذا وقعت هذه السيدة المجهولة في يدي وبقيت معها خمس دقائق، فمن السهل أن أجعلها تنهار وتقول كل شيء!

قالت زبيدة وهي تحاول أن تخفي سخريتها:

ـ وماذا ستفعل إذا لم تستطع الوصول إلى هذه السيدة المجهولة.. هل ستقبضون على كل امرأة محجبة في البلد!؟

قال عوني باشا وقد انقلب وجهه وظهرت عليه سحنة الجلاد:

ـ عندئذ سنضرب المجرم بالسياط حتى يعترف. سنضربه بالليل والنهار. إن في الإنسان قوة احتمال محدودة. سنضربه أسبوعاً.. شهراً.. سنة كاملة.. حتى ينهار ويعترف.. إن المجرم استطاع أن يحتمل حتى الآن بصمود عجيب. جئنا بأمه أمس وضربناها بالسياط أمامه فلم يرتجف.. بل لقد كانت أمه أشجع منه فقد نظرت إليه، وابتسمت، وقالت:

ـ تأكد يا محمد إن السياط لا تؤلمني! إن كلمة «عاهرة» فقط التي قالها

لي الوزير هي التي آلمتني أضعاف هذه السياط . .

قالت زبيدة وقد وضعت كفيها على عينيها وكأنها ترى أم محمد تضرب أمامها بالسياط :

ـ وهل قلت لها إنها عاهرة؟

قال عوني باشا بفخر ومباهاة :

ـ نعم . .

قالت زبيدة مستنكرة :

ـ وهل هي عاهرة حقاً؟

قال عوني باشا بغير اهتمام :

ـ لا أعرف . . ولكني أؤمن بأن كل امرأة تخرج على النظام هي عاهرة!

قالت زبيدة وهي تضغط على أسنانها :

ـ وهل هي خرجت على النظام؟

قال عوني باشا :

ـ ابنها خرج على النظام!

قالت زبيدة متهكمة :

ـ وما ذنبها هي؟

قال عوني باشا :

ـ ذنبها أنها ولدت ابناً خرج على النظام!

قالت زبيدة في أسى:

ـ والمرأة الساقطة التي تؤيد النظام شريفة طبعاً.. إن هذه العقلية هي التي تجعل المظاهرات تخرج إلى الشوارع تهتف بسقوطكم!

قال عوني باشا:

ـ الخارج على النظام هو متمرد على السلطة. والمتمرد على السلطة هو خارج على القانون والخارج على القانون هو خارج على الشرف.. العدالة تشنق القاتل.. وبهذا تحكم على أولاده الأبرياء باليتم: وتحكم على زوجته البريئة بالترمل، وتحكم على أمه البريئة بالثكل. كل هؤلاء لم يشتركوا في جريمة القتل، ولم يعلموا بها، ومع ذلك تعاقبهم العدالة، لأنهم مسؤولون عن جريمة عميد الأسرة. مثلهم مثل ركاب طائرة تسقط بخطأ الطيار. إنهم غير مسؤولين عن خطأ الطيار، ولكنهم يموتون معه؟. ولو أنك فهمت روح القانون تماماً لما اعترضت على ضرب أم المجرم بالسياط. هذه ضريبة يجب أن تدفعها، أشبه بضريبة التركات. ضريبة التركات يدفعها ورثة الميت، وضريبة العقاب يدفعها ورثة الحي المحكوم عليه!

قالت زبيدة:

ـ ولكنه لم يحكم عليه!

قال عوني باشا بلا مبالاة:

ـ إننا نعتبره محكوماً عليه من ساعة القبض عليه، ولو حدث وبرأته المحكمة فسنعتبره محكوماً عليه!

قالت زبيدة في صوت مخنوق:

ـ ولكن هذا ظلم!

قال عوني باشا:

ـ الحاكم إذا عدل مع كل الناس ظلم نفسه، وإذا ظلم كل الناس حمى نفسه. . إن والد المجرم عندما ضربناه لم يعترض، ولم يقل هذا ظلم، بل هتف: «يحيا العدل»؟ لأنه رجل عاقل يعرف القانون!

قالت زبيدة:

ـ ولكنك قلت لي إنه فقد قواه العقلية وفصل من العنابر لهذا السبب.

قال عوني باشا:

ـ هذا كلام فارغ قاله الدكتور ماهر. إن الرجل عاقل جداً. لقد قال لنا ونحن نضربه «ضرب الحبيب زي أكل الزبيب». لأنه يعلم جيداً أنه إذا اعترض على الضرب فسنضاعف الضرب، وهذا دليل على أنه عاقل. بل إنه أظهر تعاوناً مع المحققين وقال إنه مستعد لأن يعترف بأنه هو الذي ألقى القنبلة على شيخ الأزهر، بشرط أن يعترف أيضاً بأنه هو الذي ذبح وزير الحربية، وألقى بجثته في النيل السعيد!

قالت زبيدة وهي تحاول أن تخفي دموعها في عينيها حزناً على المعلم حنفي:

ـ وهل أفاد الضرب في معرفتكم الحقيقة؟

قال عوني باشا والشرر يتطاير من عينيه:

ـ لم يفد الضرب حتى الآن. . ولكنني ابتداء من غد سأستعمل مع المجرم طرقاً جديدة في التعذيب لا يتخيلها، سأستخدم وسائل حديثة لم يسبق استعمالها في أية قضية من قبل. ليس أمام هذا المجرم إلا أن يختار

طريقاً من طريقين . . إما أن يتكلم، وإما أن يموت!

■■■

وأحست زبيدة بقشعريرة.

رأت تعبيراً غريباً في وجه زوجها. اختفت أسنانه وبرزت له أنياب. تقلصت عضلات وجهه وتحول من إنسان إلى حيوان مفترس.

حتى صوته تغير وأصبحت فيه نبرات وحش جائع يستعد للانقضاض على فريسة!

وأغمضت عينيها في رعب، كأنها لا تريد أن ترى أنياب زوجها وهي تنهش جسم حبيبها.

وأحست أنها تكرهه أكثر مما كرهته في أي يوم.

واستطاعت زبيدة بصعوبة بالغة أن تتحكم في شفتيها لتحبس اللعنة التي انطلقت من صدرها.

استطاعت أن تتحكم في يديها اللتين كانتا تتوثبان لتخنقه في تلك اللحظة.

استطاعت أن تتحكم في عينيها لتخفي خلف رموشها نظرات الحقد والبغض والاحتقار . .

ووجدت نفسها تهجم عليه تقبله. كأنها تريد أن تجعل من رحيق قبلتها السم الذي يقتله!

وراحت تعضه في يده، وهي تقصد أن تؤلمه، وهو يتوهم أنها تعبر عن شوقها إليه!

وانتشى عوني باشا بالقبلة وبالعض. . فطوقها بذراعيه وهو يقول في نشوة:

ـ هذه القبلة أراحتني أكثر من نوم سبع ساعات؟ لقد كنت متعباً جداً قبل أن أذوق هذه القبلة اللذيذة!

قالت زبيدة، وقد استعدت لتمثيل دورها:

ـ إن حيرتك في هذه القضية أتعستني. . لقد فشلت عقلية الرجل في جعل هذا المجرم يتكلم. . لماذا لا تجربون عقلية النساء؟ لقد تعلمت كثيراً من قراءة شعر الحب في هذه الأيام. أصبحت أفهم عقلية المحبين. لقد قلت لي معلومات تدل على أن هذا المجرم يحب هذه السيدة المجهولة.

قال عوني باشا موافقاً:

ـ إنه يعبدها. . وعندما يتحدث عنها تتغير ملامحه، ويرق صوته، كأن كل هذه المرأة انساب في داخله، كأنه يعانقها وهو يتحدث عنها. إنه يتحول إلى مخلوق آخر، غير المخلوق البارد الجامد الذي يظهر خلال التحقيق.

قالت زبيدة في انتصار:

ـ هذا هو المفتاح الذي ينفتح به فمه المغلق. . يجب أن توقف على الفور وسائل الضرب والتعذيب. ما دام قد احتمل كل هذا العذاب حتى الآن فمعنى ذلك أنه سيحتمل حتى النهاية. اذهب إليه غداً وقل له إن السيدة المجهولة تقدمت إليك في مكتبك وقالت لك: «أنا المرأة التي يحبها محمد عبد الكريم. والتي يرفض أن يبوح باسمها. إنه يرفض أن يذكر اسمي لأنني سيدة متزوجة. ويخشى إذا عرف زوجي بأمري أن

يقتلني وأنا أطلب منك أن تحمل إلى حبيبي هذه الرسالة».

وسكتت زبيدة قليلاً . . ثم قالت فجأة:

ـ أخشى أن تنسى الرسالة! يجب أن تكون بأسلوب نسائي ليقتنع أنها من امرأة، وليست مزيفة بقلم أحد المحققين.

■ ■ ■

ثم قامت من الفراش، واتجهت إلى دولابها، وأخرجت ورقاً وقلماً ودفعته إلى عوني باشا وهي تقول:

ـ سأملي عليك الرسالة التي ستقول للمجرم إنها من حبيبته:

قال عوني باشا معترضاً:

ـ ولكنه يعرف بطبيعة الحال خط المرأة المجهولة، وسيعـرف على الفور أنها مزورة!

قالت زبيدة وهي تبتسم:

ـ إن الله مع الصابرين . . سنقول له إنك طلبت منها أن تملي عليك الرسالة، حتى تكون أميناً في نقلها إليه!

قال عوني باشا: فكرة مدهشة . . أملي علي الرسالة . .

■ ■ ■

وأمسك عوني باشا بالورقة والقلم مستعداً للإملاء . .

وتهيأت زبيدة في مقعدها، وفتحت كتاب «مجنون ليلى» متظاهرة أنها تسرق منه بعض المعاني والعبارات . .

ثم بدأت تملي في بطء:

- «يا حياتي!

إنني أحبك..

أرحب أن أموت من أجلك.

أذكر إسمي إذا كان ذكر اسمي ينقذك من حبل المشنقة!

إن حياتي هي أرخص تضحية أقدمها من أجل حبنا الغالي.

إنني مؤمنة بأنك بريء.

إذا ظلمتك الدنيا كلها فإن قلبي يؤمن إلى الأبد ببراءتك!

ستخرج من هذا السجن.

سنحقق أحلامنا معاً

ستكون لنا جنتنا الصغيرة.

سأعوضك عن أيام الحرمان والفراق.

اطمئن يا حبيبي علي.

لا تخش زوجي. إنه رجل مغفل. إنه عاجز عن أن يفعل شيئاً!

إعلم أنني أحبك ..

وسوف أعيش وأنا أحبك..

وأموت وأنا أحبك..

■■■

وانتهت زبيدة من إملاء الرسالة، وطلبت من عوني باشا أن يتلوها لتتأكد أنه كتب الرسالة بكل حروفها.

وأعاد عوني باشا قراءة الرسالة وصوته يتهدج وهو يتلو العبارات الغرامية العنيفة، وزبيدة تحاول أن تغالب الضحك والابتسام.. ثم قالت:

ـ عندما سيقرأ المجرم هذه الرسالة سيثق بك على الفور، ستجد هذا الرجل المطبق الفم يتكلم. ستفعل فيه هذه الرسالة فعل السحر!

قال عوني باشا ولا يزال طعم قبلة زبيدة في فمه:

ـ هذه فكرة مدهشة! ولكنه قد يسألني ما هو اسم هذه السيدة، فماذا أفعل؟

قالت زبيدة وهي تضع أصبعها على رأسها، وكأنها تفكر في حل لهذه المشكلة الجديدة:

ـ قل له إنك عندما رأيت نبل موقف هذه الحبيبة، أقسمت أمامها بأنك لن تنطق باسمها أمام أي مخلوق في العالم، وإنك ترفض أن تكرر اسمها أمامه حفظاً على قسمك المقدس!

وعاد عوني باشا يقرأ بعض عبارات الرسالة بصوت عال ثم توقف وقال:

ـ قد يسألني الشاب أن أصف له السيدة المجهولة، فماذا أقول له؟ أنا لا أعرف هل هي سمراء أم شقراء؟ هل هي طويلة أم قصيرة؟ هل هي شابة أم عجوز؟

قالت زبيدة وهي تبتسم:

ـ قل له إنها أجمل امرأة رأيتها في حياتك!

قال عوني باشا معترضاً:

ـ قد لا تكون جميلة!

قالت زبيدة وهي تضحك:

ـ كل رجل يحب امرأة يراها أجمل امرأة في العالم، وكلما تضاعف حبه، تضاعف جمالها في عينيه.

وألقى عوني باشا نظرة طويلة على جسم زبيدة، وهز رأسه مقتنعاً بأنها أجمل امرأة في العالم. .

وتجمدت نظرته فجأة وقال:

ـ وإذا لم يعترف المجرم بعد كل هذا؟

قالت زبيدة:

ـ معنى هذا أنه بريء مائة في المائة. هذا الكلام ينوم أي عاشق تنويماً مغناطيسياً. يجعله مسلوب الإرادة، مخدراً بغير وعي فإذا لم يعترف بعد كل هذا فتأكد أنه ليس الجاني على الإطلاق. .

قال عوني باشا وهو يهز رأسه في إعجاب:

ـ أين تعلمت كل هذا؟

قالت زبيدة وهي تداعب رأسه الأصلع بأصابعها:

ـ تعلمته من دواوين الشعر. من قصص الحب. . من مسرحية «روميو وجولييت» لشكسبير. . من «مجنون ليلى»!

قال عوني باشا:

- لو نجحت هذه الطريقة فسأصدر أمراً بتوزيع دواوين شعر الغزل على جميع المحققين وضباط البوليس.. إنها فكرة عظيمة جداً. ستعجب صدقي باشا لأنه خبير في الحب!

■ ■ ■

وتوقف عوني باشا قليلاً، وكأنه أفاق من خمر شفتي زبيدة وقال:

- ولكن ماذا أقول لأدريس بك شماشرجي جلالة الملك، لقد وعدته بأن أقدم الجاني إلى القضاء خلال ٢٤ ساعة. إنني مضطر أن أقدمه كمجرم حتى ولو كان بريئاً..

وكادت زبيدة تنفجر فيه، لأنه أضاع المجهود الشاق العنيف الذي بذلته في ترويضه. ولكنها تمالكت نفسها، وقالت:

- إسمع يا عوني! حذار أن تشترك في تزييف أدلة هذه القضية! إن الطغاة الكبار يحبون الذين يقدمون لهم الأعمال القذرة، ولكنهم لا يحترمونهم! إنهم يمتصون دمهم ثم يلقون بهم بعيداً، خشية أن تلوثهم قذارة الذين ارتكبوا الجرائم من أجلهم!

الملك سيعجب بك لأنك زيّفت الأدلة على المتهم، ولكن عندما يجيء الوقت ويريد أن يعين رئيساً للوزارة بدلاً من إسماعيل صدقي، فسيبحث عن رجل آخر، لم يلوث بعد.. ولهذا فإنني أنصحك بأن تبتعد عن الأعمال القذرة في هذه القضية التي قد تؤدي إلى إعدام بريء.. إنني أقول هذا الكلام لمصلحتي أنا.. لا لمصلحتك أنت!

قال عوني باشا:

ـ وما هي مصلحتك؟

ـ قالت زبيدة وهي تعانقه:

ـ مصلحتي؟ مصلحتي أن أكون زوجة رئيس وزراء مصر . .

وقبلته زبيدة في شفتيه قبلة طويلة، قبلة نوّمته تنويماً مغناطيسياً . . جعلته مسلوب الإرادة . . مخدَّراً بغير وعي . .

وخرج عوني بعد القبلة من غرفة زبيدة وهو يترنح ويقول:

ـ لن أستطيع النوم . . سأذهب إلى سجن الأجانب الآن . . لأبلغ محمد عبد الكريم هذه الرسالة المدهشة!.

وتبعته زبيدة إلى باب غرفة نومها وهي تهز أصبعها محذرة:

ـ لا تنس أن تقرأ له الفقرة من الرسالة التي تقول فيها السيدة المجهولة:

ـ لا تخش زوجي . . إنه رجل مغفل . . مغفل كبير!

■ ■ ■

جلس محمد في زنزانته الضيقة بسجن الأجانب، ينقل عينيه بين الباب المغلق وبين قضبان الحديد التي تسد النافذة الوحيدة، بين جردل الماء وجردل البول، بين السقف المقبض وبين البرش الممزق.

كانت صور اليوم السابق تمر أمامه بسرعة غريبة لا تكاد عيناه تستقران على صورة حتى تحل صورة جديدة مكانها. الأحداث المتلاحقة التي وقعت أمس لا يمكن أن تحدث في يوم واحد. لا يكفيها من شدة بشاعتها وقسوة آلامها عمر بأكمله. ولكن صورة واحدة من

هذه الصور العديدة كانت تذهب ثم تجيء، تختفي ثم تظهر. تصر على أن تتكرر وكأنها تحفر نفسها في ذاكرته وإلى الأبد!

إنها صورة أمه أثناء التحقيق. امرأة عجوز تواجه دولة.. سيدة مريضة ضعيفة تنتصر على السلطة المدججة بالسلاح.. السياط في أيدي الضباط والجنود، ولسانها هي يتحول إلى كرباج يلهب ظهور الطغاة.. إنها المرة الأولى التي سمعها تتكلم بهذه الفصاحة. كانت تظهر دائماً أمام أبيه في صورة المرأة المستسلمة الخاضعة المطيعة، تخاف من شبحها، وتبكى إذا وبخها أبوه بكلمة، وتدخل إلى الحمام مستضعفة ذليلة، وتغلق الباب، خشية أن يرى أبوه دموعها فيزداد غضبه..

ماذا جرى بالأمس لهذه المرأة؟ كيف تحولت الفأرة إلى بطلة؟

لقد أدخلوها عليه في زنزانته، وأرادت أن تعانقه، فدفعها أحد الضباط بعنف، فارتمت في ركن من الزنزانة. وصرخ عوني باشا في الضباط بنبرات ذئب جائع:

ـ أضربوه أمامها!

وانهال الضباط ضرباً بالسياط على وجهه، وسال الدم منه بغزارة، وإذا بهذه الأم تقفز كالنمرة وتندفع مخترقة الضباط، وتقف بينهم وبين ولدها وتصيح فيهم:

ـ أضربوني أنا أيها القتلة! لا تضربوا ابني! أضربوني أنا أيها المجرمون!

فوجىء الضباط بعينيها المليئتين بالحب والحقد، الحب لابنها والحقد على الذين يجلدون ابنها بالسياط. فوجئوا بالفأرة العجوز تتحول إلى

نمـرة مفترسـة. وارتعشت السيـاط في أيـديهم، وجمـدت كـأنها أصيبت بالشلل.

وصرخ عوني باشا:

ـ أضربوا هذه العاهرة!

وأسرعـوا ينهالون عليها بالسياط، فلم تتراجع. ولم ترفـع يدهـا تحمي وجهها من السياط. ولم تصرخ، ولم تبك، كأنها أحست بلذة الأم التي تتلقى بعض السياط التي كانت ستهوي فوق جسم ابنها..

وفوجىء عوني باشا بصمـودها العجيب. الشجـاعة دائـماً ترهب القوة. كأن الصمود يجرد الطاغية من أسلحته. فقال عوني باشـا في يأس:

ـ يكفي هذا!

وتوقف الضباط على الفور. كأن أيديهم كانت تبكي وتتوجع وهم يضربون امرأة عجوزاً لم تسقط من عينيها دمعة واحدة.

وقال لها كبير الضباط:

ـ أشكري معالي الباشا لأنه أمر بإيقاف ضربك بالسياط..

وابتسمت أمه ساخرة وقالت بهدوء:

ـ كيف تطلبون من الجرح أن يشكر السكين؟!

ثم التفتت الأم إلى ولدها الذي تحجرت الدموع في عينيه وقالت:

ـ تأكد يـا محمد أن السيـاط لم تؤلمني، كما آلمني قـول الوزيـر إنني عاهرة...

وأصيب عوني باشا بحالة هستيرية وصاح:

ـ أطردوا هذه المرأة من هنا!

ودفعوها إلى خارج الزنزانة، وأغلقوا الباب وراءها. وأحس محمد بزهو عجيب لأن هذه المرأة أمه.. المرأة الجاهلة التي ألقت على المتعلمين درساً.. المرأة الضعيفة التي جعلت من لسانها سوطاً.. المرأة التي لم تبك ولم تصرخ ولم تمرغ وجهها في وحل الطغاة، ولم تمسح بشفتيها حذاء الجلادين!

وأحس محمد بأن أمه منحته بموقفها الغريب قوة جديدة تشجعه على احتمال كل ألوان التعذيب. غريب موقف هؤلاء النساء المصريات في الأزمات والخطوب، المرأة التي تشبه النسمة تتحول إلى عاصفة، المرأة التي تعدو أمام الفأر تصمد أمام الجيوش، المرأة التي تزقزق كالعصفور تمور كالنمور، حتى عيونهن السوداء تصبح كأنها أفواه مدافع!

إن الأزمات تحولهن من النقيض إلى النقيض، من أصفار على الشمال إلى أصفار على اليمين. إنهن مزيج عجيب من أرض وادي النيل الرخوة، ومن أحجار الجرانيت التي بنيت بها الأهرام. في الأوقات العادية تغوص فيهن الأقدام، وفي أوقات الشدة تتحطم على صلابتهن السهام!

وهز محمد رأسه وهو يقول لنفسه:

إن بلداً فيه نساء مثل أمه ومثل زبيدة هو بلد لا يمكن أن يموت!

■ ■ ■

وأيقظه من خواطره، صوت مفتاح الزنزانة، وهو يدور في القفل، ورأى أمامه عوني باشا حافظ..

ولكنه ليس عوني باشا حافظ الذي عرفه. بل عوني باشا آخر، عوني باشا مختلف، إنها المرّة الأولى التي يرى فيها عوني باشا يبتسم.. أول مرة يرى فيها عوني باشا وحده بغير ضباط شاهرين مسدساتهم وضباط يلوحون بالسياط.. لعله يحلم؟. إننا في السجن نتخيل أشياء لا وجود لها. قضبان الزنزانة تبدو أحياناً كمشانق تشنق أحلام المساجين، وتبدو أحياناً كطاقة مفتوحة من السماءتسمع دعواتهم، أو تنفذ منها أمانيهم!

وسمعه يقول له في رقة:

ـ صباح الخير يا أستاذ محمد!

أستاذ محمد!؟ إنه كان يناديه قبل ذلك بسباب أقل ما فيه «يا كلب» و«يا ابن الكلب» و«يا مجرم»!

ماذا جرى في الدنيا؟ هل سقطت وزارة صدقي باشا؟ هل تولت وزارة الشعب الحكم؟

وقطع عوني باشا أحلامه بقوله:

ـ إنني أحمل لك شيئاً ساراً!

قال محمد في فضول:

ـ أمر الإفراج؟

قال عوني باشا في ابتسامة كبيرة:

ـ لا.. شيء أهم من الإفراج.. إنني عرفت السيدة المحجبة التي تحبها!

وظهر الذعر في عيني محمد. وأحس كأن عوني باشا أطلق رصاصة

عليه. رصاصة أصابت قلبه. . لا مثل الرصاصات التي أطلقها على عوني باشا، ولم تصب سوى زجاج السيارة.

ولاحظ عوني باشا الذعر في عيني محمد فقال له:

ـ اطمئن! إننا لم نقبض عليها!

قال محمد في ارتعاش:

ـ قلت لي أمس إنكم ستجيئون بها إلى هنا، ليغتصبها الجنود أمامي!

قال عوني باشا وقد زاد حجم الابتسامة فوق شفتيه:

ـ كنت أمزح معك. . إن هذه السيدة أرغمتنا على احترامها. . لقد جاءت إلى مكتبي بنفسها وقالت لي إنني السيدة المجهولة التي تبحثون عنها. . أنا حبيبة محمد عبد الكريم!

وبدا على محمد الذهول. . الذهول المصحوب بالاطمئنان. لا يمكن أن تذهب زبيدة إلى مكتب عوني باشا في الوزارة وتقول إنها حبيبته! لو أرادت أن تعترف له بأنها تحب محمد، لأدلت بهذا الاعتراف في بيتها، وبدون أن تذهب لتقابل عوني باشا في مكتبه بوزارة الداخلية. لا بد أنها امرأة أخرى ذهبت إلى وزارة الداخلية وادعت أنها حبيبته لتنقذ حياته. .

إن عزيز ميرهم حدثه ذات مرة عن إحدى ناظرات مدارس البنات في ثورة ١٩١٩، وكانت تعمل في الجهاز السري، وذهبت إلى النائب العام وادعت أنها حبيبة المتهم الذي قبض عليه بعد إطلاقه النار على وزير الأشغال، وتدعي أنه بات في الليلة السابقة معها، لتغطي الرجل الحقيقي الذي بات عنده المتهم، وكان رئيس الجهاز السري.

قد يكون جهاز ثورة سنة ١٩١٩ عاد إلى عمله من جديد، وكرر نفس المحاولة، وجاء بامرأة أخرى لتنقذه. ولكنه لم يلق قنبلة على شيخ الأزهر حتى يبادر الجهاز السري لإنقاذه. وليس عضواً في هذا الجهاز السري. . لا بد أنها خديعة جديدة من عوني باشا!

كان عوني باشا صامتاً وهو يرى محمد غارقاً في بحر من الـذهول والاطمئنان. .

وتطلع محمد في عيني عوني حافظ فرأى فيهما عيني النمس. قناع من الطيبة يخفي خبثاً دفيناً. سم فيه طعم العسل. شوك فيه رائحة الورد. ثعبان يتنكر في صورة حمل وديع.

وفوجىء بعوني باشا يقول له:

ـ إن لدي رسالة من صديقتك. كانت قـد طلبت مني أن تكون رسالة شفوية، ولكنني رجوتها أن تمليها علي، حتى تصل إليك حرفاً بحرف كما قالتها.

وأخرج عوني باشا من جيبه ورقة وراح يتلو الرسالة، ويتمهل بين كل جملة وأخرى. ويرق صوته حيناً، ويتهدج صوتـه حيناً، وتـدمع الكلمات في شفتيه أحياناً!

وبهت محمد وهو يستمع إلى الرسالة! إن هذه الكلمات هي كلمات زبيدة فعلاً. هذا أسلوبها في الحديث. هذه روحها في التعبير. إن فيها كلمة السر التي بينهما وهي «الجنة». . إنهما دائماً يتحدثان معاً في لقاءاتهما الأخيرة عن الجنة التي تنتظرهما. وخفق قلب محمد بعنف. وكأنه يتلقى مناجاة زبيدة له بغير وسيط. وفهم من رسالتها أن الذين قبضوا عليه لا يجدون دليلاً ضده، وأنه سيلتقي بها قريباً. .

وما كاد يسمع جملة «تأكد أن زوجي مغفل». حتى أحس برغبة عارمة في أن يقهقه. ولكنه تمالك نفسه، كأنه أشفق أن يضحك على المغفل في مواجهته. إننا لا نكره المغفل أبداً، إننا نرثي له، لا نحقد عليه وإنما نهزأ به.

وفتح فمه في دهشة.. كيف استطاعت زبيدة أن تقنع زوجها بأن يحمل إليه هذه الرسالة؟.

وتوقفت سعادته قليلاً. وسأل نفسه في حسرة: ترى ما الثمن الذي دفعته ليقوم عوني باشا بهذه المهمة الغريبة؟ هل دفعت قبلة؟ إن القبلة لا تكفي لكل هذا.. لا بد أنها دفعت أكثر من القبلة!

وعاد يغار من عوني باشا من جديد. يغار من المغفل الذي اعترف منذ بضع ثوان بلسانه أنه مغفل. هل يمكن أن يكون وزير خطير، وطاغية داهية، وجلاد خبيث، بكل هذه الغفلة؟

ترى هل نحن أذكياء في بعض نواحينا وأغبياء في نواح أخرى؟ قد نكون عباقرة في حياتنا العامة وتافهين في حياتنا الخاصة. قد نكون علماء في الحب وجهلاء في العلم. قد نستطيع أن نحكم شعباً بأسره ونعجز عن حكم امرأة واحدة. أيكون عوني باشا يخدعه ويخدع زبيدة معه، ويتظاهر بالغفلة ليطمئنا إلى هذه الغفلة وينقض عليهما في غفلتهما؟..

وتطلع محمد من جديد إلى عيني عوني باشا يحاول أن يقرأ فيهما ما تخفيان، فلم ير فيهما إلا صورة زوج مخدوع لا يعرف أنه مخدوع.. صورة رجل يتوهم أنه منتصر، وهو يعيش هزيمته الكبرى.. كانت عيناه تقولان إنه قام بضربة معلم عندما حمل هذه الرسالة إليه. إذن فيجب أن يماشيه في غفلته، فقال له:

ـ إنني للمرة الأولى أشعر بالاطمئنان إليك. أحس بأنك صديق،

وبأنك رجل نبيل. موقفك هذا لم أتصوره. لم أتصور أن وزيراً في هذه الوزارة يمكن أن يقف من متهم موقفاً فيه هذا النبل والكرم. . إنني أريد الآن أن أفتح لك قلبي.

وأقيمت الأفراح في عيني عوني باشا. رأى محمد في حدقتيه كأن مواكب ترقص ابتهاجاً. شعر عوني باشا أن خطة زوجته قد نجحت، أطلقت لسان المجرم، أصبح يطمئن إليه، أصبح يثق به. . توقع أن تنساب منه الاعترافات، سيحصل على كل الأسرار المخفية، سيقبض على زعماء العصابة وأفرادها، سيزف البشرى إلى إدريس بك الذي سيزفها إلى جلالة الملك. سيصفر وجه صدقي باشا، ويحاول أن يخفي هذا الاصفرار بابتسامته «الكليشيه»!

■ ■ ■

وقال محمد في صوت بريء:

ـ تأكد يا معالي عوني باشا إنني لم ألق القنبلة على شيخ الأزهر. . ولا أعرف شيئاً عن الذي ألقى القنبلة. .

وتوقفت الأفراح في عيني عوني باشا. توقفت مواكب الرقص. كأن هذه الكلمات هدمت الزينات ونكّست الرايات وأطفأت الأنوار في عينيه!

لقد قالت له زوجته زبيدة أنه إذا أنكر بعد هذه الرسالة فيجب إطلاق سراحه لأنه بريء. . ووافقها على ذلك، وافقها بغير اقتناع. والآن بعد أن رأى الجاني يتحدث إليه ببساطة، وبعد أن اختفت من عيني الجاني نظرات الحقد والكراهية فلم يقتنع أنه بريء، بل ازداد اقتناعاً بأنه مجرم. مجرم يجيد التمثيل. إن شيئاً في داخل قلب عوني باشا يجعله يمقته ويكرهه، كأنه يحس بأن هذا الشاب يريد أن يقتلعه من

مقعده كوزير للدولة في وزارة الداخلية ويجلس هو فيه. لم يخطر ببال عوني باشا أن محمداً اقتلعه فعلاً من منصب آخر، هو منصب زوج زبيدة، ذبحه وأبقاه جالساً على المقعد بغير حراك. إن عباد السلطة لا يفكرون في مثل هذه الأوقات في قلوبهم. السلطة هي قلوبهم، هي حبهم، هي شريكة حياتهم!

وحاول عوني باشا جاهداً أن يخفي هذا الحقد وهذه الكراهية تحت قناع من الابتسامات.. ولكن الحقد كان يطل بوضوح من خلال الابتسامات!

وقال عوني باشا يائساً، وكأنه يطلق رصاصته الأخيرة:

ـ هل لديك رسالة.. تريد أن تبلغها إلى صديقتك؟

وسكت محمد قليلاً ثم قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

ـ أريد أن تقول لها لقد كنت أشك في أن زوجها مغفل.. ولكنني أؤمن الآن بأنه مغفل.. مغفل كبير جداً!

وتوقف عوني باشا لحظة ساهماً، كأن الرد لم يكن في مستوى الرسالة التي حملها، ثم أقفل الباب..

وسمع محمد صوت عوني باشا يصيح في الضباط:

ـ ادخلوا واضربوا ابن الكلب هذا.. لا تفيد معه إلا السياط!

■ ■ ■

ما أسعد المسجون الذي معه في الزنزانة امرأة تحبه.. جسدها لن يستطيع أن يدخل من خلال القضبان. ولكن حبها يستطيع أن يخترق هذه القضبان. المسجون يحس بأنه ليس وحده إذا كان معه في الزنزانة

خطاب من المرأة التي يحبها. الكلمات تخرج من الورق، كأن صوتها يهمس في أذنه، فتصبح هذه الكلمات أغاني تطربه وتشجيه. القبلات على الخطاب تقفز من سطورها لتستقر حارة على شفتيه.

وإذا كانت معه صورة المرأة التي يعبدها، يحس بأن الورق يتحرك بين يديه، يصير لحماً وعظماً، كأنه وهو يمسك الصورة بين يديه يعانق حبيبته، وعندما يلصق الصورة على قلبه يخيل إليه أنها دقات قلبها. ويحس وهو يلمس شفتي الصورة كأنه يذوق رحيقها. وعندما يرى صورة أولاده معلقة فوق الحائط، لا يشعر بحسرة بقدر ما يتصور أنهم يجلسون معه، ويتحدثون إليه. يخرجون أحياناً من إطار الصورة ليلاعبهم، ليجلسوا على كتفيه، ليسندوا رؤوسهم الصغيرة إلى صدره الكبير، وكأنهم يدفنون في صدره همومهم.

ولقد كان اليوم هو يوم التفتيش في سجن الأجانب. وسمع محمد ضجة وصراخاً مذبوحاً في الزنزانة التي أمامه، واعتقد أن عوني باشا يضرب مسجوناً آخر بالسياط.. لعله والده.. لعله المعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي فرج. لعله الحاج مغازي الفقي المكوجي. لعله محمد عبدالصمد ناظر مدرسة رقي المعارف. وأحس برغبة في أن يرى وجه الرجل الذي يصرخ في صوت مذبوح، وصعد فوق جردل البول، وأطل من الطاقة التي تشرف على الممر. ورأى آلاماً لم يرَ مثلها في حياته في وجه رجل لا يعرفه. كأنه إنسان خلق من الألم والعذاب. كل شيء فيه يئن ويتوجع ويبكي ويصرخ ويصيح. ورأى أحد الضباط ممسكاً بصورة زوجة الرجل يمزقها. وجندياً يمزق صورة أولاده ويدوس عليها بحذائه. كانت التعبيرات التي ظهرت على وجه الرجل المهذب كأنه يرى الضابط يمزق جسد زوجته إلى قطع صغيرة، كأن الجندي يدوس على كل ولد من أولاده بحذائه الضخم!

وفهم محمد أن في الحياة أشياء كثيرة تعذبنا أكثر من ضرب السياط! وحمد الله على أن صورة زبيدة في قلبه، ولن تصل إليها يد الضابط إلا إذا فتح هذا القلب بالسكين!

وسمع أصوات أقدام تقترب من زنزانته، وأسرع ينزل من فوق الجردل، وتوقع أن يجيء الضابط يبحث عن صورة زبيدة، وقبع في ركن في الغرفة، ووضع بحركة غير إرادية، يده على قلبه، وكأنه يريد أن يخفي صورة زبيدة عن عيني الضابط الشرير.

ورأى أحد الضباط الذين ضربوه من قبل بالسياط يفتح الباب ويقول له:

ـ حظلك من السماء.. القسم السياسي قبض على عامل في العنابر اسمه محمد علي الغلال، واعترف بأنه هو الذي ألقى القنبلة على شيخ الأزهر.. ووجدوا عنده في بيته قنابل من نفس النوع الذي استعمل في الحادث..

وسكت الضابط قليلاً ثم قال:

ـ واعترف محمد علي الغلال أيضاً أنه هو الذي أطلق الرصاص على عوني باشا حافظ في شبرا..

وبدون وعي قال محمد:

ـ مستحيل! إنه بريء!

وانهال عليه الضابط بالضرب وهو يقول:

ـ تدافع عن مجرم يا مجرم؟ حذار أن تقول هذا مرة أخرى، وإلا فستجد نفسك في الزنزانة من جديد.. ما لك إذا كان بريئاً أو مجرماً؟

أنت مسؤول عن نفسك فقط، أحمد الله على أنك ثبتت براءتك!

■ ■ ■

ومشى محمد في ميدان محطة مصر في طريقه إلى بيته في جزيرة بدران، مشى مذهولاً . . يحدث نفسه ويقول:

ـ كيف اعترف محمد علي الغلال أنه هو الذي أطلق الرصاص على عوني باشا، وأنا الذي أطلقت عليه الرصاص؟ أتكون السياط هي التي وضعت في فمه هذه الاعترافات؟ أيكون بريئاً أيضاً من تهمة إلقاء قنبلة على شيخ الأزهر، كما هو بريء من إطلاق الرصاص على عوني باشا حافظ؟

السياط لا تخدم العدالة وإنما تضللها. أقوال المتهمين بعد التعذيب ليست أصواتهم، بل هي أصوات السياط التي ضربوا بها. اعترافاتهم هي أكاذيب يختفون خلفها ليحموا أجسامهم من هذه السياط. والده معذور عندما يؤكد أنه هو الذي ذبح وزير الحربية وألقى بجثته في النيل السعيد. إنه وهو الشاب الرياضي القوي كاد يعترف كذباً تحت ضرب السياط بأنه هو الذي ألقى القنبلة على شيخ الأزهر. لولا رسالة زبيدة، إنها كانت أشبه بعلبة السبانخ التي يأكلها البحار «بوباي» في أفلام الكارتون ويتحول من قزم إلى عملاق. كانت هذه الرسالة أشبه بمانعة صواعق. أمدته بقوة هائلة ساعدته على الصمود أمام هول السياط. .

وتنهد أسى وحسرة وهو يذكر الضابط الذي أفرج عنه مشيعاً بالضرب والصفعات. إنهم في هذا السجن يضربونك لأنك مجرم، ويضربونك لأنك بريء. يهينونك وهم يغلقون عليك أبواب السجن، ويهينونك وهم يفتحون لك هذه الأبواب. كأن الضرب والهوان هما ضريبة الحياة في هذا السجن.

في كل بلاد العالم المتمدن عنـدما يـوضع رجـل في السجن، ويثبت أنه بريء تدفع له الدولة تعويضاً عن كل يوم حرم فيه من نعمة الحرية، تعويضاً كبيراً قد يصل إلى بضعة ألوف من الجنيهات. أما هنا فكل ما يفعلونه لك هو أن يقولوا لك «أحمد الله»!

وفي لهفة محمد على الحرية، أحس بلهفة على أمه البطلة. فأسرع في خطواته إلى البيت. .

وعندما وصل محمد إلى بيته في جزيرة بدران، وجده هادئاً ساكناً. كأنه تحوّل إلى قبر دفن أصحابه فيه أملهم في أن يعود إليهم. النوافذ موصدة. لا ينبعث منها أي نور.

وفتح الباب بمفتاحه، ودخل بخطى وئيـدة، فقد ظنّ أن والـديه مستغرقان في النوم. وأضاء عود ثقاب! ورأى في ضوئه أمه جالسة في ركن من الغرفة. ورأى أباه مكوراً في ناحية أخرى. وجفلـت أمه في أول الأمر، ثم تبينته في ضوء عود الثقاب، وقامت تعانقه وتقول بصوت مرتجف «محمد، محمد، محمد». كأنها لم تجد من كلمات الترحيب سوى اسمه لتعبر عن كل فرحتها ودهشتها. وبقي والده جالساً في مكانه لا يتحرك. وسأل محمد أمه وهو بين ذراعيها، وصوته يجتر الظلام:

- لماذا لم توقدي المصباح الصغير؟.

قالت أمه:

- يكفي نورك!

قال باسماً:

- وقبل أن أجيء هل كان نوري في البيت؟

وسكتت أمه ولم ترد. وأراد محمد أن يرى في عينيها رد سؤاله، ولكن

عود الثقاب انطفأ، وبقي سؤاله بغير جواب!

وعاد محمد يقول:

ـ لماذا لا توقدون المصباح حتى أرى وجوهكم؟

قالت أمه:

ـ لم تعد معي نقود لنشتري بها الغاز!

وتأمل محمد ثوب أمه الأسود الذي تآخى مع الظلام. وفهم أنها باعت الثوب الجديد الذي اشتراه لها!

ووضع محمد يده في جيبه. لا تزال فيه العشرة الجنيهات التي أعطاه إياها الأستاذ توفيق دياب على الحساب. فأخرجها من جيبه، ودسها في يد أمه. واتجه إلى أبيه الساهم الواجم الحزين، وسأله عما به؟

ورأى أباه كأنه قنديل جائع شاحب.. قنديل هو الآخر بلا زيت!

وقال المعلم حنفي في صوت يقطر أسى، وكأنه يضيء شمعة بدلاً من أن يلعن الظلام:

ـ جت الحزينة تفرح.. ما لقتش لها مطرح!

ولم يفهم محمد ما يقصد والده من إلقاء هذا المثل، فعاد أبوه يقول:

ـ كنت أتمنى أن تكون فعلاً ألقيت قنبلة على شيخ الأزهر.. وإذا بي أكتشف أنك بريء.. لقد كنت أمشي في شوارع جزيرة بدران مرفوع الرأس وأقول: أنا الذي ذبحت وزير الحربية وألقيت بجثته في النيل السعيد، وابني محمد هو الذي ألقى قنبلة على شيخ الأزهر.. ولكن، جت الحزينة تفرح، ما لقتش لها مطرح.. في هذه الأيام التي كنت

مسجوناً بها، كنت كلما مشيت خطوة أجد واحداً من سكـان شارع جزيرة بدران يجرني جراً إلى بيته. هذا يقدم لي قهوة، وهذا يقدم لي كازوزة، وهذا يقدم لي حلوى. . كنت أشعر أنني أعظم رجل في هذا الشارع. . أعظم رجل في شبرا. . ولكنك خيّبت أملي. . افتكرتك أسـداً طلعت فـأراً. . كنت أتمنى أن يضربـوك لأنـك ألقيت قنبلة. . ولكنهم ضربوك لأنك بريء.

قال محمد:

ـ وضربوك أنت أيضاً!

قال المعلم حنفي:

ـ ضربوا الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه!

ولأول مرة تضحك أم محمد وتقول:

ـ منـذ أن سجنوك يـا محمـد. . تـوقف أبـوك عن ذكـر الأمثـال الشعبية. . أصبح لا يتكلم إلا بالفوازير. . وهذه هي المرة الأولى التي يعود فيها كما كان، إلى الأمثال الشعبية من جديد. . .

قال محمد متباسطاً مع أبيه:

ـ تعال يا أبي امتحنّي في حل الفوازير.

قال المعلم حنفي:

ـ قد الفيل. . وينصرّ في منديل!

قال محمد:

ـ الناموسية!

وضحك المعلم حنفي وقال:

ـ . . إنه الحكم الحاضر!

وعاد المعلم حنفي يقول:

ـ قد الكف. . ويقتل مائة وألف!

قال محمد:

ـ المشط!

وضحك المعلم حنفي وقال:

ـ أبداً. . المقال الذي يكتبه الصحفي الحر!

وعاد المعلم حنفي يقول:

ـ هبله. . ومسّكوها طبله!

ولو كانت محطة الإذاعة معروفة في تلك الأيام لتصور محمد أنها هي. ولكن الإذاعة لم تكن دخلت مصر بعد. ولو أن وزارة الدعاية أنشئت لتصور محمد أنها هي، ولكن لم تكن في مصر وزارة دعاية وقتئذ.

فقال محمد:

ـ لا أعرف!

قال المعلم حنفي:

ـ جرائد الحكومة!

وأمضت الأسرة الصغيرة الليل كله، تتبادل الفوازير، وتحاول أن تحل الفوازير. . وكأن هذه الأسرة أرادت أن تنسى في تلك الساعات

القليلة السياط التي انهالت على رؤوسها عدة أيام!

كأنها أرادت أن ترد على السياط المؤلمة بنكت وفوازير!

وكان محمد، بين ضحكة وضحكة، يسرح في زبيدة، ترى هل علمت بالإفراج عنه؟.. ترى ماذا تفعل زبيدة هذه الليلة!

■ ■ ■

ولم تنم زبيدة طوال تلك الليلة.. بقيت طوال الليل واقفة في نافذة غرفة نومها تنتظر عودة عوني باشا من مكتبه بوزارة الداخلية لتعرف انباء حبيبها، تترقب أخبار الحبيب كأنها تترقب الحبيب!

إنها طوال الأيام التي بقي فيها محمد في السجن، لم تغلق باب غرفتها بالمفتاح، كما كانت تفعل دائماً. لم تكن تستغرق في النوم تاركة عوني باشا يعود إلى البيت كما يشاء. لم تعد تهرب من الحديث معه، وتتفادى أن تبقى معه في غرفة واحدة.

أصبحت تنتظر كل ليلة عوني باشا على أحر من الجمر، وتحاول أن تلتقط منه آخر انباء حبيبها.. هذا الحبيب الذي غيّر حياتها كلها منذ التقت به يوم الثلاثاء ٢٦ مايو وسلمها المسدس، وسيطر على حياتها كلها يوم الأربعاء ٢٧ مايو عندما سلمته المسدس ومعه قلبها. ومنذ سجنه أصبحت تنتظر زوجها كل ليلة وكأنها تنتظره هو!

وقد عرفت في الليلة الأولى أن عوني باشا أوصل رسالتها إلى محمد، وأنه رد على الرسالة «بأنه كان يشك في أن زوجها مغفل ولكنه الآن أصبح يؤمن بأنه مغفل جداً».. ليلتها ضحكت كما لم تضحك من أيام طويلة، وقالت إن دم هذا المجرم خفيف. وغضب عوني باشا وقال إن دم المجرم ثقيل جداً وأنه قليل الأدب وقليل الحياء.. ولم تغضب زبيدة

لاتهام حبيبها بثقل الدم. إنها عرفت منذ يوم الأربعاء ٢٧ مايو أن دمه تسرب وسرى في عروقها!

وفي الليلة الثانية عرفت أن عوني باشا كذب عليها عندما قال لها إنه قرر الافراج عنه تطبيقاً لنظريتها في عقلية المحبين، وما أعظم الفرق بين زوجها الكاذب وحبيبها الصادق!

وفي الليلة الثالثة سألته: هل ما زلتم تضربونه؟ وقال لها عوني باشا إنه أمر بإيقاف الضرب. ولكنها لم تصدقه، لأن في قلوب المحبين لاسلكياً غريباً، ينقل إليهم مشاعر بعضهم البعض. فقد كانت وهي جالسة وحدها تسمع السياط تنهال على ظهر حبيبها.. كانت تشعر بوقعها على جسدها في الوقت الذي كانت تنهال فيه على جسده. إن هذا اللاسلكي لم يتعطل مرة واحدة منذ أن التقت بمحمد في حديقة الجبلاية في الساعة السادسة يوم ٢٧ مايو!

كان عوني باشا يقول لها أخباراً كاذبة كل ليلة عن التحقيق. وكان لاسلكي قلبها يلتقط بدقة، زوجها يؤكد لها أنهم يقدمون للمسجونين السياسيين طعاماً من عند الحاتي. ولاسلكي قلبها يؤكد لها أنه جائع. زوجها يؤكد أنه ينام فوق سرير، ولاسلكي قلبها يؤكد أنه ينام على الأرض في البرد الشديد بلا غطاء..

وفي هذه الليلة قال لها لاسلكي قلبها إن محمد خرج من السجن.. لماذا؟ كيف؟ إنها لا تعرف أن تجيب على هذه الأسئلة. كل ما تعرفه أن قلبها يؤكد لها أن محمد لم يعد في السجن.. اللاسلكي يقول إن محمداً أصبح حراً بلا قيود ولا أغلال.

وهي تنتظر عودة عوني باشا الليلة لتتأكد أن لاسلكي قلبها التقط الاشارة الصحيحة!

وهي في قلقها ولهفتها تتهم لا سلكي قلبها أنه يخدعها. ثم تعود وتطمئن نفسها بأن لاسلكي قلبها لم يكذب مرة أنه الساعة السادسة بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٧ مايو!

وخشيت أن يكذب عوني عليها كعادته، فقررت أن تضعه أمام الأمر الواقع، وتقول له أنها علمت أن النيابة أفرجت عن الجاني. .

وعندما صعد عوني باشا درجات السلم يحمل حقيبة أوراقه، كانت زبيدة واقفة على رأس السلم، وهي ترتدي قميص نوم أسود شفافاً، كأنه السحب السوداء تحاول أن تخفي استدارة القمر ونوره ولا تستطيع، وكان عبير عطرها يملأ درجات السلم، وكأنه مخدر لذيذ، يفقد صاعد السلم وعيه أكثر كلما صعد إلى درجة أعلى. وكان شعرها الأسود الفاحم الناعم مرسلاً على كتفيها، ويتساقط على جيدها وكأنه ذراع عاشق يطوّقها!

وما كاد عوني باشا يرفع عينيه ويراها تتألق في وقفتها حتى صاح في ابتهاج:

ـ هذه أجمل لجنة استقبال في العالم!

أراد أن يقبلها فأبعدته بلطف وهي تقول في صوت يعود بالشتاء الى الربيع:

ـ عندي أخبار هامة لك!

أمسكت يده في حنان، وجذبته إلى غرفة نومها، وهو يسير خلفها مفتوناً، مسلوب الإرادة. .

وأجلسته إلى جوارها على الفراش وقالت له:

ـ علمت أن النيابة أفرجت عن المجرم!

قال عوني باشا، بغير اهتمام:

ـ نعم، أفرجت عنه.. وأحمد الله أننا لم نقدمه للقضاء، فقد ظهر أن الذي ألقى القنبلة هو عامل آخر اسمه محمد علي الغلال.. ولو كنا قدّمنا محمد عبد الكريم وأرغمناه على الاعتراف، ثم ظهر الجاني الحقيقي، لكانت فضيحة!

وهزّت زبيدة رأسها طرباً وكأنها تسمع موسيقى. أسعدها أن حبيبها خرج من السجن. وأسعدها أكثر أن لاسلكي قلبها لم يكذب أبداً. إنه يقول لها كل شيء عن حبيبها بصدق وأمانة وإخلاص. الساعة التي أمضتها يوم الأربعاء ٢٧ مايو في حديقة الجبلاية، من الساعة السادسة إلى السابعة كانت كافية لتركيب هذا الجهاز في قلبها.

ومنذ تلك اللحظة لم يكن اللاسلكي ينقل إليها إلا خفقات قلب حبيبها، نبضه، أفكاره، أشواقه، دموعه، بسماته!

قالت زبيدة وهي سابحة في سعادته:

ـ ألم أقل لك من أول الأمر إنه بريء؟.. لو سمعت كلامي لوفرت على نفسك كثيراً من التعب.. وكثيراً من ضرب السياط!

قال عوني باشا وهو يخرج سيجارته ويشعلها:

ـ العجيب أن شعوري لا يكذب أبداً. لقد كنت واثقاً مائة في المائة أنه المجرم.. وإذا لم يكن قد ارتكب جريمة إلقاء قنبلة شيخ الأزهر، فلا بد أنه ارتكب جريمة سياسية أخرى. إن نظرات الحقد والكراهية التي رأيتها في عينيه جعلتني أشك في أنه هو الذي أطلق علي الرصاصات الأربع..

وصحت زبيدة مذعورة من أحلامها. كانت تسبح في بحر من

السعادة، وإذا بها ترى أمامها «دوامة» تكاد تبتلعها. . هل قرأ عوني باشا في عيني محمد الحقيقة. هل قرأ عوني باشا في عينيها هي الحقيقة؟ الرجل الذي تصورت أنه مغفل، ها هو يتألق في خبثه ودهائه. إن كلماته لها مخالب تتغرس فيها!!

ومضى عوني باشا يقول في بساطة:

ـ ولكن المجرم الجديد اعترف بأنه هو الذي أطلق عليّ الرصاص!

وتنفست زبيدة الصعداء. حمدت الله على أنه لا يوجد لاسلكي بين الأزواج وبين الزوجات اللواتي لا يحببن رجالهن!

وفجأة تقطعت أنفاسها عندما سمعت عوني باشا يقول في جفاء:

ـ ولكن من الذي قال لك إننا أفرجنا عن محمد عبد الكريم؟

ولم تكن زبيدة تتوقع هذا السؤال، ولم تكن استعدت له، والتقطت أنفاسها وقالت:

ـ كنت أزور صديقتي أمينة هانم زوجة عباس باشا، وقابلت هناك حرم كمال باشا المناسترلي وقالت أمامي إن النيابة أفرجت عن محمد عبد الكريم لأنها وجدت أنه بريء. . وتصورت إنك لم تعرف بالخبر، فأردت أن أخبرك به. .

قال ساخراً بجهلها وقلة ما لديها من معلومات عن كيفية سير الأمور في الدولة:

ـ أتتصورين أن يفرج عن مسجون واحد في الدولة دون أن أعرف أو قبل الحصول على اذن مني؟

قالت زبيدة تعتذر عن جريمتها في العيب بالذات الملكية. . ذات

ملك وزارة الداخلية، وكأنها تريد أن تسترضيه في يوم من أسعد أيام حياتها، يوم الافراج عن حبيبها!

ـ تصورت أنك لم تعرف بالأمر لأن الجاني شخص صغير لا قيمة له ولا أهمية. . ما أهمية الافراج عن طالب صعلوك بالنسبة لأهم وزير من وزراء الدولة؟. .

وسرّ عوني باشا لأنها تشاركه رأيه في الشاب الذي لا يحبه. . ولكنه فكر لحظة، وقال في تجهم:

ـ ولكن ما الذي يدعو حرم كمال باشا المناسترلي وزير الأوقاف السابق وعضو مجلس الشيوخ لكي تهتم بمحمد عبدالكريم هذا؟

ولم تعرف زبيدة أن ترد على سؤال عوني باشا فقالت:

ـ قد يكون قريبها. .

قال عوني باشا وهو يطفىء بقية السيجارة في طقطوقة على المائدة الصغيرة:

ـ غير معقول أن يكون ابن عامل في العنابر قريب زوجة وزير الأوقاف السابق. . لو كان كذلك لأصبح موظفاً محترماً في وزارة الأوقاف لا عاملاً في العنابر!

وأحست زبيدة كأن زوجها يحاصرها، فقالت، وصوتها يتعثر وكأنه يمشي فوق الشوك:

ـ لا أعرف ما هي الصلة. . وقد يكون صديق ابنها!

وضحك عوني باشا وقال:

ـ إن ابنها عمره ١٣ سنة. . ومحمد عبد الكريم عمره عشرون

سنة. . وسكتت زبيدة لا تجد ما تقول. .

ونظر عوني باشا إليها بطرف عينه وقال:

ـ ألم تخبرك حرم كمال باشا إن محمد عبد الكريم هذا هوزير نساء؟

وأحست زبيدة في عيني عوني باشا نظرة لم تحبها فسارعت تقول له، وكأنها تبعد الشبهة عن نفسها:

ـ لا تكن سيىء الظن يا عوني؟ هل تقصد أن تقول إن حرم كمال باشا المناسترلي هي السيدة المجهولة التي كانت مع المجرم في حديقة الجبلاية؟. إنها أكبر سناً من أمه!

وأرادت أن تقول إنها سيدة محترمة لا تخون زوجها فتوقفت الجملة في فمها. إنها هي سيدة محترمة وتخون زوجها. بل إنها لم تشعر بأنها سيدة محترمة إلا ابتداء من الساعة السادسة يوم ٢٧ مايو!

قال عوني باشا وهو يحدق في عينيها:

ـ لا. . أقصد شيئاً أخطر من هذا. .

ومدت زبيدة يدها إلى المرآة الموضوعة على المائدة الصغيرة، وتظاهرت بأنها تطل فيها، لتختفي وراء المرآة عن عينيه النفاذتين. وأحست برعب لم تشعر به في يوم من الأيام. . وأسرعت تتكلم، وكأنها تريد أن تغلق الباب الذي بدأت تهب منه الريح بل العاصفة. .

قالت وهي لا تزال تطل في المرآة دون أن تنظر إلى عينيه:

ـ لو كانت هناك أشياء خطيرة، لما أفرجت النيابة عنه!

فقال عوني باشا وهو يهز رأسه:

- لا . . . هناك أشياء خطيرة تفسر لي الآن سر اهتمام حرم كمال باشا المناسترلي بهذا الشاب. . إنه اهتمام غير بريء!

واطمأنت زبيدة، لأن التهمة علقت بحرم كمال باشا المناسترلي، ولم تعد معلقة على رأسها. .

■ ■ ■

ومد عوني باشا يده، وفتح حقيبة أوراقه، وراحت أصابعه تعبث بالأوراق، ثم خلع نظارة النظر وطواها، وأخرج من جيبه نظارة القراءة ووضعها فوق عينيه، ثم راح يبحث بعينيه في الحقيبة باهتمام، ثم أخرج ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة، وقرّب الورقة حتى التصقت بزجاج نظارته وبدأ يقرأ:

«تقرير سرّي من ناظر المدرسة السعيدية إلى معالي وزير الدولة بوزارة الداخلية:

«بالاشارة إلى خطاب معاليكم، الذي تطلبون فيه معلومات عن محمد حنفي عبد الكريم الطالب السابق بالمدرسة، نحيط معاليكم بأن المدرسة فصلت المذكور، ولم يعد له علاقة بها. وذلك بناء على أمر حضرة صاحب المعالي وزير المعارف الذي أصدر قراراً بفصله من جميع مدارس الحكومة، وذلك بناء على شكوى تقدم بها معالي كمال باشا المناسترلي وزير الأوقاف السابق وعضو مجلس الشيوخ الحالي، بأن المذكور دخل سراي الباشا في الساعة السابعة والنصف مساء يوم الأربعاء ٢٧ مايو، وحاول أن يغتصب بالقوة كريمته، حرم صاحب السعادة حسين باشا الأشموني سفير مصر في روما. ولم تتم الجريمة بسبب خارج عن إرادته».

كان وجه زبيدة يتلون وهي تسمع كلمات هذا التقرير. يحمر

ويصفر ويخضر ويسوّد مع كل كلمة. كأن كل جملة منه تحمل خنجراً يغمده عوني باشا في قلبها. . وعندما سمعت كلمة الساعة السابعة والنصف. وتاريخ الأربعاء ٢٧ مايو واسم نجوى المناسترلي تضاعف عدد الطعنات. .

وفجأة دوّت في الغرفة صرخة عالية:

وسقطت زبيدة مغمياً عليها بلا حراك. .

وتلفت عوني باشا حوله في دهشة وصاح بصوت مرتجف:

ـ ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

ولم يتلق جواباً، سوى هذه الأنفاس المتحشرجة. ورأى الزبد يخرج من شفتي زبيدة. وأطرافها ترتعش كأنها تلفظ آخر أنفاسها. .

وأسرع عوني باشا يجيء بزجاجة الكولونيا، ويرش ماءها على وجهها. ثم رفع رأسها ووضعه في رفق فوق الوسادة، وراح يدلك جسمها، ويقرب رائحة الكولونيا من أنفها.

وتحركت رموشها، وارتفع أحد حاجبيها قليلاً كأنها أفاقت بعض الشيء، مرددة كلمات غير مفهومة، في صوت خافت مذبوح. كلمات ترتعش وكأنها تبكي وتنتفض. .

وهمست زبيدة تقول:

ـ الساعة. . . السابعة والنصف. . الساعة السادسة. . الساعة السابعة. . يوم الأربعاء ٢٧ مايو!

وفتحت زبيدة عينيها في بطء، ثم أغلقتهما، وعادت تردد الأرقام بلا وعي. . ولم يفهم عوني باشا ماذا تقول. كل ما فهمه أن زبيدة تردد

أرقاماً هي ستة وسبعة وسبعة ونصف. . . وأربعة. . وسبعة وعشرون.

واشتدت رعشة جسمها، وتضاعف خروج الزبد من فمها.

وحار عوني باشا ماذا يفعل. كان يدور حول الفراش كالمجنون. لا يعرف سر هذه النوبة التي أصيبت بها زبيدة فجأة.

وأراد أن يهدىء من روعها، فمد ذراعه وطوقها بها، وحاول أن يقبلها، فانتفضت بها الروح، وكأن هذه القبلة أعادت إليها النطق لتلعنه، وحرّكت ذراعيها المشلولتين تدفعانه عنها. فتحت عينيها مذعورة وكأن أفعى لدغتها. وراحت تدفعه بيدها في عنف وهي تقول في صوت هستيري:

ـ أخرج. . أخرج من هنا. . . كلكم. . . كلكم كلاب!

■ ■ ■

أسرع عوني باشا إلى التليفون يتصل بالدكتور سليمان عزمي الطبيب المشهور. أيقظه من النوم. طلب إليه أن يبادر بالحضور لأن زوجته مريضة جداً. .

ثم عاد إلى غرفة نومها، وعالج الباب فوجده مغلقاً بالمفتاح. ووضع أذنه على ثقب المفتاح، ولم يسمع إلا صوت نحيب خافتاً، ونشيجاً متقطعاً. كلمات مذبوحة. كأن سكيناً قطعت كل كلمة إلى حروف متناثرة. كلمات امتزجت بأنين متواصل، كأن الدموع تقطر من كل كلمة، وكأن هذه الدموع قطرات من دم مسفوك.

ولم يعرف عوني باشا ما حدث لزوجته. ولو كان خبيراً في لاسلكي القلوب لعرف. . لعرف ان اللاسلكي الموجود في قلب

كل امرأة محب، هذا اللاسلكي القادر دائماً على أن يلتقط بصدق كل دقة من دقات قلب حبيبها، مهما ابتعدت المسافات، في الليل والنهار، في الرخاء والشقاء، إن هذا اللاسلكي العجيب يتوقف فجأة عن الإرسال، عندما تقترب من الحبيب امرأة أخرى. . . هنا فقط يشوش الإرسال، ويضعف، ويموت!

وأقبل الدكتور سليمان عزمي، وفحص زبيدة، وقال إنها أصيبت بحالة هستيريا، ونصح لها بالراحة التامة، وأشار بأن تتناول أقراصاً مهدئة باستمرار.

■ ■ ■

ولم تتحسن حالة زبيدة. دموعها تنهمر على عينيها ولا تتوقف. قابعة في غرفتها. ترفض أن تستقبل أحداً، أو تتكلم مع أحد، أو تذوق طعاماً. كل ما تفعله أن تمشي في غرفتها، وتلطم وجهها، وتردد أرقام ستة وسبعة وسبعة ونصف وسبعة وعشرين! واستنجد عوني باشا بالدكتور ستفنسون مدير مستشفى الدمرداش، فجاء يفحص المريضة.

وتكررت زيارته، ثم شخص المرض بأنه حالة نادرة من النورستانيا، وأن رقم ٢٧ يهيج أعصاب زبيدة، وأنه يؤلمها كطعنة خنجر، وأنه لا بد أن هذا الرقم راسب في أعماقها منذ طفولتها، وقد يكون معلم الحساب طلب منها أن تجمع أرقاماً أو تطرح أرقاماً أو تضرب أرقاماً حاصلها رقم ٢٧، فأخطأت، فانهال معلم الحساب عليها ضرباً مبرحاً. وعندما يذكر هذا الرقم أمامها في ظروف معينة تفقد أعصابها، وتصاب بنوبة قد تتحول إلى لوثة، وقد تؤدي إلى إصابتها بالجنون. ونصح الدكتور ستفنسون بتفادي ذكر أي أرقام

أمامها، وعدم إطلاعها على أي ورقة فيها أرقام!

وصدّق عوني باشا تشخيص الدكتور ستفنسون الانجليزي، ولم يصدق تشخيص الدكتور سليمان عزمي المصري، أصبح يعاملها كأنها شبه مجنونة، يتفادى إغضابها، ويتفادى أن يسألها عن سبب هذا الحزن الذي استولى عليها..

واستراحت زبيدة إلى تشخيص الدكتور ستفنسون، لأنها كانت لا تعرف ماذا تقول لزوجها إذا سألها عن سبب بكائها. في الماضي كانت تستطيع أن تكذب دفاعاً عن حبها. واليوم لم تعد قادرة على أن تكذب لأنها لم تعد تحبه، إنما هي تكرهه، تمقته، تحتقره، بل هي تكره نفسها وتمقتها وتحتقرها!

لقد اكتشفت أن المغفل الكبير ليس عوني حافظ، إنما هو زبيدة!

إنها عرضت زواجها للخطر، وسمعتها للخطر، من أجل شاب قال إنه يحبها ويعبدها في الساعة السابعة، وحاول أن يغتصب امرأة أخرى في الساعة السابعة والنصف!

لقد سمعت عن عشاق خانوا حبيباتهم بعد خمس سنوات، أو بعد أربع سنوات، أو بعد سنة من بداية الحب، ولكنها أول مرة تسمع فيها أن عاشقاً يخون حبيبته بعد نصف ساعة، نصف ساعة فقط!

لقد قالت عن كل الرجال إنهم كلاب، وهي تظلم الكلاب في هذا التشبيه. الكلاب تنتظر فترة غير قصيرة عندما تنتقل من الكلبة القديمة إلى الكلبة الجديدة!

كانت تحب محمد لأنها توهّمت أنها رأت الصدق في عينيه. هذا الصدق الذي لم تره أبداً في عيني زوجها. تصورت أنه يقول لها في

صراحة تامة كل ما يحدث له، بل كل ما جرى له منذ أن ولدته أمه. تصورت أنه لم يخف عنها أدق أموره وأحرجها. حتى فيما يتعلق ببؤسه وفقره وحرمانه مما اعتاد الرجال عادة أن يخفوه عن النساء..

ولكنها اليوم تستعيد من جديد كل كلمة قالها لها، وتشك في أنها كاذبة. إنه لم يحبها في يوم من الأيام. كان طوال هذه الفترة يخدعها ويغرر بها. كل ما كان يهمه أن يتسلم منها المسدس، أن يضمن أن يبقى فمها مطبقاً، ولهذا راح يمثل أمامها دور العاشق الولهان، ثم يحاول أن يغتصب امرأة أخرى بعد نصف ساعة من لقائهما الأول في حديقة الجبلاية!

لا يمكن أن تكون هذه خيانته الوحيدة. لا بد أنه كان يخونها بعد كل مرة يلتقي فيها بامرأة جديدة.

نجوى المناسترلي رفضت أن تستسلم له، ولكن مئات النساء استسلمن له. لا بد أنه شاب شاذ. الحب الطاهر يثير فيه الشهوة البهيمية. إنها تسمع عن رجال يحرصون على أن يؤدوا الصلاة قبل ارتكاب جريمة قتل، أو قبل أن يجلسوا إلى مائدة القمار!

وما يدريها أن كل ما قاله لها عن سهرة كل ليلة في مكتب عزيز ميرهم صحيح؟ لا بد أنه كان يسهر عند عشيقاته. من غير المعقول أن يبقى مكتب محام مفتوحاً إلى ما بعد منتصف الليل!

ما يدريها أنه لم يحبها في يوم من الأيام، وكل ما كان يريده أن ينتقم من عوني باشا حافظ الذي شتم أمه وقال إنها عاهرة، بأن يجعل من زوجة عوني باشا عاهرة؟

وبعد أن تنتهي زبيدة من شنق محمداً على مشنقة غيرتها، وتتأكد أنه

أسلم الروح، يخفق قلبها من جديد، وتفك حبل المشنقة عن رقبته، وتحاول أن تعيد الروح إليه . . وتبحث له عن مبررات واعتذارات كأنها تدافع عنه لتنقذه من حبل المشنقة الذي وضعته بيدها حول عنقه!

إنه شاب صغير السن. ربما أن نجوى وهي فتاة لعوب، أثارته بأنوثتها الصارخة، ففقد سيطرته على نفسه في لحظة جنون. . . ثم ندم على فعلته لأنه يحب زبيدة.

وتستريح زبيدة قليلاً لهذا الدفاع الأعرج. . ثم تقفز فجأة من مقاعد الدفاع إلى مقاعد الادعاء. لو أن هذا كان صحيحاً فلماذا كذب عليها. لماذا قال لها إنه فصل من المدرسة السعيدية لأنه اشترك في مظاهرة؟ لماذا ارتبك عندما قالت له إنها كانت تزور زوجة كمال المناسترلي باشا والدة نجوى؟. لماذا ادعى أنه لا يعرفها، وإنما هو صديق ابن عمها؟ هذه تصرفات مجرم لا تصرفات بريء. . ثم ما الذي يجعله يذهب إلى بيت نجوى المناسترلي عقب لقائه بها مباشرة في حديقة الجبلاية؟. لا يمكن أن يكون هذا هو اللقاء الأول. لا بد أنه كان يتردد على بيتها قبل ذلك. لا بد أنه تركها بعد موعدهما في حديقة الجبلاية ليذهب إلى نجوى المناسترلي. كأنها هي التي أثارت شهوته ليفرغها في غريمتها. . كأنها المشهيات أو الطبق الذي يفتح الشهية مقدمة للمأدبة الكبرى. . كأنها كأس الويسكي التي يتناولها العاشق قبل أن يقوم بمغامراته الغرامية. . ليتها ما دافعت عنه أمام عوني باشا. ليتها تركته يضربه بالسياط حتى يموت. ليتها شجعت عوني باشا على أن يلفق له الاتهامات، ويقدمه إلى المحاكمة حتى يحكم عليه بالإعدام!

■ ■ ■

كانت الغيرة تأكل صدر زبيدة. كل نيران العالم المشتعلة أضعف من

نار الغيرة في قلب امرأة عاشقة واحدة! غيـرة المرأة هي اسم مؤدب لكبرياء مهزومة، وكرامة ديست بالأقدام . . هي شعور يفيض بالضعة والذل والهوان. وعندما تتحرك الغيرة في كيان الإنسان تتحـرك معها عواطف مجنونة، مثل الحقد والكمد، والبغض والرغبة في الانتقام.

ونـار الغـيرة تضرم هـذه العـواطف الهـامـدة في النفس الإنســانيـة، فتشتعل، ثم تلتهب، ثم تنفجر! إنها مجموعة من المواد الناسفة تصنع قنبلة ذرية. والغيرة تلغي أبصارنا فنصـاب بالعمى، وتلغي عقـولنا فنفقد بصيرتنا. وكثيراً ما يحدث ذلك لنا، ونحن نلقي هـذه القنبلة الذرية، فنلقيها على أنفسنا. فالذي ندمره هو من كان حبيبنا. . وحبيبنا في قلبنا. فلكي ندمره داخل قلوبنا يجب أن ندمر قلوبنا، أو نـدمر أنفسنا!

والغيرة هي جرح أصاب كرامتنا، وكلما كان الجرح بالغاً، زادت وحشية الغيرة في داخلنا.

وكل الناس يغارون، ولكن نسبة الغيرة تختلف باختلاف البشر. القوي لا يغار من الضعيف، والجميلة لا تغار من القبيحة. وفـاتن النساء لا يغار من باش آغا الحريم. ولكن هذه القاعدة لها استثناء. فإن الغيرة التي تصيبنا بالعمى تجعلنا نرى غريمنا الضعيف قوياً، والقزم عملاقاً، والمسخ بطلاً من أبطال جمال الأجسام. . وباش آغا الحريم كازانوفا معبود النساء. . فهوان الغيرة يجعلنا نتضـاءل أكثر ممـا نحن في الحقيقة. نفقد الثقة بأنفسنا. نتخيل النكسة التي أصبنا بها هزيمة سحقتنا!

وكانت زبيدة تشعر بأنها مهزومة ومسحوقة. كانت تغار من نجوى المناسترلي ومن كل امرأة في مصر. . تغار من نجوى لأن محمد حاول أن

يغتصبها. . كأنها كانت تتمنى لو أن محمداً حاول أن يغتصبها هي . كأنها أصبحت تشعر بالذلة والضعة والهوان لأن محمداً احترمها ولم يحاول اغتصابها. .

وهي تتذكر ملامح نجوى المناسترلي، تحاول أن تقارن بين جمالها. . تحاول أن تبحث عن الشيء الذي في نجوى وليس فيها. . تحاول أن تكتشف مفاتنها التي أفقدت محمداً عقله. .

وهي ترى صورة نجوى أمامها دائماً. وترسم لها صورة في خيالها، تبدع في تصوير جمالها، كأنها فنان يريد أن يخلد في الصورة حبه وفنه. صورة امرأة تطير اللب وتسلب العقل.

وتتأمل سحر نجوى النادر، وجمالها الباهر، والشهوة التي تطل من عينيها، والجاذبية التي تملأ شفتيها. وتحملق في الصورة التي رسمها خيالها لنجوى المناسترلي مذهولة، ثم تمزق الصورة. وترسم لها صورة أخرى بريشة حقدها وكراهيتها، فتشوّه وجهها، وتطيل أنفها، وتضيق عينيها، وتبرز أسنانها.

وتضحك ساخرة من قلة ذوق محمد في اختيار النساء، ثم تعدو وتمزق الصورة، وترسم صورة جميلة أخرى تزيد غيرتها اشتعالاً!

وكان أكثر ما يثيرها في نجوى المناسترلي أنها أصغر منها سناً، وأنها أطول منها قامة، وأن شعرها ذهبي!

■ ■ ■

وعندما دخلت في طور النقاهة، وبدأت تخرج بعد ظهر كل يوم تتنزه في سيارتها، أصبحت تراقب كل امرأة طويلة لتكرهها. وتبحث عن كل امرأة شقراء لتلعنها. وتتعقب بنظراتها كل امرأة أصغر سناً منها

وتتمنى أن تخنقها بيديها!

أصبحت تعتقد أن كل امرأة طويلة هي عشيقة لمحمد، وكل امرأة شقراء حبيبة لمحمد، وكل امرأة أصغر منها سناً محظية محمد!

ثم ما لبثت أن اعتقدت أن كل امرأة تسير في الطريق، طويلة أو قصيرة، سمراء أو شقراء، شابة أو عجوزاً، هي عشيقة محمد أو ستكون عشيقة لمحمد!

وبدأت تفكر في أن تنتقم من محمد، ولكي تنتقم منه يجب أن تلتقي به. سوف تلتقي به مرة واحدة لتقول له رأيها فيه.. لا، إنها لن تشرفه بالحديث معه. سوف تكتفي بأن تبصق في وجهه ثم تمضي في سبيلها!

وفكّرت أن تذهب في يوم الأربعاء التالي إلى حديقة الجبلاية. لا بد أنه يداوم على الذهاب إلى مكانهما المعهود في كل يوم أربعاء. فهو لا يعرف أنها اكتشفت خيانته. ولا يمكن أن يتصور أن قصة محاولته اغتصاب نجوى المناسترلي بعد لقائهما بنصف ساعة فقط قد وصلت إليها.. ولكنها صممت على ألا تنتظره. ستدخل الحديقة وتقف بعيداً عن الدكة الخشبية التي اعتادا أن يجلسا عليها. فإذا رأته هناك، تقدمت نحوه وبصقت في وجهه، ثم تركته دون أن تقول له كلمة واحدة!

وانتظرت زبيدة يوم الأربعاء بفارغ صبر. إنه يوم انتقامها من الرجل الذي خانها. هذه البصقة على وجهه سوف تطفىء الحب.. سوف تطفىء الغيرة التي تشتعل في قلبها.. ولو أنها وجدت شاباً جميلاً في الحديقة فستذهب إليه وتسأله عن الساعة وهي تبتسم، وبذلك توهم محمداً أن هذا الشاب هو عشيقها الجديد الذي حلّ مكانه.

ولن تعاتبه بكلمة.. العتاب هو قنطرة بين الخصام والصلح يعبر

عليها الحب وهي لم تعد في حاجة إلى جسر يمشي فوقه الحب. . إنها في حاجة إلى كوبري يمشي عليه الانتقام. . وسيكـون الشاب المجهـول الذي ستغيظ به محمداً في حديقة الجبلاية هو كوبري الانتقام!

لن يعرف لماذا خانته. هي أيضاً لا تعرف لماذا خانها. . هو خانها بعد لقائه بها بنصف ساعة وهي ستخونه مع هذا الشاب المجهول بعد دقيقة واحدة. . بعد البصقة بدقيقة!

■ ■ ■

وتزينت زبيدة، كما لم تتزين في يوم من أيام حياتها. كأنها ذاهبة إلى عرسها. إنه عرس انتقامها. . عرس فيه زغاريد سوف يطلقها قلبها، فيه شربات. . هذه البصقة على وجه محمد هي شربات الانتقام!

ولم تضع هذه المرة حجاباً سميكاً على وجهها. لم تعد تخاف أحداً. لم تعد تخاف على أحد. زوجها يعتقد أنها شبه مجنونة. . ومن حق المجنونة أن تفعل ما تشاء وما تريد. . ولو رآها أحد تبصق في وجه محمد فستقول إنها فعلت ذلك لأنه الرجل الذي يكره زوجها ويكرهه زوجها. . إنها تريد أن تراها الدنيا كلها وهي تبصق في وجهه. ليت نجوى المناسترلي تكون اليوم في حديقة الجبلاية لترى ما تفعل بمحمد، وتقول لها إنها بصقت في وجهه لأنها علمت أنه حاول أن يغتصبها. . ليت كل نساء مصر يحضرن بعد ظهر اليوم إلى حديقة الجبلاية ليتفرجن على محمد وهو يمسح الإهانة عن وجهه!

ووصلت إلى حديقة الجبلاية. وتلفتت نحو الدكة المعهودة فلم تجد محمداً. وراحت تبحث عنه في لهفة بين وجوه كل الرجال الـذين في الحديقة. وضغطت بأسنانها على شفتيها من الغيظ. الخائن لم يحضر. لم يحضر لتبصق في وجهه. . سوف تنتظره. . لا بد أن يجيء الآن. . لقد

بدأ يهمل المواظبة على المواعيد. . كان في الماضي يجيء قبل الموعد بساعة وساعتين وأربع ساعات. . لا بد أنه جاء في الموعد مرة أو مرتين، ولما يئس من حضورها انقطع عن الحضور. . لا بد أنه الآن يخونها مع امرأة طويلة وشقراء وأصغر منها سناً. .

ومشت في ذلة وانكسار نحو الدكة الخشبية، كأنها تشيع جنازة، وجلست وحيدة فوق الدكة، تتلفت في لهفة حولها. ثم ثبتت عينيها على باب الحديقة. . ومضت الدقائق. . ومضى نصف ساعة. . ومضت ساعة كاملة. .

ثم رأت شاباً أنيقاً جميلاً، كأنه أحد نجوم السينما، يقترب منها. . إنه هو الشاب الذي تمنت أن تسأله عن الساعة لتغيظ محمداً، إنه أجمل من محمد كثيراً. . شعره أشقر، أصغر من محمد، أطول من محمد، إنه شاب رائع بالفعل. . لو جاء محمد في هذه اللحظة فستمسك بيد هذا الشاب وتخرج معه من باب الحديقة أمام محمد.

لم تعد في حاجة إلى أن تبصق على محمد. . خروجها مع هذا الشاب الرائع هو صفعة على وجه محمد، هو بصقة عليه. . هو أوجع من الصفعة، وأكثر تحقيراً لمحمد من البصقة!

واستمر الشاب الجميل يقترب. . واستمر قلبها يخفق بشدة واستمرت عيناها تبحثان عن محمد ليجيء ويراها. .

إنها ستدعو الشاب الجميل أن يجلس بجوارها على الدكة، في نفس المكان الذي كان يجلس فيه محمد، ليتأكد محمد أن مكانه أصبح مشغولاً برجل آخر!

ووصل الشاب إلى جوارها وقال في صوت ناعم:

ـ مساء الخير!

وأشاحت زبيدة بوجهها . . لم تتفرس في سحر جماله وفتنة عينيه . . قطبت حاجبيها . . بدا لها الشاب فجأة مشوهاً، زرياً، مخيفاً . . بدأت تشعر بالخوف والهلع . لم تخف من الشاب، بل إنها خافت أن يجيء محمد في هذه اللحظة ويراها مع شاب غريب، ويبصق في وجهها، ويصفعها، ثم يمضي ولا يقول لها كلمة واحدة .

وأسرعت تهرول إلى خارج الحديقة، واستقلت أول عربة تاكسي وطلبت إلى السائق أن يسرع بها إلى بيتها . .

عرفت أنها لا تزال تحب محمداً . لا تطيق أن يقترب منها رجل سواه . كأنها كانت تخدع نفسها طوال الوقت . لم تكن تريد أن تبصق في وجهه، بل كانت تريد أن تقبله . . لم تكن تنوي أن تصفعه، بل كانت في شوق لأن تعانقه . . لم تجيء إلى الحديقة لتلعنه، وإنما لتقول له إنها تحبه برغم كل ما فعل بها . .

كانت تكرهه لأنها تحبه . . كانت شفتاها تسبانه وقلبها يهواه . . كأنها كانت تواسي كرامتها المجروحة بالقدح فيه . كأنها تجامل كبرياءها المهزوم بالادعاء أنها لم تعد تحبه، تماماً كما تداهن الزوجة العاشقة زوجها ليسمح لها بالخروج لتلتقي مع حبيبها في موعد غرام!

كأن الأطباء لم يعرفوا دواءها . إن دواءها هو داؤها . . هو محمد عبدالكريم .

ومنذ اعترفت زبيدة لنفسها بأنها لا تزال تحب محمداً، جفت دموعها . توقف هوسها . لم تعد تمشي في غرفتها تردد الأرقام بلا وعي ولا إدراك . . أصبحت مشغولة بأمر واحد : كيف تتصل بمحمد . .

محمد الذي كرهته كما لم تكره إنساناً في حياتها، وأحبته كما لم تحب إنساناً في حياتها. . الذي أنقذته من الإعدام ثم تمنت أن يعدموه. . سوف تحبه حتى لو أحب كل امرأة طويلة، وكل امرأة شقراء، وكل امرأة أصغر منها سناً في جميع أنحاء المملكة!

وعجبت زبيدة للتغير المفاجىء الذي حدث في قلبها. كيف تحولت نار غيرتها إلى رماد؟ كيف نسيت فجأة طعنة الساعة السابعة والنصف. . أيكون جو حديقة الجبلاية هو الذي أطفأ هذه النيران؟ هل خجلت من كل شجرة رأتها تحب محمداً أن تراها تخونه؟ هل لا تزال نسمات الحديقة فيها بقية من أنفاسها، فإذا بهذه الأنفاس تتحول إلى محلول نوشادر يفيقها من غيبوبتها؟

إنهم يقولون إن هناك قبلة اسمها «قبلة الحياة»، إن كثيراً من الناس توقفت قلوبهم ثم جاء من يقبلهم في شفاههم فأعادت لهم القبلة الروح، أو منعتها من الخروج. أتكون هذه الأنفاس قبلت شفتيها وأعادت لقلبها الحياة، أم هي الدكة الخشبية التي جلست عليها، ما كادت تلمسها بجسمها حتى اشتعل قلبها بحب محمد من جديد، تماماً كما يحدث للنار التي خبت وأصبحت على وشك الانطفاء ثم مست قطعة من الخشب. . أم هو الشاب الغريب الذي اقترب منها فأحست وهو يقترب كأنه يبتعد فلما كاد يلتصق بها أحست بأن المسافة بينهما اتسعت والهوة زادت، أم أنها كل هذه المشاعر مجتمعة؟ أم أنها كانت تحب محمداً طوال هذا الوقت وتشتمه لأنه لا يسمعها، وتهاجمه لأنه بعيد عنها، وتحقد عليه لأنها عطشى إلى قبلة أخرى من شفتيه؟

■ ■ ■

وعندما عادت إلى بيتها كانت تغني، وكأنها التقت بمحمد. وفعلاً

شعرت كأنها التقت به فعلاً. التقت به في كل وردة في الحديقة، في كل زهرة فيها، في حشائشها، في أشجارها، في نسيمها، في الدكة الخشبية.. لقد أحست عندما التقت بحبها في تلك اللحظات أنها عثرت على الكنز الذي ضاع منها. لم تعد تشعر بالضعة والهوان والضآلة التي شعرت بها طوال أيام غيرتها المجنونة، ومشت في غرفتها تدندن بأغنية محمد عبد الوهاب الجديدة:

مريت على بيت الحبايب
لقيت حبيب القلب غايب

وقطع غناءها صوت عوني باشا حافظ وهو يدخل إلى غرفة نومها ويقول:

ـ ماذا كنت تفعلين في حديقة الجبلاية اليوم؟

ورأت زبيدة في عينيه نظرة أخافتها.

بهتت زبيدة لهذا السؤال الغريب.. ثم أحست بقوة غريبة لم تشعر بها طوال الأيام الماضية.. الحب له قوة ساحرة تحول الخائف إلى جريء!

وقالت له ساخرة بغير اهتمام:

ـ ما دمت قد عرفت أنني ذهبت إلى الجبلاية.. فلا بد أنك عرفت سبب ذهابي.. وما دمت ترسل ورائي جاسوساً ليتعقب أنبائي، فلا بد أن جاسوسك قدم لك تقريراً كاملاً عن كل حركاتي!

قال عوني باشا:

ـ لماذا أصبت بالرعب عندما جاء شاب وقال لك: مساء الخير!

قالت زبيدة في دهشة:

ـ الحمد لله أن تقارير البوليس صحيحة لأول مرة.. كنت أتوقع أن يقول التقرير إنني خرجت مع هذا الشاب في موعد غرام!

قال عوني باشا ضاحكاً:

ـ لو خرجت معه في موعد غرام لقطعت رقبتك ورقبته.. هذا الشاب هو أحد ضباطي.. وهو مكلف بأن يراقب الحديقة ليعرف السيدة المحجبة التي التقى بها محمد عبد الكريم.. ولكن السيدة لم تجيء أبداً.. يبدو أنها عرفت أننا نبحث عنها.. التقارير تقول إن محمداً كان يجيء إلى الحديقة كل يوم في الساعة السادسة مساء ويبقى ساعة كاملة.. أمس فقط، كانت المرة الأولى التي لم يحضر فيها إلى الحديقة في هذا الموعد!

وفرحت زبيدة أن محمداً كان يجيء إلى مكانها الموعود كل يوم، لا يوم الأربعاء فقط.. هذا دليل جديد على أنه لا يزال يحبها، لم ينسها. ولكن لماذا لم يجيء اليوم؟ لعله مريض!

وسكتت زبيدة قليلاً ثم قالت:

ـ شيء غريب أن تتعقبوا الشاب والمرأة المحجبة بعد أن تأكدت النيابة أنه بريء وأفرجتم عنه.

قال عوني باشا وكأنه يلقي عليها درساً في أصول الحكم:

ـ الشك هو أساس الحكم.. لا يوجد عندنا مصري بريء.. كلهم متهمون.. كل واحد منهم مشكوك فيه.. كل واحد منهم مشبوه.. البريء اليوم قد يصير مجرماً غداً.. ولهذا فأنا أضع كل من نشتبه فيه تحت المراقبة.. إنني أضع تليفونات بيوت الوزراء نفسها تحت

المراقبة. لا أضمن أن وزيراً يتصل سراً بالمعارضة ويتآمر على الوزارة!

قالت زبيدة وهي تضحك لتخفي ذعرها:

ـ ولا بد أن تليفون بيتنا تحت المراقبة. . صدقي باشا يراقب تليفونك. . وأنت تراقب تليفون رئيس الوزراء!

قال عوني باشا:

ـ لا يجرؤ أحد على مراقبة تليفوني. . إن مراقبة التليفونات تحت سلطتي وحدي!

وتركها وخرج من الغرفة، بعد أن ألقى فأراً في عبها. . هل هو يراقبها هي أم يراقب محمد، أم يراقبهما معاً؟ هل قالت شيئاً وهي في حالة الهستيريا جعله يشك فيها؟ هل فهم من صرختها عندما سمعت بخيانة محمد لها مع نجوى المناسترلي أن بينها وبين محمد علاقة حب؟ لماذا يتجنب زوجها سؤالها عن سبب الأزمة التي أصيبت بها بعد قراءتها التقرير السري لناظر المدرسة السعيدية؟ إن المثل الشعبي الذي يقول «إن من على رأسه بطحة يحسس عليها» مثل صحيح . . ولكن ليس على رأسها بطحة واحدة. . إن في كل جزء منها «بطحة» تصرخ وتصيح: أنا أحب محمد عبد الكريم. .

ترى ماذا كان يحدث لو أن محمد عبد الكريم جاء اليوم إلى حديقة الجبلاية، لو أنها بصقت في وجهه، لو أنها فقدت أعصابها وقالت ما كانت تود أن تقوله. . لو أنها نفذت ما اعتزمت وسألت الشاب الجميل عن الساعة، الشاب الذي ظهر أنه أحد ضباط زوجها؟

أي تقرير مثير كان سيكتبه ضابط القسم السياسي عن المشادة التي وقعت بين حرم وزير الدولة وعشيقها الطالب بمدرسة رقي المعارف؟

أي مصيبة كانت ستنزل على رأس محمد؟

كل ما يهمها هو محمد. . لم يعد يهمها أن يطلقها الوزير أو تبقى على ذمته. إنها تشعر أنها مطلقة مع وقف التنفيذ. . المهم ألا يصاب محمد بسوء بسبب حبه لها. المهم أن تحميه من زوجها الطاغية. ولكنها تريد أن ترى محمداً، تحنُّ إلى سماع صوته، تهفو للتطلع إلى عينيه، تذوب شوقاً كي تحس من جديد بأنفاسه الحارة تلهب جسدها. . إنها لا تستطيع أن تذهب إلى حديقة الجبلاية مرة أخرى بعد أن علمت أنها مراقبة، لا تستطيع أن تتصل به تليفونياً فلا بد أن تليفون جريدة «الضياء» مراقب، لا تستطيع أن تذهب إلى بيته في شارع جزيرة بدران لأنها لا تعرف عنوانه. .

وتتذكر زبيدة أنه حدثها عن المعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي فرج، فلماذا لا تذهب إلى المعلم في القهوة وتسأله عن عنوان بيت محمد؟ ولكنها لا تستطيع أن تذهب إلى القهوة علناً. قد يعرف بعض الذين يترددون على القهوة وجهها. سيعرفون أنها زوجة وزير الدولة في وزارة الداخلية. لقد نشرت مجلة «المصور» صورتها في حفلة افتتاح البرلمان مع زوجات الوزراء. سيتهامسون بأن زوجة الوزير جاءت تسأل عن عنوان محمد ابن المعلم حنفي!

■ ■ ■

ولمعت عيناها. خطر ببالها أن تقوم بمغامرة!

استدعت خادمتها سنية. إنها ليست خادمتها فقط. إنها صديقتها منذ كانتا تقيمان متجاورتين في حي الحسين قبل زواجها. وعندما تزوجت عوني وعلمت أن زوج سنية قد مات وأصبحت هي وأولادها بلا مأوى، عرضت عليها أن تجيء للإقامة معها في البيت الكبير.

إنها تثق بها كل الثقة، ولكنها لم تجرؤ حتى الآن على أن تقول لها إنها تحب محمداً ومحمد يحبها. لماذا لا ترسل سنية إلى المعلم وهدان أبو خطوة لتسأله عن عنوان محمد؟

وترددت زبيدة قليلاً. لا بد أن تسر للخادمة سنية بقصتها مع محمد، لتبرر سؤالها عن عنوانه. وقررت أن ليس من حقها أن تبوح بهذا السر لمخلوق. هذا السر ملك محمد أيضاً. يجب أن تستأذنه قبل أن تقتسمه مع ثالث.. السر مثل القبلة لا يقبل القسمة إلا على اثنين.. فإذا زاد عن اثنين تحول إلى قطاع عام!

وقررت زبيدة أن تعتمد على نفسها وحدها في القيام بهذه المغامرة. واستدعت سنية وقالت لها إنها تريد أن تزور شيخاً اسمه الشيخ محمد. إنه رجل متصوف يكتب الأحجبة. وهي تعتقد أن سبب مرضها أن عفريتاً يركبها. وأنها تعتقد أن حجاباً من الشيخ محمد قادر على أن يطرد العفريت من جسمها. وهي لا تستطيع إقامة حفلة زار، لأن زوجها لا يؤمن بهذه الخرافات، ويجب أن تذهب إلى الشيخ محمد سراً...

واقترحت غليها أن تذهب إليها في البيت الذي يقيم فيه أولادها في شارع مفرش الحمصي بجزيرة بدران، وهناك ترتدي ملايتها اللف، وتخرج للذهاب إلى الشيخ محمد..

ونفّذت زبيدة الخطة، وخرجت وفي قدمها شبشب من شباشب سنية، وهي تتهادى داخل الملاءة اللف السوداء، وسألت عن قهوة سيدي فرج، وأرسلت أحد الأولاد يستدعي المعلم وهدان من داخل القهوة..

وخرج المعلم وهدان مدهوشاً، وتأمل شابة بضة بيضاء حلوة في الملاءة اللف التي زادتها فتنة وإغراء..

وتقدم نحوها المعلم وهدان وهو يقول: حلم.. والا علم؟

إنه يعرف وجوه كل نساء الحي، وهذه هي المرة الأولى التي يشهد فيها هذه المرأة الجميلة في جزيرة بدران..

وسألته في صوت متردد عن عنوان بيت الأسطى حنفي عبدالكريم..

ودهش المعلم وهدان أن تسأل هذه المرأة الفاتنة عن عنوان رجل معتوه مريض عجوز مثل الأسطى حنفي، فسألها في استغراب:

- ماذا تريدين من الأسطى حنفي؟

قالت متلعثمة: أريد أن أقابل ابنه محمداً!

وصدم المعلم وهدان كأنه احتمل أن تقابل عجوزاً معتوهاً مثل الأسطى حنفي، ولم يحتمل أن تقابل شاباً صحيحاً مثل محمد عبدالكريم. وأصيب فجأة بحمى الفضيلة التي يصاب بها الناس عادة عندما تقع المرأة التي يتمنونها في يد رجل آخر، فقال في جفاء:

- إن أم محمد سيدة محترمة.. ولا تستقبل نسواناً من صديقات ابنها في بيتها.. إذهبي إليه في جريدة «الضياء» حيث يعمل محرراً بها!

وصدمتها لهجته المليئة بالتأنيب والتحقير، وتركته بغير أن تتفوه بكلمة..

وضايقها أن المعلم وهدان تحدث عن «نسوان من صديقات ابنها» كأنه يعلم أن محمداً زير نساء، وأن له نسواناً صديقات، وكادت الغيرة تضطرم في قلبها من جديد. وأسرعت تطفئها، مقنعة نفسها بأن هذا تعبير لم يقصد المعلم وهدان معناه الحرفي، كل ما قصده أن أم محمد

سيدة محترمة، وأنها امرأة غير محترمة . .

ولم يغضبها رأي المعلم وهدان، كما كان يمكن أن يغضبها أن تشعر أنه توجد حقيقة «نسوان وصديقات» في حياة حبيبها محمد . . كأن المرأة تحتمل الإهانة إذا وجهت إلى شخصها، ولا تحتمل الإهانة إذا وجهت إلى حبها الكبير.

وعادت إلى بيتها حزينة لأنها لم تعرف عنوان بيت محمد. وترددت في أن تذهب إليه بالملاية اللف في مكتب جريدة «الضياء» بشارع ناظر الجيش ـ شارع ضريح سعد الآن ـ خشيت أن تحرج مركزه بين زملائه المحررين. ولكنها كانت مصممة على أن تراه، حتى ولو كان زوجها يراقبها، يرسل خلفها من يتتبعون خطواتها . . ماذا يحدث إذا عرف أنها قابلت محمداً؟ سيطلقها . . وهي إذا لم تقابل محمداً فستموت!

الطلاق خير من الموت. الفضيحة أهون من الحرمان. الذين ذاقوا الحرمان وحدهم هم الذين يعرفون عذابه وقسوته ومرارته. وعادت تخاف على محمد من بطش زوجها.

يجب أن تجد طريقة لتتصل به من وراء ظهر زوجها. هي لا تريد أن تحمي نفسها، تريد أن تحمي حبيبها، تريد أن تحمي حبها. الحب يجعلنا حيناً أشجع الشجعان، ويجعلنا حيناً أجبن الجبناء . . نتصرف تصرفات مجنونة، ثم نتصرف تصرفات حكيمة. الحب الحقيقي مزيج من الحكمة ومن الجنون. لو أصبح الحب عاقلاً فقط لتحول الحب إلى فريجيدير، ولو كان مجنوناً فقط لاحترق في فرن كهربائي. لذته في هذا التردد بين الخوف والجنون، بين الإقبال والإدبار . . كأنه خفقات القلب تعلو ثم تهبط ثم تعود وتعلو من جديد . . كاللحن الجميل فيه نغمات خافتة كالهمس ونغمات مدوية كالطبول!

وبين تردد زبيدة وإقدامها، قررت أن تتصـل تليفونياً بمحمد في جريدة «الضياء»، وقررت ألا تطلبه من تليفون بيتها فقد يكون تحت المراقبة، مراقبة رئيس الوزراء، أو مراقبة زوجها، وإنما ستطلبـه من تليفون بيت أبيها. . ستنتهز فرصة وجود أبيها في عمله في المكتب، وذهاب أخيها محمود إلى عمله في وزارة الحربيـة، وتتحدث معـه في التليفون متظاهرة أمام أخوتها الصغيرات أنها تتحدث مع صديقة لها!

■ ■ ■

ودق جرس التليفون في أحد مكاتب إدارة جريدة «الضياء».

ورفع الأستاذ أحمد قاسم المحرر بالجريدة سماعة التليفون، وقال عامل تليفون الجريدة:

ـ تليفون للأستاذ محمد عبد الكريم.

وسأله قاسم:

ـ من الذي يطلبه؟

قال عبد الرحمن عامل تليفون «الضياء»:

ـ أمه!

وناول الأستاذ قاسم سماعة التليفون إلى محمد، وقال له:

ـ السيدة والدتك. .

وشهق محمد. أمه تطلبه في التليفون؟ إن أمه لا تعرف كيف تتكلم في التليفون. . إنها لم ترَ آلة تليفون طوال حياتها. . ماذا حدث لأبيه؟ قد يكون أصيب بلوثة جنون فجأة، قد يكون داسه الترام. . وامتقع

وجهه وهو يترك مكتبه ليتجه إلى مكتب زميله حيث آلة التليفون.

ورأى زميله الأستاذ أحمد قاسم، وجه محمد وهو مشحون بالذعر، وناوله السماعة، وابتعد عن المكتب، وأجلسه على مقعده، ليتلقى النبأ الفاجع جالساً فلا يسقط على الأرض مغشياً عليه!

وسمع محمد صوتاً غريباً يقول:

ـ أنا نجوى المناسترلي.

وشهق محمد شهقة أعلى من الشهقة الأولى، شهقة مشحونة بالدهشة والرعب. كأنه سمع صوت الهول لا صوت امرأة!

ورأى الأستاذ قاسم وجه زميله محمد وهو يشحب شحوب الأموات، ويقول في نبرات رجل تلقى مصيبة هائلة:

ـ مستحيل! مستحيل!

واعتقد الأستاذ قاسم أن المصيبة أفدح مما تصور في أول الأمر، وأنها كارثة نزلت بأسرة زميله محمد كلها لا بفرد واحد فيها.. وأسرع يغادر الغرفة، وأوصد الباب تاركاً محمد وحده!

وقال محمد في صوت مرتجف:

ـ من الذي يتكلم؟

قال الصوت الغريب:

ـ أنا نجوى المناسترلي! هل نسيت صوتي الذي كان يثيرك؟ هل نسيت اسمي الذي كنت تحلم به طوال الليل؟ إنني عدت أمس فقط من روما.. وأنا مصابة ببرد وزكام.. لعلك لم تعرف صوتي لهذا

السبب. قلوب الرجال لا ذاكرة لها. . هل نسيت نجوى المناسترلي التي حاولت أن تغتصبها في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم الأربعاء ٢٧ مايو؟ هل نسيت التي فصلت من مدارس الحكومة من أجلها؟ إنني بادرت بعد عودتي إلى محادثتك، لأطمئن عليك، ولأعتذر عما حدث، لأنني . . أحبك . . . !

وانفجر محمد غاضباً حانقاً:

ـ أما كفاك ما فعلت بي؟ تقتلين القتيل وتمشين في جنازته؟ تذبحينني بسكين وتهدينني رباط رقبة جميلاً؟ تطعنينني في ظهري بخنجر مسموم، ثم تستفسرين عن صحتي الغالية؟ كل جريمتي معك أنني لم أخدعك، لم أكذب عليك، قلت لك صراحة إنني أحب امرأة أخرى، ولا يمكن أن أخونها!

وسمع محمد ضحكة عالية . .

ضحكة يعرفها تماماً . .

وسمع صوتاً يعرفه يقول له:

ـ براءة!

■■■

أغلقت زبيدة السماعة بعد أن قالت كلمة «براءة»!

وفتح محمد فمه في دهشة عندما سمع كلمة «براءة». . إنه صوت زبيدة فعلاً . . صوتها الذي يستطيع أن يعرفه من بين ملايين الأصوات. . الصوت الذي افتقده طوال الأسابيع الماضية. . الذي كان يسمعه يعزف في أذنه من بعيد. .

وما الذي جعل زبيدة تقول له «براءة»؟ هل كان متهماً عندها فأصدرت حكمها بعدم إدانته؟ كيف يجوز لها أن تحاكمه غيابياً وتحكم عليه غيابياً؟

وابتسم لأنه يعرف تماماً أن الحب طاغية مستبد، لا يعترف بالقانون العادي، ويلجأ دائماً للقوانين الاستثنائية!

ولكن زبيدة لا تعرف قصته مع نجوى المناسترلي. أتكون نجوى عادت فعلاً من روما، وذهبت زبيدة لتحيتها، وقصت نجوى عليها قصته معها بكل ما فيها من أكاذيب؟ . .

وهل اتصلت به زبيدة تليفونياً لتحقق اتهام نجوى المناسترلي، واكتفت بإصدار الحكم، ورفعت الجلسة عقب النطق بالحكم كما يفعلون في محاكم الجنايات، أم أن زوجها عوني باشا دخل عليها فجأة أثناء الحديث فاضطرت إلى قطع المحادثة؟

وفي اليوم التالي اتصلت به زبيدة مرة أخرى. وطالت المحادثة التليفونية عن المرة الأولى. وكان لدى محمد فرصة كي يطرح عليها ألوف الأسئلة التي تشغل باله. . ولكن المحادثة انتهت قبل أن يسألها سؤالاً واحداً. حديثهما الذي استمر عشر دقائق كان كله عبارة عن كلمة واحدة. هو يقول لها ألف مرة «أنت وحشتيني»؟. وهي تقول له ألف مرة «أنت وحشتني. . » فعندما يلتقي العاشقان بعد غياب طويل تختفي العبارات البليغة، تضيع الكلمات الشاعرية، رعشة اللقاء تحولهما إلى طفلين صغيرين، كأن كلاً منهما طفل كان يجري مسافات طويلة ثم وجد حُجر أمه، فارتمى فيه يردد اسمها ويتصور أنه بترديد اسم أمه يحكي لها قصته كلها بما فيها من خوف وأسى واطمئنان!

وقالت له زبيدة في محادثة ثالثة:

ـ لا تذكر اسمي أثناء الحديث. إن تليفون جريدتكم مراقب.. وتليفوني أنا مراقب!

وسألها: من أين تتكلمين؟

قالت: من مكان ما.. في الشرق الأوسط!

وكانت زبيدة تبدو حذرة في حديثها، تقول أحياناً كلاماً لا معنى له، لكي تضلل الرقيب الذي يستمع للأحاديث التليفونية، وتتحدث عن متاعبها في المستشفى، ومن كراهية عملها كممرضة.. ثم أفهمته بنفس الطريقة أن خطواته مراقبة، وأن هناك من يتتبع خطواته..

وكان محمد يفهم كلماتها الملتوية، ويحل ألغاز كلماتها المتقطعة.. فمن طبيعة المسجون أن يغافل السجان.. وعندما يضيق الحاكم علينا الخناق نبتكر ألواناً وأشكالاً من الوسائل التي نتهرب بها من طغيانه.. فالإنسان لا يطيق أن يحرم من حريته. وقد لا يعرف قيمة الحرية إلا بعد أن تسلب منه. فإذا حرم هذه الحرية حاول بألف طريقة وطريقة أن يحصل عليها، أن يتحايل على الشيء الممنوع، أن يحفر ثقباً في الأسوار إذا لم يستطع هو أن يخرج منها، فلا أقل من أن يدخل من هذا الثقب الهواء والنور. إذا لم يتسع الثقب لكي تدخل منه الحرية كلها، فلا أقل من أن يتسع لكي تدخل منه بعض نسماتها.

وكان محمد يشعر بتعاسة بأن أحاديثه التليفونية مراقبة، وأن خطواته مراقبة، وأن مقالاته مراقبة، وأن حديقة الجبلاية مراقبة. كان يتصور وهو يمشي في الشارع أن في مصابيح النور عيوناً تراقبه، وفي أغصان الأشجار آذاناً تسمعه، وعلى الأرض ظلال أشباح تتابع خطواته.. وكان يجد لذة في أنه يهرب من مخبر البوليس الذي يمشي خلفه، فيستقل تراماً ثم يقفز منه أثناء سيره، ويحاول المخبر القفز، فيقع فوق رأسه،

وينفجر محمد بالضحك، بينما المخبر المسكين ينظف التراب الذي علق بملابسه التي تمزقت!

وكان يدخل محل شيكوريل، ولا يشتري شيئاً، وإنما يخرج من الباب الآخر، ثم يرى المخبر وهو يلهث وراءه خشية أن يضيع من رقابته. وكان يتعمد أن يسهر في «دار الضياء» بعد انتهاء ساعات عمله، كي يخرج من الجريدة والمخبر يغط في نومه..

ولم يكن محمد في ذلك الوقت يعمل شيئاً يخالف القانون، وإنما كان يتعمد أن يسخر من الظلم، ويعبث به.. فنحن إذا لم نستطع أن نقاوم الظلم بأيدينا استطعنا أن نقاومه بالهزء والزراية والاستخفاف!

وكان مع كل هذه السخرية يضيق بهذه الرقابة التي حرمته من رؤية زبيدة..

لم تعد المحادثات التليفونية تكفيه، إنه يريد أن يراها. يريد أن يمسك بيدها في يده، يريد أن يقبلها، يريد أن يقول لها أشياء كثيرة لا يستطيع أن يقولها في التليفون المراقب.

وذات يوم قال لها: يجب أن أراك.. متى أراك؟

قالت زبيدة: سأراك عندما تستقيل الوزارة.. عندما يشرق الفجر من جديد وينتهي الظلام!

قال محمد: ومتى تستقيل الوزارة!

قالت زبيدة: إن جريدتك، جريدة «الضياء» قالت اليوم إن الوزارة سوف تستقيل خلال بضعة أيام!

■ ■ ■

لم تسقط الوزارة خلال بضعة أيام كما أكّدت جريدة «الضيـاء». الذي حدث أن جريدة «الضياء» نفسها هي التي سقـطت. سقطت شهيدة في معركة الحرية. اجتمع مجلس الوزراء خلال بضعـة أيام، وأصدر قراراً بتعطيل جريدة «الضياء» تعطيلاً نهائياً، لأنها تعكر الأمن، وتثير الخواطر.. خواطر أصحاب المعالي الوزراء طبعاً!

وأقفل البوليس باب دار جريدة «الضياء» بالضبة والمفتاح، وأصبح محمد بلا عمل، وبلا تليفون، وبلا زبيدة!

وكانت حياة محمد كصحفي حياة شاقة مـريرة مفـروشة بـالشوك والآلام، فقد كانت الصحف في أيام حكومة صدقي باشا في الثلاثينات لا تموت من الشيخوخة، ولا من فقر الدم، ولا من عدم إقبال القراء، وإنما كانت تذبح في يوم مولدها.. كان توفيق دياب يصدر الجريدة في الصباح، فتغلقها الحكومة في المساء، مساء اليوم نفسه وكان عبد القادر حمزة يصدر الجريدة الجديدة في المساء، فتغلقها الحكومة في صباح اليوم التالي؟. وكانت السيدة روز اليوسف ومحمد التابعي يصـدران عدداً واحداً من مجلة فتعطل في اليوم التالي لصدورها، وفي بعض الأحيان تعطل وهي لا تزال تطبع عددها الأول في المطبعة.. وكان أحمد حافظ عوض يصدر كل يوم جريدة بدل جريدته المعطلة «كوكب الشـرق» فكانت الحكومة تصدر كل يوم قراراً بتعطيل الجريدة الجديدة!

كـان الصحفيون لا يتعبـون من إصدار صحف جـديدة، وكـان صدقي باشا لا يتعب من مصادرتها وتعطيلها.. بنفس الهمة ونفس النشاط!

وأفلس أصحاب الصحف المعارضة. وعجزوا عن دفع مرتبـات المحررين وأجور العمال.. وتضور الصحفيون جوعاً، وتشرد عمال

الصحف في الشوارع.

الصحفي يعمل يوماً ويتعطل أياماً. يأكل أسبوعاً ويموت من الجوع هو وأسرته بقية الشهر. كان الصحفيون يطردون من بيوتهم لأنهم عجزوا عن دفع إيجار بيوتهم. كانوا يضطرون لإخراج أولادهم من المدارس لأنهم لا يملكون مصاريف المدرسة. الصحفي إما جائع وإما مسجون. العمال يطبعون الجريدة، ولا يعرفون هل سوف يصادرها البوليس بعد الانتهاء من الطبع، لتتكبد الصحيفة خسارة مالية تقصم ظهرها، أم أنهم سيتركونها تظهر اليوم، ويصدرون أمراً بإغلاقها بعد صدورها بساعات!

وكان مرتب محمد خمسة عشر جنيهاً على الورق فقط؟. كانت العشرة الجنيهات التي تسلمها من توفيق دياب أول وآخر عشرة جنيهات رآها في حياته كصحفي خلال تلك الأيام.. المصادرات المستمرة، وتعطيل الصحف المتوالي، وسجن صاحب الجريدة، جعلت هذا المبلغ يتضاءل. كان يقبض المرتب أحياناً على أقساط، كل قسط لا يزيد على عشرة قروش فإذا جاء أول الشهر وتبقى له أربعة أخماس مرتبه، رحل موظف الحسابات المبلغ إلى الشهر التالي، وأعطاه عشرة قروش فقط!

وكان حظ محمد خيراً من حظوظ غيره من المحررين، كان بعضهم يتقاضى مرتبه على هيئة صحف قديمة أعيدت لإدارة الجريدة ويسمونها «المرجوع» وكان بعض المحررين يجيء بعربة كارو يحمل فوقها مرتبه من نسخ المرجوع، ويمشي أمام الحمار والعربجي، يحاول أن يبحث عن مشتر لهذه الصحف القديمة لتستعمل في عمليات اللف والتغليف!

وكان المحررون تعساء في الشتاء، سعداء في الصيف. فالصيف هو

موسم البلح الأمهات، وباعة البلح يحتاجون إلى صفحات الجرائد ليصنعوا منها القراطيس التي يبيعون فيها البلح الأمهات، وبذلك يرتفع ثمن الصحف المرتجعة. أما في الشتاء ففواكه هذا الفصل لا تحتاج لقرطاس من ورق الصحف!

جريدتان في مصر كانتا تنتظمان في دفع المرتبات، لأنهما لا تهاجمان حكومة صدقي باشا، وكانت «الأهرام» تدفع أقل المرتبات، حتى أن مرتب رئيس تحريرها داود بركات كان خمسين جنيهاً في الشهر. أما جريدة «المقطم» فكانت تعامل أغلب محرريها بطريقة جرسونات فندق الكونتيننتال فهي لا تدفع لهم مرتبات، وإنما تبيح لهم كل ما حصلوا عليه من البقشيش!

وكان أصحاب الصحف المعارضة معذورين في ارتباكهم المالي، فإنهم أبوا أن يستسلموا لبطش الحكومة، فعمدت الحكومة إلى تعجيزهم مالياً، بمصادرة صحفهم وإغلاقها، ووضعهم في السجون. .

ثم أصدر صدقي باشا قانوناً جديداً للصحافة، وفصله تفصيلاً على رؤساء تحرير الصحف المعارضة، فقد حرم على كل صحفي حكمت عليه المحكمة أن يكون رئيساً للتحرير، ولما كان كل رؤساء تحرير الصحف وأصحابها قد حوكموا أمام المحاكم في قضايا صحفية، فقد أصبح مستحيلاً أن يكون واحد منهم رئيساً للتحرير!

وتحايل أصحاب الصحف على هذا القانون الجائر، فاستأجروا رؤساء تحرير، استأجروا أشخاصاً ليست مهنتهم الصحافة، وكل ما هو مطلوب منهم أن يضعوا أسماءهم على الصحف، لتقدمهم الحكومة إلى محكمة الجنايات، ولتحبسهم. . تماماً كما يجيئون لنجوم السينما بما

يسمونه «البديل» الذي يتلقى الضربات والصفعات في الأفلام بدلاً من النجم الكبير!

■ ■ ■

وأصدر توفيق دياب جريدة «الجهاد» بدلاً من جريدة «الضياء». . وحدث أن حكمت محكمة النقض والإبرام برئاسة عبد العزيز فهمي باشا على توفيق دياب بالسجن تسعة أشهر مع الشغل لأنه انتقد بعض أعمال الحكومة. . ووضع توفيق دياب في سجن قره ميدان، وارتدى ملابس المسجونين الزرقاء، وألحق بورشة الترزية!

وحكمت محكمة الجنايات على عباس العقاد بالسجن تسعة أشهر لأنه عاب في الذات الملكية. وحكمت على محمد التابعي بالسجن ستة أشهر لأنه قذف في حق النائب العام ومأمور المعاينة لأنه نشر تفاصيل التعذيب في قرية الحصاينة، وكيف حلق المأمور شوارب الفلاحين، وجلدهم، وأرغمهم على أن يتسموا بأسماء نساء، لأنهم رفضوا استقبال صدقي باشا عندما زار القرية، وأوقفوا في طريق موكب رئيس الوزراء جميع حميرهم وثيرانهم وقد علقت في عنق كل حمار وثور لافتة مكتوب عليها «نحن نرحب بصدقي باشا»!

وذات يوم استدعى المسؤول عن تحرير «الجهاد» محمد عبدالكريم وعرض عليه أن يكون رئيساً لتحرير الجريدة. .

وذهل محمد أن يعرض عليه وهو محرر صغير مبتدىء منصب رئيس تحرير.

فقال الأستاذ حسين توفيق:

- إنك لن تقوم بمهمة رئيس التحرير. . لن تعرض عليك

المقالات.. لن تشرف على أعمال المحررين.. سيكتب اسمك في الصفحة الأولى كرئيس تحرير.. ستتقاضى ثلاثين جنيهاً كل شهر بدلاً من خمسة عشر جنيهاً.. كل المطلوب منك أن تتحمل مسؤولية ما يكتب في الجريدة..

قال محمد منفعلاً: معنى ذلك أن أكون طرطوراً!

قال الأستاذ حسين توفيق: إنك تسمي هذه الوظيفة «طرطور».. وأنا أسميها وظيفة «فدائي»!

قال محمد إنه مستعد لأن يقوم بأي عمل فدائي.. ومستعد لأن يكون رئيس تحرير بشرط أن يكون رئيساً بالفعل، لا رئيساً بالاسم فقط!

وصرفه الأستاذ حسين توفيق وهو يقول:

ـ يظهر أنك خائف من السجن!

وتضايق محمد من اتهامه بالجبن، هو الذي دخل السجن، وتحمل ضرب السياط، وأطلق الرصاص على وزير الدولة، فكتب خطاباً إلى توفيق دياب، داخل السجن، وشرح له موقفه، وتلقى منه رداً كريماً بأنه يقدر موقفه، وأنه لو كان مكانه لفعل نفس الشيء.

واستراح محمد لأنه استطاع أن يقنع صاحب الجريدة بالأسباب التي جعلته يرفض أن يكون طرطوراً!

■ ■ ■

وبعد صدور جريدة «الجهاد» بانتظام، عادت زبيدة تتصل بمحمد تليفونياً بانتظام!

وكان الأستاذ أحمد قاسم يترك الغرفة كلما دق جرس التليفون. وقال العامل أن أم محمد تريد أن تتحدث إلى الأستاذ محمد عبد الكريم!

وكانت زبيدة تصر في الحديث التليفوني على أن تطلق على نفسها اسم نجوى، وتصر على ألا يناديها محمد إلا باسم نجوى!

وعبثاً حاول محمد أن يقنعها بأن تختار اسماً آخر..

وكان حديثهما يستمر ساعة كاملة وأحياناً ساعتين.. كله حب وغزل وهوى ومناجاة وشوق ولهفة.

وذات مرة عندما اشتدت حرارة الحديث قالت زبيدة:

ـ أخشى أن يكون عامل تليفون «الجهاد» يستمع إلى حديثنا..

وفجأة سمعت زبيدة ومحمد صوت عبدالرّحمن عامل تليفون «الجهاد» يقول:

ـ العفو يا أفندم.. أنا لا يمكن أن أتسمع على حديث من أحاديث حضرات المحررين!

■■■

والتقى محمد في دار «الجهاد» بأمير الشعراء أحمد شوقي بك، فقد كان زائراً مستمراً لدار الجريدة.

وكان قد نظم بيتاً من الشعر، ليكون الشعار الذي تضعه الجريدة على صدر صفحتها الأولى وهو:

«قف دون رأيك في الحياة مجاهداً   إن الحياة عقيدة وجهاد»!

وكانت المهمة التي كلف بها توفيق دياب محرره الناشيء أن يكون

محرراً أدبياً وفنياً للجريدة . .

وفكر محمد في أن يحصل على حديث من أم كلثوم!

واتصل محمد تليفونياً بـأم كلثوم في بيتهـا عدة مـرات، فأنكـرت نفسها! وكان محمد على ثقة بأن الصوت الذي يقول إن أم كلثوم غير موجودة هو صوت أم كلثوم نفسها الذي يسمعه في الاسطوانات!

ولجأ محمد إلى أمير الشعراء أحمد شوقي يطلب إليه أن يتوسط له لتحدد له أم كلثوم موعداً . .

واتصل شوقي بأم كلثوم وحصل على موعد له في اليوم التالي .

وذهب محمد إلى عمارة بهلر، بقرب كوبري أبو العلا في الزمالك، فاستقبلته أم كلثوم وفاجأته بقولها: إنها تكره الصحافة والصحفيين . . ولولا وساطة شوقي بك لما استقبلته في دارها . . وأن صحفياً واحداً لم يدخل دارها، ولن يدخلها!

وذهل محمد لهذا الاستقبال السيىء، وسألها عن السبب، فقالت أم كلثوم :

ـ عندما جئت من قريتي طماي الزهايرة في السنبلاوين إلى القاهرة وبدأت أشتهر فوجئت بمجلة مسرحية تلصق بي تهمة جائرة!

وبكيت عندما قرأت الخبر الكاذب كما لم أبك طوال الحياة . . ولكني بكيت أكثر عندما جاء أبي يحمل نسخة من المجلة التي نشرت الخبر، ويقول إن القاهرة مدينة لا تصلح للفقراء الشرفاء . . وأنه يجب أن نعود فوراً إلى قريتنا في طماي الزهايرة . . وركعت أمامه أبكي وأقبل يديه وأرجوه أن يعدل عن قراره، ولكنه تمسك به . ولولا أن أمين المهدي بك

والشيخ أبو العلا الملحن المعروف أقنعاه بأن هذه التهمة الظالمة أحقر من أن تقف في طريق مستقبلي، لكنت الآن في قريتي طماي الزهايرة . . ولما كانت هناك أم كلثوم . . ثم علمت بعد ذلك أن كبيرة المطربات في ذلك الوقت السيدة منيرة المهدية ارتدت ملاية لف، وجاءت تسمع غنائي، وأنها قالت لصاحب المجلة الذي كان يحبها إن هذه الفتاة الصغيرة تحاول أن تحتل مكاني كسلطانة الطرب . . وقال صاحب المجلة إنه سينشر عني خبراً كاذباً، يسحقني، ولا تقوم لي بعد ذلك قائمة . . وهكذا نشر الخبر الكاذب!

واستطردت أم كلثوم :

ـ وبقيت أعمل وأجاهد وأشقى وأتعب، وأتعلم وأدرس حتى أصبحت المطربة الأولى في مصر، وفي سنة ١٩٢٦ أقامت مجلة أخرى مسابقة عن أعظم مطربة في مصر . .

ونشرت المجلة النتيجة وقالت إن المطربة الأولى التي نالت أغلبية الأصوات هي فتحية أحمد، وأن المطربة الثانية هي منيرة المهدية، وأن المطربة الثالثة والأخيرة في عدد الأصوات هي أم كلثوم.

ولم أغضب من هذه النتيجة، وقلت لنفسي إنه يجب أن أهتم بتطوير صوتي وغنائي، لأصبح الأولى في يوم من الأيام . . المهم هو ألا أبقى في الدرجة الثالثة!

وبعد ذلك فوجئت برئيس تحرير هذه المجلة يقول لي إن حقيقة ما حدث هو أن صديقاً لفتحية أحمد، وهو محرر بنفس المجلة، جاء بمئات الأوراق وكتب فيها أن فتحية أحمد هي المطربة الأولى، وضمها إلى خطابات القراء.

وبدأ الفرز . .

وفوجىء المحررون أنـه برغم هـذه الأصوات التي أضيفت زوراً لفتحية أحمد، فقد كانت أم كلثوم هي صاحبة أعلى الأصوات. .

وهنا بدأ المحررون يزوِّرون في النتيجة ويحذفـون عدداً كبيـراً من الأصوات التي نلتها. . وهكذا أصبحت فتحية أحمد هي الأولى، ومنيرة المهدية الثانية، وأم كلثوم الثالثة.

وسكتت أم كلثوم ثم قالت:

ـ ألست معذورة في أن أكره الصحافة والصحفيين؟

قال محمد:

ـ وهل يبرر خطأ مجلتين أن تحكمي هذا الحكم القاسي عـلى كل الصحف والمجـلات في مصر؟ إن الجريمتـين لم يرتكبهـما الصحفيان وحدهما. . إنك باعترافك قلت إن منيرة المهدية شاركت في الجـريمة الأولى، وفتحية أحمد شاركت في الجريمة الثانية، وهذا ما جعلني أكره منيرة المهدية وفتحية أحمد. . ولكن هل هذا يبرر أن أكرهك أنت أيضاً لأنك مطربة مثلهما؟ .

وضحكت أم كلثوم وقالت:

ـ غلبتني. . سأعطيك الحديث الذي تريده!

وكتب محمد حديث أم كلثـوم بطريقـة أعجبتها. . إنها تكـره أن يتحدث الكاتب عن شخصها. تريد منه أن يكتب عن فنها. تتضايق أن يسألها الصحفي عن رأيها في الحب، فهي تبدي هذا الرأي في كل أغنية تغنيها. وصوتها يصور الحب أبلغ مما تصوره الكلمات. وتمقت أن يسألها الصحفي متى تتزوج لأنها تسأل نفسها هذا السؤال، وتأبى أن تتحدث عن حياتها الشخصية، فهي لا تزال الفلاحة التي خرجت من

قرية طماي الزهايرة، بكل حيائها وخجلها وخوفها من كلام الناس!

ونجح حديث محمد مع أم كلثوم. وطلبت إدارة الجريدة منه أن يكتب سلسلة من الأحاديث مع أعظم ممثلات مصر..

وبدأ محمد يتردد على بيوت الممثلات. والتقى بزينب صدقي التي أعجبت بها زبيدة في دور «ليلى» في مسرحية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقي. ولاحظ أن صالونها يجمع الأدباء والصحفيين والشعراء. هذه المرأة الفاتنة الشقراء ذوّاقة في الشعر، سيدة من سيدات النكتة، تعيش صفحات كثيرة من المجلات المسرحية على قفشاتها ونوادرها. وهي تبدو في صالونها صاحبة جلالة فعلاً، حتى يطرق الباب، وعندئذ تتحول الملكة إلى امرأة مذعورة، وتخرج جميع رعاياها من باب الخدم، قبل أن تفتح الباب للصحفي الكبير الذي كانت تحبه والذي كان يغار من كل الأدباء وكل الصحفيين وكل الشعراء، وكل الشعب المصري الكريم!

وتعرف محمد بفاطمة رشدي كبيرة ممثلات مصر في تلك الأيام. كانت تمثل الحب ولا تعرف الحب. تجيد التقبيل على المسرح ولا تطيق القبلات في الحياة. تثير المتفرجين على روايتها وكأنها ملكة من ملكات الأغراء، فإذا جلست مع رجل في غرفة مقفلة بالمفتاح، وقفت فوق الفراش تلقي خطاباً رائعاً عن حبها لفن التمثيل.. وكانت فاطمة رشدي تتحدث دائماً كأنها زعيمة، وتتصرف كأنها زعيمة، وكانت زعيمة حقاً، كان الطلبة يعشقونها، فإذا رأوها في مكان حملوها على الأعناق، وهتفوا بحياتها كأنها زعيمة أحد الأحزاب السياسية الكبرى!

والتقى محمد عدة مرات بعزيزة أمير، وكانت صاحبة أول فيلم مصري في تاريخ مصر. كانت مجنونة بالسينما. وكانت في الوقت نفسه

امرأة رائعة الجمال، خمرية اللون، لها عينان واسعتان كعيني البقر الوحشي، فيهما سحر وجاذبية وإغراء، في صوتها نغمة مثيرة تذيب الجليد، وتحول العجائز إلى مراهقين!

وثارت زبيدة على اتصال محمد بالمطربات والممثلات. . كان يخبرها بكل لقاء. . كان يروي لها تفاصيل كل حديث. . ولكنها لم تكن تحتمل أن تسمع أنه يقابل امرأة ولا يقابلها. ما دامت لا تستطيع أن تقابله فليس من حقه أن يقابل امرأة أخرى. . كانت تخاف أن تخطفه كل امرأة، فما بالك بالممثلات الخبيرات في الهوى والغرام. . كل نجمة يقابلها تستطيع أن تعطيه أكثر من الحديث التليفوني. . يكفي أنها تجلس بجواره، يكفي أنها تتزين له، يكفي أنه يشم عطرها، يكفي أنه يشعر بأنفاسها، بينما كل ما تستطيع أن تعطيه زبيدة لمحمد هو صوتها، صوتها في التليفون!

وحرمت زبيدة على محمد أن يتصل بأي فنانة إلا بالتليفون!

واستثنت من قرار التحريم أم كلثوم وحدها لأنها تحبها وتحترمها وتثق بها. ودعاه الشاعر أحمد شوقي لتمضية السهرة في بيته على شاطىء النيل وكان يسمى «كرمة ابن هانىء».

وفي تلك السهرة غنت أم كلثوم أغنية:

اللي حبك . . يا هناه!
يا نعيمه. . يا شقاه

وهي من نظم أحمد رامي وتلحين زكريا أحمد. .

وكان طوال الغناء يفكر في زبيدة، وكأن أم كلثوم تصف سعادته

معها، وعذابه بحرمانه من لقائها . .

■ ■ ■

وبعد هذه الوصلة رأى محمد الشاعر أحمد شوقي يأخذ أم كلثوم إلى جهة أخرى.

وفجأة سمع صوت أم كلثوم تقول بغضب:

ـ لا . . مستحيل. . لا يمكن أبداً!

وسمع شوقي يقول في صوت متوسل:

ـ أرجوك. . أتوسل إليك!

وزاد غضب أم كلثوم وقالت:

ـ إنك تهينني في بيتك!

ثم رأى أم كلثوم سائرة وهي ترتعش، والشاعر شوقي بك يعدو خلفها يطيب خاطرها، وهي ماضية في طريقها لا تلتفت إليه!

ولعبت الظنون برأس محمد. ماذا حدث بين أكبر شاعر في البلاد العربية، وأكبر مطربة في البلاد العربية؟ ما هي الكلمة التي قالها أمير الشعراء وأغضبت كوكب الشرق؟ .

وأطل الصحفي فيه برأسه، وأسرع إلى أم كلثوم يسألها عما حدث بينها وبين شوقي بك. .

وقالت أم كلثوم: أراد شوقي بك أن يعطيني مظروفاً به نقود أجراً على أني غنيت في بيته. . إنني جئت إلى هنا باعتباري صديقة لا مطربة. وهو أهانني بهذا المبلغ الذي عرضه علي!

وانضم شوقي إليهما، وعاد يكرر أسفه واعتذاره، وأنه لم يقصد أن يعطيها المبلغ، إنما هو أجر رجال التخت. .

وأصرت أم كلثوم على أن تدفع أجر التخت من جيبها. .

ثم هدأت أم كلثوم، وراحت تغني من جديد. .

وما كادت تبدأ بالغناء حتى نسيت ما حدث واندمجت تشدو و«تتسلطن» وتزيد وتعيد، وكأنها تغني لنفسها، ولا تشعر بكل الموجودين في سهرة شوقي . . كانت تغني أغنية من تأليف بديع خيري، وتلحين زكريا أحمد يقول مطلعها:

هوه ده يخلص من الله
القوي يذل الضعيف؟

وكان محمد يجلس في آخر مقعد من الصالة تحت السلم المؤدي للدور العلوي، كان يجلس وراء صفوف من الكبراء والأدباء. وجاء أحمد شوقي بك وفي يده كأس من الويسكي، وجلس إلى جوار محمد، ثم أخرج علبة سجائره، وقلماً صغيراً، وكتب بضع كلمات على علبة السجائر، ثم اندمج في الغناء، وشرب جرعة من الويسكي وعاد يكتب كلمات أخرى. .

ثم وضع شوقي علبة سجائره في جيبه، وراح يتابع أم كلثوم بعينيه وأذنيه، وفم السيجارة في يده اليسرى، وكأس الويسكي في يده اليمنى. .

ولم يعرف محمد ماذا كان يكتب شوقي . .

وبعد ظهر اليوم التالي كان محمد يزور أم كلثوم في بيتها، وأثار ما حدث بينها وبين شوقي في الليلة السابقة. .

وضحكت أم كلثوم وقالت:

ـ لقد حدثت اليوم خناقة أخرى بيني وبين شوقي بك.. لقد جاءني في بيتي وفوجئت به يقدم مظروفاً مقفلاً.. وثرت في شوقي بك وقلت له:

ـ أما كفاك أن تهينني أمس في بيتك.. حتى تأتي اليوم لتهينني في بيتي؟

وابتسم شوقي وقال:

ـ قبل أن تغضبي افتحي المظروف وشاهدي ما فيه!

قلت له غاضبة:

ـ سأمزق المظروف دون أن أرى ما فيه.

وقال لي متوسلاً:

ـ أرجوك.. ليس في المظروف نقود هذه المرة.

وفتحت المظروف فإذا فيه قصيدة بخطه..

وقال لي شوقي بك ويده ترتعش:

ـ إن هذا هو وصفي لك وأنت تغنين أمس!

وناولت أم كلثوم القصيدة لمحمد..

وقرأ محمد:

سلوا كؤوس الطلى هل لامست فاها

وهذه القصيدة يشبه فيها شوقي صوت أم كلثوم بمزامير داوود! وأعجبه قوله عنها:

حمامة الأيك من السجو طارحها من وراء الدجى بالشوق ناجاها
بانت على الروض تسقيني صافيةً لا للسلاف ولا للورد رياها!

وسألها محمد:

ـ لماذا لا تغنين هذه القصيدة؟

قالت أم كلثوم:

ـ هل أنت مجنون؟ كيف أغنيها؟ وهذا رأي شخصي لشوقي فيّ كمطربة!

وضحك محمد:

ـ ترى، كم كان المبلغ الذي وضعه شوقي لك في المظروف الأول؟

قالت أم كلثوم:

ـ لا أعرف ولكن، لو كان وضع في المظروف مليوناً من الجنيهات، لما أسعدني مثل ما أسعدتني هذه القصيدة!

■ ■ ■

وما كاد محمد يعود إلى دار جريدة «الجهاد»، وبعد زيارته لأم كلثوم، حتى سمع صوت زبيدة تقول له في اهتمام:

ـ إطلعت على تقرير سري هام عن سهرتك أمس بمنزل أمير الشعراء أحمد شوقي.. التقرير يقول إنك كنت ترتدي بذلة سوداء، وكرافتة رمادية، وحذاء أسود، وجورباً رمادياً!

قال محمد ضاحكاً:

ـ أنت تعرفين أن هذه هي بذلتي الوحيدة بعد أن ذابت البذلة البنية القديمة!

قالت زبيدة:

- ويقول التقرير إن أم كلثوم غنّت في الوصلة الأولى أغنية: «اللي حبك.. يا هناه»!

قال محمد ساخراً:

- من الطبيعي أن تغني أم كلثوم في السهرة هذه الأغنية فهي أغنيتها الأولى.

قالت زبيدة:

- ويقول التقرير إنك وقفت مع أم كلثوم تتحدث بعد الوصلة الأولى، ثم انضم إليكما شوقي بك، وإنك كنت تجلس تحت السلم في الصف الأخير وكان يجلس بجوارك شوقي بك.

قال محمد في دهشة:

- هذا صحيح. يظهر أنني أصبحت شخصية هامة جداً حتى يهتم البوليس بكل تحركاتي في سهرة شوقي بك.

قالت زبيدة:

- ويقول التقرير إن دمك كان ثقيلاً جداً!

قال محمد في استغراب:

وما علاقة الأمن العام بدمي الثقيل أو الخفيف؟.. هل قلت نكتة لم تعجب كاتب التقرير؟.. كيف عرف كاتب التقرير أن دمي كان ثقيلاً؟

قالت زبيدة:

- يقول التقرير إن الدليل على أن دمك ثقيل أنك كنت طوال الوقت

جالساً تحت السلم تنظر إلى أم كلثوم. . ولم تتطلع إلى اليمين أو اليسار، أو إلى تحت أو إلى فوق!

قال محمد:

ـ ولماذا أنظر إلى فوق!

قالت زبيدة وهي تضحك:

ـ لأنني كنت فوق. . كنت طوال السهرة واقفة في أعلى السلم أرقبك وأنت تسمع أم كلثوم!

قال محمد:

ـ وكيف ذهبت إلى بيت شوقي بك

قالت زبيدة:

ـ عندما قلت لي إن شوقي بك دعاك لتسمع أم كلثوم، جعلت صديقتي خديجة العلايلي حفيدة شوقي بك تدعوني إلى السهرة. . وكان هناك الكثير من السيدات اللواتي استمعن إلى صوت أم كلثوم من الطابق العلوي. . أما أنا فقد سمعتها في عينيك. . كأنني أسمع أم كلثوم لأول مرة في حياتي. شعرت وكأنها تغني لك ولي وحدنا، تغني لحبنا وشقائنا، تغني لجنتنا وجحيمنا، لهنائنا وعذابنا. شعرت في بعض اللحظات برغبة عجيبة في أن أهبط درجات السلم عدواً، وأعانقك وأقبلك. شعرت بأن قبلة من شفتيك تساوي الفضيحة. . بأن ضمة بين ذراعيك تساوي الطلاق!

قال محمد فزعاً:

ـ هل جننت؟

قالت زبيدة:

ـ ليس الذنب ذنبي . إن صوت صديقتك أم كلثوم هو الذي فعل بي كل هذا. كانت نبرات صوتها تحملني إليك وتضعني بين ذراعيك . . أمس قالت أم كلثوم كل ما أريد أن أقوله لك . . ما خجلت أن أقوله لك همساً، قالته أم كلثوم بصوت عال. قالتـه بنفس النغمة، بنفس الحرارة، بنفس الفرحة، بنفس اللوعة. ولقد صعدت أم كلثوم قبل السهرة إلى الدور العلوي، وصافحت السيدات الموجودات، وعندما رأتني قالت لي: ماذا حدث لك؟ إنك الآن أجمل مما رأيتك في آخر مرة. لا بد أنك عاشقة!

واحمر وجهي، ولم أعرف ماذا أقول لهـا، وتصورت في لحـظة من اللحظات أنك عندما زرتها في بيتها اعترفت لها بـأنك تحبني وبـأنني أحبك. إنها قالت لي كلمة «عاشقة» برنين عجيب فيه ثقة وفيه يقين. . وقد قابلت أم كلثوم قبل ذلك في مناسبات مختلفة، ولم يحدث مرة أن تكلمت معي بهذا الأسلوب الغريب!

وكدت أفقد سيطرتي على لساني، وأقول لها: نعم أنا أحب صديقك محمد عبد الكريم، ولكنني خشيت أن تغضب، فأمسكت لساني!

ثم سألتني عن أي أغنية أريد أن أسمعها الليلة؟

فقلت لها:

ـ «اللي حبك يا هناه»!

فقالت وهي تضحك:

ـ اللي حبك أنت. . وقعته سودا!

قال محمد ضاحكاً:

ـ عجباً. . يحدث كل هذا فوق رأسي ودون أن أشعر به. . الغريب

اني وأنا أسمع أم كلثوم الليلة الماضية شعرت أيضاً أنها تغني لي ولك، فأصدرت قراراً . .

قالت زبيدة:

ـ أرجوك ألا تصدر قرارك . . تذكر القرار الـذي أصدرتـه مرة، فانقطعت بعد ذلك عن لقائك!

قال محمد:

ـ لا . . إنه قرار جديد . . قررت أنه لا بد أن أراك . . لم أعد أطيق هذا الحرمان!

قالت زبيدة:

ـ وفي أي وصلة . . أصدرت هذا القرار؟

قال محمد:

ـ في الوصلة الثانية . . عندما كانت أم كلثوم تغني أغنية «هـو ده يخلص من الله . . القوي يذل الضعيف»!

قالت زبيدة:

ـ أما أنا فأصدرت نفس القرار في الوصلة الأولى عندما كانت أم كلثوم تكرر كلمة «يا . . شقاه»!

قال محمد فرحاً:

ـ أين سأراك؟

قالت زبيدة:

ـ في البيت . .

قال محمد مستفسراً:

ـ في أي بيت؟ بيتي أنا؟

قالت زبيدة في تصميم:

ـ لا .. في بيتي أنا!

وأذهلت إجابتها محمد، وتذكر سلم الحبال الذي أعاده إلى الأستاذ محمد عبد الصمد.. وقال في دهشة مكرراً كلماتها:

ـ في بيتك أنت؟

قالت زبيدة:

ـ نعم في بيتي أنا!

وأسرعت زبيدة تضع سماعة التليفون..

وبقي محمد، وسماعة التليفون في يده، مذهولاً، وقد قفزت إلى سمعه كلمات أم كلثوم لها: «اللي حبك يا زبيدة.. وقعته سودا»..

تركت زبيدة حبيبها محمد مشدوهاً بعد أن أخبرته بأنها سوف تستقبله في بيتها، بيت حضرة صاحب المعالي عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية، الذي يقوم على حراسته ثلاثة من جنود حرس الوزارات، في الليل والنهار..

لم تستطع أن تروي له تفاصيل الخطة التي وضعتها، لأنها قصة طويلة، لا يجوز، أن تروى في تليفون يراقبه رقيب من وزارة الداخلية، ويستمع إليه عبد الرحمن عامل التليفون في جريدة «الجهاد»!

وتمنت زبيدة لو أنها استطاعت أن تقص عليه هذه القصة، ليعرف ماذا تستطيع أن تفعل المرأة إذا أحبت!

كانت زبيدة قد عادت من سماع أم كلثوم في سهرة شوقي بك، سكرى. . أسكرها أنها كانت مع محمد ثلاث ساعات في مكان واحد، بينه وبينها أربعة أمتار. ولكنها شعرت طوال هذا الوقت كأنها بين أحضانه. لم تحدثه بكلمة واحدة، ولكن أم كلثوم غنت له كل ما أرادت أن تهمس به في أذنه. لم ترَ في تلك الليلة بين الرجال العديدين الذين كانوا في السهرة سوى رجل واحد هو محمد. تحولوا جميعاً إلى أشباح كخلفية لصورته وحده!

كانت سعيدة جداً بعد تلك السهرة. كانت تريد أن ترقص، أن تغني، أن توقظ أهل القاهرة جميعاً من نومهم لتحدثهم عن سعادتها. . لقد رأت محمداً قبل ذلك عشرات المرات، جلست بجواره، أمسكت بيده، قبّلته. ولكنها كانت لقاءات خاطفة. ولكن هذه الليلة مكثت معه ثلاث ساعات. . بعد فراق مرير وحرمان طويل. كانت سعيدة أن ترى في عينيه حبها وهو يستمع إلى أغاني الحب، أن تراه ولا يراها، أن تشهد انفعالات وجهه وهو ينبسط حينما تتحدث أم كلثوم عن هناء الحب، وهو يتجهم عندما تغني عن عذاب الهوى وهوانه وجحيم الفراق فيه. . كأن محمداً كان يكلمها طوال هذه الساعات الثلاث!

■ ■ ■

وعندما جاءت خادمتها سنية في هذه الساعة المبكرة من الصباح، لتساعدها على خلع ملابسها قبل أن تنام أحست برغبة غريبة في أن تقبل خادمتها وصديقتها سنية. . كأنها تقبل وتعانق فيها الدنيا كلها!

وحاولت زبيدة أن تتحكم في لسانها أمام خادمتها، ولكنها كانت سكرى بهذا اللقاء المثير فقالت لسنية في تردد:

ـ عندي سر أريد أن أقوله لك يا سنية. . إنني لم أأتمن مخلوقاً على هذا

السر سواك!

قالت سنية بغير مبالاة:

ـ أنا أعرف هذا السر. . قبل أن تقوليه!

قالت زبيدة باسمة:

ـ لا يمكن أن يخطر السر على بالك!

قالت سنية بهدوء:

ـ أنا أعرف هذا السر الذي تريدين أن تبوحي به. . إنك تريدين أن تقولي لي إنك تحبين رجلاً!

قالت زبيدة مذعورة:

ـ كيف عرفت هذا؟

قالت سنية وهي تعانقها وتقبلها:

ـ قرأته في عينيك. . صحيح أنني لا أعرف القّراءة ولا الكتابة، ولكنني قرأته واضحاً في عينيك منذ شهور. . إن هذا شيء يراه الأعمى، وإنني في دهشة من أن الباشا لم يره أيضاً.

وبهتت زبيدة. . أم كلثوم قالت إنها قرأت في عينيها أنها عاشقة. . وخادمتها سنية قرأت في عينيها أنها تحب رجلاً. . كأنها هي النعامة التي تدفن رأسها في الرمال، وتتصور أن الصياد لا يراها. .

وعادت زبيدة تسأل خادمتها سنية:

ـ ومنذ متى عرفت أنني أحب؟

قالت سنية:

ـ منذ وقت طويل.. عندما رأيتك فجأة تتأنقين في زينتك على غير عادتك.. تهتمين بأن تعطري كل جزء من أجزاء جسمك قبل أن تخرجي يوم الأربعاء.. عندما أرى اللهفة في عينيك وأنت خارجة من البيت، والهناء في عينيك وأنت عائدة إليه. منذ تغيرت معاملتك لخدمك، لي، للباشا نفسه.. اختفت النظرة القاسية المتحرجة من عينيك، وأصبحت نظرة حلوة ناعمة كأنك أصبحت تحبين الناس جميعاً، كأنك أصبحت تحبين الحياة كلها بعد أن كنت تمقتين هذه الحياة. وعرفت أنك تتعذبين بالحب عندما رأيتك أثناء أزمتك العصبية وسخرت بيني وبين نفسي عندما قال الطبيب الانجليزي إنك تبكين لأن مدرس الحساب ضربك منذ خمس عشرة سنة. إن شعوري كإمرأة إن ما كنت تشعرين به هو ألم جرح جديد لا بقايا جرح قديم. وتظاهرت بأنني أصدقك عندما قلت لي إنك تريدين ملاءة لف لتذهبي للشيخ محمد ليكتب لك حجاباً ضد العفريت الذي يركبك.. لقد كنت واثقة أن الشيخ محمد هذا هو الرجل الذي تحبين. وعندما عدت من زيارتك رأيت في عينيك حسرة وفهمت أنك لم تجدي الشيخ محمداً.. وزاد يقيني أن الشيخ محمداً هو هذا العفريت الذي يركبك!

كانت زبيدة تستمع إلى حديث خادمتها سنية مشدوهة، إنها تعرفها منذ عشرين عاماً، عندما كانتا تلعبان في حارتها في حي الحسين. لم يخطر لها يوماً أن صديقتها القديمة التي أصبحت خادمتها، بهذا الذكاء. إنها لم تذهب إلى مدرسة.

قالت زبيدة لها:

ـ أين تعلمت كل هذه الدروس في الحب!

قالت سنية وهي تتنهد:

ـ تعلمتها من الحب. . لقد أحببت جارنا في الحسينية الأسطى كامل، وعرفت مرارة الحب وحلاوته. حاربني أهلي، فهربت وتزوجته وبعد أن رزقت منه ببنت وولد مات فجأة ورفضت أن أتزوج. وقد سألتني أنت عشرات المرات لماذا لم أتزوج فكنت أجيبك «القسمة والنصيب». ولكن الواقع أنني لم أتزوج لأنني لا أستطيع أن أتزوج رجلين في وقت واحد. إنني ما زلت إلى اليوم أشعر بأن الأسطى كامل على قيد الحياة. كل ليلة عندما أقفل باب غرفتي في البدروم أشعر كأنه بين أحضاني. . أتحدث إليه، ويتحدث إلي . أقبله ويقبلني. . أعانقه ويعانقني. . يحدث بيننا كل ما يحدث بين رجل وامرأة! بل إنني أحياناً أتصور أنني حملت منه. . حملت من رجل ميت! وأشعر بالقيء أثناء شعور الوحم. . إنني أجد راحة غريبة في أن أحب رجلاً ميتاً، لأنني واثقة أنه لن يستطيع أن يخونني!

قالت زبيدة:

ـ إنني أريد أن ألتقي بالشيخ محمد ولا أعرف كيف ألتقي به. أشعر أنني مراقبة. وأعتقد أنه هو مراقب كذلك. . لقد فكّرت في أن ألتقي به في الغرفة التي يقيم فيها أولادك وأخوتك في شارع مفرش الحمص!

قالت سنية وهي تبتسم:

ـ إنني فكرت في هذا أيضاً. . ولكن عيب غرفتي، أن سواق الباشا يقيم في نفس الشارع، وأخشى أن يراك خارجة أو داخلة إلى هناك. .

وتذكرت ما قاله لي مرة الأسطى كامل إن خير مكان يختبىء فيه الهارب من البوليس هو غرفة فوق قسم البوليس!

قالت زبيدة وهي لا تصدق أذنيها:

ـ أتريدين أن أقابله في غرفة فوق قسم البوليس؟

قالت سنية وهي تربت على خدها في حنان:

ـ لا . . تقابلينه هنا. . هنا في هذا البيت. . الذي يحرسه ثلاثة من جنود حرس الوزارات!

■■■

ودخلت زبيدة إلى مكتب زوجها في الدور العلوي من البيت، ساخطة غاضبة وهي تصيح:

ـ إن هذه حياة لا تطاق، إن هؤلاء الخدم سيجعلونني أصاب بالجنون! إنني أشعر أن الأزمة التي نجوت منها ستعود من جديد!

ورفع عوني باشا رأسه من الملفات العديدة التي كان غارقاً فيها، وقال في امتعاض:

ـ ماذا حدث؟

قالت زبيدة والدموع في عينيها:

ـ سنية الخادمة تريد أن تتحكم فينا. . تريد أن تغير إجازتها من يوم الجمعة في كل أسبوع ليوم الأربعاء. . قلت لها إن يوم الأربعاء هو يوم إجازة جميع الخدم الرجال، لأن في هذا اليوم لا يتغدى الباشا في البيت، ويتغدى مع الوزراء على مائدة صدقي باشا في نادي محمد علي، وبعد ذلك يسافر الباشا إلى عزبته في بني سويف ليتفقد الأرض ويعود في المساء، ويجب أن يكون أحد من الخدم في البيت في هذا اليوم، ورفضت كل هذه الأسباب الوجيهة وأصرت على أن تكون إجازتها يوم الأربعاء، لأن شقيقها يعمل عاملاً في مصنع السكر في الحوامدية

وأصبحت إجازته يوم الأربعاء بدلاً من يوم الجمعة، وهو يجيء كل أسبوع لمقابلتها لمدة ساعة، ولا تستطيع أن تتحمل الحرمان من رؤيته.

وصاح عوني باشا غاضباً:

ـ ما هذا الكلام الفارغ؟. هل أنا فاضي لمشاكل الخدم؟ أنا مشغول في مشاكل الدولة!

قالت زبيدة وقد أرخت عينيها متظاهرة بالخجل:

ـ إنني أعرف مشاغلك الضخمة وأعمالك الكثيرة، ولكني حاولت أن أبعد هذه المشكلة عنك.. وبعد أن عجزت مدة أسبوع كامل عن التفاهم مع عقل سنية الذي يشبه الصخر، اضطررت أن ألجأ إليك.

وأمر عوني باشا باستدعاء سنية، وهو ينفخ ويلعن الخدم، ووقاحتهم وقلة أدبهم.. وبقي الباشا فترة ينفخ في عصبية واستياء لاقتحام محرابه بهذه السفاسف!

وجاءت سنية تتعثر في خطواتها.

وأراد عوني باشا أن يتفاهم مع سنية كي تقبل أن تكون إجازتها يوم الجمعة كما هي، وإذا بسنية تقول له وقد وضعت على وجهها ستاراً زائفاً من السذاجة.

ـ لماذا لا تطلب من صدقي باشا أن يغير موعد مأدبته الأسبوعية من يوم الأربعاء إلى يوم الجمعة!

وصرخ فيها عوني باشا وقد فقد أعصابه:

ـ هل جننت؟ تريدين أن أطلب من رئيس الوزراء تغيير موعد المأدبة

الأسبوعية للوزراء من أجل شقيقك الصعلوك العامل في مصنع الحوامدية! إن السموم التي تذيعها المعارضة عن المساواة أفسدت عقولكم!

قالت سنية في إصرار وعناد:

ـ لا يمكن أن يجيء أخي يوم الأربعاء ولا أراه!

قال عوني باشا وكأنه وجد حلاً لمشكلة عويصة:

ـ يمكنه أن يجيء ويراك هنا.. ولا داعي لحصولك على إجازة!

قالت سنية بنفس السذاجة:

ـ وأين أستقبله؟

قال عوني باشا بغضب وكأنه يتحدث مع أغبى امرأة رآها في حياته:

ـ تقابلينه في غرفتك بالبدروم طبعاً.. هل تريدين أن تقابليه في الصالون؟.

وتظاهرت سنية أنها وافقت على هذا الحل، من أجل خاطر معالي الباشا، لأن كلمته على الرأس والعين!

وسرّ الباشا بنجاحه الرائع وقال لزبيدة، والخادمة سنية تخرج من الباب تجفف دموعها:

ـ أرأيت؟! مشكلة حيّرتك أسبوعاً كاملاً أمكنني أن أحلها في دقيقة واحدة! ومع ذلك فغرور المرأة يجعلها تتوهم أنها أذكى من الرجل، حتى بلغت السخافة بهدى هانم شعراوي أن تطالب للمرأة المصرية بحق الانتخاب!

وأحنت زبيدة رأسها، متظاهرة بالخجل الشديد، لغباء النساء المصريات، وذكاء أصحاب المعالي الوزراء!

■ ■ ■

وأصدر عوني باشا أمراً إلى جنود حرس الوزارات الذين يتولون حراسته أن يسمحوا لشقيق الخادمة سنية، بالدخول عندما يحضر لزيارتها كل يوم أربعاء . .

وحرص عندما أصدر هذا الأمر على أن يقول إن شقيق سنية لا يدخل من الباب الكبير، بل يدخل من الباب الخلفي . . باب الخدم!

وعانقت زبيدة خادمتها سنية فرحاً بهذا القرار الخطير!

لقد استطاعتا أن تلعبا بالوزير الخطير، وتحركاه بأصابعهما، وتجعلاه يصدر نفس القرار الذي وضعتاه من قبل!

وهكذا سيدخل محمد البيت بأمر رسمي أصدره حضرة صاحب المعالي وزير الدولة في وزارة الداخلية!

وبقيت مشكلة!

ماذا سيفعل محمد بالمخبر الذي يمشي وراءه، ويتتبع خطواته، ويكتب تقارير يومية عن تحركاته ويرفعها إلى إدارة الأمن العام؟

وحارت زبيدة وسنية كيف تجدان حلًّا لهذا المشكلة العويصة!

فكرت زبيدة في أن يرتدي محمد جلابية بلدي، ويغافل المخبر، ويستقل سيارة تاكسي!

كانت زبيدة تعلم من أحاديث زوجها عن المخبرين أنه ليس من

حقهم في تلك الأيام، أن يستقلوا السيارات، بسبب ضعف ميزانية الأمن العام . . كل المسموح به أن يركبوا الترام!

وفكرت زبيدة في أن يذهب محمد إلى محطة القاهرة، ويشتري تذكرة في القطار المسافر إلى الاسكندرية، ويغادره عند محطة بنها، ويعود إلى القاهرة. إن كل ما سيفعله المخبر في هذه الحالة أن يعود إلى إدارة الأمن العام ويخطرها بسفر الرجل الذي يراقبه. إن مهمة كل مخبر تنتهي عند حدود المدينة. وفي هذه الحالة تتصل إدارة الأمن العام، إذا كان المراقب له أهمية خاصة، بمحافظة الاسكندرية، لتكلف أحد مراقبيها بتتبع الشخصية موضع المراقبة ابتداء من محطة الاسكندرية!

ولكن ماذا يحدث لو أن المخبر كانت لديه تعليمات بأن محمد شخصية خطرة، وأن عليه أن يتتبعه إلى أي مكان؟ . .

إنها لا تستطيع أن تترك أي شيء للصدفة!

وبقيت المشكلة بلا حل إلى أن تولى معالي عوني باشا حافظ حلها بنفسه!

■ ■ ■

كانت زبيدة قد انتهزت فرصة نشر خبر في الصحف عن محاكمة محمد علي الغلال المتهم بإلقاء قنبلة على شيخ الأزهر. .

وأمسكت الجريدة في يدها، وقالت لعوني باشا:

ـ هل تعتقد أن المحكمة ستحكم على هذا المجرم؟

قال عوني باشا في فخر واعتزاز:

ـ طبعاً سيحكم عليه بالأشغال الشاقة على أقل تقدير؟ . . إن لدينا

اعترافات كاملة بخط محمد علي الغلال، وبتوقيعه. ولا يمكن أن ينكر هذه الاعترافات أبداً. . ولن يفلت منا كما أفلت عزيز ميرهم وتوفيق دياب!

قالت زبيدة، وهي تتظاهر باللامبالاة:

ـ على فكرة، ماذا حدث للمجرم الصعلوك الآخر. . الذي اعتقدت في وقت من الأوقات أنه هو الذي ألقى القنبلة على شيخ الأزهر؟

قال عوني باشا وهو يبذل مجهوداً ليتذكر اسم محمد عبد الكريم، فإن الذي يضرب بالسياط ينسى غالباً أسماء الذين جلدهم. . ولكن المجلود وحده هو الذي لا ينسى أبداً أسماء جلّاديه:

ـ نعم. . اسمه محمد. . محمد.

قالت زبيدة وكأنها تعاونه في البحث عن الاسم الضائع من ذاكرته:

ـ محمد عبده؟

قال عوني باشا وهو يحاول أن ينفض التراب عن ذاكرته:

ـ لا. . ليس اسمه محمد عبده. . إنما اسمه محمد حنفي. . أو محمد كرم. . أو أي شيء من هذا القبيل. إنني من كثرة هؤلاء المجرمين لم أعد أذكر أسماءهم! الذي أذكره أننا عرفنا أن نؤدب هذا الشاب المعتوه؟. منذ العلقة التي نالها في سجن الأجانب أصبح يمشي بجوار الحائط. وكنت وضعت رقابة عليه، وإذا به لا عمل له إلا التردد على المطربات والممثلات والراقصات ولما كنت لا أهتم بأخبار المسارح والكباريهات فقد أوقفت الرقابة عنه. إنه لا يساوي مرتب المخبر الذي

كان يكتب التقارير اليومية عنه!

وأحست زبيدة بشعورين مختلفين في وقت واحد، فرح ممزوج بالغيرة، فرحت لأن المراقبة ألغيت عن حبيبها، وأحست بالغيرة تلذعها لأن محمداً يتردد على بيوت المطربات والراقصات بحكم أنه المحرر الفني لجريدة «الجهاد».. شعرت برغبة في تلك اللحظة بأن تقبل محمداً في شفتيه وتعضه في نفس الوقت، أن تعانقه وتخنقه.. إنها في تلك اللحظة تصورت محمداً وهو بين أحضان كل المطربات وكل الممثلات وكل الراقصات في مصر!!

ووجدت نفسها تقول بلا شعور:

ـ إن ضرب هؤلاء الشبان بالسياط.. حلال!

قال عوني باشا مبتهجاً:

ـ الحمد لله.. إنك اقتنعت بوجهة نظري أخيراً، وآمنت بأن هؤلاء لا يمكن أن نحكمهم إلا بالكرباج!

وانتفضت زبيدة، كأن الكرباج أصاب محمداً الذي تحبه وقالت:

ـ أنت رجل خطير!

قال الباشا الخطير:

ـ إنني الآن مسيطر برجال البوليس السري والمخبرين والضباط، على كل شيء في هذا البلد، إنني أعرف دبيب النملة إذا مشت في أسوان، وأعرف طنين الذبابة إذا طارت في الإسكندرية.

وابتسمت زبيدة، ولم تقل شيئاً، ولم يظهر على وجهها السخرية بزوجها الوزير العالم ببواطن الأمور، الذي يعرف أخبار النمل في

أسوان وأنباء الذباب في الاسكندرية، ولا يعرف ما يجري في بيته، وما سوف يجري في بيته!

■ ■ ■

وأصبح محمد يتردد على بيت عوني باشا حافظ في الساعة السادسة بعد ظهر كل يوم أربعاء!

لا يكاد يراه جندي حرس الوزارات الواقف على الباب الخلفي، حتى يهب ليأخذ له التحية العسكرية!

إن شقيق خادمة معالي الوزير هو أحد أولياء الأمور الذين تسميهم الصحف «العالمين ببواطن الأمور»!

وكانت سنية تقف في انتظاره عند الباب، فإذا وصل، أمسكته بيده، وصحبته إلى غرفتها في البدروم، حيث تكون زبيدة في انتظاره.

وتقف سنية أمام الباب تقوم بمهمة «الناضورجي» وهو الاسم الذي يطلقه اللصوص على الذي يرقب الطريق أثناء قيامهم بعملية السرقة!

وعندما دخل محمد من الباب الخلفي لأول مرة كان يرتجف، يشعر بنفس الخوف الذي شعر به عندما اقتحم سور الحديقة للمرة الأولى، واستعمل سلم الحبال، وقفز على الشجرة مثل طرزان، وتعلق في شرفة البيت ودخل من الشباك.

وكان وهو يجلس مع زبيدة في غرفة سنية بالبدروم يحس بقلق، عيناه على باب الغرفة، وهو يتوقع أن يدخل عوني باشا من الباب في أية لحظة. وبعد تردده عدة مرات أصبح يحس وهو يدخل بيت وزير الدولة كأنه يدخل بيته في جزيرة بدران، أو مكتبه في جريدة «الجهاد».

إننا نخاف من المغامرة الأولى، فإذا تكررت، فالتكرار هو الذي يصنع الأمان والاطمئنان.. الذين ركبوا الطائرة للمرة الأولى كادوا يموتون من الرعب، والذين يركبون الطائرات اليوم ينامون ويأكلون ويرقصون ويتفرجون على الأفلام السينمائية!

وبعد زيارات قليلة أصبح محمد يشعر كأنه صاحب البيت. يتجول مع زبيدة في أنحائه، بسبب غياب الخدم في إجازتهم، وغياب الباشا في العزبة.

وذات مرة خطر لمحمد خاطر غريب.. إنه يريد أن يصعد إلى غرفة نوم زبيدة، ويجلس على الفراش الذي رأى من خلف الستارة الحمراء عوني باشا يجلس عليه، وتمنى يومها أن يخنقه.. تمنى أن يرى زبيدة في غرفة النوم وهي ترتدي نفس قميص النوم الشفاف الذي رآها فيه تلك الليلة.

ودهشت زبيدة من هذه الأحلام الطفولية في أول الأمر، ولكنها وجدت نفسها تتصرف كطفلة أيضاً، وتتحقق لها هذه الأمنيات الغريبة!

وتمنى محمد في إحدى المرات أن يقبلها في كل غرفة من غرف البيت في الحمام، في المطبخ، في الصالون، في غرفة المائدة.. حتى في غرفة نوم عوني باشا نفسه.. كأنه يريد أن يعيش معها بخياله في كل غرفة من غرف البيت الذي تعيش فيه. تخطر للعشاق في بعض الأحيان أفكار جنونية لا يمكن أن تخطر برؤوس العقلاء.. وعندما يسمع العقلاء بهذه التصرفات المعتوهة يذهلون، ولو أنهم ذاقوا الحب مرة، لعرفوا أنه يجعل شاربيه يتحولون إلى سكارى، ويتصرفون تصرفات لا يتصرفها الذين لم يذوقوا خمر الحب، في أجمل كؤوس في الدنيا، وهي شفاه المحبين!

ولكن، مع كل هذا الجنون، كانت العلاقة بين العاشقين بريئة من الجنس!

كان في زبيدة شيء يقول «لا»؟... إنها لم تقل له «لا» أبداً بلسانها ولكنه كان يسمع «لا» هذه تدوي دائماً في أذنيه.. كانت تقبله، كانت تعانقه كانت تتلوى بين ذراعيه، كان يحس أنها تشكو الجوع الذي يشكوه العطشى إلى ماء الحياة مثله تماماً..

ثم فجأة تعود إلى نفسها، أو على الأصح يعود هو إلى نفسه. ويبتعد في اللحظة التي يجب فيها أن يقترب أكثر ما وسعه الاقتراب!

وقد كانت تعامله كأنه خطيبها.. خطيب له حريات واسعة إلا حرية الزفاف!

ولم تذكر له زبيدة أبداً شروطاً لهذه العلاقة الغريبة، ولم ترسم لها حدوداً حرمت عليه ألا يتجاوزها.. ولكنه كان دائماً يرى خطاً وهمياً، كخط الاستواء، لا يحق له أن يخطو فوقه..

■■■

وذات مرة، كانت بين ذراعيه، ثم أفلتت فجأة، وابتعدت عنه وصرخت فيه قائلة:

- لم أعد أستطيع أن أحتمل!

ولكن محمداً لم يلحظ في نبرات صوتها أنها تأمره بأن يعبر خط الاستواء. كل ما هناك إنها كانت تئن وتتوجع، لأنها أصبحت عاجزة عن أن تسيطر على الوحش الذي داخلها، ويحاول أن يحطم القفص وينطلق!

وعادت زبيدة تقول، ونداء قوي عنيف يلح في عينيها:

ـ لا بد أن نتزوج. إنني أعرف أن هذا يدل على أنانية مني. . إن معنى طلاقي أن يطرد أبي من وظيفته، وأخي من عمله، وأن يتضور إخوتي الصغار. . كنت في الماضي عندما أفكر في الطلاق لأتزوجك أسمع صراخ إخوتي وهم يبكون من الجوع ولكن الصراخ الذي ينبعث من جسدي أصبح أعلى من صراخهم. . ذاب أنين بطونهم في أنين جسدي. إنني ضحيت عشر سنوات من حياتي من أجلهم. ولم يبق لي من شبابي إلا سنوات قليلة، من حقي أن أستمتع بها مع الرجل الذي أحبه. .

قال محمد وهو يتعذب عذابها، وفي عينيه نفس نظرة الاحتياج، وفي صدره رغبة ملتهبة:

ـ إنني أريد أن أتزوجك الآن في هذه اللحظة. . ولكنني أذكر جملة قلتها أنت لي في أول علاقتنا وهي: «يجب أن نتعهد أنه إذا جنّ أحدنا. . أن يحاول الآخر أن يكون عاقلاً». . إنني كنت دائماً المجنون في هذا الاتفاق. . ويشاء القدر أن أقوم هذه المرة بدور العاقل. . وهو دور ثقيل. . المجانين وحدهم هم الذين يستمتعون ساعة، ويتعذبون عمراً بأكمله. . لقد قلت مرة إنه سيكون في أسرتنا الصغيرة كرسي واحد لمجنون. . إذا جلس فيه أحدنا يجب أن يقف الآخر، ليحدث التوازن في الأسرة!

قالت زبيدة تقاطعه:

ـ ولكنني لا أشعر أنني مجنونة. . إنني لم أحس بأنني عاقلة كما أحس اليوم. . الجنون أن نعيش في هذا الحرمان حتى يقتلنا الحرمان!

قال محمد يهدئها ويطبع على شفتيها قبلة لذيذة كالخطيئة، طاهرة كالعذارى:

ـ إن ما حققناه الآن يشبه المعجزات. كنا نلتقي لقاءات خاطفة خائفة، وأصبحنا الآن نلتقي لقاءات منتظمة آمنة. كنا نتحدث بالتليفون، واليوم نتحدث وجهاً لوجه. كنت أتخيلك، والآن أراك. كنت أحلم بالقبلة من شفتيك، والآن أذوقها. كنت أحتضن وسادتي، والآن أحتضنك بين ذراعي. إننا الآن لا نقوم بمغامرة، وإنما نبني حياة. وحبنا الكبير أشبه بالعمارة الكبيرة التي تحتاج إلى طوب وأسمنت وخشب.

قالت زبيدة جادة:

ـ لم أعد أطيق أن أراك تدخل من الباب الخلفي، باب الخدم. أريد أن يجيء يوم تدخل فيه من الباب الكبير، من الباب الأمامي. لا يهم إن كان باب كوخ أو باب غرفة واحدة. المهم أن تدخل من الباب الأمامي. لا باعتبارك شقيق الخادمة. ولكن باعتبارك زوجي أمام الله والناس!

قال محمد وهو يهز رأسه في أسى:

ـ الله كريم، سيجيء هذا اليوم.

قالت زبيدة وقد ظهر عليها الضيق:

ـ وإذا لم يجيء هذا اليوم، فسنبقى نلتقي سراً كأننا لصوص.. إنني أشعر برغبة عجيبة في أن أمشي في الشارع معك، وذراعي في ذراعك أتمنى أن يجيء يوم يشير إلي فيه الناس ويقولون هذه زوجة الصحفي محمد عبد الكريم. إنني أشعر بالعار عندما يشير إلي الناس ويقولون

هذه زوجة وزير الدولة في وزارة الداخلية!

إنني لم أشعر في يوم من الأيام أنني زوجته.. شعرت دائماً أنني جاريته.. اشتراني بنفوذه، وسلطانه في سوق الرقيق!

قال محمد وهو يرفع عينيه من الأرض:

ـ كل ما تشعرين به من ضنى وعذاب وألم وشقاء هو شعوري. ولكن قبل أن ندخل الحرب يجب أن نستعد لها، لأننا إذا خسرنا معركة واحدة، خسرنا كل شيء، خسرنا حياتنا.

قالت زبيدة والعبرات تخنقها:

ـ جرت العادة أن يتقدم الرجل ويطلب يد المرأة، ولكني أنا اليوم التي أتقدم وأطلب منك أن تتزوجني. لقد ثرت علي لأنني طلبت منك أن تعطيني مهلة سنة، كي أدبر أمري حتى أتزوجك.. والآن جاء دوري لأثور ثورتك.. وأطالبك بأن تتزوجني، وليكن ما يكون. أنت لا تتعذب كما أتعذب!

قال محمد وهو يجفف دموعها بقبلة:

ـ أنت تعلمين أنني في لهفة على هذا الزواج أكثر منك.. إنني أشعر أنك منذ أن التقينا أصبحت زوجتي أمام الله.. وأنا أشعر اليوم بما يشعر به زوج يحب زوجته، ويعلم أنها تبيت في بيت واحد مع رجل غريب!

قالت زبيدة حانقة:

ـ أنت تعلم جيداً أن ليس بيني وبينه أي شيء!

قال محمد محسوراً:

ـ على الأقل يراك في قميص النوم، يقبلك، يتناول معك الطعام على

مائدة واحدة، يراك في اليوم الواحد عدة مرات، وأنا أراك في الأسبوع مرة واحدة. . أنا أدخل هـذا البيت كشقيق خادمتـك، وهو يـدخل كزوجك. كل هذه المشاعر تعذبني، تؤلمني، تذبحني.

قالت زبيدة في إصرار:

- إنني لا أطيق أن تتعذب لحظة واحدة. . إنني مستعدة أن أدفع عمري لأنقذك من عذاب لحظة واحدة. . إنني مستعدة أن أترك هذا البيت الآن. . لا أريد منه شيئاً لا نفقة ولا مؤخر صداق. . كل ما أريده هو حريتي. . حريتي في أن أعيش مع الرجل الذي أحبه. .

ثم سكتت قليلاً:

- وأنا مستعدة أن أعيش عشيقة لك. . بشرط أن أتطلق منه أولاً، إني مستعدة أن أعيش معك في غرفة على السطح. . نعيش على الخبز والزيتون!

قال محمد:

- إنني على ثقة أننا نستطيع أن نأكل الخبز والزيتون، ونعيش في غرفة فوق السطح، بدلاً من هذا القصر الباذخ. .ولكنك مسؤولة عن أبيك وإخوتك السبعة،وأنا مسؤول عن أبي العاجز وأمي العجوز. . ومرتبي في الصحافة غير مستقر. . وحتى القـروش القليلة التي أقبضها منـه مهـددة. . إنني بهـذا الـزواج لن أخسر واحـداً من ألف مما سـوف تخسرين. . تضحيتك أضعاف تضحيتي. . أفهم أن نضحي بحياتنا من أجل حبنا، ولكن لا أوافق أن تضحي بسبعة أبرياء من أجلي.

قالت زبيدة وهي تضرب الأرض بقدميها بعصبية:

- ولكنني أتعذب. لقد تصورت أنك عندما ستجيء إلى بيتي سأشعر

بسعادة لا حد لها . . ولكن الذي حدث أنني أصبحت أندم لأنك جئت إلى هنا . . عندما كنا نتحدث في التليفون كنت أشعر أنك قريب مني . وعندما أصبحت بين ذراعي أصبحت أشعر كأنك بعيد عني . . كأنني لم أكن أرى المسافة الطويلة التي كانت تفصلنا في الماضي ، وأصبحت أرى المسافة القليلة التي تفصلنا الآن ونحن متعانقان . . إنني أتعذب يا محمد، أحترق!

قال محمد وهو يقبلها في شفتيها وكأنه يضع بين الشفتين أقراصاً مهدئة للأعصاب :

ـ استطعنا حتى الآن أن نتغلب على صعوبات كان التغلب عليها يبدو مستحيلاً . . وأنا مؤمن بأننا سوف نستطيع أن نتغلب على هذه الصعوبة . أعتقد أن الله لن يتخلى عن حبنا!

قالت زبيدة والكلمات ترتعش في شفتيها:

ـ لقد خطر ببالي أن أنتحر . . أبلع أنبوبة أسبرين، ما دمت لا أستطيع أن أحتمل هذا الحرمان، وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أضحي بأبي وأخوتي .

وقال محمد في هلع :

ـ كيف تنتحرين؟ إنك تقتلين معك أباك وأخوتك الستة . . بل إنك تقتلينني أنا . إن الانتحار هو الوسيلة التي يهرب بها الجبناء من مواجهة الحياة . ولقد أحببتك لأنك امرأة شجاعة . .

قالت زبيدة وهي تجفف دموعها :

ـ أجل، إنني شجاعة ، ولكنني خائفة!

قال محمد متحدياً تشاؤمها:

- إنني أسمع خطوات الفجر تقترب من بابنا!

وامتلأ وجه زبيدة بابتسامة ساخرة كبيرة.

ووضعت زبيـدة، يدها على أذنها، وهي تتظاهر بأنها تحاول سماع خطوات الفجر التي يتحدث عنها محمد، وهي تقترب من الباب.

ولكنهـا لم تكن خطوات الفجر..

كانت خطوات الخادمة سنية وهي تسرع وتقتحم الباب وتقول في فزع:

- الباشا.. الباشا..

كان عوني باشا يطوف بأنحاء غرف البيت وهو يصيح:

- زبيـدة! زبيـدة! أين زبيدة؟

وأسرعت زبيـدة تغادر غرفة خادمتها في البدروم، وطلبت من محمد ألا يتحرك من مكانه، وصعدت درجات السلم وصوت عوني باشا ونداؤه المتكرر لها يزيد في اضطرابها.

ودخلت غرفة نومه وسألته وهي تلهث:

- ماذا حدث؟ لماذا عدت فجأة؟ لماذا لم تذهب إلى العزبة؟

قال عوني باشا بغير أن يجيب على أسئلتها:

- أين الردنجوت؟.. إنني ذاهب إلى مقابلة جلالة الملك الآن!

والردنجوت، هو بذلة رسمية يرتديها الذين يقابلون الملك، وهي

عبارة عن سترة سوداء طويلة وبنطلون أسود، وهي تشبه البذلة التي يرتديها الأفندية الذين يحملون المباخر ويسيرون في مقدمة الجنازات، وتشبه أيضاً البذلة التي يرتديها الحانوتية في أوربا.

وأخرجت زبيدة بذلة الردنجوت من الدولاب في صمت. وتطلعت في وجه زوجها، فوجدته متجهماً. وأدهشها أن يتجهم وجه عوني حافظ وهو ذاهب إلى لقاء الملك، إن وجهه عادة يطفح بالبشر والسرور إذا كان في طريقه للتشرف بمقابلة إدريس بك، شماشرجي الملك وخادمه الخاص!

قال عوني باشا وهو يضع ساقه في البنطلون:

ـ مصيبة ليس على البال!

قالت زبيدة وقد لمعت عيناها وكأنها تذكرت جملة حبيبها محمد، بأن الفجر على الباب:

ـ هل تذهبون إلى مقابلة الملك لتقديم استقالة الوزارة؟

قال عوني باشا بمرارة:

ـ إن وزارة صدقي باشا ستعيش عشر سنوات أخرى. . هذا الرجل بخته من السماء!

وأحست زبيدة أنها لأول مرة في حياتها تشترك مع زوجها في شعور واحد، وهو شعور السخط على بقاء صدقي باشا في رئاسة الوزارة. هي ساخطة لأن معنى ذلك أن زواجها بحبيبها محمد سوف يتأخر طويلاً. وزوجها ساخط لأن بقاء صدقي باشا رئيساً في الوزارة معناه حرمانه من رئاسة الوزارة التي كان واثقاً أنه سيخلف صدقي باشا فيها!

والتفت عوني باشا إلى عيني زوجته فرأى فيهما أسى وحزناً وفجيعة. . فقال وهو يتنهد:

ـ بعد أن كان الملك قد اقتنع بأن صدقي باشا أدى مهمته بإلغاء الدستور، وعمل دستوراً جديداً، وطبخ الانتخابات. . واستنفد كل أغراضه. . وبعد أن طلب مني إدريس بك أن أستعد لتأليف الوزارة، إذا بصدقي باشا يحصل على وثيقة من الخديو السابق عباس حلمي، يعلن فيها تنازله عن كل حقوقه في العرش، مقابل مليون جنيه تدفع له فوراً، ومائة ألف جنيه يقبضها كل عام!

وإذا بالملك يرقص فرحاً بهذه الوثيقة، ويقول إنه ثبت له أن صدقي باشا هو أعظم سياسي في هذه الدولة. . وأنه وقد أنعم على صدقي باشا بكل الأوسمة والنياشين في الدولة، لا يجد ما يفعله سوى أن يستدعي زوجة صدقي باشا وينعم عليها بالوشاح الأكبر من نيشان الكمال!

ثم أمر الملك بأن يذهب جميع الوزراء إلى مقابلته الآن في قصر عابدين ليبدي رضاه السامي أمامهم عن صدقي باشا!

قالت زبيدة تواسيه:

ـ سينسى الملك بعد شهور هذه الخدمة التي أداها له صدقي باشا. إن الملوك والحكام ينسون الخدمات التي أديت لهم من شهرين. . كما ينسون لون الحذاء الذي كان في أقدامهم من شهرين!

قال عوني باشا وهو يربط الكرافتة الرمادية فوق الياقة المنشاة:

ـ بعد شهرين؟! إن الملك اعتبر هذا النبأ بشرى، وأصدر أمره أن نزف البشرى إلى الشعب، ونرسلها إلى مديري الأقاليم ليتولوا إبلاغها إلى العمد، ليزفوها بدورهم إلى الفلاحين. . كأن الجلاء

تمّ عن مصر، وخرج آخر جندي إنجليزي من البلاد!

وشعرت زبيدة بأنها تكره هذا الملك المغفل، الذي اشترى ورقة لا قيمة لها بمليون جنيه.. ورقة يتنازل فيها من لا يملك شيئاً عن الشيء الذي لا يمتلكه..

وضحكت زبيدة وقالت:

ـ لقد سمعت عن قروي اشترى الترام.. وأظن أن هذه أول مرة يشتري فيها صاحب جلالة الترام!

قال عوني باشا وهو يضع أصبعه على فمه:

ـ حذار أن تقولي هذا الكلام أمام أحد.. إن الجدران لها آذان!

إن صدقي باشا عرف نقطة الضعف في الملك.. فهو يشعر أنه مغتصب لهذا العرش، ويعرف أن الخديو عباس هو صاحب الحق الشرعي فيه، ولهذا لم يكن ينام الليل أبداً، كان يخشى أن يقتلعه الخديو من العرش ويجلس عليه.

قالت زبيدة:

ـ كنت أتصور أن الملك يخشى أن يقتلعه الشعب من عرشه.

قال عوني باشا وعلى شفتيه علامة احتقار:

ـ الشعب؟ إن الملك فؤاد لا يحسب حساباً للشعب، ولكنه يحسب حساب الخديو. الشعب فقير معدم، والخديو مليونير، إنه من أغنى الرجال في العالم! الشعب مقيد بالسلاسل والخديو مطلق السراح يطوف عواصم أوربا كما يشاء يدس الدسائس ويدبر المؤامرات! كل ما تتطلع إليه الأحزاب الآن هو رئاسة الوزارة، ولكن العرش لا يتطلع

إليه مصري واحد. لا يجرؤ أن يتطلع إليه.. الخديو وحده هو الذي يريد أن يسترد العرش الذي كان يجلس عليه.. ولهذا كانت أهم التقارير التي يهتم بها الملك هي التقارير التي تراقب تنقلات الخديو في أوربا. ثم الويل للمصري الذي يقابل الخديو. إذا كان موظفاً يطرد من وظيفته! إذا كان صاحب أرض يسلط عليه الملك البنوك فتحجز عليه وتعلن إفلاسه! إذا كان سياسياً وضعه الملك في القائمة السوداء، فلا يعين وزيراً! لقد حدث مرة أن قال حسن صبري بك المحامي إنه قابل الخديو، وأورد ذكر اسم ثروت باشا رئيس الوزراء في ذلك الحين، فقال الخديو إن ثروت باشا «رجلنا». وما كاد الملك يسمع هذه الرواية حتى طار عقله، وطرد ثروت باشا من رئاسة الوزارة! كلمة واحدة من الخديو أسقطت رئيس وزراء مصر، ولم تسقطه مظاهرات الملايين التي تلعنه في الشوارع!

ولاحظت زبيدة أن عوني باشا يتكلم لأول مرة في حياته عن الملك بلهجة جديدة. اختفت منها عبارات التعظيم وكلمات الإجلال وألفاظ العبودية! كل هذا التغيير حدث فجأة في زوجها، لأنه شعر أن رئاسة الوزارة ستتأخر في الوصول إليه.. ترى ماذا سيفعل لو خرج من الوزارة نفسها!؟

■ ■ ■

وعاد عوني باشا يتطلع في المرآة، ليطمئن على أناقة بذلة الردنجوت التي ستتشرف بمقابلة جلالة الملك، ثم قال:

ـ والمدهش أن الملك لم يتعلم من دروس الماضي! حدث منذ بضع سنوات أن كان حسن باشا أنسي وكيلاً لوزارة الداخلية.. وكان مدمناً على لعب القمار، ويعرف فزع الملك فؤاد من الخديو السابق..

وكان كلما خسر مبلغاً طائلاً في القمار، اتصل تليفونياً بالملك، وأبلغه أن الخديو يحشد جيوشاً في ليبيا ليهاجم بها مصر، وأنه اتصل بالقبائل في ليبيا واتفق معها على مبلغ معين لإفساد خطة الخديو . . ويأمر الملك بدفع المبلغ المطلوب إلى القبائل من خزانة المصاريف السرية بوزارة الداخلية.

واستمرت هذه اللعبة مدة طويلة . .

وكان لوزارة الداخلية وكيل آخر هو محمود عبد الرازق باشا، ولاحظ أن الخزانة السرية في الوزارة لا تفتح إلا في اليوم الذي يخسر فيه حسن باشا أنسي مبلغاً كبيراً في نادي محمد علي . . وقام عبد الرازق باشا بتحريات واسعة وعرف أنه لا توجد جيوش يحشدها الخديو السابق في ليبيا، وأن كل ما هناك أن أنسي باشا اعتمد على رعب الملك فؤاد من الخديو، فجعله يسدد ديون الباشا في القمار من خزانة وزارة الداخلية.

وذات ليلة خسر أنسي باشا وكيل الداخلية عشرة آلاف جنيه في نادي محمد علي، واقترضها من «كيس» النادي، وكانت الساعة الثالثة صباحاً . .

وذهب في هذه الساعة المبكرة إلى وزارة الداخلية، وكسر خزانة الوزارة، وأخذ عشرة آلاف جنيه سددها لخزانة نادي محمد علي، وترك ورقة في خزانة وزارة الداخلية يقول فيها إن هذا المبلغ صرف بمعرفتي على بعض القبائل في ليبيا!

وجرى تحقيق انتهى بأن أصدر مجلس الوزراء قراراً بإحالة حسن باشا أنسي وكيل الداخلية إلى المعاش!

واليوم، تتكرر عملية النصب من جديد. والنصّاب الجديد هذه المرة هو رئيس الوزراء!

وكانت زبيدة تستمع باهتمام إلى زوجها وهو يروي لها هذه القصص عن أسرار الحكم في مصر، ولكنها كانت تتمنى أن تنتهي القصص لتعود إلى ملكها هي الذي ينتظرها في البدروم!

وعندما خرج عوني باشا من غرفة نومه، وبدأ يهبط درجات السلم، توقف وقال لها:

ـ إنني أفكر في إقامة حفلة غداء في البيت لصدقي باشا تكريماً له لمناسبة نجاحه في الحصول على تنازل الخديو!

وابتسمت زبيدة ساخرة من زوجها الوزير المنافق الذي قال منذ دقيقة واحدة إن رئيس الوزراء نصاب.. ثم عاد يقرر أن يقيم له حفلة تكريم احتفالاً بآخر عملية نصب قام بها!

وقال عوني باشا:

ـ ما رأيك في أن تكون المأدبة يوم الأربعاء؟

وصرخت زبيدة وكأن عقرباً لدغتها وقالت:

ـ يوم الأربعاء؟ مستحيل يوم الأربعاء!

وتوقف عوني باشا عن هبوط درجات السلم وقال:

ـ لماذا.. لا نقيمها يوم الأربعاء؟!

قالت زبيدة متظاهرة بأن الحالة العصبية بدأت تعود إليها:

ـ لأنني أتشاءم من يوم الأربعاء.. إنه يوافق يوم ٢٧!

وتذكر عوني باشا ماذا جرى لزوجته عندما سمعت رقم ٢٧ . . وعاد يقول:

ـ لنجعل المأدبة يوم الثلاثاء!

■ ■ ■

وعادت زبيدة إلى محمد في غرفة نوم الخادمة سنية في البدروم، وفتحت الباب الذي كان مغلقاً بالمفتاح.

وهب محمد واقفاً وسألها في قلق:

ـ ماذا حدث؟

وضحكت زبيدة وقالت:

ـ لقد كنا نتحدث عن الملوك المغفلين، ورؤساء الوزارات النصابين. . وروت زبيدة لمحمد ما سمعته من زوجها، بأن النصر الذي حققه إسماعيل صدقي سيطيل عمر وزارته عشر سنوات أخرى!

وهزت زبيدة رأسها في يأس مرير، وقالت في صوت حزين:

ـ معنى ذلك أننا لن نتزوج إلا بعد عشر سنوات!

وامتقع وجه محمد. لم يفكر في تلك اللحظة في زبيدة، ولا في حبه، وإنما فكّر في هذا الشعب عشرة أعوام أخرى، من الكبت والطغيان والاستبداد. فكر في هذا المليون جنيه الذي تدفعه مصر من خزانة الدولة للخديو عباس، وهو واحد من أغنى عشرة رجال في العالم، بينما هذا الشعب يتضور جوعاً. الأزمة الاقتصادية العالمية طحنت الفلاح وسحقت العامل، وأفقرت الغني، وأفلست التاجر. .

مليون جنيه سينفقه الخديو على إصلاح يخته الذي يطوف به موانىء

أوربا ومغانيها، سوف يصرفه على كلبه الذي قيل إنه عين له طبيباً خاصاً يتقاضى مرتباً قدره مائة جنيه في الشهر. سيصرفه على عشيقته الفرنسية التي تظهر معه في الحفلات والسهرات.. مليون جنيه تدفعه حكومة مصر ثمن قطعة ورق لا قيمة لها، في الوقت الذي تضطر فيه إلى وقف ترقيات وعلاوات الموظفين،وتوقف فيه تعيين حملة الشهادات العليا، وتلغي مشروعات بناء المدارس والمستشفيات.. نظراً لضيق ذات يد الحكومة!

ولكن زبيدة لم تشغل رأسها لحظة بالمليون جنيه، كل ما كان يسيطر على عقلها أن طول عمر هذه الحكومة سوف يطيل عمر عذابها وحرمانها وجوعها..

وعادت زبيدة تقول له ساخرة:

ـ والآن.. هل تريد مني أن أنتظر عشر سنوات أخرى قبل أن نتزوج؟

قال محمد:

ـ لن ننتظر عشر سنوات.

قالت زبيدة:

ـ ماذا تنوي أن تفعل!

ـ نبدأ بمقاومة هذه الحكومة من جديد.. إننا بهذه المقاومة لا ندافع عن حبنا فقط، بل ندافع عن حب الملايين!

قالت زبيدة ساخرة:

ـ إذا لم نستطع أن ننقذ حياة فردين، فكيف نستطيع أن ننقذ هؤلاء

الملايين؟ إنني لم أعد أستطيع أن أعيش على هذه الفلسفة. . إنني أشعر كل يوم أن جزءاً مني يموت، يموت. . أتعرف ماذا تعني كلمة «يموت»؟

قال محمد:

ـ أعرف معنى الكلمة تماماً. ولكني أعرف معنى كلمة أخرى هي الكفاح!

قالت زبيدة:

ـ ستقتل صدقي باشا؟

قال محمد:

ـ لا، لن أقتله. إنني أعرف الآن أني لو قتلته فسيجيء بعده رئيس وزارة أسوأ منه، زوجك عوني حافظ. . وهناك ألف مثل عوني حافظ على استعداد لأن يكونوا السياط التي يجلد بها هذا الشعب. . يجب أن نكافح ليحصل هذا الشعب على حريته، ويومها لن يجلس في مقعد الحاكم طاغية ولا مستبد!

قالت زبيدة في حسرة:

ـ إنني قرأت أمس أن شعوباً مضى عليها خمسون عاماً وهي تجاهد لتحصل على حريتها ولم تحصل عليها بعد. يوم نحصل على الحرية سأكون أنا في الخامسة والسبعين، وستكون أنت في السبعين. ويومها سيضحك الناس وهم يرونني في ثوب الزفاف.

وسكتت زبيدة لحظة. ثم انفجرت قائلة:

ـ إسمع يا محمد، خير لنا أن نفترق الآن، من أن نفترق بعد خمسين سنة. إنك مشغول بحب أكبر من حبي، هو حبك لهذا الشعب، وأنا

لن ألومك على هذا الحب الكبير. . على العكس أنا معجبة بك. أتمنى أن أكون مثلك ولا أستطيع. . خير لي أن يموت حبي الآن بالسكتة القلبية، على أن يموت غداً بالشيخوخة. إن هذا هو آخر لقاء لنا!

وتركته زبيدة جالساً في غرفة الخادمة سنية، والدموع تنهمر من عينيها، وغادرت الغرفة.

وبقي محمد جالساً في مقعده لا يتحرك.

وجاءت الخادمة سنية مهرولة، ودخلت غرفتها، وقالت لمحمد:

ـ ماذا حدث؟ هل ضربتها؟!

قال محمد ورأسه لا يزال منكساً في الأرض:

ـ لم أضربها. .

قالت سنية في وجوم:

ـ هل عرفت أنك تحب واحدة أخرى، من هي؟

قال محمد:

ـ مصر!

وضربت سنية بيدها على صدرها وقالت في دهشة:

ـ مصر؟ لم أسمع في حياتي عن امرأة اسمها مصر!

قال محمد:

ـ مصر. . يعني بلدنا، يعني وطننا!

قالت سنية:

ـ وهل هذه جريمة؟ لقد كان زوجي الأسطى كامل يقول لي إنه يعبد هذا الوطن، ولم أغضب، ولم أشعر بأي غيرة، لأننا كلنا نحب الوطن!

قال محمد وهو يعض على شفتيه في ألم:

ـ لقد قالت لي زبيدة إن هذه آخر مرة نلتقي فيها!

قالت ضاحكة:

ـ وهل صدقتها؟

قال محمد:

ـ إنها طردتني من بيتها!

قالت سنية:

ـ ومن قال لك إن هذا بيتها؟ إنك منذ وضعت قدمك في هذا البيت أصبحت أنت صاحب هذا البيت.. إن هذه الغرفة هي غرفتك أنت ويجب أن تجيء إليّ هنا يوم الأربعاء القادم. وإذا لم تجيء لتسترضيك فاطردها من الغرفة. هكذا كان الأسطى كامل يفعل معي..

هذا البيت أصبح ملكك أنت منذ أن أحبتك زبيدة. يوم تحب المرأة رجلاً فمعنى ذلك أنها جرّدت نفسها من كل ما تملك، وأعطته للرجل الذي تحبه، في اللحظة التي تجردت أمامه من فستانها!

قال محمد ضاحكاً:

ـ ولكني لم أجردها حتى الآن من فستانها!

وغمزت سنية بعينها، وقالت وهي تضحك:

ـ إذن.. فهي معذورة إذا طردتك من البيت!

ووقف محمد وقال وهو يبتسم:

ـ معك حق يا سنية، سأعود يوم الأربعاء!

■ ■ ■

وخرج محمد من بيت عوني باشا، وسمع باعة الصحف يعدون في الشارع ويصيحون:

ـ ملحق «المقطم».. ملحق «المقطم».. بشرى للشعب!

واشترى محمد نسخة من ملحق جريدة «المقطم» ليعرف ما هي هذه البشرى..

فإذا به يقرأ نبأ تنازل الخديو في سنة ١٩٣١ عن العرش الذي خلع منه سنة ١٩١٤ مقابل مليون جنيه!

وفي هذا التنازل يعلن الخديو تأييده للدستور الجديد.. الدستور الذي لعنه الشعب بالاجماع!

ويقول الخديو في تنازله إنه يعترف بتصفية أملاكه في مصر، واحترامه للأمر الملكي الخاص بنظام توارث العرش، وإقراره لحضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول بن إسماعيل، بأنه ملك مصر الشرعي، وأنه يعلن تنازله عن كل دعوى بأحقيته في عرش مصر، ثم يؤكد ولاءه المطلق الدائم لجلالة الملك المعظم ودعاءه المخلص لجلالته ولصاحب السمو الملكي ولي عهده الأمير فاروق.

وقالت «المقطم» إن هذه الوثيقة الخطيرة تم الوصول إليها، بعد مفاوضات دارت سراً بين الخديو ودولة صدقي باشا، ودامت مدة ثلاثة شهور كاملة.

وإن هذا النجاح يدل على براعة صدقي باشا ومقدرته وإخلاصه لجلالة الملك!

وفوجىء محمد بأن الحكومة لم تكتف «بالبشرى» التي حملتها ملاحق الصحف للشعب، بل أرسلت إلى الأحياء «منادي» يمشي في الشوارع والحارات والأزقة، ليطلب من الحاضر أن يبلغ الغائب بشرى تنازل الخديو عن العرش للملك فؤاد وتأييده للدستور الجديد!

ودخل محمد إلى بيته في جزيرة بدران، فسمع أباه المعلم حنفي يردد مثلاً شعبياً يقول:

ـ جاء للعميان ولد، قلعوا عينيه.. من التحسيس!

وأعجب محمد بهذه الحكمة التي انطلقت من شفتي أبيه، وتمنى لو كانت الصحافة حرة في مصر، حتى يختار هذا المثل الشعبي عنواناً لمقال يكتبه عن هذه الوثيقة التي زفتها الحكومة بشرى للشعب الجائع المعدم المقيد بالسلاسل والأغلال!

وذهب محمد إلى قهوة سيدي فرج، ورأى المعلم وهدان أبو خطوة، يلقي ملحق «المقطم» على الأرض، ويدوسه بقدميه وهو يقول:

ـ هل هذه بشرى؟ أنا اشتريت الجريدة على أمل أن تكون البشرى استقالة الوزارة، وإذا بها تنازل الخديو عن العرش! إنها تماماً مثل لو جاءوا بوثيقة بإمضاء المرحوم نابليون بونابرت يعلن فيها تنازله عن عرش مصر للملك فؤاد.. لقد عدوت وراء بائع الصحف لأعيد له الجريدة واسترد الخمسة مليمات، ولكنه هرب.. أنا أيضاً مغفل كالملك فؤاد.. هو اشترى ورقة لا قيمة لها بمليون جنيه.. وأنا اشتريت ورقة لا قيمة لها بخمسة مليمات.. كل الفرق بيننا أنه دفع المليون جنيه من مال الشعب ولم يدفع مليماً من جيبه.. وأنا دفعت الخمسة مليمات

من دمي، من عرقي، من شقائي!

وراح المعلم وهدان يضرب كفاً بكف وهو يصيح:

ـ هل هذه بشرى؟ في سنة ١٩١٤ أصدرت جريدة «المقطم» نفسها ملحقاً مكتوباً عليه بالخط العريض «بشرى للشعب المصري الكريم. بريطانيا أعلنت الحماية على مصر!».

قال محمد:

ـ إن الوزراء يقولون إن هذا النصر سيمد في عمر وزارة صدقي باشا عشر سنوات..

وقال الحاج مغازي الفقي المكوجي وهو يتحسس ساقه المريضة بالروماتيزم:

ـ ولا عشر دقائق.. إن المصريين نسوا اسم الخديو عباس يوم غيّروا شارع عباس، وأسموه شارع الملكة نازلي. أنا رأيي أن الخديو عباس ألعن من الملك فؤاد.. أنا أعرفه جيداً، كنت أشتغل في شبابي مكوجياً في قصر القبة.. كان ذلك عام ١٨٩٤.. منذ ٣٧ سنة بالضبط وكان عمر الخديو عشرين سنة، وكانت والدة الخديو اشترت ثلاث جوار من استانبول ليعملن خادمات سرير للخديو الشاب، لتضمن أم الخديو ألا ينغمس ابنها في حياة الهلس خارج القصر، فيعرف الشعب أن مليكهم خباص فينصرفون عن حبه!

وصمت النرد في أيدي اللاعبين في القهوة، توقفت في أيديهم أوراق اللعب جمدت أحجار الشطرنج في أماكنها كأنها تريد أن تستمع إلى قصة الغرام الملكي. سكتت أصوات «الكركرة» في شفاه حاملي الشيشة. ماتت الكلمات على كل الشفاه، وتجمع الجالسون في قهوة سيدي فرج

يسمعون أسرار غراميات القصر، من المكوجي الذي كان يكوي الملابس الداخلية لعشيقات الجالس على العرش، وكأنه كان يختبىء تحت الفراش الملكي!

وأحس الحاج مغازي باهتمام السامعين، فمضى يذكر أدق التفاصيل، ثم تمهل وأخذ نفساً من طرف الجوزة التي في يده ليضاعف من هالة الإثارة التي ظهرت على وجه السامعين، ثم مضى يقول:

ـ وكانت الجارية إقبال، هي أجمل الجواري الثلاث. فتاة ساحرة كأنها خارجة من قصة ألف ليلة وليلة. رائعة الجمال، حلوة التقاطيع، طويلة القامة، في عينيها جاذبية عجيبة، إذا نظرت لرجل صعقته في مكانه. . وكانت امرأة ذكية، واسعة المطامع، لا تقنع بأن تكون خادمة لسرير الملك، بل ملكة على القصر كله!

وجنّ الخديو الشاب بجمالها الفتّان، وأقنعته بطرد الجاريتين الأخريين، وأصبحت إقبال ملكة على قلب الخديو. . وبقي لها أن تكون ملكة على مصر كلها!

وكانت أم الخديو تطمع في أن تزوجه إحدى بنات الخليفة سلطان تركيا، وأنفقت في سبيل ذلك مئات الألوف من الجنيهات. . رشت باش أغا قصر يلدز في استانبول. ورشت قهوجي باشا الذي يقدم القهوة للسلطان، وأنعم عليه بالباشوية لأنه يحسن صنع القهوة المضبوط. . ورشت رئيس الديوان السلطاني. . ورشت الصدر الأعظم وهو اسم رئيس وزراء تركيا في تلك الأيام. . واشترت عدداً من وزراء السلطان، وبعد هذا كله تقدمت إلى السلطان تطلب يد إحدى بناته لابنها الخديو الشاب، وإذا بالسلطان يثور ويقول:

ـ كيف أسمح لابنتي أن تتزوج من أحد عبيدي؟ إن خديو مصر

هو عبد عندي، يدير أملاكي في مصر!

وفرح الخديو الشاب برفض سلطان تركيا أن يزوجه ابنته!

وإذا بالجارية إقبال تعلن أنها حملت من الخديو. . وذهب الخديو إلى أمه يقول إنه قرر أن يتزوج من الجارية.

ورفضت أم الخديو وطلبت من الجارية أن تتخلص من الحمل. . وطلب الخديو من الجارية أن تتمسك بالحمل!

وأطاعت الجارية طبعاً أمر الخديو!

وفي يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٩٥ وضعت الجارية إقبال مولودة. .

واستمر الخديو عباس سبعة أيام يحاول إقناع أمه بأن توافقه على هذا الزواج، فأصرت أم الخديو على الرفض. .

وفي يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٩٥ عقد قران الخديو على إقبال هانم أفندي. . التي كان اسمها قبل ذلك الجارية إقبال!

وثارت أم الخديو وقالت إنها لا يمكن أن توافق على زواج ابنها من جارية ولدت ابنته بعد عقد القران بأسبوع!

وطرد الخديو أمه من القصر. .

وقبل أن تخرج أم الخديو مطرودة من القصر، وقفت على السلالم الرخامية ورفعت يديها إلى السماء وقالت أمام موظفي القصر:

- يا رب لا تبارك في هذا الزواج! يا رب اطرد هذا الولد العاق من العرش كما طردني من القصر!

وهزىء موظفو القصر يومها من هذا الدعاء الغريب. . ولم تمض

سنوات حتى تحقق دعاء أم الخديو بحذافيره، طلّق الخديو زوجته إقبال، وخلعه الانجليز من العرش!

وهزّ السامعون رؤوسهم، ومصمصوا شفاههم . . .

وقال المعلم وهدان أبو خطوة:

ـ هل هذا كلام! رجل باع أمه ونحن نشتريه بمليون جنيه؟

قال الحاج مغازي الفقي وهو يضرب كفاً بكف:

ـ جثة بمليون جنيه؟!

قال محمد في حماس:

ـ وهل يجوز أن نسكت على هذه المساخر؟ يجب أن يتحرك الشعب يجب أن نفعل شيئاً!

ولم يتحرك أحد، ولكن المعلم حنفي عبد الكريم الذي كان يسمع هذه القصص صامتاً. . تحرك فجأة وقال مثلاً شعبياً جديداً:

ـ قالوا: يا جمل زمّر، قال: لا عندي شفايف ولا عندي أصابع!

■ ■ ■

هزّت قصة لعنات أم الخديو على ابنها، محمد في أعماقه. . بقي دعاء الأم على ولدها يطن في أذنه، منذ سمع قصة الحاج مغازي الفقي المكوجي . .

هل يجيء يوم تلعنه أمه لأنه تزوج من زبيدة، كما لعنت أم الخديو ولدها لأنه تزوج من الجارية إقبال؟

إنه لو خضع لرغبة زبيدة وتزوجها فوراً، فسوف ترتبك حالته المالية

أكثر مما هي مرتبكة اليوم. إنه بسبب الأزمة التي تواجهها الصحافة، وأوامر المصادرة، وقرارات التعطيل، وأحكام السجن، لا يقبض من مرتبه البالغ خمسة عشر جنيهاً سوى ثلاثة جنيهات.. لو تزوجها الآن فيجب أن يقسم هذا المبلغ التافه على ثلاث أسر.. أسرتها المكونة من سبعة أشخاص، وأسرته المكونة منه ومن زبيدة، وأسرة أمه المكونة منها ومن أبيه. وكيف يمكن لأحد عشر شخصاً أن يعيشوا بثلاثة جنيهات؟ هو الآن يعطي أمه مائتين وسبعين قرشاً كل شهر، ويكتفي بقرش صاغ في اليوم، وعندما يطرد والد زبيدة من وظيفته وشقيق زبيدة من عمله، سوف يضطر إلى أن ينقص المبلغ الذي يسلمه لأمه، سيقتطع من قوتها، من مصاريف دواء أبيه.. سوف تعتقد أمه أنه ولد عاق مثل الخديو، وستقف على سلالم بيتها في جزيرة بدران وتدعو على محمد عبدالكريم كما دعت أم الخديو على ولدها العاق عباس حلمي.. ستتصور أمه أنه ضحى بها وبأبيه المريض من أجل المرأة التي يحبها!!

وارتجف محمد، وهو يتصور أمه تلعنه!

وقرر ألا يذهب إلى موعد يوم الأربعاء التالي.

ولكنه يشعر بأنه جرح زبيدة عندما تقدمت إليه تطلب يده، وترك يدها معلقة في الهواء. أي شيء يجرح المرأة أبلغ من أن تتقدم هي تطلب الزواج من رجل، فيرفض، أو يقترح التأجيل.. الرجل لا يشعر بمثل هذا الجرح الدامي عندما ترفض امرأة أن تتزوجه. صحيح أنه سيتألم، وسيتعذب، وسيغضب لكرامته المهيضة، ولكن جرحه يشفى مع الأيام. أما المرأة فيبقى هذا الجرح مفتوحاً فيها إلى آخر يوم من أيام حياتها!

يجب أن يذهب ويعتذر إليها. حتى ولو كانت مصممة على أن تقطع

علاقتها به، فيجب ألا يفترق عنها، وفي قلبها جرح مفتوح!

ثم ما الذي دعا زبيدة لأن تصمم فجأة على الطلاق من عوني باشا والزواج مّنه؟

ربما كانت الخادمة سنية على حق بأنه أخطأ عندما لم يجرد زبيدة من فستانها. . لقد قالت له إنها معذورة إذا كانت قد طردته من البيت. أيكون قد أخطأ عندما عامل زبيدة كأنها نصف قديسة ونصف امرأة. . نصفها الأعلى امرأة، ونصفها الأسفل قديسة؟ لا هي استمتعت بطهر القديسات، ولا هي استمتعت بهوى الغانيات؟ أكان خيراً له لو عاملها كأنها قديسة كاملة. . أو كأنها امرأة كاملة؟

أنصاف الحلول دائماً تؤدي إلى الكوارث. . لو أنه جعلها عشيقته منذ أول الأمر، لما عذبها جسدها المحروم كل هذا العذاب! ولو أنه عاملها كقديسة فقط من أول لقاء، لما ذاقت قطرة من الخطيئة، دون أن تشرب الكأس كلها!

وعاد محمد يسترجع ماضيه كله مع زبيدة. ما هو الشيء الذي يجعله يتردد في أن يأخذها كامرأة؟ إنها لم تقل لا أبداً!

ولكنه في كل مرة يسمع صوتاً مجهولاً يقول له: لا، إن هذا الصوت لا ينبعث من فم زبيدة، إنه صامت لا يتكلم. . ولا ينبعث من جسدها الذي يصرخ بأعلى صوت ويقول: نعم. . نعم. . نعم!

هذا الصوت ينبعث منه هو. . لماذا؟ ربما لأنها زوجة وزير! بقايا العبودية التي ورثها عن أجيال سابقة من أجداده الذين ضربهم السادة بالسياط، هي التي جعلته يتردد في أن يعامل زوجة الوزير كما يعامل أي رجل امرأة يعشقها وتعشقه!

ومع ذلك، فهي لم تشعره في يوم من الأيام بأنها تعامله باعتبارها زوجة وزير، بل هي على العكس تحقر أمامه في هذا الوزير، وتنعته بأقبح النعوت وتصفه بأسوأ الصفات!

يجب ابتداء من اليوم أن يعاملها معاملة السيد.. معاملة الرجل القوي للمرأة الضعيفة. يجب أن يعودها من الآن على طاعته.. إذا قال لها إن المصلحة في تأجيل الزواج في الوقت الحاضر فيجب أن تقتنع.. من حقها أن تناقشه، من حقها أن تبدي أسباب اعتراضها.. ولكن في نهاية الأمر فهو صاحب الرأي النهائي..

سيذهب إليها ويقول لها صراحة: إنني لا أحب زوجة الوزير.. إنني أحب امرأة اسمها زبيدة تسكن في شبرا!

ثم عاد محمد وتردد في أن يقول لها هذه الكلمات التي نطقها أمام المرآة بلهجة مسرحية!

إنه رجل يقاوم الاستبداد والطغيان.. وها هو الآن يحاول أن يكون مستبداً وطاغية.. وهو رجل يطالب بحرية الرأي ويريد أن يمنع المرأة التي يحبها من أن تقول رأيها، وأن تتمسك به، كما هو يتمسك برأيه. يطالب بالمساواة، ولا يقبل أن يتساوى مع المرأة التي اختارها لتكون شريكة حياته!

وقرر أن يكون كبيراً، ويعتذر لها. إنه هو الذي أخطأ! هو الذي جرحها بسكين. وهي آلمته بكلمة!

■■■

وفي الساعة السادسة من مساء الأربعاء التالي كان محمد عبدالكريم يدخل بيت عوني باشا حافظ كعادته.

واستقبلته سنية بجوار الباب، ومشت بجواره صامتة إلى البدروم ورأى زبيدة جالسة في غرفة سنية، وقد وضعت ساقاً على ساق، وأسندت خدها إلى يدها. .

ولم تتحرك زبيدة من مقعدها، ولم تقفز من المقعد وترتمي بين ذراعيه، كما كانت تفعل كل مرة. .

تجاهلته، وكأنها لا تشعر بوجوده!

وأحس محمد بغيظ شديد، ها هي ذي تعامله كأنها زوجة حضرة صاحب المعالي وزير الدولة!

وشعر برغبة شديدة في أن يصفعها على وجهها. وتمالك نفسه، وعندما اقترب منها وجد الدموع في عينيها، وقد أشاحت بوجهها حتى لا يرى الدموع. . وتأملها في ثوبها الأنيق، ذلك الثوب الذي يقف سداً عالياً بينهما! وركز نظراته الفاحصة على ثوبها الذي يغطي جسدها كله. . وأحس كأنه قد أصبحت لعينه أصابع تجرد زبيدة من ثوبها الطويل!

ثم ألقى نظرة على الخادمة سنية ، التي كانت تقف وراءه!

وفهمت سنية على الفور معنى نظرته!

وانسحبت سنية من الغرفة، بغير أن تقول كلمة، وأقفلت باب الغرفة خلفها. .

واتجه محمد إلى الباب، بخطوات بطيئة، ومد يده، وأغلقه بالمفتاح!

■ ■ ■

انتظرت سنية طويلاً أمام باب غرفتها المغلق. ثم فتح الباب،

وخرج محمد، أسرع في خطواته، يتفادى أن تلتقي عيناه بعيني سنية الفضوليتين. واندفعت سنية في قلق إلى داخل الغرفة. رأت سيدتها زبيدة راقدة فوق الفراش شبه مخدرة.. يقظى وحالمة.. في تلك الغيبوبة اللذيذة التي تمتزج فيها الحقيقة بالخيال.

ولم تسألها سنية ماذا حدث بينها وبين محمد. لقد قرأت الجواب في عينيها الناعستين. شمت الجواب في رائحة الغرفة. إنها تعرف هذا العبير جيداً. رائحة التفاحة المأكولة. من أجل هذه التفاحة خرجت حواء من الجنة. وزبيدة تبدو كأنها أكلت باقة تفاح، لا تفاحة واحدة، ولم تخرج من الجنة، بل استقرت في النعيم!

وامتلأ أنف سنية برائحة التفاح المأكول. بقايا أنفاس المحبين. هذه الرائحة الأسطورية التي تجمع بين عبير الزهور وطعم لهيب النار. كأن التصاق الأشواق يحدث شرارة فيها رائحة الحريق. الماس الكهربائي بين السلوك يطفىء النور، والماس الكهربائي بين الأجساد يضيء كل الأنوار.

وتلفتت سنية إلى الفراش وكأنها تبحث عن بقايا التفاح، القشر والبذور، ولم تجد قشراً ولا بذوراً. كأنهما أكلا التفاح كله، بكل ما فيه من قشر وبذور. كل شيء في الفراش مرتب. الوسادة في موضعها، الملاءة البيضاء تغطي الفراش بلا انحناءات ولا كسور. العين المجردة لا ترى في الفراش أثراً لمأدبة تفاح. ولكن سنية امرأة. عين المرأة تكشف بصمات الحب خيراً مما يكشفها الطبيب الشرعي!

خيّل لسنية أن كل شيء في الغرفة مسحور مبهور. خيّل إليها أن المقعد يهتز في مكانه، كما يهتز السميع في نشوة بعد أن انتهت وصلة الطرب.. مرآة الدولاب مغطاة ببخار، البخار الذي يحدث نتيجة

اصطدام الهواء الساخن بالزجاج، وكأن العاشقين غطيا زجاج المرآة بأنفاسهما الدافئة، ليمنعا المرآة من أن ترى ما لا يجوز أن تراه. . مصباح الكهرباء التي يتدلى من سقف الغرفة، يرقص، كما تستمر الأقدام تتحرك بعد أن تنتهي القطعة الموسيقية الراقصة!

كل شيء في الغرفة يعترف بلا صوت. الجدران صامتة، السقف لا يتكلم. الحصيرة المفروشة على الأرض خرساء. كأن كل شيء في الغرفة أقسم أن يكتم السر، ولا يبوح به أبداً. .

وتطلعت سنية إلى وجه زبيدة، فوجدته يحكي ويتكلم ويثرثر. . شفتاها سكرى بخمر مجهول معروف. . عيناها ثملتان. . قسماتها مستريحة في استرخاء لذيذ. وجهها كله أشبه بعنقود من العنب الأحمر عصرته شفاه جائعة!

ووقفت سنية تنظر إلى زبيدة مشدوهة.

لقد تركتها رماداً، ووجدتها ناراً. . تركتها زهرة ذابلة، ووجدتها زهرة متفتحة. . بل وجدتها حديقة مليئة بالورود. . تركتها بقايا امرأة، وعادت لتجدها كل نساء الدنيا في امرأة واحدة!

منذ أقل من ساعة كانت زبيدة امرأة شبه محنطة. المقعد الذي كانت تجلس عليه هو تابوتها، الفستان الذي ترتديه هو كفنها. . وعندما نقلها محمد من المقعد إلى الفراش، نقلها من الموت إلى الحياة. وعندما جرّدها من الكفن عادت إليها الروح!

عندما يتعانق الوجد واللهفة يلدان مخلوقاً من الهناء. كأن أصابع محمد عندما لمستها، أصابع مثال عبقري، أعاد تشكيل جسدها من جديد. كأن هذه الأصابع أضاءت مفاتيح الكهرباء في كل جزء منها، فانبعث نور قوي يسلب العقول. لقد عرفت سنية زبيدة منذ أكثر من

عشرين سنة، ولم ترها، في يوم من الأيام، بهذا الجمال وهـذا الهناء وهذا الشباب!

وتذكرت سنية أنها سمعت في طفولتها من جدتها بقصة ست الحسن والجمال، ابنة السلطان التي مرضت وعجز أطباء الدولة عن شفائها وأسلمت الروح. ثم جاءوا لها بساحر شاب يحمل قيثارة، وأغلقـوا الباب على الساحر وجثة بنت السلطان، وبقي الساحر يعزف بقيثارته ويغني أمام فراش الأميرة الميتة، ثم فتح الباب بعد ثلاثة أيام، وإذا بالأميرة تعود إلى الحياة من جديد، بكل جمالها وصحتها وشبابها وفتنتها!

إن سنية تعرف الآن قصة جدتها على حقيقتها، وتعرف أن الساحر المجهول لم يكن إلا حبيب بنت السلطان، وتعرف أكثر ماذا حـدث عندما أغلقوا الباب!

وعادت سنية تتأمل كل جزء في زبيدة. كل جزء في جسمها يزغرد. كل خلية في جسدها ترقص. كأنها قارب تاه في العواصف والأمواج ثم وجد الميناء!

وتنهدت سنية، وتذكرت المرحوم الأسطى كامل زوجها. وتذكرت الليالي التي أمضتها بين ذراعيه. كانت المرآة تمتلىء بالبخار. . كان كل شيء في غرفتها الصغيرة يرقص ويغني كما يفعل الآن. . كانت تشعر كأنها تقوم بزيارات طويلة إلى الجنة وتأكل كل ما فيها من تفاح!

■ ■ ■

وفتحت زبيدة عينيها في دهشة، وكأنها لم ترَ سنية، ولم تشعر بها طوال هذه الدقائق الماضيـة، وتمطّت في سعـادة واسترخـاء، وكأنها تفتـح ذراعيها لتعانق محمد من جديد. .

وتطلعت إلى وجه سنية وقرأت الحسرة في عينيها، ولم تتصور أنها تتحسر على ليالي الأسطى كامل التي ذهبت ولن تعود. واعتقدت أنها تتحسر عليها. تتحسر على القلعة الصامدة التي استسلمت من أول طلقة!

وقالت زبيدة وهي نصف حالمة ونصف نائمة:

ـ أظنك تقولين إنني ألعب بالنار!

وابتسمت سنية وهي تملأ عينيها بجمال سيدتها الجديد:

ـ كلا.. كنت أفكر كيف استطعت أن تعيشي طوال هذه السنين بغير كبريت! كنت أشبه بقنديل مليء بالغاز، وهو منطفىء مظلم، لأنه ينقصه الكبريت!

قالت زبيدة وهي تتأمل أناملها التي قبلها محمد بشفتيه واحدة واحدة:

ـ الغريب أن الكبريت كان في يدي طوال هذه المدة ولم أره.. وعندما أردت أن أشعل عوداً، اشتعلت علبة الكبريت كلها مرة واحدة!

قالت سنية ضاحكة:

ـ هل أحرقت أصابعك؟

وأغمضت زبيدة عينيها في سعادة وقالت:

ـ كلا.. إنها أضاءت قلبي، وجسدي.. وروحي!

ثم سكتت زبيدة قليلاً وتحسست بيدها جسمها، وكأنها خشيت أن

يكون محمد قد حمله معه عندما خرج من الغرفة ثم قالت:

ـ أتعرفين يا سنية إنني بدأت أندم؟

قالت سنية مفجوعة:

ـ تندمين؟

قالت زبيدة:

ـ نعم، أندم.. أندم لأنني لم أشعل عود الكبريت في أول يوم التقيت فيه بمحمد.. كان يجب أن أشعل الكبريت في الشارع. في شارع حوض الزهور الذي رأيته فيه لأول مرة!

ومضت زبيدة تتكلم، وأحرف الكلمات سكرى، وهي تتمايل فوق شفتيها:

ـ إنني أشعر أنني ولدت اليوم من جديد. ولو مت الآن فسأموت راضية قريرة العين. السعادة التي ذقتها هذه الساعات القليلة تكفي عمري كله.. كأنني لم أحب محمداً قبل هذه الساعات. كأن كل هذا الهوى الجارف، كل هذه الليالي المحرومة، كل هذا الغرام الملتهب كان لعب أطفال.. الحرمان هو سفح الحب، والعطاء هو قمته.. وبدون عذاب الصعود من السفح، لا نشعر بلذة الوصول إلى القمة.. عندما تلاشيت في محمد أحسست بوجودي لأول مرة. عندما أغمضت عيني وأنا بين ذراعيه أبصرت كل جماله!

قالت سنية وهي تضحك:

ـ لعلك الآن عدلت عن إصرارك على الطلاق فوراً!

قالت زبيدة في حماس:

- بالعكس . . أصبحت مؤمنة بضرورة الطلاق فوراً . . لو كان الأمر بيدي لخرجت الآن من هذا البيت!

قالت سنية :

- يجب أن تتركي الأمر إلى محمد . . لا تفتحي هذا الموضوع عندما يجيء لمقابلتك يوم الأربعاء المقبل .

قالت زبيدة :

- يوم الأربعاء؟ . . هل أنت مجنونة؟ أتتصورين أنني أستطيع أن أبقى بغير أن أراه سبعة أيام؟ . . لقد قلت لمحمد وهو يخرج من الغرفة إنني لا بد أن أراه غداً!

وابتسمت سنية ولم تقل شيئاً! إن الذين ذاقوا التفاح لأول مرة في حياتهم، يتمنون لو أكلوا التفاح كل يوم، في الافطار والغداء والعشاء!

■ ■ ■

ولكن التفاح الذي أكله محمد ترك فيه أثراً مختلفاً . شعر بنفس النشوة . ذاق نفس اللذة . تمنى أن يرى زبيدة كل ساعة، لا كل يوم كما طلبت منه، ومع ذلك أحدثت فيه هذه الفاكهة الشهية شعوراً جديداً، بأنه يجب أن يفعل شيئاً ليسقط الطاغية، ليقرب يوم الفجر لزبيدة وله ولكل أبناء الشعب .

وذهب من بيت عوني باشا حافظ مباشرة إلى جريدة «الجهاد»، وطلب من الأستاذ حسن توفيق المشرف على التحرير أن ينقله من القسم الفني إلى القسم السياسي في الجريدة . لم يعد يطيق أن يكتب عن الفن والبلد يحترق . أن يصف النجوم وأبناء بلده يداسون على

الأرض بالأقدام.. أن يتحدث عن جمال خيال الشعراء، ويترك الحديث عن بشاعة الحقيقة!

ودهش مدير التحرير أن يطلب محمد نقله إلى القسم السياسي، والمحررون يهربون من السياسة حيث السجن والمطاردات والمحاكمات والإرهاب.. وأحاله على الدكتور محمود عزمي المشرف على الأخبار السياسية.

وقال محمد إنه يريد أن يكتب عموداً سياسياً يهاجم فيه الحكومة كل يوم.

وضحك الدكتور عزمي وقال: إنه يؤمن أن خير طريقة لمهاجمة الحكومة.. ألا تهاجمها الصحف بالمقالات، وإنما تهاجمها بالأخبار! الخبر الصحيح ممكن أن يهز الحكومة أكثر مما يهزها مقال بعرض الصفحة الأولى!

وبدأ الدكتور عزمي يدرب محمداً على فن التقاط الأخبار. وأعجب محمد بعبقرية عزمي وعلمه الغزير، واطلاعه الواسع. ولكن الشيء الذي أدهشه أن عزمي كان يكتب في جريدة وفدية، ولا يؤمن بالوفد، وأنه يعمل مع رجل متدين متصوف مثل توفيق دياب، وهو ملحد! وكان عزمي متزوجاً من سيدة روسية بيضاء، كانت في شبابها امرأة رائعة الجمال، ومع أنها أصبحت عجوزاً، إلا أن عزمي كان يعاملها كأنها فتاة في العشرين. كان يحبها حباً أقرب إلى العبادة. وكان محمد بحكم بيئته الشرقية يذهل عندما يرى مدام عزمي تتدخل في عمل زوجها، وتفاوض إدارة الجريدة باسمه، وتختلف مع المشرفين على الجريدة نيابة عنه!

وقال له الدكتور محمود عزمي:

ـ نريد أخباراً للجريدة. . مع العلم بأن هذه جريدة حزبية، ويجب أن تلتزم بخط الحزب السياسي، وتنفذ قراراته!

قال محمد:

ـ إنني مستعد أن أذهب إلى البرلمان وأجيء للجريدة بأخبار البرلمان.

قال عزمي باسماً:

ـ إن الوفد قرر مقاطعة أنباء البرلمان لأنه لا يعترف بالدستور الجديد، ولا بالبرلمان الجديد!

قال محمد:

ـ إذن أجيء لكم بأخبار مع الوزراء!

قال عزمي:

ـ إن الوفد أصدر قراراً بتجاهل كل أعمال الوزارات. .

قال محمد:

ـ إذن أجيء لكم بأحاديث مع الوزراء!

وضحك الدكتور عزمي:

ـ والوفد أصدر قراراً يحرم فيه على أي وفدي أن يصافح وزيراً حالياً أو عضواً في البرلمان الحالي. ويحرم على الوفديين قبول دعوة واحد منهم إلى طعام، أو حضور فرح لهم، أو السير في جنازة واحد منهم!

وابتسم محمد، وتذكر مثلاً شعبياً يردده والده المعلم حنفي «صحيح لا تكسر، ومكسور لا تأكل، وكل حتى تشبع»!

وقال للدكتور عزمي:

ـ وكيف أجيء بالأخبار، وأنا محرّم علي أن ألتقي بمصادر الأخبار؟!.

قال عزمي:

ـ إن واجبي أن أذكر لك التعليمات التي لدي..

وتدخلت مدام عزمي في الحديث وقالت:

ـ لا تسأل عن كلام الوفديين.. إذهب وقابل الوزراء كما تشاء واحضر للجريدة الأخبار!

قال محمد:

ـ وماذا يفعل الوفد لو خالفت قراره؟

قال عزمي:

ـ لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً! كل ما يستطيعون أن يفعلوه أن يطردوك من هذه الجريدة، وستجد عملاً في جريدة أخرى!

وشحب وجه محمد. يبحث عن عمل في جريدة أخرى؟! إنه يعرف تماماً أن مئات الصحفيين عاطلون لا يجدون عملاً! وإذا طرده الوفد من صحيفته، فسوف يحرم على صحفه الأخرى أن تعينه محرراً بها. لن يبقى أمامه إلا أن يعمل في صحف الحكومة.. الحكومة التي يريد أن يسقطها بأي ثمن!

وبدأ محمد يبحث عن أخبار. يتفادى الوزراء وأعضاء البرلمان.. قدمه الدكتور عزمي إلى بعض كبار الموظفين. في أول الأمر كان يجيء

بأخبار تافهة. يلقيها عزمي في سلة المهملات . .

وذات يوم أخبرته زبيدة أن عوني باشا أخبرها أن معركة في الخفاء تدور بين صدقي باشا رئيس الوزراء وزكي الإبراشي باشا ناظر الخاصة الملكية . . وأن الإبراشي يحاول أن يحكم من وراءالستار . . وأن صدقي يهدد بالاستقالة . .

وكتب محمد الخبر الخطير، ودفع به إلى الدكتور عزمي الذي اهتم به، وتحراه، فوجده صحيحاً، ونشره بحروف بارزة!

وهزّ الخبر القصر والوزارة. وعلّقت الصحف على النبأ، وأحسَّ محمد لأول مرة في حياته بأنه أصبح مخبراً صحفياً!

ولكنه لم يفرح بالنصر الصحفي فرحه بأنه استطاع أن يهز حكم الطغيان . . الصحافة ليست غايته . . إنما هي وسيلته . . وهي المسدس الذي يمسكه بيده ويرد به على السياط!

■ ■ ■

وبينما كان محمد جالساً في مكتبه جاء الساعي يدعوه إلى مقابلة الدكتور عزمي لأمر هام . .

وأسرع محمد فقال له الدكتور عزمي باسماً:

ـ إنني أبحث عنك! إنني سأكلفك بمهمة صحفية! ستكون هذه هي فرصتك الأولى لتنشر شيئاً في صفحة المحليات بإمضائك! كل الأحاديث التي نشرتها للممثلات بإمضائك نشرت في الصفحات الأخيرة! . .

وفرح محمد بهذه الفرصة الذهبية التي أتاحها له الدكتور عزمي . .

وقال الدكتور عزمي :

ـ لقد كنت أمس، أتناول طعام العشاء عند سفير إيطاليا في القاهرة الكونت نوزانو، لتكريم الأدميرال لوبي قائد الأسطول الايطالي الذي زار الأسكندرية. وجلست إلى جانبي على المائدة شابة تتحدث الفرنسية بطلاقة، وحدثتني طويلاً عن الفرق بين المرأة المصرية ونساء أوربا، حديث امرأة خبيرة مع صغر سنها، وفهمت منها أنها طافت عوالم أوربا، وتصورت في أول الأمر أنها زوجة سفير فرنسا في القاهرة فقد كان يناديها السفير الايطالي دائما بلقب «سعادة السفيرة».. ثم دهشت عندما علمت أنها سيدة مصرية..

وقد عرضت عليها أن أرسل لها محرراً من «الجهاد» يحصل منها على حديث تبدي فيه هذه الآراء القيّمة الممتعة، فرحبت بالفكرة، وقالت إنها وهي في أوربا قرأت في «الجهاد» حديثاً لأم كلثوم مع أحد محرري الجريدة الذي لا تذكر اسمه، وهي تريد أن تتحدث مع نفس المحرر..

وذكرت لها اسمك، فقالت إنها لم تسمع به.. وأكدت لها أنك صحفي شاب لك مستقبل..

وكان جبرائيل بك تقلا صاحب «الأهرام» موجوداً في المأدبة، وسمع طرفاً من حديثها معي، وأعتقد أنه سيحاول أن يسبقنا بالحديث. ولهذا فقد حصلت منها على موعد لك في الساعة العاشرة صباح بعد غد، لأنها ستقابل الملكة نازلي صباح غد..

وابتهج محمد بثناء الدكتور عزمي عليه، وباختياره لهذه المهمة، وبأن المقال الذي كتبه عن أم كلثوم وصل إلى أوربا.

وأعطاه الدكتور عزمي ورقة وهو يقول:

ـ هذا هو اسم السيدة وعنوان بيتها . .

وقرأ محمد الورقة، وارتعشت الورقة في يده:

كان مكتوباً على الورقة:

حرم حسين باشا الأشموني.
سفير مصر في روما.
بمنزل والدها كمال باشا المناسترلي.
شارع الجزيرة بجوار قصر الأمير عمرو ابراهيم.

وقال محمد وقد اصفر وجهه:

ـ لا يمكن أن أقوم بهذا الحديث؟

قال عزمي في استغراب:

ـ لماذا؟ . . . إن هذه السيدة ممتازة فعلاً، ولها آراء تقدمية، آراء جديدة فعلاً!

قال محمد:

ـ إن زوجها من رجال الحكم . . والوفد حرّم على الوفديين مقابلة أحد من هؤلاء الحكام . .

قال الدكتور عزمي:

ـ إن الوفد حرّم مقابلة الوزراء والنواب . . والأشموني باشا سفير . . لا هو وزير، ولا هو نائب؟

قال محمد:

ـ إن والد هذه السيدة عضو في مجلس الشيوخ . . وينطبق عليه قرار

المقاطعة، وممنوع أن أدخل بيت أحد أعضاء برلمان صدقي!

قال الدكتور عزمي وقد لمح في عيني محمد أنه يصطنع أسباباً ليرفض إجراء الحديث:

ـ ماذا جرى لك يا محمد.. لم أكن أعرف أنك تخاف من النساء!

قال محمد:

ـ إنني لا أخاف من النساء.. ولكنني أكره هذه الطبقة!

قال عزمي:

ـ وأنا أكرهها مثلك.. ولكن يجب عليك كصحفي أن تؤدي واجبك. لو طلبت منك أن تحصل على حديث من لص قاتل، فيجب أن تذهب وتقابله وأنت تكره اللصوص والقتلة، الصحفي كالطبيب.. يجب أن يذهب إلى كل مكان يستدعى إليه دون أن يسأل عن شخصية المريض.. إذا لم تعجبك آراء هذه السيدة فانشر هذه الآراء، وانتقدها وهاجمها.. ولكن لا يجوز أبداً أن ترفض القيام بعمل صحفي لأنك لا تحب مصدر الخبر.. الصحفي الذي يرفض مهمة أشبه بالجندي الذي يصدر إليه أمر القائد بإطلاق النار فيمتنع عن إطلاق النار.. في الجيش يحكمون على هذا الجندي بالإعدام، وفي الصحافة يحكمون عليه بالإعدام أيضاً.. الإعدام في الصحافة يعني فصلك من الجريدة!

وسكت الدكتور عزمي ثم وقف وقال في حزم:

ـ إذهب وأحضر هذا الحديث.. لقد وعدت أنك ستحضر في الموعد!

■ ■ ■

وخرج محمد من غرفة الدكتور عزمي مضطرباً، مهزوزاً، حائراً!

كيف استطاعت نجوى المناسترلي، هذه الفتاة الصغيرة أن تخدع عبقرياً داهية كالدكتور عزمي؟ كيف استطاعت أن تبهره بأفكارها، وتجعل هذا الصحفي الذي لا يعجبه العجب، يعجب بآرائها، ويلح في نشر هذه الآراء في «الجهاد»؟ ثم ما الذي جعل نجوى تختاره دون جميع محرري «الجهاد»؟.. ماذا تريد أن تفعل به أكثر مما فعلت؟.. هل تريد أن تدلي بحديث حقيقة؟ أم أنها استدعته لتعبث له، وتلهو به وترده خائباً بغير حديث، حتى تثبت للدكتور عزمي أنه صحفي فاشل، لا يستطيع الارتفاع إلى مرتبة الحصول على أحاديث من زوجات السفراء؟

وأحس فجأة بشيء يشبه الضربة فوق رأسه! إنه نسي أهم شيء في هذه المشكلة، زبيدة! هل يخبرها بأنه سيذهب إلى لقاء نجوى؟ أم يخفي المصيبة عن زبيدة؟.. ولكن زبيدة تقرأ يومياً جريدة «الجهاد» لأنه يعمل بها، وستقرأ إمضاءه تحت حديث نجوى المناسترلي، وستصبح المصيبة الواحدة مصيبتين!

لا.. سيقول لزبيدة الحقيقة كلها. لقد أصبحت الآن قطعة منه، وأصبح قطعة منها.. كيف يرد على صدق المرأة التي أحبته بالكذب؟ كيف يخفي عن زبيدة كلمة، وقد كشفت له عن كل شيء في قلبها وروحها وجسدها؟. إنه الآن يلتقي بها كل يوم. لقد قالت زبيدة لزوجها إن شقيق الخادمة سنية نقل إلى إدارة شركة السكر في القاهرة وأصبح يزورها يومياً، ولم يعترض الباشا، ولم يهتم بالنبأ على الإطلاق.. كيف يلقاها كل يوم ويكذب عليها ساعة واحدة؟

وذهب محمد إلى موعده مع زبيدة وقصّ عليها ما حدث..

وقبل أن ينتهي من القصة قاطعته زبيدة قائلة:

- طبعاً.. لن تذهب إلى هذا الموعد..

قال محمد وهو يتلعثم:

- قلت للدكتور عزمي إنني لا يمكن أن أذهب إلى هذا الموعد، فقال إن الصحفي كالمجند. والصحفي الذي يهرب من أي معركة يعدم رمياً بالرصاص!

قالت زبيدة حانقة وكأن الغيرة هي التي تتكلم:

- إنني أفضل أن تعدم رمياً بالرصاص على أن تذهب إلى نجوى المناسترلي؟.. ماذا تريد منها أن تفعل بك أكثر مما فعلت؟ لماذا لم تقص على الدكتور عزمي بصراحة قصتها معك؟ لماذا لم تقل له إنها راودتك عن نفسك؟ لماذا لم تذكر له أنك طردت من المدرسة بسببها؟. لو أنك قلت له هذا كله لما أرسلك إلى هذه المهمة!

قال محمد:

- لم أجرؤ على أن أروي له هذه القصة، لا أستطيع أن أطعن في شرف أية إمرأة، حتى ولو كانت هذه المرأة حاربتني بأقذر الأسلحة. توقعت أنني لو قصصت عليه قصتي مع نجوى فسوف يحتقرني.. الدكتور عزمي له آراء غريبة.. إنه يعتقد أن المرأة المصرية دائماً على حق، والرجل المصري دائماً على خطأ.. لقد دهشت أن رجلا لماحاً عبقرياً سقط في شركها، وصدق كلامها.

قالت زبيدة ساخرة:

- لعل نجوى المناسترلي سحرته بعينيها.

قال محمد:

ـ الدكتور عزمي ليس زئر نساء، إنه يعبد زوجته.

قالت زبيدة وهي تمضي في سخريتها:

ـ قد تكون فتنته بفجورها.. كما فتنت أخاً له من قبل!

قال محمد:

ـ إن نقاط الضعف الوحيدة في الدكتور عزمي هي ولهه العجيب بزوجته. على الرغم من أنه مضى على زواجه بها ثلاثون سنة. إنه يعاملها كأنه لا يزال في شهر العسل.. وأعتقد أن نجوى عرفت بدهائها الموروث، وهو دهاء أكبر من سنها، نقطة الضعف هذه. لقد كانت زوجة الدكتور عزمي موجودة معه في عشاء سفير إيطاليا. ولعلها راحت تطنب في ذكاء مدام عزمي، وجمالها وفتنتها.. وهكذا استطاعت أن تدخل قلب هذا العبقري.. إننا عادة نحب الذين يحبون من نحب، ونكره الذين لا يحبون من نحب!

قالت زبيدة:

ـ هذا يدل على أن نجوى المناسترلي وضعت خطة لكي تذهب أنت إلى بيتها.. ربما لتفعل بك ما فعلته بك في المرة الأخيرة، وتدّعي أنك حاولت اغتصابها مرة أخرى، وفي هذه المرة تستطيع أن تضعك في السجن، فإن حادث فصلك من المدرسة السعيدية سوف يثبت إصرارك على اغتصابها، رغم ضربك وطردك من البيت.. وبأي وجه تستطيع أن تقابل خدمها الذين ضربوك وصفعوك وركلوك بالأحذية؟

قال محمد:

ـ الورقة التي بخط الدكتور عزمي مستند بأنني لم أذهب إليها من

تلقاء نفسي، وسوف يشهد هو بطبيعة الحال أنها هي التي طلبت أن أذهب إليها.

قالت زبيدة وهي تدق بأصبعها دقات عصبية على الفراش الذي يجلس فوقه محمد:

ـ إنني أعتقد أن نجوى لا تزال تريدك! إنني أعرف هذا النوع من النساء الفاجرات! كلما عفّ عنهن الرجل التهبت أشواقهن، انفجرت شهواتهن، تحولت الرغبة فيهن إلى نوع من العناد والتصميم! لو لم تقل لنجوى إنك تحب امرأة أخرى لتركتك وشأنك، ولكنَّ اعترافك أمامها، بأنك لا تريدها لأنك تعشق امرأة أخرى هو الذي جعلها مجنونة بك!

قال محمد:

ـ إنها الآن تزوجت، وتقيم في روما، ولا بد أنها رأت ألوفاً من الشبان الذين يشبهون رودولف فالنتينو معبود النساء، ولا أتصور أنها لا تزال تريدني!

قالت زبيدة:

ـ المرأة تتزوج وتعشق، ولا تنسى الرجل الذي أمرها بأن تخلع ملابسها، ثم أمرها بأن ترتدي ملابسها، بغير أن تمتد يده إليها! المرأة تنسى أسماء الرجال الذين جروا وراءها، ولا يمكن أن تنسى الرجل الذي جرت وراءه، وخاصة إذا لم تصل إليه! الشهوة نوع من أنواع الجنون، والشهوة المصدومة هي الجنون الذي يؤدي بصاحبه إلى أن يعتدي على أقرب إنسان إليه! ولكني أعتقد أن نجوى ما زالت في المرحلة الأولى من الجنون! إنها تريدك الآن.. وستحطم رأسك بعد ذلك بعد ليلة واحدة بين ذراعيك! ولهذا فأنا أطلب إليك ألا تذهب إلى

هذا الموعد. إنني واثقة بك يا محمد. صحيح أنني أغار عليك. أغار عليك من الماضي والمستقبل. أغار عليك من الحقيقة والأشباح.. ولكن غيرتي عليك ليست هي دافعي الوحيد لاعتراضي على أن تذهب إليها. إن قلبي يحدثني أنها تريد أن تنتقم منك! كأنها تصورت يوم فصلتك من المدرسة أنها أطفأت نارها، أنها قضت على مستقبلك. وعندما قرأت حديثك مع أم كلثوم في جريدة «الجهاد» اشتعلت النار من جديد، أقوى مما كانت..

سوف تتصور أنني مجنونة. أنني أتخيل أشياء لا حقيقة لها. ولكني امرأة، وأعرف كيف تفكر النساء! إنها تريد أن تلطخك كصحفي، كما لطختك كمدرس للغة العربية. إنها قصدت أن تتقرب من مدام عزمي، ومن الدكتور عزمي، لتحصل على ثقتهما، لكي يصدقاها عندما تؤلف مسرحية جديدة تكون أنت ضحيتها.. ستدهش أن تكون فتاة صغيرة السن بكل هذا الخبث والدهاء! ولكن عمر المرأة لا يحسب بعدد سنوات عمرها. فتيات صغيرات يتصرفن كالعجائز، وعجائز يتصرفن ببراءة الأطفال! المرأة أحياناً ترث دهاء وخبرة وقدرة على الكيد لا تعرف من أين جاءت بها. عقلها لا يبقى دائماً في رأسها. في بعض الأحيان يصبح عقلها في قلبها. وفي بعض الأحيان يصبح عقلها في لسانها. وفي بعض الأحيان يصبح عقلها بين ساقيها، وهنا الكارثة! أنا خائفة عليك يا محمد.. لا تذهب إليها! لا تذهب أبداً!!

قال محمد:

ـ ولكنني لا أخاف منها! إنني صمدت أمامها بعد لقائك الأول. لم أكن يومها ذقت كل هذا الحب ولا استمتعت بكل هذه السعادة. إنني أشعر اليوم أنني قادر على أن أواجهها. قادر على أن أقاومها. قادر على

أن أهزم كل مكائدها . . يجب أن أذهب، إن عملي كصحفي يوجب علي الذهاب!

قالت زبيدة:

- إنني لا أريد أن أقف في طريق عملك الصحفي . . ولست مقتنعة بوجهة نظرك . .ولكنني تعودت في المدة الأخيرة أن أطيعك . . أن أمشي وراءك مغمضة العينين . . ولكنني أحب أن أقول لك إنني لن أستطيع أن أنام الليل هذه الليلة . . سأبقى قلقة إلى الساعة العاشرة صباحاً موعد المقابلة. سأتعذب في كل دقيقة تمضيها معها. لن أستريح إلا عندما أراك أمامي في موعدنا المعتاد بعد ظهر غد . . عدني بألا تطيل النظر إلى عينيها! عدني بأن تجلس في مقعد بعيد عنها! عدني بأن تقصر المقابلة إلى أقصر مدة ممكنة . . حتى تقصر مدة عذابي وشقائي وقلقي!

■ ■ ■

ذهب محمد إلى بيت كمال باشا المناسترلي في الموعد المحدد. واستقبله البواب في ترحاب شديد غريب. نفس البواب الذي اشترك في ضربه وركله وسبه وطرده.

هل نسي البواب وجهه، كما نسي عوني باشا حافظ اسمه، لأن ذاكرة الذين يوجهون الضربات، أضعف كثيراً من ذاكرة الذين تقع الضربات على رؤوسهم!

وأدخله السفرجي الصالون الكبير . .

وبعد دقائق دخلت نجوى وقد فتحت ذراعيها، وتهلل وجهها وهي تقول:

- أهلاً . . أهلاً . . أهلاً!

وملأ محمد عينيه بجمالها مخالفاً تعليمات زبيدة، رآها وقد ازدادت

فتنة وحلاوة. . كأن إيطاليا منحتها بعض سحرها. وجهها ازداد نضارة. جسدها تحول إلى جسد امرأة. الفرق بين جسم الفتاة وجسم المرأة كالفرق بين التفاحة التي لم تنضج والتفاحة التي نضجت. . النضج يزيد كمية السكر فيها!

ودعته إلى أن يجلس بجوارها على الكنبة. .

وتذكر نصيحة زبيدة، فاختار مقعداً بجوار الكنبة!

وقالت له وهي تأكله بعينيها:

ـ كنت واثقة أنك ستجيء، بالرغم من كل ما حدث. . إن الذي بيننا لا يمكن أن ينقطع. . إنني مسافرة اليوم عائدة إلى روما. جئت لأرى أمي المريضة، وحرصت على أن أراك خلال مدة إقامتي. كنت أرغب في أن أراك بنفس شوقي إلى رؤية أمي! سوف أعود بعد أسابيع إلى القاهرة. سينقل زوجي من منصبه في روما إلى منصب كبير في القصر الملكي، وهكذا سوف أتفرغ لك. .

قالت نجوى كل هذه الأخبار، وأصدرت كل هذه القرارات، كأنها «آلة تيكر» التي تدق شركات الأنباء عليها برقياتها بسرعة مذهلة.

لم تترك لمحمد فرصة أن يتكلم، أو أن يناقش، أو أن يعلق، أو أن يعترض كأنها أوامر ملكية لا تقبل النقض والابرام. أوامر إلهية صدرت من السماء وعلى العبد الطاعة والخضوع. .

كأنها كانت واثقة من أن محمداً تعلم جيداً ألا يخالف لها أمراً، من الدرس الذي تلقاه من أيدي البواب والسفرجي والطباخ والسواق الذين ضربوه في بيتها، ومن وزير المعارف الذي فصله من جميع مدارس الحكومة.

وسكت محمد ولم يعرف ماذا يقول!

ضاعت من شفتيه كلمة «لا». . وضاعت من شفتيه كلمة «نعم».

وفجأة سألته نجوى، بصوت امتزجت فيه السخرية بعدم الاهتمام:

ـ على فكرة. . ما هي أخبار غرامك الذي حدثتني عنه؟ هل لا تزال درجة حرارتك مرتفعة إلى درجة الحمى. . أم هبطت مع هبوط الأسعار؟. .

وفوجىء محمد بسؤال نجوى. لقد توقع منها كل سؤال إلا هذا السؤال! جاء إلى هنا ليسأل كصحفي، وإذا به مطلوب منه أن يجيب كمتهم!

وبحث عن رد للسؤال فلم يجد. لم يجد رداً ساخراً كالسؤال، ولم يجد رداً جاداً كحبه.

وأحس أن نجوى رمته في دوامة. .

ورفع عينيه يتطلع إلى عينيها، لعله يجد فيهما الجواب، حلقة النجاة. . ولكنه لم يجد عينيها. . فقد تسمرت العينان في ذعر وهما تنظران نحو الباب.

والتفت محمد إلى الباب!

وإذا به يرى جواب سؤال نجوى يدخل الغرفة!

كانت زبيدة نفسها. . تدخل من باب الصالون!

اندفعت زبيدة إلى الصالون، وقد فتحت ذراعيها، وتهلل وجهها،

وعانقت نجوى، وقبّلتهـا عدة قبـلات، وهي تقول في صـوت مليء بالفرحة والشوق:

ـ الحمد لله على السلامة يا نجوى!

وبادلتها نجوى العناق والقبلات الحارة في ارتباك. لم تتوقـع هذه الزيارة المفاجئة، التي أفسدت خطتها في التعاقد مع العشيق الجديد. كانت قد حددت لمحمد موعد الساعة العاشرة صباحاً، لكي تنفرد به، لأنها تعرف أن هذا الوقت المبكر لا تتبادل فيه السيدات الزيارات..

وابتعدت زبيدة عن نجوى، وراحت تلف حولها، وهي تتأملها في إعجاب وتقول:

ـ لقد تضاعفت جمالاً وأناقة وشباباً.. ما دامت إيطاليا تفعـل في النساء كل هذا، فلا بد أن أسافر فوراً إلى إيطاليا!

كانت نجوى تطير بمثل هذا الاعجاب في أي وقت آخر. كانت على استعداد أن تبقى لتسمع المزيد منه، ولكن ليس هذه المرة. إنها تريد أن تنفرد بمحمد، تريد أن تتفق معه على أن يستأجر جرسونييرة، تدفع هي ثمن فرشها وإيجارها الشهري، بحيث تكون جاهزة لاستقبالها عقب عودتها من روما مباشرة..؟ لقد ملأ هذا المشروع رأسها طوال إقامتها في إيطاليا، وبعد أن رأت أن الشاب سعيد توفيق الذي عينته أمـين محفوظات في سفارة روما لا يقوم بتدريس اللغة العربية بالطريقة التي حلمت بها.. فإذا بهذه الضيفة الثقيلة تجيء في الوقت غير المناسب، وتعكر صفو هذا اللقاء الذي رسمته، وخططت له، وضمنت له كل أسباب النجاح..

وأمسكت نجوى زبيدة من يدها وهي تقول لها:

ـ تعالي معي لتري ماما. ستكـون سعيدة جـداً بزيـارتك، فهي مـريضة ومـلازمة الفـراش. . وستكونـين أول زائرة تستقبلهـا بعـد شفائها. .

ولكن زبيدة لم تتبع نجـوى إلى الباب، بـل سحبت يدهـا منها، وجلسنت في أول مقعد قريب وهي تقول:

ـ دعيني أولاً أسترد أنفاسي. . جئت إلى هنا وكأنني أعدو!

سمعت الآن فقط من صديقتي حرم محمود بك أسعد وصيفة جلالة الملكة نازلي أنك في القاهرة، وأنك تشرفت أمس بمقابلة جلالة الملكة، وأنك ستعودين غداً إلى روما. فألغيت كل مواعيدي، وتـركت كل شيء، وهـرولت إلى هنا عـدواً لأرحب بك. كيف أقبـل أن أعرف أنك في القاهرة ولا أسارع لمقابلتك؟.

قالت نجوى وهي تكتم غيظها خلف ابتسامة عريضة:

ـ إنني سعيدة جداً. . جداً بهذه الزيارة!

قالت زبيدة وقد لمحت نظرة الغيظ خلف الابتسامة:

ـ وعندما استقبلني السفرجي عند الباب، أراد أن يسبقني ويجيء إليك ليعلن لك نبأ حضوري. ولكني أصررت أن أفاجئك بنفسي! قال لي إن الست الصغيرة تستقبل صحفياً في الصالون. قلت له إني أحب الصحـافة. . ولم أرَ صحفيـاً في حياتي. . وأحب أن أتفـرج على أي صحفي. .؟

كانت زُبيدة تتكلم، وقد اتجهت بكل عينيها واهتمامها إلى نجوى، وتظاهرت بأنها لم ترمحمداً، ولم تشعر بوجوده في الصالون!

وأحرجت نجوى، وضايقتها ثرثرة زبيدة، ولكنها بلعت ضيقها، وابتسمت ابتسامة خلّابة وأشارت إلى محمد وهي تقول:

ـ هل تعرفين الأستاذ محمداً؟

وتوقع محمد أن تقول زبيدة على الفور أنها لا تعرف محمداً، ولم تر وجهه مرة واحدة في حياتها. . وفوجىء محمد بزبيدة، تمد يدها إليه، وتصافحه بحرارة، وتقول له ويدها لا تزال في يده:

ـ طبعاً أعرفه. . هل في مصر من لا يعرفه؟ إنه أشهر من نار على علم!

وعلى الرغم من أن هذه الإجابة أذهلت محمداً، إلا أنها أسعدته. . أسعده أن يسمع هذه التحية العلنية، وفهم منها أن زبيدة أرادت أن تكيد نجوى وتغيظها!

ولم تستطع نجوى أن تخفي الدهشة من قسمات وجهها. خانتها ابتسامتها هذه المرة، وتخلت عنها لتترك مكانها للذهول الذي ملأ وجهها وكأنها تسائل نفسها ماذا حدث من العجائب في مصر في الشهور القليلة التي غابت عنها، حتى أصبح الطالب المفصول من المدرسة السعيدية أشهر من نار على علم؟ صحفياً ملء السمع والبصر. . صحفياً تتحدث عنه حرم معالي وزير الدولة بكل هذا الإعجاب والتقدير!

وأحست نجوى بغصة. كانت تتمنى أن يبقى محمد صحفياً مغموراً لتحتكره لنفسها، يجهله كل الناس وتعرفه وحدها. وخشيت أن لمعانه السريع في دنيا الصحافة سوف يفسد خطتها. كلما كبر الرجل، صعب على نجوى أن تقبض بكفها عليه. . ؟ كانت خطتها لا تزال أن تستأجره عشيقاً. . ؟ تدفع له أجر الجرسونييرة. . ؟ تشتري له الملابس

الأنيقة. .؟ إنها لا تريد أبداً أن يملكها رجل. كل ما تريد أن تملك رجلاً تشتريه من السوق كما تشتري الفستان. . فإذا أصبح الفستان قديماً، أو زالت موضته، خلعته واشترت فستاناً جديدا!

وقرأت زبيدة في عيني نجوى كل ما يدور في خواطرها. وعرفت أنها انتزعت الفريسة من أنيابها. ووجدت لذة في أن تمضي في هذه اللعبة. أن تقرب الفريسة من أنيابها، ثم تعود وتنتزعها من جديد، وتستمتع برؤية خيبة الأمل في عيني غريمتها نجوى. .

واطمأنت زبيدة إلى أنها غاظت نجوى بما فيه الكفاية فعادت تقول:

- كيف لا أعرف الرجل الذي يهاجم زوجي كل أسبوع؟ صحيح أن هجومك مؤلم يا أستاذ محمد، ولكنه خفيف الدم. . إن دمك شربات حتى وأنت تشتمنا!

ثم التفتت زبيدة إلى نجوى محتجة:

- كيف تتصورين يا نجوى أنني لا أعرف الأستاذ محمد التابعي رئيس تحرير مجلة «روز اليوسف»؟

وتنفست نجوى الصعداء، لأن محمد عبد الكريم ليس هو المقصود بهذا التشريف والتكريم. وأحست بسعادة لأن زبيدة بعد أن نفخت في البالون فرقعته بشكة دبوس! وسرها في الوقت نفسه أن زبيدة لا تعرف محمداً. . وأنه لا يزال الشاب المغمور المجهول الذي داسته بقدمها عندما أراد أن يرفع رأسه ويتحداها!

وقالت نجوى:

- إنه ليس الأستاذ محمد التابعي يا زبيدة. إنه الأستاذ محمد

عبدالكريم المحرر الشاب بجريدة «الجهاد». وقد حضر ليحصل على حديث مني..

■■■

وتوقعت نجوى أن تقف زبيدة، وتستأذن، في الصعود إلى الطابق العلوي للاستفسار عن صحة والدتها، بعد أن اكتشفت أن الأستاذ محمدآليس هو الكاتب السياسي المشهور، وإنما هو كاتب صغير مغمور لا يصح أن تتنازل زوجة الوزير وتشرفه بالحديث معه!

ولم تتحرك زبيدة من مقعدها، بل قالت:

- هذا شيء رائع حقاً.. إنها أول مرة في حياتي أتفرج على صحفي وهو يحصل على حديث..؟ تمنيت طوال حياتي أن أحضر مثل هذا اللقاء المثير، لأعرف كيف يعصر الصحفيون مصادر الأخبار، وينتزعون منهم الأنباء والتصريحات.. هيا يا أستاذ محمد.. إسأل نجوى.. ونجوى ستتولى الإجابة.. وأنا سأبقى صامتة.. أكتفي بالتفرج من بعيد!

وفتح محمد فمه، فقاطعته زبيدة وقالت لنجوى:

- هل جاء حسين باشا معك؟ سيغضب عوني باشا لأنني لم أخبره بحضوره، فقد كان يحب أن يجيء لتحيته!

ولم تفهم سر هذا السؤال، ولكن محمداً فهمه!

وقالت نجوى ببراءة:

- إنني جئت وحدي.. لأن لدى حسين مقابلات هامة في روما!

والتفتت زبيدة إلى محمد وقالت له:

ـ الأستاذ محمد . . متزوج طبعاً؟!

قال محمد وقد فاجأة السؤال على غير انتظار:

ـ لا . . .

قالت زبيدة:

ـ إذن أنت تحب! عيناك تقولان إنك تحب! كل الصحفيين يحبون!

وقال محمد:

ـ نعم أحب . . وسأتزوج من أحبها!

وامتقع وجه نجوى . . كان نبأ زواج محمد أشبه بقنبلة انفجرت في الصالون وأصابتها شظاياها!

وأسرعت زبيدة وكأنها تريد أن تجهز على غريمتها:

ـ أريد أن أسألك سؤالاً . ويجب أن تكون صريحاً في إجابتك . . وإذا لم ترد الإجابة على السؤال فمن حقك أن تمتنع عن الإجابة!

وضحك محمد وقال:

ـ إنك تتكلمين بطريقة الصحفيين، أعدك بأن أجيب على أي سؤال ولا أمتنع عن الإجابة على أي سؤال!

قالت زبيدة وقد ركزت عينيها على وجه نجوى:

ـ أريد أن أسألك: هل إذا حدث وأنت تحب أن رأيت فتاة جميلة، حاولت أن تغريك بسحرها وجمالها . . فهل تخون المرأة التي تحبها مع هذه المرأة الجديدة؟

قال محمد:

ـ لا يمكن أن أخون المرأة التي أحبها.

قالت زبيدة:

ـ حتى ولو كانت المرأة الجديدة.. ملكة جمال مصر؟

قال محمد:

ـ ولو كانت ملكة جمال العالم! الذي يحب حقيقة يجد لذة في الإخلاص.. نفس اللذة التي يشعر بها غير المحب.. في الخيانة!

واصفرّ وجه نجوى.. كرهت محمداً لأنه أمسك المسدس وأفرغ رصاصاته فيها.. وكرهت زبيدة أكثر.. لأنها هي التي سلّمت محمد المسدس الذي قتلها به!

وقالت نجوى وكأنها تريد أن تضع نهاية لهذا الموضوع:

ـ لقد جاء الأستاذ محمد ليسألني أنا.. وإذا بنا نحن اللتين توجهان له الأسئلة!

قالت زبيدة وهي تضحك:

ـ إن الموسيقار محمد عبدالوهاب ظهرت له أسطوانة جديدة يقول فيها «تيجي تصيده.. يصيدك»!

ثم اتجهت إلى نجوى وقالت:

ـ بمناسبة عبد الوهاب.. هل أخذت معك يا نجوى إلى روما أسطوانات أم كلثوم؟

قالت نجوى بعصبية، وكأن زبيدة أصابت جرحاً في نفسها اسمه أم كلثوم:

ـ إنني لا أحب أم كلثوم. . ولا أطيق سماع صوتها!

قالت زبيدة:

ـ غريبة. . كنت أعرف منك أنك تعشقين صوت أم كلثوم وتحتفظين بكل أسطواناتها!

قالت نجوى:

ـ أصبحت أكرهها. . وقد حطمت كل أسطواناتها!

ونظرت زبيدة إلى محمد نظرة وكأنها تقول له: هل صدقتني عندما قلت لك إن نجوى المناسترلي تصورت عندما قرأت حديثك مع أم كلثوم أنها تحبها؟ هل آمنت الآن أنني أعرف النساء جيداً.

وهز محمد رأسه كأنه يقول لها: صدقت وآمنت!

ولم تفهم نجوى من هذه النظرات إلا أن محمداً لا يوافق على رأيها في أم كلثوم. .

وانفجرت تقول:

ـ الأستاذ محمد معجب جداً بأم كلثوم! قرأت له حديثاً معها أثناء وجودي في روما. . وقد تحدث عنها كأنها أسطورة أين صوتها من صوت المغني الأيطالي كاروزو؟ أين موسيقاها من موسيقى فردي. . أين جمالها من جمال جريتا جاربو وجين هارلو ومارلين ديتريش وغيرهن من كواكب السينما. . . عيبنا في مصر أننا لم نسافر إلى أوربا. لم نزر الكونسرفاتوار. . لم نعرف الفن الحقيقي في عواصمه! أم كلثوم موضة قديمة! لقد ظهرت في أوربا فنانات أعظم ألف مرة من أم كلثوم.

قال محمد: إنهم بنوا في نيويورك عمارة ارتفعت مائة واثنين من الطوابق وهي أعلى من أهرام الجيزة.. وأضخم من أهرام الجيزة ولكن العالم كله يعترف بأن الأهرام هي إحدى عجائب الدنيا السبع.. وأنا رأيي أن أم كلثوم الأعجوبة الثالثة في الأمة العربية.. الأعجوبة الأولى هي نهر النيل.. والأعجوبة الثانية هي الأهرام.. والأعجوبة الثالثة هي أم كلثوم!

قالت زبيدة وهي تتعمد أن تغيظ نجوى:

ـ إن الأستاذ محمداً يتكلم بلسان عاشق أكثر مما يتكلم بلسان كاتب! ولا بد أنك تعرف أم كلثوم جيداً لتحبها كل هذا الحب!

قال محمد:

ـ نعم أعرفها جيداً.. وأعرف أن شوقي وصف صوتها بمزامير داوود.. وأعرف أن كاتباً معروفاً قال عنها مرة «لو كنت شاعراً لكتبت ديواناً على شفتي أم كلثوم»!

وأحست نجوى برغبة في أن تصرخ وتستدعي السفرجي والبواب والطباخ والسائق ليضربوا محمد عبد الكريم وزبيدة ويطردوهما خارج البيت، ولكنها تمالكت نفسها وقالت:

ـ أنا شخصياً لا يؤثر فيّ صوت أم كلثوم!

قالت زبيدة:

ـ عندما تحبين يا نجوى سوف تفهمين أم كلثوم! الذين لم يذوقوا الحب الحقيقي لا يستطعمون صوتها. قلوب العاشقين وحدها هي التي تستطيع أن تلتقط كل الجمال الذي في صوتها! هذه القلوب وحدها هي التي تعرف معنى اللوعة في صوتها، معنى الشوق في نبراتها، معنى الهناء

في شدوها. أما الذين لم يحبوا أبداً فهم يسمعون أم كلثوم وكأنها تغني بلغة أجنبية لا يفهمونها!!

قالت نجوى وكأنها تتحداها:

ـ إذن أنت تحبين يا زبيدة!

قالت زبيدة:

ـ نعم أحب! أحب رجلاً رائعاً! يجعلني أكتفي بـه! يسقيني حتى يرويني! قبلته تميتني وتحييني! فنيت إرادتي في إرادتـه! أتبعه إلى كـل مكان.. أشعر كأنه لا يفارقني أبـداً. وأنا جالسة هنا أحس به يجلس بجواري، يستمع لحديثي، هذا هو الحب.. أما حب الامتلاك فشيء آخر ليس حباً! فالمحب يحب شخصاً واحداً. أما حب الامتلاك فهو حب متعدد! فالذي يملك عمارة واحدة يرحب أن يملك عمارتين.. وثلاث عمارات! والمرأة التي تريد أن تمتلك رجلاً، لا مانع لديها من أن تمتلك رجلين وثلاثة رجال في وقت واحد! الحب تضحية، والامتلاك أنانية.. الحب وحدانية، والامتلاك تعدد.. الحب جد، والامتلاك لهو.. أنا لا أشعر أنني أملك الرجل الذي أحبه، أشعر أنه هو الذي يملكني!.. وهو لا يشعر أنه يمتلكني.. بل هو يحس أنه قطعة مني!

قالت نجوى:

ـ وأين وجدت هذا الرجل؟

قالت زبيدة ضاحكة:

ـ وجدته في قلبي.. إنه حبي وزوجي وشريكي في الحياة.. الرجل الوحيد في حياتي.. لم أعرف قبله رجلاً.. ولن أعرف بعده رجلاً!

قالت نجوى في دهشة:

ـ لم أكن أعرف أن عوني باشا دون جوان؟

وكادت زبيدة تقول لها إن عوني باشا «دون» فقط. وليس «دون جوان». . ولكنها سرحت لأنها أصيبت بالعمى، فلم تعرف أن حبيبها هو الجالس أمامها. . واكتفت بالابتسام!

وكان محمد جالساً مسحوراً، وهو يشهد على المسرح هذا الحوار بين ممثلتين بارعتين. كان من قبل يتصور أن نجوى هي الممثلة الأولى، وإذا به يكتشف أن زبيدة هي الممثلة الأولى، والمؤلفة الأولى، والمخرجة الأولى أيضاً!

كانت توجه إليه الحديث دون أن تنظر إلى عينيه، تناجيه دون أن تسمع نجوى صوت نجواها، تغازله، تحتضنه، تقبله بكل كلمة تنطق بها. وهي في الوقت نفسه تغرس سكينها في غريمتها وهي تتظاهر بأنها تربِّت عليها، تخنقها وكأنها تعانقها، تلعنها وكأنها تثني عليها، تدوسها بقدمها متظاهرة أنها تضعها فوق رأسها!

قالت نجوى وهي مأخوذة بقصة الحب بين زبيدة وزوجها:

ـ إنك أول زوجة سمعتها تتحدث عن حياتها بمثل هذا الوله. . الزوجة تشعر بعد فترة أن بيتها أصبح أشبه بسجن!

قالت زبيدة:

ـ إنني أحب بيتي الآن أكثر مما أحببته في أي يوم في السنوات العشر الماضية. . جنتي الآن في بيتي. . لم أرَ السعادة والهناء كما رأيتها اليوم في بيتي؟

وكادت زبيدة تقول في بدروم بيتي . . ولكنها توقفت لترى الدهشة في عيني نجوى!

■ ■ ■

وشعرت نجوى برغبة في أن تنفرد بمحمد، لتسأله ألف سؤال عن قصة المرأة التي يحبها ويعتزم الزواج بها . . كانت تريد أن تعود إلى إثارة هذا الحديث من جديد، ولكن زبيدة لم تعطها فرصة لتفتح فمها . .

ثم هي تريد أن تتحدث مع محمد على انفراد، وهي لا تشعر بقوتها مع الرجل إلا إذا حدثته على انفراد والباب مغلق بالمفتاح . .

ونظرت نجوى إلى ساعتها، وتعمّدت أن تراها زبيدة وهي تنظر إلى الساعة، حتى تعرف أنها مرتبطة بموعد، فتتحرك من مقعدها وتخرج، وتتركها وحدها مع محمد.

ولكن زبيدة لم تتحرك من مقعدها، وتظاهرت بأنها لم تشهد نجوى وهي تنظر إلى ساعتها، وأنها تتمنى لو خرجت العقارب من الساعة ولدغت زبيدة!

ولم تتمالك نجوى نفسها فقالت لزبيدة:

ـ أخشى أن أكون قد عطلتك عن مواعيدك . . تعالي الآن نصعد لنرى ماما قبل أن يجيء الطبيب.

قالت زبيدة وهي تضع يدها على قلبها:

ـ إن الطبيب قال لي إن قلبي مريض . . وأمرني بألا أصعد درجات السلالم . . وأنا أفكر في أن أنقل غرفة نومي إلى البدروم!

قالت نجوى في دهشة:

ـ في البدروم؟

قالت زبيدة:

ـ نعم. . إنني أشعر أن النوم في البدروم ألذ كثيراً من النوم في الدور العلوي. . وقبل أن أتزوج كنت أقيم مع أبي في غرفة متواضعة في بدروم بيت بسيدنا الحسين. . وهكذا عندما أنام في البدروم سأشعر أني عدت إلى شبابي!

وعجبت نجوى لزوجة الوزير التي تريد أن تنام في البدروم، ولم يدر بمخيلتها أبداً أنها تنام الآن أحلى ساعاتها في البدروم!

ورأت نجوى عيني محمد تبتسمان، وخيّل إليها أنه يشاركها السخرية بزوجة الوزير التي تتمنى أن تنام في البدروم، ولم يدر بخاطرها أن محمد يسخر منها هي، لأنها لا تتصور أنه هو أيضاً يفضل النوم في البدروم في بيت عوني باشا حافظ، على النوم في السطح في شقته بجزيرة بدران.

وزاد ضيق نجوى بالزائرة الثقيلة التي احتلت الصالون وابت الجلاء.

كلما أقفلت نجوى موضوعاً فتحت زبيدة موضوعاً جديداً. كلما تصورت أن زبيدة قالت كل ما عندها وتتهيأ للانصراف فوجئت بزبيدة تثير مناقشة أخرى.

وضاعف من ضيقها أنها لم تشعر أن محمداً ضاق بهذه الزائرة مثلها، على العكس رأته يضحك في الوقت الذي تريد هي فيه أن تبكي!

وكان محمد يضحك من الصراع الدائر بين المرأتين. زبيدة تعتقد أن مهمتها أن تبقى في الصالون ما بقي محمد في الصالون، تحرسه من

إغراء نجوى، تحميه من مكائدها. . ونجوى تعتقد أن مهمتها لا تبدأ إلا بعد انصراف هذه الزائرة الثرثارة التي حولت الجنة التي أعدتها لنفسها إلى جحيم. . !

هي معركة سوف يكسبها من يصبر أكثر!

ونفد صبر نجوى، وقالت وهي تنظر إلى ساعتها بضيق:

ـ آسفة يا أستاذ محمد. . يظهر أن الوقت لا يتسع لأدلي لك بالحديث الذي أريده. لأن عندي الآن موعداً مع طبيب الأسنان.

وقالت زبيدة ببساطة:

ـ يمكنك أن تذهبي يا نجوى إلى طبيب الأسنان، وينتظرك الأستاذ محمد حتى تعودي. .

وتهلل وجه نجوى، وقد وجدت حلاً للمشكلة. . ستتظاهر بالخروج من البيت، ولا تكاد تبتعد سيارة حرم عوني باشا حافظ، حتى تعود بسيارتها إلى البيت من جديد وتنفرد بمحمد. .

ولم تتركها زبيدة تستمتع طويلاً بهذه السعادة فقالت:

ـ وأنا مستعدة أن أبقى هنا مع الأستاذ محمد. . إلى أن تعودي من زيارتك لطبيب الأسنان!

وصرخت نجوى بغير وعي:

ـ مستحيل أن أتركك معه!

ثم تمالكت نفسها وعادت تصحح غلطتها التي أفلتت منها وقالت وهي تبتسم:

ـ مستحيل أن أتركك معه طوال هذا الوقت، وأعطلك عن مواعيدك!

قالت زبيدة ببساطة:

ـ أنا فاضية اليوم.. قلت لك إنني ألغيت كل مواعيدي من أجلك.. إذا كنت تخافين علي من الأستاذ محمد، فلا مانع أن أصحبك إلى طبيب الأسنان، ويبقى هو في انتظارنا!

وأحس محمد بأن نجوى تريد في هذه اللحظة أن ترتكب جريمة قتل!

فأسرع يقول:

ـ آسف.. إنني مضطر للانصراف الآن.. فإن لدي أعمالاً هامة في الجريدة..

قالت نجوى وهي تتلوى من الألم وخيبة الأمل:

ـ سوف نستأنف الحديث.. عندما أعود من روما.. لن أغيب طويلاً..!

وأحست زبيدة بطعنة، وهي تسمع كلمة «لن أغيب طويلاً». فأسرعت تطعن نجوى بنفس السكين وتقول:

ـ ولكن لا تنسي يا نجوى أن تدعوني لأحضر الحديث.. إنني أموت شوقاً إلى التفرج على صحفي وهو ينتزع الحديث..؟ لا بد أنه شيء مثير جداً..!

■ ■ ■

ووقف محمد، وصافح زبيدة، فقرصته في كفه وهي تصافحه،

وفهم من هذه القرصة أنها ضبطته ينظر إلى نجوى أثناء الحديث مخالفاً التعليمات . .

ومشت نجوى بجوار محمد إلى الباب . . ستنتهز فرصة انفرادها به، وهي تصحبه إلى باب الخروج، لتسر في أذنه أن يعود إلى لقائها في الساعة السادسة بعد ظهر اليوم، لأنها تريد أن تحدثه في أمر هام. إنها لم تيأس بعد أن سمعت من شفتيه أنه يحب امرأة أخرى وسيتزوجها. زاد تشبثها به. إنها أيضاً متزوجة. ما المانع أن تعشقه وهو متزوج؟ المتزوج عادة يكون أحرص من العازب، يتكتم السر، ولا يثرثر به لأصدقائه . .

ولكن زبيدة لم تترك لها الفرصة التي تمنتها. مشت هي أيضاً بجوارها مع محمد. كأنها تحرص على ألا تتركه لحظة واحدة معها. إنها تعرف زبيدة منذ بضع سنوات، ولم تلاحظ من قبل أنها امرأة فضولية كما تراها الآن. ضيفة ثقيلة فقدت الإحساس، كأنها تتعمد أن تقف بينها وبين الرجل الذي جاءت من روما وهي تحلم بأن تبقى معه بضع دقائق على انفراد، يخططان فيها لعش الغرام الذي سيجمعهما بعد أن ينتقل زوجها إلى وظيفة في القصر الملكي بالقاهرة!

وانصرف محمد دون أن تستطيع نجوى أن تهمس في أذنه بكلمة واحدة. أحست طوال الوقت كأن أذن زبيدة على شفتيها تلتقط كل حرف تهمس به. قدما زبيدة تتبعانها كأنهما جندي بوليس يخشى أن يهرب منه مجرم خطير وقع في قبضته.

وما كاد محمد يختفي وراء سور الحديقة حتى التفتت زبيدة إلى نجوى تقول لها:

ـ أظنك تقولين إنني أثقل امرأة في العالم، لأنني لم أتركك دقيقة.

واحدة مع هذا الشاب على انفراد.. إنني قصدت أن أبقى في الصالون. تعمدت أن أبقى على الرغم مما ظهر على وجهك من الامتعاض.. كانت نظراتك تطردني من الصالون.. لعلك ساءلت نفسك ما الذي جعلني أفعل كل هذا؟

قالت نجوى وهي تتلعثم:

ـ إنني تصورت أن هذا الشاب أعجبك..!

وصرخت زبيدة غاضبة:

ـ هل جننت يا نجوى؟ هل تتصورين أنني أعجب بشاب أصغر مني؟ ثم أنا سعيدة في بيتي.. وأحمد الله على ما أعطاني، ولا أريد أن أستبدل برجلي أي رجل في العالم!

قالت نجوى وهي لا تستطيع أن تخفي حنقها بعد أن عرفت أن زبيدة تعمّدت إفساد خطتها:

ـ وما الذي جعلك تلازمينا باستمرار؟

قالت زبيدة:

ـ كنت أحرسك!

قالت نجوى في دهشة:

ـ تحرسينني..؟ تحرسينني من أي شيء..؟

قالت زبيدة:

ـ أحرسك من محمد عبد الكريم حتى لا يغتصبك!

وضحكت نجوى ساخرة وقالت:

ـ يغتصبني أنا؟! أنا التي أستطيع أن أغتصب عشرة رجال من أمثال محمد عبد الكريم؟!

قالت زبيدة:

ـ ولكن زوجي أطلعني على تقرير سري جاء فيه أن طالباً اسمه محمد عبد الكريم حاول أن يغتصبك.. وفصله وزير المعارف لهذا السبب. وعندما قدمت لي هذا الشاب وقلت إن اسمه محمد عبدالكريم تذكرت اسمه على الفور، واعتقدت أنه جاء يغتصبك مرة أخرى فتعمدت أن أبقى في الغرفة حتى أحميك منه!

وضحكت نجوى من سذاجة زبيدة وقالت:

ـ إن حكاية اغتصابه لي هي مسألة سوء تفاهم.. لقد كان قليل الأدب معي، وكان يجب أن أؤدبه.. وقد تأدب فعلاً!

قالت زبيدة وهي تتظاهر بالغضب لأن شاباً قليل الأدب أهان صديقتها العزيزة:

ـ ماذا قال لك هذا الوقح؟

قالت نجوى:

ـ قال لي إنه يحب امرأة أخرى!

قالت زبيدة وهي تخفي سعادتها لأنها تأكدت من صدق محمد:

ـ إنه مجرم فعلاً! لا يستحق الفصل من المدارس فقط، بل يستحق الإعدام أيضاً..؟ لو كان بيني وبين رجل علاقة حب، وخانني مع امرأة أخرى، فإنني لا أتردد في قتله!

وظهرت على عيني نجوى علامات الغبطة والسرور، عندما وجدت إمرأة أخرى تقرها على الانتقام الذي أنزلته بمحمد . .

وأرادت زبيدة أن تتأكد أكثر من براءة الرجل الذي تحبه . . إن المرأة كلما وجدت دليلاً على براءة حبيبها راحت تبحث عن دليل جديد . . فهي كلما تأكدت من هذه البراءة زادت في شكوكها!

وقالت زبيدة معاتبة نجوى:

ـ لو كنت قلت لي إن بينك وبين محمد علاقة، لانصرفت على الفور، لتركت الصالون في الحال؟ أنا لم أتصور أن بينك وبين هـذا الشاب علاقة . . !

قالت نجوى ضاحكة:

ـ إن العلاقة لم تبدأ بعد!

قالت زبيدة وهي تتظاهر بأنها لا تصدق:

ـ غير معقول! تفعلين بهذا الشاب كل هذا، تـطردينه من جميـع المدارس، تلفقين له تهمة اغتصابك، تتهمينه بأنه خانـك مع امـرأة أخرى، تفعلين كل هذا قبل أن تبدأ علاقتك به . . ؟ ماذا كنت تفعلين به لو كان عشيقك فعلاً؟!

قالت نجوى وهي لا تزال تضحك:

ـ كنت أذبحه!

رأت نجوى في عيني زبيدة الدهشة فمضت تقول:

ـ إنني عرفت شباناً غير محمد هذا . . شباناً أجمل منه كثيراً . . شباناً

ركعوا تحت قدمي، يحملون ألقاباً، يتولون مناصب، يملكون ثروات ضخمة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوني أنسى محمداً. .

وأطرب زبيدة هذا التأثر على الرجل الذي اختارها وحدها، فقالت:

- ماذا في محمد ليس في باقي الرجال؟! أنا لا أرى فيه شيئاً غير عادي. .

قالت نجوى وهي تعض على شفتيها:

- الشيء غير العادي فيه أنه مخلص للمرأة التي يحبها. . أريد أن أعرف هذه المرأة التي انتزعته مني. .؟ إنني مستعدة أن أدفع نصف عمري لأعرف من هي هذه المرأة؟

قالت زبيدة:

- إنني أشك أنها امرأة هامة.

قالت نجوى:

- لا بد، لا بد!

قالت زبيدة:

- إنك أجمل من أي امرأة، فكيف أصيب هذا الشاب بالعمى. .؟

قالت نجوى في عصبية وإصرار:

- حتى لو كانت المرأة الهامة جميلة، فإنني قادرة على أن أنتزعه منها. . حتى لو كانت أجمل امرأة في هذا العالم فلن أسمح لها بأن تأخذ محمد عبدالكريم مني!

■■■

وخيّل إلى زبيدة أنها ترى كتلة من السواد تعبر تفكير نجوى. . ؟ كأنها ترى الملابس السوداء التي يرتديها عشماوي الذي يشنق الناس! كأن نجوى نصبت في داخلها مشنقة تشنق فوقها كل امرأة تحاول أن تقترب من محمد. .

وعجبت لإصرار نجوى الغريب. . عجبت أنها لم تستطع أن تكتم سرها، وباحت به كطفلة صغيرة ساذجة، وليست المرأة الداهية التي تتصرف هذه التصرفات التي تفوح منها رائحة التآمر والتخطيط!

إن شهوتها أكبر من عمرها. وعقلها لا يستقر في مكان واحد. يكبر في حجم رؤوس الدهاة ويصغر في حجم رؤوس الأطفال؟ الرغبة تستبد بها، والإصرار على امتلاك محمد يصيبها بهوس غريب!

كيف يمكن أن تجن امرأة كل هذا الجنون برجل لم تلتصق به! وليس بينها وبينه علاقة كاملة، فتجعلها تصاب بهذه اللوثة التي سيطرت على عقلها وتصرفاتها وحديثها. . ؟

قالت زبيدة، والحيرة تستبد بها، وهل تصدق أذنها أم تصدق عينها:

ـ إنني أريد أن أصدقك يا نجوى، ولا أستطيع أن أصدقك؟ هل معقول أن تكوني مجنونة بمحمد كل هذا الجنون، دون أن يحدث شيء بينكما. .؟

وكأن زبيدة بسؤالها مست زراً مسحورا، فتح الأبواب المغلقة، وخرج الشيطان، ينفخ النار من شفتيه. .

لمعت عينا نجوى لمعاناً غريباً، فيه تحد وتصميم، فيه شبق واستهتار، فيه غيرة هوجاء. .

كانت الكلمات تخرج من شفتي نجوى، ملتهبة، كأنها عواء امرأة تحترق. .

وقالت بصوت أخاف زبيدة وجعلها ترتعد في مكانها:

ـ لم يحدث شيء بعد. .

ولكن سوف يحدث. .

لا بد أن يحدث. .

■■■

طوّق محمد بذراعه زبيدة، واحتضنها وقبلها وهو يقول:

ـ لم أكن أعرف أنك ثرثارة إلى هذه الدرجة. . كنت صباح اليوم امرأة أخرى غير التي عرفتها. . إنك معي تمكثين أحياناً ربع ساعة كاملاً دون أن تفتحي فمك بكلمة واحدة. . أما اليوم فقد كنت أشبه بكلاكسون السيارة عندما يعلق ولا ينقطع عن الصراخ!

قالت زبيدة وهي تضحك:

ـ كنت أرغب في أن أقيد نجوى في مقعدها، أن أخرسها، أن أنهال عليها بالكلمات حتى لا تجد وقتاً في التفكير بطريقة تتخلص بها مني. . الضوضاء عادة توقف عجلة التفكير في عقولنا. إنها امرأة داهية فعلاً أكبر من عمرها. وعندما جعلتك تقول أمامها أنك لن تخون المرأة التي تحبها حتى ولو كانت ملكة جمال العالم شل تفكيرها، أسقط في يدها. . كانت محتاجة إلى فترة صمت لتفكر في الخطوة التالية، ولم أرد أن أعطيها هذه الفرصة. وبعد أن خرجت أنت من البيت رأيتها على حقيقتها، نمرة مفترسة تريد أن تنقض على أي امرأة تقترب منك وتفتك بها!

واستغرقت زبيدة في الضحك. وتأمل محمد عينيها الضاحكتين وأحس كأنهما بحر من اللذة تسبح فيه عيناه السعيدتان..

ثم قال:

ـ وأنا جالس معك ومع نجوى توقعت أن تقولي لنجوى بين لحظة وأخرى، أنك تحبينني وأنني أحبك!

قالت زبيدة:

ـ كنت مستعدة أن أقول لها ذلك رحمة بها، لو عرفت أنها تحبك.. ولكنني شعرت أنها تريد أن تمتلكك، ووجدت لذة في أن أعبث بها، لاحظت عينيها وهما تلسعانني بسياط الغضب. لاحظت همسها وهو يتحول إلى صراخ مخنوق. لاحظت أصابعها وهي تهتز وتبدو كأنها مخالب. كل ذلك جعلني لا أشعر بأي عطف عليها، ذلك العطف الذي يحس به المنتصر على المهزوم. لم تكن في نظري امرأة تحب رجلاً. ولكنها كانت أشبه بدولة تريد أن تستعمر دولة أخرى، تغزوها غزواً بشرياً، تمتص دمها. وشعرت بهذا الأحساس أكثر عندما انفردت بنجوى، ورأيت في عينيها شيطانين اثنين، شيطاناً يريد أن يغويك، وشيطاناً يريد أن يفتك بالمرأة التي تحبك!

قال محمد:

ـ على كل حال ستسافر نجوى إلى روما، وهناك تلتقي بشاب جديد يجعلها تنساني.. مثل هؤلاء النساء الهوائيات تتغير رغباتهن تغير الطقس!

قالت زبيدة:

ـ ولكنها قالت إنها ستعود، وستتفرغ لاقتناصك.. مثل هذه المرأة لا

يمكن أن تسكت إلا إذا استولت عليك، ثم لفظتك بعد ذلك. هنا يهدأ الشيطان في داخلها. وما دامت هي محرومة من أن تحقق شهوتها هذه، فسوف تتعقبك، وتكرس حياتها كلها للوصول إليك!

قال محمد هازئاً:

ـ إنها لن تستطيع أن تفعل شيئاً! وعندما يصبح زوجها موظفاً كبيراً في القصر الملكي لن يكون في استطاعته أن يمسني بسوء. أنا أهاجم الملك ولا أخاف منه، فهل أخاف من موظف من موظفيه؟ إن كبار موظفي القصر هم سفرجية يحملون ألقاباً!

قالت زبيدة:

ـ أنا لا أخاف عليك من زوجها، ولا من الملك، أنا أخاف عليك منها هي.. إنك لم ترَ عينيها وهي تقول: لم يحدث شيء، ولكن سوف يحدث، لا بد أن يحدث.. إن نظرتها وهي تقول هذه الجملة أخافتني وأرعبتني.. كادت تنسيني انتصاري عليها!

■■■

إنتهى محمد بسرعة من عمله في جريدة «الجهاد»، واستأذن في الانصراف ليعزي في وفاة حماة الشيخ عبد الرؤوف أستاذه في اللغة العربية عندما كان طالباً في المدرسة السعيدية.

ما كاد يدخل بيت الشيخ عبد الرؤوف البسيط في إحدى حواري الجيزة، حتى وجد نفسه كأنه في فصل السنة الخامسة بمدرسة السعيدية. وجد جميع زملائه السابقين الذين أمضى معهم أحلى سنوات عمره. وأقبلوا جميعهم على محمد يحتضنونه ويعانقونه ويقبلونه. وجد نفسه بين أغلب زملائه الذين كان يكتب بأسمائهم رسائلهم الغرامية. لقد

أصبح زميله جمال منصور الذي يحب الطالبة بمدرسة الراهبات وابنة شقيق عوني باشا حافظ، طالباً بكلية التجارة. وأصبح علي فتحي الذي كان يحب الممثلة إنعام الممثلة بمسرح رمسيس، طالباً بكلية الآداب. وأصبح باقي زملائه طلبة في كلية الحقوق. كل ما هناك أنه حدثت حركة تنقلات وترقيات. الذي كان يحب الممثلة المغمورة أصبح يحب ممثلة مشهورة. والذي كان يحب راقصة مبتدئة أصبح واحداً من عشاق الراقصة المشهورة نعمت فهمي التي كتب عنها طلبة السنة الخامسة موضوع الإنشاء عن زيارة المعرض الزراعي الصناعي.. والزميل الذي كان يحب البائعة في محل شيكوريل أصبح يحب إحدى بنات شيكوريل.. وجمال منصور الذي كان يحب ابنة الدكتور حافظ الطالبة في مدرسة الراهبات ترقى.. وأصبح يحب معلمة في مدرسة الليسيه!

كل زملائه دخلوا الجامعة والمدارس العليا.. ما عداه هو!

ورأى بين الشبان الجالسين وجوهاً لا يذكرها.. وعلم أنهم طلبة البكالوريا الجدد الذين حلوا مكانه ومكان زملائه في مقاعد السنة الخامسة أدبي. وتأمل وجوههم، وساءل نفسه: ترى من يكتب منهم الخطابات الغرامية لزملائه، كما كان يفعل؟.. ومن منهم ورث الممثلة إنعام وطالبة مدرسة الراهبات، والبائعة راشيل؟!

وتبين من همسات الطلبة الجدد أنهم غاضبون وثائرون.. ويتحدثون عن اعتزامهم الإضراب عن تلقي الدروس في اليوم التالي.

وسألهم عن سبب اعتزامهم الإضراب فقالوا إن حادثاً خطيراً وقع في المدرسة.. كان الطالب علي خشبة، وهو ابن سيد خشبة باشا أحد زعماء حزب الأحرار الدستوريين يلعب التنس في ملعب المدرسة مع أحد زملائه. وكان الطالب عزيز صدقي نجل رئيس الوزراء يقف

حكماً في المباراة.

وحدث أن حسب الحكم عزيز صدقي نقطة ضد علي خشبة.. واعترض علي خشبة على الحكم..

فنهره عزيز طالباً منه أن يسكت.

واحترم علي خشبة رأي الحكم واستمر في المباراة..

وفي نهاية المباراة تقدم علي خشبة نحو صديقه عزيز صدقي يعاتبه على هذا الحكم الذي رآه جائراً، ووقعت بينهما مشادة، وتماسكا..

ولَكَمَ علي خشبة صديقه عزيز صدقي في وجهه، فأصيب بجرح صغير في شفته..

وانتهت المشادة بالتصافي بين الصديقين..

وحدث أن عاد عزيز صدقي إلى بيته، وتصادف أن كان هناك وزير المعارف يزور رئيس الوزراء. ورأى شفة نجل رئيس الوزراء مجروحة، فسأله عما حدث، فروى عزيز بصدق ما جرى، وبأن المشادة انتهت بالتصافي بينه وبين زميله علي خشبة.

ولكن وزير المعارف هاج وماج، واعتبر أن المسألة مسألة سياسية، وأن علي خشبة اعتدى على عزيز صدقي بصفته ابن أحد زعماء المعارضة، وبصفة عزيز ابن رئيس الوزراء!

وقال إنه يعتقد أن المسألة مقصودة، ومدبرة، وأنها لا تقل خطورة عن إطلاق النار على وزير من وزراء الدولة!

وأصدر وزير المعارف أغرب قرار صدر في تاريخ المدارس المصرية، أصدر قراراً يقضي بفصل علي خشبة من المدرسة السعيدية نهائياً،

وبحرمانه من دخول جميع الامتحانات. لأنه جرح شفة ننوس عين الدولة، عزيز صدقي نجل حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء!

وقال لهم محمد:

ـ وماذا تنوون أن تطالبوا به من مطالب؟

قالوا:

ـ سنطالب بإعادة علي خشبة!

قال محمد:

ـ هذا لا يكفي.. يجب أن تطالبوا بعودة الدستور!

قالوا في دهشة:

ـ وما علاقة الدستور بهذه المسألة؟ إنها مشكلة مدرسية!

قال محمد:

ـ ولكن الحكومة جعلتها بقرارها مسألة سياسية.. لو كان في البلد دستور محترم لما اعتبر الحاكم نفسه إلهاً، له ولأولاده حقوق الآلهة!

وفي هذه اللحظة دخل عزيز صدقي ابن رئيس الوزراء وتوقف الحديث فجأة.. وحل صمت رهيب!

وصافح عزيز الشيخ عبد الرؤوف معزياً، ورأى مقعداً خالياً بجوار محمد فجلس فيه..

واستمر الصمت..

قال عزيز صدقي ببراءة:

- يظهر أنني قطعت عليكم الحديث. . فبماذا كنتم تتكلمون؟

وصمت الجالسون ولم يجيبوا بكلمة. .

وأراد الشيخ عبد الرؤوف أن ينقذ الموقف فقال:

- كنا نتكلم عن المرحومة حماتي. . كانت سيدة فاضلة!

وقاطعه محمد قائلاً:

- الواقع أننا كنا نتكلم عنك أنت يا عزيز. بأي حق يفصل طالب من المدرسة نهائياً ويحرم من جميع الامتحانات لأنه تشاجر معك؟. كل يوم يتشاجر تلاميذ مع زملائهم في المدارس، فهل سمعت أن تلميذاً فصل من مدرسة نهائياً وحرم من جميع الامتحانات لأنه ضرب تلميذاً آخر؟ اللهم إلا إذا كان ابن رئيس الوزراء هو ولي العهد. . ذاته مصونة لا تمس! إن نتيجة هذا التصرف أن الطلبة قرروا الإضراب احتجاجاً على هذا التصرف الشائن!

واحتقن وجه الشيخ عبد الرؤوف ثم امتقع، ثم اصفر. . لقد شتم محمد في بيته ابن رئيس الوزراء. . وسيعرف وزير المعارف بما حدث، وسيفصل بطبيعة الحال الشيخ عبد الرؤوف لأنه لم يلقِ بمحمد من الشباك!

ولكن الشيخ عبد الرؤوف لا يستطيع أن يلقي بمحمد من الشباك لأنه ضيفه، ولأنه يوافقه على رأيه كل الموافقة، ورأى الشيخ عبدالرؤوف أن ينقذ الموقف فقال:

- المسألة فيها قولان!

قال عزيز ببساطة:

ـ إذا أضرب الطلبة غداً لهذا السبب فإنني سأشترك معهم في الإضراب.. أنا أوافقك على كل كلمة قلتها يا محمد.. إنني رجوت وزير المعارف ألا يصدر هذا القرار، ولكنه تمسك برأيه.. وقال إنه سيستقيل من الوزارة إذا لم يفصل علي خشبة!

قال محمد:

ـ هذا هو نفاق الوزراء.. إن وزير المعارف يشتري بهذه الطريقة الرخيصة رضاء أبيك ليبقيه وزيراً في الوزارة!

قال عزيز صدقي:

ـ ليس وزير المعارف وحده.. إن عوني حافظ باشا وزير الدولة للشؤون الداخلية قال: إذا لم يفصل علي خشبة فوراً فسوف ينتهز طلبة المدارس الفرصة ويضربون جميع أولاد الوزراء!

قال محمد:

ـ إنني أعمل الآن محرراً في جريدة «الجهاد»، وسأكتب هذا الحادث غداً في الجريدة.

قال عزيز صدقي:

ـ حسناً تفعل.. لقد قلت لوزير المعارف إن الصحف سوف تهاجم الوزراة بسبب هذه المسألة، فقال إن واحدة منها لن تجرؤ على إثارتها!

ودهش محمد لروح عزيز صدقي الرياضية. لم يتوقع مطلقاً أن يقول ابن رئيس الوزراء إنه سيتضامن مع الطلبة الذين سيضربون احتجاجاً على فصل الطالب الذي ضربه. ودهش أكثر عندما صافحه

عزيز صدقي قبل انصرافه وهو يقول:

ـ أنا سعيد جداً أنك تعمل صحفياً.. تعال زرني في بيتي.. وسوف أعطيك أخباراً.. أخباراً هامة!

وانصرف عزيز، ولم يقم لتحيته من الموجودين، سوى الشيخ عبدالرؤوف ومحمد!

وساءل محمد نفسه: هل ورث عزيز صدقي برودة الأعصاب هذه من أبيه أم أنه يشعر بألم زملائه من هذا التصرف، ويحس بخجل أن يضع وجهه في وجوههم، لأن تلميذاً من أصدقائه فصل من المدرسة، وحرم من الامتحانات وقضى على مستقبله، لأنه تشاجر مع ابن رئيس الوزراء!

وقال جمال منصور:

ـ إن عزيز صدقي ممثل قدير مثل أبيه!

قال الشيخ عبد الرؤوف:

ـ إنه تصرف كرجل.. ليت كل الرجال لهم رجولة بعض الأطفال!

قال علي فتحي:

ـ إذا لم يذهب عزيز صدقي ويخبر أباه بما سوف يكتبه محمد عبدالكريم في «الجهاد» وتمنعه الرقابة، فهذا يدل على أنه رجل.. أما إذا ظهرت جريدة «الجهاد» وهي خالية من النبأ، فهذا يدل على أنه ممثل!

وفجأة، دخل الغرفة سعيد توفيق، الطالب السابق بالمدرسة السعيدية والذي كان يحب الراقصة ابتسام، ثم عينّ أمين محفوظات السفارة المصرية بروما، وأستاذاً للغة العربية لنجوى المناسترلي..

وتطلع محمد إلى وجه سعيد فوجده حزيناً مقهوراً. . وابتسم محمد ابتسامة ساخرة وقال لنفسه إن سعيد توفيق تعلم التمثيل المسرحي من التمثيل السياسي. . أو من «السيرك السياسي» وهو الاسم الذي اعتادت أم كلثوم أن تطلقه على «السلك السياسي». . وفهم محمد من هذه النظرات الحزينة أن سعيد توفيق حزين جداً ومفجوع جداً لوفاة حماة الشيخ عبد الرؤوف!

واختار سعيد توفيق المقعد الخالي، بجوار محمد الذي شغر بانصراف عزيز صدقي. . وقال سعيد لمحمد بصوت مفجوع:

ـ البقية في حياتك!

وقال له محمد ساخراً:

ـ البقية في حياتك يا سعادة السفير بالنيابة!

قال سعيد توفيق في صوت أشد فجيعة:

ـ السفير بالنيابة. . سابقاً!

وفهم محمد على الفور أن نجوى المناسترلي أقالت سعيد توفيق من جميع مناصبه. . ومال على سعيد يسأله هامساً:

ـ ماذا حدث؟

قال سعيد توفيق:

ـ الذى حدث لا يمكن أن يتصوره عقل. . كنت مواظباً على الذهاب إلى مكتبي في السفارة كل يوم، حتى أيام العطلة الأسبوعية والأعياد. . وكنت أقوم بتدريس اللغة العربية يومياً لصاحبة العصمة حرم السفير. . ثم حدث أن انقطعت يوماً واحداً عن إعطاء الدرس،

فاتصلت تليفونياً بحرم السفير وقلت إنني مريض بالأنفلونزا وقدمت لها اعتذاري، فتفضلت وقبلت الاعتذار.

ثم وقعت مصيبة ليست على البال.. جاء السفير وزوجة السفير إلى شقتي للاستفسار عن صحتي فلم يجداني..

وبعد أيام جاءت برقية من وزير الخارجية بفصلي من السلك السياسي لعدم المواظبة.. تصور، أفصل لأنني تخلفت عن تدريس اللغة العربية يوماً واحداً لزوجة السفير، وهو عمل غير رسمي.. بينما لم أنقطع يوماً واحداً عن عملي في السفارة.. كنت الموظف الوحيد الذي يعمل في السفارة أيام العطلة الأسبوعية والأعياد!

وأراد محمد أن يضحك، وأن يقهقه، ولكنه تمالك نفسه، مراعاة لجلال مأتم حماة الشيخ عبد الرؤوف، وعاد يهمس في أذن سعيد توفيق:

ـ ألم يمكنك أن تعتذر من عدم وجودك في الشقة بأنك ذهبت إلى طبيب.. أو لاضطرارك للذهاب إلى صيدلية لشراء دواء؟

قال سعيد توفيق وهو يهز رأسه حزناً على قلة بخته:

ـ لم يعطني أحد مهلة للدفاع عن نفسي.. فقد حدث لسوء الحظ أن رآني الملحق في السيارة، في نفس الساعة، وأنا في صالة فندق الجراند أوتيل أراقص سنيورا كارمن.. الكاتبة على الآلة الكاتبة في السفارة.

قال محمد وهو يخفي ابتسامته:

ـ هذه هي الداهية الدهياء التي أدت إلى فصلك من السلك السياسي!

قال سعيد توفيق بسذاجة:

ـ لا. . لا. . لقد قرأت برقية وزير الخارجية بنفسي ووجدت أن سبب الفصل هو عدم المواظبة، ولم يذكر الوزير أي شيء عن السنيورا كارمن!

قال محمد:

ـ وهل تضايقت زوجة السفير لأنك تركت درس اللغة العربية، ورقصت مع السنيورا كارمن؟

قال سعيد:

ـ بالعكس. . إنها سيدة ممتازة جداً، لقد أبدت حزنها وأسفها للقرار الظالم، وجاءت بنفسها تودعني في المحطة عند سفري!

وأغمض محمد عينيه ليرى صورة نجوى المناسترلي. إنها هي نفسها، بصورتها، بتصرفاتها، ببصماتها تقتل القتيل وتمشي في جنازته تلطم الخدود!

ولم يكن محمد في حاجة إلى أن يسأل عن تفاصيل أخرى، فقد كان يعرف مقدماً كل التفاصيل، عرفها من الاستقبال الحار الذي قابلته به نجوى أمس، بعد أن فصلته من المدرسة السعيدية. . ورأى محمد نفسه في ثياب زميله السابق سعيد توفيق. . كان سيحدث له كل ما حدث لسعيد، لو أنه سافر إلى روما في منصب أمين المحفوظات في السفارة، ومدرّس اللغة العربية لزوجة السفير!

وعادت إلى وجه سعيد توفيق النظرة الحزينة المفجوعة التي دخل بها إلى الغرفة وقال:

ـ وعندما عدت إلى القاهرة بحثت عن صديقتي القديمة الراقصة

ابتسام فوجدت أنها مشغولة في هوى جديد، إنها تحب مدرساً في الجامعة. . وبحثت عن راقصة أخرى في صالة بديعة، فوجدت كل الراقصات محجوزات لعدة شهور، كأنهن روايات يوسف وهبي الناجحة، إنني لا أستطيع الحياة بغير امرأة!

قال محمد:

ـ لماذا لا ترسل في استدعاء السنيورا كارمن من روما، وتتزوجها؟

قال سعيد:

ـ فكرت في هذا، وخاصة بعد أن علمت أنها فصلت من عملها في السفارة المصرية لأنها لا تعرف اللغة العربية!

قال محمد:

ـ وهل مطلوب من الكاتبة الايطالية على الآلة الكاتبة الافرنجية أن تعرف اللغة العربية؟

ـ قال سعيد:

ـ هذا ما أدهشني! وخاصة أنه مضى على السنيورا كارمن في عملها خمس سنوات ولم يطلب منها أحد أن تتعلم اللغة العربية. . ولكن، فجأة أصدر السفير منشوراً قال فيه إن الحكومة المصرية حريصة على نشر اللغة العربية في إيطاليا. . ولذلك يجب أن يعرف كل الموظفين اللغة العربية. . ولما كانت السنيورا كارمن هي الموظفة الوحيدة في السفارة التي لا تعرف اللغة العربية، فقد فصلت بناء على هذا المنشور!

وضحك محمد بصوت عال. . وخجل لأنه يضحك في مأتم حماة الشيخ عبد الرؤوف. . لقد عرف على الفور أن من يريد نشر اللغة

العربية في روما هو السفيرة، وليس السفير!

دهش سعيد توفيق لضحك محمد وقال له مستفسراً:

ـ ما الذي يضحكك في هذه المأساة؟

قال له محمد وهو يكتم ضحكة جديدة بمنديله:

ـ الذي يضحكني أنك لم تفهم أن سبب فصلك وفصل السنيورا كارمن، هو رقصكما معاً في فندق الجراند أوتيل!

قال سعيد محتجاً:

ـ مستحيل! إن سعادة السفير أعطاني شهادة قال فيها إنه يشهد لي بحسن السير والسلوك.. إن كارمن فصلت بسبب اللغة العربية!

قال محمد:

ـ معك حق يا سعيد إنها فعلاً فصلت بسبب اللغة العربية!

■ ■ ■

وعاد محمد إلى دار جريدة «الجهاد»، وكتب خبراً عن حادث فصل الطالب علي خشبة لأنه تشاجر مع عزيز صدقي ابن رئيس الوزراء..

وسرّ محمد أن الرقابة لم تمنع نشر الخبر، وسرّ أكثر عندما أضرب طلبة المدرسة السعيدية، واشترك عزيز صدقي معهم في الإضراب!

ولم تهتم الحكومة بإضراب الطلبة، وصممت على قرارها بفصل علي خشبة!

وحار الطلبة ماذا يفعلون لإسقاط الحكومة التي لا تريد أن

تسقط.. وحار معهم الشعب، وحار مع الشعب زعماء المعارضة!

منعت الحكومة الاجتماعات، منعت المظاهرات، حاصرت بيت الأمة، والنادي السعدي ودار حزب الأحرار الدستوريين. وحرمت على زعماء المعارضة زيارة الأقاليم..

وضيّقت الحكومة على الجماهير لتمنعها من الاتصال بزعماء المعارضة. وقرر النحاس باشا زعيم المعارضة أن يتحدى الحكومة، فكان يذهب إلى المسارح، ويعرف الوفديون المسرح الذي سيذهب إليه فيحتشدون فيه، ويهتفون ضد الحكومة!

وذهب محمد إلى مسرح برنتانيا في إحدى هذه الزيارات. وكانت فرقة فاطمة رشدي تمثل رواية «فجر».. وما كادت الجماهير ترى النحاس حتى هتفت بحياته وسقوط صدقي!

وبعد يومين حشدت الحكومة أنصارها في مسرح برنتانيا. .وذهب صدقي باشا فهتف له أنصاره بحياة صدقي وسقوط النحاس!

وذهب النحاس إلى مسرح رمسيس وشاهد رواية «ألعذاب» التي تمثلها فرقة يوسف وهبي، فهتفت الجماهير بحياة رئيس الوفد وسقوط رئيس الوزراء..

وأعدت الحكومة نفس الزيارة لصدقي باشا في ليلة تالية، وهتف أنصاره بحياة رئيس الوزراء وسقوط رئيس الوفد!

ولم تعجب محمد هذه الطريقة في الاحتجاج.. فامتنع عن الذهاب إلى المسارح!

وفكر الشباب في أن الطريقة المثلى لإسقاط حكم صدقي باشا هي المطالبة بتشجيع البضائع المصرية ومقاطعة البضائع الأجنبية..

إن الأجانب هم الذين يؤيدون الحكومة . . والمصريين هم الذين يحاربونها والطريقة المثلى ليكف الأجانب عن مساندة حكومة صدقي ، أن يعلموا أن تأييدهم يكلفهم مصالحهم . .

وتحمس الشباب للفكرة ، وبدأت حركة مقاطعة البضائع الأجنبية!

كانت تقوم في الهند في تلك الأيام حركة غاندي لمقاطعة البضائع الإنجليزية وقبض الإنجليز على غاندي واستمر الشعب في المقاطعة وأفلست شركات الغزل في إنجلترا ، واضطر الانجليز أن يخضعوا للشعب الهندي ، وأطلقوا سراح غاندي . .

وتحمس محمد لما يجري في الهند . . لماذا لا نفعل مثلما فعلوا؟ لماذا لا يخلع زعماؤنا ملابسهم الأجنبية ويرتدون قماشاً من صنع المحلة ، ويمشون عراة في الشوارع إلى أن يخرج آخر جندي بريطاني في البلاد ، ويخرج معه الطغيان والاستبداد والجبروت؟

هذه الدكتاتورية هي ظل الاحتلال الأجنبي . . يوم يذهب الأصل ، سيأخذ معه الظل!

وكتب محمد يدعو إلى هذه الفكرة . .

ولكن الزعماء لم يرحبوا بفكرة أن يمشوا عراة في الشوارع ، وقالوا إن مصر شيء والهند شيء آخر . .

وتألفت «جمعية المصري للمصري» برياسة سلامة موسى ، تدعو إلى تشجيع البضائع الوطنية ، وتحمس محمد ، وأصبح عضواً بارزاً في الجمعية . .

وفوجىء محمد بوثائق تنشر في الصحف وهي خطابات بإمضاء سلامة موسى أرسلها إلى مدير المطبوعات في عهد وزارة محمد محمود ،

يهاجم فيها الوفد، ويهاجم فيها سعد زغلول!

ودهش محمد أن يكتب سلامة موسى هذه الخطابات. .

وذهب إليه يسأله هل هي حقيقة بإمضائه؟ . .

وقال سلامة موسى إنها فعلاً بإمضائه. . وإن الرأي الذي فيها هو رأيه الشخصي، أما رأيه السياسي فهو مع الوفد ومع سعد زغلول!

ولم يفهم محمد أن يكون للكاتب رأي شخصي، ورأي سياسي. . وانفض الشباب من حول سلامة موسى، وقد كان رائداً من رواد الاشتراكية في مصر، ومن أول الذين حاربوا الجهل، ودعوا إلى الصناعة المصرية. .

ولكنه لم يستطع أن يكسب عقول الجماهير لأنه كان ضد الشعوب العربية، ولأنه كان يدعو إلى مقاطعة الصحف التي يملكها سوريون. . ولأنه كان يعتبر كل عربي أجنبياً!

ولولا هذه الوثائق التي نشرت بإمضاء سلامة موسى، لأصبحت «جمعية المصري للمصري» حزباً مصرياً تقدمياً جديداً. .

وكان المفروض أن يقف الوفد معه في هذه المعركة، وأن يدافع عنه، وقد كان من أقوى الألسنة التي تهاجم إسماعيل صدقي. .

ولكن هذه الوثائق جعلت الوفد يتخلى عنه. . وأفلست مجلة «المصري» التي كان يصدرها بعد أن أصبحت في وقت من الأوقات أوسع المجلات انتشاراً. .

وكان محمد مستعداً أن يغفر لسلامة موسى هذا الخطأ. . ولكن الجماهير لم تغفر له أبداً أنه تعاون مع حكومة محمد محمود التي عطلت

الدستور ثلاث سنوات.. مع أنها غفرت لمحمد محمود بعد الائتلاف الذي تم بين الوفد وبين حزب الأحرار الدستوريين.

وتألفت جمعية للاستقلال الاقتصادي، تدعو إلى نفس المبادىء التي ينادي بها سلامة موسى.. بغير سلامة موسى!

وانضم محمد إلى الجمعية الجديدة..

ولكن هذه الجمعية كانت تنقصها روح المفكر المجدد الذي تميزت به شخصية سلامة موسى..

وعاشت الجمعية الجديدة تتعثر في طريقها.. ولم تستطع أن تجمع الطلبة جميعاً تحت لوائها كما فعلت «جمعية المصري للمصري»..

■ ■ ■

ثم مرّ غاندي بقناة السويس في طريقه إلى انجلترا لمفاوضة الانجليز للحصول على استقلال الهند..

وأشعل مرور الزعيم الهندي الحماس في قلوب الشباب المصري، وبدأت حركة مقاطعة البضائع الأجنبية من جديد!

وتبارى الشباب في تشجيع البضائع المصرية..

وابتكر الطلبة طرابيش صنعها محل الفرنواني عليها صورة الهلال! ولم تعجب الطلبة الطرابيش لأنها كانت أشبه بالطراطير، ففشلت الفكرة.

وابتكر عدد من التجار رداء رأس أبيض يشبه «القلبق» بدلاً من الطربوش الأحمر الذي يستورد من النمسا.. ولكن الطلبة هزأوا بالقلبق لأنهم يبدون فيه أشبه بالهنود!

وابتكر بعض الشباب بذلة كلها من صنع مصر من نسيج شركة مصر لنسيج القطن، وربطة عنق من نسيج المحلة الكبرى، وطربوشاً من صنع محل الفرنواني، وحذاء من دمياط ويتكلف هذا كله ٩٣ قرشاً لا غير.

ولم يتحمس الشباب للزي الوطني الجديد. الشعب كله يشكو الأزمة الخانقة. لا يملك أغلبه الثلاثة والتسعين قرشاً. . إنهم يفضلون ارتداء ملابسهم القديمة، أو قلبها على الوجه الآخر، أو صبغها!

وماتت الفكرة بسبب الجوع. . لا بسبب قلة الحماس!

وقرر طلبة كلية التجارة أن يشتركوا ويستأجروا دار سينما كليبر في شارع فؤاد، وسموها سينما فؤاد، كيلا يدخل المصريون دور السينما الأجنبية. وتحمست أم كلثوم للفكرة، وقررت أن تغني كل أسبوع في هذه السينما حتى يعرف المصريون طريقها. .

وتحمس بعض الشباب وأعلن أنه سيدخل هذه السينما حتى ولو كانت إسطبلاً. . وصدق المشرفون على سينما فؤاد هذا الحماس، وأصبحت السينما الجديدة أشبه بإسطبل، وانصرفت الجماهير عنها وأفلست السينما المصرية!

وفوجىء الشباب باسماعيل صدقي يطلب من الملك الإنعام على طلعت حرب برتبة الباشوية مكافأة على دوره في إنشاء الصناعة المصرية.

ثم فوجىء الشباب بصدقي باشا يتحمس لدعوة تشجيع الصناعات المصرية ويعلن أنه يؤيدها!

وأسقط في يد الذين تصوروا أن هذه الفكرة سوف تسقط صدقي باشا، لقد سرق الباشا الداهية البساط من تحت أقدام المعارضين!

وبدأت الحركة تفتر. . ثم تموت!

وساعد على فتورها أن قام فريق آخر يقول إنه بدلاً من مقاطعة البضائع الأجنبية التي لا ضرر منها، يجب أن نقاطع أولاً الويسكي والكونياك والسجائر الأجنبية!

وانقسم الشباب إلى جمعيات، كل جمعية تنادي بفكرة معينة، وتحارب الجمعيات الأخرى.

وقام الطلبة بجمع قرش من كل مصري لبناء مصنع للطرابيش. . ونجحت الفكرة في أول الأمر، ثم اختلف القائمون بالمشروع، وتبادلوا التهم، والتراشق بالطين!

ولو كانت أحزاب المعارضة احتضنت فكرة المقاطعة، ونفذتها بالطريقة التي نفذتها ثورة سنة ١٩١٩ لحققت الغرض منها. . ولكن كثرة الأيدي أدت إلى خنق الفكرة!

ولم يبقَ أمام زعماء المعارضة إلا السير في الجنازات، ولا تكاد الجماهير تراهم في مقدمة صفوف المشيعين، حتى تنقلب الجنازة إلى مظاهرة تهتف بسقوط الوزارة. .

■ ■ ■

ثم رأت المعارضة أن تدعو الشعب إلى عدم دفع الضرائب للحكومة. . وتحمس كثيرون للفكرة، وبيعت أملاك عدد من المزارعين المتمنعين عن دفع الضرائب بالمزاد العلني. .

وذهب محمد يشهد عمليات المزاد العلني. . وأحس بأن الفلاح يتعذب وهو يرى أرضه تباع، كأن ولده هو الذي يباع بالمزاد العلني.

وكانت الأرض تباع بأبخس الأثمان بسبب تدهور أسعار الأراضي الزراعية نتيجة الأزمة المالية العالمية . .

وكـان أصحاب الأرض المبيعـة يحاولـون تأجيـل المزاد، فكـانت الحكومة تصر على بيع الأرض فوراً سداداً لأموال الحكومة . .

ولم يحتمل كثيرون من المزارعين هذه التضحية . . وبدأ بعضهم يوعز لأقاربه أن يتقدم إلى المزاد لينقـذ أرضه من الضيـاع . . وبعد قليـل استـطاع جبروت الحكـومة وسلطانها أن يـرغم الأغلبيـة عـلى دفـع الضرائب!

وبعد أن كانت المعارضة هي التي تعلن الحرب على الحكـومة بدأت الحكومة تعلن الحرب على المعارضة!

واستعملت سلاح التجويع .

كان أغلب المزارعين في مصر مدينين للبنوك . وجاءت الأزمة المالية فقصمت ظهورهم .

ورأت الحكومة أن هذه فرصة ذهبية لتقضي على المعارضـين من المزارعين، ووضعت الحكومة قائمة بأسماء المدينين . .

وكان مدير المديرية يتصل بصاحب الأرض ويخيره بين أمرين : إما أن يعلن تأييده للحكومة ، وإما ستطالبه البنوك بأن يدفع فوراً الديون المستحقة وفوائد الدين!

وصمـد البعض، وأفلسوا، وخـرجوا من أرضهم لا يملكـون إلا مـلابسهم وانهار آخـرون، واضـطروا أن يستسلمـوا أمـام البـطش والتهديد! . .

وبدأت الاستقالات تنهال على أحزاب المعارضة!

وعندما يتحالف البطش والجوع والأزمة يتحول الحاكم إلى طاغوت ويتحول المحكوم إلى مسجون في قفص من الديون والكمبيالات!

الجوع كافر.. البطون الخاوية تضعف المقاومة، وتقتل روح الصمود.. وتعهر الشرفاء!

الأقوياء أحنوا رؤوسهم. الضعفاء ركعوا على أقدامهم. الصامدون طردوا من أرضهم وشردوا من بيوتهم..

وعاشت مصر في ظلام..

وتلفت محمد ذات يوم فوجد أن المعارضين يتضاءلون، والمؤيدين يتزايدون..

■ ■ ■

واشتد الظلم والظلام.. وكأن الحكومة اعتقلت الفجر مع المسجونين السياسيين!

وكانت زبيدة تجيء له في كل لقاء بأنباء سيئة.. بأسماء رجال كان يثق بصمودهم وتقول إنهم وقعوا تحت ضغط برقيات التأييد!

وكان لا يصدقها.. ثم يفتح صحف الحكومة في اليوم التالي فيجد هذه البرقيات نفسها بإمضاءات رجال كان يقدرهم ويثق في وطنيتهم وإخلاصهم.. وكان وهو يقرأ هذه البرقيات يشعر كأنه يقرأ نعياً لمن يحبهم..

وفي كل يوم يزيد حجم صفحة الوفيات!

وخرج النحاس باشا إلى المساجد يلقي فيها دعاء يردده الناس وراءه.. اللهم انتقم من الظالمين! اللهم زلزل الأرض تحت أقدام الطغاة! اللهم ارحمنا من هذا الليل يا أرحم الراحمين!

وهزأت الحكومة بهذا الدعاء الغريب، وتركت النحاس باشا حراً، يذهب إلى المساجد كل يوم جمعة، ويتلو هذا الدعاء!

وأحس محمد بأن المعارضة أفلست.. فشلت في كل سلاح شهرته.. ولم تجد ما تفعله إلا أن تستنجد بالله.. بعد أن خذلها الشعب، فعندما تنطفىء كل الأنوار، وتسد أمامنا كل الأبواب، وتغلق النوافذ، لا نجد إلا باباً واحداً هو باب السماء!

وذات يوم ذهب محمد إلى لقائه المعتاد مع زبيدة، وما كادت زبيدة تراه حتى قالت له وهي تحتضنه وتقبله، والسعادة ترقص في عينيها:

ـ إن الله استجاب لدعائنا!

قال محمد ساخراً:

ـ هل أسقط الله الوزارة؟

قالت زبيدة، وكل حرف في كلماتها يزغرد ويرقص:

ـ لا.. صدقي باشا أصيب اليوم بالشلل!

■ ■ ■

طلب الدكتور عزمي من محمد أن يتحرى حقيقة مرض صدقي باشا. البلد مليء بالإشاعات عن مرض رئيس الوزراء. إشاعة تؤكد أن المرض سياسي، وأن سببه الحقيقي هو خلاف بينه وبين الملك. وإشاعة تقول إن صدقي باشا أصيب بشلل كامل. وإشاعة ثالثة تذكر أن

الأطباء أجمعوا على أنه لن يعيش إلا بضعة أيام، وأن البحث بدأ يجري عن اختيار الخليفة الذي سوف يخلفه في رئاسة الوزارة. وإشاعة رابعة تؤكد أن رئيس الوزراء لم يصب بشلل، وإنما أصيب بانفجار في الدماغ، وأن الدولة أخفت النبأ الحقيقي حتى لا يشمت الشعب، ويفلت الأمن العام في البلاد!

وقال الدكتور عزمي المشرف على الأخبار السياسية في جريدة «الجهاد»:

ـ الأطباء الذين يعالجون صدقي باشا لن يقولوا الحقيقة. سوف يعتذرون عن الكلام باسم سر المهنة.. مهمتك أن تعرف الأطباء الخلصاء لكل طبيب من هؤلاء. فمن عادة الأطباء أن يستشيروا زملاءهم في المسائل الخطيرة التي تصادفهم.. الذين يعالجون صدقي باشا الآن هم الدكاترة سليمان عزمي وعبدالعزيز اسماعيل وعبدالعزيز نظمي وعلي ابراهيم. كل واحد من هؤلاء له تلاميذ. إبحث عن هؤلاء التلاميذ. استدرجهم. سوف تعرف في نهاية الأمر الحقيقة!

ووضع محمد طربوشه على رأسه، وأسرع يغادر مكتبه، ليقوم بهذه المهمة.

وما كاد يصل إلى باب الجريدة الخارجي، حتى قال له بواب الجريدة مشيراً إلى سيارة حمراء أنيقة كبيرة من طراز الفاروميو:

ـ توجد سيدة تسأل عنك في هذه السيارة!

وعجب محمد أن تجيء سيدة إلى دار جريدة «الجهاد» لتسأل عنه. وتطلع إلى السيارة فلم يمكنه الظلام من رؤية وجه السيدة الجالسة في المقعد الأمامي. واعتقد محمد أنها إحدى المطربات أو الممثلات

المعروفات. . ولكن من هي الممثلة التي تستطيع أن تمتلك سيارة فخمة من هذا الطراز الثمين؟

واقترب من السيارة، وأطل برأسه من نافذتها. . فرأى نجوى المناسترلي!

ووقف مشدوهاً! لم يتوقع أن يرى نجوى في مصر، فإذا به يراها أمام جريدة «الجهاد»!

وقال لها في دهشة:

ـ متى جئت من إيطاليا؟ . .

وابتسمت نجوى، وهي تفتح باب السيارة، وتدعوه إلى الركوب بجوارها وقالت:

ـ تعال اجلس بجواري. . لتقول لي أولاً الحمد لله على السلامة!

وتردد محمد في أن يركب السيارة، ثم خشي أن يخرج الدكتور عزمي ويراه واقفاً مع نجوى المناسترلي، فيفهم ما كان يريد ألا يفهمه عن سبب تردده للذهاب إليها وأخذ حديث منها، ثم يفهم سر عدم حصوله على الحديث المطلوب. . فقد اضطر أن يكذب على عزمي ويقول له إنه لم يجد يومها نجوى المناسترلي في دارها، وسأل عنها في اليوم التالي فعلم أنها سافرت إلى إيطاليا. . لم يجرؤ يومها أن يقول لرئيسه الدكتور عزمي عن اجتماع القمة الثلاثي الذي حضره مع نجوى وزبيدة، ولا عن المسائل الخطيرة التي بحثت في هذا الاجتماع!

ولو أنه ترك نجوى وعاد إلى الجريدة، فإنها امرأة جريئة، قد تدخل إلى مكتب الدكتور عزمي وتجعله يستدعي محمداً. أو تؤلف كذبة جديدة. . أو تروي له سبب عدم حصوله على الحديث المطلوب!

واضطر أن يركب السيارة صاغراً وهو يقول لنجوى بعجلة:

ـ إنني مضطر للذهاب إلى موعد هام.. لا أستطيع أن أتكلم معك الآن!

قالت نجوى، وهي تدير مفتاح البنزين، وتدوس على المارش، وتنطلق بالسيارة:

ـ أنا مستعدة أن أعمل سائقة سيارة لك هذه الليلة.. ولا تخف، فلن يراني أحد معك.. السيارة غير معروفة، فقد وصلت من إيطاليا اليوم، ولا تزال أرقامها الايطالية عليها.. وأنا عدت من إيطاليا اليوم فقط.. ولا يعرف أحد أنني وصلت إلى مصر. والظلام دامس وسأضع نظارة سوداء على عيني.. الفرق بيني وبينك أنك جبان برغم أنك عازب خشية أن تراك حبيبتك معي.. وأنا شجاعة برغم أنني متزوجة، ولا أخشى أن يراني زوجي معك!

قال محمد:

ـ المسألة ليست جبناً ولا شجاعة. المسألة أنني مكلف من الجريدة بأن أذهب وأقابل أصدقاء الأطباء الذي يعالجون صدقي باشا لأعرف حقيقة مرضه!

قالت نجوى:

ـ وكم ساعة تستغرقها هذه المهمة الخطيرة؟

قال محمد:

ـ لا أعرف.. ربما أربع ساعات.. ربما ست ساعات!

قالت نجوى وهي تضحك وتندفع بسيارتها في سرعة مجنونة:

ـ إذن ستمكث معي ست ساعات!

قال محمد غاضباً:

ـ هل جننت؟ هل تريدين أن أترك المهمة التي كلفتني بها الجريدة لأبقى معك؟

قالت باسمة وهي توقف السيارة في وسط الشارع:

ـ آسفة جداً..

وفتحت باب السيارة وقالت له:

ـ إنني جئت إليك لأخبرك بحقيقة مرض صدقي باشا.. لقد كان والدي الآن في بيت صدقي باشا، وعاد إلى البيت وأخبرني بما قاله الأطباء. وعندئذ عرفت أن هذا خبر هام يهمك باعتبارك صحفياً.. وعلى الرغم من أن الوقت متأخر والجو بارد، ركبت سيارتي على الفور وجئت لأبلغك الخبر الذي يهمك.. آسفة جداً يا محمد..

وكان محمد يتهيأ للنزول من السيارة، ولكنه ما كاد يسمع أنها جاءت لتبلغه الخبر الذي كان يبحث عنه، حتى توقف عن مغادرة السيارة، وعاد يغلق الباب وهو يقول:

ـ أنا آسف يا نجوى.. لم أتصور أنك تفعلين كل هذا من أجلي!

قالت نجوى، وهي تحرك السيارة من جديد:

ـ إنني مستعدة أن أفعل أشياء كثيرة من أجلك.. ولكنك لا تريد أن تفهم!

■ ■ ■

ولم يستطع محمد أن يصدقها في أول الأمـر، ولكن عندمـا أبلغته التفاصيل الدقيقة عن مرض صدقي بـاشا تغلب الصحفي فيـه على الرجل!

روت له أن الأطباء قالوا إن الشلل نصفي، وأنه في الجانب الأيسر الذي يقع فيه القلب، وأن الأطباء يقولون إنه لا يمكن الحكم على أثر الشلل على قلب صدقي باشا إلا بعد أسبوع. . وعندئذ يستطيعون أن يقولوا هل يعيش أو يموت. . وإذا عاش فهل يستطيع أن يستأنف عمله كرئيس للوزارة، أم أنه سيعيش عاجزاً عن مزاولة أي عمل. ولكن ليس هذا هو أهم خبر. . أهم خبر هو أن الدولة كلها أصيبت بالشلل، نتيجة شلل رئيس الوزراء!

وتمنى عندما انتهت من رواية الخبر أن تـواتيه الشجـاعة والجـرأة ويطلب من نجوى أن تعود به إلى جريدة الجهاد ليبلغ الدكتور عزمي الخبر الذي حصل عليه بسرعة البرق.

وخجل أن يقول لها هذا. . إنه يعرف أنها تريد ثمن الخبر الذي حملته إليه. ويعرف أنه ثمن باهظ لا يستطيع أن يدفعه. . إخلاصه لزبيدة يمنعه من أن يعطي الثمن المطلوب. . حتى ولو أمكن تخفيض الثمن إلى قبلة وعناق!

وكانت السيارة قد وصلت إلى طريق السويس الصحراوي! لم يشعر محمد بهذه المسافة الطويلة التي قطعتها السيارة من شارع ناظر الجيش بحي الانشا إلى طريق السويس. . كان مأخوذاً بسماع تفاصيل مرض رئيس الوزراء. .

وأوقفت نجوى السيارة واقتربت قليلاً منه وقالت:

ـ والآن. . هل عرفت أنني أهتم بك؟

قال محمد:

- عرفت أنك صديقة مخلصة!

قالت نجوى:

- صديقة فقط؟!.. إنني أعتقد أن هناك أشياء كثيرة تجمعنا. أنت تؤمن بالحرية.. وأنا أؤمن بالحرية!

قال محمد باسماً:

- أنا أؤمن بحرية الشعب.. وأنت تؤمنين بحرية الجسد!

قالت نجوى:

- الحرية واحدة لا تتجزأ.. لا يمكن أن تطلب حرية الكلام وتمنع حرية الحب.. الحرية هي أن نحطم كل القيود والأغلال، هذه هي حرية الحياة!

قال محمد:

- أنت تتصورين أن الحياة هي جسدان وفراش.. أنت تريدين أن تحصري الحرية في غرفة نوم، وأنا أريد أن أنشرها في البلد بأسره.. أنت تحلمين بليلة لذيذة، وأنا أحلم بغد أفضل!

قالت ضاحكة:

- ألا يمكننا أن نجمع الليلة اللذيذة والغد الأفضل في علاقة واحدة؟

قال محمد:

- لا يمكن أن تجتمع الحرية الحمراء والليالي الحمراء في فراش واحد.. أنا أريد رفيقة لي في طريق النضال الطويل، طوال عمري،

وأنت تريدين شريكاً في فراش لبضع ساعات!

قالت نجوى محتجة، وهي تنظر إليه في شغف ولهفة:

- إنني أريدك شريك العمر كله.. شريك جسدي وروحي!

قال محمد ساخراً:

- إنك كالقطط، بسبع أرواح.. ماذا فعلت بسعيد توفيق أستاذك السابق في اللغة العربية؟.

وذعرت نجوى وقالت مخنوقة الصوت:

- كيف عرفت.. لا بد أنه أخبرك!

قال محمد:

- لم يخبرني بشيء.. ولكن عرفت عندما اخترته ليدرِّسك اللغة العربية، إنك لا تغيرين من طريقتك ولا تجددين.. هذا الشاب المسكين كان المفروض أن يكون شريك العمر كله، فإذا بهذا العمر لا يتجاوز بضعة شهور!

قالت نجوى وهي تضحك:

- أنت السبب في كل ما جرى له.. لقد كان دائماً يحدثني عنك.. هو الذي جعلني لا أنساك أبداً.. وقد طردته لأنني عرفت أن زوجي سينقل إلى القاهرة، ولأنني قررت أن تكون حياتي معك أنت.. أنت وحدك!

قال محمد:

- هل أنا السبب في كل ما جرى له، أم السنيورا كارمن الكاتبة على

الآلة الكاتبة التي رقص معها في الجراند أوتيل؟

قالت نجوى:

ـ لو كنت أحببته لاحتملت ألف سنيورا كارمن، لا كارمن واحدة.. ولكنني أردت أن أنساك به، وإذا به يجعلني أذكرك أكثر وأكثر.. ولا أقبل أن يستعبدني رجل لا أحبه!

قال محمد:

ـ أنت تعتبرين الإخلاص لرجل واحد نوعاً من الرق والعبودية.. الجارية في رأيك هي التي تخلص لرجل واحد.. والحرية التي تريدينها هي حرية اللذة.. أنت ابنة طبقة تعودت أن تأمر فتطاع، تطرد من العزبة كل يوم فلاحاً وتعين فلاحاً جديداً. ليس للفلاح المطرود أن يعترض على الطرد، وليس للفلاح الجديد أن يرفض التعيين.. ثم أصبح جسدك هو «العزبة» التي تتصرفين فيها بنفس طريقة أجدادك!

قالت نجوى:

ـ أنت ثائر وأنا ثائرة مثلك.. أنت تطلب التحرر من طبقة الطغيان، وأنا أطلب التحرر من استبداد الرجل.. أنا كنت أتمنى أن أولد رجلاً، وأستبدل النساء كما يفعل الرجال.. وما دمت ولدت امرأة، أرى من حقي أن أزاول الحرية التي يستمتع بها الرجال.. ولماذا لا يعيب الرجل أن يعرف مائة امرأة قبل أن يتزوج، ويعيب المرأة أن تعرف رجلاً واحداً قبل أن تتزوج؟ وإذا كنتم تصدقون أن المرأة تطلب المساواة مع الرجل لتصبح وزيرة وعضواً في البرلمان فأنتم تخطئون، إنها تطلب المساواة للتساوي مع الرجل في كل حرياته.. ومن بينها حرية الجسد!

قال محمد:

ـ ومن قال لك إن من حق الرجل أن يستمتع بحرية الجسد؟ إنك تعيشين في عالم اللذة.. تتصورين أن مهمة الإنسان في الحياة هي أن يصعد إلى السرير، ويهبط من السرير.. السرير جزء من الحب، وليس كل الحب.. إنني لا أمانع أن ينام الحب مع الجسد في سرير واحد.. ولكن الذي أمانع فيه أن ينام الحب في سرير.. والجسد في مائة سرير!

ولم تغضب نجوى من صراحة محمد. كانت عيناها تنحنيان أمام عينيه، وكأنها تركع تصلي صلاة الشكر في خضوع وذلة واستضعاف أمام السيد الذي يلعنها!

ثم رفعت عينيها مبتسمة، وكأنها نهضت من ركعتها وقالت له:

ـ ما الفرق بين فم المرأة وجسدها؟ الفتاة التي تعطي شفتيها لألف رجل هي في نظر المجتمع فتاة لعوب.. والفتاة التي تعطي جسدها لرجل واحد يسمونها امرأة فاسدة... من ذا الذي جعل لجسد المرأة قداسة المحراب؟ إنها تقاليد قديمة بالية موروثة، وسوف يجيء يوم يسمح المجتمع للمرأة فيه أن تغير الرجل كما تغير نوع السجائر الذي تدخنه.. لماذا يكون من حقي أن أدخن اليوم سيجارة مصرية، وأدخن غداً سيجارة إنجليزية، وبعد غد سيجارة أمريكية، ولا يكون من حقي أن أغير رجلي؟

قال محمد:

ـ إن تغيير أنواع السجائر يحدث عادة السعال.. إن الذي يغير أنواع السجائر هو إنسان لا مزاج له في التدخين.. المدمن الحقيقي يتمسك بسيجارة واحدة، ويرفض أن يدخن سيجارة من نوع مختلف عن النوع

الذي تعود عليه. . المدمن على نوع واحد من السجائر، لا يستطيب إلا طعمها، أما أنت فالسجائر لا طعم لها في شفتيك. . تأخذين نفساً من كل سيجارة، وترمينها على الأرض، وتدوسين عليها بقدمك. . طعم الدخان نفسه لا يثيرك، وإنما يثيرك منظر السيجارة وهي تحترق. . تشعلين السجارة لتحرقيها، وتدوسين السيجارة الأولى لتحرقي سيجارة ثانية. . تعتبرين الإخلاص لنوع واحد من السجائر كالحياة في عالم من الجمود والموت البطيء!

قالت نجوى:

- إنني كنت أغيّر أنواع السجائر بحثاً عن السيجارة التي تريحني. . وقد وجدت فيك السيجارة التي أريدها. . وأنا أعرف أنني لو دخنتها مرة واحدة، لما غيّرتها ولأصبحت سيجارة عمري. . ولكن فمي يريد، والسيجارة نفسها لا تريد!

ولمح محمد في عيني نجوى نظرة كلها حرمان. . كأن كل أنواع السجائر التي دخنتها طوال سنوات عمرها الشاب، لم تكفها. ورأى شفتيها ترتعشان، كما ترتعش شفاه المدمنين عندما يشمون رائحة سيجارة ولا يجدون السيجارة!

وهنا قال لها:

- الفرق بيني وبينك أنك لا تؤمنين إلا بالحقائق الملموسة. . إن أجمل ما في الدنيا نراه ولا نلمسه بأصابعنا. . ضوء القمر، نسيم الربيع، شروق الشمس، زرقة السماء!

قالت نجوى في اكتئاب:

- لقد علمك الحب الشعر كأحمد رامي. . إن المرأة عندما تحب رجلاً

لا تمنحه ضوء القمر، ولا نسيم الربيع، ولا شروق الشمس ولا زرقة السماء. . إنما تمنحه أجمل ما عندها، وأجمل ما عندي هو جسدي. . وأنا مستعدة أن أمنحه لك وحدك دون شريك!

وتأمل محمد جسم نجوى البض، وذراعيها المخروطتين، وفتنتها الطاغية وراقبته نجوى وهو يتلذذ بهذا الجمال، وأسعدها أنها رأت في عينيه صورة فم يتلمظ على منظر جسد شهي!

وأسرعت تقرب منه، فابتعد عنها. . ففي تلك اللحظة فقط تذكر زبيدة. تذكر أن عليه أن يقدم حساباً كاملاً لها عن كل ما حدث في هذا اللقاء الغريب!

قالت نجوى:

ـ إنك تبتعد عني بعنف، كلما اقتربت منك بحنان!

قال محمد:

ـ لأنني لا أستطيع أن أدخن سيجارتين في وقت واحد. . إن قلبي كوخ صغير وليس بلاط هارون الرشيد يتسع لمئات الجواري والمحظيات!

وأحست نجوى بهوان غريب. كأنها تضاءلت وتضاءلت حتى أصبحت حشرة فوق مقعد القيادة، ولم ترد عليه بكلمة واحدة، بل فتحت مفتاح البنزين، وانطلقت بالسيارة كالمجنونة عائدة إلى القاهرة!

وجلس محمد في نهاية المقعد، يرقبها، وهي تقود السيارة بغير أن تلتفت إليه. كان يرى جانباً من عينها. . وكان هذا الجانب يكفي لأن يرى فيه الشرر والكمد والغيظ. رأى في ملامحها قسوة غريبة. اختفت

من نظراتها اللهفة والفتنة والحنان. كان في عينيها شيء يصرخ ويزأر بصوت مخيف، كأنه خرج من حدقة عينيها قاتل يضغط على سكين بين أسنانه!

وأحس محمد بالخوف! قرأ في عينيها أنها تريد أن تصطدم بسيارتها في المترو أو في الترام، أو في فانوس نور.. كأنها تريد أن تضع نهاية له ونهاية لها في نفس الوقت..

وأراد محمد أن يهدىء ثورتها، أن يقول كلمة مجاملة يطفىء بها هذه النار المشتعلة، فقال وهو يمد يده ويربت على كتفها:

ـ تأكدي يا نجوى أنني أعتز بصداقتك!

ودفعت نجوى يده بعيداً.. وأوقفت السيارة في ميدان المحطة وفتحت الباب وأشارت له بأصبعها أن ينزل من السيارة.

وما كاد يهبط من السيارة حتى قالت له بصوت مخنوق:

ـ صداقتك على حذائي!

واندفعت بالسيارة كالمجنونة!

وتنفس محمد الصعداء، كأنه نجا من موت محتم.. واستقل عربة الترام إلى إدارة جريدة «الجهاد».

■ ■ ■

ورأى محمد دار الجريدة، وقد غصت بالزائرين. وجوه قديمة لم يرها منذ وقت طويل. وجوه جديدة يراها لأول مرة. جاء الناس من كل أنحاء القاهرة يطمئنون على صحة رئيس الوزراء.. يطمئنون على أنه على فراش الموت!

ودخل محمد إلى مكتب الدكتور عزمي، وأبلغه ما عرفه عن حقيقة مرض صدقي باشا، فطلب إليه عزمي أن يكتب كل ما سمعه، وتنحى له عن مكتبه ليجلس ويكتب المعلومات الخطيرة..

وبعد أن انتهى من كتابة الخبر، دخل إلى مكتب الأستاذ حسين توفيق مدير التحرير، فوجده غاصاً بكبار الوفديين، ومن بينهم درويش باشا حبيب أحد زعماء الحزب.. وهو رجل معروف بصلابته وإخلاصه وتعصبه لمبادىء الوفد، وبأنه موضع ثقة النحاس باشا رئيس الوفد.

ووجد أن كل من في الغرفة يؤكد أن صدقي باشا سيموت خلال بضعة أيام، وأنه سيكون من نتيجة موته، أن يعود دستور الأمة فوراً، ويتولى الشعب الحكم من جديد. كأن عزرائيل سيتولى القيام بمهمة الكفاح الشعبي وتخليص البلاد من الدكتاتورية والطغيان..

وقال محمد:

ـ إن مرض صدقي باشا ليس هو الخبر الهام.. الخبر الهام هو أن الدولة كلها أصيبت بالشلل، يجب أن تنتهز المعارضة هذه الفرصة لتضرب ضربتها، قبل أن تسترد الدولة أنفاسها، وقبل أن يشفى صدقي باشا ويسيطر من جديد!

قال درويش باشا:

ـ إن صدقي باشا لا يمكن أن يشفى.. المؤكد أنه سيموت خلال أسبوع على الأكثر.

قال محمد معترضاً:

ـ لنفرض أنه حدثت المعجزة وشفي من المرض..

وظهرت على درويش باشا علامات الامتعاض من هذا المحرر

الصغير الذي يعترض آراءه المبنية على معلومات من أوثق المصادر وقال:

ـ لن يشفى أبداً. . إن فرصة شفائه واحد في المليون!

قال محمد:

ـ لنفرض أن الواحد في المليون هو الذي حدث. . يجب أن نستعد لأسوأ الاحتمالات!

قال درويش باشا:

ـ ماذا تريد أن نفعل؟! إن الحكم كله يلفظ أنفاسه الأخيرة! يكفي أن تكتب صحف المعارضة بضعة مقالات، ويلقي الزعماء بعض الخطب. .

قال محمد:

ـ الكلام لا يكفي اليوم! عندما ينصب الزعماء سيرك الكلام، تكون مهمة الشعب التفرج والتصفيق. . لا بد من عمل! لا بد أن تنظم مظاهرات في كل بلد! إضرابات في كل مصنع! إصطدامات في كل شارع! وبذلك يمكن الإجهاز على الحكم المشلول بسبب الشلل الذي أصيب به الحاكم!

وهز درويش باشا رأسه وقال:

ـ إن هذه السياسة العليا من شأن الزعماء وحدهم! الزعماء ليسوا في حاجة لأن يتلقوا دروساً في الكفاح من أولاد صغار!

وانضم كل الموجودين في الغرفة يؤيدون درويش باشا في رأيه، ويسخرون من آراء محمد عبد الكريم السخيفة. .

وأحس محمد بأنه يتضاءل في مقعده ويتحول إلى حشرة، تماماً كما تضاءلت نجوى المناسترلي في المقعد الأمامي بالسيارة. . وشعر كأنه في سيرك حقيقي، وأن كل الموجودين في الغرفة يجيدون السير على الحبال، وأنه وحده الذي يتفرج على هذا السيرك، وحده الذي يعرف أن هذه الألعاب قديمة، ممكن أن تسلي الشعوب، ولكن لا يمكن أن تجعلها تندفع لتقتلع الطغاة من مقاعدهم!

الناس كسالى بطبيعتهم، يتعلقون بالآمال، فإذا رأوا بارقة أمل، تركوا لهذه البارقة أن تصنع المعجزات التي يجب أن يصنعوها بأيديهم!

أوهامهم تتحول في خيالهم إلى حقائق، يبنون فوقها قصور الأحلام ويسكنون هذه القصور، ويفرشونها بأمانيهم. . ثم يكتشفون فجأة أنهم يقيمون في صحراء من الأوهام!

■ ■ ■

ومضت الأيام وصدقي باشا لا يموت. . والإشاعات في كل مكان تؤكد أنه سيموت غداً. .

ويجيء الغد، ويموت الغد، ولا يموت رئيس الوزراء!

وكانت زبيدة تقول لمحمد أنها سمعت من زوجها عوني باشا حافظ أن صحة صدقي باشا تتحسن ببطء.

وكان يعتقد أن عوني باشا يخدع زوجته، كما تخدع الحكومة الشعب بأنباء مضللة عن تقدم صحة رئيس الوزراء. وكان في قرارة نفسه يتمنى أن تكون أخبار زبيدة غير صحيحة. وأن الأنباء التي أكدها درويش باشا حبيب هي الصحيحة. .

وكان كل شيء يؤكد أن أخبار درويش باشا صحيحة. الوجوم الذي يسيطر على وجوه الوزراء.. حالة الركود التي أصيبت بها الوزارة كأنها فقدت الروح مع فقد رئيس الوزراء.. تأكيد الجماهير في كل مكان أن حالة صدقي باشا تسوء يوماً بعد يوم..

وتذكر محمد دعوة عزيز صدقي ابن رئيس الوزراء له في بيت الشيخ عبد الرؤوف، عندما طلب إليه أن يزوره في بيته في أي وقت، ليعطيه بعض الأخبار..

وعرض الفكرة على الدكتور عزمي، فشجعه على الذهاب..

وذهب إلى بيت صدقي باشا في الزمالك، فوجد أمامه عشرات الحراس، يحملون المسدسات والمدافع الرشاشة.

وتقدم من أحد الحراس وقال إنه صديق عزيز بك صدقي نجل رئيس الوزراء، وأنه جاء لمقابلته بناء على طلبه، وأعطى الحارس اسمه.

وطلب منه الحارس أن ينتظر قليلاً..

وبعد قليل هرول أحد الضباط يقول له:

- إتفضل يا محمد بك!

وسرّ محمد من هذا الترحيب، ومشى وراء الضباط فأدخله إلى صالون فخم في الطابق الأول من الدار.

وبعد قليل أقبل عزيز صدقي، ورحب به، وسأله لماذا تأخر في الحضور إليه.. لقد فاتته أخبار هامة كثيرة!

وقال محمد إنه جاء مكلفاً من الجريدة ليعرف حقيقة صحة رئيس الوزراء..

وقال له عزيز ببساطة: هل تريد أن ترى والدي؟

ودهش محمد.. ولم يتوقع أن في استطاعته أن يلتقي برئيس الوزراء بهذه البساطة؟

فقال إنه يرحب بهذا اللقاء..

وتركه عزيز جالساً في الصالون وبعد دقائق عاد إليه، وهو يقول:

ـ إن والدي يرحب بأن يراك!

قال محمد بذهول:

ـ هل قلت له إنني محرر في جريدة «الجهاد» المعارضة؟

قال عزيز:

ـ طبعاً.. وأخبرته أن الحكومة فصلتك من المدرسة، وأنك صديقي..

وتعثرت قدما محمد، وهو يصعد درجات السلم إلى الطابق العلوي.. واعتقد أنه حصل على نصر صحفي.. سيكون أول صحفي في العالم يرى رئيس الوزراء على فراش الموت!

وفوجىء بعزيز يدخل به إلى غرفة مكتب..

ووجد صدقي باشا جالساً إلى المكتب، وقد ارتدى بيجامة زرقاء، ووضع على رأسه طاقية زرقاء، وقد ربط ذراعه اليسرى بضمادات بيضاء علقها بشريط حول عنقه..

ولم يقف صدقي باشا لتحيته، وإنما مد يده اليمنى وصافحه وهو

يقول باسماً:

ـ إنني ما زلت على قيد الحياة. . وسوف أعود إليكم قريباً!

وارتعش محمد، وكأنه سمع صوت ميت يتكلم، ووجد شفتيه تتحركان ولا تقولان شيئاً!

هذا هو الطاغية الذي لا يزال يحكم مصر من فراشه! الرجل الذي تمنى في يوم من الأيام أن يقتله! الرجل الذي يعتمد الشعب على عزرائيل ليتولى مهمة زعيم المعارضة ويخطف روحه!

وقال صدقي باشا والابتسامة لا تزال فوق شفتيه:

ـ لقد قال لي عزيز إنك جئت لتطمئن على صحتي. . تذكرت قصة الحانوتي الذي كان يرسل ابنه كل يوم إلى زيارة أحد المرضى ليطمئن على صحته. . يمكنك أن تذهب الآن وتطمئن المعارضة على صحتي. . إن يدي اليسرى هي وحدها التي أصيبت. . وأنا لا أعمل بيدي. . إنني أعمل دائماً برأسي. . إنتظروني! فإنني عائد إليكم. . قريباً!!

■ ■ ■

خرج محمد مذهولاً من لقاء الطاغية! أذهلته قوة أعصابه! أذهله إصراره على أن يسترد صحته ليعود إلى البطش بالشعب من جديد! أذهله أكثر أنه وجد أنه لا يزال على قيد الحياة!

وساءل نفسه وهو في الطريق عن حقيقة شعوره نحو هذا الرجل. إنه أعجب بقوته، ولكنه لم يستطع أن يحبه. ابتسامته الحلوة لم تنس محمد مرارة السياط التي انهالت على جسمه. عقل صدقي الكبير جعله يذكر عقل أبيه الذي ذهب. . بسبب هذه السياط!

وتذكر محمد ما قاله درويش باشا حبيب بأن زعماء المعارضة واثقون أن صدقي باشا سيموت خلال أسبوع.

وقرر أن يذهب إلى الاستاذ مكرم عبيد سكرتير الوفد، ويخبره بما رآه، وبأنه لا بد أن يتحرك الشعب فوراً قبل أن يقف هذا الرجل على قدميه من جديد!

وكان قد عرف مكرم الذي كان يتردد كثيراً على جريدة «الجهاد»، وكان يخصها باهتمامه أكثر من أي جريدة وفدية أخرى. فقد كانت علاقة مكرم بالأستاذ عبد القادر حمزة صاحب «البلاغ» علاقة باردة وعلاقة مكرم بالأستاذ حافظ عوض صاحب جريدة «كوكب الشرق» علاقة فاترة، وعلاقته بالأستاذ توفيق دياب صاحب «الجهاد» علاقة حارة. وكانت «الجهاد» في تلك الأيام أوسع الصحف الصباحية انتشاراً، وتوزع أكثر من جريدة «الأهرام» عشرة آلاف نسخة، فكانت جريدة الوفد الأولى..

■ ■ ■

ودخل محمد بيت مكرم في منشية البكري بضاحية مصر الجديدة. بيت بغير بواب. لا تدق الجرس وإنما تدخل بغير استئذان. عشرات الناس يدخلون ويخرجون. يتناولون الغداء ويتناولون العشاء. تستقبلهم ابتسامة زوجته عايدة، وتودعهم ضحكته العصبية. يجد مكرم دائماً كلمة حلوة لكل زائر. إنه أقرب زعماء الوفد إلى رئيس الوفد. وهو أقواهم نفوذاً، وأكثرهم نشاطاً، وأفصحهم لساناً وأعنفهم خصومة.

ورأى محمد الأستاذ مكرم جالساً مع الزعيم الوفدي درويش باشا حبيب.. وما كاد مكرم يرى محمداً حتى هبّ إلى لقائه، ورحب به،

وأجلسه إلى جواره وهو يقول له :

ـ إن حظك من السماء يا أستاذ محمد! لقد جئت في الوقت المناسب. عندي لجريدة «الجهاد» خبر خطير سوف يهز البلد. خبر سري تحاول الحكومة جاهدة أن تكتمه، حتى تستعد لإعلانه بعد اتخاذ الترتيبات اللازمة.. إنه خبر صحيح مائة في المائة. سمعه معالي درويش باشا حبيب من مصدر ثقة..

وهز درويش باشا حبيب رأسه مؤيداً وهو يقول :

ـ مصدر عالم ببواطن الأمور ويعرف كل ما يجري وراء الستار..

واهتم محمد بأن يسمع الخبر الذي سوف يهز البلد، ومضى الأستاذ مكرم باشا قائلاً :

ـ إن صدقي باشا مات..

قال محمد في دهشة :

ـ متى مات؟

قال مكرم :

ـ مات منذ ثلاثة أيام!

قال درويش باشا حبيب :

ـ بالضبط.. في الساعة الثالثة والربع من صباح يوم الثلاثاء الماضي! وقد اتفق الوزراء على أن يخفوا الخبر، حتى يتم الاتفاق بين الملك فؤاد والانجليز على من يخلفه في رئاسة الوزارة، وقد وضعوا جثة صدقي باشا في ثلاجة حتى لا يفسد الجسم..

قال محمد في هدوء:

ـ هذا غير صحيح . .

قال درويش باشا بلهجة عصبية:

ـ كيف تقول إن هذا غير صحيح وأنا واثق من هذا الخبر كل الثقة؟

قال محمد في نفس الهدوء:

ـ كيف يكون صدقي باشا قد مات من ثلاثة أيام . . وأنا كنت في منزله الآن، وقابلته في الطابق العلوي؟

وصاح درويش باشا غاضباً:

ـ هذا إفك وبهتان! هذا كذب صراح . . صدقي باشا قد مات منذ ثلاثة أيام . . في الساعة الثالثة والربع من صباح يوم الثلاثاء الماضي!

قال محمد:

ـ لو كان قد مات منذ نصف ساعة فأنا مستعد أن أصدق الخبر. أما أن يكون قد مات منذ ثلاثة أيام فهذا غير صحيح!

وأراد درويش باشا أن يقاطع محمد، فطلب منه مكرم أن يتركه يروي القصة . .

وروى محمد كل ما جرى بينه وبين صدقي باشا كلمة بكلمة . .

وقال درويش باشا:

ـ قد يكونون جاءوا بشخص آخر يشبه صدقي باشا، وألبسوه ملابسه، وأجلسوه إلى مكتبه، لتجيء إلينا بهذا النبأ فنحسب أنه لا

يزال على قيد الحياة، إمعاناً في خديعتنا والكذب علينا!

قال محمد:

- إنني ذهبت إلى بيت صدقي باشا فجأة.. لم أنتظر سوى بضع دقائق بين اللحظة التي قال لي ابنه عزيز إنه سوف يستأذن لي في المقابلة وبين المقابلة نفسها.. وهذه الدقائق ليست كافية لكي يجيئوا برجل آخر، ويلبسوه ملابس صدقي باشا، ويجلسوه إلى مكتبه!

وابتسم مكرم ولم يقل شيئاً...

أما درويش باشا فقد هاج وماج، وسأل محمداً في عنف:

- وكيف تخالف يا أستاذ قرار الوفد؟ الوفد أصدر قراراً بمنع كل وفدي من زيارة بيت وزير، أو يضع يده في يد وزير.. وأنت زرت بيت رئيس الوزراء وصافحته، واستفسرت عن صحته! إن الذي فعلته هو خيانة لمبادىء الوفد!

قال محمد وقد فوجىء بهذا الهجوم:

- إنني استأذنت رئيسي الدكتور عزمي في الذهاب إلى بيت صدقي باشا.

قال درويش باشا غاضباً:

- الدكتور عزمي ليس وفدياً.. ولا يملك أن يلغي قراراً للوفد.. إذا كان الذين يعملون في صحف الوفد لا يحترمون قراراته، فمن يحترم قرارات الوفد؟.. إن الوفد لا يريد أنصاراً يأكلون على مائدتين!

وتدخل الأستاذ مكرم لإنقاذ محمد من براثن درويش باشا وقال:

ـ الأستاذ محمد عبد الكريم شاب صغير، وللشباب غلطاته. . وأنا أعتقد أنه كان حسن النية في هذا التصرف. . وعلى كل حال فإنني اعتقد أنه استفاد من هذا الدرس، ولن يزور بيت وزير إلا بعد استئذان سكرتير الوفد. . ولا تتضايق يا أستاذ محمد من عنف معالي درويش باشا فهو كما تعلم حريص على تنفيذ قرارات الوفد التي أقسمنا جميعاً على احترامها!

وتضايق محمد من الطريقة التي حكم فيها الأستاذ مكرم في الخلاف الذي وقع بينه وبين درويش باشا!

لقد كان الخلاف هو هل صدقي باشا حي أو ميت. . فإذا به يصبح الخلاف حول مخالفة قرار الوفد بعدم مصافحة الوزراء ودخول بيوتهم!

كان واضحاً لمكرم أن درويش باشا مغفل، وأنه نقل إليه خبراً كاذباً، كادت تقع فيه أوسع صحف الوفد انتشاراً، ويصبح النشر فضيحة كبرى تهلل لها صحف الحكومة. . وكان واضحاً أن درويش باشا كذب على سكرتير الوفد عندما زعم أنه سمع هذا النبأ من أوثق المصادر، ومن مصدر عالم ببواطن الأمور، ويعرف كل ما يجري وراء الستار. . ولكن مكرم كان بطبيعته مجاملاً، فلم يشأ أن يحرج الزعيم الصديق، وفضل أن يغطيه أمام المحرر الصغير. . ويجعل محمد هو المتهم. . ودرويش باشا المدعي العام!

ونزل درويش باشا من الغرفة وهو يقول:

ـ أنا لا أجلس مع رجل جلس مع صدقي باشا! سأذهب الآن وأغسل يدي بحامض الفينيك. . لأنني صافحت اليد التي صافحت هذا المجرم!

واحمر وجه محمد. ماتت الكلمات على شفتيه. وقال له مكرم وهو

يلاطفه ويهدىء من غضبه:

ـ لا تغضب من درويش باشا. إنه رجل طيب، قلبه على طرف لسانه، إن إخلاصه لقرارات الوفد، هو الذي جعله يثور عليك. كل حركة شعبية في حاجة إلى أمثال هؤلاء الرجال المتحمسين. إنني واثق من صدق وطنيتك وأمانتك. ولكنني كسكرتير للوفد، لا أستطيع أن أدافع عن شاب خرج على قرار من قراراته.. إننا قررنا أن نعامل الوزراء معاملة المنبوذين.. وأي خروج على هذا القرار يضعفه.. فما بالك إذا جاء من صحفي يعمل في أقرب صحف الوفد إلى الوفد؟.

قال محمد:

ـ إنه غضب لأنني قلت إن صدقي باشا لم يمت! هل كان مطلوباً مني أن أقول إنه ميت، وأنا رأيته بعيني منذ نصف ساعة؟.

قال مكرم:

ـ إنني أخبرتك أن درويش باشا هو مصدر الخبر.. وأنت تعلم أنه رجل عصبي.. وكان من واجبك أن تأخذني بعيداً وتخبرني بالحقيقة دون أن تصفعه بالتكذيب. ولا تنس أنه ليس رجلاً عادياً. إنه عضو بارز في الوفد. ونحن بشر، نغضب إذا جاء شاب صغير، وواجهنا أمام سكرتير الوفد بأننا نقول له كلاماً فارغاً.. لقد كنت مضطراً أن أتدخل محافظة على كرامة عضو في الوفد وضيفي في بيتي في الوقت نفسه!

قال محمد:

ـ إنني جئت إليك لأقول لك إن من رأيي أن هذه فرصة المعارضة الذهبية الوحيدة للانقضاض على الحكومة وهي مشلولة وعاجزة عن الحركة.. وإذا فاتتنا هذه الفرصة فسيسترد صدقي باشا صحته

ويضرب بيد من حديد . .

قال مكرم :

ـ إن صدقي انتهى ولن تقوم له قائمة، حتى ولو شفي وعاد إلى عمله. هذا النظام يقوم على رجل واحد هو إسماعيل صدقي. وهو رئيس الوزراء ووزير الداخلية ووزير المالية . . وهو العملاق الوحيد، وكل الذين حوله أقزام . . والشعب أصبح قادراً الآن على اقتلاعه! هذا الشعب شعب حي لا يمكن أن يموت. إرادته من إرادة الله. وإذا الشعب يوماً أراد الحياة، فلا بد أن يستجيب القدر!

قال محمد :

ـ وهل ترى أن أكتب في «الجهاد» غداً حقيقة حالة صدقي باشا الصحية. ؟

وفكر مكرم قليلاً ثم قال ضاحكاً :

ـ سوف تزعج البلد بنبأ أن صحة جلادها تحسنت . . أترك لصحفه أن تقول هذا الكلام . . وليست مهمة صحافة المعارضة أن تنكد الحياة على الشعب أكثر مما يعيش فيه من نكد وشقاء!

■ ■ ■

إنتهى محمد وزبيدة من أكل تفاحتهما، ورقدا فوق الفراش يتحدثان!

كانت أجمل لحظاتهما، تلك الفترة التي تعقب اندماجهما اللذيذ، عندما تبدأ أفكارهما تتعانق كما تعانقت كل أجزاء جسديهما . .

وقالت زبيدة فجأة :

ـ هل تحتقرني يا محمد؟

واهتز محمد وقال في استنكار:

ـ أحتقرك . . ؟ إنني أحترمك بعد أمي مباشرة؟

قالت:

ـ في بعض الأحيان، أتصور أنك تقول لنفسك: ترى هل ستخونني بعد أن أتزوجها كما تخون زوجها اليوم معي؟

قال محمد:

ـ إنني أعتبر زواج المرأة برغم إرادتها من رجل لا تحبه هـو الزنى الحقيقي . . !

قالت:

ـ الخطيئة واحدة!

قال:

ـ إنني أؤمن بأن حبنا هو توبة عن كل خطايانا! إنك تختلفين عن كل امرأة . . إنك شيء مقدس!

قالت:

ـ أجساد النساء واحدة!

قال:

ـ لا . . ليست واحدة! هناك جسد يصلي الرجل فـوقه، وجسـد يبصق الرجل عليه!

قالت:

ـ يقولون: عندما يطفىءالرجل النور تتساوى جميع النساء!

قال:

ـ بل إنني أعتقد أنه عندما يطفىء الرجل النور. . يظهر الخلاف المثير بين جميع النساء!

قالت:

ـ ولكنك لن تجرب جميع النساء لتعرف!

قال:

ـ لست في حاجة إلى التجربة لأعرف! أنا أعرف الموت قبل أن أذوقه!

قالت ضاحكة:

ـ وهل الحب. . كالموت. . ؟!

قال:

ـ الموت نهاية الحب، والحب بداية الحياة! قلوبنا هي قبورنا، إذا تحركت بعثنا، وإذا توقفت دفنا فيها!

قالت:

ـ إنك تجيد فن الكلام كما تجيد فن الحب!

قال:

ـ لأن حبي هو كلامي!

قالت:

ـ ولكن بعض الناس يجيدون الكلام، ولا يجيدون الحب، وآخرين يجيدون الحب ولا يجيدون الكلام!

قال:

ـ أحياناً تتعطل لغة الكلام، لأن حواس أخرى تتكلم.. تتكلم ببلاغة أروع من بلاغة الكلمات! في بعض الأحيان أشعر كأن عينيك تقولان شعراً.. وفي بعض الأحيان أسمع شفتيك تغنيان فوق شفتي..؟ وفي هذه الأحوال تتعطل لغة اللسان، لأن الله لم يخلق لنا لسانين في وقت واحد.. وإنما خلق لنا أشياء تتحدث وتعبر كما يتكلم اللسان ويعبر.. أحياناً أشعر وأنا بين ذراعيك، أنني لم أعد في حاجة إلى كلمات لأعبر عما أريد أن أقول.. لم أعد في حاجة إلى كلمات لأفهم ما تريدين أن تقولي لي.. عندما يندمج العاشقان يقل عدد الكلمات التي يتبادلانها.. يمكثان أياماً طويلة دون أن يتبادلا كلمة واحدة.. ومع ذلك فهما يثرثران معاً طول الوقت.. يثرثران بكل شيء إلا باللسان!

ورفعت زبيدة شعرها فوق رأسها، ثم عادت وأرخته وراء ظهرها!

وقال لها وهو يتأمل شعرها الجميل:

ـ أحياناً تتكلمين بشعرك.. عندما تمررين أصابعك في خصلات هذا الشعر أسمعك على الفور تقولين: أنا أريدك!

قالت زبيدة وهي تضحك:

ـ لم أقصد أن أقول لك هذه الكلمات!

قال محمد:

ـ ألذ الكلمات هي التي تقولينها وأنت لا تريدين أن تقوليها!

قالت زبيدة:

ـ مصيبتي أنني لا أشبع منك، كلما أكلتك ازددت جوعاً. وكلما رويتني ازددت عطشاً.. لست أعرف ماذا أفعل الآن لو سجنوك.. تعودت أن أراك كل يوم.. إنني أعيش الأربع والعشرين ساعة من أجل الساعة السادسة مساء! أصبحت حياتي كلها ساعة واحدة هي السادسة مساء.. انتظر الغروب لأنه بداية شروقي.. أرقب الشمس وهي تغيب وأتعجلها أن تسرع في خطاها.. أنظر إلى ساعتي مئات المرات كل ساعة كأنني أسألها متى يجيء حبيبي.. أشعر أنني تائهة طوال ساعات غيابك، ولا أجد نفسي إلا في الساعة التي ألقاك فيها. أحاول أن ألغي ساعات الفراق بالتفكير فيك.. أفكر في الثوب الذي سأرتديه لك لتجردني منه.. أفكر في تسريحة شعري التي ستعبث بخصلاتها وتغير نظامها.. أفكر في العطر الذي سأختار، لتشمه بأنفك. وكل هذا لا يكفيني؟ أتمنى أن يجيء اليوم الذي أغسل فيه الملابس التي ستلتصق بجسدك، أن أكوي المناديل التي ستمسح بها وجهك، أن أعد الطعام الذي سنأكله معاً.. أريد أن يكون يومي كله لك.. أحياناً تدهش سنية عندما تراني داخلة عليها هنا في الصباح. وتضحك وتقول لا تزال هناك عشر ساعات باقية على حضور محمد!

ولكنني لا أجيء إلى غرفة سنية لأنتظرك. أجيء هنا لأبحث عن بعض أنفاسك فيها. لأجلس على السرير الذي ترقد عليه. أصبحت لا أستريح في أي غرفة بالبيت سوى هذه الغرفة.. وحتى لا أثير فضول الخدم اخترت غرفة في البدروم ملاصقة لهذه الغرفة وقلت إنني سأعدها

لتكون مكتبتي الخاصة، ونقلت كل كتبي إلى الغرفة وأصبحت أدخل غرفة المكتبة وأغلق الباب، ثم أفتح الباب الذي بيني وبين غرفة نوم سنية، وأجلس على هذا السرير أقرأ الصحف، وأقرأ كتبي . . فإذا جاء أحد الخدم ودق علي الباب أسرعت أغادر غرفة سنية، وأغلق بابها ورائي وأفتح باب المكتبة.

وقد فكرت في أن أجيء بسرير أنيق وأضعه في غرفة المكتبة، ولكنني شعرت أنني أحب سرير سنية الذي رآنا ونحن نلتصق لأول مرة! حتى أنني أفكر عندما نتزوج في أنني لن آخذ من هذا البيت سوى سرير سنية! أما باقي الأثاث الفاخر، وهو من حق الزوجة طبقاً للقانون، فأنا متنازلة عنه لعوني حافظ، متنازلة عن مؤخر الصداق، متنازلة عن النفقة، كل ما أريده هو سرير سنية! هذا السرير البسيط الرخيص الذي ذقت فيه أحلى ساعات عمري . . !

■ ■ ■

وقال محمد وهو يعبث بأصابعه في خصلات شعرها:

- إن الأستاذ مكرم قال لي أمس إن إسماعيل صدقي قد انتهى ولن تقوم له قائمة . . ولن يمر وقت طويل حتى نأخذ هذا السرير!

قالت زبيدة:

- إن عوني حافظ قال لي اليوم نفس هذه الكلمات . . وقال إن صدقي باشا يتشبث بالحكم تشبثه بالحياة . . ولكن الأطباء مجمعون، على أنه لن يعود إلى حالته الطبيعية . . لن يستطيع أن يجمع كل السلطات في يده، كما كان يجمعها . . لن يتمكن من العمل ١٨ ساعة كل يوم . . وهو يقول إن الملك مقتنع بكل هذا . .

ولكنه يخشى ألا يجد الرجل الذي يرهب الشعب كما يرهبه صدقي. لقد قال الملك لخادمه إدريس بك أن صدقي باشا ممكن أن يبقى في الحكم أشبه بخيال المآته الذي يضعونه في الحقول ليخيف العصافير!

قال محمد:

ـ قد يخيف العصافير، ولكنه لا يخيف النسور. . أنا عندما قابلت صدقي باشا في داره، لم أشعر أنه الرجل المخيف الجبار الذي نتصوره. . ضعفنا هو الذي يقويه. . خوفنا هو الذي يجعله يبدو لنا أقوى مما هو في الحقيقة. . ولقد كان عباس العقاد على حق عندما كان يقول إن العدو الأول هو الملك فؤاد، وإنه يجب على الشعب أن يهاجم الملك قبل أن يهاجم رئيس وزراء الملك. . وكان أشجع نائب في البرلمان يوم وقف في مجلس النواب وقال إن هذا الشعب مستعد أن يحطم أكبر رأس يعتدي على دستور الأمة. . ودفع العقاد ثمن صراحته تسعة أشهر أمضاها في السجن. . ولو قال هذه الكلمة كل زعمائنا لما بقي حكم الطغيان كل هذه المدة الطويلة!

قالت زبيدة:

ـ إن عوني حافظ قال إن الملك فؤاد يحتفظ باسماعيل صدقي لأنه أقدر رجل على البطش بالوفد. . وإن عوني سيحاول أن يثبت للملك أنه يستطيع أن يبطش بالوفد وبالمعارضة أكثر مما بطش صدقي. .

قال محمد منزعجاً:

ـ وماذا ينوي أن يفعل؟

قالت زبيدة:

ـ لا أعرف، ولكن لا تنزعج. . إنه أجبن من أن يخرج ويحارب على

المكشوف. . هو لا يجيد سوى العمل في الظلام. . ولا خوف من العدو الجبان، الخوف كله من العدو الجريء. طعنات الظهر تجرح، ولكن طعنات القلب تقتل. . أنا لا أخاف عليك من عوني حافظ. . أنا أخاف عليك من نجوى المناسترلي!

قال محمد:

ـ منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي ركبت فيه سيارتها. . وفي كل لقاء لنا تنهين اللقاء بذكر اسمها. . أنا نسيتها، ويجب عليك أن تنسيها أنت أيضاً.

قالت زبيدة:

ـ لا أستطيع أن أنساها أبداً. أنا لا أخاف عليك من السجن. . لا أخاف عليك من المشنقة. . وإنما أخاف عليك من نجوى المناسترلي وحدها. . !

قال محمد ساخراً:

ـ أنت تخافين من نجوى المناسترلي، إنني رأيتك بعيني وأنت تضعينها في حقيبة يدك. . لقد كنت أعرف أنك امرأة شجاعة!

قالت زبيدة وهي تتنهد:

ـ كلما ازددت حباً ازددت جبناً. . ومع ذلك فإنني لا أخاف من بطش زوجي إذا عرف بعلاقتي بك. . بل أخاف من أن تعرف نجوى المناسترلي علاقتي بك. . إنني لا أخاف انتقامها مني، وإنما أخاف انتقامها منك!

قال محمد:

ـ إطمئني!

قالت زبيدة:

ـ لقد فكرت في أن أذهب إليها وأزورها بحجة تهنئتها بتعيين زوجها في منصب كبير في القصر الملكي، ولكنني خشيت أن أثير شكوكها بكثرة ترددي عليها. لقد زرتها يوم رأيتك هناك.. والمفروض أن ترد لي الزيارة بعد عودتها، ولكنها لم تفعل. والمفروض أنني لا أعرف أنها عادت من إيطاليا.. ولو زرتها الآن فسوف تستطيع أن تستنتج أنني عرفت بنبأ قدومها منك.. ولهذا أفضل أن أنتظر حتى تجيء الزيارة طبيعية.. وعندئذ أعرف ما تدبر لك!

قال محمد:

ـ ولكنني أفضل أن تبتعدي عنها.. إنك تعودين من عندها محطمة الأعصاب.. إنها قادرة دائماً أن تملأ قلبك بالفزع! هل تذكرين عندما التقيت بها في وجودي، وتصورت أنك قضيت على كل أمانيها، وكيف قالت لك إنه لم يحدث شيء.. ولا بد أن يحدث.. وسوف يحدث! هذه الجملة جعلتك تمضين عدة ليال لا تستطيعين أن تغمضي عينيك فيها. وعندما أخبرتك بالحديث الذي جرى بيني وبينها في السيارة انزعجت كأنها ستقتلني في اليوم التالي..

وها هي الأيام مضت ولم تفعل شيئاً.. لم تحاول أن تقابلني مرة أخرى. لم تتصل بي في التليفون. إنني رأيت صورة اليأس والفشل في عينيها في آخر لقاء لنا.. وأعتقد أنها يئست مني.. وعرفت وتأكدت أنه لا أمل مني.. لقد أفهمتها بصراحة أنني رجل وهبت حياتي لبلادي، لأخلصها من قيودها وسلاسلها. وأعتقد أنها فهمت جيداً أن موعدي مع التاريخ، وليس مع جسد نجوى المناسترلي.. أقنعتها أنني لا

أصلح لها، ولا هي تصلح لي. هي تتكلم بجسدها، وأنا أتكلم بقلبي. هي تفكر في أن تقوم بانقلاب في سرير، تخلع منه امرأة وترقد مكانها، وأنا أفكر في انقلاب في سرير الحكم، أخلع حكم الطغاة، وأضع فيه حكم الشعب. هي تتمرد على الاخلاص وأنا أتمرد على الخيانة.. هي تريد أن تبدل الرجال، وأنا أريد أن أبدل الأنظمة.. هي مشغولة بالزحف خلفي لتنام في فراشي، وأنا مشغول في زحف مقدس لإيقاظ أمة.. إنها تتصور أنه يكفيها أن تخلع ملابسها لأخلع مبادئي.

قالت زبيدة:

ـ كل هذا لا يقنعها بأن تتخلى عنك. بل على العكس يزيدها تمسكاً بك. كل امرأة تتصور أنها قادرة على أن تغير الرجل الذي تحبه.. تتوهم أن سلطان جمالها وأنوثتها وسحرها قادر على أن يصنع بالرجل المعجزات.. وكل ما قلته لها عن هذه الفروق بينكما لا تطفىء لهيبها.. إنك أطفأت نارها بصفيحة بنزين!

قال محمد:

ـ كيف لا تقتنع وقد عرفت أنني لست مثلها..؟

قالت زبيدة:

ـ المرأة لا تحب رجلاً مثلها.. إنها تعبد الرجل الذي يختلف عنها؟ وكلما زاد هذا الخلاف زاد الحب! المرأة تبحث عما ينقصها في الرجل! الضعيفة تبحث عن رجل قوي. الذكية تبحث عن رجل عبقري. القصيرة تبحث عن رجل طويل. الغانية تبحث عن راهب! الأضداد هي التي تصنع الحب! لقاء السالب والموجب هو الذي يحدث شرارة الكهرباء!

قال محمد:

ـ ولكنني أنا وأنت على اتفاق في كل شيء.. في بعض الأحيان أتصور أننا توأمان.. ولدنا في بطنين مختلفين!

قالت زبيدة:

ـ كنت في أول الأمر مختلفة عنك.. وعندما اندمجنا كل هذا الاندماج لم أجد نفسي.. هذه المرحلة التي وصلنا إليها هي أسمى ما يصل إليه الحب.. هي قمته.. هي الدكتوراه فيه!

قال محمد:

ـ كأن نجوى لا تزال في السنة الأولى حتى الآن!

قالت زبيدة:

ـ وستبقى دائماً في السنة الأولى، فهي امرأة في طفلة، تملأ يديها بالحبر وهي تتصور أنها تزينها.. تقطع ملابسها وهي تتوهم أنها تضاعف ملاحتها. تريد أن تكسر كل شيء يقع في يدها وتحطمه.. وبعد أن تحطم لعباتها تجلس لتبكي عليها!

وضمها محمد إلى صدره وهو يقول:

ـ دعينا الآن من سيرة نجوى المناسترلي!

وفجأة.. سمعا دقاً على الباب..

وقفزت زبيدة من الفراش، وأسرعت ترتدي ملابسها، ثم مشت على أطراف أصابعها نحو الباب ووضعت عينها فوق ثقب الباب.

وسمعت زبيدة صوت خادمتها سنية يقول:

ـ نجوى هانم المناسترلي. . هنا. .

ولم تصدق زبيدة أذنها. . اعتقدت أنها تسمع شبح مخاوفها. .

وعادت سنية تكرر اسم نجوى المناسترلي!

وقالت زبيدة في صوت جمع الدهشة والرعب:

ـ هل قلت لها إنني هنا؟

قالت سنية: قلت لها إنك خرجت من البيت، فأصرت أن تدخل الصالون وتنتظرك. . إنها تريد أن تراك لأمر هام!

أسرعت زبيدة ترتدي فستانها، ثم انحنت فوق ساق محمد العارية تقبلها. إنها دائماً تحب أن تضع شفتيها فوق هذه «الوحمة» السوداء التي تقع بين ركبته وفخذه. هذه الوحمة تثيرها دائماً. وعندما تغطيها بشفتيها تحس بكهرباء لذيذة. إنها كلما قبلت هذه الوحمة شعرت أنها تشكر هذه الأم التي ولدت مخلوقاً رائعاً اجتمعت فيه كل أحلامها. لقد قال لها محمد مرة إن أمه «توحمت» على زيتونة سوداء. وأن هذا هو سر الوحمة السوداء. ومن يومها وزبيدة تحب الزيتون الأسود. تأكله في الإفطاروالغداء والعشاء. . وفي كل مرة تضع الزيتونة السوداء في فمها تتصور أنها تقبل وحمة محمد السوداء!

وخرجت زبيدة من غرفة سنية تاركة محمداً يتم ارتداء ملابسه على عجل، وأحست زبيدة وهي تتركه كأنها تختنق، إنها تترك محمد لتلتقي بنجوى. ما أقسى الانتقال من أحضان الحبيب إلى أنياب العدو، من حرارة العاشق إلى برودة الغريم.

كانت في كل مرة ينتهي لقاؤها بمحمد، تحب أن تجلس وحدها على فراش سنية. تستعيد صور اللقاء الرائع صورة وراء صورة. وكثيراً ما

تتوقف أمام صور معينة. كأنها تحاول أن تستعيد بعينها بعض اللذة التي رأتها بجسدها. وهي تسترجع الكلمات التي سمعتها من شفتيه، وتجد لها في كل مرة نغمة مختلفة. كان خيالها يلحن هذه الكلمات بعدة ألحان للكلمة الواحدة. كانت تغمض عينيها لتتخيل أن محمد لا يزال بجوارها على الفراش، ثم تفتح عينيها لتتصور أنه سيدخل باب غرفة سنية من جديد.. لعله نسي شيئاً وجاء ليبحث عنه.. إنه نسيها وجاء يبحث عنها ليأخذها معه، ليضعها في جيبه مع المنديل!

وفي هذه المرة حرمتها نجوى بحضورها المفاجىء من هذه الساعة الحلوة. ساعة الاسترخاء الحالم التي تحبها بعد كل لقاء. اضطرت أن تصعد من البدروم إلى الطابق العلوي على سلم الخدم. ودخلت إلى غرفة نومها، لتبدل ملابسها، قميص النوم والروب دي شامبر، وترتدي ملابس الخروج..

ووقفت أمام مرآتها تتزين لعدوتها.. منذ ساعات كانت تتزين لحبيبها. إن المرأة تعنى بزينتها أمام العدو أكثر مما تعنى أمام الحبيب..

وعادت تلعن نجوى المناسترلي التي أيقظتها من حلمها اللذيذ. كأن نجوى في الحياة هي هادمة اللذات ومقلقة الراحات.. هذه المرأة هي النقطة السوداء في حياتها البيضاء، كلما التقت بها، أو التقى محمد بها، انقبض قلبها.. وعندما التقى بها محمد في سيارتها منذ شهرين ثارت على هذا اللقاء. شعرت بغيرة قاتلة أن ينفرد محمد بنجوى في سيارة على طريق السويس الصحراوي في ظلام الليل. بذلت المستحيل حتى تخفي غيرتها عن محمد. إقتنعت برواية محمد عن هذه اللقاء الغريب. ولكنها كلما التقت بمحمد بعد ذلك، في كل يوم من أيام هذين الشهرين، كانت بغير وعي تجد نفسها تتحدث عن نجوى المناسترلي في أول اللقاء وفي آخر اللقاء.. كأن اسم نجوى أصبح السلام الملكي الذي تبدأ به

الحفلات وتنتهي به الحفلات. . وكان محمد يتضايق كل مرة تذكر فيها زبيدة اسم نجوى، وتثير حكاية لقاء السيارة. وكانت تحاول أن ترضيه فتنساها، ولكنها بدون أن تدري تجد نفسها تتحدث عنها من جديد!

كانت ترغب رغبة عارمة في أن تقابل نجوى، لتعرف منها ما تدبر من مكيدة تنتقم بها من محمد، ولكن محمد كان يمنعها ألا تذهب إلى لقائها. . لماذا يمنعها؟ ها هي ذي نجوى جاءت إليها تطبيقاً للمثل الذي يقول: إذا لم يذهب محمد إلى الجبل ذهب الجبل إلى محمد! إنها اليوم ستعرف كل ما أرادت طوال هذين الشهرين أن تعرفه. .

وأتمت زبيدة ارتداء ملابس الخروج، ونزلت من السلم الخلفي، ومشت في الحديقة، ثم دخلت من الباب الأمامي، لتوهم نجوى أنها عائدة على التو من خارج البيت.

■ ■ ■

ولم ترَ نجوى المناسترلي التي تعرفها. رأت امرأة أكبر منها بعشر سنوات. إختفت عيناها الساحرتان الجميلتان، وحلّت مكانهما عينان متورمتان كعيون السكارى، حمراوان كأنهما لم تذوقا النوم منذ عدة أيام. المساحيق ملقاة فوق وجهها بلا عناية. أو أن وجهها الأصفر الشاحب بهت وطغى على المساحيق البيضاء والحمراء والسوداء. . كان وجهها مليئاً بالكآبة، وكأنها تسدل حجاباً من العذاب فوق وجهها الجميل!

وشعرت زبيدة بشيء من الإشفاق على غريمتها المهزومة المحطمة وقالت لها:

ـ ما لك يا نجوى. . هل أنت مريضة؟

قالت نجوى وصوتها يقطر تعاسة:

ـ لست مريضة . . إنني أموت .

قالت زبيدة وهي تحاول أن تسرِّي عنها، وتبتسم ابتسامة، امتزجت فيها الشماتة بالرثاء!

لعله نفس المرض القديم، الحب . . ولكن الحب يحيي ولا يميت!

قالت نجوى:

ـ ولكنه قتلني!

قالت زبيدة:

ـ لا بد أنه حب جديد . . الشاب الذي رأيته في بيتك منذ شهور لا يستطيع أن يقتل فرخة!

قالت نجوى في حسرة:

ـ إنه نفس الشاب . . محمد عبد الكريم!

وسكتت نجوى قليلاً، ثم تنهدت وقالت:

ـ إنني جئت إليك اليوم من أجل محمد عبد الكريم . .

قالت زبيدة في انزعاج:

ـ وما علاقتي بمثل هذه المواضيع؟

قالت نجوى:

ـ في يدك وحدك خلاصي . .

وتمالكت زبيدة نفسها بصعوبة . بذلت جهداً عنيفاً حتى استطاعت

أن تخفي جزعها. أحست بأن كلمات نجوى تحولت إلى أصابع تمتد إليها تحمل أدلة الاتهام. وأسرعت تضع ابتسامة بريئة على فمها وتقول في أسلوب مسرحي كأنها تقلد الممثلة فاطمة رشدي:

ـ هل تريدين مني أن أتحدث مع امرأة معينة لتتركه لك!

واستراحت زبيدة بعد أن نطقت بهذه الجملة، وكأنها نزعت عن رأسها الاتهام ووضعته فوق رأس امرأة معينة!

ولم تبد نجوى ابتهاجاً بهذه الوساطة بل قالت في هدوء:

ـ إنني حامل.. لقد حملت منه!

فحملقت فيها زبيدة وتمتمت:

ـ حملت منه؟ حملت ممن؟

قالت نجوى بنفس الهدوء:

ـ حملت من محمد عبد الكريم!

وامتقع وجه زبيدة. توقف عقلها عن التفكير. ثم لم تلبث أن تغلبت على هذه الصدمة.. إنها كاذبة. إنها تثق بإخلاص محمد. هذه هي كذبة جديدة اخترعتها. تهمة جديدة لفقتها ضد محمد كما لفقت تهمة محاولة اغتصابها. التهمة التي اعترفت نجوى أمامها أنها ملفقة. التهمة الأولى طردت محمداً من المدرسة. لا بد أن المقصود بالتهمة الثانية هو طرده من جريدة «الجهاد».

وابتسمت زبيدة ساخرة وقالت في غيظ حاولت جاهدة أن تغطيه بهذه الابتسامة:

ـ هل اغتصبك هذه المرة أيضاً؟

قالت نجوى وهي تذرف الدموع وتنهار:

- إنني صارحتك بالحقيقة، وقلت لك إنني لفقت له التهمة في المرة الأولى، لأنه رفض أن يأخذني. . وفي هذه المرة لم يغتصبني. . أنا أعترف أنني المسؤولة عما حدث.

وبدأت نجوى تعيد لزبيدة نفس القصة التي رواها محمد عن لقائهما في سيارتها، بكل تفاصيلها ودقائقها.

اعترفت أنها هي التي ذهبت بسيارتها إلى دار جريدة «الجهاد» في المساء، وأنها هي التي ألحت عليه في ركوب السيارة، وذكرت بصدق عجيب وأمانة كاملة الحوار الذي دار بينهما. كيف أغرته وصدها. كيف عرضت نفسها عليه وأباها. اعترفت لها بأنه قال لها إنه يحب امرأة أخرى ولا يمكن أن يخونها. . اعترفت بكلمات الإهانة التي وجهها إليها وهو يقارن بينها وبينه. .

لم تكذب نجوى في كلمة واحدة. لم تحاول أن تبرر تصرفاتها المجنونة. لم تحاول أن تتظاهر بأنه مجني عليها. لم تنسب إلى محمد كلمة واحدة لم يقلها!

ودهشت زبيدة لأنها تسمع الصدق لأول مرة في فم هذا المرأة. . وبدأت تشك في أن حكاية الحمل صحيحة. . إن تسعة وتسعين في المائة من القصة صحيح، ولا يمكن أن يكون الواحد في المائة كذباً وبهتاناً. . ولكنها لا يمكن أن تصدق هذا الواحد في المائة. إن محمداً لا يمكن أن يكذب. لا يمكن أن يخدعها. . لقد وقعت مرة في أكذوبة الساعة السابعة، يوم الأربعاء المشهود وصدقت تقرير ناظر المدرسة السعيدية عن حادث محاولة محمد اغتصاب نجوى. ثم تبينت أنها كانت ضحية أوهامها. ونجوى نفسها اعترفت لها ببراءة محمد. لا يمكن أن

تقع في الفخ مرة أخرى.. لا يمكن أن تلدغ من نفس الجحر مرتين. كانت معذورة في المرة الأولى عندما صدقت أوهامها. لم تكن يومها اندمجت في محمد كل هذا الاندماج. لم تكن يومها تحس بأن محمداً تحت جلدها، يعيش في أعماقها، دمه امتزج بدمها.. كلا! إنها كاذبة مرة أخرى!

ولكن، ما الذي يجعلها تخترع هذه الكذبة الجديدة..؟ ولماذا تختصها هي بسماعها؟ هل هي تشك في علاقتها بمحمد؟ هل استطاعت بخبثها ودهائها أن تقرأ في عيني محمد وعينيها أنهما يحبان بعضهما بعضاً؟ وتظاهرت بأنها تصدقها، وجاءت الآن لتفصل محمداً من قلبها، كما فصلته من مدرسة السعيدية؟!..

■ ■ ■

كانت زبيدة تطرق برأسها إلى الأرض وهي تسمع هذه القصة. ثم جاش فجأة فيها خاطر غريب، فرفعت رأسها وقالت لنجوى:

- ولكن لماذا اخترتني أنا لتخبريني بهذا السر؟

قالت نجوى:

- لأنك الإنسان الوحيد الذي ائتمنه على سري.. رويت لك ما دار بيني وبين محمد، وأنني لفقت له قصة اغتصابي لأنني أحبه: ولا أستطيع أن أأتمن أحداً على سر حملي منه سواك.. لقد طلبت منه أن يساعدني على التخلص من الجنين، أن يذهب معي إلى طبيب الإجهاض لأنني لا أستطيع أن أذهب وحدي، فرفض. تركني وهرب. قلت له إنني أنا التي سأدفع نفقات الجراحة، ولكنه هرب.. إنه نذل وجبان!

قالت زبيدة:

ـ ولكنني لا أعرف طبيباً للإجهاض!

قالت نجوى:

ـ أنا أعرف الطبيب. إنه الدكتور ابراهيم ليشع، وعيادته في شارع فاروق.

قالت زبيدة وهي لا تزال تشك في روايتها:

ـ ولكن متى حدث هذا الحمل؟

قالت نجوى:

ـ قال محمد إنه لا يستطيع أن يكون حبيبي، وإنه مستعد أن يكون صديقي فقط. وصرخت فيه إن صداقتك على حذائي. وبكيت. ثم توسلت إليه أن يقبلني قبلة الوداع، لأن هذا هو آخر لقاء بيننا، ولن أحاول أن أراه بعد هذا اللقاء.

وقبّلني محمد قبلة طويلة، ولا أعرف ماذا جرى بعد ذلك.. وجدت نفسي بين ذراعيه، وقد جرّدني من ملابسي.. لم أقاوم.. لم أرفض.. نسيت أننا في الشارع.. نسيت أنني امرأة متزوجة.. نسيت أن زوجي أصبح أحد كبار رجال القصر الملكي، ولو جاء بوليس الآداب وضبطنا في هذا الوضع لضعت وضاع زوجي معي.. ولم نتبادل كلمة واحدة بعد هذا. عدنا إلى القاهرة صامتين. شعرت أنه نادم لأنه خان المرأة التي أحبها. ولكنني كنت سعيدة جداً. شعرت بزهو غريب لأن جسدي انتصر على مبادئه!

واستطردت نجوى تقول:

ـ ثم بعد ذلك اكتشفت أنني حامل. . وحرت ماذا أفعل؟ ماذا أقول لزوجي ولم تحدث بيننا علاقة منذ ثلاثة شهور، وهو موجود الآن في مهمة كلفه بها الملك مع الخديو عباس في سويسرا، وأنا في القاهرة، ولا يمكن أن تحمل زوجة من زوجها باللاسلكي. . واتصلت بمحمد في إدارة جريدة «الجهاد» طلبت منه أن يصحبني إلى طبيب لأجري عملية إجهاض قبل أن يعود زوجي. وإذا بهذا النذل يقول إنه رجل شريف وإنه مستعد أن يقتل كل الوزراء وكل الحكام، ولكن لا يقتل جنيناً بريئاً في بطن أمه. . وتوسلت إليه أن يقابلني لنتفاهم. كان يتهرب مني. كان ينكر أنه موجود في الجريدة. وأخيراً، قبل أن يقابلني أمس. . عدت ألح عليه أن يذهب معي إلى الطبيب. فنصحني بأن أدّعي أن هذا الطفل هو ابن زوجي حسين باشا الأشموني، وقال إنه قرأ بحثاً طبياً يقول إنه ممكن أن يبقى الطفل عاماً كاملاً في بطن أمه قبل أن يولد!

وجلست زبيدة صامتة، كأنها تشهد مسرحية «الذبائح» على مسرح يوسف وهبي. أحياناً تندمج في القصة، وتصدق أنها حقيقة، وتبكي مع أمينة رزق بطلة المسرحية، ثم تعود إلى نفسها وتتذكر أنها مسرحية، فتعجب بعبقرية المؤلف الأستاذ أنطون يزبك، وببراعة الممثلة أمينة رزق، وبكفاءة المخرج عزيز عيد. . ولكنها في مسرحية ذبح محمد، كان المؤلف والممثلة والمخرج شخصاً واحداً، هو نجوى المناسترلي. . كانت زبيدة حائرة بين الأعجاب بالممثلة المؤلفة، وبين السخط على المرأة الكاذبة الظالمة. .

ومضت نجوى في تمثيل دورها:

ـ قلت لمحمد إنني في عجب من هذا الشرف الذي يدعيه؟. . أيهما أشرف له، أن يتخلص من هذا الجنين البريء الذي يعيش حياته ابن حرام، أم أن ينسبه زوراً إلى غير أبيه الحقيقي؟. . ولم يرد محمد على

سؤالي، بل جرّدني من ملابسي من جديد. وما كادت أصابعه تلمسني حتى نسيت كل شيء. نسيت الجنين الذي في بطني، واستسلمت له بغير مقاومة أو اعتراض. . وعندما أفقت من نشوتي عدت أتوسل إليه أن يصحبني إلى الطبيب. كنت ما زلت عارية، وكان هو شبه عار. . فركعت على أرض السيارة، وقبلت يده، وقبلت قدمه. . وقبلت ساقه. . وقبلت الوحمة السوداء التي فوق ركبته!

وما كادت زبيدة تسمع كلمة «الوحمة السوداء» حتى تجمدت في مقعدها. كيف عرفت نجوى مكان الوحمة السوداء إلا إذا كانت رأت محمد عارياً؟ إذن هي صادقة في كل ما قالته. لم تكن تمثل، لم تكن تؤلف مسرحية، لم تكن تخترع أكذوبة جديدة.

وطار من رأس زبيدة كل الخمر الذي سكبه محمد في شفتيها منذ ساعة واحدة. أحست ببرودة غريبة في أطرافها، كأن هذه الكلمة شفطت كل ما أودعه محمد في جسدها من حرارة ونار. تحول جسدها كله إلى رصاص بارد ثم إلى رماد.

دارت بها الغرفة. بدا كل شيء في الصالون مقلوباً على رأسه. المقاعد أرجلها معلقة في الهواء. الأرائك منكفئة على وجهها. حتى نجوى المناسترلي نفسها، رأسها على الأرض، وساقاها فوق مسند المقعد الذي كانت تجلس فيه. العالم كله انقلب. وأحست كأنها ضاعت في هذا العالم المقلوب. لم تعرف هل هي جالسة على الكرسي، أم واقفة على قدميها، أم منبطحة على سجادة الصالون، أم أن رأسها هو الآخر على الأرض وساقيها ترتفعان في الهواء!

كانت كلمة «الوحمة السوداء» عاصفة هبت فجأة. جرّدتها من عقلها. جرّدتها من قلبها. جرّدتها من محمد. كأن زلزالاً هائلاً وقع في

القاهرة، دمّر كل شيء. حطم كل شيء. حوله إلى خراب. وحوّلها هي إلى أشلاء.

■ ■ ■

وفتحت زبيدة عينيها. ودارت بعينيها في أنحاء المكان. لم تجد الصالون. لم تجد نجوى المناسترلي. لم تجد الملابس التي ارتدتها للقاء نجوى.. وجدت نفسها في قميص النوم، في فراشها بغرفة نومها في الطابق العلوي..

هل كانت تحلم؟! هل كان كل هذا الذي رأته هو كابوس؟ لم تجيء نجوى لزيارتها؟ لتحدثها عن أنها حامل من محمد؟ لم تحدثها عن الوحمة السوداء؟

وعادت زبيدة تحاول أن تخترق بنظراتها الغيوم التي تغطي عينيها.. ورأت زوجها عوني حافظ في نهاية الغرفة ومعه رجل غريب.. وحدقت في الرجل فعرفت أنه الدكتور ستفنسون مدير مستشفى الدمرداش..

وسمعت الدكتور ستفنسون يقول هامساً باللغة الإنجليزية:

- إنها نفس الأزمة الأولى.. ولكنها أشد كثيراً من الأزمة الأولى.. إنها حالة هستيريا تصاب بها كلما سمعت نبأ محزناً أو فاجعة.. وأنا أنصح بنقلها فوراً إلى مستشفى الدمرداش.. وعندما تتحسن بعض الشيء أرى أن تنقل إلى مصحة للأمراض العقلية في سويسرا!

وأرادت زبيدة أن تصرخ وتقول: «أنا لست مجنونة! أنا لست مجنونة». ولكن الكلمات عجزت عن الخروج من فمها. وكأن يداً قوية كممتها، وأعجزتها عن النطق...

ثم سمعت زوجها يقول للطبيب هامساً:

ـ إنني لاحظت منذ مدة أنها تتصرف تصرفات غير عادية. إنها تركت كل غرف البيت، وأصبحت لا تستريح إلا في الجلوس في البدروم.. ثم إنني رأيت في عينيها نظرات غريبة.. أحياناً أحدثها ولا تسمعني... كأنها تعيش في عالم آخر.

وسأل الدكتور ستفنسون:

ـ هل يوجد أحد في أسرتها مجنون؟ أبوها مثلاً؟ أمها؟

قال عوني باشا حافظ:

ـ لا أظن. إن والدها سكرتيري منذ عشرين عاماً. وهو في بعض الأحيان يبدو عصبياً، ولكني لم ألحظ عليه جنوناً واضحاً... ربما تكون قد ورثت هذا المرض من أحد أجدادها!

قال الدكتور ستفنسون:

ـ لا بد من نقلها فوراً إلى مستشفى الدمرداش. سأضعها في قسم جديد للأمراض العصبية تحت إشرافي... إنه مخصص للمصابين بمرض مزمن للأعصاب، وهؤلاء أعتبرهم نصف عقلاء، ونصف مجانين... أحياناً يتصرفون تصرفات عادية مثلنا تماماً، وفي أحيان قليلة تصيبهم لوثة تشبه الجنون، ويتصرفون تصرفات لا يصدقون أنهم تصرفوها إذا عادوا إلى حالتهم الطبيعية!

قال عوني باشا:

ـ إن كل ما يهمني ألا يتسرب نبأ جنونها، ولا يعلم به أحد.. فإن هذا سوف يسيء إلى مركزي كوزير... ولقد حرصت على ألا أدعو أي طبيب مصري لرؤيتها خشية أن يتسرب النبأ... ولم أثق في أحد سواك... وأخشى إذا نقلت إلى مستشفى الدمرداش أن تجيء لها

النوبة من جديد. . ألا يمكن علاجها هنا؟

قال الدكتور ستفنسون:

ـ لا أعتقد أنها ستهذي بنفس الكلمات مرة أخرى. . .

قال عوني باشا:

ـ إنها كانت تصرخ طوال الأيام الثلاثة الماضية بكلمات لا معنى لها. كانت تقول «ابني في بطن امرأة أخرى». . . «إنه ابني وفيه وحمة سوداء على فخذه». . . ومن يسمع هذا الكلام يعرف على الفور أنها امرأة مجنونة! مثل هذا الكلام لو تردد في المستشفى فسوف يسيء إلى سمعتي، وسمعتي هي رأس مالي.

قال الدكتور ستفنسون:

ـ ربما أصيبت بهذه الحالة نتيجة شعورها بحاجتها إلى ولد منك. : شعور الحرمان الطويل من البنوة قد يؤدي بالمرأة إلى توتر الأعصاب، وكبت هذا الشعور، قد يؤدي إلى هذه الهستيريا. .

قال عوني باشا في حيرة:

ـ ولكنها لم تقل لي خلال عشر سنوات من زواجنا إنها تريد ولداً مني. . . صحيح أنني لا أرزق أولاداً، ولكني لم أشعر في أي لحظة من اللحظات أنها تريد أن تنجب أولاداً.

قال الدكتور ستفنسون:

ـ إنها كبتت هذه الرغبة طوال هذه السنوات، وهذا هو سر الانفجار! وعلى كل، فإنها هادئة الآن. فالحقن المخدرة التي أخذتها كفيلة بأن تعيد لها الهدوء. ولن يعرف في المستشفى أحد أنها مصابة

في قواها العقلية. إن المريض بهذا المرض يتصور أشياء لم تحدث، ولكنه ليس مريضاً خطراً، ولا يعتدي على حياة أحد.

قال عوني باشا في قلق:

ـ أخشى أن تجيء لها النوبة من جديد، ولهذا أفضل أن يكتب اسمها في دفاتر المستشفى باسم أسرتها، وهو «زبيدة عرفه الجمل»، بدلاً من «حرم عوني باشا حافظ» وزير الدولة في وزارة الداخلية.

قال الدكتور ستفنسون:

ـ هذه مسألة بسيطة.. يمكنك أن تطمئن إلى أن أحداً لن يعرف بأمرها.. ولا داعي لأن تحضر لزيارتها.

قال عوني باشا:

ـ طبعاً لن أحضر... إنني مرشح لرياسة الوزارة... وهذه المسألة قد تؤدي إلى وضع العقبات في طريقي... سوف تستغل المعارضة أن زوجة رئيس الوزراء مجنونة.. وسوف يتهمونني طبعاً بأنني سبب جنونها!

■ ■ ■

وأقبل ممرضان يحملان نقالة، ووضعا بمساعدة الدكتور ستفنسون، زبيدة برفق فوق النقالة...

وأرادت زبيدة أن تتحرك، أن تقفز من النقالة، أن تهرب، فوجدت كل عضو من أعضائها شبه مشلول!

وفتحت فمها لتعترض على نقلها إلى قسم الأمراض العقلية، فلم

تتحرك شفتاها. أحست بأن لسانها مشلول أيضاً. واستغاثت بعينيها، ولم يفهم أحد ماذا تريد عيناها أن تقولا . . .

وعاودت المحاولة من جديد. كأنها تريد أن تتشبث بعالم العقلاء، وترفض أن تذهب إلى دنيا المجانين. . . واستطاعت بعد جهد عنيف أن تحرك شفتيها، وتقول في كلمات متقطعة، وبصوت خافت:

ـ أنا. . . لست . . مجنونة!

وسمعت الدكتور ستفنسون يقول لزوجها بالانجليزية:

ـ إنها نفس الكلمات التي يقولها كل مجنون عند نقله إلى المستشفى.

واستسلمت زبيدة. كأنها اقتنعت لأول مرة أنها مجنونة فعلاً. ألم تتوهم أن نجوى المناسترلي زارتها؟ ألم تتوهم أنها قالت بأنها حامل من محمد؟ ألم تتوهم أنها تحدثت عن الوحمة السوداء على فخذه؟. المجانين وحدهم هم الذين يتوهمون أشياء لم تكن، ويسمعون أصواتاً لم ينطق بها أحد، ويتخيلون أحداثاً لم تقع على الإطلاق.

وأغمضت زبيدة عينيها، وكأنها لا تريد أن تشهد مصيرها. .

وجاء الدكتور ستفنسون، وأسدل فوقها ملاءة بيضاء، غطت جسمها ورأسها، حتى لا يعرف الناس أن زوجة وزير الدولة في وزارة الداخلية فقدت عقلها!

وفي المستشفى لاحظت شيئاً غريباً. الممرضة الإنجليزية التي تلازمها توافقها على كل كلمة تقولها. لا ترفض لها طلباً وفي الوقت نفسه لا تلبي لها أي طلب. ولاحظت قضباناً من الحديد تغطي نافذة غرفتها. . إنهم يخشون أن تلقي بنفسها من النافذة. الممرضة لا تتركها

وحدها لحظة واحدة. إذا أرادت أن تخرج من الغرفة لشأن من الشؤون أرسلت تستدعي ممرضة أخرى. طلبت زبيدة مقصاً لتقص أظافرها، فرفضت الممرضة أن تعطيها المقص، وأصرت على أن تتولى بنفسها قص أظافرها كأنها خشيت أن تذبحها بالمقص، أو تقتل نفسها به!

وأرادت أن تثور وتصرخ، ولكنها تذكرت أن هذا هو نفس ما يفعله المجنون، فآثرت أن تتعذب في صمت...

وجاء الدكتور ستفنسون وراح يسألها أسئلة غريبة... أسئلة لا توجه إلا للمجانين..

سألها: في أي يوم نحن؟
قالت: يوم الإثنين!
قال: وماذ كان اسم يوم أمس؟
قالت: الأحد!
قال: وماذا اسم يوم غد؟
قالت: الثلاثاء..
وعاد يسألها: وما هو اسم بعد غد؟.

وبحثت زبيدة عن اسم بعد غد فلم تجده.. كيف تنسى اسم هذا اليوم؟ إنه أهم يوم في حياتها.. إنه اليوم الذي التقت فيه بمحمد لأول مرة في حديقة الجبلاية، اليوم الذي أمضت شهوراً تعيش من أجله.. وأخيراً وجدت الاسم.. وقالت فرحة:

ـ يوم الأربعاء!

وابتسم الدكتور ستفنسون وقال:

ـ إنك تحسنت فعلاً! كان ذكر يوم الأربعاء أمامك يفقدك أعصابك!

وسكتت. . لم تذكر أنها ثارت لذكر يوم الأربعاء إلا أثناء أزمتها الأولى عندما قرأ زوجها تقرير ناظر المدرسة السعيدية الذي جاء فيه أن محمد حاول أن يغتصب نجوى يوم الأربعاء. . بعد ساعة من لقائهما الأول!

وشعرت برغبة في أن ترى محمداً.. كيف تتصل به؟ إنه غير مسموح لها بالخروج من غرفتها، وغرفتها ليس بها تليفون. . وتذكرت خادمتها سنية وقالت للطبيب:

ـ هل يمكن أن أرى خادمتي سنية. . إنني أرغب في أن تقيم معي بالمستشفى!

قال الدكتور ستفنسون وهو يربت على كتفها في حنان:

ـ لقد منعت كل الزيارات عنك. . ولكن حالتك الآن تسمح بأن أجيب طلبك. إن الأزمة أنتهت فعلاً. . . سأتصل الآن بعوني باشا وأطلب منه إرسال خادمتك.

■ ■ ■

وما كادت ترى سنية معها في الغرفة حتى قبلتها وعانقتها، وشعرت برغبة في أن تنفرد بها وتسألها عن محمد. . وضايقها أن الممرضة الإنجليزية التي تجيد اللغة العربية، بقيت مرابطة في الغرفة لا تتحرك. .

وقالت زبيدة للممرضة:

- إنني أريد أن أستحم. . . وقد تعودت أن تصحبني خادمتي إلى الحمام، فهل هناك مانع؟ . .

قالت الممرضة:

ـ إن التعليمات التي لدي ألا أتركك وحدك.. يجب أن أدخل معكما إلى الحمام!

قالت زبيدة:

ـ يمكنك أن تستأذني الطبيب.

واستدعت الممرضة زميلتها الممرضة الأخرى، لتحل مكانها في مراقبة زبيدة، وذهبت إلى الطبيب ستفنسون..

كل هذا والخادمة سنية تنظر إلى زبيدة بدهشة، ولا تنطق بكلمة واحدة!

وجاءت الممرضة تبتسم وتقول إن الدكتور ستفنسون لا يمانع أن تدخلا الحمام معاً، بشرط أن يبقى باب الحمام مفتوحاً.. إن لديك حماماً خاصاً في نفس الجناح!

وقفزت زبيدة من فراشها، واتجهت إلى الحمام، وسنية تمشي وراءها مشدوهة...

وما كادت تنفرد بسنية حتى قالت لها:

ـ كيف حال محمد؟

قالت سنية:

ـ إنه هو الذي أصيب بالجنون ولست أنت! إنه يجيء إلي كل يوم في الساعة السادسة مساء ويجلس على السرير ويبكي! يريد في كل يوم أن يعرف آخر أخبارك، ولم أستطع أن أعرف أي شيء عنك.. الباشا

يرفض أن يتحدث عنك. . . عرفت من سائق سيارته أنك في مستشفى الدمرداش. أصبح محمد لا عمل له كل ليلة إلا أن يحوم حول المستشفى. . بذل محاولات ضخمة ليعرف أنك هنا. . ولكنه لم يجد اسمك في سجلات المستشفى. . . إنني أنا وهو نعيش في ظلام!

قالت زبيدة:

ـ لا أعرف ما حدث لي! تصوري أنني توهمت أن نجوى المناسترلي جاءت وزارتني في بيتي!

قالت سنية وهي تنظر إلى زبيدة باستغراب:

ـ توهمت؟ . . إنها جاءت وزارتك فعلاً. . . ولا أعرف ماذا قالت لك بنت الكلب! كل ما عرفته أنني رأيت نجوى تصرخ وتقول: «الست أغمي عليها». . . وسألت نجوى هانم ماذا قالت لك. . فقالت إنها فجأة وجدتك تسقطين على الأرض بلا حراك!

قالت زبيدة:

ـ إذن أنا لست مجنونة. . أتخيل أشياء لم تحدث؟

قالت سنية وهي تدعك ظهر زبيدة بالليفة والصابونة:

ـ من قال إنك مجنونة. . إن كل هؤلاء هم المجانين!

قالت زبيدة وهي تدفع يد سنية عن ظهرها بعنف:

ـ إذن حكاية الوحمة السوداء صحيحة!

وراحت زبيدة تصرخ وتلطم وجهها، وتكرر كلمات «الوحمة السوداء. . الوحمة السوداء. . الوحمة السوداء». .

■ ■ ■

استطاع محمد أن يتسلل في الظلام إلى جناح زبيـدة في مستشفى الدمرداش. اشترى طريقه بمبالغ بسيطة دفعها للممرضين. تصادف أن كان يوم الأحد موعد مغامرته هذه، وهو في نفس الوقت يوم العطلة الأسبوعية للممرضة الإنجليزية.

واستطاعت سنية أن تقنع الممرضة المصرية التي تسهر في تلك الليلة أن محمداً هو خطيبها وحبيبها. وكانت الممرضة تحب، وتعرف لوعة الحب وضناه، فأفسحت الطريق لمحمد.. لم تنتظر سنية اليوم التالي لتجمع بين الحبيبين، بل أصرت على أن يتم اللقاء في نفس اليوم!

ورقـدت زبيدة في فـراشها، وأسنـدت ظهرهـا على وسـادتـين. وتزينت، وسرحت شعرها، على الرغم من إصـرارها عـلى أن قلبها غاضب على محمد، وأنها لا تريد أن ترى وجهه، وأنها قبلت أن تراه إرضاء لسنية ولإلحاحها..

ودخل محمد إلى غرفة زبيدة وهو يمشي على أطراف قدميه، وما كادت تراه، حتى تعلقت في عنقه، وراحت تقبله، وتعانقه، والدموع تنهمر من عينيها، وهي تقول له:

ـ هكذا يا محمد؟! تترك نجوى تقبلك فوق وحمتي السوداء!؟

قال محمد وهو يفرد كفيه في دهشة:

ـ إنني سمعت قصة الوحمة السوداء من سنية.. وأنا في دهشة كيف عرفت نجوى أن في فخذي وحمة سوداء!

قالت زبيدة وهي لا تزال تبكي:

ـ لا بد أنك خلعت أمامها بنطلونك!

وأراد محمد أن يضحك فكتم ضحكته احتراماً لجلال الموقف، وراح يتأمل عينيها اللتين تراقبانه من خلف دموعها ويقول:

ـ لقد قلت لك إنني أمرتها مرة أن تخلع ملابسها أمامي . . وبعد أن خلعت ملابسها أمرتها بأن تعود إلى ارتداء ملابسها . . وقلت لك إنني لم أقربها . . . قلت لك كل شيء . . . بكل صدق وأمانة وصراحة وإخلاص . لم أكذب عليك في يوم من الأيام!

قالت زبيدة وهي لا تزال تبكي:

ـ تذكر يا محمد . . .

قال محمد وهو يحاول أن يخفي ثورته العارمة على اتهامها الظالم:

ـ إن هذا شيء لا يمكن أن ينساه الرجل مطلقاً؟ . . أنا لم أخلع بنطلوني أمامها في يوم من الأيام . .

وأحست زبيدة بأنه يحدثها بغضب، فأرادت أن تصمت، ولكنها لم تستطع أن تصمت، وقد ازداد فيضان الدموع من عينيها وقالت:

ـ وكيف عرفت أن في فخذك وحمة سوداء؟

قال محمد في براءة:

ـ هذا هو الشيء الذي يحيّرني . . منذ أن أخبرتني سنية بحكاية الوحمة السوداء وأنا أكاد أجن . . . إذا كانت نجوى عرفت هذا، فلا بد أنها تعرف كل شيء عني . . لا بد أنها تعرف العلاقة التي بيني وبينك!

قالت زبيدة:

ـ أنا لا يهمني أن تعرف العلاقة التي بيني وبينك . . . كل ما يهمني

ألا تعـرف الوحمـة السوداء! كنت أتصـور أنها وحمتي أنا. . أنـا التي اكتشفتها. . . وحمتي دون سواي؟. . أنا التي قبلتها!. . . إعترف يا محمد. . . قل لي. . . أنا أحبك. . ما زلت أحبك. إنني مستعدة أن أغفر لك. . قل لي إنك أخطأت. . وأعدك بأنني سأنسى كل شيء. . إن نجوى اعترفت أنها هي المسؤولـة، إنها هي التي أغرتـك. . كل مـا يهمني أن تقـول لي الحقيقة. . أن تعـترف بأن الـولد الـذي في بـطنهـا هـو ابنك. تذكر يا محمد. . إننا أحياناً ننسى ما نفعله في ساعات الجنون!

قال محمد:

ـ هـل ممكن أن أنسى أنني جعلت امـرأة تحمـل مني؟ . . هـل ممكن أن ينسى رجل واقعة كهذه، أنت تعرفين أنها كاذبة. . . ليست هي المرة الأولى التي تلفق فيها قصة عني، إنها استطاعت أن تقنع زوجها وأباها بـأنني حاولت اغتصـابهـا. . . أقنعت وزيـر المعـارف. . . أقنعتـك أنت. . . وها هي تكرر نفس المحاولة، وتجد من يصدقها!

قالت زبيدة:

ـ ولكن. . الوحمة السوداء هي الدليل الذي لا يقبل الشك!

قال محمد وهو يلومها ويعذرها في نفس الوقت:

ـ فعلاً. . . هي دليل لا يقبل الشك، ولكنني بريء. . . لقد خطر ببالي أنها رأتني ألعب الكرة في مباريات السعيدية. . . وأنها رأت هذه الوحمة. . ولكنني أحضرت الشورت الذي كنت أرتديه في المباريات، وارتديته، ووقفت أمام المرآة، فلم تظهر الوحمة السوداء. . . خطر ببالي أن ابن عمها إبراهيم المناسترلي هو الذي أخبرها بذلك، ولكنني لا أذكر يوماً أني خلعت بنطلوني أمامه. . قلت لك إنني عندما التقيت بها

لأول مرة كان بنطلوني مفتوحاً، ولاحظت هي ذلك. . . ولكن لا يمكن أن ترى الوحمة السوداء من خلال البنطلون المفتوح!

قالت زبيدة وكأنها تحاول أن تساعده:

ـ تذكر يا محمد. . ربما عندما طردك الخدم من بيتها جـرّدوك من بنطلونك وهم يضربونك. . . ربما خجلت أن تخبرني بذلك!

قال محمد:

ـ حتى هذا لم يحدث!

وفجأة ضرب محمد رأسه بيده وقال وقد وجد ما ضاع منه طوال هذه الأيام:

ـ تذكرت. . . تذكرت. . . لقد رويت لك ما وقع بيني وبين نجوى في غرفة نومي في الفندق الذي أقمت فيه ببيروت. . وكيف أنني كنت يومها في جلابية النوم. . وقصصت عليك كيف جلست تحت قدمي وراحت تقبل قدمي، وأصابع قدمي، وساقي. . .

قالت زبيدة:

ـ نعم أذكر ذلك جيداً!

قال محمد:

ـ لا بد أنها رأت يومها الوحمة السوداء. .

قالت زبيدة:

ـ هل تظن أنني مغفلة؟ إن طفـلاً صغيراً لا يمكن أن يقتنـع بهذا الكلام. . ألم تشعر وهي ترفع الجلابية عن ساقك؟

قال محمد:

ـ لم أشعر.. ولم أتصور أنها نظرت في تلك اللحظة إلى هذا المكان.

قالت زبيدة بعصبية:

ـ أنا لا أصدقك؟ اخرج من هنا.. أنت كاذب.. كاذب.. كاذب!!

ورفع محمد يده، وصفع زبيدة على وجهها!

ولم تصرخ زبيدة بل أخفت رأسها في حجره وراحت تبكي بصوت غير مسموع..

وتركها محمد واتجه إلى الباب.

وصاحت تتوسل إليه أن يبقى.. ولكنه استمر في طريقه إلى الباب، ثم أغلقه بالمفتاح.. وعاد إليها.. وجرّدها من ثيابها!

وصاحت زبيدة:

ـ الممرضة قد تجيء في أي وقت.. الطبيب قد يجيء في أي وقت!

قال محمد:

ـ أنا لا يهمني أن يجيء الممرض أو يجيء الطبيب أو يجيء عوني باشا حافظ!

ولم يجيء الممرض، ولا الطبيب، ولا عوني باشا حافظ!

وفتحت زبيدة عينيها وقالت:

- الآن فقط صدقتك يا محمد!

■■■

تم كل هذا بسرعة مدهشة. طردته من غرفتها، وضمته بين ذراعيها. أدانته وبرأته. قلوب المحبين كمحاكم المستبدين، تحكم ولا تحاكم. تلقي الأوامر ولا تضع الحيثيات. تميل مع الهوى ولا تتأثر بالأدلة والبراهين. أحكامها سريعة، تعدم ثم تبرىء، وتدين قبل أن تحاكم! وهي دائماً أحكام استثنائية!

عندما صفع محمد زبيدة، فعل ذلك بغير تفكير. ولو كان فكر لحظة واحدة، لتردد أن يصفع مريضة في مستشفى. كان يمكن أن تؤدي الصفعة إلى أن تصاب هذه المرأة العصبية بالجنون. كان يمكن أن تقتلها. ولكن الصفعة التي هوت بعنف على خدها أيقظتها. أيقظت الحب الذي أغمي عليه في داخل قلبها. كان محمد يشعر في قرارة نفسه بأنه مظلوم. تحمل ظلم العدو ولم يتحمل ظلم الحبيب، لم تؤلمه طعنات نجوى ولا أكاذيبها ومفترياتها، وأحس بطعنة السكين عندما رأى المرأة التي يحبها تصدق هذه الأكاذيب والافتراءات.

وعندما جرّد محمد زبيدة من ملابسها، لم يفكر في أن ينالها، كان يفكر أن يجردها من أوهامها، أن يجعلها تقف عارية أمام الحقيقة. كأن ملابسنا هي جزء من أكاذيبنا. لا تخفينا عن الناس فقط، وإنما تخفي نفوسنا عنّا.

وعندما نجلس عرايا في داخل الحمام تبصر عقولنا أوضح مما تبصر ونحن في ملابسنا. والاحصاءات تقول إن الذين على شاطىء البحر يرتدون المايوهات يفكرون في الزواج ويقررون الزواج أكثر من الذين يرتدون ملابسهم. فملابسنا أشبه بالأقنعة، تعمي الناس وتعمينا.

نخدع بها الناس، ونخدع بها أنفسنا أكثر مما نخدع الناس.

الرجل يثيره منظر امرأة تمزق ثوبها، أكثر ما يثيره منظرها وهي ترتدي ثوبها الكامل. عندما يجردها من ثوبها لا يجردها من سلاح المقاومة، وإنما يجعلها عارية أمام غرائزها. وكلما رفعت المرأة ثوبها فوق ركبتيها، كانت أكثر صدقاً مع نفسها ومع الناس، فكأنها بذلك تقصر أكاذيبها وهي تقصر ثوبها. فالمرأة بطبيعتها تريد أن تكشف عن مفاتنها للرجل. وهي عندما تكشف ساقيها تكون أكثر صراحة وصدقاً في التعبير عن طبيعتها.

وتذكر محمد تجربة أجراها أحد الأطباء في ألمانيا عندما جاء بامرأتين جميلتين، واحدة منهما عارية تماماً، وواحدة منهما وضعت ورقة التوت الصغيرة على جسدها، وجاء بعدة شبان ورجال. وقاس درجة إثارتهم فوجد أن المرأة التي غطت نفسها بورقة التوت أثارت الشبان والرجال أكثر مما أثارتهم المرأة العارية.. ذلك أن الأكذوبة تهز الناس أكثر مما تهزهم الحقيقة!

إننا نتخيل دائماً أن وراء الأشياء المغطاة جمالاً أكثر من جمال الأشياء المكشوفة!.. الخيال دائماً أروع من الواقع.. ثم قاس الطبيب درجة الإثارة في المرأتين العاريتين فوجدها أعلى من نسبتها بين المتفرجين الذين ارتدوا ثيابهم!

لقد أثارت زبيدة محمداً وهي تغطي وجهها بالحجاب في حديقة الجبلاية، في ثوبها الطويل الذي نزل إلى قدميها، وارتفع إلى عنقها، أكثر مما أثارته نجوى عندما أمرها أن تخلع ملابسها، فالمرأة ترى نفسها في عيون الرجال أوضح مما تراها في مرآتها!

وزبيدة، عندما جرّدها اليوم من ملابسها، أحس بأنها أثارته

فعلاً . . . ولكن هذا العري أثارها هي أضعاف ما أثاره هو. . كأنها أحست بأنه أزال الحاجز الذي يفصلها عنه. إنه حاجز خفيف من الحرير الشفاف. ولكنه حاجز. الحاجز هو الحاجز سواء كان من الصلب أو من الحرير. . فالحاجز نوع من القيد. . وقسوة القيد ليست في حديده بقدر ما هي في معناه!

وها هي زبيدة قد اقتنعت ببراءته وهي عارية، بما لم تقتنع به وهي في قميص النوم، اقتنعت بأنفاسه الملتهبة أكثر مما اقتنعت بكل ما قدمه لها من أدلة وبراهين. اقتنعت بالصمت أكثر مما اقتنعت بالكلام!

كأن محكمة الحب احتاجت إلى صفعة لتحكم بالعدل! وعندما خلعت ملابسها خلعت زيفها وكانت تكشف عن جلدها. . . هذا الجلد الذي هو الوشاح الذي يضعه القاضي على صدره ليتأكد أن العدل هو أساس الملك. وكأن أنفاس العشاق هي أبلغ مرافعة وأصدق دفاع في محاكمات القلوب. .

■ ■ ■

وجاء الدكتور ستفنسون في صباح اليوم التالي. . . وما كاد يحدق في وجه زبيدة حتى ابتسم وقال:

ـ ماذا حدث؟

قالت باسمة:

ـ لم يحدث شيء. . دخلت الحمام!

قال في ذهول:

ـ هل الحمام يصنع كل هذا الشباب والصحة والجمال؟

قالت:

ـ الماء غسلني!

قال:

ـ إنه غسلك من الخارج، ومن الداخل... إنك امرأة أخرى غير التي رأيتها بالأمس! أين ذبولك؟ أين شحوبك؟ أين صفرة وجهك؟ أين عيناك المنطفئتان؟ أين شفتاك الباهتتان؟.. أين ذهب كل هذا؟..

قالت:

ـ إنني أمضيت عدة أيام بغير استحمام.. فلما سمحت لي بالاستحمام ولمس الماء جسدي.. حدث كل هذا!

قال الدكتور ستفنسون في استغراب:

ـ إنها أول مرة في حياتي الطبية الطويلة أسمع أن الماء يحدث في المريض مثل هذ المعجزة؟

قالت زبيدة:

ـ إن الماء مصدر الحياة!

وابتسمت زبيدة فقد كانت تريد أن تقول له إن الماء الذي تقصده هو ماء الحياة... وليس ماء الحنفية!

وأقبل الدكتور ستفنسون يفحص زبيدة فحصاً دقيقاً.. ثم قال:

ـ إن الذي حدث معجزة في عالم الطب! لقد كنت واثقاً أنك إذا شفيت من هذا المرض فسوف تحتاجين إلى عامين أو ثلاثة أعوام على الأقل!

وعاد يفحصها من جديد، وكأنه لا يصدق عينيه، ثم قال:

- إنني سآمر الآن بإدخال كل مرضى قسم الأعصاب في الحمام... هل هو حمام تركي؟

وضحكت زبيدة وقالت:

- لا... إنه حمام مصري!

قال:

- أقصد.. هل الحمام كان بالماء البارد أم بالماء الساخن؟

قالت زبيدة:

- الساخن... الساخن جداً!

قال الدكتور ستفنسون:

- إن الطب ليس علماً فقط، إنه تجربة أيضاً... ما دام الحمام الساخن يريحك إلى هذه الدرجة، فيجب أن تأخذي هذا الحمام الساخن مرة كل يوم..

قالت زبيدة:

- إنني آخذ هذا الحمام يومياً... ومع ذلك حدثت لي هذه الأزمة!

قال الدكتور ستفنسون:

- إذن خذي هذا الحمام مرتين في اليوم.. ثلاث مرات.. أربع مرات!

وضحكت زبيدة كما لم تضحك منذ وقت طويل، ولم يفهم الدكتور ستفنسون سبب ضحكها... وقال لها وهو يغادر الغرفة:

- إنني سأتصل بعوني باشا وأقول له إنني قررت أن تعودي إلى بيتك

فوراً. إنني أعتقد الآن أن هذه الأزمة طارئة.. وقد ذهبت ولن تعود أبداً!

واتصل الدكتور ستفنسون تليفونياً بعوني باشا حافظ وأبلغه بشفاء زبيدة، وأنه قرر أن تعود فوراً إلى بيتها.. وطلب إرسال سيارتها إلى المستشفى..

وفوجىء بعوني باشا يقول له في برود عجيب:

ـ إنني أفضل أن تبقى في المستشفى فترة أخرى، فإن لدي الآن أعمالاً هامة، ولو حدثت لها أزمة أخرى فسوف تعطل أعمالي.. إنني لا أحتمل امرأة مجنونة معي في الوقت الحاضر!

قال الدكتور ستفنسون:

ـ إنها أعقل مني ومنك... لا أستطيع أن أبقيها ساعة واحدة في المستشفى في قسم الأمراض العصبية وهي سليمة تماماً.. لو اكتشف أحد أنني أضع مريضة سليمة في هذا القسم، فإنني أتعرض للعقاب!

ولم يشكر الوزير الدكتور ستفنسون على عنايته واهتمامه، ولم يبد ابتهاجه بشفاء زبيدة... ولكنه قال:

ـ أفضل أن تعود في سيارة تاكسي... لأن سائقي لا يعرف أنها في المستشفى.. وأريد أن تبقى هذه المسألة كلها سراً!

وعاد الدكتور ستفنسون إلى زبيدة، ولم يبلغها حديث زوجها، بل قال لها:

ـ إنني فضلت أن تركبي سيارة تاكسي وتعودي إلى بيتك.. وأنا مستعد أن أصحبك في سيارتي إلى البيت إذا كنت لا تحبين ركوب التاكسيات!

قالت زبيدة وهي تبتسم :

ـ إنني استطيع أن أعود في سيارة أوتوبيس أو في الترام . . . إنني لم أكن طوال حياتي زوجة وزير . لقد كنت فقيرة جداً . . كنت أقيم في حي الحسينية!

قال باسماً:

ـ من حسن الحظ . . . أن الفقراء يجدون الماء في كل مكان!

وتهلل وجهها فرحاً . . لأنها ستعود إلى بيتها في شبرا . . . وستجد كل يوم حنفية المياه . . في غرفة خادمتها سنية!

■ ■ ■

وصحبت زبيدة خادمتها سنية في عربة تاكسي، وطلبت من السائق أن ينطلق بأقصى سرعة إلى شارع شوكلاني في شبرا . . إنها تريد أن تطير إلى بيتها، لتدق التليفون لمحمد في إدارة جريدة «الجهاد» وتطلب إليه أن يجيء إليها في الساعة السادسة مساء في منزلها في شبرا، بدلاً من أن يذهب إليها قبل منتصف الليل في المستشفى، كما تواعدا في الليلة السابقة . .

ودهشت زبيدة عندما رأت سيارة زوجها تقف أمام البيت . . . فما الذي جاء بزوجها إلى البيت في الساعة الثانية عشرة ظهراً؟ . . هل جاء ليستقبلها عندما عرف أنها ستعود من المستشفى؟ . . كانت تتمنى ألا يهتم بها هذا الاهتمام كله، لتتصل على الفور بمحمد . .

وسألت جندي حرس الوزارات الواقف على الباب :

ـ متى عاد معالي الباشا!

قال الحارس:

ـ إن معالي الباشا لم يخرج بعد من البيت!

وأحست زبيدة بالاكتئاب. . معنى هذا أن زوجها مريض. . إنه لا يبقى في بيته إلا إذا كان مريضاً لا يقوى على الحراك. معنى هذا أنها لن تستطيع أن تلتقي بمحمد في الساعة السادسة مساء كما تريد. . .

وصعدت درجات السلم، وهي تتمنى من صميم قلبها، أن يكتب الله لزوجها الشفاء العاجل حتى يترك البيت!

ودخلت غرفة نوم زوجها فلم تجده راقداً في فراشه! وتصورت أنه في الحمام، فوجدت باب الحمام مفتوحاً، وأطلت في الحمام ولم تجده، واعتقدت أنه يرقد في غرفة نومها، فلم تجده ايضاً. . . ونادت عليه فلم يرد. . ورأت باب غرفة المكتب مغلقة، فاتجهت إليها وحاولت أن تفتح الباب فوجدته مغلقاً بالمفتاح. .

وطرقت بيدها على الباب وسمعت زوجها يقول بعد فترة:

ـ من؟

قالت:

ـ أنا زبيدة. . ماذا حدث؟ هل أنت مريض؟

وفتح عوني باشا باب الغرفة، ودهشت عندما رأته في ملابسه الكاملة!

ورحب بها وهو يقول:

ـ الدكتور ستفنسون لم يكذب! إن صحتك جيدة جداً! إنك ازددت

جمالاً وشباباً!

ولم تهتم زبيدة بهذا الإطراء بل سألته:

- لماذا لم تذهب إلى المكتب؟.

قال عوني باشا:

- إن لدي مسألة هامة أدرسها. وقد قررت أن أبقى في البيت لأتفرغ لدراستها في هدوء... فإنني في مكتبي لا أجد دقيقة واحدة أتفرغ فيها للدرس، من كثرة الزائرين والداخلين والخارجين!

قالت زبيدة وهي تحوم حوله:

- غريبة! إنك قلت لي إن على باب مكتبك في الوزارة لمبة حمراء إذا أضأتها لا يجرؤ أحد على الدخول...

قال عوني حافظ وهو يلاطف خد زبيدة بأنامله:

- هذه اللمبة الحمراء مخصصة للموظفين والشيوخ والنواب... ولكني مضطر أن أقابل أي زميل من زملائي الوزراء عند حضوره بغير موعد... وكذلك الحال مع السفراء والوزراء المفوضين وموظفي القصر!

قالت زبيدة وهي تضغط على أسنانها:

- وكم ستبقى بعيداً عن مكتبك؟

قال عوني حافظ وهو يمسك يدها في يده:

- لا أعرف... ربما أربعة أيام.. أو أسبوع!

وشهقت زبيدة وقالت في بلاهة:

ـ أسبوع؟

وتبينت بعد أن نطقت بهذه الكلمة أنها خرجت من فمها غصباً عنها. . كانت تفكر في محمد. . . كيف تستطيع أن تعيش أسبوعاً كاملاً دون أن تراه؟

ثم تراجعت وقالت:

ـ أسبوع؟! وتترك أعمال الناس معطلة؟! إن وزارة الداخلية ستتوقف عن العمل إذا انقطعت عنها أسبوعاً. . . وإذا توقفت وزارة الداخلية عن العمل، توقفت الدولة كلها عن العمل!

وانبسطت أسارير عوني باشا، وهو يسمع زوجته تشيد بأثره العظيم على سير الأمور في الدولة فقال:

ـ إنني سأدير المسائل الهامة بواسطة التليفون. . . وإذا كانت هناك مقابلات هامة فسوف تتم في البيت.

قالت زبيدة:

ـ ولكن لم يحدث منذ أن تزوجنا أن بقيت في البيت تعمل. لقد كنت تذهب إلى مكتبك في الوزارة ودرجة حرارتك ٣٩!

قال عوني باشا:

ـ لأنه منذ تزوجنا لم يحدث أن بحثت مسألة هامة خطيرة كالمسألة التي أبحثها اليوم. . . إن مستقبلي ومستقبل البلد كله متوقف على نجاحي في هذه المسألة!

قالت زبيدة:

ـ هل أنت مشغول في تشكيل الوزارة الجديدة؟

قال باسماً:

ـ إن تأليف الوزارة الجديدة متوقف على نجاحي في هذه المسألة!

وأحست زبيدة برغبة في أن تعرف هذه المسألة التي تبقي زوجها في البيت لمدة أسبوع . . . لا فضولاً منها، ولكن لتعرف متى سوف تستطيع أن تلتقي بمحمد؟ . . . إن لقاءها بمحمد ساعة أهم عندها من أن يتولى زوجها رياسة الوزارة طوال عمره . .

واقتربت منه وقالت له وهي تمثل الحب:

ـ ما هي هذه المسألة؟! إنك لا تخفي عني شيئاً . . إنك تحدثني دائماً عن انتصاراتك لتجعلني فخورة بأنني زوجة هذا الرجل العظيم الذي يحقق هذه المعجزات!

قال عوني باشا في زهو:

ـ سوف أحدثك عن هذا الانتصار بعد أن يتحقق!

قالت زبيدة، وهي تتظاهر بالغضب في دلال:

ـ هل تريدني أن أقرأ الأنباء في الصحف كسائر الناس؟

وأحس عوني باشا بأنفاسها وهي تقترب من وجهه . . وأيقظت أنفاسها الحارة كثيراً من مشاعره الخامدة، فقال لها وهو يربت على خدها:

ـ سأقول لك كل شيء في الوقت المناسب!

قالت وهي تقترب منه أكثر:

ـ ومتى يجيء الوقت المناسب؟

قال:

ـ بعد بضعة أسابيع.

قالت في دلال:

ـ لا أستطيع أن أنتظر بضعة أسابيع.. سوف أتعذب عندما أراك تسهر وتتعب وتشقى ولا أعرف لماذا تسهر وتتعب وتشقى... لو أعرف سبب هذا المجهود لشاركتك فيه. سوف أهتم براحتك. لن أثير المتاعب. ولن أصاب بأزمات عصبية!

قال وهو يضحك:

ـ ولهذا طلبت من الدكتور ستفنسون أن يبقيك في المستشفى فترة أخرى!

قالت وهي تتظاهر بالألم وتطوقه بذراعيها:

ـ ما أقسى قلبك! كنت أتصور أنك تحبني أكثر مما تحب عملك!

قال عوني باشا وهو يتخلص من ذراعيها:

ـ إنني أحبك جداً.. ولكن واجبي أولاً.. إن أحداً لم يعرف هذا السر... رئيس الوزراء صدقي باشا لا يعرفه. حتى إدريس بك شماشرجي الملك لا يعرفه.. لا يعرف هذا السر سوى جلالة الملك وعوني حافظ!

قالت ضاحكة:

ـ لا بد أنك ستقتل صدقي باشا!

قال:

ـ نعم.. إن نجاح هذه المسألة سوف يقتله... سوف يقضي عليه قضاء تاماً... سوف يثبت أنه ليس وحده رب الكفاءات كما يسمي نفسه!

قالت زبيدة:

ـ إنك أثرت فضولي بهذه الكلمات الغامضة!

قال عوني حافظ:

ـ إن نجاح الخطة يتوقف على كتمانها.. تصوري أنني اضطررت أن أكتب الخطة بخط يدي. وهي من نسختين.. نسخة موجودة في مكتب الملك، ونسخة موجودة هنا في مكتبي بالبيت.. لأنني لم أطمئن أن أضعها في مكتبي بالوزارة، ولا في خزانتي الحديدية في مكتبي. وعندما أرسلت الخطة إلى الملك وضعتها في ظرف مختوم بالشمع الأحمر تسلمه إدريس بك.. وبعد يومين عاد إدريس بك وقال لي إن جلالة الملك يقول لو نجحت هذه الخطة الجهنمية، فإنك ستصبح رئيس وزراء مصر إلى آخر يوم في حياتك!

وقد حاول إدريس بك أن يعرف مني هذه الخطة، ولكنني كنت ملتزماً بالوعد الذي قطعته للملك، وقلت له إنني لا أخفي عنك أي شيء، ولكنني مضطر ألا أقول شيئاً لأنني أقسمت برأس جلالة الملك ألا أفتح فمي!

واقتنع ادريس بك، ولم يعد يلح أن يعرف ما هي الخطة!

قالت ضاحكة وهي تتعلق به:

ـ وحياة رأسي أنا.. تقول لي ما هي هذه الخطة!

قال لها عوني حافظ:

ـ بعد أن أقسمت برأس جلالة الملك لا أستطيع أن أقول شيئاً. . . كل ما أستطيع أن أقوله لك إن هذه الخطة سوف تحقق ما فشل صدقي باشا في أن يحققه. . لقد جاء إلى الحكم لمهمة واحدة. .

قالت زبيدة:

ـ وما هي هذه المهمة؟

قال:

ـ مهمته أن يقضي على المعارضة، ولكنه لم ينجح. . . بل الذي حدث هو العكس تماماً. . . قويت هذه الأحزاب، وهي في المعارضة أضعاف ما كانت وهي في مقاعد الحكم!

والخطة التي وضعتها ستقضي على المعارضة قضاء مبرماً. . . لن يجرؤ زعيم المعارضة أن يرفع رأسه. . . لن يجرؤ المعارضون أن يفتحوا أفواههم!

قالت زبيدة:

ـ هل ستطلقون عليهم الرصاص؟

قال عوني حافظ:

ـ كل هذه هي أساليب صدقي باشا. . . أساليب المدرسة القديمة. . . لا رصاص. . . ولا سياط. . . ولا سجون. . كل هذه هي مدرسة صدقي القديمة. . أما اليوم فستبدأ مدرسة عوني حافظ الجديدة. . المدرسة التي ستقتل زعيم المعارضة دون أن تطلق رصاصة واحدة، دون أن تضع في السجن مسجوناً واحداً، ودون أن تحمل

السوط في يدها!

وتظاهرت زبيدة بالإعجاب بزوجها، وفتحت ذراعيها تعانقه، وهي تقول له:

- إنني فخورة بزوجي العبقري..

وكانت إحدى عينيها تطل في عينيه الفخورتين. والعين الأخرى تطل من فوق كتفيه، تبحث عن أدراج المكتب المغلق، وكأنها تحاول أن تفتش بهذه العين أدراج المكتب المغلقة!

■ ■ ■

جلست سيدة العمشة على مقعد وثير في صالونها الأنيق بشقتها الفاخرة، في العمارة التي يقع تحتها مطعم الباريزيانا بشارع ألفي بك.

وكانت شقتها في الدور العلوي، تطل على المدينة كلها، والعمارات تحتها تنحني إجلالاً لمقامها!

إنها ليست سيدة، ولا عمشاء.. إنها ملكة عالم تحت الأرض في مدينة القاهرة. ملكة الظلام. ملكة الحب المحرم... ملكة تجارة الرقيق... تبيع الحب المزيف بورق بنكنوت حقيقي!

وهي ملكة فعلاً. لها نفوذ وسلطان. وعلى رأسها تاج، وفي يدها صولجان. ولها كبير أمناء وكبير ياوران ورئيس ديوان التشريفات ولها رعايا يدينون لها بالطاعة والولاء. ولها حرس يتبعها إلى كل مكان!

وهذا الصالون الفاخر هو عاصمة ملكها. منه تدير شؤون دولتها التي تتألف من الشقق والبانسيونات في المدينة. وصناعتها أن تبيع اللحم. لحماً مختلف الألوان والأشكال والأحجام والأنواع... لا

تلف هذا اللحم المبيع في ورق خشن! ولا في أكياس نايلون، وإنما تبيعه ملفوفاً في فساتين!

وهي تربح أكثر من جميع الجزارين مجتمعين. الجزار يبيع قطعة اللحم مرة واحدة يحملها الزبون إلى بيته ويأكلها. . . وزبائنها يذوقون اللحم، دون أن يأكلوه!

وهم يذوقونه في داخل محل الجزارة، لمدة نصف ساعة أو ساعة، ثم يتركونه معروضاً في المحل ليذوقه جائع جديد!

وهي تبيع اللحم بالجملة وبالقطاعي. تبيع بالنقد وبالتقسيط. تبيع بالتسعيرة وخارج التسعيرة. كل نوع من اللحم له سعر وله زبائن. وهي تفضل الذين يأكلون اللحم بسرعة، يقضمونه كالساندوتش، وتكره أولئك الذين يأكلونه على مهل، ويمضغونه ببطء، ولا ينصرفون قبل أن يسلكوا أسنانهم!

وزبائنها ألوف من المغفلين، أعيان وموظفون، شبان وشيوخ، أجانب ومصريون، باشوات وصعاليك. وقد وصلت إلى مكانتها لأنها امرأة كتوم. تعامل الزبائن كأنهم خراف، وتعامل الخراف كأنها أفراد أسرتها!

وقد اعتادت أن تنتقل مع الحكومة كلما انتقلت إلى مصيفها في الاسكندرية. ولها في الثغر فروع فيها شقق وبانسيونات، لتوفر على المصطافين عناء السفر إلى القاهرة للحصول على ما يحتاجون إليه من لحوم في موسم الصيف!

والدولة تعرف نشاطها المشبوه، وبضاعتها الممنوعة، وعبثاً حاولت أن تقبض عليها. . . كانت قادرة في كل مرة على أن تعرف موعد قدوم بوليس الآداب قبل وصوله بوقت كاف، فيخرج الزبائن من الأبواب

الخلفية، ويتحول دكان بيع اللحوم إلى حفلة زار. النساء يعزفن على الدفوف، وسيدة العمشة، أو من تنوب عنها، تضع على رأسها طرحة بيضاء، وهي تطوح رأسها وتهتز على ضربات الدفوف. . . تختفي بسرعة غريبة زجاجات الويسكي وتحل مكانها أواني البخور. وتختفي قطع الحشيش وتحتل مكانها المسابح.

وكانت تشتري ضابط بوليس الآداب بالمال، فإذا عجز المال عن شرائه، اشترته بإحدى رعاياها من ملكات الجمال. . وإذا عجز المال والجمال عن شرائه استطاعت سيدة العمشة بنفوذها في الدولة، أن تنقله من العاصمة إلى نقطة بوليس نائية في الأقاليم!

وكان بعض المخبرين من رعاياها يدينون لها بالولاء أكثر مما يدينون للدولة، هم عيونها على البوليس، والبوليس يتصور أنهم عيونه على ملكة الظلام!

وإذا كان لها ملف في بوليس الآداب، فإن عندها ملفاً لكل ضابط في بوليس الآداب، فيه كل شيء من نقط الضعف فيه، عن زوجته وأخواته وأقاربه وأصدقائه، عن فضائله ومخازيه، عن حالته المالية وديونه. وبهذه الملفات كانت قادرة أن تهدد قبل أن تتلقى التهديد. وتنذر قبل أن تتسلم الإنذار، وتخيف البوليس أكثر مما يخيفها البوليس!

وحدث أن جاء إلى بوليس الآداب ضباط فشل المال والجمال والتهديد في أن يوقفهم عند حدهم. وكانت سيدة العمشة قادرة دائماً على أن تطاردهم بدلاً من أن يطاردوها، وأن تحاكمهم بدلاً من أن يحاكموها، وأن تقضي على مستقبلهم فوق الأرض، ولا يقضوا على تجارتها تحت الأرض!

وفي الشهور الأخيرة فوجئت بتعيين القائمقام فريد كامل مديراً

لبوليس الآداب. وفوجئت بأن هذا الرجل يعلن عليها الحرب، ويغير ويبـدل في الضباط والمخبـرين. ويقوم بـالحملات المستمـرة عليها. ويقبض على الزبائن وهم يخرجون من الباب الخلفي، ويضبط اللحم والأسرّة قبل أن تختفي وتحل مكانها حفلات الزار. . .

وزاد في ضيق سيدة العمشة أن فريد كامل كان هو الذي يقوم بنفسه بعمليات الكبس!

وحاولت سيدة العمشة أن تشتريه فوجدت أنه غير قابل للشراء. . . أرادت أن تغريه بـالجمال، فـوجدتـه يعيش راهباً. بحثت في ملفـه فوجدت أن لا زوجة له ولا أخت، ولا أم يمكن أن تلفق لها قضية، أو تشوه سمعتها ببلاغ كاذب!

وضاعف من ضيقها أنه جاء بالبكباشي محمد شداد وعيّنـه وكيلاً لقسم الآداب. وهو ضابط ثقيل الدم. . . وقد نجحت في نقله من قبل إلى أسوان، وفوجئت به يعود إلى القاهرة من جديد. ولم يكتف بذلك بل نقل محسوبها الصاغ محمد فتوح من بوليس الآداب إلى أسوان!.

وزاد عدد المحاضر التي حررها القائمقام فريد كـامل ضـد سيدة العمشة، والبيوت التي تديرها إلى ثلاثة وخمسين محضـراً. . . ثلاثـة محاضر حررها فريد كامل، وخمسون محضراً حررها محمد شداد. . .

■ ■ ■

وذات يوم كانت سيدة العمشة في أحد بيوتها بالعمارة التي تملكها في شارع نور الظلام بجوار المحكمة الشرعية، تتـولى تقديم اللحم الطازج إلى الزبائن!

وقد اختارت هذا المكان بالذات لتقيم عمـارتها لتصـطاد زبونـات

المحكمة الشرعية من المطلقات وطالبات النفقة اللائي تحفى أقدامهن قبل أن تحكم لهن المحكمة الشرعية بقروش قليلة!

وفوجئت سيدة العمشة بالقائمقام فريد كامل يهاجم بيتها، ويقبض عليها، هي وثلاث من أجمل بناتها، ويزج بهن في السجن. .

ومن السجن اتصلت سيدة العمشة بكبير أمنائها متولي بلبل المتخصص في عمليات التلفيق، وأصدرت إليه أمرها بأن يهدم العمارة فوراً، ويجيء بشهود يشهدون أن العمارة تم هدمها قبل ثلاثة أسابيع من اليوم الذي تمّ فيه الضبط. . .

وفي يومين اثنين تم هدم العمارة، وحصل متولي بلبل على كل المستندات والوثائق ورخصة الهدم مؤرخة قبل موعد الضبط بعام. .

ووكلت سيدة العمشة أكبر ثلاثة محامين في مصر، وقدموا بلاغاً يتهمون فيه مدير قسم الآداب بالتزوير. . إنه يقول في محضر الضبط إنه ضبط سيدة العمشة في شقة في العمارة ١٣ بشارع نور الظلام. . . ولا توجد في شارع نور الظلام عمارة بهذا الرقم!

وانتقل رئيس النيابة إلى المكان فوجد أرضاً فضاء. . .

وقدم القائمقام فريد كامل إلى مجلس تأديب وحكم بإحالته إلى المعاش!

وكلفت هذه القضية سيدة العمشة عشرة آلاف جنيه، ولم تندم على هذا المبلغ، لأنها أثارت الذعر في قلوب ضباط البوليس. .

وصدر قرار بانتداب الأميرالاي عليش سالم مدير القسم الجنائي مديراً لبوليس الآداب بالإضافة إلى عمله. . . ولكن الذي عكّر عليها فرحة انتصارها أن البكباشي محمد شداد الذي تكرهه ويكرهها بقي في

منصبه وكيلاً لبوليس الآداب!

■ ■ ■

وكانت سيدة العمشة تقرأ ملف عليش سالم.. وتتطلع في صورته الفوتوغرافية التي جاء بها متولي بلبل، لتعرف أي نوع من الرجال هو!

وجلست تضع الخطط في كيفية الاتصال به، وكيف تقنعه بنقل البكباشي محمد شداد! ودخل متولي بلبل الغرفة وقد اصفر وجهه، وهو يقول:

ـ الأميرالاي عليش سالم مدير بوليس الآداب الجديد.. هنا... ويريد أن يقابلك!

قالت سيدة العمشة:

ـ ما الذي جاء به في الصباح؟ ضباط الآداب لا يظهرون إلا في الليل كالخفافيش!

قال متولي:

ـ يقول إنه يريد أن يقابلك في أمر هام!

قالت سيدة العمشة في استغراب:

ـ هل هو وحده.. أم معه ضباط وجنود؟

قال متولي:

ـ إنه جاء وحده... وجاء بملابسه العادية...

قالت سيدة العمشة:

ـ دعه يدخل.. وأسرع ونظف البيت!

وفهم متولي ما تعني ملكة الظلام بكلمة تنظيف البيت!

ودخل رجل أسمر متوسط العمر، له شارب صغير يضع على عينيه نظارة سوداء . .

وصافحها باحترام، وهو ينحني، ثم جلس بجوارها، وسألها عن الصحة . . .

ودهشت سيدة العمشة . . إنها أول مرة يسألهـا ضابط في بـوليس الآداب عن صحتها . . . ودهشت أكثر عندما لاحظت أنه يناديها بسيدة هانم!

واطمأنت سيدة بأن مدير الآداب الجديد اتعظ بما حدث للمديـر القديم . . .

وقال الأميرالاي عليش:

ـ إنني أرغب لمناسبة تعييني في منصبي الجديد في أن يقوم بيننا تعاون وتفاهم!

قالت سيدة العمشة:

ـ أنا مستعدة لأي تعاون . . إن صناعتي تقوم على التعاون والتفاهم!

قال الأميرالاي عليش:

ـ ولكي ينجح هذا التعاون والتفاهم يجب أن نضمن له السريـة والكتمان!

قالت سيدة العمشة وهي تضحك:

ـ إن رأس مالي هو السرية والكتمان . . . والخلاف بيني وبينكم أنني أريـد أن أعمل في السر . . وأنتم تـريدون أن أعمـل في العلن . . .

تهاجمون البيوت السرية . . . وتتركون البيوت العلنية!

قال الأميرالاي عليش:

ـ لن يكون بيننا أي خلاف بعد اليوم . . نحن نخدمك، وأنت تخدميننا!

قالت سيدة وهي تبتسم ابتسامة التاجرة الشاطرة:

ـ أنا مستعدة لأي خدمة . . . إن عندي فتاة بكراً، رائعة الجمال اسمها امتثال . . . إنني مستعدة أن أخصصها لك وحدك . . . وكل البنات تحت أمرك . . . وأنا أيضاً تحت أمرك إذا كنت تحب اللحم العجوز!

قال الأميرالاي عليش:

ـ إنني أردت أن يكون تفاهمنا على مستوى عال!

قالت سيدة وهي تضحك:

ـ أنا أفضل المستوى الواطي!

قال الأميرالاي عليش:

ـ أقصد أنني أرغب في أن يكون هذا الاتفاق مدعوماً بموافقة الجهات العليا . . . حتى لا يستطيع أحد أن يتدخل ويفسده. ولهذا فقد أخبرت بأمرك معالي عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية، ورحب بأن يقابلك . . وقال إنه كان يسره أن يحضر لمقابلتك هنا، ولكنه فضّل أن تتم المقابلة في بيته . . . حتى نضمن السرية والكتمان!

قالت سيدة:

ـ هذا شرف عظيم. . . عندي زبائن من وكلاء الوزارات، ولكن ليس عندي بعد زبائن من الوزراء!

قال عليش بك:

ـ إن معالي الوزير معجب بذكائك وبدهائك. . . وقد قال إنك ممكن أن تخدمي الدولة خدمات عظيمة. . . وممكن أن تخدمك الدولة خدمات عظيمة!

قالت سيدة العمشة:

ـ إنني تحت أمر معالي الوزير. . ويمكنه أن يحدد أي موعد وأذهب إلى لقائه. . .

قال عليش بك:

ـ إنه ينتظرك الآن!

قالت سيدة:

ـ الآن!؟ الرجال دائماً مستعجلون!

وتركته سيدة في الصالون، ودخلت إلى غرفة نومها، وارتدت ملابسها، وعادت سيدة أنيقة، وقوراً، لا يتصور من يراها أنها ملكة الحب الحرام!

وسألته:

ـ هل تحب أن تجيء معي في سيارتي! إن سيارتي من نفس طراز سيارات الوزراء!

قال عليش بك:

ـ أفضل أن نذهب بسيارتي حتى لا يعرفك أحد!

■ ■ ■

ودخلت أكبر قوادة في مصر إلى صالون منزل وزير الدولة في وزارة الداخلية، وبقي عليش بك خارج الصالون في انتظار نتيجة اجتماع الأقطاب!

وقف معالي عوني باشا حافظ يستقبلها بترحاب وإجلال واحترام، ودعاها لأن تجلس بجواره على أريكة كبيرة في الصالون.

وقال عوني باشا وهو يتأملها:

ـ لقد شرفتني يا سيدة هانم بهذه الزيارة.. كنت أتصور أنك أكبر سناً بكثير. إنك ما زلت شابة جميلة.. والتقارير التي أقرأها عنك تصورك كأنك عجوز شمطاء!

قالت سيدة ضاحكة:

ـ لعلك تقتنع الآن بأن تقارير البوليس غير صحيحة!

ودخل عليش بك مدير الآداب في تلك اللحظة يحمل صينية القهوة ويقدمها أولاً إلى سيدة العمشة وهو يقول:

ـ فضلت أن أحمل القهوة بنفسي حتى لا يقطع عليكما الخادم حديثكما الهام..

ثم خرج سعادة المدير يحمل صينية القهوة! وقال عوني باشا وهو يرتشف القهوة من فنجانه:

ـ إنني اخترتك دون سواك لتقدمي أكبر خدمة لهذا البلد!

قالت سيدة ضاحكة، وفنجان القهوة يهتز في يدها:

ـ إن البنات اللاتي لدي. . لا يكفين البلد كله!

قال عوني باشا:

ـ إنها خدمة بطريقة أخرى!

قالت سيدة:

ـ هذه هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها!

قال عوني باشا وقد بدت عليه مظاهر الاهتمام:

ـ إنني على استعداد لأن أحفظ الثلاثة والخمسين محضراً التي حررها بوليس الآداب ضدك، مقابل. .

وسكت عوني باشا قليلاً، وراح يتفحص عينيها ليرى صدى العرض السخي. .

ولمعت عينا سيدة فرحاً وقالت:

ـ مقابل. . كم؟

قال عوني باشا:

ـ ليس مقابل أي مبلغ. . مقابل ورقة توقعينها بإمضائك!

قالت سيدة:

ـ كمبيالة؟

قال: لا، إنها ليست كمبيالة تماماً. . إن فيها شيئاً يشبه الكمبيالة. . بمعنى أن تحفظ القضايا عندما يتم التنفيذ!

وقالت سيدة:

ـ وأين هي هذه الورقة؟

وأخرج عوني باشا من جيبه ورقة مطوية، وفتحها، وسلمها إياها. . وقرأت سيدة:

«أنا سيدة العمشة أقر وأعترف بأنني أدير العوامة رقم ١١٧ بشارع الجزيرة أمام النادي الأهلي، وقد كلفت السيدة سميحة شريف بأن تتولى إدارتها لحسابي».

قالت سيدة:

ـ ولكني لا أعرف هذه العوامة.

قال عوني باشا:

ـ سوف يصحبك الآن عليش بك لمعاينتها.

قالت سيدة:

ـ ولكني لا أعرف سميحة شريف هذه؟

وأخرج عوني باشا من جيبه صورة لسيدة جميلة وأعطاها لسيدة العمشة. . وراحت سيدة ترمش بعينيها وهي تتفحص صورة المرأة. . ولهذا السبب أطلقوا عليها اسم سيدة العمشة!

قالت:

ـ إنني لم أر هذا الوجه أبداً في حياتي!

قال عوني باشا:

ـ ولكنك أصبحت تعرفينه منذ اليوم!

قالت سيدة:

ـ وما هو المقصود بهذه الحكاية كلها؟

قال عوني باشا:

ـ هذا سر من أسرار الدولة.. كل ما نريده منك أن توقعي على الورقة، وتقفلي فمك إلى الأبد.. إنك سيدة ذكية جداً.. وتفهمين ما أعني!

قالت سيدة:

ـ والثلاث والخمسون قضية؟

قال عوني باشا:

ـ سنحفظها كلها.. بعد أن تدلي بأقوالك هذه أمام النيابة.

قالت بذكاء التاجرة:

ـ وكيف أضمن أن تنفذ هذا الوعد؟

قال عوني باشا:

ـ أعطيك كلمة شرف!

قالت ضاحكة:

ـ في عالمي لا نتعامل بشيء اسمه «الشرف».. الدفع دائماً سلفاً!

وسكتت سيدة قليلاً ثم قالت:

ـ ولما كنت أول وزير أتعامل معه، فإنني مستعدة لأن أقدم لك تسهيلات في الدفع بصفة إستثنائية.. إنني أكتفي الآن بدفعة على الحساب!

قال عوني باشا:

ـ يا لك من سيدة لا يمكن الضحك عليها! هل تريدين حفظ بعض القضايا على الحساب؟

ـ كلا.. أريد قراراً بنقل البكباشي محمد شداد وكيل قسم الآداب إلى أسوان، وتعيين الصاغ محمد فتوح بدلاً منه!

قال عوني باشا متهللاً:

ـ إن طلباتك متواضعة جداً.. هل هذا هو كل ما تريدين يا سيدة هانم؟ على عيني ورأسي!

واستدعى عوني باشا الأميرالاي عليش بك من خارج الغرفة وكتب عوني باشا قراراً وزارياً بنقل البكباشي محمد شداد إلى أسوان، وتعيين الصاغ محمد فتوح وكيلاً لقسم الآداب.

وسلّم عوني باشا القرار الوزاري إلى عليش بك وهو يقول له:

ـ إنك مسؤول عن تنفيذ هذا القرار من اليوم.. ويتسلم محمد شداد عمله في أسوان غداً!

ثم أعطى عوني باشا قلمه الحبر إلى سيدة فوقعت على الإقرار المطلوب!

وخرج عوني باشا خلف ملكة الحب المحرم يودعها إلى سيارة عليش بك وهو يقول:

ـ إعتبري نفسك منذ اليوم يا سيدة هانم صديقة عوني باشا حافظ.. إذا ضايقك أي إنسان فاتصلي فوراً بعليش بك.. وفي هذه المرة، لن أكتفي بنقله إلى أسوان، بل أضعه في السجن!

وابتسمت سيدة العمشة وهي تقول:

ـ لا أعرف كيف أشكرك.. إن لي طريقتي الخاصة في تقديم الشكر!

قال عوني باشا وهو يضحك:

ـ بعد أن تنجح هذه المسألة.. سأجيء إليك لأتلقى الشكر.

■ ■ ■

إستقلت ملكة الظلام والحب الحرام سيارة عليش بك المشرف على بوليس الآداب! كانت تشعر بنشوة وهي تجلس في المقعد الخلفي، ومدير بوليس الآداب يقوم بوظيفة السائق لملكة الظلام.. تذكرت المرات التي ركبت فيها سيارة واحدة مع ضابط في بوليس الآداب. كانت دائماً سيارة بوكسفورد، تُلقى فيها هي وزميلاتها، كما تُلقى القمامة في طريقها إلى قسم البوليس ومنه إلى السجن!

الدنيا تدور فعلًا! الدولة تعترف بها كملكة! وزير الدولة يستقبلها في بيته، وينحني أمامها وهو يودعها، ويفتح لها بنفسه باب السيارة!

مدير بوليس الآداب الذي كانت ترتعش من ذكر اسمه، أصبح يتزلف لها، وقد عرف أن الدولة تعتمد عليها في المهام الخطيرة!

وكانت سيدة العمشة سعيدة بالصفقة التي عقدتها مع وزير الدولة.. وكانت تضحك من سذاجته.. إنها أوهمته بأنها قبضت قسطاً على الحساب، وهي في الواقع قبضت الحساب كله.. على داير المليم! هذه هي نفس طريقتها مع زبائنها الذين لا تثق بانتظامهم في الدفع!

يكفي أنها تخلصت من البكباشي محمد شداد وكيل قسم الآداب. هذا الضابط الذي عكّر عليها صفو الحياة، الضابط الوحيد في بوليس

الآداب الذي لم يتعظ بما حدث لرئيسه السابق مدير قسم الآداب!

يكفي أنها استطاعت تعيين عشيقها الصاغ محمد فتوح وكيلاً لقسم الآداب.. كان البكباشي شداد وراء نفي عشيقها إلى أسوان، ويجيء عشيقها من أسوان في منصب أرقى.. في نفس المنصب الذي كان يحتله شداد!

والوزير المغفل يتصور أنه يحتفظ في يده بمؤخر الأتعاب، أي القرار بحفظ القضايا الثلاث والخمسين.. لا يتصور أن نقل محمد شداد إلى أسوان وتولي عشيقها محمد فتوح منصب وكيل قسم الآداب سيؤدي إلى براءتها من كل هذه القضايا.. سيضطر الضباط والمخبرون الشهود أن يغيروا شهاداتهم إرضاءً للوكيل الجديد، وانتقاماً من الوكيل القديم.. سوف تطالب وزارة الداخلية بتعويض قدره عشرون ألف جنيه رد شرف.. تعويضاً عن اتهام سيدة محترمة من كرام العائلات وصاحبات الصون والعفاف بإدارة بيوت للدعارة السرية.. وسوف تضطر وزارة الداخلية إلى عقد صلح معها.. وسوف تقنع بأن يدفع لها عوني باشا حافظ عشرة آلاف جنيه تعويضاً عن ثمن العمارة التي هدمتها والقضية التي أدت إلى إحالة القائمقام فريد كامل مدير الآداب السابق إلى المعاش!

إنها أول مرة في حياتها تعقد صفقة بغير أن تدفع ثمناً، لا بالعملة الصعبة أي النقود، ولا بالعملة السهلة أي النساء؟.. كل ما كلفتها هذه الصفقة أن توقع باسمها على ورقة.. ربما تؤدي هذه الورقة إلى اتهام سيدة بريئة مثل سميحة شريف!

ولكن التلفيق لم يعد جريمة تعذب ضميرها. ما أكثر القضايا التي لفقتها في حياتها. ما أكثر التهم التي لطخت بها الأبرياء. لقد أصبح

التلفيق روتيناً في حياتها، من لوازم المهنة.. وهي ليست وحدها التي تلفق.. الدولة تلفق.. وزير الدولة نفسه عندما طلب منها أن توقع هذه الورقة، كان يلفق قضية.. قضية ضد شرف امرأة لا تعرفها!

ولم تشعر سيدة العمشة بالندم لأنها اشتركت في تلفيق قضية دعارة ضد سيدة شريفة! إنها تكره كل السيدات الشريفات.. تعتبرهن جميعاً من الأعداء! وهي مستعدة أن تتهم كل سيدة شريفة مجاناً.. حتى ولو لم تقبض ثمن اتهامها نقل عدوها من منصب وكيل الآداب إلى أسوان، ونقل حبيبها من أسوان إلى منصب وكيل الآداب!

هذا المجتمع ظلمها فيجب أن يدفع ثمن ظلمه لها..

كانت سيدة في يوم من الأيام فتاة شريفة، مثل الوردة، عمرها أربعة عشر ربيعاً. وكانت تعمل خادمة في بيت بحي عابدين. وراودها صاحب البيت عن نفسها، فأبت. وفوجئت بصاحب البيت يتهمها ظلماً بأنه ضبطها نائمة مع البواب.. وطردها من بيته.. وإذا بحي عابدين كله يتناقل قصتها. كلما دخلت إلى بيت تعمل فيه طردت في اليوم التالي لأن أصحاب البيت وصلت إليهم قصتها مع البواب.. كل بيوت الحي أصبحت تمد أصابعها إليها وتقول إنها عاهرة..

وقررت أن تكون عاهرة، وتحوّل كل فتاة تقع في يدها إلى عاهرة.. كانت تحس بذلك أنها تلوث الذين لوثوها.. تلقي في الطين الذين ألقوا عليها الطين.. وأصبحت ملكة الحب المحرم.. وتعمدت أن تؤجر الشقق التي تديرها في نفس العمارات التي طردوها منها!

■ ■ ■

وأفاقت سيدة من خواطرها والتفتت إلى عليش بك وهو يقود السيارة وقالت له:

ـ إنني أضعت حياتي مع صغار ضباط البوليس . . ليتني بدأت منذ أول الأمر مع الوزراء!

قال عليش بك وهو يوقف سيارته أمام عوامة أمام النادي الأهلي، وينزل من السيارة ويفتح لها الباب:

ـ تفضلي يا سيدة هانم، لتتفرجي على العوامة!

وطافت سيدة بأنحاء العوامة، ولاحظت أن خادم العوامة وقف في حالة انتباه أمام عليش بك، وأدى له التحية العسكرية!

وألقى عليه عليش بك نظرة توبيخ. وكأنه أراد أن يقول له إن المفروض أنك خادم مدني في عوامة . . لا مخبر في وزارة الداخلية!

ولاحظت سيدة أن العوامة مفروشة فرشاً بسيطاً، وليس فيها مظاهر الفخامة والثراء . .

وعندما دخلت إلى غرفة الطعام تطلعت في الدولاب . . ثم سألت الخادم:

ـ ألا يوجد هنا ويسكي؟

قال الخادم:

ـ لا . . إن صاحبة العوامة لا تشرب الخمر . .

قالت سيدة هامسة في أذن عليش بك:

ـ المفروض أن يوجد في مثل هـذا المكان ويسكي، وقطعة حشيش!

وابتسم عليش بك وقال:

ـ إنك لا يفوتك أي شيء!

قالت ضاحكة:

ـ ما دمت أصبحت صاحبة العوامة.. فيجب أن أكون مستعدة!

ودخلت سيدة إلى غرفة النوم، وراحت تتأمل في تأفف الفراش المتواضع، والأثاث البسيط..

وقالت لعليش بك:

ـ المفروض في مثل هذه الأماكن أن تكون أهم غرفة هي غرفة النوم.. يبدو أن أصحاب هذه العوامة لا يستعملون غرفة النوم!

قال عليش بك:

ـ سواء استعملوها، أو لم يستعملوها.. فسوف تقولين في التحقيق طبعاً إن سميحة شريف كانت تستعمل غرفة النوم!

وضحكت سيدة وقالت:

ـ بعد القرار الذي أصدره عوني باشا.. أنا مستعدة أن أشهد أنني كنت طوال الوقت تحت السرير.. إن عوني باشا أعجبني فعلاً!

■ ■ ■

ولم تكن سيدة العمشة تجامل عليش بك مرؤوس عوني باشا. كانت معجبة فعلاً بعوني باشا. أحست بأن أشياء كثيرة تجمعهما. هي ملكة الظلام وهو وزير الظلام.. هي تعمل في الحب غير المشروع، وهو يعمل في السياسة غير المشروعة.. هي تاجرة في سوق الرقيق، وهو تاجر في سوق الرقيق.. كل منهما يبيع ويشتري.. هي تبيع النساء وهو يشتري الرجال.. هي تستغل شهوة الرجال للمرأة، وهو يستغل شهوة الملك للسلطان..

وأعجبها أن عوني حافظ رجل خبير بالنساء! خبير النساء هو الذي يعامل العاهرة كأنها سيدة، ويعامل السيدة كأنها عاهرة!

وأعجبها أن عوني باشا رجل حمش. . فيه كل الأخلاق والمزايا التي تتوافر في القواد. حديثه المعسول، أدبه الجم، قوة أعصابه وهو يذبح هذه المرأة المظلومة سميحة شريف، وكأنه يحتفل بزفافها. . سرعته في المفاوضات بغير لف ولا دوران. أناقته في اختيار ملابسه. .

وقبل كل شيء أعجبها فيه أن كلاً منهما لا يؤمن بما يسمونه الشرف!

وتذكرت سميحة شريف المرأة التي لا تعرفها، التي رأتها فقط في الصورة، التي دمغتها بأنها تعمل في الدعارة، ووقعت على هذا الاعتراف بإمضائها. . إنها لم تخطىء في حقها حتى تشهد عليها هذه الشهادة الظالمة!

وهزت سيدة العمشة كتفيها ساخرة. . ربما تكون سميحة هذه إحدى الساكنات في حي عابدين اللاتي قلن عنها في يوم من الأيام إنها عاهرة. . إذا لم تكن هي التي قالت فربما تكون أمها، أو أختها، أو قريبة لها، أو واحدة من طبقتها!

وشعرت بالسرور أنها ترد الصفعة للطبقة التي ظلمتها!

وعادت تفكر في عوني حافظ باشا وتضحك، ثم تلتفت إلى عليش بك وتقول له:

ـ قل لي يا عليش بك: كم هو مرتب الوزير؟

قال عليش بك:

ـ مائتان وخمسون جنيهاً في الشهر.

قالت سيدة:

ـ كم يتقاضى رئيس الوزراء؟

قال عليش بك:

ـ ثلاثمائة جنيه في الشهر!

قالت سيدة العمشة في حسرة:

ـ خسارة أن يضيع عوني باشا مواهبه العظيمة هذه في كرسي الوزارة.. قل له يا عليش بك أن يستقيل من الوزارة، ويجيء يعمل مساعداً لي بدلاً من الولد متولي بلبل..

سأعطيه مرتباً أكبر من مرتب رئيس الوزراء!

وابتسم عليش بك ولم يقل شيئاً!

أما سيدة العمشة فراحت تفكر في إقالة متولي بلبل من رياسة وزارتها وتعيين عوني باشا حافظ رئيساً للوزراة الجديدة.. في دولة سيدة العمشة!!

■ ■ ■

غادرت السيدة سميحة شريف بيتها في محطة سان استفانو برمل الاسكندرية. إستقلت عربة تاكسي إلى محطة سيدي جابر. إتخذت مكانها في عربة البولمان في قطار الإكسبريس الذي يغادر الاسكندرية الساعة التاسعة والنصف صباحاً، فتحت مجلة «المصور» قلّبت صفحاتها. كانت تبحث عن صورة معينة. لم تجد الصورة. طوت المجلة بخيبة أمل. أسفت أنها دفعت قرش صاغ ثمناً للمجلة. كل الموضوعات الهامة الشائقة في «المصور» لا تعنيها. كل الصور التي امتلأ بها عدد المجلة لا يهمها. إنها تبحث عن صورة واحدة. وما دامت لم تجد هذه الصورة، فلا شيءمهم في «المصور» هذا الأسبوع!

وتحرك القطار. لم تهتم برؤية وجوه الركاب الذين يشاركونها عربة البولمان. إتجهت بعينيها إلى زجاج النافذة. ورأت أعمدة التلغراف

وهي تتوالى واحداً بعد آخر، كأنها صور حياتها متكـررة، متشابهة، وتختفي وبسرعة غريبة!

مضى عليها أربع سنوات، وهي تستقل هـذا القطار في السـاعة التاسعة والنصف صباح كل يوم خميس، ثم تستقل قـطار الليل من القاهرة عائدة إلى الاسكنـدرية. ثـلاث ساعـات ونصف ساعـة في الذهاب، وثلاث ساعات ونصف ساعة في الإياب، من أجل أن ترى الرجل الذي تحبه ساعة أو ساعتين.. في كل أسبوع!

وهي تحرص على هذه الرحلة الشاقة المرهقة حرصها على حياتها. تسافر في البرد القارس. تسافر وهي مريضة. كل تعب يهون في سبيل هذه الساعة الواحدة التي تعيش عليها. وهي لا تستطيع أن تقول له كل ما تريد في الدقائق القليلة التي يتحدث معها فيها كل صباح. لأنها تعلم أن تليفونه مراقب. ولا تستطيع أن تكتب له ما تتمنى أن تقوله له، لأن خطاباته تفتحها مصلحة البريد وتطلع عليهـا، ثم تعيد لصقهـا من جديد..

وهو يحرص على ألا يعلم إنسان بما بينه وبينها. مركزه الكبير يضطره أن يبقيها دائماً في الظلام، والسلطات تعلن عليه حرباً لا رحمة فيها ولا شفقة، وهي لا تريد أن تكون السكين التي يطعن بها الخصوم حبيبها في ظهره!

كل ما بقي لهما ساعـة واحدة في الأسبـوع. ساعـة يسرقـانها من الزمن.. وهي لا تشكو له أبداً من هذا العذاب. الساعة الـواحدة تسعدها.. تملأ حياتها كلها. تعيش عليهـا وبها. إنها أشبه بمن يعيش في جزيرة نائية في البحر، انقطعت صلتها بالعالم كله.. وتجيئها سفينة تموين مرة كل أسبوع تحمل لها الماء والطعام. وهذه القطرات ترويها

أسبوعاً كاملاً! وهذه الفتات تشبعها سبعة أيام كل أسبوع . .

صحيح أنها لا ترى الرجل الذي تحبه إلا مرة كل أسبوع . ولكنها تسمع اسمه من كل الشفاه! المظاهرات تخرج إلى الشوارع هاتفة بحياته . الطلبة والعمال يموتون بالرصاص وهم يرددون اسمه . كلماته تحتل الصفحات الأولى من الصحف . أخباره حديث مصر كلها! كل من في مصر يحبه ، رجالها ونساؤها ، شيوخها وأطفالها . ولكنها وحدها هي التي تعشقه!

وهي تعلم أنها ليست وحدها في قلبه . تعلم أن في قلبه حباً كبيراً أكبر من حبها ، يملأ عليه حواسه وتفكيره ، يسيطر على أيامه ولياليه ، وهو هوى هذا الشعب الذي يريد أن يحرره من الاستعمار والطغيان . وهي راضية بمكانها المتواضع في هذا القلب . راضية أن يعطيها ساعة كل أسبوع ، ويعطي الحب الآخر ٢٤ ساعة كل يوم!

لقد عرفت سميحة شريف النحاس باشا قبل أن يصبح زعيم الأمة ورئيس الوفد ورئيس الوزارة . عرفته سنة ١٩٢٧ ، وكان وكيلاً لمجلس النواب ومحامياً مشهوراً . وكانت لها قضية مع طليقها عبد السلام بك عباس . . واختار طليقها ابراهيم الهلباوي بك أكبر المحامين في تلك الأيام ليكون وكيلاً عنه . وأرادت أن ترد على زوجها ، فبحثت عن محام كبير يقف أمام المحامي الخطير لزوجها ، وخاصة أن زوجها كان قادراً دائماً على أن يرشو كل محام توكله ويشتريه بماله الكثير . . وأشارت عليها إحدى صديقاتها بأن توكل النحاس باشا لأنه أنزه محام في البلاد .

وذهبت إلى النحاس في مكتبه . واهتم بقضيتها الصغيرة ، وهو الذي لا يقبل إلا القضايا الكبيرة . وأدهشها أنه درس قضيتها بعناية ، وحفظ كل كلمة فيها ، بينما محاميها السابق لم يقرأ ملف الدعوى إلا أثناء نظر

وترددت عليه عدة مرات. أعجبت ببساطته وصراحته، وفتنت باستقامته ونزاهته، ورأت فيه صورة مختلفة تماماً عن زوجها عبد السلام! عبد السلام لا يعرف كيف يقول الحقيقة، ومصطفى لا يعرف كيف يكذب! عبد السلام لا يفيق من الخمر. ومصطفى لا يذوق الخمر أبداً! عبد السلام مستهتر، ومصطفى تقي ورع يؤدي الصلاة في أوقاتها.. حتى وهو جالس معها.. فإذا حلت ساعة الصلاة تركها وتوضأ وأدى الصلاة ثم عاد إليها! عبد السلام صامت في دهاء، ومصطفى لا يكف عن الكلام في طيبة وبساطة وصراحة. عبد السلام لا يهتم بها ومصطفى يهتم بكل شؤونها!

ولم يكن مصطفى جميلاً. كان عبد السلام أجمل منه وأصغر منه سناً.. ولكن سميحة فتنت بروح مصطفى. إن الجمال الذي تحت الجلد كثيراً ما يكون أروع من الجمال الذي نراه فوق الجلد!

وأحبها وأحبته. وأعجبها فيه أنه لم يستغل أنها امرأة مطلقة. عاملها كفتاة عذراء. وأحست أنه كبشر يعاني من هذا الحرمان، وهو الرجل الذي لم يتزوج، ولكن حبهما بقي طوال هذه السنوات طاهراً، عفيفاً، شريفاً..

وكانت تتصور أنه سيتزوجها. لم يعدها مرة واحدة بأنه يريد أن يتزوجها. ولكن عينيه كانتا دائماً تطلبان يدها!

وسافر مصطفى إلى أوربا في صيف سنة ١٩٢٧ للعلاج.. وتوقعت أن يتزوجها بعد عودته.. وإذا بالزعيم سعد زغلول يموت أثناء هذه الرحلة، وإذا بالوفد يجتمع وينتخب مصطفى النحاس رئيساً للوفد وخليفة لسعد.

وقال لها مصطفى إنه عارض معارضة شديدة في قبول هذا الاختيار، ولكن زملاءه ألحوا عليه، واضطر أن يقبل لأن واجبه الوطني يحتم عليه هذه التضحية . .

وفهمت سميحة، دون أن يقول لها مصطفى، أنه كان لا يريد هذا المنصب الخطير من أجلها . . لأنه يعرف أن زعامة الأمة عمل يستغرق الأربع والعشرين ساعة، ولا يبقى لشريكة حياته إلا بضع دقائق . .

وكان مصطفى متفائلاً دائماً. وكان يعتقد أن مفاوضات ثروت باشا رئيس الوزراء مع سير أوستن تشمبرلين وزير الخارجية البريطانية سوف تنجح، وسيخرج آخر جندي بريطاني من البلاد، ويعتزل بعد ذلك رئاسة الوفد، ويتفرغ لحياته الخاصة. لقد قامت ثورة ١٩١٩ وهو في ريعان شبابه. لم يستمتع بهذا الشباب.. أمضاه في المنفى مع سعد في جزيرة سيشيل، وفي الكفاح والجهاد ضد الإنجليز والطغيان. ومن حقه أن يستمتع بعد خروج آخر جندي بريطاني، بحياته الخاصة . .

وفهمت سميحة أنها هي حياة مصطفى الخاصة . .

وفشلت المفاوضات. واستقال عبد الخالق ثروت باشا. وألف النحاس باشا وزارته الأولى. في كل يوم أزمة مع الإنجليز. أزمة مع الملك. أزمة مع المندوب السامي البريطاني. وأصدر الملك فؤاد أمراً ملكياً بإقالة النحاس من رياسة الوزارة.

وفرحت سميحة بإقالة حبيبها. سيتفرغ الآن لحياته الخاصة. وإذا به ينغمس في الكفاح الوطني من جديد. يطوف بالأقاليم، يخاطب الجماهير، يطالب بالدستور، يلعن اليد الحديدية التي تحكم البلاد!

وفي كل هذه الأيام لم تكن تراه إلا ساعة واحدة كل يوم خميس من كل أسبوع . .

واستمر الصراع الشعبي عـامين، وأسقط الشعب حكم الفـرد. وتولى النحاس رياسة الوزارة من جديد. ولم يكد يتنفس الصعداء. حتى بـدأت المفاوضـات مع الإنجليز. ثم فشلت المفاوضـات. ثم انهمرت الأزمات. . وأقال الملك النحاس من جديد!

وتولى صدقي باشا الحكم، وأصبح الصراع رهيباً دامياً. وانغمس الرجل الذي أحبته في الصراع المريـر. وكثيراً ما جلست تنتظره في عوامتها في الجزيرة في عصر يـوم الخميس. . وتمضي الساعـات ولا يجيء. . وليس في العـوامة تليفـون يمكنه أن يعتـذر بـواسـطتـه عن اضطراره للتخلف. اليوم احتفال بذكرى سعد. اليـوم عيد الجهـاد الوطني. اليوم حطم السلاسل ودخل البرلمان متحدياً الحراس. اليوم ضربه البوليس على رأسه وجرحوه عندمـا أراد أن يقتحم محطة مصر ليزور بني سويف. اليوم موعد زيارته للمنصورة. .

وكانت سميحة تقرأ الصحف في اليوم التالي فتجد خطاباً من النار لمصطفى النحاس. الملايين تقرأ الخطاب باعتباره دعـوة إلى الثورة، وهي وحدها تقرأ الخطاب الثوري، وكأنه خطاب اعتذار من حبيبها يذكر فيه السبب الذي لم يذهب من أجله للقائها بعد ظهر الخميس. .

وهي لا تشقى بكل هذا. لا تشقى من الانـتـظار. لا تشقى من الحرمان. بل تشعر بسعادة لا حد لها، وهي تجلس مع هذا الرجـل الذي أعطى حياته كلها لبلاده. . وهي تعطيه بعض السعادة. كأنها ترد له بعض جميله، تحاول أن تضمد بحبها جراحه، وآلامه والاضطهاد الذي يلقاه على أيدي الطغاة. .

وكانت ترى في عينيه أن هذا اللقاء المتواضع يسعده. ينسيه متاعبه. يخفف عنه همومه. وكانت تحرص على ألا تتحدث معه في السياسة.

لتريحه هذه اللحظات من عـذابه. وكـان دائماً يحب أن يتحـدث في السياسة وكثيراً ما كانت تداعبه وهو يمضي الساعة بأكملها يروي لها جرائم الطغاة ووحشية المستبدين، بكل تفاصيلها ودقائقها. . وعندئذ تقول له سميحة ضاحكة:

ـ إنـك نسيت أن تسألني عن صحتي، مـع أنك تعلم أنني كنت مريضة طوال هذه الأسابيع!

ويضحك مصطفى. إنه فعلاً نسي مرضها لأنه كان مشغولاً بوباء الطغيان الذي أصاب الملايين!

وهي لا تريد أن تزيد متاعبه فتروي له متاعبها. لا تريد أن تقول له إن أشقاءها يلحون عليها بأن تتزوج. وفي كل يوم يتقدمون لها بعريس جديد. وكلما رفضت عريساً قـامت القيامـة في الأسرة، وثـار عليها أخوتها، وقالوا لها إنهم أبناء أسرة كبيرة محافظة لا تقبل على كرامتها أن تبقى إحدى بناتها مطلقة بغير زواج!

وها هو ذا مطلقها السابق عبد السلام بك عباس يحاول أن يعيدها، بعد كل ما فعله بها، وبعد القضايا التي نظرتهـا المحاكم، وبعـد أن حكمت لها المحكمة بفضل دفاع مصطفى النحاس. .

والغريب أن أخوتهـا اقتنعوا بصـدق زوجها الكـذاب. واستطاع بدهائـه أن يحولهم من خصـوم إلى أصدقـاء حلفاء يقفـون ضدهـا، ويضغطون عليها لتعود إليه!

ولا تستطيع سميحة أن تقول لأشقائها إنها تحب رجلاً، وإن هذا الرجل مشغول بحب آخر، ولا يستـطيع أن يتـزوج منها في الـوقت الحاضر! ولو أنهم عرفوا أن هذا الرجل الذي تحبه هو زعيم الأمة لهتفوا بسقوطه، وانضموا إلى صدقي باشا في محاربته بكل سلاح!

وأشقاؤها لا يؤمنون بالحب. ولا يتصورون أن في العالم شيئاً يسمى الحب الطاهر البريء، إنه اسم مستعار للفجور والفساد.. ولا يتصورون أن رجلاً وامرأة يجتمعان على انفراد، دون أن يكون ثالثهما الشيطان. وهي في كل مرة تسافر فيها إلى القاهرة، تضطر إلى الكذب، وتدّعي أنها ذاهبة إلى صديقتها كوثر الغرياني لتمضية اليوم وتناول الغداء والعشاء على مائدتها في بيتها بضاحية أبو قير.. وهي تكره الكذب وتمقته، ولكنها مضى عليها أربع سنوات وهي تكذب كذبة واحدة مرة كل يوم خميس لتخرس أسئلة أشقائها الفضوليين..

■ ■ ■

وتنهدت سميحة وهي لا تزال تحدق في زجاج النافذة وتنظر إلى أعمدة التلغراف دون أن تراها!

ما أتعس المرأة التي تحب زعيماً. إنها تحرم نفسها من حقوق البشر دون أن تحصل على حق واحد من حقوق الزعماء. لا تستطيع أن ترى الرجل الذي تحبه إلا في الخفاء. لا تملك إلا مفتاح الباب الخلفي من حياته. أما الباب الأمامي فهو حق لكل الناس ما عداها. ترقب مواكبه وهي واقفة على قدميها في الشارع دون أن يكون من حقها أن تشاركه مواكب المجد. إنها تذكر يوماً أثناء معركة الشعب ضد الحكومة بعد إلغاء الدستور. بقيت عدة أيام خميس تنتظره ولا يجيء. أحست بشوق عجيب أن ترى الرجل الذي تحبه. سمعت عن مظاهرة ستقوم بها السيدات وتذهب إليه لتحيته في بيت الأمة. إندست بين المتظاهرات. وقفت في مؤخرة الصفوف ترقبه من بعيد. سمعته وهو يخطب. هتفت بحياته مع الهاتفات. صفقت له مع المصفقات. إمتلأت عيناها بالدموع وهي ترى الرجل الذي تعشقه قريباً منها، وبعيداً عنها!

ورأت إحدى السيدات تقتحم الصفوف، وتصافحه، وتبعتها

سيدات كثيرات صافحن الزعيم. وهي وحدها التي بقيت واقفة في مكانها، لا تجرؤ أن تشق طريقها وتلمس كف الرجل الذي تحبه. . ثم رأت فتاة تتعلق به وتقبله ورأت حبيبها يضحك. .

واصفر وجه سميحة وهي ترى امرأة أخرى تقبل حبيبها. أصبح وجهها في لون الشمع. أحست بغيرة قاتلة لم تشعر بها في وقت من الأوقات. تمنت أن تنشق الأرض وتبتلعها. تمنت أن تموت. تمنت أن تهجم على هذه الفتاة الوقحة وتنشب فيها أظافرها. شعرت بأن الدم يغلي في عروقها كأنها أصيبت بالحمى. إنها ترى الكابوس وهي مفتوحة العينين. تريد أن تصرخ بأعلى صوتها فلا تستطيع. يجب أن تلغي مشاعرها كامرأة من أجل الزعيم الذي تحبه. يجب أن تدوس على قلبها الجريح بقدمها حتى لا يسمع أحد صوت أنينه. يجب أن تتحول إلى تمثال من حجر وتتحمل ما لا تستطيع امرأة في العالم أن تتحمله. .

وتحملت، وصبرت، وبقيت واقفة ذليلة وراء الصفوف، والسيدات المتظاهرات يندفعن إلى الزعيم، بعضهن يقبلنه، وبعضهن يصافحنه، وبعضهن يضحكن معه. ولم يرها بين هذه الجموع الغفيرة. لم يمد يده ليجفف دموعها. هي وحدها التي لم تسمع كلمة عطف منه. كان يوزع كلمات العطف على كل السيدات المتظاهرات إلا عليها.

وعندما التقت به في المرة التالية، روت له ما حدث، فدهش لأنه لم يرها. لم يرها وهي تبح صوتها بالهتاف له. لم يرها وهي تدمي أصابعها من التصفيق حماساً لخطابه. لم يرها والدموع تملأ عينيها لأنها وحدها دون كل هؤلاء المئات من النساء لا تستطيع الاقتراب منه في النور!

وعاتبته أنه كان يضحك، وهذه الفتاة الوقحة تقبله. كان يجب أن

يغضب. كان يجب أن يشيح بوجهه فيتفـادى قبلتها. كـان يجب أن يدفعها بيده. .

وضحك وقال إنه لا يستطيع أن يمنع فتاة من المتحمسات لـه أن تقبله. إنه زعيم هذه الأمة. وكل امرأة فيها هي ابنته وأخته وأمه. . ولا يستطيع رب الأسرة أن ينهر واحدة من أفرادها لأنها أرادت أن تعبر عن مشاعرها بقبلة. وهي تعلم أنه صادق عندما قال لها إنه بين الجماهير لا يفرق بين قبلة الرجل وقبلة المرأة. الزعماء بين الجماهير يتحولون إلى شخصيات صوفية، ترتفع فوق شهوات البشر. هامات الجماهير التي ترفعهم فوق رؤوسها إلى السماء تجعلهم لا يفكرون في الصغائر التي يفكر فيها الواقفون على الأرض!

ومصيبتها أنها أحبت زعيماً. زعيم الأمة كلها، الرجل الذي تقسم الملايين بحياته. وواجبها أن تحافظ على هذه الهالة التي تـرتفع فـوق رأسه. تحافظ على حب الشعب له. تحافظ على الرجل الذي وضعته الجماهير فوق قاعدة تمثال متينة من قلوب هؤلاء الملايين.

كم تتمنى أن تخرج في يوم إلى الشارع ويدهـا في يده، كـما يفعل عشرات الألوف من العشاق! سوف يدهش النـاس أن التمثال هبط من قـاعدتـه مع امـرأة في الشارع العـام! سوف يحـطمـون التمثـال والقاعدة والمرأة معاً! تـرى ما هـو مصيرهـا. . هل ستعيش حيـاتها كلها تدخـل من الباب الخلفي؟ وهـل سيجيء يوم تـدخل فيـه من الباب الأمامي؟ . .

■ ■ ■

إنها تمضي وقت فراغها في القراءة. تقرأ قصص نساء أحببن رجالاً عظماء. عشن يتعذبن في الظل. إشتركن بصبـرهن وحبهن في كفاح هؤلاء الأبطال. وقفن وراءهم في المحن والأزمات. كانت قلوبهن هي الدرع التي تحميهم، والجدار الذي يستندون إليه. هذا الحب هو الذي

منحهم صلابتهم وقدرتهم على الاستمرار في صراعهم الشاق!

واختفت نساء الباب الخلفي . . لم يحدث مرة واحدة أن قاسمت واحدة منهن حبيبها في مجده العظيم. وانتهى بهن الأمر أن ألقاهن عباد الأبطال في صندوق قمامة النسيان. . . حتى كتب التاريخ ضنت عليهن بصفحاتها، وألقت بهن في الهوامش مع أسماء المراجع وأرقام الصفحات!

أيكون مصيرها مصير لايدي هاملتون، التي أحبها لورد نلسون بطل بريطانيا العظيم، هذا البطل الذي كان يعانقها بذراع واحدة، وتشعر أن هذه اليد فيها من الحنان والقوة أكثر من أذرع جميع رجال العالم الذين لهم ذراعان! هذا العبقري الذي كان له عين واحدة، وكانت المرأة الأخرى هي عينه التي يبصر بها كل ما في الدنيا من جمال. . . وعاشت فترة في ظل المجد والسلطان، ثم مات نلسون فجأة، فعاشت حبيبة أعظم بطل في تاريخ بريطانيا حياة العدم والفقر والحرمان والجوع! ولم يشأ الشعب الذي أقام لنلسون أعلى تمثال في لندن، أن ينحني ويمد يده برغيف خبز للمرأة التي أحبته وأحبها. .

ترى أيكون مصيرها مصير الكونتس البولندية ماري فالفيسكا التي أحبها نابليون كما لم يحب في حياته. وعندما أراد أن يتزوجها عارض قواده وأصدقاؤه وفضلوا أن يتزوج من ماري لويز التي تكرهه وتحتقره، على أن يتزوج من ماري البولندية التي كانت تحبه وتعبده!

أم يكون مصيرها مصير زينب البكري، الفتاة التي رآها نابليون في القاهرة، وهام بها غراماً، وكانوا يسمونها «فتاة القائد المصرية». ثم جلا الفرنسيون عن مصر، وذهب الشعب إلى قصر البكري في حي الجودرية، وطالب برأس الخائنة التي أحبت قائد الاحتلال. وخرج

والدها الشيخ البكري إلى الشعب الهائج، وهو يدفع ابنته زينب أمامه ويصيح: إني بريء منها!

وهجم الشعب الهائج على زينب، وكسر رقبتها، على حد تعبير الجبرتي المؤرخ المصري القديم!

وهزّت سميحة رأسها في أسى، وتنفست نفساً عميقاً، كأن هذه الصور تكاد تخنقها. وتذكرت أنها تختلف اختلافاً بيّناً عن كل هذه الصور. كل امرأة من هؤلاء عاشت مع رجلها. ستمتعت به. أكلت معه التفاحة. ولكنها هي وحدها دون نساء التاريخ اللاتي أحببن رجالاً عظماء، أحبت حباً عفيفاً شريفاً نظيفاً!

أيتساوى مصير الطاهرات مع الغانيات؟ . . لا يمكن أن يتخلى الله عن هذا الحب الطاهر العفيف، الذي ارتفع فوق الدنايا والخطايا والذنوب! لا بد أن الله سيبارك هذا الحب. سيضع له النهاية الطبيعية سيجيء يوم قريب وتدخل من الباب الأمامي كل يوم من أيام الأسبوع. . ولا تنتظر حتى تغرب الشمس في كل يوم خميس!

■ ■ ■

وقفت سيارة النحاس باشا في ساعة الغروب أمام عوامة سميحة.

نزل منها الزعيم وفي يده عصاه، ومشى بخطوات سريعة إلى باب العوامة وتحركت السيارة بسرعة واختفت في ظلام الغروب. .

ووقفت سميحة تنتظره على رأس السلم، وتأملها الزعيم وهو يصعد درجات السلم، بشعرها الأسود الجميل، وبعينيها الساحرتين الباسمتين، وبقوامها الرائع الفتان. . هذا الجسد الحار الذي حرم

نفسه بنفسه منه طوال هذه السنين. . ولكنه لم يستطع أن يصمت أمام هذا الجمال الساحر، فضحك وهو يقول: هذه مظاهرة. . مظاهرة جمال!

وصافحته وضغطت بيدها على يده. كان هذا هو عناقهما الدائم. كف تلتصق بكف، وأصابع تتشابك في أصابع.

وكان هذا اللقاء الغريب يكفيها، ويكفيه. كأنه احتواها بين ذراعيه، وضمها إلى صدره، وغمرها بالعناق والقبلات. .

وكان في الخمسين من عمره، وكانت هي في الثلاثين. وفي تلك اللحظات يتحولان إلى طفلين صغيرين. ينسى أنه زعيم الأمة. . وتنسى أنه زعيم الأمة. . ولا يبقى منهما إلا الطفلان العاشقان!

وجلس على أريكة من القش، وجلست إلى جانبه. وسألته:

ـ ما هي أخبارك؟

قال:

ـ عظيمة جداً! صليت الجمعة الماضية في جامع الحسين. خرج كل أهل الحي وهتفوا بحياتي. جاء البوليس وضرب المتظاهرين بالعصي والنبابيت. هتفت الجماهير بسقوط إسماعيل صدقي. وكلما أمعن البوليس في عدوانه اشتدت الهتافات بسقوط الوزارة. . . البلد بخير!

قالت سميحة وهي تبتسم:

ـ إنني أسألك عن أخبارك أنت، لا أخبار البلد. لقد تركتك يوم الخميس الماضي مريضاً وحرارتك مرتفعة!

قال:

ـ كنت مريضاً فعلاً، ! ولكنني عندما رأيت حماس الجماهير شفيت على الفور. ذهب البرد. أصبحت حرارتي طبيعية. يبدو أن حرارتي ترتفع كلما هبطت حرارة الشعب، وتهبط عندما ترتفع حرارة الشعب، سأذهب غداً وأصلي الجمعة في مسجد السيدة زينب وسأقرأ لك الفاتحة هناك.

قالت سميحة:

ـ إنك تبدو مجهداً، تحتاج إلى الراحة!

قال النحاس باشا:

ـ كيف أستريح والبلد متعب! السجون مليئة بالمظلومين. أنصاري يطاردون في الأقاليم. بيوت المعارضين تفتش كل يوم. والحكومة تغمر الشعب بالوعود الكاذبة الخلابة. كل يوم تقول لهم إنها نجحت في القضاء على الأزمة الاقتصادية. وفي كل يوم تزداد الأزمة استفحالاً . . . والحكومة تحاربني بأحط الأسلحة، سلاح الجوع. إنني رجل فقير. لا أملك سوى معاشي وهو ألف وخمسمائة جنيه في العام. وأنا أنفق على أختي وأولاد أختي اليتامى. وكل أقاربي فقراء، وإذا بالحكومة تصدر قراراً ظالماً بإنقاص معاشي. ورفضت أن أتسلم مليماً من المعاش. ورفعت قضية على الحكومة. وسوف أكسب هذه القضية لأن في مصر قضاة. ولو كانت المسألة مسألتي وحدي لعشت على الكفاف ولكنني مسؤول عن أسرتي. وفكرت في أن أقترض من بنك مصر، ونصحني أصدقائي بألا أفعل. إن البنك لن يجرؤ على تحدي الملك والحكومة. ولكن طلعت حرب أقرضني المبلغ الذي طلبته . . . ولم أمت من الجوع كما تريد الوزارة. . إنني فقير وحالتي المالية سيئة، ولكنني لن أحني رأسي أمام الطاغية!

وابتسم النحاس مستخفاً بفقره، وأعجبت سميحة بهذه الابتسامة التي تسخر من الفقر، ومن صراحته في الحديث عن فقره وفقر أسرته، وهو الباشا . .

ورأت كأن هذه الابتسامة المستخفة بالفقر، تضيء وجهه المتعب الشاحب، تضفي عليه شيئاً يشبه الجمال. . . تجعله يبدو مختلفاً عن كل الناس الذين يشقيهم فقرهم، ويذلهم بؤسهم، ويخجلهم سوء حالتهم المالية . .

وأحست سميحة في تلك اللحظة بأنها أحبته أكثر مما أحبته في يوم من الأيام. كان يقول لها دائماً إنه لا يملك شيئاً. وكأنه يعدها لحياة بسيطة عادية، ولكنه اليوم كان يتحدث عن فقره بصوت غريب، فيه فخر، واعتزاز، وكأنه مليونير يباهي أمام حبيبته بما يملك من ضياع وعمارات ومجوهرات وأسهم في البنوك والشركات!

وقالت سميحة وهي تضغط على يده:

ـ إنك عندي أغنى رجل في العالم. . . عندما كنت متزوجة من عبد السلام عباس أغنى شاب في الاسكندرية، كنت أشعر أنني أفقر امرأة في الاسكندرية. . . المال لا يجعل الناس أغنياء! إنه أحياناً يفقرهم، يعريهم، يشردهم من بيوتهم! إنني أشعر أن سر قوتك أنك فقير مثل ملايين الفقراء المعدمين في هذا البلد. ولو كنت غنياً لما فهموك كما يفهمونك الآن. . إنهم يحبونك لأنك واحد منهم! فقير مثلهم! مطارد في رزقك مثلهم! تقترض مثلهم! البلد الآن كله مفلس، وكل غني فيه يبدو أجنبياً بالنسبة لسكانه المعدمين!

قال الزعيم:

ـ إن قلبي يحدثني بأن الظلام الطويل الذي عشناه سيذهب إلى غير

رجعة. . إن قلوبنا سوف تسترد ضحكاتها. أشعة الشمس ستشرق علينا من جديد. إن هذه مشاعري وأحاسيسي ونبضات قلبي. إنني مؤمن بالله إيماناً مطلقاً. أؤمن بكل نبضة من نبضات قلبي أن نصر هذا الشعب قريب. . أقرب مما تتصورين. . وأنني سأحتفل معك بهذا الانتصار. . . وإذا كانت السنوات الماضية زحمت قلبك بالجروح، فإنني مؤمن بأن الأيام القادمة ستضمد كل هذه الجروح. .

قالت سميحة:

ـ مضى علي أربع سنوات أسمع أن انتصار الشعب على الأبواب. ولا أرى إلا الهزائم! تحدثني مرة في الأسبوع عن الفجر، وأعيش طوال الأسبوع في ظلام، كل حديثك بشريات وزغاريد، وكل واقعنا قاتم ودموع! في بعض الأحيان تمسك كفي، وتتطلع فيها كأنك قارىء كف. عيناك تقولان لي إن حياتي ستكون حافلة بالأفراح والليالي الملاح. وأنه لا يوجد في خط عمري معك كسرة أو انحناء، وقلبي منقبض! أخاف عليك من بطش أعدائك! أفكار سوداء تملأ رأسي! أخاف على حبنا من بطش أصدقائك قبل بطش أعدائك! وأنا أعرف أن أعداءك يتربصون بك. يترقبون أدنى غلطة منك. وأنا أريد أن أقف بجوارك لأحميك بحبي. وظروفك تجعلني بعيدة عنك! وهكذا أعيش في عذاب غريب. أيام هواي ملتهبة كليالي الحمى. وأيام وحدتي باردة كليالي الشتاء! وأحياناً أقنع نفسي بأنني واحدة من ملايين المعذبين! يجب أن أتحمل كما يتحملون، وأنتظر كما ينتظرون. وفي أوقات قليلة أجدني أنفجر برغم إرادتي. . ويحزنني أن أنفجر أمامك. . وأشركك في شقائي، وأحملك فوق ما تتحمل من متاعب وأهوال!

وضحك الزعيم وهو يقول:

ـ إطمئني يا سميحة! إنهم لن يجرؤوا على أن ينالوا من حبنا! إنني

واثق أن الله لن يتخلى عنا . . إننا لم نفعل شيئاً يغضب الله !

قالت في ابتسامة حزينة :

ـ المؤمن مصاب يا باشا .

قال وهو يربِّت على خدها في حب وحنان :

ـ كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن أنني مؤمن بأن الله سيحقق لك كل ما تتمنين!

ولمعت عيناها الصافيتان ، وأسدلت أهدابها الحريرية كأنها تحلم . ولم يستمر الحلم طويلاً ، وعادت تفتح عينيها على الحقيقة وتقول :

ـ إنني لا أتمنى شيئاً إلا أن أكون بجانبك . . إن حبي أصبح أقوى من أن يجعلني أفكر في نفسي . كل ما أفكر فيه اليوم هو أنت . . إنني أعتقد عن إيمان أنني المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تسعدك . . ولا يهمني أين تضعني . .

إنني راضية أن أكون خادمة لك ، بشرط أن أكون بجانبك دائماً!

قال لها :

ـ لن تكوني خادمتي . . . ستكونين زوجتي !

وفرحت سميحة . كل شيء فيها فرح سعيد . كل شيء يرقص في غبطة وهناء!

إنها المرة الأولى منذ أربع سنوات التي قال لها فيها إنه سيتزوجها! كانت واثقة في كل يوم من هذه الأيام أنه سيتزوجها . إنه يريد أن يتزوجها ولكنها المرة الأولى التي سمعت فيها هذه الكلمة من شفتيه . .

وتمنت أن يكرر هذه الكلمة ألف مرة! ألا يقول كلمة سواها حتى نهاية اللقاء!

ولكنه خيّب أملها، لقد نظر في ساعته وقال:

ـ يجب أن أذهب الآن.. لقد حل موعد اجتماع زعماء المعارضة!

■ ■ ■

وتركها وخرج قبل أن تسأله «متى»؟ قبل أن تسأله ألف سؤال وسؤالاً! ما الذي جعله يخطبها اليوم فقط! لماذا تركها معلقة في الهواء طوال هذه السنوات الأربع، دون أن يلقي لها بقشة من الوعود تتعلق بها وهي تغوص في دوامة القلق والانتظار؟ ترى هل من كثرة ما «يخطب» كل يوم في الجماهير نسي أن «يخطب» المرأة التي يحبها؟ ترى هل لديه أخبار مؤكدة أن حكم صدقي سينتهي، وأن الحكم سيعود للشعب، ولهذا صارحها بما كان لا يستطيع أن يصارحها به، وهو يخوض معركة طاحنة مريرة، لا يعرف هل سينجو منها أم يكون أحد شهدائها، وعندما تأكد أن أنوار الفجر تقترب بادر يحقق حلمه بأن يفاتحها في الزواج؟

إنها تعرف منه أنه لا يعد بشيء لا يستطيع أن يحققه. لم يعدها يوماً بالجنة. كان لا يتحدث إلا عمّا ينتظره من آلام وعذاب! ترى، هل قرأ في عينيها قلقها على مصيرها، فأسرع يطمئنها، ويضمد جروح قلبها... أم أن فقره وحالته المالية المضطربة، هي التي جعلته لا يقبل على الزواج منها، فلما حصل على قرض من بنك مصر، شعر لأول مرة منذ أربع سنوات أنه يملك مبلغاً يمكن أن يدفع منه مهراً، ويشتري به «شبكة»، ويؤدي نفقات الزواج؟

ولكنها لم تفكر في يوم من الأيام في مهر أو شبكة، كل ما كانت تريده

أن تتزوجه هو. لا تريد أكثر من شخصه. لا يهمها لو جرده الملك من لقب باشا وصاحب الدولة. لا يهمها لو طردته شركة مصر الجديدة من البيت الذي يستأجره منها.

لقد قالت له ألف مرة إن مال الدنيا لا يمكن أن يسعدها. كانت بين يديها الأموال الطائلة، والمجوهرات الثمينة عندما كانت متزوجة من عبدالسلام عباس.. ورفست كل هذا بقدمها. داسته بحذائها، لأنها كانت تفضل الكلمة الطيبة على ألف جنيه. تفضل إخلاص زوج فقير على خيانة زوج مليونير!

ويبدو أنه كان لا يفكر فيها. كان يفكر في أسرته الفقيرة التي يعولها ولم يشأ أن يتخلى عن هذه الأسرة إلا بعد أن يوفر لها حياة كريمة. لقد أحبت فيه حنانه وحبه لأبناء أخته اليتامى. كان يتحدث عنهم كأنهم قطعة من قلبه. كان يشعر بمرارة أن العيد جاء في إحدى السنوات ولم يستطع أن يشتري لهم ملابس جديدة شأن كل الأطفال في العيد. وكانت تقارن بينه وبين طليقها عبد السلام الذي كان يكره أفراد أسرته، ويهرب منهم إذا جاءه محتاج يطلب مساعدة لإجراء جراحة عاجلة في أحد المستشفيات. الرجل لا يستطيع أن يحب ويكره في وقت واحد. القلوب الكبيرة لا تحب امرأة واحدة، وإنما تحب كل الناس. لا تستطيع امرأة أن تنتزع من قلب حبيبها حبه لأمه أو حبه لأسرته. الرجال الذين يفعلون هذا ليست لهم قلوب. وهم يحبون بشهواتهم لا بقلوبهم. الرجل الذي يبيع أسرته من أجل امرأة، سوف يبيع هذه المرأة في يوم من الأيام، فإذا اشتغل القلب مرة بعملية التجارة تحول القلب إلى دكان!

إنها أحبت أسرته الفقيرة التي لم ترها. أحبتها من صوته وهو يتحدث

عنها بحنانه. أحبتها من دموعه وهي تذرف أسى لأنه عـاجز عن أن يفعل لهم ما يفعل الآباء القادرون لأولادهـم وفلذات أكبادهـم. أحبت كل الذين يحبهم، وكل الذين يحبونه. إنها لا تغار منهم، لا تلومه لأنه ينشغل بهم عنها، لأنه يفضل مواعيدهم على مواعيدها، لأنه يتكلم عن هؤلا الملايين أضعاف ما يتكلم عنها . .

وهي عندما ستتزوجه لن تكون زوجة زعيم الأمـة. ستنزوي في داره. لا تشترك في الاستقبالات الرسمية، لن تظهر في الأماكن العامة. كل مهمتها في الحياة أن تبقى بجواره، أن تكرس ما بقي من أيامها من أجله وحده. ستخدمه، ستخدم أولاد أخته، ستعنى بصحته الغالية.

إنها تكره المظاهر. تمقت المواكب. . . إن الموكب الوحيـد الذي تنتظره هو حبيبها. . حبيبها مجرداً من المناصب، والرتب، والألقاب، والمجد، والسلطان!

وتنهدت سميحة ونظرت إلى مياه النيـل التي تقبل العـوامة وهي تلمسها في رفق!

ورأت ظلال القمر وهي تنعكس عـلى مياه النهـر. فتزيـده جمالاً وبهاء . .

وتطلعت إلى القمر تسأله . .

ورأت غمامة سوداء . . تقترب من القمر ثم تغطيه!

وانقبض قلبها، وتساءلت:

هل القمر لا يريد أن يجيب فغطى وجهه بالغيوم، أم أن الغيوم تضع أصبعها على فم القمر تمنعه من الكلام؟!

■ ■ ■

إلتقى العاشقان بعد فراق دام خمسة أيام، وأكلا التفاحة بشراهة الجائعين والمحرومين. .

وقال محمد وهو يضم زبيدة إلى صدره كأنه لم يشبع منها بعد:

ـ المشكلة التي تحيرني، لم أجد لها حلاً. رأسي امتلأ بعلامات التعجب والاستفهام. ماذا قصدت نجوى المناسترلي بزيارتها لك، ماذا قصدت بأكذوبتها عن ولدي الذي في بطنها!

قالت زبيدة:

ـ إنني حائرة مثلك. توقعت أن تحضر لزيارتي لتستفسر عن صحتي بعد أن رأتني مغمى علي أمامها، ولم تفعل. كل ما فعلته أنها أرسلت لي باقة من الزهور متمنية الشفاء. وقد اتصلت بها تليفونياً صباح اليوم لأشكرها على الباقة الجميلة. فلم تذكر شيئاً حدث لي عندما قصت علي نبأ حملها منك. تكلمت بطريقة عادية جداً. وقالت إنها آسفة لأنها لم تحضر لتزورني أثناء مرضي، لأنها كانت مريضة. . . لم تذكر كلمة واحدة عن الحمل. لم تشر إليك لا من قريب ولا من بعيد، حتى خشيت أن أكون تخيلت كل ما سمعته منها!

قال محمد:

ـ لعلها قصدت هذا تماماً. قصدت أن تجعلك تتصورين أنك مجنونة. . . تتخيلين أحداثاً لم تقع. وتسمعين أصواتاً تقول لك كلاماً لم ينطق به أحد! وهذا ما يجعلني أعتقد أنها تدبر أمراً! إنني واثق أنها روت لك هذه القصة. ولنفرض أنها لم تذكر لك شيئاً منها، وأنك تخيلتها، كان المفروض أن تسألك لماذا حدث هذا الإغماء. ولكن تجنبها الحديث في هذا الموضوع دليل واضح على أنها عرفت كل ما حدث لك!

قالت زبيدة:

ـ إنني أعيش الآن في دنيا من الأحاجي والألغاز. . . تصور، حتى الآن لم أستطع أن أعرف من عوني حافظ المسألة التي تشغله، وتجعله ينقطع عن الذهاب إلى مكتبه في الوزارة. إنه لم يذهب إلى مكتبه إلا اليوم فقط! وما كاد يخرج من البيت حتى اتصلت بك ودعوتك إلى الحضور. إنني تعذبت طوال هذه الأيام الخمسة التي لم تحضر فيها. كدت أصاب بالأزمة من جديد. وكان وجود عوني المستمر في المنزل يحيرني. . كان يمضي ساعات طويلة مع الأميرالاي عليش بك سالم مدير القسم الجنائي يتكلمان همساً! ويتكرر نفس اللقاء في الصباح والمساء! واعتقدت أن الخطة التي يبحثها مع مدير القسم الجنائي هي قتل زعماء المعارضة. . . ولكنني فوجئت في أحد الأيام، وأنا أطل من النافذة، برؤية عليش بك يدخل البيت ومعه سيدة لا أعرفها. وفوجئت بعوني يجتمع بهذه السيدة على انفراد. ورأيته وهو يودعها ينحني على يدها وكأنه يقبل يدها. . وعجبت. . وساءلت نفسي عن علاقة سيدة باغتيال زعماء المعارضة. . .

ثم استطردت زبيدة تقول:

ـ وسألت عوني حافظ عن هذه الزائرة المجهولة، فتلعثم في أول الأمر، وقال لي غاضباً: هل تتجسسين علي؟ كيف عرفت أن سيدة زارتني!

قلت له:

ـ إنني رأيتها وأنا أطل من النافذة. . ورأيتك وأنت تنحني على يدها، وكاد رأسك يمس رمل الحديقة!

قال:

ـ هذه مسألة تتعلق بالسياسة العليا ولا علاقة لك بها. إنني جئت إلى البيت لكيلا يعرف أحد بمقابلاتي السرية!

وتظاهرت بالغيرة.. فأراد أن يسكتني فقال:

ـ إنها أميرة من الأسرة المالكة، لها مسألة بينها وبين جلالة الملك!

وشعرت أن عوني حافظ يكذب، فسكت ولم أقل شيئاً، وزاد فضولي أن أعرف ما هي الخطة السرية لتي تحتل كل تفكيره وتمنعه عن الذهاب إلى مكتبه..

وإذا بسنية تقول لي اليوم إنها سمعت من سائق السيارة أن السيدة المجهولة التي استقبلها زوجي في صالوني هي سيدة العمشة ملكة بيوت الدعارة السرية في مصر.. وإن السائق عرفها على الفور، لأنه كان في يوم من الأيام من زبائنها!

قال محمد في دهشة:

ـ ما الذي يجعل وزير الدولة يجتمع في بيته بملكة الدعارة السرية في مصر! لا بد أن أحد زعماء المعارضة يتردد على أحد البيوت التي تديرها، ويفكرون في ضبطه هناك... لو حدث هذا لكانت مصيبة كبرى، أكبر من كل المصائب التي نزلت على رؤوس المعارضة.. ولكن، مَن مِن زعماء المعارضة يتردد على هذه البيوت؟ إنهم كلهم يؤدون الصلاة. كلهم أزواج سعداء. العزّاب من زعماء المعارضة هم النحاس والنقراشي وأحمد ماهر.. وهؤلاء أبعد الناس عن مثل هذه المخازي..

قالت زبيدة:

ـ لقد فشلت أن أعرف ما يبيت عوني حافظ. حاولت بكل طريقة وفشلت! لم أره في حياتي كتوماً كما أراه هذه الأيام. كل ما قاله لي إنه

وضع الخطة السرية من صورتين: صورة في مكتب الملك فؤاد بقصر عابدين وصورة في مكتب عوني حافظ في مكتبه بـالدور العلوي من البيت. حاولت أن أفتح أدراج المكتب، فوجدتها مقفلة كلها.

قال محمد:

- لماذا لا تنتهزين فرصة نومه وتسرقين مفتـاح المكتب من جيبه، وتفتحين المكتب؟.

قالت زبيدة:

- إنه يضع مفاتيحه بجوار مسدسه تحت الوسادة.

ولمعت عينا محمد فجأة:

- دعيني أرى المكتب الآن.. لأرى نـوع القفـل، وأحضر في المـرة القادمة مفتاحاً يفتح الدرج المقفل...

■ ■ ■

وصحبتـه زبيدة إلى الـدور العلوي، وأدخلتـه إلى مكتب عـوني حافظ، وحاول أن يعالج أدراج المكتب، فاستعصت عليه.

وكرر المحاولة عدة مرات بغير جدوى، وخطر بباله أن يستعين بالمعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي فرج. إنه يعرف جميع لصـوص الحي، فلماذا لا يـأتي بواحـد منهم، ويفتح هـذه الأدراج المستعصية؟

ولكنه خشي على زبيدة. إنه لا يريد أن يبوح بسرها لمخلوق. فما بالك بلص من معتادي الإجرام وقد يعترف في أي وقت من الأوقات

بأنه دخل بيت وزير الدولة بواسطة زوجته، أو بواسطة خادمة فيه، وفتح الأدراج؟

وتذكر محمد المفاتيح التي تسلمها من الأستاذ محمد عبد الصمد ناظر المدرسة الأسماعيلية عندما قرر أن يقتحم بيت وزير الدولة في الليل ويسرق وثائق قضية توفيق دياب وعزيز ميرهم. كان من بينها طفاشة وإبرة طويلة لفتح الأدراج، ووضعهما يومها في جيب بنطلونه، ونسيهما في البنطلون، ولم يعدهما إلى الأستاذ عبد الصمد في اللفافة التي أعادها إليه، وكانت تحوي سلم الحبال والمفاتيح.. وبقيت الطفاشة والإبرة الطويلة في حقيبته تحت فراشه، وخجل أن يعيدهما إلى الأستاذ عبدالصمد، حتى لا يرى في عينيه نظرة التوبيخ مرة أخرى، هذه النظرة التي لا ينساها أبداً.. النظرة التي كان لها معنى واحد هو: أنت فاشل! صحيح أنه جاء بعد ذلك بمعلومات أدت إلى براءة توفيق دياب وعزيز ميرهم. ولكنه عرف أنه فشل في أن يحصل على الوثيقة المطلوبة!

وقال محمد لزبيدة:

ـ سأجيء غداً بمفتاح هذه الأدراج!

قالت زبيدة:

ـ هل أنت واثق أن هذا المفتاح يمكنه أن يفتح هذا القفل؟. إنه قفل إنجليزي من ماركة «يال»!

قال لها محمد:

ـ إن المفتاح الذي عندي يفتح خزائن البنك الأهلي.

■■■

وفي الساعة السادسة من مساء اليوم التالي كان محمد في غرفة الخادمة سنية. ورأى زبيدة وقد ارتدت قميص نوم وردياً شفافاً، بدت وكأنها التفاحة فعلاً، تفاحة مرغوبة مشتهاة. كأنها تنادي الآكلين وتدعو الجائعين..

كانت هذه هي المرة الأولى التي تجيء فيها زبيدة إلى غرفة نوم سنية بقميص النوم. وبدأت عيناه تلتهمانها في شوق وجوع..

وضمها إلى صدره، يغمرها بأشواقه وقبلاته. وبينما كان يعانقها سمع صوت خشخشة الطفاشة والإبرة الطويلة في بنطلونه، وكأنهما كانتا تتعانقان مع عناقه لزبيدة..

وأيقظه صوت خشخشة «الطفاشة» من حلمه الرائع، فدفعها في رفق وهو يقول لها:

ـ يجب أن نبدأ أولاً بمحاولة فتح الدرج المقفل..

ولم تقل زبيدة شيئاً! وأسرعت تصلح من شعرها المنكوش، وتعدل من كسرات قميصها الشفاف، ومدت يدها وتناولت روب دي شامبر، وارتدته فوق قميص النوم..

ونظر محمد في حسرة إلى التفاحة الشهية في طبقها.. ولكنه أحس أن واجبه الأول يبدأ من مكتب عوني باشا.. لا من فراش سنية!

وصعدت زبيدة على أطراف قدميها وهي تقول:

ـ حذار.. إن الخدم موجودون في البيت!

قال محمد وهو يحبس أنفاسه:

ـ أعرف ذلك.. المهم أن تنزلي بعد دخولي المكتب، وتخبري سنية

أن تصعد إلى الطابق العلوي لتراقب الجو. .

ودخل محمد على أطراف أصابع قدميه إلى غرفة المكتب، وأغلقت زبيدة عليه باب الغرفة بالمفتاح، وذهبت تدعو سنية لتكلفها بالمهمة الجديدة.

وبدأ محمد يعالج أدراج المكتب. .

وبعد قليل أمكنه أن يفتح الدرج الأول. .

ومد يده بأصابع مرتعشة يبحث في الأوراق. .

فوجد تقارير من مختلف المديريات والمحافظات عن حالة الأمن العام. . ولم يجد فيها الخطة السرية التي يبحث عنها. .

وأغلق الدرج بعد أن رتب الأوراق بنفس نظامها الأول. .

وفتح الدرج الثاني من أدراج المكتب. . ووجد مذكرات عن الحالة المالية لكل زعيم من زعماء المعارضة، وأرصدته في البنوك، والديون المستحقة عليه.

وفتح الدرج الثالث فوجد فيه مجموعة لصور فوتوغرافية لعوني باشا في ملابس التشريفة الكبرى وبعض صور له مع صدقي باشا والوزراء في مآدب وحفلات.

وفتح الدرج الرابع فوجد مجموعة من الملفات. ملف فيه تقارير عن الخديو السابق ونشاطه في الخارج وأسماءالأشخاص الذين اجتمع بهم في تنقلاته. وملف عن الحالة المالية لأعضاء البرلمان، وملف عن توزيع الصحف المؤيدة والمعارضة. . وتحت كل هذه الملفات وجد ملفاً مكتوباً عليه «بوليس الآداب»!

وأغلق محمد الدرج الأخير في خيبة أمل. لا بد أن عوني باشا مزق الخطة السرية بعد أن أخبر بها زبيدة...

وفجأة تذكر حديث زبيدة اليوم عن زيارة سيدة العمشة لوزير الدولة.

وعاد يفتح الدرج الأخير من جديد..

وأخرج دوسيه بوليس الآداب..

وما كاد يفتح الدوسيه حتى وجد ورقة مكتوباً عليها «الخطة»!

ولمعت عيناه وأسرع يلتهم بعينيه سطور الورقة المكتوبة بالخط العادي وقرأ الخطة السرية...

وكلما قرأ سطراً زادت حيرته..

وجد أن الخطة تتكون من عدة فقرات. كل فقرة منها لها رقم معين. الفقرة الأولى تقول:

«الرجل يذهب عصر كل يوم خميس إلى العوامة المواجهة للنادي الأهلي في الجزيرة. ويمكث فيها بين الساعة والساعتين.

ويجتمع مع السيدة سميحة شريف مطلقة عبد السلام بك عباس أحد أثرياء الاسكندرية، وهي سيدة سيئة السمعة كما تؤكد تقاريرنا، وتحضر أسبوعياً كل يوم خميس لمقابلة الرجل في العوامة، وأحد رجالنا استطاع أن يعمل كسفرجي ومراكبي في العوامة وهو يقدم لنا تقارير أسبوعية كاملة عن هذه المقابلات، وقد جاء في التقارير أنه يهاجم في مقابلاته جلالة الملك»!

والفقرة الثانية تقول:

«ثبت من التحريات أن هذه العوامة تدار للدعارة السرية. وتتولى إدارتها المدعـوة سيدة العمشـة، ولها ٥٣ قضيـة دعارة منـظورة أمام القضاء».

الفقرة الثالثة تقول:

«تذهب قوة برياسة الأميرالاي عليش بك سالم مدير القسم الجنائي والمنتدب مديراً لبوليس الآداب، وهو شخص موثوق به جداً، وتهاجم العوامة وتقبض على الرجل والمرأة وتنقلهما إلى نقطة بوليس الجزيرة.

وسوف يختار أفراد القوة من جنود بوليس الأقاليم حتى لا يعرفـوا شخصية الرجل.

وسوف يصحب القوة الأستاذ بدران رفيق وكيل نيابة عابدين، وهو أحد رجالنا الموثوق بهم.

وبذلك تستكمل جميع الإجراءات الرسمية لعملية الضبط».

الفقرة الرابعة تقول:

«يُدعى عدد من مصـوري الصحف ومحرريهـا ويبقـون في قسم الجزيرة حتى يصدر إليهم الأمر بتصوير الرجل والمرأة مقبوضاً عليهما».

الفقرة الخامسة تقول:

«نفضل أن تكون العملية في الخميس الأول من شهر رمضان.. ليكون أثرها بالغاً وصداها عميقاً في جماهير الشعب المتدينة والشعوب الاسلامية».

الفقرة السادسة تقول:

«ينتقل فوراً وزير الدولة من وزارة الداخلية، بعد إخطاره بالحادث

بالطريق الرسمي، ويخير الرجل بين أن يكتب إقراراً باعتزال السياسة، وبين أن تحال الفضيحة كلها إلى القضاء..

وفي حالة قبوله تصادر الأفلام من المصورين، ويمكن أن تتسرب منها بعض صور وتنشر في صحف الخارج.

وفي حالة رفضه تنشر الفضيحة بكل وسائل النشر».

وما كاد محمد ينتهي من قراءة التقرير حتى ازدادت حيرته. من هو هذا الرجل الذي يتردد على أحد بيوت الدعارة السرية، وتهتم به الدولة كل هذا الاهتمام؟..

وبدأ محمد يسترجع في رأسه جميع أسماء الزعماء المعارضين.. ولكنه لم يجد بينهم من يمكن أن تنطبق عليه هذه الأوصاف!

ورأى في الملف ورقة أخرى مكتوبة على الآلة الكاتبة.

ووجد في أعلاها كلمة «سري جداً».

«تقرير عن السيدة سميحة شريف المقيمة بشارع سان استفانو رقم ٤١ برمل الاسكندرية».

«تحرياتنا عن هذه السيدة أنها كانت متزوجة من عبد السلام عباس بك الثري المعروف. وقد انفصلت عنه بسبب سوء سمعته ومغامراته المتعددة مع الراقصات والممثلات.

وهي تبلغ من العمر ٣١ سنة. طويلة القامة. جميلة التقاطيع. ومعروفة في الحي بحسن السمعة، ولا تخرج من بيتها إلا نادراً لزيارة أقاربها وأشقائها.

وشقيقها الأكبر هو الأستاذ عبد المطلب شريف القاضي بالمحاكم

الأهلية، وأشقاؤها الآخرون هم الدكتور حامد شريف الطبيب بالمستشفى الأميري، والمهندس كامل شريف ببلدية الاسكندرية، وعبد الدايم شريف تاجر الغلال. وهي أسرة محافظة، متمسكة بالتقاليد. وبمراقبة السيدة سميحة ظهر أنها تسافر صباح كل يوم خميس إلى القاهرة وتعود في المساء.

وهي تملك عوامة أمام النادي الأهلي. لا تستقبل فيها أحداً سوى صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا.

والمعروف أنه صديق أسرتها وعندما يجيء إلى الاسكندرية في الصيف يزورها في بيتها بوجود أشقائها. وهي عموماً فوق مستوى الشبهات.

ومن تحرياتنا ظهر أن النحاس باشا كان محامياً عنها في قضيتها ضد زوجها عبد السلام عباس بك.

وتؤكد تحرياتنا الدقيقة أنها طوال حياتها حسنة السيرة والسلوك. وإن كانت ترفض قبول العديدين الذين تقدموا لخطبتها.. وليس لها نشاط سياسي».

وانتهى محمد من قراءة هذا التقرير وزاد ذهوله.. إذن الرجل المطلوب القبض عليه هو النحاس باشا زعيم الأمة!

ولكن، كيف يقول عوني باشا في الخطة التي وضعها أن التحريات أثبتت أن سميحة شريف هذه سيئة السمعة، بينما يؤكد التقرير السري أنها كانت طوال حياتها حسنة السيرة والسلوك، وأنها فوق مستوى الشبهات، ثم وجد ورقة ثالثة بإمضاء سيدة العمشة تعترف فيها أنها صاحبة عوامة الجزيرة وأن سميحة شريف تعمل لحسابها في الدعارة!

وفكر محمد أن يسرق الخطة والتقريرين ويحتفظ بهما. وأسرع ودسهما في جيبه . .

ثم عاد ووضع يده في جيبه، وأعادهما إلى مكانهما في الملف، خشية أن يكتشف عوني باشا اختفاءهما . .

وشعر أن صورة التقارير الثلاثة انطبعت في ذاكرته. كل سطر . . كل جملة . . كل كلمة . . كل حرف. وأعاد ملف «بوليس الآداب» إلى مكانه . . .

وأغلق الدرج الأخير كما كان . . ومد يده ليتأكد أن لسان القفل دخل تماماً في الفتحة المخصصة له . . واطمأن أن كل شيء تمّ على ما يرام .

■■■

وفجأة سمع باب غرفة المكتب يفتح ورأى الخادمة سنية تدخل مذعورة وتقول له : الباشا رجع فجأة. لقد نزلت الست لتعطله عن الصعود حتى تختفي . .

قال محمد وهو يتطلع إلى الغرفة يبحث فيها عن منفذ فلا يجد!

ـ أين أختفي؟ .

ودفعته سنية بسرعة إلى أحد الأبواب فوجد نفسه في الحمام .

قال لها في هلع :

ـ ماذا يحدث لو أراد الباشا أن يدخل إلى الحمام؟

قالت له بهدوء :

ـ سأغلق الباب بالمفتاح من الخارج ، وأقول له إنني أضعت المفتاح!

ولم تتركه يناقشها، بل أسرعت تغلق الباب بالمفتاح.

وتطلع محمد إلى جدران الحمام. ووجد نافذة ضيقة، لا يمكن أن تتسع ليخرج جسمه منها..

وأحس كأنه أصبح فاراً في مصيدة!

واصفر وجهه. وتجمدت أطرافه. لا بد أن يحاول عوني باشا أن يدخل الحمام. وإذا وجد باب الحمام مغلقاً فقد يجد مفتاحاً آخر لفتحه، وقد يكسر الباب.. ماذا يقول لعوني باشا إذا وجده في حمامه الخاص. سيقول له إنه جاء ليقتله!

لا، سيقول له إنه جاء ليسرق الرجل الذي سرق أُمّة!

وتخيل الصفحات الأولى من صحف الغد وفيها خبر ضبط صحفي يحاول أن يسرق بيت وزير..

وفجأة سمع أصوات وقع أقدام تدخل غرفة المكتب.. ووضع أذنه على الباب.. فوجد أنها خطوات رجل وسيدة.. واطمأن إلى أن زبيدة مع عوني باشا. إنها قادرة بدهائها على أن تبعده عن الحمام! ستدّعي أن الحمام مكسور.. ستحاول أن تأخذه إلى غرفتها، حتى تفتح له سنية الباب..

واطمأن قليلاً.. ثم سمع صوت خشخشة مفاتيح..

وسمع زبيدة تقول له في صوت تبين الجزع فيه:

ـ ماذا تريد أن تأخذ من المكتب؟

قال لها عوني حافظ:

ـ سآخذ الخطة!

قالت زبيدة في صوت حاولت جاهدة أن تخفي منه صراخ الهلع:

ـ لماذا تأخذها؟. إنها في أمان هنا..

وابتسم محمد. لقد تصورت زبيدة أنه سرق الخطة! وحمد الله أنه عدل عن سرقتها في اللحظة الأخيرة، وأعادها إلى مكانها!

وسمع محمد صوت درج المكتب، وهو يفتح، ثم يغلق من جديد، وصوت المفتاح وهو يدور في القفل ليغلق الدرج من جديد!.

ثم سمع صوت زبيدة وقد بدت فيه لهجة الاطمئنان يقول:

ـ هل وجدت الخطة؟

قال عوني باشا:

ـ طبعاً وجدتها!

قالت له بصوت ناعم فيه دلال:

ـ إذن، دعني أقرأها!

قال عوني باشا في جفاء:

ـ هل أنت مجنونة؟ قلت لك إن هذا سر من أخطر أسرار الدولة! إنني جئت لآخذها لأن جلالة الملك سوف يستقبلني الآن ليسألني عن تفاصيل هذه الخطة..

قالت زبيدة في صوت يفيض عذوبة ورقة:

ـ إذن أنت لا تثق بي!

قال عوني باشا:

ـ إنني أثق بك كل الثقة. . ولكن هذه المسألة ليست ملكي، إنها ملك جلالة الملك وحده. . وقد أقسمت برأس.جلالته ألا يعلم بها مخلوق. . كل ما أستطيع أن أقوله لك إن هذه الخطة ستطير بالنحاس من رئاسة الوفد. . وستطير باسماعيل صدقي من رئاسة الوزارة!

ودهش محمد من هذا الرأي الغريب الذي يقوله وزير الدولة. . إنه يفهم أن يؤدي نجاح هذه الخطة الجهنمية إلى إخراج النحاس من رئاسة الوفد. . فكيف تخرج إسماعيل صدقي من رئاسة الوزارة؟

ولم يلبث محمد أن سمع الأقدام تتحرك من جديد وتتجه إلى باب غرفة المكتب وسمع زبيدة تقول لعوني حافظ:

ـ ألا تريد أن تدخل إلى الحمام؟

وكاد محمد يسقط مغشياً عليه. لا بد أن سنية لم تستطع أن تخبر سيدتها أنها أخفته في الحمام. .

ثم تنفس محمد الصعداء وهو يسمع عوني باشا يقول:

ـ لا وقت عندي للدخول إلى الحمام! إن جلالة الملك أمر أن أذهب إليه فوراً في قصر القبة. . وطلب أن أحضر بالملابس العادية!

ودوت فجأة طلقات المدافع. .

وقال عوني باشا:

ـ ثبت هلال رمضان. . كل عام وأنت بخير!

■ ■ ■

ولم يفهم محمد من طلقات المدافع إلا أن ساعة الصفر قد تم

تحـديدهـا. اليوم الأحـد.. وبعد أربعـة أيام سيتم تنفيـذ المؤامرة، طبقاً للخطة التي رسمها عوني باشا حـافظ. يجب أن يعمل بسرعـة لإحبـاط هذه المؤامـرة الكـبرى للقضـاء عـلى شرف رجـل بـريء، وسمعة امرأة شريفة.

وقبل أن يصل محمد إلى رأي قاطـع فيما يجب أن يفعله عـلى الفور، سمع مفتاح الحمام يدور في ثقب البـاب، ورأى زبيدة تـدخل عليـه ضاحكة، وهي تقول:

ـ لماذا لم تنتهز الفرصة وتأخذ دوشاً؟..

قال لها محمد وهو يعانقها:

ـ ما أبرد أعصابك! كيف جاءتك هذه الجرأة لتقترحي على عوني حافظ أن يدخل الحمام؟.. ألم تكوني تعرفين أنني مختبىء في الحمام؟.

قالت زبيدة وهي تخرج لسانها:

ـ كنت أعرف طول الوقت إنك مختبىء في الحمام! فهمت ذلك من إشارة سنية، وعندما لاحظت أنه في لهفة للخروج من البيت ليذهب إلى موعد الملك اقترحت عليه أن يدخل الحمام، وأنا واثقة أنه لن يدخل، ولكنني قصدت أن أحدث فيك بعض الفزع.. إنتقاماً منـك لأنك أصررت على أن تتركني فوق الفراش، وتصعد لتفتح درج المكتب!

وقال وهو يقبلها في شعرها الأسود المتماوج:

ـ إنك أفزعتني حقاً! ولكن تصوري ماذا كان يحدث لو تـأخرت قليلاً، وجاء عوني حافظ وأخذ الخطة السرية قبل أن أطلع عليها؟.

قالت في فرح:

ـ هل اطلعت على الخطة؟ لقد تصورت أنك فوجئت به قبل أن تعثر عليها.

قال:

ـ نعم. . وقد لاحظت محاولاتك العديدة لتعرفي منه سر الخطة. .

قالت:

ـ وما هي هذه الخطة التي يكتمها كل هذا التكتم؟

قال محمد:

ـ إن زوجك لا يجدد أبداً! يبدو أن كل مجرم يعمل بطريقة واحدة، وله طابع خاص به. لفق بالأمس قضية توفيق دياب وعزيز ميرهم وفشل. . واليوم يقوم بعملية تلفيق أكبر وأضخم. إنها مؤامرة للقضاء على سمعة النحاس! مؤامرة حقيرة حقارته، وضيعة وضاعته، سافلة سفالته! لم أكن أتصور في يوم من الأيام أن السياسة وصلت إلى هذه القذارة! كنت أتصور أنها صناعة شريفة، أسلحتها شريفة، ورجالها شرفاء! ولم أتصور أبداً أن ينزل الوزراء والحكام إلى مثل هذا الحضيض!

وعادت به زبيدة من جديد إلى غرفة نوم سنية. ولكنه لم يرَ الفراش في تلك اللحظة. لم يرَ التفاحة تنتظره فوق الطبق، ولم ير زبيدة وهي تخلع الروب دي شامبر، وتكشف عن قميص نومها المثير من جديد. .

كان رأسه مشغولاً بشيء واحد هو خطة المؤامرة. . وما يجب أن يفعله فوراً. .

وتركها على عجل، ونسي أن يقبلها، ونسي أن يروى لها ما قرأ في

الخطة السرية، ومضى يمشي في شوارع شبرا على غير هدى . .

هل يذهب إلى إدارة «الجهاد» ويروي ما عرفه لرئيسه الدكتور عزمي؟ لا . . إن عزمي ليس وفدياً، ولن يهتم بسمعة الوفد ورئيسه. ولن يترك كل ما في يديه ليتفرغ إلى هذه المسألة الخطيرة. ثم إنه لا يريد أن يعرف أحد من غير الوفديين بمسألة علاقة نسائية لزعيم الوفد. وفكر في أن يذهب إلى مكرم عبيد سكرتير الوفد في داره. وتذكر لقاءه الأخير بمكرم، وانتصاره لدرويش باشا حبيب، ومجاملته له على حساب الحقيقة. إنه يريد رجلاً يواجه النحاس بالحقيقة كلها، ويمنعه من أن يذهب إلى موعد يوم الخميس!

وخطر بباله الدكتور أحمد ماهر. إنه يعرفه جيداً. كلفه في يوم من الأيام بمهمة خطيرة في اقتحام بيت عوني باشا وزير الدولة. هو وحده الذي يعلم أنه حاول اغتيال عوني باشا، هو وحده الذي أحس أنه يفتح له قلبه بغير كلفة لاختلاف المراكز، وتباين أقدار الرجال!

■ ■ ■

وركب عربة تاكسي، واتجه إلى بيت أحمد ماهر في شارع الملك بحدائق القبة. سأل عنه البواب فقال إنه خرج . .

وسأل متى يعود؟

فقال البواب إنه لا يعرف.

وجلس على درجة خشبية أمام بيت الدكتور ماهر ينتظره!

ومضت الساعات ولم يجيء أحمد ماهر . .

وأشفق البواب على محمد من برد الشتاء القارس، وطول الانتظار،

فدخل إلى البيت، ثم عاد إليه يقول أن السفرجي أخبره أن الدكتور ماهر اتصل به تليفونياً وقال له إنه مسافر إلى الاسكندرية ولن يعود إلا مساء الأربعاء. . .

وأسقط في يد محمد. . سيمضي يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء بغير أن يرى الدكتور ماهر. .

وسأل محمد البواب عن عنوان الدكتور ماهر في الاسكندرية . .

وقال البواب إنه لا يعرف ودخل وسأل السفرجي، وعاد يقول إن الدكتور اعتاد أن يقيم في فندق متروبول. .

وغادر محمد بيت الدكتور ماهر واستقل عربة تاكسي إلى محطة مصر . وسأل عن موعد سفر قطار الاسكندرية .

فعلم أن آخر قطار تحرك من نصف ساعة!

وأن القطار التالي سيتحرك في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي!

وعاد إلى بيته في جزيرة بدران مرهقاً تعباً. ولم يستطع أن ينام . وقبل الفجر كان قد أعد لفافة وضع فيها جلابية النوم والشبشب، وخرج إلى محطة مصر واستقل قطار الساعة الرابعة . .

ووصل إلى محطة الإسكندرية واتجه على الفور إلى فندق متروبول . . كانت الساعة الثامنة صباحاً، وسأل بواب الفندق عنه، فقال إنه خرج! متى يعود؟ البواب لا يعرف لأن الدكتور ماهر ليست له مواعيد ثابتة!

جلس ينتظره في بهو الفندق أحس بالجوع . تذكر أنه لم يتناول عشاءه ولا إفطاره. وضع يده في جيبه فوجد فيها سبعة قروش. .

سأل عن ثمن طعام الإفطار في الفندق فقال له خادم المطعم إنه

عشرون قرشاً بخلاف البقشيش..

خرج إلى الشارع، واشترى سميطة وقطعة من الجبن بنصف قرش، وعاد إلى الفندق من جديد..

وحلّ موعد الغداء، وأحس بالجوع سميطة لم تعد تكفيه للغداء.

واكتشف أن ميزانيته اضطربت دون أن يدري..

كان كل ما معه قبل السفر ٨٠ قرشاً. دفع منها ٧٠ قرشاً ثمن تذكرة السفر ذهاباً وإياباً وبقي معه ١٠ قروش.. تصور أنه سيجد مكاناً يبيت فيه بخمسة قروش.. وينفق الخمسة القروش الباقية على طعامه.. ونسي واشترى صحف الصباح الأربعة بقرشين. واشترى مجلة «روز اليوسف» بقرش صاغ. وتضاءل المبلغ فجأة إلى سبعة قروش.. والآن تضاءل مرة أخرى إلى ستة قروش ونصف بعد أن دفع ثمن السميطة وقطعة الجبن!

لو لم يستطع مقابلة الدكتور ماهر اليوم فسوف يضطر إلى أن يبيت في العراء.. في برد اسكندرية اللعين!

ولم يهتم بالبرد.. كل ما كان يهمه أن يفسد المؤامرة الوضيعة ضد زعيم الأمة! والتهم طبقاً من الفول المدمس ورغيفاً ودفع قرش صاغ!

وعاد إلى الفندق وسأل عن الدكتور ماهر..

فقال له بواب الفندق إنه عاد وأبدل ملابسه وخرج مرة أخرى!

وفشل محمد أن يعثر على أحمد ماهر. أمضى ليلة الاثنين والثلاثاء يبحث عنه في كل مكان.. وكلما سأل عنه في مكان قيل له إنه كان هنا وخرج!

وفي صباح يوم الأربعاء كان محمد أشبه بالمتشردين. مضى عليه يومان كاملان بغير أن يغمض عينيه. مضى عليه يوم كامل بغير أن يذوق كسرة خبز! وذهب إلى فندق المتروبول للمرة الأخيرة قرر أن يعود من الاسكندرية إلى القاهرة خصيصاً ليأكل! وفوجىء بأن الدكتور موجود في الفندق. وأرسل إليه اسمه، فدعاه إلى الصعود فوراً إلى غرفته.

ـ ماذا جرى يا محمد.. هل كنت في السجن؟

وابتسم محمد وقال:

ـ لا.. كنت في شوارع الاسكندرية أبحث عنك طوال يومين كاملين.. وروى محمد المعلومات التي لديه كاملة.. وحرص على أن يحتفظ بمصدر المعلومات. ولم يلح الدكتور ماهر عليه في أن يخبره بمصدر هذه الأنباء الخطيرة، واهتم بها اهتماماً كبيراً..

وطلب من محمد أن يروي له كل التفاصيل بكل دقة..

وقال محمد:

ـ إن الشيء الذي أدهشني أنني علمت أن عوني حافظ باشا الذي وضع هذه الخطة يقول: «إن هذه الخطة ستطيّر النحاس من رئاسة الوفد.. وستطيّر إسماعيل صدقي من رئاسة الوزارة».. لقد فهمت أن يؤدي نجاح هذه المؤامرة إلى إخراج النحاس من رئاسة الوفد.. ولكني لم أفهم أن تؤدي إلى إخراج إسماعيل صدقي من رئاسة الوزارة؟!

وضحك الدكتور ماهر وقال:

ـ لو كنت أكبر سناً لعرفت أن هذا صحيح.. في سنة ١٩١٥ عندما

كان عمرك خمس سنوات تقريباً، حدثت حادثة مماثلة هاجم بـوليس الآداب عوامة في الجزيرة.. في نفس الشارع الذي توجد فيه عوامة سميحة شريف الآن.. وضبط البوليس إسماعيل صدقي باشا وزير الأوقاف في ذلك الوقت مع سيدة متزوجة هي ابنة أحد زملائه الوزراء في نفس الوزارة.. وانتحـرت ابنة الوزير في اليوم التالي.. وجرى السلطان حسين سلطان مصر في تلك الأيام وراء صدقي باشا وحاول أن يضربه بالشلوت، وأرغمه على الاستقالـة من الوزارة.. والـذي وضع هذه الخطة الجهنمية رجل خبيث جداً، لأنه إذا خرج النحاس من رئاسة الوفد لأنه ضبط مع امرأة مطلقة في عوامة بالجزيرة.. فكيف يصح أن يكون إسماعيل صدقي رئيساً لوزارة مصر، وقد ضبط هو أيضاً مع سيدة متزوجة في عوامة بالجزيرة أيضاً؟.. وهكذا يضـرب عصفورين بحجر واحد.. يتخلص من زعيم المعارضـة ومن رئيس الوزراء في وقت واحد.. ولهذا فأنا لا أتصور أن هذه الخطة الجهنميـة من وضع عوني باشا حافظ وحده.. إنني أرى بصمات أصابع الملك فؤاد في هذه الخطة!

وهذا خبر خطير لأنه يدل على مدى ما وصلت إليه العلاقات بين الملك ورئيس وزرائـه.. وإنه بـاقٍ في الحكم بـأمـر الإنجليز، لا بإرادة الملك..

وشكر الدكتور ماهر محمداً على هذه المعلومات القيّمة وقال له:

ـ إن الوفد لا يمكن أن ينسى لك هذا الجميل..

وشكره محمد وقال إنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنه أدى واجبه..

وصافحه الدكتور ماهر، وأوصله إلى باب الغرفة وأغلق الباب..

ومشى محمد نحو المصعد، ثم عاد أدراجه وطرق باب الدكتور ماهر من جديد، وقال له محمد في خجل:

ـ هل يمكنك أن تقرضني قرش صاغ؟

وفتح الدكتور محفظته وأخرج منها عشرة جنيهات وقدمها لمحمد. .

ورفض محمد أن يمسكها بيده وقال:

ـ إن كل ما أريده هو قرش صاغ، لأشتري طبق فول مدمس ورغيفاً. . فقد مضى علي ٢٤ ساعة دون أن أذوق الطعام!

قال الدكتور ماهر:

ـ إن ما فعلته لبلدك يا محمد يساوي مئات الألوف من الجنيهات. إنني واثق أن الملك كان على استعداد أن يدفع مليون جنيه حتى لا تصل إلينا أنباء هذه المؤامرة. . خذ العشرة الجنيهات!

وأصر محمد على ألا يأخذ سوى قرش صاغ!

قال له الدكتور ماهر:

ـ إنك دفعت أجر السفر من القاهرة إلى الاسكندرية من جيبك. . فدعني على الأقل أرد لك ثمن التذكرة. . خذ هذين الجنيهين ثمن التذكرة.

قال محمد:

ـ إنني لم أدفع إلا أجر تذكرة في الدرجة الثالثة. . وهي سبعون قرشاً ذهاباً وإياباً!

لا أريد إلا قرش صاغ واحداً ثمن طبق الفول المدمس والرغيف. .

أرجوك ألا تحرمني من لذة التضحية في سبيل بلادي . .

امتلأت عينا الدكتور ماهر بالدموع، وأعطاه القرش الذي يطلبه، وصحبه إلى باب المصعد، ثم نزل معه وودعه حتى باب الفندق الخارجي.

وعاد الدكتور ماهر إلى غرفته، وجلس على مقعد، ودموع غزيرة. . صامتة. . تتساقط من عينيه!

■■■

لم يصدق الأستاذ محمود فهمي النقراشي عضو الوفد أذنيه، زعيم الأمة يحب؟! هذا غير معقول! هذا كذب وتضليل وافتراء!

كان النقراشي ينظر يومئذ إلى النحاس كإله صغير، خليفة سعد زعيم الشعب. الآلهة لا يعشقون ولا يحبون! هذه صفات البشر العاديين. قلوبهم المليئة بحب الوطن ليس فيها أمكنة خالية للعشق والغرام!

زعيم الأمة هو شيء مقدس، مثل بابا روما. . يبارك الحب ولا يحب، يدعو لكل المحبين بالهداية والزواج، ولا يمارس خطايا البشر!

لا يمكن أن يكون هذا النبأ صحيحاً. لو كان صحيحاً لعرف به. إن مهمته في الوفد أن يعرف كل شيء، ما يجري فوق الأرض وما يدور تحت الأرض. صحيح أنه متفرغ لتعقب خطوات خصوم الوفد، وتتبع أخبارهم، وكشف مؤامراتهم، ولكن من بين مهامه أن يحافظ على حياة الزعيم، أن يعرف كل مكان يذهب إليه، ويعد الأنصار المخلصين الذين يحمون الزعيم من كل اعتداء أو عدوان. .

فهل من المعقول أن يحب الزعيم سيدة منذ ثلاث سنوات ويقابلها دون أن يعرف؟ وسيدة من الإسكندرية مدينته التي يتصور أنه يعرف كل ما يجري في كل شارع فيها وحارة وزقاق؟

وهو يعتقد أن النحاس لا يخفي عنه ولا عن ماهر ولا عن مكرم كل أسراره وخباياه.

حتى أنه كان يطلق عليهم اسم «الثالوث المقدس». . ولو كان خفق قلب الزعيم بحب امرأة لصارح بهذا الحب الثالوث المقدس. . وهو رجل صريح. كل ما في قلبه على أطراف لسانه. يكره الأسرار، ويمقت الكتمان. . وكثيراً ما لامه أصدقاؤه على أنه يقول أحياناً ما لا يجب أن يقال!

وأكد له الدكتور ماهر أنه واثق من معلوماته. ولقد أخفى ماهر عنه أن محمد عبد الكريم المحرر «بالجهاد» هو مصدر المعلومات الخطيرة، على الرغم من أن النقراشي كان توأمه الروحي. .

لقد طلب محمد منه أن يكتم أنه مصدر المعلومات حماية للمصدر الذي استقى منه هذه الأنباء السرية. وحتى لا يغضب رئيسه الدكتور عزمي لأنه تخطاه، ويحقد عليه حسين توفيق مدير التحرير لأنه لم يخبره بهذا السر الخطير، ويعتب عليه الأستاذ مكرم لأنه لم يخصه بأسرار المؤامرة بصفته سكرتير الوفد والمشرف على صحافة الوفد. .

واحترم ماهر وعده لمحمد. فهو يعلم أن الصحفي الذي يبوح بمصدر أخباره، يخل بشرف المهنة، ويفقد اعتباره الصحفي بين الصحفيين. .

وكان النقراشي بطبيعة عمله القديم في جهاز ثورة سنة ١٩١٩

السري، حذراً. لا يصدق الخبر قبل أن يتحراه، ويدقق فيه، ويقتله بحثاً ودراسة، ويفعل هذا كله بتؤدة وببرودة أعصاب تثير أعصاب المتعجلين. . .

■ ■ ■

وطلب النقراشي من ماهر أن يمهله حتى يتأكد من أن هذه المعلومات حقيقية.

وقال ماهر: لم يعد أمامنا وقت. إن ساعة الصفر المحددة لتنفيذ المؤامرة هي الساعة الرابعة بعد الظهر. . والساعة الآن العاشرة صباحاً. . ولم يبق أمامنا إلا ست ساعات لنتحرك ونفسد المؤامرة.

قال النقراشي: أعطني ساعتين فقط. .

وبعد ساعتين عاد النقراشي إلى الدكتور ماهر، وأخبره أنه تأكد أن النحاس يقابل هذه السيدة فعلاً. وأنها سيدة فاضلة. وأسرتها محافظة جداً من أكبر أسر الاسكندرية. وأنه علم أن أمراً سرياً صدر فجأة بانتداب قوة من بوليس الأقاليم للعمل في بوليس الآداب، وأن عوني حافظ وزير الدولة قابل الملك فؤاد سراً في يوم الأحد في قصر القبة ثم علم أن الملك فؤاد قال لعشيقته اليهودية روز موصيري إنه سيتم التخلص من النحاس زعيم المعارضة خلال بضعة أيام، وسيتم التخلص من إسماعيل صدقي رئيس الوزراء خلال بضعة أسابيع. وقال بالفرنسية إنه سيصيبهما بطلقة واحدة!

ونظر الدكتور ماهر إلى ساعته وقال:

- لم تبق سوى ثلاث ساعات تقريباً على خروج النحاس من بيته للذهاب إلى العوامة. يجب أن نتحرك فوراً. .

قال النقراشي: ماذا نعمل!

قال ماهر: نذهب إلى النحاس ونمنعه من الذهاب إلى هذا الموعد ونبلغه قصة المؤامرة بتفاصيلها.

قال النقراشي: إن النحاس عنيد، وسوف يصر على الذهاب.

قال ماهر: إذا رفض.. منعناه من الخروج من بيته بالقوة!

قال النقراشي: كيف نمنعه بالقوة؟

قال ماهر: سآخذ مسدسي معي!

وصعد الدكتور ماهر إلى الطابق العلوي، وأخرج مسدسه، ووضعه في جيبه. ثم استقل مع النقراشي سيارته الفورد السوداء واتجها إلى بيت النحاس في مصر الجديدة.

ووجدا النحاس جالساً وحده يتناول طعام الغداء!

واستقبلهما مرحباً، ودعاهما لأن يشاركاه طعامه البسيط المؤلف من نصف فرخة..

قال النقراشي:

ـ لا وقت عندنا للغداء.. إننا جئنا لنتكلم معك في مسألة هامة!

قال النحاس:

ـ نأكل أولاً، ثم نتكلم بعد انتهاء الطعام.

قال ماهر:

ـ إن المسألة أخطر من أن ننتظر حتى تنتهي من الطعام.

وبدت الدهشة على وجه النحاس وصحبهما إلى غرفة المكتب المجاورة لغرفة الطعام، وأغلق الباب. . ثم التفت إليهما، وقال:

ـ خير إن شاء‌الله!

قال الدكتور ماهر:

ـ إن الحكومة علمت أن بينك وبين السيدة سميحة شريف علاقة حب، وأنك ستلتقي بها الساعة الرابعة اليوم في عوامتها أمام النادي الأهلي. .

قال النحاس بغير اهتمام:

ـ لا يهمني أن تعلم الحكومة أو لا تعلم!

وروى الدكتور ماهر للزعيم المعلومات المؤكدة عن المؤامرة التي حصل عليها، وأكدتها تحريات النقراشي. . ثم قال في صوت حازم:

ـ إن من رأي النقراشي ورأيي ألا تذهب إلى موعد اليوم!

قال النحاس غاضباً:

ـ بل سأذهب إلى الموعد.

قال النقراشي:

ـ إن المصلحة هي في إحباط المؤامرة والقضاء عليها في مهدها.

قال النحاس بحماس:

ـ إن علاقتي بهذه السيدة تشرفني ولا تخجلني. . ولا يهمني أن تعرف الدنيا كلها أنني أحبها.

قال ماهر بهدوء:

- نحن على ثقة أنها سيدة فاضلة. ولكن الحكومة تريد أن تلفق عليك تهمة كاذبة حقيرة. وهي تريد أن تسيء إلى سمعتك بأي ثمن. فإذا ذهبت اليوم إلى هذا الموعد، وتمت عملية ضبط العوامة، فإن هذا الحادث سوف يسيء إليك، ويسيء إلينا ويسيء إلى كفاح الشعب كله.

قال النقراشي:

- إن الشعب كله معك.. ولكن هذا الحادث سوف يسيء إلى سمعتك بين جزء من الشعب. إن زعيم الشعب هو سمعة قبل كل شيء!

قال النحاس وهو يضرب بقبضته على المائدة التي أمامه ويصيح بحنق:

- ماذا يهمني كلام الناس ما دمت أؤمن بأنه كاذب؟ إذا لم يؤمن الشعب بطهارتي بعد كل تضحياتي من أجله فلا يهمني ما يقوله الناس!

قال النقراشي:

- لا تنس أنك زعيم هذه الأمة.. واجبك أن تهتم بكل كلمة يقولها كل فرد من هذا الشعب الذي يؤمن بك. وأنا على ثقة بأن الشعب سوف يتبين بعد فترة أن هذه القضية ملفقة. سيقبل دفاعك، ويرفض اتهام خصومك. ولكن الملك فؤاد سوف ينقلنا بهذه القضية من مركز الهجوم على العهد، إلى مركز الدفاع عن أنفسنا.. وهذا مكسب له وخسارة لنا!

قال النحاس بازدراء:

- لست بالرجل الذي يخضع للتهديد. لقد سبق للملك فؤاد أن لفق

لي قضية وثائق سيف الدين. وأقالني لهـذا السبب من الوزراة عـام ١٩٢٨، ليـوهم الشعب بأنني لص ونصـاب.. وأحـالني إلى مجلس تـأديب.. وحكم مجلس التـأديب ببـراءتي، بحكم أعتبـره مـن مفاخري.. وعرف الشعب أن حذائي أشرف من رؤوس خصومي جميعاً. إن معنى عدم ذهابي إلى موعد اليوم أنني أعترف بالتهمة الباطلة التي وجهت إلي، وإلى المرأة التي أحبها. وسيعـرفون عنـدما يجيئـون اليوم للقبض علينا أننا لا نرتكب إثماً ولا خطيئة ولا معصية..

قال الدكتور ماهر وهو يقترب منه محاولاً تهدئة ثائرته:

ـ إن الذين دبروا هذه المؤامرة يعرفون جيداً أنك لا ترتكب إثماً ولا خطيئة ولا معصية. سفرجي العوامة هو أحد رجال البوليس السري، وهو يقدم تقريراً كاملاً عما يدور في كل لقاء. تقاريرهم كلها تؤكد أن علاقتك بها بريئة. ولكنهم يريدون أن يلفقوا قضية ضدك.. ضدنا جميعاً.. ضد الشعب كله.. وليس من المصلحة أن نضع في يدهم السكين الذي يطعنوننا به!

قال النحاس وهو يتنهد مصعداً زفرة طويلة عميقة:

ـ أنا لا أخاف أن يطعنوني بسكين. لقد حاولوا أن يقتلوني بحربة أحد الجنود عند زيارتي المنصورة. لولا أن صديقي سينوت حنا بك أسرع يقف بين الحربة وبيني.. وجرح يومها جرحاً بليغاً. وعرفت أنني كنت المقصود بالطعنة، ولم أخف.. واستمرت زياراتي لـلأقاليم.. الذي لم يخف من حراب الدولة كلها لا يرهب سكيناً قذرة كهذه!. يجب أن أذهب إلى الموعد، وأتركهم يقبضون علي وعلى سميحة!

قال النقراشي:

ـإن من حقك أن تضحي بسمعتك لو كنت شخصاً عادياً. ولكنك زعيم هذه الأمة. وسمعتك هي سمعة الأمة كلها . .

ووقف النحاس، وأخذ يتمشى في الحجرة، ثم توقف وحدّق فيهما وقال:

ـ ما دمت مؤمناً بأن سمعتي طاهرة، فلا أخاف من الشبهات. الذين يخافون من الشبهات هم المشبوهون!

قال ماهر:

ـ معك حق. من حقك أن تضحي بسمعتك، ولكن هل من حقك أن تضحي بسمعة هذه السيدة البريئة التي لا ذنب لها إلا أنها أحبتك؟ . . صحيح أن السكين لن تقتلك. ولكنها سوف تجرح سيدة فاضلة والمرأة المجروحة هي امرأة مذبوحة!

ولاذ النحاس بالصمت برهة، ثم توقف عن المشي في الغرفة، وجلس بجوار الدكتور ماهر وقال له:

ـ ما دامت أحبتني، فواجبها أن تحتمل كل ما أحتمل. إنني واثق أنها مستعدة لأن تضحي بكل شيء من أجلي . .

قال النقراشي:

ـ ولكنني أعرف أسرتها في الأسكندرية، وأعرف أنها أسرة محافظة متمسكة بالتقاليد، وحتى لو عرفت الأسرة أن السيدة بريئة، وتأكدت أن حبها شريف مثل اسمها، فإن رشاشاً سوف يصيب هذه الأسرة.

ووقف النحاس على قدميه من جديد، وتمشى في الحجرة صامتاً، وقد ظهر عليه القلق والتوتر العصبي . . وكان يتأمل الصور المعلقة،

ويتجه إلى النافذة وينظر إلى حشائش الحديقة التي بللها المطر، كأن السماء أحست بما في قلبه فبكت من أجله.

ثم تحول عن النافذة غاضباً وقال:

ـ كل هذا لم يمنعني من الذهاب إلى موعدي، لقد تعودت على الطين يلقى علي من كل مكان، ولم يصب هذا الطين دائماً سوى قدمي!

قال النقراشي:

ـ نعم، قد لا يصيب الطين إلا قدميك، ولكنه سوف يصيب رأس المرأة التي تحبها.. لأن الناس يعرفونك ولا يعرفونها. الذين لا يؤمنون بك، وهم الأقلية، سيقولون إنها علاقة آثمة.. والذين يؤمنون بك، وهم الأغلبية، سيقولون إن الحكومة سلطت هذه السيدة عليك لتلوث شرفك!

قال ماهر:

ـ الشعوب، عندما تحب رجلا إلى درجة العبادة، تضعه فوق مستوى الشبهات. فإذ انسب إليه خطأ أسرع الشعب يعلقه على أقرب الناس إليه. سيبرئك الشعب ويدينها. وأنا أشعر أنك تحب هذه السيدة لدرجة أنك تفضل أن يتهمك أنت الشعب، ويبرئها هي!

قال النحاس:

ـ ولهذا سوف أذهب.. وليكن ما يكون!

قال ماهر:

ـ إنك لن تذهب!

ـ قال النحاس في عناد:

ـ بل، سأذهب . . ولن تستطيع أي قوة أن تمنعني من الذهاب.

قال ماهر:

ـ ولكن الوفد يستطيع أن يمنعك من الذهاب . . إنني أستطيع الآن أن أتصل بكل أعضاء الوفد تليفونياً وأحصل منهم على تفويض يمنعك من الذهاب إلى هذا الموعد الذي سيكلف الوفد سمعته.

قال النحاس متحدياً:

ـ إتصل بهم كما تشاء! إن هذه حياتي الخاصة ولا أقبل أن يتدخل فيها الوفد!

قال النقراشي:

ـ منذ أن أصبحت رئيساً للوفد لم يعد من حقك أن تكون لك حياة خاصة . . حياتك العامة والخاصة أصبحت ملكاً للملايين. كل واحد منا نحن أعضاء الوفد ممكن أن تكون له حياة خاصة إلا أنت وحدك! زعيم الأمة بقبوله هذا التكليف وهب حياته كلها للأمة. دفع حريته ثمناً لهذه الثقة. دفع سعادته. دفع حياته الخاصة، وليس في إمكانه أن يسترد ما دفع. إنك أشبه بالراهب الذي التحق بالكنيسة . . وتركت على بابها الخارجي كل صلاتك بالناس، بعد أن بدأت صلتك بالله.

قال النحاس:

ـ ولكني لست إلهاً . . ولست راهباً . . أنا بشر . . ومن حقي أن أحب كما يحب كل الناس.

قال ماهر:

ـ نعم من حقك أن تحب. ولكن عندما يصطدم هذا الحب بمصلحة الشعب، تتوقف رغبات القلب. . بل يجب أن تدوس على هذا القلب!

قال النحاس والدموع تملأ عينيه:

ـ ولكنني لا أستطيع أن أدوس على قلبي!

قال ماهر:

ـ إنني أفهم مشاعرك تماما. . أنا أيضاً أحب كما تحب. . وسأتزوج السيدة التي أحبها. . ولكنني لست رئيس الوفد. .

قال النحاس:

ـ أنا مستعد لأن أترك رياسة الوفد، وأبقى عضواً عادياً فيه. .

قال النقراشي:

ـ ولا هذا! ليس من حق رئيس الوفد أن يستقيل. . من حق أعضائه فقط أن يعزلوه!

قال النحاس:

ـ إذن أعزلوني!

قال أحمد ماهر:

ـ لا نستطيع أن نعزلك. . لأنك تقود الآن معركة طاحنة ضد الاحتلال البريطاني، وضد عدو لا يعرف الرحمة ولا الإنسانية. . وإذا تخليت الآن عن مكانك في قيادة المعركة فستخذل هذا الشعب الذي وثق بك، وقدم ألوف الضحايا والشهداء من أجلك. وسوف يقول الشعب يومها: تركنا قائدنا ونحن نموت، من أجل امرأة يحبها!

قال النحاس:

ـ أنا لا يمكن أن أتخلى عن المرأة التي أحببتها وأحبتني ثلاث سنوات.. من أجل مؤامرة قذرة!

قال ماهر:

ـ نحن لا نطلب منك أن تتخلى عن حبك.. ولا نطلب منك أن تتوقف عن لقائها.. كل ما نرجوه منك ألا تذهب اليوم فقط إلى هذا الموعد.. لأن مؤامرة أعدت بإحكام لاغتيالك أدبياً. قد لا تقتلك هذه الرصاصة، قد تجرحك فقط.. وقد ترتد إلى صدور مطلقيها.. ولكن صوت الرصاصة نفسه سوف يضر بكفاحنا في هذه اللحظة التي يجب أن نتجه فيها بكل قوانا للتخلص من الاحتلال والطغيان.

قال النحاس:

ـ أنا لم أكن في يوم من الأيام جباناً. ولن أقبل أن أكون جباناً.

قال النقراشي:

ـ نحن نعرف أنك لست جباناً. نحن نعرف أن الرجل الذي لم يخش قنابل المدافع لا يرهب طلقة رصاص طائشة.. وليس الذي نطلبه منك جبناً ولا خوراً. ولكن الذي نطلبه منك أن تشترك معنا في إفساد مؤامرة ضدنا جميعاً.. لنفرض أنك علمت أن أحداً يتربص بي في مكان ليطلق علي الرصاص، وطلبت مني ألا أذهب إلى هذا المكان في هذه الساعة بالذات، وقبلت نصيحتك.. لو فعلت ذلك، فهل أكون جباناً؟.. الشجاعة ليست أن نموت وإنما أن نحارب حتى الموت.. كل ما نرجوه منك أن تتعاون معنا على منع ارتكاب جريمة قبل حدوثها.. جريمة غدر في الظلام.. لا معركة شرف في النور!

قال النحاس:

ـ إنني ارتبطت معها بموعد. يجب أن أحافظ على موعدي مهما حدث. إنني لن أتركها تنتظر هذه المرة. لقد تركتها كثيراً تنتظر لأسباب وطنية.. لأنني كنت مشغولاً في معركة من أجل بلدي.. لا لأنني خفت أن يراني أحد معها!

قال النقراشي:

ـ ممكن أن تعتذر بالتليفون.

قال النحاس:

ـ ليس في العوامة تليفون.

قال ماهر:

ـ أنا مستعد لأن أذهب والنقراشي ونعتذر لها باسمك.

قال النحاس:

ـ أنا لا أسمح لكما بالذهاب. سأذهب أنا.. كيف أتركها وحدها وقد علمت أنهم سيهاجمون العوامة؟.. إنني لن أتخلى عنها في ساعة الخطر.. أفضل أن يقبضوا علينا معاً.. على أن يقبضوا عليها وحدها.. لا بد أن أذهب الآن.

وتهيأ النحاس للوقوف..

ووقف الدكتور ماهر على قدميه، وأخرج مسدسه وهو يقول:

ـ إنني أمنعك بالقوة من الذهاب.. إنني أفضل أن أقتلك بيدي على أن أترك خصومنا يلوثونك بالطين..

قال النحاس:

ـ هل جننت يا أحمد. . تقتلني أنا؟

قال ماهر والدموع في عينيه:

ـ نعم سأقتلك. . وبعد ذلك سأقتل نفسي!

■ ■ ■

ذهب محمد إلى طريق الجزيرة، وتعمد أن يسير في شارع النيل، أمام عوامة سميحة شريف. الساعة الآن الثالثة بعد الظهر. المؤامرة ستنفذ بعد ساعة واحدة. ولكن النحاس لن يجيء. إنه واثق أنه لن يجيء. ولقد جاء محمد ليتفرج على وجوه المتآمرين عندما تطيش سهامهم. سيرى الخيبة في وجوههم، سيشهد الهزيمة في عيونهم. .

وتطلع إلى العوامة التي اهتمت بها الدولة كل هذا الاهتمام. وأحاطتها بجو من الغموض والإبهام. ورآها عوامة صغيرة، متواضعة بين العوامات الأنيقة الضخمة التي بجوارها. . هذه عوامة الممثل زكي عكاشة، إنها تشبه قصراً في النيل، ترف وبذخ وفخامة وضخامة. وهذه عوامة منيرة المهدية سلطانة الطرب، العوامة ذات التاريخ المثير، كان مجلس الوزراء يجتمع هنا فيها أثناء الحرب العالمية الأولى عندما كان حسين رشدي باشا رئيس الوزراء العاشق الأول لسلطانة الطرب. هنا ذهبية الشيخ أبو الوفا الشرقاوي أحد كبار رجال الدين في الصعيد. في هذه العوامة جاء المعتمد البريطاني يعرض عرش مصر على محمود سليمان باشا والد محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين. وهذه العوامة البيضاء الأنيقة مكتوب عليها اسم الأميرالاي إنجرام بك أحد كبار ضباط بوليس القاهرة. هذه هي العوامة التي ضبط فيها

البوليس إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء الحالي مع ابنة أحد الورزاء، هي الحادثة التي رواها الدكتور ماهر لمحمد. .

لو أن خشب هذه العوامات تكلم لروى قصصاً مثيرة مجهولة عن تاريخ مصر السري في أوائل القرن العشرين. شهدت هذه العوامات مؤامرات سياسية واجتماعات وطنية. قصص حب وحكايات غرام. رأت ملكات وراقصات، عابدات وغانيات، ليالي بيضاء وليالي حمراء. .

وتطلع محمد إلى الأشجار المتعانقة على جانبي الطريق. كأنها قصدت بهذا العناق أن تخفي ما في الشارع من خبايا وألغاز وأسرار!

الشارع صامت. كأنه هو الآخر أقفل فمه وأقسم ألا يقول شيئاً. سيارات قليلة جداً تقطع الشارع وهي تتهادى، وكأنها تترفق بالأرض خشية أن تكون مفروشة بقلوب المحبين وتنهدات العاشقين.

لم ير محمد جنوداً في الشارع الطويل. أين ترى يختبىء الجنود الذين سينقضون على العوامة بعد ساعة؟ . . وعاد يمر من جديد أمام عوامة سميحة شريف. تمنى أن يراها. ليرى السيدة التي أحبها الزعيم، التي تآمرت قوى الدولة عليها. .ولم ير شيئاً. .كانت نوافذ العوامة مغلقة.

ومضى في طريقه إلى نقطة بوليس الجزيرة. ورأى فيه حركة غير عادية. إنه يعرف هذا القسم جيداً وهو في طريقه إلى الجبلاية لمقابلة زبيدة في كل يوم أربعاء. . كان هادئاً. ليس أمامه سيارة واحدة. اليوم توجد عشرات السيارات. واقترب من بناء النقطة ورأى عدداً من مصوري الصحف، وعدداً من المراسلين الأجانب، وعدداً من الضباط من مختلف الرتب. ثم مشى بضع خطوات فرأى في شارع جانبي سيارتي لوري، وقد احتشد فيهما عدد من الجنود كأنهم في علبة سردين!

وضحك ساخراً. هؤلاء شهود المؤامرة.. كلهم أبرياء جاءوا ليؤدوا شهادة الزور!

ومضى الوقت، والشهود واقفون في أماكنهم لا يتحركون. وضابط لا يعرفه يخرج إلى سيارة ويستقلها، ويمر أمام عوامة سميحة شريف، ويعود وعلى وجهه خيبة الأمل!

وبعد ساعتين.. رأى المصورين والمراسلين ينصرفون..

ورأى الأستاذ حجازي عبد العزيز مصور جريدة «الاتحاد» منصرفاً، فأقبل عليه محمد يسأله ما الحكاية؟

قال المصور:

ـ لقد دعينا لنصور القبض على مجرم خطير.. ولكن المجرم على ما يبدو علم بالكمين.. فلم يحضر في الموعد المقرر!

وسأله محمد عن اسم هذا المجرم، فقال المصور ببراءة: لا أعرف اسمه.. ولكن يبدو من الاهتمام به.. إنه مجرم دوخ البوليس!

■ ■ ■

وعاد محمد إلى بيته في شبرا سعيداً. لقد رأى انتصاره في خيبة الأمل التي بدت في عيون الذين جاءوا للقبض على المجرم الخطير!

وجلس محمد أمام الطبلية، مع أمه وأبيه ينتظرون انطلاق مدفع الإفطار..

وبغير مناسبة سمع والده المعلم حنفي يغني:

ـ تيجي تصيده.. يصيدك!

وضحك محمد. لقد عوّده والده أن ينطق بغير مناسبة بأمثال شعبية تنطبق على الموقف السياسي ساعة بساعة. هذه الروحانية الغريبة في أبيه تذهله. يتصور أحياناً أن هذا الرجل الذي فقد عقله، له قدرة عجيبة على أن يقرأ خواطره. وفي بعض الأحوال يبدو بحكمه الساذجة كأنه يقرأ الغيب.. كأنه يسبق الزمن.. هل يمكن أن يسمي هذا إلهاماً؟ هل عندما يسلب الله من رجل عقله يعوضه بشيء آخر يغنيه عن العقل.. أم أننا نسمي كل رجل يرى أكثر مما نراه مجنوناً!

إنه لا ينسى يوم ذاق أول قبلة من شفتي نجوى المناسترلي، وعاد إلى بيته مترنحاً من هذه القبلة. وما كاد أبوه يراه حتى قال له فجأة:

ـ لا تبوس المجنون.. ولا تخلي المجنون يبوسك!

وفزع وهو يسمع هذا المثل الذي لم يسمعه يوماً بهذه الطريقة! وتصور أن أحمر شفايف نجوى ترك أثراً على شفتيه.. وأسرع إلى غرفته، وأحضر المرآة، وتطلع فيها يبحث في شفتيه ووجهه عن أثر الأحمر الذي رآه والده فلم يجد أي أثر للأحمر!

ولم يفهم يومها ما يقصده أبوه الأسطى حنفي بهذا المثل. ولكن تصرفات نجوى المناسترلي جعلته يفهم المثل! إن عشقها المجنون عكر عليه صفو حياته! ربما لولا تلك القبلة التي لم تعجبها في ذلك اليوم، لما حدث له كل الذي دبرته له من مكائد ومتاعب واتهامات.. وبدأ محمد يغسل وجهه استعداداً لموعده مع زبيدة.. سيذهب لها الليلة خصيصاً ليعرف ماذا فعل عوني باشا حافظ عندما عرف أن النحاس لم يذهب إلى العوامة، وأن المؤامرة المحبوكة الأطراف التي أمضى عدة أيام في ترتيبها وإعدادها قد فشلت فشلاً ذريعاً!

وإذا بأبيه يدخل الحمام ويقول له:

ـ آخر خدمة الغز علقه!

ثم يخرج الأسطى حنفي ويغلق باب الحمام دون أن يقول كلمة أخرى!

وشعر محمد بانقباض غريب. . ماذا يقصد أبوه أيضاً بهذا المثل!؟ هل يقصد موعده مع زبيدة؟ إنه لم يخدم زبيدة. إنها هي التي خدمته. إنها هي التي خاطرت من أجله بكل شيء. هي التي أنقذت حياته يوم تسلمت منه المسدس يوم إطلاقه الرصاص على زوجها. هي التي أعطته المعلومات التي أنقذت توفيق دياب وعزيز ميرهم من السجن. هي التي مكنته من الحصول على أسرار المؤامرة التي أعدها الأعداء ضد زعيمه.

أم أنه يقصد حزب الوفد؟ إن الدكتور ماهر قال له إن الوفد لن ينسى له هذه الخدمة. وهو لم يطلب جزاء، ولم ينتظر مكافأة. . لقد أنفق من جيبه على كشف المؤامرة حتى اضطربت حالته المالية هذا الشهر كله بسبب رحلته إلى الأسكندرية. كل ما أخذه هو قرش صاغ واحد، ليأكل طبق فول مدمس بعد جوع استمر أربعاً وعشرين ساعة!

واستبعد هذه الخواطر، ولام نفسه لأنه يأخذ كلام رجل معتوه كأبيه مأخذ الجد. . وعاد يفكر في زبيدة، ونسي في صورتها الجميلة مثل أبيه الغريب!

■ ■ ■

ودخل محمد إلى غرفة سنية، فوجد زبيدة تنتظره، وكانت جدائل شعرها تتهدل في دلال على خدها المتورد وكتفيها العاريتين.

وكانت ترتدي قميص نوم من الفضة الشفاف. فكان كل شيء فيها

يتماوج تحت شعاع الكهرباء الضئيل في الغرفة!

ما أعجب هذه المرأة. إنها في كل يوم تبدو أجمل من اليوم السابق. تزداد فتنة، وتزداد شباباً.. هل يفعل الحب في الإنسان كل هذا؟ هل الحب يجملنا والحقد يمسخنا؟ هل الهوى يجدد شبابنا والكراهية تزيد التجاعيد في وجوهنا؟.

وبهره هذا الجمال.. كأنه يراها للمرة الأولى! كل مرة يراها تجعله يتصور أنه يراها للمرة الأولى.. ففي كل مرة يكتشف جمالاً جديداً لم يره في المرات السابقة.. هل هي التي تزداد جمالاً، أم أنه هو الذي يزداد حباً، أم الاثنان معاً؟

وتناول يدها الرقيقة في يده. اليوم يوم عناق بالأيادي فقط. قبلات بالعيون. لقد اتفقا من قبل على ذلك.

وإذا بأناملها المعطرة تخدره تخديراً لذيذاً، كأن العطر يجردها من ملابسها، ولا يحترم الاتفاق المعقود..

وأسرع يفتح عينيه، ويسحب يده، ويجلس على مقعد بعيداً عنها ويتفادى نظراتها ويقول:

ـ هيّا نتكلم في السياسة. سنتكلم ثلاثين يوماً في السياسة فقط!

وقالت زبيدة وهي تتصنع الجد:

ـ أنا من جانبي سأحترم الاتفاق! المهم أن تحترم أنت الاتفاق.. فأنت الذي اقترحته!

ولعن محمد نفسه لأنه عقد مثل هذا الاتفاق القاسي.

وقالت زبيدة وهي تسرع إلى تغيير الموضوع:

ـ ليتك رأيت عوني حافظ اليوم! فاتك فعلاً نصف عمرك! لقد جاء ليتناول الأفطار، كأن عمره زاد ثلاثين سنة في يوم واحد! كانت يده ترتعش وهو يمسك الشوكة والسكين. ملأ الطبق الذي أمامه ولم يستطع أن يذوق شيئاً. كان يقطع بالسكين قطعة اللحم بعصبية، ثم يرفعها بالسكين إلى فمه، ثم يعيدها إلى الطبق دون أن يأكلها. وقلت له وأنا أخفي فرحتي بهزيمته:

ـ ماذا حدث؟

قال:

ـ فشلت الخطة؟

قلت متعابطة:

ـ ما هي هذه الخطة؟

قال بعصبية:

ـ الخطة. الخطة السرية التي مكثت عدة أسابيع في دراستها، وعدة أيام في وضع كل خطوطها! إن سرها تسرب! ولا يمكن أن يكون السر تسرب من عندي، فإنني لم أبح بها لمخلوق.. حتى أنت رفضت أن أقول لك كلمة واحدة! إنني واثق أنها تسربت من القصر. لا بد أن هناك خيانة في القصر!

قلت له:

ـ من تظن أن يكون سرق الخطة من القصر؟

قال عوني حافظ:

ـ لا أعـرف.. كل ما أعرفه أن النقراشي له علاقة بسفرجية القصر النوبيين، بواسطة صديقه، نائب أسوان الأستاذ حسن عجيب.. ولا بد أن الملك تكلم في هذا الموضوع على المائدة مع الملكة فالتقط أحد السفرجية النبأ، وأبلغه إلى حسن عجيب، فأبلغه للنقراشي!

قلت له:

ـ ولكنني لا أعتقد أن الملك بالسذاجة التي تجعله يتحدث مثل هذا الحديث الخطير أمام سفرجي..

قال عوني حافظ:

ـ كلامك معقول.. ولكن من الذي سرق الخطة؟

قلت له:

ـ لا بد أن الذي سرق الخطة أكبر من سفرجي.. أحد كبار رجال القصر مثلاً!

قال:

ـ كلهم موثوق بهم. وهم يرتعشون أمام الملك. ولم يحدث مرة أن خرج خبر سري هام من القصر.. إنهم كلهم خدموا الملك سنوات طويلة!

قلت له:

ـ ألم يعين موظف كبير جديد في القصر؟

قال:

ـ لم يعين أحد سوى حسين باشا الأشموني سفير مصر في روما . .

قلت متخابثة :

ـ لا أظن أنه يفعل هذا . . إنه صديقك!

وأحسست أنني زرعت الشك في قلبه . .

فعدت أقول له :

ـ وأنا أعرف زوجته نجوى المناسترلي وأعرف أنها ضد المعارضة!

قال عوني حافظ :

ـ إنه رجل انتهازي . . ويظهر أنها انتهازية مثله . . فقد قرأت في تقرير سري أن نجوى المناسترلي كانت تزور زوجة درويش باشا حبيب أحد زعماء حزب الوفد، مع أن التعليمات لدى رجال القصر ألا يدخلوا أي بيت من بيوت المعارضين!

قلت له أحرضه :

ـ لا بد أنه هو الذي أبلغ السر لدرويش باشا بواسطة زوجته!

قال عوني حافظ :

ـ لو علم الملك بهذا فسوف يقطع رقبته فوراً . . سوف يحيله إلى المعاش!

قلت له :

ـ لو أحاله إلى المعاش فسيبلغ الوفديين كل الأسرار . . المصلحة أن ينقل إلى منصب في الخارج كما كان!

قال عوني حافظ:

ـ لقد أصبحت سياسية من الطراز الأول. . فأين تعلمت السياسة؟

وتذكرت المثل الذي رويته لي على لسان والدك الأسطى حنفي فقلت لعوني حافظ وأنا أشير إليه:

ـ من جاور الحداد. . ينحرق بناره!

وضحك محمد عندما انتهت زبيدة من رواية الحديث الذي جرى بينها وبين زوجها وقال لها مداعباً:

ـ لقد أصبحت أستاذة في دس الدسائس ونصب المكائد، حتى أصبحت تصلحين لتولي وظيفة كبيرة في القصر الملكي.

قالت زبيدة وهي تبتسم:

ـ إن قلبي يحدثني أن نجوى المناسترلي تدبر لنا أمراً. . فرأيت أن أتغدى بها، قبل أن تتعشى بنا. إن صمت نجوى في المدة الأخيرة مريب. . هذا الصمت يخيفني!

قال محمد:

ـ إنك دائماً تفكرين في نجوى خلال لحظات سعادتنا. إنني سعيد جداً في هذا اليوم. استطعت بفضلك أن أقوم بعمل عظيم. أقضي نهائياً على مؤامرة لو نجحت للطخت سمعة قيادة الشعب إلى فترة، حتى يتبين الشعب الحقيقة. إنني أشعر أنني وفرت على شعبي فترة الشك هذه، بإفساد المؤامرة في مهدها. أعتقد أن عوني حافظ سيفكر الآن ألف مرة قبل أن يفكر في مؤامرة جديدة. .

قالت زبيدة توقف اندفاعه في التفاؤل:

ـ لقد انصرف عوني جافظ الآن عائداً إلى الوزارة. رأيت في عينيه نظرة غريبة. أشبه بنظرة ضبع مجـروح، يبحث عن جثة يـأكلها.. ويضمد بها جراحه في الوقت نفسه.. قال لي وهو يخرج بصوت يشبه فحيح الأفعى..:

ـ لقد أفلت اليوم الفأر من المصيدة.. ولكنه لن يفلت يوم الخميس القادم.. أنا وراءه، والزمن طويل!

■ ■ ■

إنتظرت سميحة بقلق قدوم النحاس باشا في الموعد المتفق عليه. مرت الساعات دون أن يجيء كانت تخرج إلى شرفة العوامة. وتتطلع من وراء ستائرها المسدلة إلى الطريق. تمـد بصرهـا خلال الأشجـار المزروعة على الجانبين لترى سيارته قادمة من بعيد. وتمضي السيارات مسرعة أمام العوامة وليس بينها سيـارته.. ثم بـدأ عدد السيـارات يتناقص مع اقتراب ساعة إطلاق مدفع الإفطار.. ثم انقطع مـرور السيارات..

وبدأ الشارع يخلو من الناس. وتطلعت إلى الشمس وهي تسبح في ماءالنيل، ورأتها وهي تغوص فيه، كأن الشمس أيضاً ملت الانتظار، أما في هذه المرة فإنها تشعر بقلق غير عادي، قلق لم تشعر به من قبل.

والانتظار يضايقها أضعاف ما كان يضايقها في المـرات السابقـة. كانت تريد أن تراه هذه المرة بالذات. هذا هو اللقـاء الأول بعد أن صارحها في المرة الماضية بأنه يريد أن يتزوجها، وتركها بعد أن نطق بهذه الجملة مباشرة. لم يترك لها فرصة لأن تسأله الألف سؤال عن كيف اتخذ

هذا القرار، ومتى اتخذ هذا القرار. ومتى يتم تنفيذ هذا القرار؟

عندما يقول الرجل للمرأة التي تحبه إنه قرر أن يتزوجها ينقلها بهذه الكلمة من الأرض إلى السماء. يفرش أمامها الطريق بالورد، يفتح أمام عينيها أبواب نعيم سحري رسمته بخيالها ولونته بأحلامها. وهي في تلك اللحظة لا تريد أن تسمع إلا هذه الكلمة، ولا تتكلم إلا عن هذه الكلمة.

ورأسها يمتلىء فجأة بألف علامة استفهام واستفهام. تسأل أسئلة تعرف جوابها. وتسأل أسئلة لا تعرف جوابها. وتسأل أسئلة لا جواب لها. وهي تجد لذة غريبة في السؤال. ولذة أغرب في سماع الجواب. وهذه اللحظات في حياة كل امرأة هي أسعد لحظات حياتها. وهي تتمنى أن تطول، أن يتوقف الزمن بعدها ولا يتحرك، لتظل تسمع طول عمرها الرجل الذي تتمناه يقول لها إنه قرر أن يتزوجها!

ولكنها لم تستمتع في يوم الخميس الماضي بهذه الساعة الحلوة من الاسترخاء بعد اللحظة التي يتحول فيها الحلم إلى حقيقة. لقد ألقى حبيبها هذه الجملة وهو يجري ليلحق اجتماع زعماء المعارضة. وقد أرادت أن تعوض بلقاء اليوم ما فاتها في لقاء الخميس الماضي.. وقد توهمت في هذه المرة أنه سيبقى معها مدة أطول عن كل مرة، فعندما نزلت من القطار في محطة القاهرة، اتجهت إلى محل جروبي في شارع المناخ، واشترت كل الأطعمة التي يحبها ليتناولا معاً في العوامة، طعام الإفطار..

ودوت طلقة مدفع الإفطار، وأحست بأن الطلقة أصابتها في قلبها. ونظرت إلى الأطعمة الفاخرة التي أعدتها على المائدة فرأتها حزينة!

وجلست وحدها على المائدة. إنها صائمة. صائمة بغير سحور لأنها

نامت مبكرة لتستيقظ مبكرة وتلحق بقطار الأسكندرية إلى القاهرة.

ومدت يدها إلى الفرخة الصغيرة التي كانت ستتقاسمها معه. ثم أعادت يدها خالية ونظرت إلى طبقها الخالي فوجدت أنه امتلأ بدموعها.

وتركت مكانها على المائدة، وأطفأت النور، ومرت على كل غرف العوامة، وأطفأت كل أنوارها، وارتدت معطفها وحملت حقيبة يدها، وبدأت تنزل درجات سلم العوامة في طريقها إلى محطة القاهرة لتعود إلى الإسكندرية.

وما كادت تصل إلى نهاية السلم، حتى عادت أدراجها، وصعدت إلى العوامة من جديد، وأضاءت الأنوار..

واستراحت. كأن النور أضاء قلبها المظلم في نفس الوقت. وعادت إلى شرفة العوامة تطل منها إلى الطريق، وهي تقنع نفسها بأنه سوف يجيء!.

وطال انتظارها.. وأحست بهواء الشتاء العاصف يدفعها لتعود إلى داخل العوامة. ولم تستطع أن تترك مكانها فوق الشرفة. إكتفت بأن رفعت ياقة معطفها الصوف حول عنقها لتدفع عنها قسوة الريح!

وأقبل الليل، وعرفت أن آخر قطار يغادر القاهرة إلى الإسكندرية قد فاتها. ستمضي الليل وحدها هنا! لأول مرة في حياتها تمضي ليلة خارج بيتها.. سوف تقلق خادمتها. قد تتصل بأشقائها في بيت الأسرة تسأل عنها. ستكون فضيحة بجلاجل! سيتصور إخوتها أسوأ الصور عنها! الله يعلم أنها بريئة! إنها تمضي ليلتها وحدها.. مع دموعها!

وبقيت ساهرة لا تغمض عينيها حتى بزغ الفجر.. ثم قامت تؤدي

صلاة الفجر، واتجهت إلى الله تستنجد به ألا يعرف أشقاؤها أنها أمضت الليل خارج بيتها . .

وبعد أن انتهت من صلاتها دخلت إلى غرفة المائدة التي كانت قد نسيتها مضاءة. وتطلعت إلى الطعام الذي لم تمسه يد . .

ثم جاءت بجريدة ووضعت الطعام فيها، وفيما هي تلف صفحة الجريدة حول الطعام، رأت صورة حبيبها في الجريدة . .

وفكرت أن تجيء بجريدة أخرى، ثم عدلت عن ذلك، وحملت اللفافة في يدها وخرجت تمشي في شارع النيل بحثاً عن سيارة تاكسي تستقلها إلى محطة مصر . .

ولم تجد سيارة في هذا الوقت المبكر، وإنما وجدت عند الكوبري الأعمى ـ كوبري الجلاء الآن ـ شحاذاً عجوزاً أعمى يجلس القرفصاءفوق الرصيف . .

واقتربت منه، ووضعت لفافة الطعام بين يديه، وسمعته يقول وهو يتحسس الطعام :

ـ ربنا يخليك يا سعادة البيه!

وابتسمت لهذا الدعاء الغريب. كانت أول ابتسامة ترتسم فوق شفتيها من ساعات طويلة امتلأت فيها هاتان الشفتان بالمرارة وخيبة الأمل . .

ووقفت في نهاية الكوبري حتى وجدت سيارة تاكسي استقلتها إلى محطة مصر . .

ووصلت إلى المحطة في الساعة الخامسة والنصف صباحاً. وعرفت

أن أول قطار يغادر القاهرة في الساعة السادسة والنصف صباحاً . .

وانتظرت على رصيف المحطة، حتى دخل القطار، فجلست في مقعدها الذي حجزته في عربة البولمان . .

وبدأت تتصفح صحف الصباح تبحث عن خطاب الاعتذار الذي كتبه حبيبها! ولم تجد في الصحف الثلاث التي اشترتها خطاباً للنحاس باشا، ولا نبأ عن اجتماع هام حضره النحاس باشا، ولا أي خبر عن حدث هام وقع في البلد ومنع الرجل الذي تحبه من الحضور في الموعد المحدد.

وملأتها الكآبة. كانت تأمل أن تجد خطاباً خطيراً. أن تجد حدثاً هاماً. أن تقرأ كلمة واحدة تخفف قلقها وعذابها وانتظارها . .

إنه لم يحضر ولم يعتذر: هل ندم لأنه صارحها بأنه سيتزوجها؟ هل حدث شيء جديد في السياسة عرف منه أن تفاؤله بأن الفجر على الأبواب ليس صحيحاً، وأنه بنى مشروع الزواج على أخبار لا أساس لها، ولهذا خجل أن يواجهها بالحقيقة؟ إنها تعرف أن الرجل الذي تحبه لا يخجل من ذكر الحقيقة، لا يهرب من المواجهة.

لا بد أنه مريض، مريض جداً، لم يستطع أن يتحرك من فراشه. وهذا السبب وحده هو الذي منعه من الحضور في الموعد . .

وتضاعف قلقها وعذابها . . وتمنت لو تنزل من القطار، وتتجه إلى تليفون المحطة وتسأل عنه في بيته . . وإذا بالقطار يتحرك . . وكأنه يدوس على هذه الفكرة التي خطرت برأسها . .

وتمنت لو أسرع القطار، حتى تصل إلى الأسكندرية وتتصل به وتسمع صوته وتطمئن على صحته. لا . . إنه هو الذي سيتصل بها

تليفونياً! ولن يجدها في البيت، وسيقلق عليها كما تقلق عليه الآن!

وابتسمت سعيدة لأنه سيذوق قطرة من القلق الذي ذاقت منه.. ثم اختفت ابتسامتها وعادت إلى كآبتها السابقة، كأنها تهرب من نار إلى نار.. من احتمال مرض حبيبها إلى احتمال أنه عدل عن الزواج منها.

وكاد رأسها ينفجر بحثاً عن جواب سؤال واحد هو، لماذا لم يجيء..؟

■ ■ ■

ولو أن سميحة فكّرت في تلك الساعات المليئة بالعذاب التي قطعتها في رحلتها بالقطار، في أن تجد جواب سؤالها في القطار نفسه لوجدته!

لو أنها تركت مقعدها في عربة البولمان، وتمشت قليلاً في ممرات عربة الدرجة الأولى، لوجدت الجواب على سؤالها.. في ديوان مغلق بنفس القطار! كان النحاس أيضاً لم يغمض عينيه طول الليل، أمضى ليلته ساهراً يتمشى ذهاباً وإياباً في غرفة نومه..

وانتظر الفجر كما انتظرت.. وصلى الفجر كما صلت.. ولعل دعاءه إلى الله وصل إلى السماء في نفس اللحظة التي وصل فيها دعاء سميحة..

ثم استقل سيارته، واتجه إلى محطة مصر، ودخل إلى نفس الرصيف بعد نصف ساعة من دخولها..

ولو أن سميحة تأخرت نصف ساعة.. ولو أن النحاس قدم موعد وصوله نصف ساعة لالتقيا على الرصيف أمام القطار، ولوفرت سميحة

على نفسها كل ما ذاقته من عذاب!

وقد دخل النحاس وحده إلى ديوان في الدرجة الأولى، لأنه، بصفته رئيس وزراء سابقاً، كان من حقه أن يستقل وحده بديوان خاص به في عربة في الدرجة الأولى. .

وكان لا يفصلها عن بعضها البعض إلا بضعة أمتار. . ولم يخطر ببال النحاس أن المرأة التي يحبها موجودة في نفس القطار. . كان واثقاً أنها عادت إلى الإسكندرية في اليوم السابق عندما تأخر ساعتين عن الحضور في موعده. .

ووصل القطار إلى محطة سيدي جابر، ونزلت سميحة من عربة البولمان، ومرت أمام عربة الدرجة الأولى التي يجلس فيها النحاس، ولم تلتفت إلى هذه العربة. . ولو أنها التفتت إلى العربة لما رأته، فقد كان خشب النافذة مغلقاً، لأن تراب الطريق يؤذي عين النحاس. .

ولم ينزل النحاس في محطة سيدي جابر، فلم يكن ينوي الذهاب إلى بيت سميحة، وإنما كان يقصد مكاناً آخر لا يخطر ببال سميحة. .

■ ■ ■

وصلت سميحة إلى بيتها فوجدت خادمتها فردوس تنتظرها في قلق. وسألتها هل سألت عنها في بيت الأسرة الكبير؟

وقالت الخادمة إنها طلبتها عند صديقتها في أبي قير، وكان تليفون صديقتها معطلا. .

وحمدت سميحة الله إنه استجاب لدعائها عندما استنجدت به حتى لا يعرف أشقاؤها أنها أمضت الليل خارج بيتها!

وعادت تسأل فردوس:

ـ هل طلبني الترنك من القاهرة؟

قالت فردوس:

ـ لم يدق التليفون أبداً!

وصعدت سميحة درجات السلم إلى الطابق العلوي، وهي تتعثر في خطواتها، ثم خطر ببالها أن يكون تليفونها معطلاً، فأسرعت إلى آلة التليفون، ورفعت السماعة ووضعتها على أذنها فسمعت صوت الحرارة.

وأحست وهي تسمع صوت الحرارة، بأن جسدها فقد كل حرارته، وأنه أصبح بارداً كأجسام الأموات..

إنه لم يحضر.. ولم يعتذر.. ولم يتكلم في التليفون!

ووجدت نفسها تخرج سيجارة، وتشعلها، لقد نسيت أنها صائمة!

وأسرعت تطفىء السجارة. يجب أن تبقى صائمة، لتشكر الله على أنه استجاب لدعائها، ولم يعرف أشقاؤها أنها أمضت الليل خارج بيتها.

وخلعت ملابسها وأرادت أن تنام، فلم تستطع أن تغمض عينيها.. كانت جائعة ومتعبة وصائمة ويائسة وشقية. كل واحد من هذه الأسباب على حدة يكفي لأن يطرد النوم من عينيها!

وقامت من فراشها، وجلست فوق السرير.. ورأت بجوار الفراش آلة الفونغراف، حيث تركتها ساعة سفرها!

وفتحت الآلة، ورأت فوقها أسطوانة عبد الوهاب الجديدة.. قصيدة «الهوى والشباب» من نظم الأخطل الصغير بشارة الخوري.. وأدارت الأسطوانة.. وسمعت عبد الوهاب يغني:

الهوى والشباب والأمل المنشود	توحي فتبعث الشعر حيّا
الهوى والشباب والأمل المنشود	ضاعت جميعها.. من يديا!
يشرب الكأس ذو الحجى ويبقّي	لغد، في قرارة الكأس شيّا
لم لكن لي غد، فأفرغت كأسي	ثم حطمتها على شفتيّا..
أيها الخافق المعذب، يا قلبي	نزحت الدموع من مقلتيّا
أفحتم عليّ إرسال دمعي	كلما لاح بارق في محيّا
يا حبيبي لأجل عينيك ما ألقى	وما أوّلَ الوشاة عليّا
أأنا العاشق الوحيد لتلقى	تبعات الهوى على كتفيّا..

وأحست سميحة وهي تذرف دموعها وتسمع القصيدة، أن بشارة الخوري قد نظمها من أجلها، وأن عبد الوهاب لحنها وهو يصف عذابها وشقاءها. إنها هي الأخرى تحس بأن هواها وشبابها وأملها المنشود ضاعت جميعها من يديها.. إنها أيضاً ترى كأس أحلامها فرغت من رحيقها ولم يبق في الكأس شيء.. إنها أيضاً تحمل على كتفيها تبعات الهوى وذله وعذابه نيابة عن كل من أحبوا وعشقوا وأخلصوا. إنها امرأة بلا غد!

■ ■ ■

لم يغادر النحاس القطار في محطة سيدي جابر، وإنما نزل في محطة الإسكندرية، ورآه عدد من المسافرين والمستقبلين في المحطة، فالتفوا حوله يهتفون بحياته، فنهرهم، وأسرع في خطاه، واستقل سيارة أجرة

وطلب من السائق أن يذهب به إلى شارع مصطفى عبادي باشا بحي محرم بك.

وعندما وصلت السيارة أشار إلى بيت ضخم، وطلب من السائق أن يتوقف هناك. ثم نزل من السيارة، ودخل البيت، وصعد على درجات السلم الرخامي وضغط على جرس الباب. .

وفتح سفرجي الباب، وما كاد يرى النحاس أمامه، حتى فتح فمه في دهشة وأقبل يقبل يده. .

وقال له النحاس:

ـ هل القاضي شريف بك هنا؟

قال الخادم:

ـ نعم يا أفندم. .

وأسرع الخادم يفتح باب الصالون الكبير، ويدعو النحاس باشا لأن يتفضل بالانتظار. .

وبعد دقائق دخل الشقيق الأكبر لسميحة مهرولاً، وهو يقول:

ـ لو نعلم أن دولتك في الإسكندرية؟

قال النحاس:

ـ لقد وصلت الآن بأول قطار غادر القاهرة الساعة السادسة والنصف. . وليس عندي وقت للمقدمات.

إنني جئت لأخطب السيدة سميحة شريف شقيقتك. .

وبهت القاضي شريف بك وقال:

ـ هذا شرف عظيم جداً لأسرة شريف يا دولة الباشا.

قال النحاس:

ـ إذن اتفقنا!

قال القاضي شريف بك متردداً:

ـ ولكن.. ولكني مضطر أن أسألها أولاً.. لأنها سبق أن رفضت قبول جميع الذين تقدموا لخطبتها. وأظن أن دولتك لا تمانع في أن أسألها أولاً. صحيح أني أعتبر عميد الأسرة، ولكن من تقاليدنا أن نسأل بناتنا في مثل هذه الأمور..

قال النحاس:

ـ طبعاً.. طبعاً.. ولكن أخبرها في الوقت نفسه أن نعقد القران بعد ظهر يوم الخميس القادم!

قال القاضي شريف بك في ذهول:

ـ بعد ستة أيام؟!

قال النحاس:

ـ لا.. بعد خمسة أيام!

قال القاضي شريف:

ـ أرجو أن تعطيني يا دولة الباشا مهلة أطول.

قال النحاس ضاحكاً:

ـ حتى تسألوا أولاً عن أخلاقي ومرتبي ووظيفتي وأسرتي؟

قال القاضي شريف:

ـ العفو يا دولة الباشا.. إن تاريخك معروف للشعب كله..

قال النحاس:

ـ ما دام تاريخي معروفاً، فاذهب الآن واسألها.. سأبقى جالساً في الصالون حتى أعرف الرد!

قال القاضي شريف متردداً:

ـ ولكن المسافة من حي محرم بك إلى حيث تسكن سميحة في سان استفانو تستغرق ساعة في الذهاب والأياب!

قال النحاس ببساطة:

ـ لا داعي لأن تتعب نفسك وتذهب إليها، يكفي أن تسألها في التليفون.. وسأبقى أنتظر الرد.. ولا تتأخر.. فإنني مضطر أن أذهب إلى مسجد سيدي أبي العباس لتأدية صلاة الجمعة!

وخرج القاضي شريف بك من الصالون، والذهول يمشي أمامه!

وصعد إلى الطابق العلوي، وحمل التليفون ذا السلك الطويل، ودخل به إلى غرفة النوم، وأغلق الباب.

دق جرس التليفون في بيت سميحة..

وقفزت سميحة من فوق الفراش.. وعندما استمر الرنين.. عادت تجلس على الفراش، وقد امتلأ وجهها بخيبة الأمل من جديد.

إنه رنين تليفون الاسكندرية، وليس صوت رنين تليفون ترنك القاهرة! تصورت في لحظة أنها ستسمع صوت حبيبها. . ثم عرفت أن المحادثة من الإسكندرية. . إنها لا تريد أن تحدث أحداً من الإسكندرية. . الذي تريد أن تحدثه هو من القاهرة. . هو فرد واحد بين ملايين سكانها!

وعادت تستمع إلى بقية أسطوانة عبد الوهاب التي أدارتها عشر مرات. . وعادت تبكي وهي تسمعه يغني «الهوى والشباب والأمل المنشود. . ضاعت جميعها من يديا»!

وتركت سميحة التليفون يستمر في الرنين، ولم يضايقها صوت الرنين، فقد كانت ضائعة مع الهوى والشباب والأمل المنشود. .

ثم مدت يدها في تثاقل، ورفعت السماعة في بطء، فسمعت صوت شقيقها الأكبر يصيح :

ـ لقد مضى علي ربع ساعة وأنا أدق التليفون. . ولا من مجيب!

قالت :

ـ إن التليفون بجواري ولم يدق إلا في هذه اللحظة!

قال شبقيقها وهو يرفع صوته في عصبية :

ـ أنا لا أسمعك. . أنا أسمع صوت عبد الوهاب. . أوقفي الأسطوانة. .

هناك مسألة هامة جداً. . مسألة خطيرة جداً أريد أن أحدثك فيها.

وأسرعت سميحة توقف الأسطوانة، واضطربت. . خشيت أن

يكون شقيقها قد علم أنها أمضت الليل خارج بيتها . .

وعـادت إلى آلة التليفـون، ثم أسرعت تجلس . . حتى لا تتلقى الصدمة وهي واقفة على قدميها . .

قالت وهي تتظاهر بالبراءة :

.. ماذا حدث؟

قال شقيقها :

ـ حدثت مصيبة!

قالت مضطربة :

ـ مصيبة؟

قال :

ـ نعم، النحاس باشا عندي في البيت!

قالت في دهشة :

ـ عندك في البيت؟ متى جاء إلى الإسكندرية؟

قال :

ـ جاء في أول قطار . . قطار الساعة السادسة والنصف .

وصرخت سميحة وقالت :

ـ قطار الساعة السادسة والنصف . . ؟ مستحيل . . مستحيـل أن يكون في قطار الساعة السادسة والنصف، لأني . . .

وكـادت تقـول لـه : لأني أنـا كنت في قـطار السـاعـة السـادسـة

والنصف. . ولكنها أمسكت لسانها!

قال شقيقها:

ـ لأنك ماذا. . ؟ النحاس باشا بنفسه هو الذي قال لي الآن إنه جاء بقطار الساعة السادسة والنصف. . وماذا يدهشك في هذا؟

قالت:

ـ أنا مدهوشة. . لأنني أعرف أنه ينام إلى وقت متأخر في الصباح.

قال بعصبية:

ـ كل هذا ليس مهماً. . المهم أنه قال شيئاً لا يمكن أن يخطر بخيالك. . !

قالت له ساخرة:

ـ هل عرض عليك أن تكون عضواً في الوفد، أو وزيراً في وزارة الوفد القادمة. . ؟

قال وقد زادت عصبيته:

ـ هذا ليس وقت المزاح. . المسألة أخطر من أن تتصوريها. . لقد جاء النحاس باشا يطلب يدك!

قالت سميحة وهي تضحك:

ـ غير معقول!

قال شريف بك:

ـ وأنا أيضاً قلت إنه غير معقول. . لم أقل له هذا طبعاً. . قلت هذا

في سري! ولكن ليس هذا وحده غير المعقـول! لقد طلب أن يعقـد القران بعد ظهر يوم الخميس القادم. . أي بعد خمسة أيام!

قالت سميحة وهي تكاد تطير من الفرح، وتحاول جاهدة أن تخفي مشاعرها:

ـ غير معقول!

قال شريف بك:

ـ ليس هذا هو غير المعقول وحده؟ لقد أصر على أن يبقى عندي في البيت حتى يعرف الجواب!

وكانت سميحة قد حملت آلة التليفون ذي السلك الطويل في يدها، وراحت تمشي في غرفة نومها، وكأنها ترقص رقصة باليه اسمها «آلهة السعادة». . كانت تضم آلة التليفون إلى صدرها وكأنها تعانقهـا. . كانت تقرب بوق السماعة من فمها وكأنها تقبله. .

أحست بأنها ترقص على أسطوانه عبد الـوهاب نفسهـا. . ولكن الأسطوانة تدور الآن بالمقلوب، غيّرت لحنها الحزين إلى لحن راقص. أبدلت كلمات الهوى والشباب والأمل المنشود ضـاعت من يديـا. . وأصبحت كلماتها هي الهوى والشباب والأمل المنشود ملك يديا. . لم تفرغ الكأس بل امتلأت بـالسعادة والهنـاء. . لم تتحطم عـلى شفتي سميحة، وإنما أصبحت تقبل هاتين الشفتين. لم تعد العاشقة الوحيدة التي تحمل على كتفيها تبعات الهوى، بل أصبحت العاشقة الوحيدة التي تعيش في أحلام كل العاشقين!

ولاحظ شقيق سميحـة أنها صمتت فجأة. واختفى صـوتها، ولم يتصور أنها ترقص على نغم شعر لم ينظمه الأخطل الصغير، وموسيقى لم

يلحنها عبد الوهاب!

وقال شقيقها:

ـ لماذا أنت صامتة؟

قالت سميحة وصوتها يرقص:

ـ أفكر.. !

قال شقيقها:

ـ وهل هذه مسألة تحتاج إلى تفكير؟ طبعاً سترفضين! هل معقول أن تتزوجي رجلاً أكبر منك بعشرين سنة، أنت التي رفضت أجمل شبان الإسكندرية..؟ ولكن المشكلة هي كيف ترفضين.. يجب أن نبحث عن طريقة ترفضين بها الزواج دون أن تجرحي شعوره.. وخاصة أنه ضيفي في بيتي، ومركزه العظيم يمنعني من أن أصدمه بالرفض في مواجهته.. يمكنني أن أقول له الآن إنك تطلبين مهلة للتفكير.. وهكذا نستطيع أن نكسب وقتاً كافياً لنجد صيغة الاعتذار المناسب.. وخاصة أنني أحب هذا الرجل وأحترمه..

قالت سميحة وهي تضحك:

ـ قل له إن سميحة موافقة.. وغير موافقة.. !

قال شقيقها في دهشة:

ـ ماذا يعني «موافقة وغير موافقة؟» هل معناه أنك ستفكرين بالأمر؟

قالت سميحة:

ـ لا.. معناه أنني موافقة على الزواج، وغير موافقة على أن يعقد

القران يوم الخميس القادم!

قال في انفعال شديد:

ـ تتزوجينه.. ؟ إن هذا ليس وقت المزاح!

قالت بحزم:

ـ نعم، سأتزوجه.. وردي عليه هـو أني موافقـة على أن أتـزوج منه.. ولكن غير موافقة على أن يعقد قراننا يوم الخميس القادم، لأنني مشغولة عادة كل يوم خميس بموعد هام.. وإنني حريصة على أن أحافظ على هذا الموعد.. حتى ولو كان يتعارض مع يوم زواجي!

قال الشقيق، وكل كلمة من كلماتها ترفع حاجبيه دهشة وذهولاً:

ـ هل جننت!؟ هل معقول أن أقول له إنك لا تستطيعين عقد القران يوم الخميس لأنك مشغولة بموعد آخر؟

قالت وهي تستأنف رقصها في الغرفة وتحتضن آلة التليفون:

ـ لقد طلب رأيي، وهذا هو رأيي. وأخبرني بما سيقول.

قال الشقيق:

ـ سيقـول عنك إنـك مجنونـة.. وسيقـول عني إنني مجنـون لأنني أنقل له هذا الرد الغريب!

قالت ضاحكة:

ـ إنه يعرف أنني عاقلة.. وإلا لما فكر في أن يتزوجني!

قال شقيقها في عصبية بالغة:

ـ إنك جننت فعلاً! تقبلين الزواج منه، ثم تطلبين مني أن أقول له إنها لا تستطيع أن تتزوجك في يوم الخميس القادم لأنها مرتبطة بموعد آخر..

إنني لا أجرؤ أن أقول له هذا. إنه رجل عظيم وزعيم الأمة.. لا يمكن أن أقول له هذا الكلام الفارغ!

قالت:

ـ إذن دعني أقل له هذا الكلام بنفسي..

وأحس القاضي شريف بك بأن نجدة جاءته من السماء، فقال:

ـ سآخذ التليفون إليه.. وقولي له هذا الكلام بلسانك.. ولكنني أحذرك من الآن أنه سيغضب ويثور.. ويغلق في وجهك سماعة التليفون..

وحمل القاضي شريف بك آلة التليفون، ومعها السلك الطويل، وهبط إلى الطابق الأول، ووضع السلك في البريزة ودخل يحمل التليفون إلى الصالون، وهو يقول بصوت مرتجف:

ـ إن سميحة تريد أن تتحدث مع دولتك!

قال النحاس:

ـ طبعاً وافقت؟

قال الشقيق، وهو يقدم للنحاس سماعة التليفون، ويبتعد عنه عدة خطوات ليتفادى انفجار الزعيم عندما يسمع رد شقيقته..

وأمسك النحاس التليفون وقال بصوت متهلل:

ـ أهـلاً. . أهلاً. . أنـا جئت يـا ست سميحـة أطلب يـدك من شقيقك. . موافقة طبعاً. . عال. . مبروك. . وموافقة على أن يكون عقد القران بعد ظهر يوم الخميس القادم في بيت شريف بك.

وتوقع شريف بك أن تلقي شقيقتها قنبلتها في هذه اللحظة، وتطلع إلى وجه النحاس ليرى انفعاله بالغضب، عندما تنطق شقيقته بالقنبلة!

وفوجىء بالنحاس يقول:

ـ معك حق يا سميحة! معك حق! ما دمت مرتبطة بموعد هام يوم الخميس القادم، فيجب أن نحترم هذا الموعد الهام! إنني عندما أرتبط بموعد ولا أحـافظ عليه أشعـر كأنني أتعس إنسـان في العالم! أتعس إنسان فعلاً! معك حق يا سميحة! معك حق!

ووقف القاضي شريف بك ينظر إلى زعيم الأمة مذهولاً!

لم يكن يدري أن الرجـل الذي يـراه أمامـه، ليس هو مصـطفى النحاس باشا رئيس الوفد وزعيم الأمة، وإنما هو مصطفى النحاس. . الانسان. . العاشق. . الحبيب!

■ ■ ■

إنتشر نبأ الخطبة. فرح محمد بهذه الخطبة المفاجئة. إنها انتصـار للحب. إنها هزيمة لأعداء الشعب الذين أرادوا أن يستغلوا هذه العلاقة البريئة للقضاء على الزعيم. أعجب بتصرف النحاس السريع الذي كان أشبه بضربة معلم قضت على المؤامرة المحبوكة الأطراف. . وأحس بفخر أنه لعب دوراً بارزاً في إفساد هذه المؤامرة.

ونزل النبأ على الملك فؤاد وعوني باشا حافظ كالصاعقة. كان الملك

يعتقد أنه أعد النعش، ووضع فيه الزعيم، وغطاه ولم يبق له إلا أن يدق المسمار الأخير. . وبعد ذلك تشيع جنازة الزعيم بموكب رسمي . .

وعوني باشا اعتقد أنه وضع رياسة الوزارة في جيبه، وضمن أن ينتقل لقب «رب الكفاءات» من رئيس الوزراء صدقي باشا إليه. فشلت الخطة التي سهر فيها الليالي وبذل في رسمها كل ما في رأسه من خبث ودهاء. . !

وجلس عوني باشا في مكتبه ببيته. ظهر على وجهه الذبول. زاد عدد الشعر الأبيض في رأسه.

تضاعفت تحت عينيه الخطوط والتجاعيد. هذه العلامات هي إمضاءات الهزيمة على ملامح المهزومين. . إن النصر يورد الوجوه والهزيمة تلونها بلون الذبول. فالهزيمة تشبه الموت. فيها اصفراره، فيها رائحة العدم، لها طعم تراب القبور!

ومن طبيعة المهزوم أن يبحث دائماً عن شماعة يعلق عليها هزيمته، فهي أثقل من أن يحتملها وحده. يمضي وقته في البحث عن شركاء الهزيمة، بدل أن يصرف الوقت في تحويل الهزيمة إلى نصر. .

الملك لسانه مفلوت. . ؟ هو الذي أفشى السر. . رجال القصر اشتراهم الوفد. صدقي باشا عرف المؤامرة وهو إذن أبلغها للنحاس ليفسد عليه إنتصاره ويحرمه من رياسة الوزارة. لا بد أن سيدة العمشة تكلمت. قد يكون الأميرالاي عليش بك سالم الوحيد الذي يعرف الخطة هو الذي خانه. كان كل ما يستطيع عوني باشا أن يفعله لعليش بك أن يرفعه إلى درجة مدير عام مكافأة له على تنفيذ المؤامرة. . ما يدريه أن يكون عليش بك رجلاً انتهازياً مثله، وطمع في أن يكون وزيراً للداخلية. . وأسرع يبلغ النقراشي النبأ، والمعروف أن النقراشي

له صلات برجال البوليس!

كان عوني باشا لا يتبين كلمات التقارير التي يقرأها. كأن كلمة الفشل مكتوبة بخط ضخم بطول كل صفحة وعرضها، وتغطي كلمات كل تقرير..

وألقى التقارير السرية التي أمامه في قرف وضيق.. وأشعل سيجارة. خيل له أن دخان السيجارة يكتب في فضاء الغرفة كلمة فشل!

وبقيت السيجارة في فمه حتى أشعلت شفتيه، فرماها.. وكأن هذه اللسعة أيقظته من ضيقه، وعاد يقرأ التقرير..

وامتدت يده إلى تقرير مكتوب عليه «صدى زواج النحاس باشا».

وبدأ يقرأ التقرير باهتمام..

«لوحظ على النحاس باشا أن حالته المعنوية ارتفعت كثيراً بعد إعلان خطبته للسيدة سميحة شريف. تم الاتفاق على عقد القران في بيت أسرة العروس بالاسكندرية رابع أيام العيد. كبار الوفديين غير مبتهجين بهذا الزواج. كانوا يفضلون لو صاهر رئيس الوفد إحدى الأسر الوفدية المعروفة. قال درويش باشا حبيب أحد زعماء الحزب إنه فجع عندما علم أن العروس سيدة مطلقة. كثيرون من أعضاء الوفد أبدوا أسفهم لأن الزعيم يتزوج من مطلقة. لأن الريف لا ينظر باحترام للسيدات المطلقات».

وما كاد عوني باشا يقرأ هذه السطور الأخيرة من التقرير حتى لمعت عيناه.. لقد وجد الثغرة التي ينفذ منها. المؤامرة لم تفشل. ممكن أن تبعث في شكل جديد. ممكن أن تؤدي إلى نفس الغرض.. ممكن أن

تتولى وزارة الداخلية وإدارة الأمن العام بوسائلها تغذية هذا السخط، ليتحول إلى ثورة على الزعيم!

■ ■ ■

وابتسم عوني باشا. الفأر لم يفلت من المصيدة. ستبقى دائماً المصيدة ما دام عوني حافظ جالساً في مقعد وزير الداخلية!

وبدأ يصفر بفمه.. كأنه صفير قطار قبل أن يتحرك!

ودخلت زبيدة عليه في مكتبه فوجدته يصفر ودهشت. إنها المرة الأولى في حياتها معه التي تسمعه يصفر فيها!

وقالت له زبيدة:

- ماذا تصفر؟

قال عوني حافظ:

- أصفر نغمة لحن أعجبني! لحن جديد لعبد الوهاب يقول «الدنيا في إيدي.. والكل عبيدي.. طول ما انت معايا!»..

قالت ضاحكة:

- لم أعرف أبداً أنك من هواة الموسيقى والغناء!

قال مبتسماً:

- بدأت أهوى الموسيقى!

قالت غير مصدقة:

- صحيح.. ماذا حدث!

قال عوني حافظ:

ـ النحاس سيتزوج من امرأة مطلقة!

قالت:

ـ سمعت هذا منك. . ما هو العيب في الزواج من سيدة مطلقة؟ الملك فؤاد طلق زوجته الأميرة شويكار!

قال عوني حافظ:

ـ ولكنه عندما أصبح سلطاناً وأراد أن يتزوج، تزوج من فتاة بكر!

قالت زبيدة:

ـ وأغلب أمراء الأسرة المالكة مطلقون. . وأغلب أميراتها مطلقات؟ وبعض الأنبياء تزوجوا من سيدات مطلقات!

قال عوني حافظ:

ـ ولكن الأسر المحافظة في مصر، وهي الأغلبية الكبرى، ضد الزواج من المطلقات. . والنحاس زعيم شعبي، وعليه أن يختار بين أن يتزوجها ويغضب الشعب فتصبح فضيحة، أو يرضي الشعب ويفسخ الخطبة، فتصبح الفضيحة أكبر!

قالت زبيدة:

ـ منذ متى تهتم أنت برأي الشعب؟

قال عوني حافظ باسماً:

ـ أنا لا أهتم برأي الشعب. . ولكن النحاس زعيم الشعب!

قالت زبيدة:

- وما ذنب السيدة المطلقة؟ إنها غالباً امرأة مجني عليها، تحملت ما لا يتحمله البشر، ومع ذلك ذبحها زوجها بكلمة «أنت طالق».. كلمة واحدة ينطق بها الرجل هي حكم بإعدام المرأة. بهدم بيتها، بالقضاء على مستقبلها، بتشريدها.

قال عوني حافظ:

- إن زوجها لم يطلقها. إنها هي التي طلبت الطلاق.. وهي التي رفعت قضية ضد زوجها الذي أراد أن تعود إليه، ولكنها رفضت وفضلت أن تتزوج النحاس باشا، لأنه باشا وزوجها بيه!

قالت زبيدة:

- لقد قلت لي إن زوجها هو أغنى شاب في الإسكندرية.. وأنا أعرف أن النحاس فقير.. ولا يمكن أن تهرب المرأة من الثروة إلى الجوع.. إنما هي تهرب من سوء المعاملة.. من خيانة الزوج.. وهي تفضل أن تعيش في كوخ مع رجل يحترمها ويحبها على أن تعيش في قصر مع ملك يعاملها معاملة الكلاب.. إنها امرأة شريفة تتصرف تصرف الشريفات!

قال عوني حافظ:

- لماذا تدافعين عنها بهذا الحماس؟ هل تعرفينها؟!

وأحست زبيدة بأنها تحمست فعلاً للدفاع عن سميحة.. ولكنها لم تكن تدافع عن سميحة شريف، كانت في الواقع تدافع عن مطلقة أخرى. عن زبيدة عرفة الجمل، التي سوف تتطلق من عوني باشا حافظ

وزير الدولة لتتزوج من محمد عبد الكريم الصحفي الصغير!

وتمالكت نفسها وقالت:

ـ إنني لا أعرفها.. ولكنني أعرف أن أسرتها في الإسكندرية أسرة محترمة.

قال لها:

ـ وإذا كانت التقارير تقول إنها امرأة سيئة السمعة؟

وكادت تقول له إن محمد عبد الكريم قرأ التقارير التي تؤكد إنها حسنة السمعة، وقرأ التقرير الذي لفقته أنت وقلت فيه أنها سيئة السمعة، ولكنها لم تجرؤ.. وأحست أنها تختنق في الغرفة، فغادرتها دون أن ترد على سؤاله.

■■■

لاحظ محمد وجوماً غريباً بين كبار المحررين في إدارة جريدة «الجهاد». رؤوس تتقارب، وشفاه تتهامس، وعيون تمتلىء بالدهشة، وعيون تمتلىء بالحسرة. فإذا دخل محمد إلى الغرفة توقف الحديث، وانتقل المتهامسون إلى موضوع آخر. وعجب محمد لهذا الجو الغريب المريب، وسأل زميله الأستاذ أحمد قاسم، عن الحادث الجلل الذي وقع، وجعل جو الجريدة الضاحك يتحول إلى جو المآتم والجنازات، فقال أحمد قاسم بصوت حزين هامس إن مصيبة حدثت: إن زعيم الأمة سوف يتزوج!

كان أحمد قاسم وهو ينطق هذه الجملة شاحباً فوق شحوبه المعتاد. كلماته فيها رنين غضب مكظوم. فيها حسرة ولوعة واختلاج..

قال محمد في استغراب:

ـ وأي كارثة في هـذا؟! إنه رجل أعزب ومن حقه أن يتزوج. والزواج نصف الدين! ظننت أن نصف أعضاء الوفد استقالوا وانضموا إلى صدقي باشا!

قال أحمد قاسم:

ـ ليت كل أعضاء الوفد استقالوا لا نصفهم فقط، ولا تحدث هذه الكارثة!

ماذا نقول للشعب؟ الشعب يموت وزعيمه يتزوج؟ الشعب يضرب بالرصاص وزعيمه يحب؟ الشعب يملأ السجون وزعيمه يشتري جهاز العروس؟ هذه مصيبة!

قال محمد ساخراً:

ـ وأي مصيبة في هذا.. هل توقف الشعب عن الزواج وخرّج زعيم الشعب على إجماعه؟ هل أصدر الوفد قراراً بمقاطعة نساء مصر أسوة بوزراء صدقي وأعضاء برلمانه، وخرج الزعيم على قرار الوفد؟

قال أحمد قاسم وهو يضغط على كل حرف:

ـ إنها مطلقة!

فهز محمد كتفيه:

ـ وأي عيب في أن تكون مطلقة؟ ممكن أن تتطلق أختك أو ابنتك بلا ذنب جنته. فهل معنى ذلك أن تعيش راهبة بقية حياتها، أن تعامل معاملة المنبوذين في الهند؟ كل الناس يتزوجون المطلقات!

قال أحمد قاسم:

ـ ولكن النحاس ليس كل الناس، إنه زعيم الأمة. وما يسمح به للناس العاديين لا يسمح به لرجل يضعه الناس فوق رؤوسهم. هو مثلهم الأعلى. والمسموح به لأفراد الأسرة غير مسموح به لعميد الأسرة. يجب أن تكون تصرفات الزعيم فوق الشكوك والشبهات..

ودخل الدكتور عزمي في هذه اللحظة، وسألها ضاحكاً عن موضوع المناقشة..

وروى له محمد ملخصاً لها، وإذا بالدكتور عزمي يقول:

ـ أحمد قاسم معه حق!

قال محمد:

ـ أعجب أن يكون هذا رأي رجل من أكبر رجالنا التقدميين.. رجل تعلم في باريس ويعيش في القاهرة بعقلية باريس!

قال الدكتور عزمي:

ـ إن الخطأ هو خطأكم أنتم الوفديين!.. مكرم أطلق على الزعيم لقب «الزعيم المعبود» وصدقتموه. إعتبرتموه إلهاً.. ومن خرج عليه كفر بالله! عاملتموه كأنه البقرة التي يعبدها الهندوس.. وعندما أراد أن يتصرف كبشر وليس كبقرة مقدسة، ثرتم وغضبتم.. أنكرتم عليه أن تكون له صفات البشر. أصررتم على أنه إله لا يلد ولا يولد لا يحب ولا يتزوج.. فإذا غضبتم اليوم لأنه يتزوج فأنتم منطقيون مع أنفسكم.. فعلاً إن المعبود لا يتزوج!

قال محمد:

ـ ولكنه ليس ذنب النحاس إذا اعتبرته الجماهير معبوداً.

قال الدكتور عزمي:

ـ هو قال إن الزعامة مقدسة فيجب أن يدفع ثمن هذه القداسة! عندما يعلق الرجل أجنحة الملائكة فوق كتفيه لا يجوز له أن يمشي في الشارع كسائر الناس!

قال محمد معترضاً:

ـ إذن مطلوب من الزعيم الذي ينادي بالحرية أن يكون عبداً.. الذي يطالب للشعب بحقوقه محروم من أبسط الحقوق التي يتمتع بها أي مصري من المصريين. مطلوب منه أن يصبح راهباً.. فإذا أحب امرأة وأراد أن يتزوجها فيجب أن يعرض مشروع الزواج على الشعب في استفتاء شعبي، تقوم به وزارة محايدة، شأن مشروع المعاهدة بين مصر وبريطانيا!

قال أحمد قاسم معترضاً:

ـ تذكر أنها امرأة مطلقة!

قال محمد:

ـ نابليون بونابرت تزوج مطلقة هي جوزفين.

قال الدكتور عزمي:

ـ ولكن عندما أصبح أمبراطوراً طلقها.. وما الزعيم إلا أمبراطور اختاره الشعب. له حقوق الأمبراطور وواجبات الأمبراطور.. واختيارك لجوزفين بالذات اختيار غير موفق، فجوزفين خانت نابليون،

وجعلت عرش فرنسا فراش غرام . . إن من رأيي أن زواج الزعيم ليس مسألة شخصية يبت فيها وحده . إنها مسألة سياسية يبت فيها الحزب . . هذه هي الديموقراطية . . وفي التاريخ زعماء لم يستطيعوا أن يتزوجوا من يحبون لأن الحزب اعترض على هذا الزواج . . ومن رأيي أن يتم هذا الزواج بعد عودة الدستور، وبعد جلاء آخر جندي إنجليزي . . عندئذ يكون دور النحاس قد انتهى ، ومن حقه أن يتزوج كما يشاء! أما زواج قائد الجيش أثناء المعركة ، فهو خطأ تكتيكي!

وفوجىء محمد بأن آراء الدكتور عزمي هذه ليست هي آراءه وحده . كان عزمي دائماً يفكر بعقلية الأقلية المثقفة . . ولكن هذه المرة كان يفكر بعقلية الجماهير . التي تريد من الزعيم أن يتصرف كما تتصرف الآلهة!

ثم تضاعفت دهشة محمد عندما علم أن درويش باشا حبيب دعا عدداً من أعضاء الوفد لتناول طعام الأفطار . . وأن حديث المائدة كله كان عن زواج الزعيم . . وأن درويش باشا كان متحمساً ضد هذا الزواج . . وأنه أقنع كل الأعضاء بأن هذا الزواج ليس في مصلحة النحاس، ولا في مصلحة الوفد، ولا في مصلحة الشعب . . وأن الأعضاء أصيبوا بالذعر عندما علموا أن رئيس الوفد سيتزوج من سيدة مطلقة!

وكانت زبيدة قد أخبرت محمداً قبل ذلك بحديث عوني باشا معها عن الزواج، والخطة التي وضعها لإفساده . . وعجب أن يرقص أعضاء الوفد على أنغام طبلة الحكومة ، وأن يقولوا كل ما تمنت أن تقوله ، وأن يثوروا كما أرادتهم أن يثوروا . .

ولاحظ في طوافه اليومي على الوزارات أن خبر الخطبة على ألسنة عدد من الموظفين، على الرغم من أن النبأ لم ينشر في الصحف . .

أتكون الحكومة هي التي شجعت على تسرب النبأ، ليعم السخط على هذا الزواج، ولتدق إسفيناً في جبهة أعضاء الوفد المتراصة، وتشغلهم بمسألة جانبية عن المسألة الكبرى التي تشغلهم وهي محاربة الإنجليز ومحاربة الطغيان؟!

وقرر محمد أن يذهب إلى الدكتور ماهر، ويبلغه بالخطة التي وضعها عوني باشا لإفساد هذا الزواج وتلويث اسم سميحة شريف. .

وقال له الدكتور ماهر:

ـ إنني معك في أن هذه السيدة سيدة فاضلة. ورأيي الشخصي أن النحاس ليس صغير السن، ليتزوج من فتاة بكر صغيرة عمرها ١٧ سنة. . مثل هذا الزواج إذا حدث، فستكون نتائجه أوخم من زواجه من مطلقة. . ولكن العقدة أن هذه المسألة الشخصية أصبحت الآن موضع مناقشة بين أعضاء الوفد. . وأنا رأيي أن زواج الزعيم مسألة سياسية وليست مسألة شخصية. . ولا أستطيع أن أعترض على حق أعضاء الوفد في هذه المناقشة ما دمنا حزباً ديمقراطياً. ومن المصلحة ألا يحدث انقسام في الوفد بسبب هذه المسألة. إن بعض الأعضاء ثائرون ثورة غريبة لأن الرئيس سيتزوج من مطلقة. . وهذا شيء لا أفهمه. . أفهم مثلاً أن يعترضوا بحجة أن سمعتها سيئة، مع أنني تأكدت أن سمعتها طيبة جداً.

قال محمد:

ـ إن عوني حافظ باشا وضع خطة لتلويث سمعة هذه السيدة البريئة.

قال ماهر:

ـ هذا هو وجه الخطورة . . إذا نجحت الحكومة في إلقاء الطين على هذه السيدة البريئة، فسيقول بعض الناس: الباب الذي يجيء منه الريح علينا أن نسده ونستريح!

قال محمد:

ـ ولكن لا يمكن للأغلبية أن تخذل النحاس في هذا الموقف.

قال ماهر:

ـ المؤسف له أنني أنا والنقراشي فقط موافقان على هذا الزواج . .

قال محمد في دهشة:

ـ ومكرم؟

قال ماهر:

ـ مكرم متردد . . حائر بين حبه للنحاس ورأيه الشخصي . . ورأيه الشخصي أنه لا يجوز للرئيس أن يتزوج من سيدة مطلقة!

قال محمد:

ـ حتى مكرم؟!

قال ماهر:

ـ حتى مكرم . . ولكن يجب ألا تلوم مكرم. إنه متأثر بآراء أعضاء الوفد من الصعيد . . وقد يكون السبب في الموقف الذي اتخذته أنا والنقراشي، أن النحاس حدثنا عن هذه السيدة. وعرفنا مدى ارتباطه بها . . وربما لو أن النحاس جمع أعضاء الوفد وحدثهم بنفس الصراحة التي حدثنا بها لانقلبوا متحمسين مؤيدين لهذا الزواج . . ولكن المهم أن

نحافظ على سمعة الزعيم . .

قال محمد :

ـ سمعة الزعيم؟ إنها تصان بالوقوف أمام الذين يلوثون هذه المرأة الطاهرة . . بمحاربة الذين يلطخونها بالعار . . لا بالتراجع أمام هذا الهجوم الغادر الذي لا يرعى ذمةً ولا شرفاً ولا ضميراً!

قال ماهر :

ـ أنا لا تنقصني الشجاعة الأدبية لأقول ما أعتقد. ولكن في بعض الظروف تكون الحكمة أكثر شجاعة من الجرأة. يكون التراجع أكثر فدائية من الانقضاض . . إنني أعتقد أنه إذا عولجت المسألة بحكمة فيمكن أن تمر بسلام . . لقد كان رأيي في أول الأمر أن يتزوج النحاس فوراً ويضعنا كلنا أمام الأمر الواقع، ولو كنت مكانه لفعلت هذا . . ولكن تأجل الزواج وتسرب أنبائه، جعلاه مضغة في الأفواه. ومن هنا أصبحت أرى أن تهدئة العاصفة الآن خير من الوقوف في مواجهتها . .

قال محمد :

ـ ولكن الموقف الذي يقفه أعضاء الوفد يحوّل هذه المسألة من مسألة شخصية إلى فضيحة علنية، وخلاف مدوٍ في الآفاق . . وهكذا نلعب لعبة الحكومة ونطعن أنفسنا بالسكين الذي شحذته لذبحنا . . ثم إن عذاب النحاس يحزنني!

قال ماهر :

ـ عذاب النحاس يحزنني . . ولكن عذاب المرأة البريئة يحزنني أكثر . . يحزنني أن يتحدث الناس عنها كأنها مجرمة سرقت زعيم

الأمة. . بينما هي في الواقع كأنها أخت أي واحد منا، أو ابنة أي واحد فينا! الذي يؤلمني أننا نصدق بسهولة الاتهام، ونصدق بصعوبة الدفاع. نسارع ونتبرع بالسكاكين لنغمدها في الذين وقعوا بين أيدينا. ونتردد في أن نتقدم بالضمادات لنضمد جروحهم؟ . . خطايانا التي يعرفها الناس ليست خطايانا، ومزايانا التي يشيد بها الناس ليست مزايانا. . أعرف أناساً يظنهم الناس شياطين وهم ملائكة. . وأعرف آخرين تشير إليهم كل الأصابع بأنهم أطهار، وهم يعيشون في الخطيئة والإثم والعار. . ومن هنا أتردد في الحكم على شرف أي امرأة. وأشعر بضيق عندما أرى بعض الناس يغتصبون حقوق القضاة، بل حقوق الآلهة، ويضعون أناساً في الجنة وأناساً في النار بغيرحساب. . ولقد سمعت اليوم أن زميلي درويش باشا حبيب عضو الوفد عرض على زملائنا صورة سميحة شريف وهي ترتدي البنطلون. .

قال محمد بذعر:

ـ البنطلون؟

قال ماهر ضاحكاً:

ـ نعم البنطلون! ولم أر أنا في هذه الصورة ما يدعو إلى كل هذه الضجة. إن النساء في أوربا يرتدين البنطلون. . ويمكن أن تكون هذه صورة لها داخل بيتها. ولكن زملائي لم يروا في حياتهم سيدة مصرية بالبنطلون، واعتبروا هذه الصورة دليلاً على أنها امرأة فاجرة. . وبعضهم تعلم في أوربا، وسمع تعبيراً فرنسياً يقول «المرأة ترتدي البنطلون في بيتها» ومعناه أنها هي «الحاكمة بأمرها في البيت». . وترجموا هذه الصورة على أن سميحة شريف سوف تتحكم في الزعيم وتتدخل في شؤون السياسة!

قال محمد في خيبة أمل.

ـ لم أتصور أن سيدة فاضلة مثل سميحة شريف تلبس البنطلون.

قال الدكتور ماهر:

ـ ليست الملابس هي التي تصنع الأطهار والخاطئين.. الطهر والخطيئة في داخل النفس وليس في البنطلونات والفساتين.. والذي أدهشني ليس الصورة، وإنما وصول هذه الصورة إلى زميلي درويش باشا حبيب.. فمعنى هذا أن هناك أيادي تحاول أن تلوث هذه السيدة المسكينة، وتسرق صورها العائلية، لتستعملها خناجر تطعنها بها.. وهي لا تقصد أن تطعنها وحدها، وإنما تقصد أن تطعن الزعيم نفسه.. وهذا هو الذي يجعلني أرى أن نعالج المسألة كأنها مسألة سياسية وليست مسألة شخصية.. وأن نعالجها بهدوء.. لنفوت على خصومنا العاصفة التي أرادوا إثارتها.

واقتنع محمد بأن البنطلون ليس دليلاً على أن السيدة سميحة شريف سيئة السلوك!

وعندما ترك محمد الدكتور ماهراً، وذهب إلى لقائه اليومي مع زبيدة، فاجأته بقولها:

ـ إن عوني حافظ قال لي إنه حصل على صورة فوتوغرافية لخطيبة النحاس باشا وهي ترتدي البنطلون، وأنه جعل هذه الصورة تتسرب إلى أعضاء الوفد، وأنه أرسل نسخة أخرى منها إلى النحاس في خطاب بتوقيع «أبناؤك المفجوعون» وقالت زبيدة إنها سألت زوجها:

ـ من أين أتيت بهذه الصورة؟

فقال عوني حافظ ببساطة:

ـ حصلنا عليها من مطلقها. . إنه لا يزال يحبهـا. . ومستعد لأن يدفع نصف ثروته الضخمة ليمنع هذا الزواج.

■■■

وذهب عدد من أعضاء الوفد إلى النحاس، وطلبوا منه أن يعدل عن هذا الزواج فثار فيهم وقال:

ـ لست طفلاً! وأرفض أن يكون أحـد وصيّاً عـلي! إنني أخذت المـرأة التي تشرفني وتشرفكم! إنني اخترت هذه السيدة بعد تجربة دامت ثلاث سنوات! هذه المرأة وحدها تستطيع أن تتحمل الفقر الذي أعيش فيه! تستطيع أن تصمد ورائي! تستطيع أن تجوع معي!

قال درويش باشا حبيب:

ـ نحن لا نشك في صدق حكمك، ونؤمن بحكمتك، ونقبل كل ما ترضاه ولكن الناس لهم رأي آخر!

قال النحاس:

ـ أنا لا يهمني رأي الناس في مسألة زواجي. أنا الذي سـأتزوج وليس الناس. . ماذا يريد الناس أكثر ممـا فعلت لهم؟ تحملت الذل والاضطهاد من أجلهم. . حرمت نفسي من كل راحة في سبيلهم. . عرّضت حياتي للقتل دفاعاً عن حقوقهم. . هل يستكثر الناس علي أن أختار المرأة التي أثق بها وأطمئن إليها؟ هل يستشيرني الناس في زواجهم حتى أستشـيرهم في زواجـي؟. إنـني لم أستشر أحـداً في هـذا الـزواج. . إنني استخـرت الله وسـألت قلبي وضمـيري وعقـلي. . وأجمع قلبي وضميري وعقـلي على هـذه السيدة دون سـواها. . ولا أسمح لأحد أن يتدخل في هذه المسألة أو يفاتحنى فيها بعد الآن!

قال درويش باشا وهو يخرج من جيبه القنبلة التي خبأها:

- إن هذه صورة السيدة سميحة وهي مرتدية بنطلوناً!

وأمسك النحاس بالصورة وضحك مقهقهاً:

- هل هذا هو مستندكم الوحيد لبطلان الزواج! إنني أعرف قصة هذه الصورة. سمعتها من هذه السيدة نفسها قبل ثلاث سنوات. كان زوجها في باريس، واشترى لها بنطلوناً، فقد انتشرت في تلك الأيام موضة بنطلونات السيدات، وطلب منها أن ترتدي البنطلون، فرفضت فأصر أن ترتدي البنطلون. فارتدته تحت التهديد والتقط لها صورة بالبنطلون. . وغضبت من هذا التصرف وتركت بيتها إلى بيت أسرتها، فكتب زوجها خطاباً بخط يده يعتذر فيه عن إرغامها على ارتداء هذا البنطلون ويقول في الخطاب إنه كان سكران عندما أرغمها على ذلك. . وعندما تم الطلاق تقدم الهلباوي بك محامي الزوج بهذه الصورة إلى المحكمة دليلاً على استهتار الزوجة!

وكنت أنا محامي السيدة، فقدمت خطاب الزوج بتوقيع يده!

فهل السيدة التي يرغمها زوجها على ارتداء البنطلون امرأة فاجرة؟ أنا لا أرى في البنطلون فجوراً. وأرفض أن أتلقى دروساً من أحد. . إنني محافظ أكثر من أي واحد منكم. . تفضلوا!

وخرج أعضاء الوفد مطرودين!

■ ■ ■

وخرج الأعضاء المتحمسون لفسخ الخطبة ثائرين. . واتفقوا على أن الحل الوحيد هو أن يلجأوا إلى أم المصريين السيدة صفية زغلول. إنها

الأم الروحية للثورة، وهي موضع احترام كل أعضاء الوفد، وفي مقدمتهم النحاس. يلجأون إليها في الملمات، ويستشيرونها في الأزمات، ويعرفون شدة تمسكها بالأخلاق والتقاليد. .

وكانت تقيم وقتئذ في عزبتها بمسجد وصيف. . فاستقلوا عدداً من السيارات، وطلبوا مقابلتها لأمر هام وخطير. .

واستقبلتهم على الفور، فقبلوا يديها وقصوا عليها قصة خطبة النحاس وقالوا إن لديهم معلومات عن أن السيدة سميحة سيئة السمعة، وأنهم علموا أن لدى الملك فؤاد تقريراً من عوني باشا حافظ وزير الداخلية يقول فيه بالحرف الواحد إن هذه السيدة سيئة السمعة. . وإنهم لم يجرؤوا على أن يخبروا النحاس باشا بهذه المعلومات. وإنها وحدها بصفتها أم الجميع تستطيع أن تصارح النحاس بما عجزوا عن أن يصارحوه به!

وسكتت حتى انتهوا جميعاً من قصصهم ورواياتهم فقالت لهم صفية هانم:

ـ إن لساني لم ينطق طوال حياتي باتهام أي امرأة أنها سيئة السمعة. كيف تريدون مني في نهاية عمري أن ألوث لساني بهذا الاتهام؟. . ثم إنني أم المصريين. يعني أم كل رجل وامرأة في مصر. . كيف تطلبون مني أن أقول عن واحدة من بناتي إنها سيئة السمعة؟

قالوا لها:

ـ ولكن لدينا معلومات أكيدة أنها سيئة السمعة. .

قالت:

ـ إن الله حدد شروطاً معينة لاتهام امرأة بأنها زانية. اكتفى

بشاهدين للزواج، ولكنه تمسك بأربعة شهود فيما يتعلق بهذه الجريمة. . هل كان واحد منكم شاهداً على هذه الخطيئة التي تتهمونها بها؟

قالوا:

- لا. . لم نشهد شيئاً. ولكن سمعة الزعيم هي التي تهمنا.

قالت:

- وسمعة كل امرأة في مصر تهمني كما تهمني سمعة الزعيم!

وألحوا عليها في أن تتدخل. وذكروها أن النحاس خليفة سعد، وأن أي شيء يمس خليفة سعد، يمس سعد زغلول نفسه.

قالت:

- كان سعد أباً للمصريين كلهم. ولا يرضيه في قبره أن أتهم إحدى بناته في شرفها. وبأي حق تحاكمونها وتحكمون عليها غيابياً! هل سمعتم دفاعها؟ ما الذي يدريكم أنها ليست مظلومة؟ ما يدريكم أنها ضحية حملة من الكذب والحقد والافتراء؟ ما يدريكم أن الحكومة عرفت أن النحاس باشا يريد أن يتزوجها فلفقت لها هذه التهم، كما لفقت عشرات التهم الكاذبة ضدكم؟ كيف تطالبون بالعدالة لأنفسكم، وتأبونها على امرأة ضعيفة، وأنتم تحكمون على شرفها بالإعدام؟!

قالوا:

- إن المسألة هي شرف الأمة كلها!

قالت:

ـ إن شرف الأمة هو شرف كل رجل وامرأة فيها. وتلويث شرف امرأة بريئة يلوث شرف الأمة بأجمعها. إنني أتحدث معكم كأم، أم لكم، وأم لجميع المصريين. ومهمة كل أم أن تحمي شرف كل أبنائها، لا أن تلوث هذا الشرف.. ولا أن تأخذهم بالشبهات والإشاعات!

قال درويش باشا:

ـ لقد كنّا نتمنى أن تختاري أنت بنفسك الفتاة الصالحة لتكون زوجة الزعيم.

قالت صفية:

ـ إنني لا أوافق على مبدأ أن تختار الأم لأولادها زوجاتهم.. أو تتدخل في هذه الشؤون وإلا لانقلبت من أم إلى حماة!

قال درويش باشا:

ـ كنا نتمنى أن يتزوج الزعيم من «أم مصريين صغيرة»، من فتاة تصلح أن تكون زوجة زعيم!

قالت صفية:

ـ أمهات المصريين وزوجات الزعماء لا يبعن في الدكاكين كعرائس المولد! المصنع الذي يصنع زوجة الزعيم هو الزعيم نفسه. عندما تزوجني سعد كنت صفراً، كنت لا شيء، كنت أشعر أنه القمة وأنا السفح.. والرجل الضعيف يحني قمته لتقترب من السفح. والرجل العادي يحني قامته وتشب زوجته المحبة على قدميها حتى يلتقيا. ولكن الزعيم العبقري لا يحني قمته ولا يحني قامته، بل يشجع المرأة التي يحبها على الصعود إلى قمته. وليست هذه مهمة سهلة، إنها مهمة شاقة،

صعبة، ومتعبة ولكن المرأة تستسهلها وتتلذذ بها إذا أحبت رجلها. لقد كنت تلميذة سعد أكثر مما كنت شريكته وعندما تحب المرأة رجلها وتحترمه تتركه يشكلها كما يهوى ويريد. بل هي تشكل، لا إرادياً، بالصورة التي يريدها. وقد يدهشكم أن تعلموا أنني لم أمارس مهمة زوجة الزعيم في وجوده أبداً. إنني كنت أجلس تحت قدميه كقطة صغيرة. لا أتدخل في شؤونه. لأنه ليس من حق التلميذة أن تدير المدرسة. وعندما نفى الإنجليز زوجي، مارست مهمة زوجة الزعيم دون أن يطلب مني ذلك. ودون أن يخطر بباله أنني أصلح لقيادة الثورة. وفي كل مرة يعود من منفاه، كنت أعود إلى مكاني الطبيعي تحت قدميه. أنسى أنني في يوم من الأيام كنت أستقبل الوفود، وكنت أصدر المنشورات الثورية، وكنت أقود المعركة. وعندما مات سعد زغلول فعلت ما تفعله كل أم عندما يموت أبو أولادها، فتضطر أن تكون أباً وأماً في الوقت نفسه.

قال درويش باشا:

ـ نحن نعتبرك زعيمة ثورتنا.

قالت صفية:

ـ أنا لست زعيمة الثورة، ولا أحد زعمائها، أنا أعتبر نفسي ضميرها. أنا أتحرك كما يتحرك الضمير.. وأرضى كما يرضى الضمير، وأؤنب كما يؤنب. ولكني لست عقلاً ولا يداً.. أنتم عقولها وأنتم أيديها..!

قال درويش باشا:

ـ وهل يرضى ضمير الثورة أن ترتدي زوجة الزعيم بنطلوناً؟

قالت صفية:

ـ الزوجة لا ترتدي البنطلون إلا إذا خلع الزوج بنطلونه وأعطاه للمرأة. . !

قال درويش باشا:

ـ هل ارتديت أنت بنطلوناً في يوم من الأيام؟

قالت صفية:

ـ زماني يختلف عن زمانكم. ولا أستطيع أن أقيد بتقاليدي من يجيء بعدي بخمسين سنة. كل ما أقوله إن مبادىء الأخلاق لا تتغير أبداً، ولكن الأزياء تتغير دائماً! أنا مثلاً لم أضع بودرة على وجهي في يوم من الأيام، حتى عندما كنت عروساً في ليلة زفافي! ولكنني لا أعتبر المرأة التي تضع البودرة فاسدة الأخلاق.

قال درويش باشا:

ـ نحن فلاحون ولا يرضينا أن يتزوج زعيمنا من سيدة مطلقة؟ لا يرضينا أن يتزوج من سيدة التقطت لها صورة وهي في بنطلون. . لا يرضينا أن يتزوج سيدة أثير حولها كلام في المحاكم، وكتبت عنها التقارير. . لا يهمنا هل هي خاطئة أو مظلومة. . الذي يهمنا أننا لن نستطيع أن نرفع رؤوسنا في بلادنا إذا تزوج رئيسنا مثل هذه السيدة. . سنمشي ورؤوسنا منكسة إلى الأرض. .

قالت صفية:

ـ ليست كل امرأة اتهمت ظلماً وعدواناً تحل عليها اللعنة وتعامل معاملة المنبوذات؟ إن خصوم المسيحية اتهموا السيدة مريم العذراء

ظلماً، ومع ذلك نحن نقدسها على مر الأجيال، المسيحيون والمسلمون معاً. . !

ولم يقتنع الغاضبون الساخطون بوجهة نظر السيدة صفية، إنها أمهم فعلاً، وهم يحترمونها. ولكنها لم تعش في الريف المصري لتعرف مقدار تمسك الأسر القديمة بالتقاليد. إنها تجهل أن بعض الرجال الكبار لا يزالون إلى اليوم يلومون الزعيم سعد لأنه أيّد سفور المرأة، وأنه طالب المرأة في أثناء الثورة برفع الحجاب. إن بعض الأعيان انفصل عن الثورة لهذا السبب وحده!

وكانت صفية في السبعين من عمرها. ولكنها احتفظت بجمال بشرتها في هذه السن. كأن البودرة والأحمر والمساحيق هي التي تحفر التجاعيد في وجوه النساء. وكأن شعرها الأبيض الغزير أشبه بتاج من الفضة فوق رأسها. تاج يضاعف من جمالها وجلالها. وكانت عيناها سوداوين واسعتين. واحتفظتا بالرغم من الزمن بجمالهما، وكانت ترتدي ثوباً أسود لم تخلعه من يوم وفاة زوجها إلى أن ماتت. يغطي قدميها، ويصل إلى راحتيها.

وكان في عنقها عقد طويل من اللؤلؤ، تلعب بحباته وهي تتحدث. وكانت كلماتها تسيل طيبة ورقة وحناناً. . وفي بعض الأحيان تتحول إلى طلقات رصاص. وكانت معروفة بين أعضاء الوفد بصراحتها. . لا يعجبها الحال المائل، ولا تقبل أنصاف الحلول. وكان أعضاء الوفد يخافون منها، كما يخاف الأولاد الصغار من أمهاتهم. ولهذا وضعوا فيها كل آمالهم. إنها وحدها التي تستطيع أن توقف هذا الزواج.

وأدهشهم عنادها ورفضها أن تتدخل لتوقف الكارثة. كيف تدافع امرأة لم تضع بودرة على وجهها في يوم من الأيام عن امرأة ترتدي

البنطلون. كيف تقبل أم المصريين أن تجلس في مقعدها في يوم من الأيام سيدة أثيرت حولها الشبهات؟.

وتشجع درويش باشا في نهاية الحديث وقال:

ـ هل ترضين أن تجلس هذه السيدة في مقعد أم المصريين. بعد وفاتك بعد عمر طويل..؟

قالت باسمة:

ـ إن لقب الأم.. هو اللقب الوحيد الذي لا يورث!

قال درويش باشا:

ـ أخشى أن يقول التاريخ في يوم من الأيام: هذا رجل رفعته أمة وأسقطته امرأة!

قالت: إن المرأة لا تسقط الرجل إلا إذا كان عنده استعداد للسقوط.. ولكنني أخشى أن يقول التاريخ في يوم من الأيام: هذه امرأة بريئة داسها رجال ظالمون بأقدامهم، وهم يهتفون مطالبين بالعدالة للملايين!

■■■

خرج محمد من إدارة جريدة «الجهاد» تعيساً حزيناً. لقد تشاجر مرة أخرى من أجل سميحة شريف. في كل مجلس يشترك فيه تحدث مشاجرة. كل المشتركين في المناقشات يقفون ضده. كلهم يهاجمون سميحة وهو وحده الذي يدافع عنها. الجميع يلعنونها. الشيوخ والشبان، المسلمون والأقباط، المحافظون والمتحررون، خصوم الوفد وأنصاره. لم تجتمع الحكومة والمعارضة على رأي واحد إلا في رأيهما ضد

هذا الزواج، كأن الدولة بكل من فيها شنت الحرب على امرأة واحدة!

وزبيدة تشاجرت مع زوجها عوني حافظ بسبب دفاعها عن سميحة. وتشاجرت مع أبيها وأخيها محمود لأنهما هاجما سميحة بعبارات لا تليق. هل من الممكن أن يكون الشعب كله على خطأ، وهو وزبيدة وحدهما على حق. هل أصيب الناس جميعاً بالعمى، واحتفظ هو وزبيدة بعيونهما؟ ممكن جداً. إنه قرأ بعينيه دليل براءتها في درج مكتب الرجل الذي شن عليها هذه الحرب الشعواء. كيف يكذب عينيه ويصدق الإشاعات؟ هل سمعة المرأة هي ألسنة الناس، أم أن سمعتها هي حقيقتها؟.

طبيعة الناس تتلذذ برمي الناس بالطين أكثر مما تتلذذ برمي الناس بالورود. كأن أشواك الورود تجرح أصابعها، ونعومة الطين تريح هذه الأصابع! كأننا نجد لذة في أن نلوث شرف النساء، كلذتنا في قطع الزهور من الحدائق العامة.

كيف أصبح الناس في يوم وليلة أصحاب فضيلة، على رؤوسهم عمائم، وفي أيديهم مسابح، يحكمون أحكاماً نهائية لا تقبل المناقشة، يقيمون على ألسنتهم مشانق، ويعلقون فيها امرأة لم ترتكب إثماً ولا جرماً سوى أنها أحبت زعيم أمة، وأحبها هذا الزعيم؟!

وشعر محمد أنه ضاق بهذا الوسط، وسط السياسة والصحافة، حيث يتبادل الناس التهم كما يتبادلون التحية، وأحس برغبة عجيبة في أن يعود إلى وسطه، إلى الأرض التي خرج منها، إلى جزيرة بدران. هؤلاء الناس الطيبون الذين يستغفرون الله عدة مرات قبل أن يتهموا بريئاً. هؤلاء الذين لا يعرفون الدسائس والمناورات. ولا تصل إليهم

الإشاعات التي تنطلق من نادي محمد علي أو من إدارة الأمن العام . .

■ ■ ■

واتجه محمد إلى قهوة سيدي فرج . . ووجدها غاصة بالزبائن الذين جاءوا يقطعون الوقت حتى موعد السحور. ودهش أنه لم ير أحداً منهم يلعب الطاولة، أو يحرك قطع الدومينا، أو يلعب الورق. . لا بد أنهم يصومون عن هذه اللعبات بمناسبة شهر رمضان. . ورآهم يتجمعون حول الشيخ فخر الدين إمام مسجد خورشيد. واعتقد أنهم يستمعون إلى حديث ديني من الشيخ الوقور، بلحيته البيضاء. . ولم يتحرك واحد من الجالسين لتحيته، ولم يشعروا بقدومه، فقد كانوا منهمكين في تتبع حديث الشيخ فخر الدين. .

وجاء محمد بمقعد وجلس في مؤخرة الصفوف. . وإذا به يكتشف أن حديث إمام جامع خورشيد ليس عن الدين ولا عن شهر رمضان، إنما كان عن زواج النحاس باشا!

قال الشيخ فخر الدين:

ـ الطلاق أبغض الحلال عند الله. كان خيراً للنحاس لو تزوج بكراً. وهز الجالسون رؤوسهم موافقين مؤمنين!

ووجد محمد نفسه يتدخل بغير دعوة في الحديث ويعترض الشيخ قائلاً:

ـ أي شريعة تعتبر المطلقة منبوذة محرمة على الناس؟!

قال الشيخ:

ـ وما الحكمة من زواج النحاس من امرأة مطلقة؟

قال محمد:

ـ الحكمة أنه يحبها!

وتدخل الشيخ فتح الباب إمام مسجد سيدي فرج وقاطع محمداً قائلاً:

ـ الحب ليس حكمة.. إنه جنون!

قال الحاج مغازي الفقي المكوجي:

ـ كل باشوات مصر كان يشرفهم أن يزوجوا بناتهم الأبكار لزعيم الأمة.. دون حاجة لأن يتزوج مطلقة!

قال المعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي فرج:

ـ إنه رجل فقير، وكان يجب أن يتزوج من سيدة غنية.. وبذلك يقطع الطريق على الحكومة التي تحاربه في رزقه.. إن كثيراً من الأغنياء يتمنون أن يزوجوا بناتهم لزعيم الأمة.. ليس المهم أن يتزوج الزعيم من فتاة جميلة المهم أن يتزوج سيدة غنية تنفق مالها على الحركة.. إن الحركة في حاجة إلى مال.. والحكومة تحاربنا بالمال وكلنا فقراء مفلسون!

وأطل الأسطى حنفي عبد الكريم برأسه الصغير على الجالسين وقال:

ـ يا واخد القرد على ماله.. يروح المال.. ويفضل القرد على حاله..!

وضحك الجالسون، فقال الشيخ فخر الدين:

ـ زوجة زعيم الأمة هي المثل الأعلى لكل نساء مصر . . كل زوجاتنا يخفن من الطلاق كما يخفن من الموت . . يعتقدن أن المرأة إذا طلقت من زوجها فقدت كرامتها واعتبارها، فإذا جاء زعيم الأمة وتزوج من مطلقة فسوف يكون هذا تحريضاً لكل زوجة من زوجاتنا على العصيان . ولن يهمها أن تتطلق، ما دام زعيم الأمة تزوج من مطلقة . .

وأثارت هذه الكلمة حماس كل الأزواج الموجودين . كل واحد منهم هدد زوجته بالطلاق في يوم من الأيام، فتهاوت أمام هذا التهديد . . كل واحد منهم أقسم بالطلاق، فانهارت زوجته أمام القسم الذي يلوح لها بالمصير المظلم وبعالم من الضياع . . كل واحد منهم يعتبر الطلاق السوط الذي يلوح به أمام زوجته فتحني رأسها في ذلة وخضوع . . ها هو ذا الزعيم يسلب بهذا التصرف السوط من يد كل زوج منهم .

ورأى محمد في عيونهم أنهم لا يحاربون زواج النحاس حباً في النحاس، بقدر ما يحاربونه حباً في أنفسهم، واستمساكاً بأنانيتهم وحبهم للسيطرة على زوجاتهم!

وقال الشيخ فتح الباب إمام مسجد سيدي فرج :

ـ ويا ليتها مطلقة فقط، إنها ترتدي البنطلون!

وصرخ الجالسون في فزع :

ـ البنطلون؟!

واستعاذ بعض الجالسين بالله، وحوقل آخرون، ومصمص غيرهم شفاههم حزناً وأسى على مصير الزعيم . .

وسكت محمد على مضض . ولكن الأمر الذي استوقف نظره هو

كيف عرف الشيخ فتح الباب إمام مسجد سيدي فرج بحكاية البنطلون؟ إنه يعلم أن الحكومة توزع على أئمة المساجد خطب الجمعة لإلقائها بين المصلين، وتدس ما تريد أن تقوله للشعب خلال هذه الخطب، فهل الحكومة هي التي وزعت قصة البنطلون بين خطباء المساجد إمعاناً في التشهير بهذا الزواج، فسأل محمد الشيخ فتح الباب في احترام:

- إنني على ثقة أن فضيلتكم لا يمكن أن تلقوا الكلام على عواهنه.. ولكن هل فضيلتكم متأكد من حكاية البنطلون هذه؟

- نعم متأكد.. متأكد جداً.. إنني سمعتها من أوثق المصادر.

قال محمد متخابثاً:

- أنا واثق أنك سمعتها من أوثق المصادر. ولكن أليست هذه المصادر نفسها التي قالت لك إن الانتخابات التي أجراها صدقي باشا حرة مائة في المائة، وقلت هذا في خطاب الجمعة، وكل المصلين يعلمون أنها مزيفة.. أو ليست هذه المصادر هي نفسها التي قالت لك منذ عام أن الحكومة نجحت في القضاء على الأزمة الاقتصادية، ونحن جميعاً نكاد نموت من الجوع..؟ أو ليست هذه المصادر هي نفسها التي قالت لك إن صدقي باشا سيخرج الإنجليز من مصر خلال ثلاثة شهور، وقد مضت الآن تسعة شهور على خطبة الجمعة هذه ولم يخرج من مصر جندي إنجليزي واحد؟ ما يدرينا أن أوثق المصادر هي كذبت عليك كما كذبت كل مرة.. وأنها أرادت أن تلطخ زعيم الأمة بالطين.. فلم تجرؤ على أن تهاجمه.. فهاجمت المرأة التي أراد أن يتزوجها..؟

وأرتج على الشيخ فتح الباب، ولم يجد جواباً، فاستنجد بزميله الشيخ فخر الدين وصاح المعلم وهدان أبو خطوة:

ـ كلامك معقول يا محمد. . إنهم يكذبون علينا كما كذبوا كل مرة!

قال الحاج مغازي الفقي المكوجي:

ـ إنني حضرت خطب الجمعة الثلاث التي أشار إليها محمد، وكدت أقوم وأحتج في المسجد، لولا احترامي لبيت الله!

وانطلق أبو عوف صاحب دكان السجائر يقول:

ـ هل كفر النحاس لأنه تزوج مطلقة، ولم يكفر صدقي باشا لأنه قتل مئات من عمال العنابر، لأنه ملأ السجون بالأبرياء، لأنه خرب بيوت المعارضين، لأنه جعل ألوف المزارعين يفلسون وتباع أملاكهم بالمزاد العلني؟. كل هذه الجرائم سكتم عنها كأن الدين بخير، فإذا تزوج زعيم الأمة بمطلقة اهتزت الدنيا، وجئتم إلى القهوة تنفثون السموم؟. مالها المطلقة؟ أنا متزوج سيدة مطلقة من ثلاثين عاماً وأنا سعيد معها. رب مطلقة أشرف من بكر عذراء!

وأطل الأسطى حنفي عبد الكريم برأسه وقال:

ـ الجزمة الجديدة تدوس عليها توجعك وتزيق. . والجزمة القديمة تدوس عليها تريحك. . وتقول لك دوس كمان!

وانتفض الشيخ فتح الباب، وقام غاضباً، وهو يدفع أمامه الشيخ فخر الدين ويقول:

ـ إنكم تسخرون بالعلماء؟ تسخرون بالأناس الصالحين، ألا لعنة الله عليكم إلى يوم الدين!

وانفجرت قهوة سيدي فرج تضحك، وتشيع الشيخين الغاضبين،

بالضحكات والابتسامات والقفشات!

■ ■ ■

وعاد محمد إلى بيته سعيداً. لقد كسب القهوة كلها إلى صفه. حول الساخطين على الزواج إلى ساخرين بأعداء الزواج. هل يستطيع أن يكسب هذا الشعب إلى رأيه كما كسب القهوة؟ ولكنه لم يكسب القهوة بسلاح الحقيقة؟! الحقيقة جعلتهم ينفضون من حوله، فلما أنكر الحقيقة هرعوا إلى تأييده! لقد شكك في حكاية البنطلون وهو يعلم أنها صحيحة. ولكنه أنكر حقيقة صغيرة ليؤكد حقيقة ضخمة! أتكون الحقيقة الكاملة هي امرأة بشعة، يجب أن نخفي عيوبها بالمساحيق ليؤمن بها الناس. أتكون الحقيقة العارية كالمرأة العارية تثير الناس ولا تقنعهم، نغطيها برداء لتتحول إلى قديسة؟!

لقد كان في إمكان النحاس مثلاً أن ينكر صورة البنطلون، ويدعي أنها صورة مزورة، وسوف يصدقه الساخطون على الفور، ولكنه صارح الساخطين بالحقيقة كاملة فضاعف من ثورتهم!

وتذكر محمد أن كل متاعبه مع نجوى المناسترلي جاءت من أنه قال لها الحقيقة. قال لها إنه يحب امرأة أخرى! ولو أخفى عنها هذه الحقيقة لما طرد من مدرسة السعيدية، ولما لفقت له التهم والأكاذيب..! عيبه أنه يعشق الحقيقة. إن صناعته هي البحث عن الحقيقة. إنه يقولها للناس بغير غش ولا تزييف. إنه يندم الآن لأنه أخفى الحقيقة على رواد القهوة. يشعر بأنه لم يكسب المعركة كما توهم في أول الأمر. إنه خسرها.. خسرها عندما أخفى الحقيقة. ترى لو كان قص على رواد القهوة قصة حب النحاس كاملة فهل كان يستطيع أن يكسبهم لتأييد فكرة الزواج؟ من المؤكد أنه كان سيكسبهم، ولكنه تعجل..

أراد أن ينتصر انتصاراً على حساب الحقيقة. بينما سلاح الحقيقة ليس سلاحاً سهلاً فهو يحتاج إلى جهد أكثر من سلاح الكذب!

الأكذوبة كبالون الأطفال يعلو بسهولة ثم يفرقع في الهواء. والحقيقة مثل الطائرة تحتاج إلى وقود وإلى طيارين أكفاء، وإلى آلات دقيقة لتعلو عن الأرض!

وشعر برغبة في أن يجرب الحقيقة كاملة على أبيه المعتوه. . وأجلسه إلى جواره وراح يقص عليه القصة بأكملها، بكل دقائقها وتفاصيلها. بما يقال ضد سميحة وما يقال لمصلحتها. لم يخف عنه كلمة واحدة. . وذكر كل ما يعانيه من عنت من أجل دفاعه عن الحقيقة.

وكان الأسطى حنفي جالساً إلى جواره يسمع في صمت كتمثال جامد لا حركة فيه ولا حياة. . وبعد أن انتهى محمد من روايته سكت. .

وبقي الأسطى حنفي صامتاً لا يتكلم كأنه انتقل فجأة إلى عالم آخر. .

وتضايق محمد من صمت أبيه فقال له:

ـ ما رأيك يا أبي؟.

ووقف الأسطى حنفي، واتجه إلى الباب صامتاً ثم استدار إليه وقال:

ـ يا اللي بتقول عني كيت وكيت. . بكره تندم وتقول يا ريت!

وأغلق الأسطى حنفي باب غرفته واستغرق في النوم!

ولم ينم محمد. بقي ساهراً يفكر. إن والده لم يقل له رأيه. لم يقل له هل يتزوج النحاس سميحة أم لا يتزوجها؟ لم يقل له هل يمضي في دفاعه عن الحقيقة أم يكتفي بما يفعل أبوه عندما يلقي كلمته ويمشي!

إن عيب أبيه أنه لا يعيش في الواقع أبداً.. إنه يعيش في الغد البعيد.. إن كل ما فهمه من المثل الشعبي الذي ذكره أبوه أنه سيجيء يوم يندم فيه كل الذين هاجموا سميحة شريف هذا الهجوم الظالم.. سيقولون ليت النحاس تزوجها!

كان هذا الأب المعتوه يتصور أن من الممكن أن يتخلى النحاس عن سميحة شريف بعد كل ما تحملت من أجله من مطاعن واتهامات.. وماذا سوف تكسب سميحة من ندم النادمين بعد أن تكون هي التي دفعت من دموعها وسعادتها وربما حياتها ثمن ظلمهم؟ ماذا يكسب المظلوم من ندم الظالم؟ دموع الظالم لن تمسح الدم من جروح المظلوم.. المظلوم أشبه بالجرح المفتوح. الزمن لا يستطيع أن يضمده، مصرع الظالم لن يشفيه، دموع الظالم لن تعيد الحياة للذين فقدوا الحياة. لن تعيد الشرف للذين ديس شرفهم بالأقدام، لن تعوض هذه الدموع سميحة عن السعادة التي فقدتها، لن تعيد الدموع إلى عينيها، لن تعيد الآهات التي انطلقت مذبوحة من قلبها!

لم يعجبه موقف أبيه السلبي.. إن الاعتماد على الزمن هو اعتذار المستضعفين عن ضعفهم وخورهم. سيبقى يدافع عن شرف سميحة شريف، ولو وقف وحده.. الدفاع عن شرف امرأة واحدة بريئة هو دفاع عن شرف كل امرأة، دفاع عن شرف أمه!

عوني باشا حافظ الذي قال لأمه في وجهها إنها عاهرة، هو نفسه الذي يقول عن سميحة شريف إنها عاهرة. هو الذي أطلق الرصاصة

الأولى، فاندفع السذج الطيبون البسطاء يطلقون الرصاص في نفس الاتجاه، وهم لا يعرفون أنهم يطلقون الرصاص على أنفسهم، على مستقبلهم . . !

■ ■ ■

وعندما عاد محمد إلى مكتبه في جريدة «الجهاد» صباح اليوم التالي. قال له عامل تليفون الجهاد إن معالي درويش باشا حبيب عضو الوفد يبحث عنه . . وأنه طلب أن يتصل به محمد على الفور . . واتصل محمد بدرويش باشا فدعاه لمقابلته على وجه السرعة في داره بمصر الجديدة . .

وركب محمد المترو وهو يعجب من هذه الدعوة العجيبة. إنه لا يحب درويش باشا. كل مرة لقيه فيها اصطدم به. وهو يعلم أنه قائد المعركة ضد سميحة شريف، هو الذي قدم صورتها في البنطلون . .

ودخل إلى بيت درويش باشا الضخم، فاقتاده سكرتيره الأستاذ حسن المنياوي إلى صالون فخم . .

وبعد قليل أقبل درويش باشا هاشاً باشاً مرحباً!

ودهش محمد من هذا الاستقبال الحافل الذي لم يتوقعه . .

وقال له درويش باشا:

ـ إن معلوماتي عنك أنك شاب وطني مستقيم . . وقد أثنى الدكتور ماهر ثناء عظيماً على رجولتك . . وشهادة الدكتور ماهر هي التي شجعتني على أن أدعوك لمقابلتي . .

قال محمد متواضعاً:

ـ إنه شرف عظيم أن تدعوني إلى بيتك . .

قال درويش باشا:

ـ سمعت أنك تدافع في كل مكان عن السيدة سميحة شريف..

قال محمد:

ـ نعم.. هذا صحيح..

قال درويش باشا:

ـ معنى هذا أنك تعرفها شخصياً. ولولا ذلك لما تحمست كل هذا الحماس، وتشاجرت مع كل من يحاول أن يمسها بكلمة سوء.. إن واجب الصديق أن يدافع عن شرف صديقه، وهذا خلق فاضل أهنئك عليه!

قال محمد:

ـ ولكنني لا أعرف السيدة سميحة شريف، وليست صديقتي، ولم أر وجهها!

قال درويش باشا:

ـ كل الذين سمعوك تتحدث عنها قالوا إن وجهك يحمر غضباً عندما يذكر اسمها، وتندفع تهاجم من يهاجمها، وتفقد أعصابك أثناء الدفاع.. كل هذا لا يفعله إلا من عرفها شخصياً!

قال محمد:

ـ ولكنني لا أعرف النحاس باشا وليس صديقي، وأتحمس للدفاع عنه. وأهاجم من يهاجمه، وأفقد أعصابي أثناء دفاعي عنه!

قال درويش باشا:

ـ يبدو عليك أنك لست سهلاً. لقد قيل لي إنك شاب صريح، وإذا بي أكتشف أنك مراوغ. أريد أن تصدقني القول: من الذي كلفك بالدفاع عن سميحة شريف؟

قال محمد:

ـ لم يكلفني أحد. ضميري هو الذي كلفني. . أنا مؤمن بأنها مظلومة وأنها شريفة، وأشعر أن من واجبي أن أدافع عن كل شريف ومظلوم. .

وحدق درويش باشا في عيني محمد طويلاً ثم قال له:

ـ وما رأيك في أن لدي معلومات أن الحكومة هي التي كلفتك بالدفاع عن سميحة شريف؟

قال محمد وكأن حية لدغته:

ـ كلفتني أنا؟

قال درويش باشا:

ـ نعم كلفتك أنت. إن مصلحة الحكومة في أن تلوث النحاس باشا. ولن تجد طريقة لتلويثه خيراً من أن يتزوج هذه السيدة!

قال محمد وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه:

ـ الحكومة لا تدافع عن سميحة شريف. إنها هي التي تلوثها بالطين. وصورة سميحة بالبنطلون التي عرضتها على أعضاء الوفد والنحاس باشا، هي صورة حصلت عليها الحكومة، وأعطتك إياها!

قال درويش باشا غاضباً:

ـ أعطتني إياها أنا؟! إنني حصلت على هذه الصورة بطريقتي الخاصة. . حصلت عليها من رجل وطني، مخلص، يغار على سمعة الزعيم كما أغار عليها. إنك تريد أن تبرىء نفسك باتهام الوطنيين الشرفاء المخلصين.

قال محمد:

ـ هذا الوطني الشريف المخلص هو أحد رجال عوني حافظ باشا وزير الدولة في وزارة الداخلية. . وأنا واثق أنه هو الذي أعطاه هذه الصورة ليسملها لك وتثير هذه الضجة ضد زواج النحاس!

قال درويش باشا ثائراً:

ـ لولا أنك في بيتي لطردتك. إنك جئت إلى بيتي لتهينني!

قال محمد وهو يقف لينصرف:

ـ أنا جئت لأقول الحقيقة!

ـ قال درويش باشا:

ـ بل إنك مكلف من الحكومة للدفاع عن عديمي الشرف، واتهام الأشراف الأطهار، إنك مشترك في مؤامرة لهدم الوفد!

■ ■ ■

وخرج محمد غاضباً دون أن يصافح درويش باشا.

ومشى محمد في شارع البارون أمبان على غير هدى. لقد اتهموه في شرفه لأنه يدافع عن الحقيقة. اتهموه بأنه عميل الطاغية لأنه يحاول أن يفسد مؤامرات الطاغية!

إن درويش باشا عضو الوفد يحكم عليه بأنه مشترك في مؤامرة لهدم الوفد. ولم يمض وقت طويل على الكلمة التي قالها له الدكتور ماهر بأن الوفد لن ينسى الخدمة التي قدمها له. إنهم لم ينسوا الخدمة فقط، بل إنهم بلسان عضو من أبرز أعضاء الوفد، شنقوه وهو على قيد الحياة!

غريب أمره. يحاول أن يمسح الطين عن اسم امرأة بريئة، فيعاقبه بإلقائه في الزفت والقطران!

هل أصبحت الحقيقة امرأة ملعونة. كل من اقترب منها أصيب باللعنة؟ كل من دافع عنها اتهم في شرفه؟ كل من آمن بها كفر بالمثل العليا ومبادىء الأخلاق؟ أيكون الذين يهاجمون المرأة المظلومة التي يحبها زعيم الأمة هم الوطنيون، والذين يدافعون عنها هم الخونة المارقون؟.

لقد غضب درويش باشا منه ذات يوم لأنه قال الحقيقة. قال إن صدقي باشا لم يمت!

وقد مرت شهور على هذه الواقعة، ولا يزال صدقي باشا على قيد الحياة، وبدأ يمارس عمله، ويذهب إلى مكتبه..

كل هذا لا يخجل درويش باشا، لا يجعله يرجع إلى الحق، بل يزيده كراهية له، ونفوراً منه لكل كذبة يسمعها عنه.. بعض الكبار صغار في نفوسهم. الكبير هو الذي يعترف بأنه أخطأ، والصغير هو الذي يصر دائماً أنه على صواب. كلما تبين خطأه أصر عليه، وتمسك به، فيصبح الخطأ هو كرامته، وهو يتصور أنه عندما يدافع عن الخطأ إنما يدافع عن كرامته!

ولقد رأى في درويش باشا العين الحمراء، عين رجل يتنمر له. لا

ينسى أنه أهانه أمام الأستاذ مكرم عندما أفحمه بحقيقة مرض صدقي باشا. لا ينسى أنه يدافع عن امرأة اتهمها في شرفها، كأنه ليس من حق المحرر الصغير أن يعارض رأي السياسي الكبير. . هم وحدهم الذين يفكرون ويقررون، ويحكمون على الناس بالإعدام أو بالحياة، وليس للصغار من حق إلا أن يؤمنوا على أقوال الكبار، ويهزوا رؤوسهم موافقين!

ولكنه لن يهتز لهذا التهديد. سيمضي في طريقه مدافعاً عن الحقيقة. لن يهمه أن الحقيقة ليس لها أنصار. لأنها أضعف من أن تحمي أنصارها. أما الباطل فهو دائماً صاحب السلطان، قادر على أن يهزم الحقيقة في كل معركة يدخلها، ما عدا المعركة الأخيرة!

سوف يتحمل الهزائم في المعارك كلها انتظاراً للمعركة الأخيرة. إن الله هو الحقيقة. . هو الحق. . ولن يتخلى الله عن الذين يؤمنون به.

■ ■ ■

أنهى درويش باشا حبيب حديثه الهامس مع سكرتيره الأستاذ حسن المنياوي وقال له:

ـ إنني الآن، بعد مقابلتي لمحمد عبد الكريم، أصبحت واثقاً كل الثقة أن هناك مؤامرة لهدم الوفد. . وأنت وحدك الذي تستطيع إفساد هذه المؤامرة. . لقد فشلت كل محاولاتنا لمنع هذا الزواج أمام عناد النحاس باشا وإصراره. . وفي يدك وحدك أن تنقذ النحاس وتنقذ الوفد وتنقذ البلد. .

ولقد اخترتك لتقوم بهذه المهمة لثقتي بوطنيتك وبإخلاصك، وبأنك على استعداد لأن تقوم بأي عمل فدائي من أجل إنقاذ الوطن. .

فهل أنت مستعد لأن تقوم بهذه المهمة التي شرحتها لك؟ .

قال الأستاذ حسن المنياوي :

ـ إنني مستعد . .

قال درويش باشا حبيب :

ـ لم يعد لدينا وقت . . إن عقد القران سيتم بعد أربعة أيام . . إعلم أنك ستقتل امرأة لتنقذ شعباً بأكمله!

قال الأستاذ حسن المنياوي :

ـ إنني مقتنع كل الاقتناع بهذه المهمة . . وأعرف أنني وحدي الذي أستطيع أن أقوم بها وأنقذ هذا الشعب من الفضيحة!

قال درويش باشا وهو يسلم الأستاذ حسن المنياوي لفافة :

ـ هذا هو السلاح . . الذي ستذبحها به!

لمعت عينا حسن المنياوي . . كان فيهما التصميم والفخر . . كان سعيداً بأنه سينقذ الشعب وقائد الشعب!

وقرأ درويش باشا في عيني حسن المنياوي نظرة الفدائي المستعد لأن يقوم بأي تضحية من أجل المبدأ . ومد إليه يده مصافحاً وهو يقول له :

ـ متى يكون التنفيذ؟

قال الأستاذ حسن المنياوي :

ـ اليوم .

قال درويش باشا وهو يهز يده :

ـ على بركة الله!

الشمس مالت للغروب. ضاحية مصر الجديدة هادئة ساكنة. الفيلات الصغيرة المتناثرة بألوانها الصفراء المتشابهة. ونوافذها الخضراء، تقف صفوفاً في سكون غريب، وكأنها طابور من الجنود المتشابهين طولاً وعرضاً يشيعون جنازة النهار، وأشعة الشمس تتراجع في بطء أمام موكب الظلام.

ودخل الأستاذ حسن المنياوي إلى فيلة صغيرة، ذات حديقة واسعة، وأبلغ اسمه إلى البواب وقال إنه يريد مقابلة دولة الباشا لأمر هام..

وصعد أحمد البواب بضع درجات إلى الطابق العلوي فوجد الزعيم يؤدي صلاة المغرب، ووقف ينتظر حتى انتهى الباشا من أداء الصلاة، ثم دفع له ببطاقة بيضاء.

ولما قرأ الزعيم البطاقة قال للبواب:

ـ دعه يتفضل في الصالون حتى أرتدي ملابسي..

وغاب الزعيم كثيراً في ارتداء ملابسه. فهو يحب أن يمضي وقتاً طويلاً في الحمام. يهتم اهتماماً غير عادي بنظافته، يتأنى كثيراً في غسل عينيه، وتنظيف أسنانه. والعناية بأظافره. وبعض الناس يتصور أنه رجل «موسوس» والواقع أنه يؤمن إيماناً عجيباً بالنظافة، ويعتقد أن النظافة تمنع جميع الأمراض. وأن الصابون إذا دخل بيتاً لا يدخله الطبيب..!

وكان الزعيم وهو يغسل عينيه على مهل، يفكر في زيارة حسن المنياوي. إنه يحب هذا الشاب منذ أن عرفه. أعجبته فيه شهامته الصعيدية، حماسه لمبادىء الوفد، إخلاصه لشخصه، إندفاعه في

الدفاع عنه. وكيف أن صدقي باشا طارد أسرته، وأرغمها على أن تبيع أرضها الجيدة في المنيا لأنها رفضت أن تدفع الضرائب، وشردها من قريتها، وطرد شقيق حسن العمدة لأنه أبى أن يزور في الانتخابات.

وعندما حصل حسن على ليسانس الحقوق توقع أنه سيسعى لينال وظيفة في الحكومة، ولكنه رفض أن يعمل في حكومة يرأس وزارتها إسماعيل صدقي.

وأراد الزعيم أن يساعده من مال الوفد فرفض. وقبل بإلحاح أن يعمل سكرتيراً لدرويش باشا حبيب، والزعيم هو الذي طلب من درويش باشا تعيين حسن، لأنه أحس بشدة حاجته للمال، واعتزازه بكرامته. ورفضه أي وظيفة في الحكومة.

ونزل الزعيم واستقبل حسن، وعانقه وقبله، كما يفعل كل مرة يلتقي به فيها، ولاحظ الزعيم أن حسن مضطرب اضطراباً شديداً فسأله في حنان:

ـ ما بك يا حسن؟

قال حسن وهو ينظر إلى الأرض وصوته يرتجف:

ـ جئت أستأذنك في ارتكاب جريمة قتل!

وقال الزعيم مدهوشاً:

ـ جريمة قتل..؟ أنا ضد القتل والاغتيال السياسي.. أنا لا أؤمن إلا بالوسائل المشروعة!

قال حسن:

ـ وأنا كنت أؤمن بالوسائل المشروعة، ولكنني لا أجد طريقاً أمامي سوى ارتكاب جريمة قتل.. كل الأبواب الأخرى مغلقة في وجهي!

قال الزعيم:

ـ هل جننت يا حسن؟ إنني أعرف أنك أعقل شبان الوفد.. من هو الرجل الذي تريد أن تقتله؟

قال حسن وهو ينكس رأسه:

ـ إنه ليس رجلاً.. إنها امرأة!

قال الزعيم:

ـ امرأة؟! أنت الرجل الشهم النبيه تقتل امرأة؟ هل تحبها؟

قال حسن:

ـ لا، بل أحبك أنت!

قال الزعيم:

ـ لا أعرف امرأة أساءت إلي في حياتي.. حتى الرجال الذين يعادونني، فإنني أرفض أن يقتلهم أحد.. فمن هي هذه المرأة؟

قال حسن:

ـ السيدة سميحة شريف.

وصمت الزعيم. فوجىء من الذهول. أطبق شفتيه. امتلأ وجهه بالغضب الشديد. أغمض عينيه كأنه يتألم ألماً لا يتحمله البشر. شحب وجهه حتى أصبح في لون الأموات، ثم قال في صوت حزين:

ـ حتى أنت يا حسن؟ ابني يقتل زوجتي . . ؟ هل جريمة سميحة عندكم أنني أحببتها وأنها أحبتني؟ إنني أفضل يا بني أن تقتلني أنا بدلاً من أن تقتلها هي . .

قال حسن وفي صوته حدة:

ـ إذا لم أقتلها أنا، فإن الكثيرين من شبان الوفد يفكرون في أن يقتلوها! .

ووقف الزعيم منتصباً، ثم رفع يمناه وأشار بها إلى حسن وقال:

ـ هل ترى أنني أستحق هذا بعد كل ما فعلته لبلادي؟ هل جزائي على كل تضحياتي من أجل وطني، هو أن يقتل أولادي السيدة التي أحبها، والتي لا أستطيع أن أعيش بدونها؟

قال حسن وقد أطرق برأسه متحاشياً نظرات النحاس:

ـ إنني تأكدت أنها تخونك!

وصاح فيه الزعيم:

ـ تخونني أنا؟ هذا كذب!

وفتح حسن اللفافة التي في يده وأخرج عدداً من الصور الفوتوغرافية، وقدمها للزعيم.

ودفعها الزعيم بيده وقال:

ـ أنا أعرف ما هذه الصور . . صورها بالبنطلون . . إنها حكاية قديمة وأنا أعرف طروف هذه الصورة، وواثق من براءتها. إنها التقطت لها أثناء زواجها من عبد السلام عباس. إنها لم تخف عني أي شيء، حتى

أدق شؤونها، حرام عليكم أن تظلموا امرأة بريئة!

قال حسن:

ـ وهل كانت تملك العوامة وهي متزوجة من عبد السلام عباس؟

قال الزعيم:

ـ لا.. اشترتها بعد طلاقها منه بسنة.

قال حسن وهو يدفع إليه بالصور:

ـ إنها صور لها داخل العوامة.. ولا يمكن أن تقول هي أن هذه الصورة التقطها زوجها.. لأن دولتك قلت الآن إن زوجها طلقها قبل شراء العوامة بعام.. هذه الصور التقطها بعض أصدقائي أعضاء النادي الأهلي الشبان، الذين كانوا يزورونها في هذه العوامة قبل أن تذهب إليها، وبعد أن تخرج منها. وإنني مستعد لأن أحضرهم لك ليخبروك بما كان يجري بينها وبينهم في العوامة. المرأة التي تخون حبيبها تخون رجلاً واحداً، أما المرأة التي تخون حبيبها زعيم الأمة فهي تخون الملايين، تخون مصر كلها، تخون كل رجل فيها!!

وأمسك الزعيم الصور بيد مرتعشة، وراح يتفحصها ويدقق فيها، ثم قال بصوت كرنين القدح المكسور:

ـ نعم هي صورها داخل العوامة.. نعم هذه هي فساتينها.. نعم هذا هو وجهها.. ولكنها لم تخبرني أنها أحضرت مصوراً ليصورها في العوامة.

قال حسن:

ـ ولكنه ليس مصوراً واحداً.. إنه عدد من المصورين.. لاحظ

اختلاف الفساتين، فساتين صيف، فساتين شتاء، وفساتين ربيع . . مما يدل على أن التصوير لم يتم في يوم واحد!

وعاد الزعيم يتأمل الصور من جديد، ويقلبها في يديه، ويعود إلى كل صورة ويدقق فيها، ثم يقول في صوت متحشرج:

ـ نعم . . إنها صور التقطت في العوامة . . على أيام مختلفة . . ولكنها لم تخبرني!

قال حسن:

ـ أنت قلت الآن إنها لا تخفي عنك أي شيء حتى أدق شؤونها . هل هذا دليل على إنها أخفت عنك . . لا مرة واحدة . . وإنما عدة مرات!

وسكت الزعيم . .

ومضى حسن يقول:

ـ وأحب أن تعلم أن كثيرين من أعضاء الوفد يعرفون هذه الحقيقة ولكن واحداً منهم لم يجرؤ على أن يقول لك الحقيقة . . إنهم يخشون أن يغضبوك . . يخشون أن يكسروا قلبك . . وأنا شعرت بشعورهم . . ولهذا قررت أن أقتلها دون أن أخبرك بالسبب . . وحملت مسدسي وسافرت إلى الاسكندرية لأقتلها في بيتها في سان ستفانو . . ولكنني خشيت عليك من الفضيحة فعدت دون أن أفرغ فيها رصاصي . . وجئت أستأذنك لأقتلها غداً!

قال الزعيم في هلع:

ـ أرجو يا حسن ألا تفعل شيئاً من هذا . . دعني أتصرف . . إنني واثق من إخلاصك وحبك لي . واثق من غيرتك على سمعتي وشرفي . .

ولكنني أرجوك أن تتركني أتصرف. . هل تعدني بشرفك؟

ومسح حسن جبينه المتصبب عرقاً، وتنفس تنفساً عميقاً، واختلجت أعضاؤه وقال:

ـ أعدك . . بشرفي!

وبقي الزعيم صامتاً، ولكن وجهه كان يتكلم. شحب وجهه. ثم تقلص. ثم امتلأ بالغضب، ثم فاض بحزن شديد. كان كل شيء في وجهه مجروحاً. كل شيء مذبوحاً، أشبه بذبح رجل ميت، لا يسقط منه دم.

ونكس رأسه، كأنه يشهد جنازته. . هو فيها الجثة والنعش والمشيعون والمتفرجون الواقفون على الأرصفة. لم ير حسن في حياته ألماً شديداً كالذي رآه في وجه هذا الرجل الذي انتصر على كل القوى وهزمته امرأة. أحبته الملايين وأخلصت له ولم يستطع أن يحتفظ لنفسه بالمرأة التي أحبها. كان مزيجاً من الألم على حبه الذي مات، وعلى غفلته وسذاجته لأنه وثق بهذه المرأة التي خدعته. لقد أراد أن يمنحها كل شيء، تحدى كل زملائه من أجلها، عرض نفسه لتشهير الحكومة من أجلها، فخانته ومرغت شرفه في الوحل مع الشبان الرقعاء. أراد أن يرفعها لأعلى مكان في مصر، فهبطت به إلى حضيض الغدر والخيانة والعار. . ما أتعس الرجل الذي كان يظن أنه فوق قمة السعادة ثم فتح عينيه ليجد نفسه في الهاوية!

وانتفض الزعيم من مقعده، ووقف ومد يده إلى حسن وصافحه وهو يقول:

ـ أشكرك يا حسن.

قال حسن وهو ينتفض وقد رأى حزناً قاتلاً في عيني الزعيم:

ـ إنني آسف..

قال الزعيم وهو يحاول الابتسام ولا يستطيع:

ـ لا تأسف.. أنا الذي يجب أن آسف.. آسف على أشياء كثيرة!

■ ■ ■

وخرج حسن من عند الزعيم وقد شعر بأنه ارتكب فعلاً جريمة قتل، لم يقتل المرأة التي يكرهها، وإنما قتل الرجل الذي يحبه.. أحس بأنه ارتكب أشنع من جريمة قتل إنسان، إنه جرح قلب رجل طيب، رجل بريء، يحبه حباً جامحاً ملك عليه حواسه ومشاعره وتفكيره، وكيانه..

وأحس حسن بأن كل شيء فيه يرتجف رجفة الندم. ولكنه تمالك وعاد يبرر لنفسه ما فعل.

لقد أدى واجبه الوطني. أنقذ زعيمه من المرأة التي كانت ستجعله ألعوبة في يدها. والتي جعلت سمعته مضغة في الأفواه. لا بد أنها كانت ستشقيه إذا تزوج منها. لا بد أنها كانت ستلقي على اسمه النظيف ظلاً شائناً، ستجعله سخرية للهازئين، ستلطخ شرف أنصاره جميعاً بالأوحال..

لقد كان من رأيه أنه لا بد أن يعرف الزعيم الحقيقة.. آلام الحقيقة أرحم بكثير من إخفائها إذا ظهرت بعد فوات الأوان!

من أجل إيمانه بهذا الرأي قبل أن يقوم بهذا الدور الفدائي الذي كلفه به درويش باشا حبيب عضو الوفد. إنه لم يكذب على النحاس عندما قال له إنه كان ينوي قتلها. كان فعلاً ينوي قتلها. كذب فقط

عندما قال له إن أصدقاءه في النادي الأهلي هم الذين أخبروه بأنهم كانوا يزورون سميحة في العوامة قبل أن يذهب إليها الزعيم، وبعد أن يخرج منها. وكذب عندما قال إنه مستعد لأن يحضر هؤلاء الأعضاء إلى النحاس ليخبروه بما كان يجري بينهم وبين سميحة. .

ولقد طلب منه درويش باشا أن يقول هذه الكذبة عندما سلمه صور سميحة في العوامة. وقد أكد له درويش باشا أن هذه الوقائع صحيحة ومؤكدة، وأن الدليل عليها هو هذه الصور. . ولا يمكن أن يكون درويش باشا يكذب، فهو من أشد المخلصين للزعيم، وأكثر المتحمسين له، وأشد أنصاره دفاعاً عنه واستعداداً للتضحية في سبيله. إن أكبر دليل على ولائه للزعيم حماسه لمنع زواج الزعيم من هذه المرأة.

ولكنه لم يتصور أبداً أن يتألم الزعيم كل هذا الألم. إنه رأى في حياته مرضى يتألمون من مرض السرطان، فلم ير صورة من هذا الألم والعذاب كالتي رآها في وجه الزعيم. لقد خشي في إحدى اللحظات أن يموت بالسكتة القلبية من هول الصدمة. وقد رأى هذا الرجل يصمد بشجاعة غريبة للأهوال والخطوب. ولكنه في هذه المرة تخلى عنه صموده، وهزمته شجاعته. . !

إن صورة الألم الذي رآه في ملامحه لا تفارقه أبداً. . قلبه يتقطع وهو يرى هذه الصورة الدامية. لقد لاحظ أنه لم يبك، ولكنه أحس بدموعه الساخنة تسقط في داخله. الدموع التي تنزل على مآقينا تريحنا، والدموع التي تسقط في داخلنا هي لهيب نار يحرقنا.

إنه يحس برغبة شديدة في أن يعود إلى الزعيم من جديد ويكذب عليه، ويقول له إن سميحة بريئة، وإنه لفق ضدها هذه الأكذوبة ليمنع زواجه من مطلقة، وبذلك يعيد الحياة إلى زعيمه الذي تركه جثة

هامدة. حتى يضمد هذه الجروح التي ملأ بها قلبه، حتى يمسح قطرة الألم والعذاب من عينيه. . ولكنه يحب بلاده، يحب الشعب الذي سيلطخ بالعار، وقبل كل هذا يحبه هو. يحب الزعيم الذي عذبه.

هذه عملية جراحية لإنقاذ حياته وإنقاذ سمعته وشرفة. لقد أراد أن يخرج السرطان من جسم الزعيم. واضطر أن يستعمل المشرط المؤلم ليفتح القلب المريض ويزيل منه الجزء المصاب بالسرطان. والجراحة الخطيرة تؤلم، وخاصة إذا كانت جراحة بغير مخدر، فلا بد من الألم للشفاء، لا بد من العذاب ليبرأ الزعيم من هذا المرض العضال!

لقد كان يشقيه أن ينام الزعيم على العار. أن يتهامس أعضاء الوفد ووزراء صدقي باشا بما يعلمونه عن سميحة، والزوج آخر من يعرف. . وهكذا كان لا بد أن يعرف. . لا بد أن يتألم. . !

خير له أن يعيش بلا قلب على أن يعيش بلا شرف. خير له أن يعرف الحقيقة وهو خطيبها، من أن يعرف الحقيقة بعد أن يتزوجها. العار يمكن اليوم إزالته بكلمة. . وفي الغد لا تمكن إزالته بكل وسائل الدنيا من كلمات!

لقد قام بعمل جنوني. سيغضب منه الزعيم شهراً أو سنة أو العمر كله.. . إنه على استعداد أن يضحي بحياته كلها من أجل إنقاذه من هذا العار. إن الرجل الذي يحب يكره المرأة التي خانته، ولكنه يكره أكثر من أبلغه نبأ خيانتها!

وماذا يمكن للزعيم أن يفعل به إذا سخط عليه؟ لن يرشحه نائباً في بلده عندما تجيء الانتخابات القادمة. . إنه يفضل أن يبقى اسم زعيمه نظيفاً شريفاً على أن يلوث هذا الرجل العظيم ويصبح عضواً في البرلمان تحت لوائه. . قد يطلب من درويش باشا حبيب فصله من وظيفة

السكرتير، فليكن. . إنه سوف يستعذب الموت جوعاً، على أن يموت ذليلاً وهو يسمع الهمسات تشير إلى الزعيم الذي يحبه ويفتديه!

وحاول حسن أن يفخر بالعمل البطولي الذي قام به، ولكنه كلما رأى صورة عيني الزعيم الحزينتين شعر بالأسى، وأحس بالندم، ثم عاد محاولاً إقناع نفسه بأنه أدى واجبه، وقام بالمهمة التي كلفه بها درويش باشا حبيب عضو الوفد خير قيام. . كان خيراً له لـو قتلها بـدل أن يتحمل عذاب رؤية زعيمه في هذا الشقاء الـذي يمزق قلبـه ويدمي روحه. .

■■■

دفن الزعيم وجهه بين كفيه وانفجـر في البكاء. مـا أتعس الذين يبكون ولا يجدون من يمسح دموعهم ولا صدراً يستندون إليه برؤوسهم الملتهبة بالشقاء، ولا لمسة الحنان التي تضمد قلوبهم الجريحة.

قبل اليوم كانت سميحة هي المنـديل الـذي يمسح دمـوعه، هي الصدر، هي لمسة الحنان. أما اليوم فهي الجرح والسكين معاً!

كان يتحسس قلبه، كأنه يبحث فيه عنها ولا يجدها، فيزداد ألمه. إن الآلام تحول الأطفال إلى رجال، والرجال إلى أبطال. . ولكنها تحول الشيوخ إلى جثث لا روح فيها ولا حياة!

وشحب لونه. انهارت تقاطيع وجهه. كان يرتدي بذلة سوداء. ولم يلاحظ أنها سوداء إلا الآن. إنها بذلة المآتم. . كأن قلبه كان يحدثه عما ينتظره عندما اختار هذه البذلة السوداء، ولكن قلبه لم يخبره في تلك اللحظة عن اسم الميت. لعله أشفق عليه أن يقول له إنه هو الميت!

وكان ثوبه الأسود، وظلام الغرفة، وحلكة الليـل التي أحاطتـه،

أشبه بشارات الحداد. وانحدرت من جبهته قطرات من العرق، كأنه جرى في هذه الدقائق مشواراً طويلا، المشوار بين الجنة والجحيم، بين الحياة والعدم، بين الحب والفجيعة في الحب!

وتسمرت نظراته في مكانها. إنه يرى أشياء كثيرة ولا يرى شيئاً. يرى العوامة، ولا يرى نفسه فيها، بل يرى أعضاء النادي الأهلي. يرى صور فساتين سميحة ولا يرى سميحة داخل هذه الفساتين. ويسمع ضحكات عالية. يرى وجه الملك فؤاد وهو يقهقه. إسماعيل صدقي وهو يبتسم. المندوب السامي البريطاني سير برسي لورين وفي عينيه نظرة شامتة ساخرة. كل أعدائه وخصومه سوف يسخرون منه. سيقولون إن الرجل الذي لم تستطع الأمبراطورية البريطانية أن تخدعه، خدعته امرأة!

وأحس بأنه يكاد يختنق في هذه الغرفة التي رأى فيها أدلة خيانة سميحة. ووقف وتوجه إلى النافذة ليفتحها، فوجد أنها مفتوحة. . ومد يده إلى خارج النافذة فوجد أن الجو كالصقيع، ودهش كيف يكون الجو بارداً في الخارج وهو يشعر بأنه يحترق في هذه الغرفة!

واتجه إلى المفتاح الكهربائي وأضاء النور واتجه إلى التليفون ليطلب محادثة مستعجلة مع الإسكندرية. ثم أبعد يده، كأنها لمست جمرة من نار. .

وعاد إلى مقعده، وراح في حركة آلية يفرك يديه الشاحبتين الواحدة في الأخرى. وأحس بأن يديه شبه ميتتين. لم يعد يستطيع أن يحرك أصابعه، كأن حركة الدم قد تعطلت فيها. وتأمل أصابعه فبدا لونها أصفر كالحاً.

ومكث يحدق في أصابعه، كأنه يعتذر لهذه الأصابع التي تشابكت

مئات المرات مع أصابع سميحة. . كـان يقبلها بـأصابعـه ويعانقهـا براحتي يديه. . لم يلمس سوى أصابعها وراحتي يـديها. . وأعضـاء النادي الأهلي استمتعوا بباقي جسدها!

وبدأ يحرك أصبعه قليلاً قليـلا، فبدأت تتحـرك. . ومد أصـابعه والتقط صور سميحة التي تركها حسن المنيـاوي، وركز عليهـا نظرة رجراجة. ولم ير صورة سميحـة. لقد بهتت، شحبت، اختفت من الصورة، كأنها خجلت أن تريه وجهها بعد أن عرف كل ما عرفه عنها!

ترى، هل تعرف هذه المرأة التي قتلته أنه أنقذها من القتل؟ وأنه منع حسن المنياوي من أن يطلق عليها الرصاص، حتى بعد أن عرف أنها خانته مع شبان في سن أولاده، وبعد أن عرف أنها لوثت المكان المقدس الذي شهد حبهما، وبعد أن عرف أنه كان أشبه بالساندوتش، يسبقه لقاء، ويعقبه لقاء، وبعد أن عرف أن المرأة التي وضعها فوق رأسـه داست على رأسه بقدمها. . هل من المعقول أنه كان أعمى طوال هذه السنوات الثلاث؟

عندما يفجع الرجل في حب عظيم لا يشعر بأن المرأة التي أحبها قد ماتت وحدها! بل يشعر بأن أشياء كثيرة ماتت معها أيضاً. . دخلت معها القبر في كفن واحد، سعادته، وأحلامه وثقته بنفسه وكبرياءه، وثقته بكل نساء العالم وبكل الرجـال في العالم. كـل شيء يموت من حوله، يتساقط، ينهار، يشك في أصدقائه، يشك في الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم، يشك في نفسه. إن الحب العظيم في حياة الرجل هـو العمود الفقري لقلبه. فإذا تحطم هذا العمود تحطم كل ما يحمل. تحول القلب إلى خرابة ليس فيها إلا الأنقاض. . ويحتاج الرجل إلى وقت طويل ليحول هذه الأنقاض إلى عمارة، ولكنه مهما أوتي من إرادة وصبر

فإنه لن يستطيع أن يبني عمارة في قلبه كالعمارة الأولى التي تحولت إلى أنقاض. قد يبني عمارة، ولكن تبقى في الأحجار بقية من شروخ، بقية من رائحة الهدم والفناء. يحس في كل لحظة أنها ستسقط كما سقطت العمارة الأولى! ويحسبها الناس عمارة متينة، ولكنه وحده يشعر أنها عمارة مائلة، مشروخة، مهددة في أي لحظة بالسقوط. .

وأحس برغبة في أن يقول لسميحة أشياء كثيرة. . وأخذت الألفاظ تتلاطم في فمه، فيها اللوم وفيها الاتهام. فيها القسوة وفيها الغضب. ثم آثر ألا يقول شيئاً. . إن أي كلمة يقولها لا يمكن أن تعبر عن جرحه وألمه. . وإذا كانت هذه المرأة لم تعرف قيمة حبه، فهل تستطيع أن تعرف قيمة دموعه؟ هل يمكن للقاتل أن يسكب الدمع حزناً على القتيل؟

إنه لا يزال يحبها بعد كل ما فعلته به. . لا يريد أن يخدش بكلمة المرأة التي طعنته بالسكين. . سيتركها في صمت، وبدون أي يسيء إليها بكلمة واحدة. . لقد رمت هذا الحب في الوحل. . ولكن يديه تشفقان من أن تلقيا عليه حفنة من تراب!

هل يسافر إلى الإسكندرية ويذهب إليها ويقابلها؟ إنه لا يطيق أن يراها، أن يرى العينين اللتين خدعتاه. . أن يسمع الصوت الذي كذب عليه. . أن يرى الجسد الذي صوره أعضاء النادي الأهلي!

إذن يسافر إلى الإسكندرية ويقابل أسرتها ويبلغ أخاها الأكبر أنه فسخ الخطبة. . ولكنه أيضاً يشفق على أخيها. . لا يستطيع أن يرى وجهه وهو يتلقى الصدمة. . إنه مجني عليه مثله. . وهو أيضاً وثق بأخته وخانته. . اعتقد أنها تحافظ على شرفه فإذا بها تلوث هذا الشرف في تراب أعضاء النادي الأهلي. .

ليكتف بأن يطلبها في التليفون ويبلغها قراره. . وليكتف بأن يقول لها إنه قرر فسخ الخطبة لأسباب خاصة. . ولكنه لا يعرف ماذا ستقول سميحة في التليفون. . وهو يعلم أن تليفونه مراقب. . وقد تنشر صحف الحكومة في اليوم التالي الحديث الذي جرى بينه وبين سميحة. .

وفكر في أن يكتب لها خطاباً. .

وتوقف لحظة، قد تكون بريئة! قد تكون تركت أعضاء النادي الأهلي يصورونها على سبيل اللهو البريء! ولكن إذا كان ما فعلته شيئاً بريئاً فلماذا أخفته عنه؟ إن خيانة المرأة الكبيرة تبدأ دائماً بكذبة صغيرة!

واللهو الذي يباح للمرأة العادية لا يباح لزوجة زعيم أو للمرأة التي ستكون في يوم من الأيام زوجة الزعيم. إن المساحة التي تتحرك فيها فوق القمة محدودة جداً، وليست كالمساحة الواسعة عند السفح. .

وعاد يفكر من جديد. .

ماذا يكتب على الورقة البيضاء. كل ورقة بيضاء عليها صورتها. يطل منها وجهها. كل كلمة سيكتبها هي بقعة من الحبر يلطخ بها هذه الصورة. ولكنه ليس هو الذي يلوث الصفحة البيضاء بالكلمات. هي التي سكبت كل حبر العالم على ورقة واحدة.

عندما كان يكتب لها في الماضي كان يشعر أنه يعانقها على الورق، يقبلها فوق كل سطر من سطور الخطاب، ولكنه في هذه المرة سوف يكتب بسكين! القلم الذي كان يطبع القبلات وتسيل منه الكلمات التي تذوب رقة وحلاوة وعطفاً وتدليلاً سوف يذبح، سوف يسيل دم المرأة التي أحبها. . !

ما أقسى شعور الغيرة عندما يمتزج بالاحتقار، عندما يرى العاشق الكبير معبودته وقد تحولت إلى صنم، ثم تحول الصنم إلى تراب. . إنه يحس بمرارة قاتلة بيأس، بفشل، بعار، بذل، بأن كل المعاني قد جرحت ولطخ دمها قلبه وروحه وكيانه.

إنه يسترجع ماضيه معها، يسترجع كلماتها. نفس كلماتها التي كانت تبدو كأنها ترقص رقصة الفرح والهناء، تعود هذه الكلمات نفسها ولكن لترقص على لحن الجنازات الحزينة. كل كلمة حب قالتها في يوم من الأيام، وأسعدته، تعود الآن لتشقيه، كلمات الهوى التي كان يرددها لنفسه دائماً كأنها مستندات ووثائق تؤكد حبها، تعود بنصها لتصبح نفس المستندات والوثائق التي تدل على خيانتها وغدرها!

صورتها في خياله تغيرت أيضاً. إن حبنا هو الذي يرسم صور النساء اللواتي نحبهن لا عيوننا. كانت صورتها من قبل كأنها لوحة رائعة رسمها فنان. أبدع في تصوير فتنتها المكتملة. تفنن في تلوين شعرها المسترسل الأسود المنساب على ظهرها وكتفيها، ثم أضاف لكل هذه الفتنة براءة وطهارة وعفة وفضيلة. كأنه رسم تلك الدائرة من النور التي تحيط برؤوس الملائكة والقديسين.

لقد اختفت الدائرة الآن. . اختفى النور الذي كان فوق رأسها. حل مكان النور ليل وظلام وسواد. . العينان الجميلتان لا تزالان جميلتين، ولكن البراءة اختفت منهما، أصبح الخبث والمكر والدهاء يطل منهما! الفم الصغير الذي كانت تخرج منه الكلمات في طعم الشهد وكأنها مكتوبة برحيق شفتيها. ولا تزال هذه الكلمات تخرج من الفم الجميل، ولكن فيها طعم السم، طعم الكذب والخداع!

إن صورتها في خياله لم تتغير. الذي تغير هو عيناه. لقد كان

أعمى وأبصر. كان مخدوعاً وعرف الحقيقة.. كل الحقيقة!

لماذا فعلت به كل هذا؟ هل جريمته أنه أحبها كل هذا الحب، فأخذت الحب وأعطته الخيانة؟ هل جريمته أن عمله من أجل بلاده اضطره ألا يعطيها كل الوقت الذي تطلبه كل امرأة من حبيبها، فأبت أن تضحي كما يضحي، وانتهزت فرصة انهماكه في الكفاح الوطني، لتعبث وتلهو؟ ولكنها لم تكن تعبث وتلهو بوقتها، وإنما كانت تعبث وتلهو بقلبه، بمجده، بكل المعاني النبيلة التي يؤمن بها!

لقد خطر بباله طوال هذه السنوات الثلاث كل شيء، إلا أنها تخونه. خطر بباله أنه قد يموت ويتركها أرملة بلا زواج، خطر بباله أنها قد تموت، قد تصدمها سيارة، قد يقع حادث لقطار السكة الحديد الذي تستقله، قد تغرق العوامة. وكانت هذه الخواطر تسلمه إلى قلق وعذاب. ثم تختفي عندما يسمع صوتها أو عندما يلقاها في لقائه الأسبوعي. ولكنه لم يخطر بباله في يوم من الأيام أن المرأة التي آمن بها تكفر به، التي أخلص لها كل هذا الإخلاص تخونه، ومع من..؟ مع شبان في عمر أولاده، مع الذين يهتفون باسمه، ويموتون في المظاهرات وهم يرددون مبادئه!

هل المرأة تريد رجلاً متفرغاً، لا صناعة له إلا الحب، لا عمل له إلا العناق والقبلات، لا يخفق قلبه إلا بهواها، ولا تملأ رأسه فكرة إلا فكرة عشقها؟ إنه لا يستطيع أن يتفرغ لامرأة واحدة، لأنه وهب حياته للملايين. لا يستطيع أن يترك عملاً وطنياً من أجل المرأة التي يحبها.. بل إنه أحب سميحة لأنها قدرت هذا العمل، وتظاهرت أمامه بأنها سعيدة بأنه يضحي بها وبلقائها من أجل هذا الوطن. لم تبد يوماً تذمراً لأنه لم يحضر في موعده معها، لم تشك من انشغاله بأعمال الوطن عنها.

كانت تقول إنها كرست حياتها من أجل حب الرجل الذي كرس حياته للملايين، ولكنها لم تكرس حياتها له، كرستها للقاء الشبان من أعضاء النادي الأهلي. ليصوروها في أوضاع مختلفة. جالسة وواقفة، ضاحكة وساهمة، مطلة من الشرفة ومستلقية على المقعد. .

ونحى خواطره جانباً، وعاد إلى الورقة البيضاء، وأمسك بورقة وقلم، وبدأ يكتب. .

وتوقف القلم في يده. .

كأن القلم أعلن العصيان وأضرب عن الكتابة. رفض أن يكتب حكماً بالموت على امرأة طالما كتب لها كلمات الحب والحياة!

كل ما استطاع القلم أن يكتبه هو كلمة «سميحة»!

وأمسك الزعيم بالورقة، وتطلع في حروف كلمة سميحة. .

وارتعشت أصابعه التي تمسك بالورقة. .؟ تصور كأن الحروف تبكي. . كأنها تتوسل إليه ألا يكتب كلمة أخرى بعد كلمة سميحة. .

وألقى القلم. .

وأزاح الورقة جانباً. .

وراح يبكي. .

■ ■ ■

دخل عوني باشا حافظ إلى غرفة نوم زوجته.

كانت الساعة الأولى بعد منتصف الليل، وكانت زبيدة نائمة في فراشها، تحلم بحبيبها محمد عبدالكريم. .

وأضاء عوني باشا نور الغرفة . وفتحت زبيدة عينيها في فزع ، لترى زوجها واقفاً أمامها . .

وارتاعت زبيدة، فقد كانت لا تزال تحلم عندما فتحت عينيها، وخشيت أن يكون زوجها قد رأى محمداً في الحلم بين ذراعيها . .

وصرخت ملتاعة!

وضحك عوني باشا وقال:

ـ ما لك خائفة . . ؟

وانتفضت زبيدة، وجلست في فراشها، وسحبت الغطاء تخفي صدرها العاري وكأنها لم ترد أن يرى زوجها الصدر الجميل الذي كان يستمتع به حبيبها . . . وعادت تفتح عينيها بأصابعها لتتأكد أنها خرجت من حلم لذيذ إلى كابوس!

ولم تجد ما تقوله لزوجها الذي عكر عليها حلمها اللذيذ . . كانت تتمنى أن تصرخ في زوجها وتقول له : أخرج من الغرفة لأعود إلى حبيبي الذي ينتظرني في الحلم. ولكن شجاعتها خانتها، ولم تجرؤ على أن تنطق بما تتمنى أن تقوله للرجل الذي أيقظها من حلمها الجميل.

واكتفت أن تمطت وقالت :

ـ كم الساعة الآن؟

قال عوني باشا وهو يضحك :

ـ الساعة الآن الواحدة صباحاً . . اليوم ليس يوم النوم والرقاد، اليوم هو يوم العيد . .

قالت زبيدة في دهشة:

ـ العيد؟ لا يزال باقياً على العيد يومان.. هل أصدرتم قراراً بتغيير العيد كما أصدرتم قراراً بتغيير الدستور؟. أو أنكم أنقصتم عدد أيام شهر رمضان، كما أنقصتم مرتبات الموظفين وأجور العمال؟!

وتوقعت زبيدة أن يغضب زوجها، ويترك الغرفة ويعود إلى غرفته، كما يفعل دائماً عندما تسخر بالوزارة التي هو عضو فيها، ولكنه لم يغضب وبقيت الابتسامة ترقص على شفتيه وهو يقول:

ـ اليوم.. العيد الكبير.. عيد انتصاري!

واقترب عوني باشا من فراشها، وأمسك بيدها، وراح يغازلها، ويلاطفها، ويشدها من يدها وهو يقول:

ـ قومي! قومي قبليني! قومي هنئيني! لقد انتصرنا!

وتطلعت إليه في دهشة، إنه يهتز ويتمايل كأنه يرقص.. كل شيء فيه يهتز طرباً، طربوشه، نظارته، شاربه، وبطنه!

وقالت زبيدة وهي تطيل النظر إليه في عجب:

ـ هل شربت ويسكي؟

قال عوني باشا وهو يداعب جسمها الرقيق الدقيق بأصابعه الغليظة، فتتراجع منكمشة مقشعرة إلى الوراء:

ـ لا، لم أشرب ويسكي، إنما شربت شربات.. شعرت وأنا جالس في مكتبي الليلة أنني أريد أن أهجم على جميع موظفي وزارة الداخلية، وجميع الجنود في الوزارة، وأعانقهم، وأقبلهم واحداً واحداً..

وللأسف، كانت الوزارة خالية من الموظفين والجنود، فاكتفيت بأن هجمت على والدك المسكين عرفة أفندي الجمل، فعانقته وقبلته بالنيابة عن جميع موظفي الوزارة. وفوجىء أبوك بهذه القبلات والأحضان، فلم يحدث طوال مدة خدمته أنني عانقته أو قبلته، وظن أنني سكران عندما قلت له: هات قبلة يا عرفة أفندي. . ولكنني قلت له إنني سعيد جداً هذه الليلة، إني أسعد رجل في العالم!

واقترب عوني باشا من زبيدة يحاول أن يعانقها ويقبلها وهو يقول لها:

ـ قبليني، وعانقيني!

وأشاحت زبيدة بوجهها وهي تقول:

ـ يكفي أنك قبلت أبي. . بالنيابة عني أيضاً!

وضحك عوني باشا عالياً كان مستعداً أن يضحك من أي كلمة. كان سعيداً أكثر مما كان في يوم من الأيام. وكانت عيناه تفيضان رقة وعذوبة وهناء. .

وأحس عوني باشا بأن زوجته جميلة في هذه الليلة. بأن الغرفة جميلة. بأن الدنيا كلها جميلة. حتى عرفة أفندي الجمل سكرتيره الخاص بدا له أيضاً جميلاً!

وسألته زبيدة وهي تتأمله وهو لا يزال يتمايل طرباً وحبوراً:

ـ ماذا حدث؟ هل كلفك الملك بتأليف الوزارة؟

قال عوني باشا:

ـ أصبحت رياسة الوزارة في جيبي! جلالة الملك شهد لي اليوم

شهادة عظيمة. قال لي: «يا عوني باشا، أنت أعظم ثعلب في الدولة»!

قالت زبيدة ساخرة:

ـ ثعلب؟ هل لقب ثعلب هو الذي يسعدك كل هذه السعادة؟ إنهم عادة يضعون الثعالب في حديقة الحيوان!

وضحك عوني باشا ساخراً من جهل زبيدة بالتعبيرات الملكية السامية وقال:

ثعلب يعني «داهية»! يعني «عبقري»! يعني الرجل الذي يعده جلالة الملك للمستقبل القريب. الملك كان معجباً بصدقي باشا لأنه ثعلب، أما الآن فقد أصبحت: «أنا» أعظم ثعلب في هذه الدولة!

قالت زبيدة:

ـ وما هو السبب الذي جعل الملك يسميك ثعلب باشا؟.

قال عوني باشا وهو يضحك:

ـ دمك خفيف يا زبيدة. الملك لم يقل ثعلب باشا. إنه قال أعظم ثعلب في الدولة. لقد منحني جلالة الملك هذه اللفتة السامية وهذا النطق الكريم عندما أبلغته بنفسي نبأ عظيماً، أعظم انتصاراتي في تاريخي كوزير. وقد أصررت أن أتحدث إلى جلالة الملك بنفسي. طلبته في التليفون. أجاب إدريس بك على التليفون وأراد أن يعلم مني النبأ فرفضت، وقلت إنني مصمم على أن أبلغ البشرى لجلالة الملك شخصياً. واضطر إدريس بك أن يحمل التليفون، وحينما أبلغت الملك البشرى قال الملك وصوته يرقص من الفرح «برافو عوني باشا! إنك أعظم ثعلب في هذا البلد»!

قالت زبيدة في فضول:

ـ وما هي هذه البشرى؟

قال عوني باشا وهو يتمايل يمنة ويسرة، ويهتز طرباً، ويشبك يديه في صدريته اعتزازاً وفخراً:

ـ لقد قرر الزعيم فسخ خطبته لسميحة شريف!

وقفزت زبيدة من مكانها في الفراش وصرخت ملتاعة:

ـ مستحيل!

وقال عوني باشا:

ـ وأنا صنعت هذا المستحيل!!

قالت زبيدة:

ـ إنك قلت لي إن الزعيم يحب هذه السيدة ومتمسك بها، وأنه طرد أعضاء الوفد الذين طلبوا إليه أن يفسخ الخطبة. وقلت لي إن كل المحاولات التي بذلت للفصل بينهما قد فشلت!

قال عوني باشا فخوراً:

ـ ولكن خطتي وحدها هي التي نجحت. نجحت حرفاً بحرف كما وضعتها. ولعبت بكل زعماء الحزب، وكأنهم عرائس أراجوز في أصابعي!

قالت زبيدة في غيظ:

ـ ماذا فعلت يا ثعلب باشا؟

قال عوني باشا مزهواً:

ـ خطة بسيطة جداً. . جمعت الصور الفوتوغرافية التي التقطها خلسة مخبرنا الذي دسسناه في عوامة سميحة شريف بصفته مراكبي وسفرجي العوامة. إلتقط المخبر عدة صور لسميحة بآلة التصوير السرية دون أن تتنبه. إحتفظت بصورها مع الزعيم. واكتفيت بصورها التي ظهرت فيها وحدها، وهي تضحك، وهي تتدلل، وهي تميل برأسها، وهي تنظر نظرة حب بعينها. وجعلت هذه الصور تتسرب إلى الزعيم، على أنها صور التقطها بعض شبان النادي الأهلي لسميحة عندما كانوا يزورونها سراً في العوامة، قبل ذهاب الزعيم وبعد خروجه. . وما كاد الزعيم يرى الصور حتى قرر أن يفسخ الخطبة. والذين رأوا الزعيم، يقولون إنه سيموت حزناً وإذا نجا من الصدمة، فلن ينجو عندما ترفع سميحة قضية تعويض عليه لأنه فسخ الخطبة وقضى على مستقبلها. . وهكذا سوف يتم القضاء عليه نهائياً، والآن ما رأيك في زوجك؟

وظلت زبيدة مطرقة، ثم رفعت رأسها وقالت: رأيي. . رأيي أنك نذل!

■ ■ ■

غداً. . موعد عقد قران سميحة شريف على الزعيم الكبير.

زيّنت أسرة شريف بيتها في شارع مصطفى باشا عبادي في حي محرم بك بالاسكندرية، بالأنوار الكهربائية الساطعة. رفعت رايات خضراء متعددة الأشكال والأحجام على نوافذ البيت. تدلت ثريات من الزجاج الأزرق والأحمر والأصفر والأخضر من أشجار الحديقة. فرشت أرض الفناء الخارجي والرصيف بالرمل الأصفر.

بدا بيت أسرة شريف أشبه بعروس في ثوب الزفاف. كل شيء فيه يضيء ويتلألأ ويزغرد. الخدم يجرون هنا وهناك. الفراشون ينقلون المقاعد والكراسي من غرفة إلى أخرى. الطباخون يعدون أصناف الحلوى التي ستقدم للمدعوين في اليوم التالي. بيوت الشارع كلها اشتركت في الفرح، أقامت الزينات، رفعت الأعلام، فرشت الرمال.

الحي كله سعيد. غداً ستتزوج إحدى بنات الحي بزعيم الأمة..

وعلى بعد بضعة أميال كانت سميحة تعد فرحاً في بيتها الصغير بمحطة سان ستفانو برمل الاسكندرية. إن حفلة عقد القران ستقام في البيت الكبير، أما حفلة الزفاف فستقام في مساء نفس اليوم في هذا البيت الصغير. إنها اتفقت مع الزعيم على أن تكون حفلة بسيطة جداً. لا يحضرها إلا اثنان هي وهو!

ولكن خادمتها فردوس أصرت على ضرورة إقامة الزينات. أرغمتها على أن تفرش الرمل أمام البيت، أن تعلق عليه الأعلام والثريات.

ولم يكن يهم سميحة زينة بيتها من الخارج. كانت مهتمة بزينة البيت من الداخل مهتمة بفرش غرفة النوم الجديدة التي اشترتها خصيصاً للزفاف. اختارت لها لون الورد الذي يحبه. كل شيء في الغرفة فيه لمسة من لمساتها. غطاء المائدة التي بجوار الفراش طرّزته بيدها. اختارت بنفسها المشط والفرشاة والمرآة التي ستضعها على التواليت بجوار أمشاطها. اختارت له الكولونيا التي يحبها. صنعت له بيجاما حريرية أنيقة. اشترت له شبشب غرفة النوم وشبشب الحمام. اهتمت بالحمام لأنها تعرف مقدار اهتمامه بنظافة الحمام وأناقته ونظامه. أعدت كل شيء يحبه، حتى برنس الحمام!

لن تمضي ٢٤ ساعة على اليوم العظيم. إنها تريدها أن تمر بسرعة

لتبدأ حياتها مع حبيبها. وهي تريد ألا تجيء بسرعة لأن لديها مئات الأشياء يجب أن تقوم بها خلال هذه الساعات. يجب أن يجيء الحلاق ليصفف شعرها. يجب أن تجيء مدام هولمز لتقيس فستانها الذي سترتديه أثناء حفلة عقد القران، وفستانها الذي سترتديه في حفلة الزفاف. يجب أن توصي على العشاء الذي سيتناولانه معاً ليلة الزفاف. يجب أن تستقبل عاملة المانيكير والباديكير. يجب أن تدخل الحمام مع أم لبيبة التي ستعدها لهذه الليلة السعيدة. . يجب مائة شيء وشيء! هل تكفي الأربع والعشرون ساعة كل هذه الواجبات؟!

وأخرجت قميص نومها الوردي الذي أعدته لهذه المناسبة. ومررت أصابعها على حريره اللامع، ووقفت أمام المرآة، ووضعت القميص على جسدها، فلاحظت أنها تبدو جميلة. . لم تشعر في يوم من الأيام بأنها جميلة كما بدت اليوم. إنها بغير بودرة ولا مساحيق ومع ذلك تبدو رائعة، فاتنة، مثيرة. . ترى، هل السعادة هي التي تجمل الوجوه أكثر مما يجملها الماكياج؟

وتذكرت أن الزعيم لم يتحدث معها منذ بضعة أيام. لا بد أنه مشغول. لا بد أنه ينهي أعماله الكثيرة قبل الزفاف. لقد وعدها بأن يكون شهر عسلهما هو أسبوعاً واحداً يمضيه معها في بيتها بالإسكندرية. لن يخرج من البيت. لن يستقبل زائراً. لن يتحدث في تليفون. سيبقى لها طوال هذا الأسبوع. وهي سعيدة بأن شهر عسلها يتكون من سبعة أيام. إنها راضية بشهر عسل طوله سبع ساعات. . سبع دقائق. . ليس هذا بالأمر المهم، المهم أنها ستراه ولو لبضع دقائق كل يوم. المهم أنها ستنام معه في فراش واحد. المهم أنها ستكون بجواره إذا مرض. ستقدم له الدواء. ستلمس جبهته بكفها. . ستملأ وحدته. . ستحاول أن تجعله أسعد رجل في هذا العالم!

إنه هو الذي وضع برنامج عقد القران. هو الذي حدد عدد المدعوين بعشرة أشخاص. أمها وأخوتها وزوجاتهم والمأذون.. مأذون محرم بك.. لقد رفض أن يدعو شيخ الأزهر الحالي ليعقد القران لأنه عضو في مجلس شيوخ إسماعيل صدقي. ورفض أن يدعو شيخ الأزهر السابق لأنه صديق الأحرار الدستوريين. إنه يريد مأذوناً بسيطاً. يريد أن يكون عقد القران عائلياً. لقد رفض اقتراح شقيقها بإحضار فرقة للموسيقى. رفض إقامة حفلة ساهرة لمناسبة الزفاف، قال إنه لا يقبل أن يقيم الأفراح والليالي الملاح وبلده يعيش في مأتم الحرية.

ووافقته سميحة على رأيه، وتحمست له.. إنها ليست محتاجة إلى موسيقى. إن في قلبها كل فرق الموسيقى في العالم تعزف أغاني الفرح وألحان السعادة. لقد قبل الزعيم على مضض تعليق الرايات وفرش الرمال، عندما بكت أمها.. وضعف الزعيم أمام دموع أمها ووافق على الرايات والثريات.. وطلب الاختصار في عددها!

وهي لا يهمها الرايات والثريات. إنها تشعر أن نور السعادة والهناء ينبعث من عينيها.. نور يكفي لإضاءة حي محرم بك.. بل مدينة الإسكندرية كلها! وعادت سميحة تطل في المرآة من جديد، لترى نور السعادة في عينيها الواسعتين، وقد غمرتها زرقة صافية، بلون مياه البحر أمام شاطىء سان ستفانو. وتأملت شعرها الأسود المصقول وهو ينسدل على الروب دي شامبر الأبيض الذي ترتديه. وقد تدلى غزيراً لامعاً، متماوجاً حتى جاوز خصرها. وتلوت أمام المرآة في سعادة وكأنها أحست بيد حبيبها تحيط بخصرها. وأرخت أهدابها الطويلة في رضاء سعيد واستسلام لذيذ.

وعادت ترفع أهدابها، وقد ارتسمت على شفتيها بسمة حلوة كلها

فرحة وكلها هناء وكلها سعادة، وانفرجت شفتاها الرقيقتان الحالمتان على أسنان كحبات لؤلؤ منظوم . .

وتنهدت، كأنها تقول إن الحلم لذيذ، ولكن ألذ من الحلم أن يتحول إلى واقع . لقد بقيت ثلاث سنوات تحلم بهذا اليوم . وهذا اليوم يقترب منها ويبتعد. يطل برأسه ويختفي . تكاد تقبض عليه بيدها، ثم تفتح يدها فلا تجد فيها إلا الأوهام . . ولقد تحملت في هذه السنوات كلها عذاباً وانتظاراً. أحبته بلا أمل، ثم أحبته بأمل، ثم عادت تحبه بلا أمل. وكانت هي التي تصنع أوهامها وأحلامها ومخاوفها. كانت تعرف دائماً أنه يعيش في خطر. وكانت تخاف هذا الخطر وتخشاه. ثم أصبحت تحب الخطر لأنه يحبه. كانت تكره السياسة ولا تهتم بأنبائها، ثم أحبت السياسة لأن الرجل الذي أحبته هو السياسة . . كل شيء في سياسة مصر يدور حوله . . ولم يكن من الممكن أن تحبه هو وتكره السياسة!

وقد لاحظت في الأسبوعين الأخيرين أنه كان مهموماً. وسألته عما به، فقال إنه يلقى حرباً من كل مكان . . ولم يشأ أن يقول لها شيئاً عن هذه الحرب، ولم تلح عليه، فقد كانت تعرف أنه يعيش طوال حياته في معارك متصلة، لا ينتهي من معركة حتى يدخل في المعركة التالية .

ولكنه في كل لقاء كان يتحدث عن يوم عقد القران، عن يوم الزفاف الذي أصر على أن يكون في نفس اليوم . وكانت تحس في نبرات صوته بأنه ينتظر هذا اليوم بنفس اللهفة والشوق ونفاد الصبر، كما كانت تشعر . .

وكان يداعبها في كل مرة وهو يرى في عينيها شوقها لهذا اليوم العظيم في حياتها :

ـ أنت المسؤولة عن التأخير ولست أنا. . أنا طلبت أن يكون زفافنا قبل هذا الموعد بأربعة أسابيع. . وأنت التي أجلت الموعد لارتباطك بموعد هام!!

وهي لم تندم لهذا التأجيل، مع أنها كانت في لهفة إلى أن يتم هذا الزواج بعد دقيقة واحدة، فقد كانت تتمنى أن تعدّ ملابسها وقمصان نومها وغرفة نومها وحمامها. . كانت تريد أن تكون عروساً فعلا. لقد قال لها الزعيم إنه لن يدفع مهراً، ولن يشتري شبكة. كل ما سوف يستطيع أن يفعله أن يشتري خاتم الزواج. فالمبلغ الذي اقترضه من بنك مصر ذهب كله في تسديد ديونه. ولم يهمها كل هذا. كل ما تريده أن تحصل عليه هو. هو عندها بكل الملايين التي في الدنيا. إنها ليست في حاجة لشراء أثاث لأنها ستقيم معه في بيته بمصر الجديدة. كل ما اشترت هو غرفة النوم الجديدة التي طالما حلمت بها!

ودق جرس الباب. .

وأسرعت تفتح الباب، فجاءت مدام هولمز الخياطة تحمل صندوقاً من الورق، أخرجت منه ثوب الزفاف.

وأمسكت سميحة بالثوب الجميل. . وراحت تدعكه بيدها، وكأنها تتحسسه لتتأكد أنها ليست في حلم!

وبدأت تخلع الروب دي شامبر وقميص النوم، وتجرب ثوب الزفاف بذيله الطويل. .

وامتلأت عيناها بالدموع. .

ترى، هل سيغمى على مدام هولمز إذا علمت أن هذا الثوب الذي سهرت في صنعه عشر ليال كاملة سيشهده رجل واحد فقط؟ لقد تفننت

مدام هولمز في صنع الفستان، وهي تتصور أن مصر كلها ستتفرج عليه، فلا بد أن تحتشد مصر بكل أمرائها وباشواتها وأعيانها في زفاف الزعيم . . سيغمى على مدام هولمز إذا عرفت الحقيقة . . وإذا عرفت أن سميحة لا يهمها أن يحضر زفافها إلا الرجل الذي تحبه، والذي سوف تتزوجه . .

وبدأت مدام هولمز تشبك الدبابيس في ثوب الزفاف، وتدور حول سميحة . .

ودق جرس التليفون، وأمسكت سميحة السماعة، وسمعت صوتاً يقول لها:

ـ أنا درويش باشا حبيب عضو الوفد . .

قالت في استغراب:

ـ أهلاً وسهلاً . .

قال في صوت يفيض أدباً ورقة:

ـ إنني أرغب في مقابلتك فوراً لأمر هام .

واضطربت سميحة وقالت:

ـ أمر هام . .

ولاحظ درويش باشا اضطرابها فقال مطمئناً:

ـ إنني أحمل لعصمتك رسالة هامة من الزعيم . وقد كلفني بأن أحملها بنفسي إليك . .

ـ رسالة لي؟ . . ماذا في هذه الرسالة؟

قال درويش باشا متلاطفاً:

- إنها رسالة خاصة بترتيبات عقد القران.

قالت سميحة:

- ولكنني اتفقت مع دولة الباشا على كل التفاصيل.

قال درويش باشا:

- إنها تغييرات بسيطة.. بسيطة جداً في نظام الحفلة.. وأنا مضطر أن أقابلك الآن.. لأنني لا بد أن أغادر الإسكندرية في قطار الظهر عائداً إلى القاهرة لأن لدينا اجتماعاً هاماً.. ولولا ذلك لحضر الباشا بنفسه.

وقالت سميحة وهي ساهمة:

- تفضل الآن..

واستأنفت سميحة عملية قياس فستان الزفاف، ولكنها بدت مضطربة. ترى، ما هي هذه الرسالة الهامة؟ أي تعديل يريده الزعيم في نظام عقد القران؟ إن درويش باشا من أقرب زعماء الحزب للزعيم. وهو يقول إن التغييرات المطلوبة بسيطة جداً.. هل سحب الزعيم موافقته على تعليق الرايات وفرش الرمال أمام البيت؟ هل يريد أن يضيف بضعة أشخاص إلى المدعوين العشرة في حفلة عقد القران؟

وأحست بدم يسيل منها واكتشفت أن مدام هولمز غرست في جسمها دبوساً بدل أن تغرسه في قماش الفستان. ولم تحس بوخزة الدبوس، لأنها كانت مشغولة في ألم أكبر من شكة الدبوس، هو ألم الحيرة..

وفجأة دق جرس الباب..

وقالت لها خادمتها إن سعادة درويش باشا حبيب قد حضر!

كيف جاء بهذه السرعة.. إنه لم يمض سوى خمس دقائق على حديثه التليفوني.. كأنه كان يتكلم من الشارع.. وتذكرت أنه لا بد كان في فندق سان ستفانو المجاور لبيتها، والمسافة بين الفندق والبيت لا تتجاوز ثلاث دقائق.

وأسرعت تخلع فستان الزفاف، وارتدت بسرعة ثوباً بسيطاً من ثياب البيت، ووضعت حذاءها في قدمها، ولم تجد وقتاً لتضع المساحيق على وجهها، وأسرعت سميحة تهبط درجات السلم..

ووقف درويش يحييها بابتسامة عريضة، انقبض لها قلبها!

ثم دعته إلى الجلوس فجلس إلى مقعد بجوارها!

وسكت درويش باشا ولم يقل شيئاً..

وبقيت صامتة تنتظر أن يقول شيئاً، ولكنه استمر صامتاً.. ونفد صبرها فقالت له:

ـ سعادتك قلت لي في التليفون إن لديك رسالة هامة من الزعيم!

قال درويش باشا، وهو يتأملها، كما يتأمل الجزار الشاة قبل ذبحها:

ـ نعم.

ثم سكت..

قالت سميحة:

ـ ما هي هذه الرسالة؟

قال درويش باشا:

- إن دولة الباشا كلفني أن أحمل إلى عصمتك تحياته واحتراماته.

ثم عاد وسكت..

وزاد قلق سميحة وسألته:

- وقلت لي إن هناك تغييرات بسيطة في نظام حفلة عقد القران غداً!

قال درويش باشا:

- نعم.

قالت سميحة:

- وما هي هذه التغييرات؟

ونكس درويش باشا رأسه إلى الأرض وقال:

- إن دولة الباشا يبلغك أسفه الشديد لأنه مضطر إلى فسخ الخطبة.

ولم تتبين سميحة كلماته. فقد كان يهمس بها بصوت غير مسموع، أو أنها سمعت الكلمات ولم تصدق أذنها، فعادت تسأله:

- إنني لم أسمع جيداً الرسالة.. هل من الممكن أن تقولها لي مرة أخرى؟

وتردد درويش باشا، ثم قال بصوت أعلى قليلاً من الهمس:

- إن دولة الباشا يبلغك أسفه الشديد لأنه مضطر إلى فسخ الخطبة. وتسمّرت سميحة في مقعدها.. لم تتحرك.. لم تصرخ.. لم تسقط مغشياً عليها..

وبقي درويش باشا يحدق فيها وكله دهشة وذهول . .

لقد توقع أن تشتم الزعيم . . أن تلعن الرجال الذين لا يحافظون على عهودهم ووعودهم . . ولكنها لم تقل شيئاً . . لم تبك . . تحوّلت إلى تمثال من الشمع لا حراك فيه!

ووقف درويش باشا مستأذناً في الانصراف، وإذا بسميحة تنطق فجأة وتقول :

ـ إنتظر حتى تشرب الشربات!

ورفض درويش باشا أن ينتظر، ولكن سميحة قالت له بلهجة آمرة :

ـ إنتظر . . حتى تشرب الشربات!

ووجد درويش باشا نفسه يعود إلى المقعد بغير إرادة . .

وعادت سميحة تمثالاً من الشمع من جديد . . .

وأقبلت الخادمة فردوس تحمل صينية من الفضة عليها كوب من شربات الورد . .

وتقدمت بها نحو درويش باشا . .

وتردد درويش باشا في أن يمد يده . .

وقالت له سميحة باللهجة الآمرة نفسها :

ـ إشرب!

وشرب جرعة من كوب الشربات، وأراد أن يعيده إلى الصينية .

فعادت سميحة تقول له:

ـ إشربه كله.. بدلاً من أن نرميه في صندوق الزبالة!

وشرب درويش باشا الكوب حتى الثمالة.

وكان طعم الجرعة الأولى من الشراب هو طعم الشربات فعلاً، فيه حلاوة الفرح، وعذوبة الانتصار.

ولكن كلما كان يتجرع من الكوب، ويرى وجه سميحة الجامد أمامه، يتحول طعم الشربات في فمه إلى طعم غريب، لا علاقة له بالسكر، ولا بالورد، إن لون الشربات أحمر فعلاً، ولكن ليس فيه طعم الورد، ولا حلاوة السكر.. أحس بطعم غريب في فمه وأحس بمرارة، وكأنه يشرب دم سميحة!..

لقد بدت له فجأة وكأنه لم يبق في جسدها قطرة دم..

وأحس درويش باشا بفزع، وارتعش الكوب بين أصابعه، فأسرع يضعه خالياً على المائدة..

وأخرج منديله يمسح شاربه وفمه..

ولكن طعم الشربات الغريب كان لا يزال في فمه، مراً كالعلقم، ساخناً كالدم، قاتلاً كالسم!

وكلما نظر إلى وجه سميحة الجامد ازداد اضطرابه!

إن سكينه لم تذبحها وحدها، بل كأنها ذبحته هو أيضاً. وربما لو كان يرى الغيب لعرف أنها ذبحتهم جميعاً!

■■■

مشت سميحة وراء درويش باشا تودعه إلى الباب. استطاعت بجهد مؤلم أن تتحامل على نفسها إلى أن انصرف، وأغلقت الباب وراءه. وأحست كأنها أقفلت باب الجنة، باب الحياة، باب الأمل. كان هذا الرجل الذي خرج من البيت في تلك اللحظة، كان يحمل معه قلبها وحبها، حياتها وشبابها، كل أحلامها. حمل معه المرأة.. وترك بقاياها!

ومشت مشدوهة مترنحة، تحمل الصاعقة على رأسها، تتعثر في طريقها، تبحث بيديها كالعمياء عن السلم الذي يوصلها إلى الطابق العلوي. وما كادت تصل إلى درجة من درجات السلم، حتى مدت يدها تتشبث بدرابزين السلم، تستند إليه حتى لا تسقط على الأرض.

هذه العروس المليئة بالحياة والشباب شاخت فجأة؟ قطعت في دقيقة واحدة خمسين عاماً. لم تعد قادرة على أن تصعد درجات السلم الذي كانت تقفز عليه. تنطلق من صدرها صرخات مكتومة. إن أعلى الصرخات أنيناً هي الصرخات التي لا صوت لها.

وعادت تتحامل على ساقيها المتخاذلتين، تلهث وهي تنتقل بين درجة وأخرى من درجات السلم. وتتوقف لتستريح. وتسند رأسها المحموم إلى خشب الدرابزين. فتحس أن الخشب جامد قاس، ككل شيء في هذه الحياة، وترفع رأسها عن الخشب.

واستطاعت بعد جهد أن تصل إلى الطابق العلوي..

وتوقفت قليلاً. إنها لا تريد أن تموت راكعة. تريد أن تموت واقفة. لن تفجع الخياطة بالنبأ.. ستمضي في تجربة ثوب الزفاف!

وتحاملت على نفسها، وابتلعت دموعها. وتخشبت وخلعت ثوبها، تحولت عيناها إلى كرتين من زجاج!

ومضت سميحة تدخل الغرفة بخطوات ثابتة وخلعت ثوبها . . ورفعت يديها ، وأدخلت مدام هولمز الخياطة فيها ثوب الزفاف!

ما كانت مدام هولمز تدري وهي تقيس ثوب الزفاف على سميحة ، أنها تعد كفناً لها .

كفن امرأة . .

ما زالت على قيد الحياة!

■■■

عاش محمد وزبيدة في مأتم . هزيمة حب كبير واحد هي هزيمة لعشاق العالم جميعاً . لم يتحمل محمد نبأ فسخ خطبة سميحة والزعيم فمرض . مرض من أجل امرأة لم يعرفها ولم يرها ، ولكنه كان يحس في أعماقه بعذابها . وكان يضاعف من عذابه أنه يعلم أنها مظلومة . لقد ذاق الظلم وعرف مرارته . فمن يبكي على المظلوم إلا المظلوم . ولكنه يتلفت حوله فلا يجد أحداً يشاركه في هذا الألم سوى زبيدة . هل خلا البلد كله من العشاق ، ولم يبق فيه سواه وسوى زبيدة وسوى سميحة! تحولت ألسنة الملايين إلى سكاكين . كأن مظاهرة خرجت من الإسكندرية إلى أسوان ، اشترك فيها كل الرجال والنساء ، كل الشيوخ وكل الشباب ، وفي أيديهم سكاكين شهروها وراحوا يغمدونها في جثة هذه المرأة البريئة!

مصر كلها سعيدة بفسخ خطبة الزعيم للمرأة المطلقة! حتى الذين يحبون ويعشقون ، حتى المطلقات! لم يسمع في سميحة كلمة طيبة واحدة . كل الألسنة تلعنها . كل الأفواه تهمس بأكاذيب تشوه بها المرأة

التي لا ذنب لها إلا أن الرجل الذي يحبه الملايين قد أحبها هي! ماذا دهى كل هؤلاء الناس الطيبين؟ ما الذي جعلهم يتحولون إلى أكلة لحم البشر. أتكون كل هذه الحملة من تدبير عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية؟ إذا كان بهذه القوة فلماذا فشل في كل حملات الدعاية التي قام بها من أجل الدستور الجديد، ومن أجل تكذيب تزوير الانتخابات، ومن أجل جمع الشعب للالتفاف حول حكومة الطغيان؟ لماذا داس الشعب بأقدامه على هذه الدعاية بالأمس، ورفع المطاعن الكاذبة على سميحة كأنها الرايات والأعلام؟ هل الذين يلقون عليها الأحجار والتراب يفعلون ذلك حتى لا يرى الناس في غبار التراب خطاياهم وعيوبهم. تماماً كما يصرخ اللص الذي يجري وراءه البوليس «اللص! اللص!» ليصرف أنظار الناس عن اللص الحقيقي؟ أم أن الشعوب عندما تحب زعيماً تصاب بالغيرة التي هي أحد مستلزمات الحب، فتكره كل من يحبه أكثر منها، وتكره أكثر كل امرأة يحبها معبودها! أم أن سنوات الاستعباد التي عشناها على مدى القرون جعلت الطين هو السلاح الوحيد في أيدينا، نجد تعويضاً في إلقاء الطين على الأبرياء المساكين ما دامت أيدينا لا تستطيع أن تطول الطغاة المجرمين؟

لم يجد محمد أحداً يلوم الزعيم على أنه فسخ خطبته، بل أنهم جميعاً سعداء لموقفه الحازم، لتضحيته الجديدة التي أضافها إلى سلسلة تضحياته. ولم يجد محمد أحداً يلوم الزعماء الذين أفسدوا الخطبة. على العكس. إنهم يشيدون بهم، وبوطنيتهم، وبصمودهم أمام جبروت هذه المرأة التي أرادت أن تنتزع منهم الزعيم. كل الناس يلومون هذه المرأة الفاجرة التي استغلت طيبة الزعيم وأرادت أن تغتصبه. كل الناس يقولون إن الحكومة أرادت أن تدس هذه المرأة على الزعيم لتعبث

بشرفه! كل الناس يؤلفون القصص، ويروون الحكايات التي ألفها خيالهم المريض.

وقالت له زبيدة:

ـ إن سميحة هي التي أخطأت. إنها تقف موقفاً سلبياً. لو كنت مكانها لحاربت من أجل حبي. لدافعت عن نفسي.. لأخرست ألسنة السوء. صمتها هو الذي شجع ألسنة الكاذبين. لا يمكن أن نكسب معارك الحب بالتراجع. نكسبها بالهجوم! لماذا لم تذهب سميحة إلى بيت الزعيم، وتقتحم الأبواب وتثبت له أنها بريئة. صحيح أنه حكم عليها بغير أن يسمع دفاعها. ولكن واجب المظلوم أن يصرخ، إن صمت المظلوم هو هتاف بحياة الظالم!

واقتنع محمد برأي زبيدة. وقرر أن يسافر إلى الإسكندرية. ويذهب إلى سميحة في بيتها ويطلب إليها أن تقاوم. إنه سيقف معها هو وزبيدة، نعم سيكونون ثلاثة فقط في مواجهة الملايين. ولكن ثلاثة من المؤمنين في استطاعتهم أن يقهروا جيشاً من الظالمين. سيصبح هؤلاء أربعة.. ثم خمسة.. ثم عشرة.. ثم ملايين!

وتحمست زبيدة للفكرة، وقالت له إنها مستعدة لأن تذهب معه إلى الإسكندرية، إن المرأة تستطيع أن تقنع المرأة أكثر مما يقنعها ألف رجل. ستقول لزوجها إنها في حاجة إلى تغيير الهواء. وسيتركها تسافر وحدها مع خادمتها سنية، لأنه لا يستطيع أن يترك عمله في الوزارة في الوقت الحاضر.

■ ■ ■

وسافرا إلى الإسكندرية. زبيدة في الدرجة الأولى هي وخادمتها

سنية، بالأبونيه المجاني لوزير الدولة، ومحمد في مقعد في الدرجة الثالثة. ونزلت زبيدة في فندق سيسيل. ونزل محمد في بانسيون ريش! ولم يفكرا في أن يمضيا الليل معا. لم يفكرا في أن يأخذا التفاحة معهما إلى الإسكندرية. لقد ملكت عليهما فكرة الدفاع عن سميحة كل مشاعرهما، ووجدانهما، وأفكارهما. فعندما يخوض الإنسان معركة ينسى كل شيء إلا هذه المعركة. تتضاءل كل أشواقنا بجانب شوقنا للقتال. تذوب كل رغباتنا وشهواتنا أمام الرغبة في الصراع. أصبحت سميحة هي الهوى الذي يبرحهما. إنهما في عقلهما الباطن يعتقدان أن معركة سميحة هي معركة حبهما. هزيمتها هي هزيمتهما. السكاكين التي أغمدت فيها سوف تغمد فيهما يوماً من الأيام!

وذهب محمد وزبيدة إلى بيت سميحة في محطة سان ستفانو. وذهلا عندما وجدا الرمل الأصفر لا يزال مفروشاً على الباب، الأعلام الخضراء لا تزال ترفرف على البيت، الأسلاك لا تزال تتدلى منها الثريات الكهربائية، كأن سميحة لم تعلم بفسخ خطبتها، أو كأنها لا تزال تحلم بأن زواجها بالزعيم سوف يتم بعد أيام!

وضغط محمد على زر جرس الباب فلم يدق. وطرق الباب فلم يحضر أحد ليفتح الباب. واستمر يداوم الطرق ولا مجيب. ونظر إلى نوافذ البيت فوجدها مغلقة. لا بد أن سميحة لم تطق أن تعيش في البيت الذي كانت ستزف فيه، فتركته وعادت إلى بيت أسرتها في حي محرم بك.

وذهبا إلى بيت أسرة شريف في حي محرم بك، فلم يجدا إلا بقايا الرمل الأصفر. وبعض الأسلاك العارية، كأن العاصفة اقتلعت الرمل، والرايات، والأعلام، والثريات، ولمبات الكهرباء..

وتقدم محمد إلى البواب وسأله:

ـ هل سميحة هانم هنا؟

وقال البواب دون أن يتحرك من مقعده!

ـ لا يوجد أحد هنا اسمه سميحة هانم . .

وتقدمت زبيدة إلى البواب تسأله:

ـ أليس هذا بيت القاضي شريف بك؟

قال البواب:

ـ نعم هو بيته . .

فسألته زبيدة في رقة:

ـ أليست له شقيقة اسمها سميحة؟

قال البواب بجفاء:

ـ ليس للبيك شقيقات على الإطلاق!

وفهم محمد أن أسرة شريف تبرأت من سميحة شريف بسبب العار الذي لطخت به شرف الأسرة!

وهزّ محمد رأسه آسفاً. عذر أشقاء سميحة لأنهم حملوا أيضاً السكاكين في موكب الجزارين الطويل!

ولم ييأس محمد ولا زبيدة من هذه اللطمة، جعلتهما الصدمة يزدادان عناداً في البحث عن سميحة التي أنكرها الجميع حتى أقرب الناس إليها!

وقالت زبيدة إنها ترى من الخطر أن تسير في شوارع الإسكندرية مع محمد. واقترحت أن تعود إلى الفندق وتستعير ملاءة خادمتها سنية، وأن يلتقيا مرة أخرى في المحطة التالية لمحطة ترام الرمل بعيداً عن الزحام.

وطاف العاشقان بكل المحلات الصغيرة في محطة سان ستفانو. بائع الكازوزة، البقال، المكوجي، سمسار الحي، الخباز، والتقطا من كل واحد من هؤلاء خبراً صغيراً. وجمعا الأنباء الصغيرة، وجعلا منها خبراً كبيراً عرفا منه أن سميحة لا تزال في البيت، وأنها لا تغادره أبداً منذ أن تم فسخ الخطبة. لا تفتح نافذة، ولا تستقبل زواراً، وإن خادمتها فردوس تخرج من البيت في الساعة السادسة من كل صباح لتشتري لوازم البيت ثم تعود إلى البيت، ولا تغادره إلا في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي. وضاعفت هذه المعلومات القليلة من فضولهما. وفي صباح اليوم التالي، وقفت زبيدة ومحمد بجوار باب بيت سميحة. وفي الساعة السادسة تماماً، فتحت فردوس الباب تحمل سلة من القش، وخرجت ثم أغلقت الباب بالمفتاح..

ومشت زبيدة وراءها حتى ابتعدت عن الشارع ثم نادتها:

ـ فردوس!

والتفتت فردوس وراءها مذعورة ورأت سيدة في ملاءة سوداء لا تعرفها، فتوقفت وسألتها:

ـ من أنت؟

قالت زبيدة هامسة:

ـ إنني صديقة سيدتك، وقد اضطررت أن أتنكر في هذه الملاءة

اللف حتى لا يعرفني أحد. فـالبيت مراقب. إنني أرغب في مقـابلة سميحة هانم.

قالت فردوس، وهي تتأمل زبيدة، وترى فعلاً إن الملاءة اللف لا تناسبها:

ـ إن سيدتي لا تستقبل أحداً.

قالت زبيدة في حنان:

ـ إنني أعرف أن سميحة مظلومة. وقد حصلت على المستندات التي تثبت أنها بريئة وأرغب في أن أقدمها لها بنفسي.

قالت الخادمة فردوس في تأثر:

ـ الله يعلم أنها مظلومة!

قالت زبيدة:

ـ إنني مستعدة لأن أضحي بحياتي لأثبت أنها مظلومة!

قالت الخادمة فردوس:

ـ إن الله أرسلك إلينا.. إن سيدتي تموت!

قالت زبيدة في فزع:

ـ هل هي مريضة؟

قالت فردوس:

ـ لا.. ليست مريضة.. إنها تموت!

وعادت الخادمة تحمل السلة خالية إلى بيت سميحة، وزبيدة ومحمد يتبعانها. وفتحت باب البيت، وأرادا الدخول خلفها فطلبت منهما الانتظار حتى تبلغ سيدتها أولاً. وأغلقت فردوس الباب وراءها بالمفتاح.

وصعدت فردوس إلى الطابق العلوي. وأخبرت سميحة بالقصة. وقالت سميحة:

- لا أريد أن أقابل أحداً.. لا أريد أن أثبت لأحد أنني بريئة!

وتوسلت فردوس إلى سيدتها أن تقابل زبيدة وشقيقها. وقبلت يدها. ثم انحنت تقبل قدمها والدموع في عينيها، وهي تقول: إنني أشعر أن الله بعث لنا هذه السيدة.

وضعفت سميحة. وقالت إنها ستستقبل السيدة، ولكنها لن تستقبل الرجل. لأنها لا تريد أن ترى وجه أي رجل في العالم. وطلبت منها أن تدعو السيدة للجلوس في الصالون، حتى ترتدي ملابسها.

وفتحت فردوس باب البيت، وأدخلت زبيدة، ومنعت دخول محمد. واضطر أن يقف إلى جوار الباب.

ودخلت زبيدة إلى الصالون. وجاءت فردوس وجلست على الأرض بجوار مقعد زبيدة، وقالت لها زبيدة: سمعت أن أهلها تبرأوا منها!

قالت فردوس وهي تتنهد: لم يعد يهمها أن تتبرأ منها الدنيا كلها.. بعد أن تبرأ منها الرجل الذي تحبه. إنني أخشى عليها أن تفقد عقلها بل أخشى أن تكون فقدت عقلها فعلاً. إنها ارتدت في الليلة المحددة للفرح ثوب الزفاف، تزينت بكل حليها ومجوهراتها. وأدارت اسطوانة «إتمخطري يا حلوة يا زينة.. يا وردة من جوه جنينة»، ونزلت على

درجات السلم إلى الطابق الأول على أنغامها، وطافت غرف البيت وهي تتهادى في جلال كأنها تزف فعلاً.. ثم أمرتني بأن أعد العشاء الذي أوصت عليه من قبل مطعم سان ستفانو لليلة الزفاف. وطلبت أن أعد مكاناً لاثنين على المائدة..

ثم جلست إلى المائدة. وجئت أحمل لها طبق الديك الرومي، فأشارت إلى المقعد الخالي وقالت:

ـ قدّمي الطعام للباشا أولاً. نحن أسرة محافظة. والرجال يسبقون النساء دائماً!

ونظرت إلى المقعد الخالي وقلت لها:

ـ أين الباشا؟

وصاحت بي:

ـ هل أنت عمياء؟ إنه جالس على مقعده في رأس المائدة.

وتظاهرت لأرضيها أنه موجود فعلاً. وقدمت الطعام للمقعد الخالي. ثم قدمت الطعام لها..

وبدأت تأكل، وتتحدث مع المقعد الخالي، وتضحك معه، وتلاعبه وتلمس المقعد بيدها..

وتكرر نفس الشيء مع كل صنف. وتكرر في كل وجبة من وجبات الطعام! وبعد العشاء صعدت إلى غرفة نومها، وارتدت القميص الذي أعدته لليلة زفافها، وقفت طويلاً أمام المرآة تزين نفسها. ثم وضعت البيجاما التي اشترتها للباشا على الفراش. ونامت بجوار البيجاما.. وفي الصباح طلبت مني أن أعد لهما الحمام!

وعندما جاء صاحب محل الفراشة في الصباح، وأراد أن ينزع الأعلام والثريات والزينات، صرخت وقالت: يجب أن تبقى كل هذه الزينات في مواضعها!

وأمسكت مقصاً، وقطعت سلك التليفون، وقالت لا أريد أن يضايقني أحد في شهر العسل. . وعندما جاء شقيقها القاضي شريف بك لمقابلتها رفضت أن تفتح له الباب، وقالت إنها لا تستقبل أحداً في شهر العسل. . وأن شهر العسل مدته أسبوع كامل!

إن الله أرسلك إلينا. . لعلك تستطيعين إقناعها بأن تخرج من عزلتها. لقد رفضت أن أفتح الباب لأمها! وحسناً فعلت. لو أن أمها رأتها في حالتها الراهنة لماتت بالسكتة القلبية لأنها مريضة بالقلب. إنها ليست هي سميحة التي عرفتها! لقد ذابت كما تذوب الشمعة. وجهها الوردي الجميل شحب واصفر حتى أصبح كوجوه الأموات، عيناها انطفأ نورهما، نظراتها تائهة، تبقى ساعات طويلة تحدق في مكان واحد. لا ترفع عينيها، ولا تحولها، كالعميان، تجلس إلى المائدة وتملأ طبقها والطبق الآخر. وتمسك الشوكة والسكين وتقطع اللحم إلى قطع صغيرة، ثم ترفع الشوكة بغير اللحم وتضعها في فمها. كأنها تعيش في وهم! تتوهم أنها تأكل وهي لا تأكل. . تتوهم أنها مع زوجها وهي وحيدة. تتوهم أنها تعيش في أسبوع العسل، وهي تعيش في هذا الأسبوع عمراً من العذاب والضنى والشقاء.

لقد جاء شقيقها الأكبر وحدّثني من وراء الباب المقفل، وقال لي أن أخبرها أن السيد مرسي بك رئيس لجنة الوفد جاء لزيارته، وأخبره أن الوفد يرغب في أن يدفع خمسة آلاف جنيه تعويضاً لسميحة على فسخ الخطبة. . وأخبرتها برسالة شقيقها فقالت:

ـ لا أبيع حبي بملايين الدنيا!

وكان من رأيي أن هذا المبلغ أحسن من عينهم! ولكنها قالت:

ـ ألم يكفهم الإهانة الأولى.. فجاءوا يهينونني مرة أخرى!

وألح شقيقها في أن يقابلها ليسألها عن التهم التي انهالت عليها من كل مكان فرفضت أن تقابله، وطلبت مني أن أقول له إن كل ما سمعه ضدها صحيح، وإنها لن تدافع عن نفسها بكلمة!

وقال شقيقها إنه وإخوته سيتبرأون منها!

فقالت لي:

ـ إنني أرجوهم أن يسارعوا بالتبرؤ مني، حتى أغرق وحدي!

وفي بعض الأحيان أتصور أن سيدتي جنت. فإن كل ما تفعله الآن وما تقوله الآن هو كلام المجانين. ولكن لا ألبث أن أكتشف أنها عاقلة، أعقل منّا كلنا...

وقد توسلت إليها أن تبكي.. تصورت أن حبس دموعها هو الذي جعلها تذوب في هذه الدموع المحبوسة.

وقالت لي إنها تحاول أن تبكي فلا تستطيع. إن كل شيء فيها قد جف.. حتى الدموع!

وكلما أدارت أسطوانة الزفة أشعر بقلبي يتمزق، وأنا أرى وجهها يتلون مع نغمات اللحن، فينقلب في أذني اللحن إلى ما يشبه الصراخ والعويل. وأتوسل إليها أن توقف الأسطوانة، فتقول لي: إنه اللحن الوحيد الذي تستريح إلى سماعه!

ولقد رأيت نساء فقدن أزواجهن، وفقدن أولادهن، ولم اشهد هذا الحزن الصامت الذي يذيب القلوب. إمرأة لا تبكي وكل شيء فيها يبكي. لا تصرخ وكل شيء فيها يلطم خدوده!

ولست أعرف كم سوف تستطيع أن تعيش في هذه الوحدة المريرة.. لو كنت مكانها لأمسكت المقص وقطعت ثوب زفافي وقميص نوم ليلة الزفاف إلى قطع صغيرة وأحرقته في النار! ولكنها تصر على أن تنام كل ليلة في قميص الزفاف.. بل تصر على أن ترتدي ثوب زفافها وتصلي به. كأنها تريد أن تذكر الله أنها عروس ذبحت في يوم زفافها!

لقد فشلت كل محاولاتي معها. لم تنفع توسلاتي. لم تنفع دموعي. هذه المرأة التي كان كلامها أشبه بالشهد، امتنعت عن الكلام. يمضي اليوم كله ولا أسمعها تتكلم. في بعض الأحيان أوجه لها أسئلة ولا ترد عليها. وإذا ألححت عليها اكتفت بإشارة من رأسها أو من أصبعها.. وإذا تكلمت قالت كلاماً يذيب الصخر، ويحطم الأعصاب.

إنني أحبها مثل ابنتي. عملت في خدمتها منذ ولادتها. رأيتها في ضحكاتها ودموعها، في أفراح قلبها ومآتم قلبها. لا أتصور أن سميحة هي هذه المرأة التي تعيش معي، وكأنها تمثال من الحزن، والأسى، والخيبة، والتعاسة، والشقاء، والعذاب.. إنني في بعض الأحيان أحدق فيها وأقول: لا يمكن أن تكون هذه هي سميحة شريف التي حملتها على كتفي، وأرضعتها من لبني.. إنها امرأة جاءت من عالم آخر غير عالمنا!

وتوقفت الخادمة فردوس عن الكلام، ففي تلك اللحظة دخلت سميحة. كانت تبدو شبحاً. أصفر لونها. نقص وزنها. اختفت من عينيها لمعة الحياة..

وصافحت زبيدة وجلست دون أن تفتح فمها، ولاحظت زبيدة على الفور أن لهذه المرأة رائحة غريبة ليست عطراً. إنها رائحة طهارة. رائحة مياة مقدسة. رائحة قديسة! المرأة تعرف المرأة من رائحتها.

وقالت زبيدة:

ـ أنت لا تعرفينني ولكنني أعرفك. أعرفك أكثر مما تتصورين. إنني أفكر فيك ليلي ونهاري. أشعر بعذابك كأنه عذابي. أنا واثقة من أنك بريئة. إنني جئت إليك بالمستند الذي يثبت براءتك!

واستمرت سميحة صامتة، ورفعت رأسها إلى السماء وتمتمت بكلمة «يا رب».

وعادت زبيدة وكأنها تحاول أن تنزلها من سمائها إلى الأرض التي تعيش فيها، وقالت:

ـ أنا جئت بالمستند. أنا هو المستند. أنا اسمي زبيدة عرفة الجمل، زوجة عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية. إنه اعترف لي بنفسه أنه هو الذي دبر المؤامرة لفسخ خطبتك! هو الذي جاء بالمخبر الذي تنكر كمراكبي في العوامة، والتقط لك صوراً فوتوغرافية خلسة.. هو الذي جعل هذه الصور تصل إلى الزعيم وأوهمه أنها صور التقطها لك بعض أعضاء النادي الأهلي في العوامة! لقد كان يدبر أن يضبطك مع الزعيم في العوامة. وأنا التي اكتشفت الخطة وأبلغتها للدكتور ماهر ليبلغها للزعيم حتى لا يذهب إلى لقائك في أول يوم خميس من شهر رمضان. ولهذا لم يحضر الزعيم إلى لقائك. أنا مستعدة لأن أضحي بزواجي وباسمي وبكل شيء لأثبت أنك بريئة..

ولم تفتح سميحة فمها. ولم تبد عليها الدهشة للمعلومات الخطيرة

التي قالتها لها زبيدة. بل عادت ترفع رأسها إلى السماء وتتمتم بكلمة «يا رب».

وصاحت فيها زبيدة كي تجذبها من سمائها قائلة:

ـ تحركي! دافعي عن حبك! أثبتي للرجل الذي تحبين أنهم خدعوه وضللوه وكذبوا عليه. أنا مستعدة لأن أذهب معك إلى الزعيم وأعترف أمامه بكل ما سمعته من زوجي.

واغرورقت عينا زبيدة وهي تتكلم وتهدج صوتها وهي تقول:

ـ لا تتركيهم يذبحوك.. أنا مؤمنة ببراءتك. أنا مستعدة لأن أقدم حياتي فداء لإثبات براءتك. أشعر أن براءتك هي براءة لكل امرأة طاهرة! تحركي يا سميحة! إننا لا نستطيع أن نخوض معاركنا بالصمت! كلمة من فمك تخرس هذه الألسنة القذرة. تحركي يا سميحة! اثبتي للرجل الذي تحبينه أنه مخدوع.. إنه مجني عليه مثلك تماماً! هو أيضاً ضحية هذه المؤامرة. هو أيضاً مغلوب على أمره.. هو أيضاً يشاركك في عذابك وشقائك.

ولم تتحرك سميحة وعادت ترفع عينيها إلى السماء وتقول «يا رب»!

وأحست زبيدة أن سميحة فقدت كل شيء حتى القدرة على المقاومة. إننا نحتاج إلى عمود فقري، لنصلب قامتنا، وعندما ينتزع منا العمود الفقري نتحول إلى كومة من اللحم.. إلى خرقة من الآلام!

إنها كامرأة تفهم المرأة التي أمامها. تعرف أن الظلم الهائل الذي سقط على رأسها سحقها، لم تعد تجد في الدنيا شيئاً يساوي أن تكافح من أجله، كانت على استعداد لأن تتحمل سكاكين الملايين من أجل

الرجل الذي تحبه، ولكن ما رأت السكين في يد حبيبها أيضاً فقدت الرغبة في الحياة! الإنسان يتحمل كل ظلم إلا إذا جاء هذا الظلم من إنسان أحبه، وأخلص له، وضرب من أجله أمثلة في الوفاء والولاء! في هذه اللحظة يشعر بأن الموت أهون من الاتهام الظالم من الحبيب أو الصديق. يشعر أن كل المعاني التي يعيش الإنسان من أجلها، ويرفعها كالأعلام، هوت، وتحولت إلى خرق يمسح بها الحذاء! إن هذا الموقف كسر قلبها. وعندما ينكسر القلب لا يمكن أن يجبر. من الممكن أن ينتزع القلب. ويزرع مكانه قلب آخر.. ولكن من المستحيل إعادة القلب المحطم إلى قلب صحيح!

كل هذه الاتهامات تسقط تحت قدميها. كل هذه الخناجر تتحطم وتتكسر أمام قلبها المحب، ولكن عندما تشعر أن الرجل الذي آمنت به كفر بها، والذي صدقته كذبها. والذي أخلصت له تخلى عنها، عندئذ يتحول القلب إلى قبر.. يبقى الحب فيه.. ولكنه يبقى مدفوناً تحت التراب!

وعادت زبيدة تحاول من جديد، وتقول لسميحة:

ـ أنا أعرف أنك مؤمنة بالله. أنا مؤمنة بالله مثلك. أسمعك تقولين وتكررين كلمة «يا رب»؟ ماذا تريدين من الله! ألست تريدين من الله أن يثبت براءتك؟

وهزت سميحة رأسها بالنفي.. دون أن تنطق بكلمة!

قالت زبيدة مدهوشة:

ـ ألا تريدين أن يعرف الناس أنك بريئة؟

وعادت سميحة تهز رأسها بالنفي.

وقالت لها زبيدة:

ـ إذن ماذا تطلبين من الله؟

وابتسمت سميحة لأول مرة منذ أسبوع كامل ولم تقل شيئاً، واتجهت برأسها إلى السماء وتمتمت بكلمة يا رب!

وأحست زبيدة أنها فشلت مع هذه المرأة العجيبة. إنها برغم رفضها أن تدافع عن نفسها لا تزال تحب الزعيم. حب المرأة لا يموت عندما يلقيه الرجل في التراب، إنه مثل الكرة الكاوتشوك كلما رميناه بعنف على الأرض ارتد إلى ارتفاع أعلى من مكان سقوطه! كل الإهانات التي تلقاها المرأة على يدي رجل تحبه تشقيها وتعذبها، ولا يمكن أن تجعلها تتوقف عن حبه. قد تبتعد عنه، ولكنها تستمر في عشقه وهواه من بعيد! كيف يمكن لهذه المرأة الصامدة التي تحب كل هذا الحب أن تتحمل كل هذا الهوان، ولا تدافع عن رجلها وبيتها ومستقبلها..

وقالت لها زبيدة:

ـ كان المفروض أن تكوني زوجة الزعيم. ومن صفات الزعيم المقاومة! ماذا كنت تفعلين لو أن الإنجليز جاءوا وقبضوا على زوجك، وحرموك وحرموا بلادك منه.. هل كنت ستكتفين بأن تجلسي كما تجلسين الآن وتتجهي إلى السماء وتقولي «يا رب»؟ الله يقبل دعوات الواقفين أكثر مما يقبل دعوات القاعدين الخاملين. الله يطلب منا أن نسعى لكي يحقق دعواتنا. أن نجاهد ليكلل جهودنا. هل تتصورين إذا جلس الصياد في بيته، وطلب من الله أن يرزقه سمكاً، أن السماء ستمطر السمك؟ المطلوب منه أن يحمل شبكته، ويذهب إلى عرض البحر ويقاوم الأمواج، ثم يلقي ويدعو الله، وعندئذ تمتلىء شباكه بالأسماك!

وتكلمت سميحة لأول مرة وقالت باسمة:

ـ ولكنني لا أطلب، من الله سمكاً!

قالت زبيدة:

ـ إذن ماذا تطلبين؟ هل تطلبين أن يعود إليك الزعيم تائباً مستغفراً نادماً؟

قالت سميحة:

ـ ولا هذا؟

وفتحت زبيدة فمها في دهشة وقالت:

ـ لماذا؟ ألا تريدين أن تتزوجيه!؟

قالت سميحة:

ـ لا..

وسألتها زبيدة:

ـ لماذا لا تريدين أن تتزوجيه؟!

قالت سميحة:

ـ لأنه لم يعد عندي ما أعطيه له! كنت شابة وأصبحت عجوزاً. كنت جميلة وأصبحت مشوهة!

قالت زبيدة:

ـ إنك ما زلت جميلة!

قالت سميحة :

ـ إنني مشوهة من الداخل! الألسنة شوّهتني. ولا أقبل أن يتزوج امرأة مشبوهة! لو أنه جاء إلي وقال لي إن أنصاره لا يرغبون في أن أتزوجه لما ترددت في أن أختفي من حياته. . إنني كنت على استعداد لأن أقتل نفسي ليعيش مكرّماً. فأنا أعلم تماماً أنه ليس رجلي وحدي. إنه رجل هذه الأمة. ولكن كل ما كنت أتمنّاه أن يقول لي الحقيقة، ولا يخفي عني الحرب التي شنها أنصاره علي!

قالت زبيدة :

ـ لأنه يحبك لم يشأ أن يجرحك!

قالت سميحة :

ـ إنه أشفق علي أن يجرحني. . فقتلني! ومع ذلك فإنني ما زلت أحبه، سأبقى طول حياتي أحبه. . ولن أفتح فمي بكلمة دفاعاً عن نفسي لأن الدفاع عني هو اتهام له. . لا أريد أن يقول أحد إن الزعيم أخطأ. إنني سأموت إذا قيل إن هذا الرجل الطيب ظلمني! خير لي أن أكون أنا الظالمة. . إنني فقدت كل شيء. فقدت سمعتي. . فقدت مستقبلي. . فقدت سعادتي. . فقدت حياتي. . وسأعيش بقية أيامي على ذكريات السنوات الثلاث التي أمضيتها معه! هذه السنين تكفيني طول حياتي. لن أتزوج رجلاً سواه لأنني أحبه! ولن أقبل أن أتزوجه هو لأنني أعبده! وسأمضي بقية حياتي صامتة، مطبقة الفم. أشكر الله على هذه السنوات الثلاث الجميلة في حياتي.

قالت زبيدة وهي تبكي :

ـ إنك سيدة نبيلة! لم أر في حياتي امرأة نبيلة مثلك!

وعادت سميحة ترفع رأسها إلى السماء، وتتمتم بكلمة «يا رب». .

ووقفت زبيدة تودعها وهي لا تزال تبكي. .

واحتضنتها سميحة، وسقطت من عينها دمعة!

وكانت هذه هي دمعتها الأولى منذ فسخ الخطبة!

■ ■ ■

وخرجت زبيدة، وروت لمحمد ما جرى بينها وبين سميحة، وبعد أن انتهت من روايتها قالت له:

ـ عندما كانت سميحة ترفع رأسها إلى السماء وتقول «يا رب» كنت أشعر برهبة غريبة. كنت أرى في عينيها ضوءاً غريباً كأنها ترى الله فعلاً وتتحدث إليه! كانت تبدو كقديسة لم أشعر أنها تحقد على الذين يشتمونها ويتهمونها في شرفها.

قال محمد:

ـ لعل هذه الاتهامات الظالمة هي شموع يشعلها الخاطئون تبركاً بالقديسة التي أحرقوها!

قالت زبيدة:

ـ ولكنها كانت تطلب شيئاً من الله. . لقد سألتها ماذا تطلب من الله فرفضت أن تجيب على هذا السؤال. . ترى ماذا تطلب هذه المسكينة من الله؟ لعلها تطلب من الله أن يرحمها من هذا العذاب الذي تعيش فيه.

قال محمد وهو يتنهد أسى:

ـ أخشى أنها تطلب أكثر من هذا! أخشى أن تكون تطلب من الله الرحمة للذين ظلموها! . . وكأنها بقربهـا من الله عرفت أن اللعنات في طريقها إلى كل الذين ظلموها! . . . وأنهم حفروا قبورهم بأيديهم، وأنه سيجيء يوم يقولون فيه ليتنا ما ظلمناها! . .

قالت زبيدة:

ـ وماذا سوف تستفيد سميحة من اللعنات التي ستنزل على الذين ظلموها؟ هل اللعنات ستعيد لها حبيبهـا؟ هل اللعنـات ستعيد لهـا سعادتها! هل جراح الظالمين تعيد الحياة إلى جثث المظلومين؟

قال محمد:

ـ نعم . . سوف تعيد لها الحياة!

قالت زبيدة:

ـ ومتى؟

قال محمد:

ـ لا أعرف . . ولكن أعرف أن كل قبر لمظلوم . . هو معول يحفر القبر الكبير للظالم!

قالت زبيدة:

ـ أخشى بعد ما حـدث لسميحة من ظلم أن يصبح من الممكن أن يكون كل بريء من هذا الشعب «سميحة شريف».

قال محمد وهو يتنهد:

ـ ما أشقى المظلوم! ما أشقى «سميحة شـريف» . . . وهي ترى الناس يعتبرونها «سميحة» بلا شرف!

قالت زبيدة:

ـ إن كل بريء مظلوم في أي مكان.. هو.. سميحة شريف!

■ ■ ■

جلست نجوى المناسترلي في الصالون الفاخر الكبير بمنزل درويش باشا حبيب، أحد زعماء حزب الوفد، بضاحية مصر الجديدة، وتطلعت إلى الجدران المزخرفة بماء الذهب، وإلى مقاعد الأوبيسون الموشاة بالذهب، وإلى الصور الزيتية الرائعة المعلقة على الجدران، التي اشتراها الباشا في رحلاته السنوية إلى باريس.

وكانت نجوى تغطي كتفيها العاجيتين بفراء ثعلب ثمين، وبين لحظة وأخرى تمرر يدها على رأس الثعلب الجميل، وعلى عينيه الزجاجيتين اللتين بدت فيهما نظرة غريبة.. نظرة وحش يستعد للانقضاض على فريسة في الظلام!

ولم يكن يبهرها بريق الذهب في الصالون، بقدر ما كانت تثيرها نظرة الثعلب الماكر، وكأنها كانت ترى نفسها في فرائها!

وأقبلت بسيمة هانم تتدحرج، بجسمها الضخم المترهل المستدير كالكرة الأرضية، وأقبل خلفها زوجها درويش باشا، وهو يحمل مسبحته في يده.

وعانقت بسيمة هانم نجوى، وقبلتها على الخد اليمين والخد الشمال!

ووقف درويش باشا ينتظر دوره متهللاً وهو يقول:

ـ ما شاء الله يا نجوى.. ما شاء الله.. لقد كبرت وأصبحت

عـروسة فعلاً. . إنني لم أرك منذ عشر سنـين. . أظن من حقي أن أقبلك. . لا، أظن أن زوجك حسين باشا الأشموني سوف يعترض على هذه القبلة. لقد سبق أن أجلستك فوق ركبتي عشرات المرات، وقبلتك مئات المرات، وأنت طفلة، عندما كنت جاركم في الجزيرة.

وانحنت نجوى تقبل يد درويش باشا في أدب وإجلال، فقبلها في جبينها، بينما كانت بسيمة هانم تضحك وتقول:

ـ لا أظن أن الأشموني باشـا سيعترض عـلى القبلة. . ولكن من المؤكد أنه سوف يعترض إذا أجلست نجوى الآن فوق ركبتيك!

وضحك درويش باشا وهو يربت على خد نجوى ويقول لزوجته:

ـ هـل الأشمـوني بـاشـا هـو الـذي سيعتــرض. . أم أنت التي ستعترضين. . ؟

قالت بسيمة هانم باسمة:

ـ إن نجوى هي التي ستعترض!

واحمر وجه نجوى حياء وخجلاً، وأحنت رأسها إلى الأرض، ثم رفعته، وهي تتخذ لها مكاناً بجوار بسيمة هانم وتقول:

ـ لا يمكن أن أنسى الأيام الجميلة التي كنتم تعاملونني فيها كابنتكم المدللة. . ولكن، لعنة الله على السياسة التي تفرق بين الآباء والأبناء!

قالت بسيمة هانم وهي تتنهد:

ـ لعن الله السياسة فعلاً. . إننا لم نأخذ منها منذ دخلناها إلا المتاعب ووجع الرأس، وصرف الفلوس، والخلافات بين الأحباب وأصدقاء العمر. . !

وتجاهل درويش باشا آراء زوجته في السياسة، فهو يعلم جيداً أنه لولا السياسة لما أصبح باشا، ولما أصبح وزيراً، ولما أصبح أحد زعماء المعارضة، والتفت إلى نجوى يقول:

ـ صحيح أنني انقطعت عن زيارة والدك وصديقي العزيز كمال باشا المناسترلي. ولكن حبي واحترامي وصداقتي له، لا تزال كما هي. ولكنني اضطررت للانقطاع عن زيارته نزولاً عند قرار الوفد بمقاطعة أعضاء برلمان صدقي، ووالدك عضو في مجلس الشيوخ. وأنا كعضو في الوفد يجب أن أطيع حرفياً قرار الوفد، وإن كان هذا ليس معناه أن أنسى الصداقة والود والجيرة القديمة.. إنها صداقة العمر..

قالت نجوى في تأثر:

ـ لا يمكن أن يلومك أحد يا عمي على أن تلتزم بقرار الوفد. إنني على ثقة بأن والدي يقدر تماماً موقفك يا عمي..

قال درويش باشا:

ـ لقد حدث أن كنت أسير مع الزعيم في ردهة فندق سان ستفانو بعد صدور القرار، وإذا بصديقي قلين باشا فهمي عضو مجلس الشيوخ يثب من مكانه، ويمد يده للزعيم متوسلاً أن يصافحه.. ومضى الزعيم في طريقه غير عابىء. وألح قلين باشا على الزعيم أن يصافحه، فأدار الزعيم وجهه، وقال له: لن أصافحك أبداً! والتفت قلين باشا إليّ وقال لي: هل يرضيك يا درويش باشا وأنت صديقي من أربعين سنة، أن يفعل بي الزعيم هذا، ويبهدلني، وأنا والله العظيم أحترمه وأحبه..؟ أرجوك أن تتوسط لدى الزعيم ليصافحني! وقلت له: إن قرار الوفد يعني قرار الوفد. وتركته ويده الممدودة معلقة في الهواء!

قالت نجوى:

ـ لا ألوم الزعيم على تصرفه. ولا ألومُ الحزب على القرار الذي أصدره بعد كل ما فعله فيكم صدقي باشا.. ولكن الذي لا أفهمه أن تغضب حكومة صدقي باشا لأنني أزور تانت بسيمة هانم!

قالت بسيمة هانم معترضة:

ـ قطع لسانهم! لا يعرفون أنك بنتي؟!

قالت نجوى في لهجة درامية:

ـ لقد شكت الوزارة إلى جلالة الملك أنني زرتك! وقالت لجلالته كيف يجوز لزوجة موظف كبير في قصر جلالة الملك أن تزور بيت درويش باشا أحد أعداء جلالة الملك؟.

قال درويش باشا مهتماً:

ـ وطبعاً، غضب جلالة الملك على الأشموني باشا!

قالت نجوى:

ـ غضب جلالة الملك في أول الأمر. ثم اقتنع بعد ذلك بسلامة موقفنا، لقد قال زوجي لجلالة الملك إن بسيمة هانم هي أشبه بأم لنجوى. وأنها تعرف نجوى منذ ولادتها.. إن جلالة الملك عندما يسمع الرأي المخلص الصادق، يقتنع على الفور.. لولا أولاد الحرام.. يا عمي!

وهز درويش باشا رأسه موافقاً وقال:

ـ نعم، إن أولاد الحرام في القصر يدسون بيننا وبين الملك.

قالت نجوى في براءة:

- لا أقصد أولاد الحرام في القصر، فأنتم تعرفونهم جيداً، وهم سفرجية يرتدون بذلة الردنجوت! هؤلاء لا قيمة لهم.. إنما الخطر هم أولاد الحرام عندكم، وهؤلاء لا تعرفونهم يا عمي!

وظهر الجزع والدهشة على وجه درويش باشا وقال:

- أولاد الحرام.. عندنا؟

قالت نجوى، وهي تخفض من صوتها كأنها تهمس بسر خطير:

- نعم.. عندكم يا عمي!

قال درويش باشا وقد تضاعفت دهشته:

- لا أفهم، إنك تتكلمين بلغة القصور!

- قالت نجوى:

- من حقك ألا تفهم.. سأترك لغة القصور وأتكلم بلغة الشعب! هل تعرف المثل الشعبي الذي يقول «دود المش منه فيه»؟ الدود موجود عندكم!

قال درويش باشا مفجوعاً:

- إن هذه مصيبة!

قالت نجوى:

- إنها مصيبة فعلاً. هذا هو نفس رأي زوجي. لقد قبل زوجي أن يترك منصب سفير مصر في روما، حيث المرتب الضخم، والحياة

الباذخة، والراحة بغير مسؤوليات، وقبل أن يعمل في القصر الملكي، من أجل هدف واحد يؤمن به، وهو التوفيق بين القصر والشعب . .

قال درويش باشا معجباً:

ـ إن هذا واجب كل رجل مخلص للملك. ولو كان كل رجال القصر مثل حسين باشا الأشموني، لما جرى في البلد كل الذي جرى.

قالت نجوى:

ـ إن زوجي يعتقد أن في مصر ثلاث سلطات. سلطة الملك وسلطة الشعب وسلطة الإنجليز. وإذا اتفقت سلطتان تغلبتا على السلطة الثالثة. والذي يفعله الانجليز أنهم يتفقون تارة مع الملك ضد الشعب، وتارة مع الشعب ضد الملك. والربح في النهاية هو للإنجليز، والخسارة للملك والشعب. ولهذا يرى زوجي أن مصلحة البلد والملك أن يتفق الملك والشعب، وبذلك ينتصران على الإنجليز.

قال درويش باشا متحمساً:

ـ هذا هو الرأي الوطني الذي يؤدي إلى إخراج الإنجليز من مصر.

وتنهدت نجوى في أسى وقالت:

ـ ولكن للأسف . . في كل مرة يقترب زوجي من تحقيق النجاح عند الملك، يفاجأ بتقرير سري يصل إلى الملك يكشف عما يدور في الوفد من أحاديث وخطط ضد جلالة الملك . . وعندئذ تفشل مساعي زوجي، ويعود الخلاف من جديد . . أشد مما كان!

وتجهم وجه درويش باشا وقال مؤكداً:

ـ هذه تقارير كاذبة!

قالت نجوى وقد ارتسم على وجهها الجد:

- للأسف، إنها حقيقية مائة في المائة يا عمي.. إن آخر تقرير وصل إلى جلالة الملك يقول إنك أنت بالذات تهاجمه، وتقول إن لا خلاص لمصر إلا إذا أصبحت جمهورية!

وبدت على درويش باشا الدهشة. إنه فعلاً قال هذا.. ولكنه لا يذكر أين ومتى قال هذا الكلام!

وابتسمت نجوى راضية عن نفسها. لقد عرفت كيف تصيب الهدف. عرفت كيف تضع الفأر في قميص درويش باشا. وعرفت كيف تنجو بكذبتها. إنها لم تخترع هذا الكلام. إنها سمعته من بسيمة هانم زوجة درويش باشا في المقابلة السابقة، واستنتجت نجوى على الفور أن بسيمة هانم أغبى من أن تفكر في تحويل مصر من ملكية إلى جمهورية. وأنها وهي تشبه الببغاء إنما تنقل هذا الرأي عن درويش باشا!

وتركت نجوى درويش باشا تائهاً في ذهوله، وعادت تقول له:

- وفهم زوجي أنه لا بد أن أحد أعضاء الوفد على اتصال سري بالوزارة.. واهتم أن يعرف من هو الشخص المجهول الذي يستطيع دائماً أن يفسد مسعاه الحميد بهذه التقارير. وبعد جهود مضنية في البحث والاستقصاء، عرف من هو الشخص المجهول؟

وسكتت نجوى، لتترك فرصة للقنبلة التي فجرتها أن تدوي في رأس درويش باشا بما فيه الكفاية..

وسارع درويش باشا يقول في لهفة:

ـ من هو هذا المجرم الذي يوقع بين الملك والشعب؟

وسكتت نجوى قليلا: لتضاعف من لهفة درويش باشا ثم قالت:

ـ لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا يا عمي.. لقد تكلمت أكثر مما يجب!

قال درويش باشا محتجاً:

ـ إنك لو قلت لي اسم هذا المجرم فإنك تؤدين خدمة للبلد سوف يذكرها لك التاريخ!

ولاحظ درويش باشا من نظرة عدم المبالاة في عيني نجوى، إنها لا تهتم كثيراً برأي التاريخ، فعاد يقول:

ـ إن هذه خدمة لي شخصياً.. فهذا المجرم ينسب لي كلاماً لم ينطق به لساني.. والله على ما أقول شهيد!

ونظرت نجوى إلى بسيمة هانم التي أخبرتها بما نطق به فعلاً درويش باشا، ولم يبد على بسيمة هانم الببغاء الدهشة لأن زوجها يكذب، ويظهر أنها تعودت على هذا طوال الخمسين سنة، واعتبرته من الروتين اليومي في حياة زوجها!

وسكتت نجوى قليلاً، لتبحث عن كلمات تضاعف من لهفة درويش باشا على انتزاع الخبر الذي جاءت اليوم خصيصاً لتدسه عليه، ثم قالت:

ـ لو عرف جلالة الملك أنني أذعت هذا السر الخطير فسوف يطرد زوجي من منصبه الكبير في القصر، وأظن أنه ليس من مصلحتكم أن تفقدوا الرجل الوحيد في القصر الذي يدافع عنكم، ويفند الأكاذيب

التي تقال عنكم، ويفسد المؤامرات التي تحاك ضدكم.. ولو عرف زوجي أنني أفشيت هذا السر لطلقني على الفور..

قال درويش باشا في حماس، وهو يخرج المصحف من جيبه:

ـ أقسم لك على القرآن، أن إنساناً لن يعرف أنك قلت لي شيئاً

ثم التفت درويش باشا إلى زوجته وقال:

ـ أخرجي أنت يا بسيمة!

وأطاعت بسيمة هانم على الفور أمر زوجها، وغادرت الصالون وأغلقت الباب وراءها.

■■■

وتنفست نجوى الصعداء، لأنها انفردت بدرويش باشا، فمن السهل على المرأة أن تكذب على الرجل وتخدعه إذا انفردت به، ومن الصعب أن تخدعه في وجود امرأة أخرى.. حتى ولو كانت امرأة غبية مثل بسيمة هانم!

وشعرت نجوى أنها الآن تستطيع أن تستعمل كل أسلحتها!

وعاد درويش باشا يلح على نجوى ويقول:

ـ أنت بنتي يا نجوى.. هل يصح أن تخفي الابنة سراً على أبيها؟

وضحكت نجوى ضحكة أفرغت فيها كل أنوثتها وسحرها وفتنتها وقالت:

ـ إن البنات يخفين أسرارهن عن آبائهن.. ولا يبحن بهذه الأسرار.. إلا لعشاقهن!

إهـتز درويش باشـا في مقعده. وتهلل وجهـه. لمعت عيناه خلف نظارته. أسرع يعدل ربطة عنقه، ارتعشت شفتاه.. مال برأسه إلى ناحية نجوى فملأ أنفه عطرها الأخاذ. وأحس أنه تخدر. وتمنى في تلك اللحـظة أن ينقص عمره عشر سنـوات.. لا..! عشرين سنة..! لا..! ثلاثين سنة..!

وفتل شاربه، ووجد نفسه يقارن بين رشاقة نجوى، وبدانة زوجته بسيمة. بين الغزال الشارد، وبين الدبة البلهاء، بين الذكاء والحيوية الملتهبـة، وبين كتلة اللحم والشحم التي لا روح فيها ولا حياة!

في لمحة واحدة شعر بكل هذه المعاني كلها، وفي لمحة واحدة نقلت عيناه نجوى من خانة البنات.. إلى خانة العشيقات!

ولمحت نجوى أن عمها الباشا قد وقع.. وأسرعت تقول له بصوت ناعم مثير:

ـ إن فيك يا باشا شيئاً غريباً لا أعرف ماذا أسميه.. شيئاً يدعوني للثقة بك، يجعلني أصدق كل كلمة تقولها. وأنا من طبعي أن أشك في كل إنسـان، ولا أثق في أحد بسهولة. وفوق هذا فإنني معجبـة بك كرجل عبقري عظيم!

وطرب درويش باشا لهذه الكلمات أكثر مما طرب في شبابه لأغاني منيرة المهدية والشيخ سلامة حجازي. طرب لأن نجوى لم تعد تناديه بكلمة «يا عمي»، هذه الكلمة الثقيلة الدم عندما تقولها شابة فاتنـة صغيرة لرجل في السبعين! إنها كانت أشبه بالسد العالي الذي يقف بينها وبينه. كانت تحوي عدد السنـوات بين عمـره وعمرهـا إلى عدد من الكيلومترات، تفرق بينهما..

إنها تناديه هذه المرة «يا باشا» . . ما أحلى كلمة «يا باشا» وما أغلظ كلمة «يا عمي» من امرأة فاتنة!

وطرب درويش باشا لأن نجوى وصفته بأنه عبقري وعظيم. لقد اشتغل بالسياسة عشرات السنين، وتولى الوزارة، ووصفه الصحفيون الأغبياء أنه وطني ومخلص، ولكن أحداً منهم لم يصفه بأنه عبقري وعظيم. مع أنه كثيراً ما دفع من جيبه الكفالات لاخراجهم من السجون. وكثيراً ما دفع المساعدات المالية لصحف الوفد التي صادرتها وعطلتها الحكومات. ومع أن هؤلاء الصحفيين الأغبياء يعرفونه جيداً، ولكن نجوى في جلسة واحدة استطاعت أن تفهمه، استطاعت أن ترى عبقريته وعظمته. حتى زوجته بسيمة، هذه الحمارة التي عاشت معه طوال هذه السنين لم تقل له مرة واحدة أنه عبقري عظيم!

وحمد درويش باشا الله، لأنه بفضل عبقريته وعظمته، فكر في أن يخرج زوجته من الغرفة . . فمنذ خروج بسيمة لم تعد نجوى تناديه: يا عمي. أخذت نجوى حريتها. انطلقت تعبر عن جمالها وفتنتها: كانت بسيمة أشبه بالأحكام العرفية والرقابة الصحفية!

وقرأت نجوى كل ما يدور في رأس درويش باشا . . وجسده! وأزاحت فراء الثعلب قليلاً عن كتفيها، فبدا عنقها جميلاً أخاذاً، ضاعف من فتنتها وإغرائها وسحرها!

وتأمل درويش باشا في نجوى كل شيء يفتقده: خديها المتوردين بنضارة الصبا، عينيها الصارختين بالعاطفة المشبوبة. شفتيها المتهللتين كأنهما كوب امتلأ بشراب شهي من الهوى والشباب!

وقالت له نجوى وهي تبتسم في دلال:

ـ صدّق أو لا تصدّق . . لقد كنت أصاب بخيبة أمل عندما

كنت أجيء لزيارة تانت بسيمة هانم . . ولا أجدك!

قال درويش باشا:

ـ لا أصدق؟ كيف لا أصدق؟ إن كل شيء فيك صادق وصريح . . أنا قلبي لا يخدعني أبداً . . إنني مشهور بصدق الحكم على الناس من أول نظرة!

قالت نجوى:

ـ ألم أقل لك إنك رجل عظيم وعبقري؟! هذه أهم صفة في العباقرة العظماء. كان نابليون يستعرض الفرقة التي فيها ألف جندي . . ثم يضع يده على كتف واحد منهم ويقول: هذا الشاب يصلح جنرالاً! ثم تدور المعارك وإذا بهذا الشاب فعلاً يصبح جنرالاً!

وانتشى درويش باشا بالشبه القريب بينه وبين نابليون بونابرت. أحس بأنه شرب في جرعة واحدة زجاجة كاملة من ويسكي جون هيج الذي يحبه . . وتذكر في تلك اللحظة أن المسبحة لا تزال في يده، ورأى أنها لا تتفق مع مظهره كنابليون بونابرت، ولا تناسب المقام، فأسرع يضعها فوق المائدة . . ومد يده التي كانت تحمل المسبحة إلى يد نجوى في خفر، وراح يلمسها في رفق وحنان . .

وتركت نجوى يده فوق يدها، وقالت:

ـ وعندما علمت من زوجي أن الحكومة اعترضت على زيارتي لتانت بسيمة هانم، قررت أن أتحدى الحكومة . . واتصلت بتانت بسيمة هانم على الفور، وقلت لها إنني سأزورك اليوم، بشرط أن يكون عمي موجوداً . .

ورأت نجوى في عيني درويش باشا الفزع عندما سمع كلمة «عمي»

تعود إلى شفتيها . . فأسرعت تتراجع وهي تقول باسمة :

ـ أقصد . . درويش باشا :

قال درويش باشا ولعابه يسيل :

ـ درويش فقط . . من الآن اسمي درويش حاف . .

وضحكت ضحكة مثيرة ، إهتز لها درويش حاف وقالت :

ـ سوف أسميك دودو!

وتمايل درويش باشا طرباً وقال :

ـ دودو؟ دودو . . ؟ هذا اسم لذيذ فعلاً . . دودو . . ؟

وغمزت نجوى بعينها وقالت :

ـ دودو . . باشا!

وصاح درويش باشا معاتباً :

ـ لا . . دودو . . دودو بس . .

وكان درويش باشا قد نسي في هذه الدقائق السعيدة اللذيذة كل شيء عن أسرار الحزب التي تتسرب إلى الملك . . وعن الدسائس الحقيرة للإيقاع بين القصر والشعب . . وعن المساعي لعقد اتفاق بين الملك والحزب!

لقد أحس في تلك اللحظات الهنيئة أنه أصبح ملكاً ، وعقد اتفاقاً أهم كثيراً من الاتفاق بين القصر والشعب!

ورأت نجوى أن هذه فرصتها لإتمام دورها ، بعد أن نوّمت دودو باشا تنويماً مغناطيسياً ، وجعلته يفقد إرادته أمام سحرها الطاغي وجمالها

الفتان.. فأمسكت يده في يدها بحنان وقالت له:

- الآن أستطيع أن أأتمنك على كل شيء.. على حياتي.. على مستقبلي.. يمكنك أن تطلب مني أي شيء الآن وأنا مستعدة لأن ألبي طلبك..

وتوقعت نجوى أن درويش باشا سيسألها عن اسم الرجل المجهول الذي يرسل التقارير السرية إلى الوزارة.. وأنها ستضطر أن تقول له عن اسمه بعد أن وعدته أن تلبي أي طلب يطلبه!

ولكن درويش باشا قال لها:

- متى أقابلك؟!

وأحست نجوى بخيبة أمل. لقد نسي الرجل السياسة، ولم يعد يذكر أي شيء إلا هواها!

فعادت تقول له:

- لماذا تستعجل الأمور؟ إن الوقت طويل أمامنا!

ودهش درويش باشا. الوقت طويل؟ إنه في السبعين من عمره، فماذا بقي أمامه من سنوات؟ لعل حبها له جعلها تتصور أنه في الخمسين. ولم يشأ أن يذكرها بعمره فهز رأسه وقال:

- إنني لم أحب قبل الآن. ولا مرة واحدة في حياتي. إن قلبي لا يزال بكراً، إنني في سنة أولى بمدرسة الحب!

قالت نجوى وهي تحدق في عينيه:

- أنت ذئب كبير! إن لك خبرة غريبة بالنساء! إنك نوّمتني تنويماً

مغناطيسياً! جعلتني في دقائق أفقد إرادتي.. وأقول ما لا يجب أن يقال!

وانتفضت نجوى من مقعدها وقالت:

- سأذهب الآن.. لو بقيت أكثر.. فسوف تجعلني أقول أشياء لا أريد أن أقولها.. أو لعلك جعلتني أقولها دون أن أشعر.. إنك رجل خطير.. إنك جعلتني أفعل أشياء لم أحس بأنني أفعلها.

قال درويش باشا في توسل:

- إبقي قليلاً.. خمس دقائق أخرى، خمس دقائق فقط.

قالت نجوى وهي تنظر إلى ساعتها في هلع:

- إنني مضطرة أن أنصرف الآن لأن لدي موعداً مع زوجي في نادي محمد علي..

ولو جلست خمس دقائق فسأنسى نفسي!

ومضت في طريقها إلى الباب ثم توقفت قليلاً وقالت:

- أنت رجل خطر! لقد جعلتني أقول لك اسم الرجل المجهول الذي يرسل التقارير السرية ضدكم للوزارة، وكنت أنوي ألا أقول اسمه!

وأمسك درويش باشا بيدها، وقد تذكر فجأة حكاية الرجل المجهول.. أتكون فعلاً قد ذكرت له اسم الرجل المجهول وهو في غيبوبة الهوى، فنسي أنها ذكرت اسمه..؟

وعاد يقول لها:

- إنك لم تقولي لي شيئاً! ما هو اسم هذا الرجل المجهول..؟

قالت نجوى بغير مبالاة:

- إنه محرر في جريدة «الجهاد» لسان حال الوفد.

ومضت في طريقها، وتشبث درويش باشا بها، وتوسل إليها أن تبقى دقيقة أخرى..

وتظاهرت أنها تجلس بالرغم منها.. وسر درويش باشا أنه كسب دقيقة من أجل الوطن، ومن أجل قلبه في نفس الوقت وعاد يقول:

- ما هو اسمه؟

قالت نجوى بغير اهتمام:

- سمعت اسمه.. ولكني نسيته.. لأنني لم أهتم به.

قال درويش باشا:

- لا بد أنه الدكتور محمود عزمي، فهو رجل غير وفدي، وطالما اعترضت على عمله في جريدة وفدية.

قالت نجوى:

- لا.. إنه ليس الدكتور عزمي.. إنه اسم آخر.. لا أذكره!

قال درويش باشا في اهتمام:

- حاولي أن تتذكري اسمه.. إن عدد محرري جريدة «الجهاد» أكثر من خمسين محرراً!

قالت نجوى:

- إن ذاكرتي ضعيفة. كل ما عرفته أنه يذهب في الساعة السادسة من

مساء كل يوم إلى بيت عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية. ويدخل من الباب الخلفي، باب الخدم، ويكتب هناك تقريراً كاملاً عن أخبار الوفد السرية. وأنا لا أحب أن أظلم بريئاً. فهذه مسألة خطيرة يجب أن تتأكدوا منها بأنفسكم. يمكنكم أن تراقبوا الباب الخلفي لبيت عوني باشا في شبرا، وتعرفوا من هو محرر جريدة «الجهاد» الذي يدخل سراً إلى بيت الوزير كل يوم.

وسكتت قليلاً، وتظاهرت بأنها ندمت على ما قالت، فقالت في صوت آسف:

ـ قلت لك إنك رجل خطر! ترغمني أن أفعل كل شيء لا أريد أن أفعله!

ثم نظرت إلى ساعة يدها، ورفعت عينيها ملتاعة وقالت:

ـ ماذا فعلت بي يا دودو؟! إنك أخّرتني عن موعدي مع زوجي.

وصافحته، وهي تضغط على يده في رقة، وضحكت ضحكتها التي تعيد الشباب إلى الشيوخ وقالت:

ـ هل ستكتم هذا السر؟!

قال درويش باشا منتشياً بضحكتها، بلمسة يدها، برقة صوتها، وبفتنة جمالها:

ـ ليس هذا السر فقط.. سأكتم كل سر.. إنني أحسن من يكتم الأسرار في هذا البلد!

ونادى درويش باشا على زوجته بسيمة هانم، لتودع نجوى قبل خروجها..

وأقبلت بسيمة هانم، تتقدمها ابتسامتها الغبية، وأمسكت نجوى يدها، وقبلتها، في حب وإجلال واحترام . .

وعانقتها بسيمة هانم في محبة، وقبلتها على خديها . . ولم تتصور أنها تعانق الثعلب الذي فوق كتفي نجوى . .

ومشت بجوارها إلى الباب . .

ومشى درويش باشا خلفهما، ولم يتمالك إلا أن يقارن بين ظهر بسيمة وظهر نجوى . . بين ظهر الدابة وظهر الغزال!

كانت بسيمة هي الماضي بحرمانه وبشاعته وتكراره . .

وكانت نجوى هي الحاضر بعطائه وجماله وحدته . .

وتنهد درويش باشا آسفاً على السنوات الطويلة التي أمضاها مع الماضي، وحسرة على السنوات القليلة التي سيمضيها مع الحاضر والمستقبل . . !

ولكنه شعر بالرضاء الشديد عن نفسه . .

إنه لم ينس الوطن حتى في هذه اللحظات الجميلة السعيدة الهنيئة!

لقد استطاع أن يخدم الوطن ويخدم قلبه في نفس الوقت . .

وضع يده على أخطر سر سياسي . . في الوقت الذي وضع فيه يده على أجمل امرأة أحبته لشخصه، وفهمته أكثر مما فهمه أي إنسان آخر . . فهمت أنه عبقري وعظيم!

■ ■ ■

قادت نجوى سيارتها في طرقات مصر الجديدة، عائدة إلى بيتها في

الجزيرة. كانت السيارة تتهادى كأنها ترقص. وكانت نجوى تتمايل وهي تقود السيارة، كأنها ترقص على أنغام موسيقى لذيذة سحرية مثيرة مهدئة للأعصاب. . هي موسيقى الانتقام!

لم تفكر لحظة في ذلك الرجل العجوز الذي أوقعته بسهولة في شباك هواها. . إنه ليس أكثر من «قبقاب» وضعته في قدميها، وهي تدخل حمام السياسة. . وستخلع القبقاب بعد أن تنتهي من مهمتها، دون أن تتسخ قدماها بماء السياسة غير النظيف!

ولكنها كانت تفكر في الرجل الذي قتلته. تفكر في محمد. هذا الشاب الذي أذل كبرياءها، وحطم قلبها، وأبى أن يكون عشيقها، بعد كل ما بذلته من جهود ومحاولات. هذا الرجل الذي منعها من دخول الجنة التي كانت تحلم بها، وتركها هائمة على وجهها في جحيم الغيرة، تحرقها نارها، ويعذبها زبانيتها.

لقد حاولت أن تنساه. بذلت المستحيل لتطوي صفحته من حياتها. منذ عادت إلى القاهرة من إيطاليا عرفت عدة رجال. كان قلبها مثل فندق شبرد، مليئاً بالزبائن، أجانب ومصريين. شباباً شقراً وسمراً. أغنياء وموظفين، يرتمون تحت قدميها، يتعبدون فيها كأنها آلهة الجمال. يطاردونها في المآدب والحفلات والتليفونات.

حاولت أن تنسى الحب القديم بحب جديد، تداوي الداء بالداء، ولكنها لم تستطع أن تنسى هذا الشاب الفقير المعدم الذي عشقته منذ أن رأت بنطلونه مفتوحاً. . هذا الشاب الذي لا يعرف شيئاً من أسرار الغرام، الذي لا يزال في السنة الأولى بمدرسة الحب، بلا ماض ولا تجارب، مع أنها عرفت أساتذة في الهوى، وخبراء في الغرام، ورجالاً يحملون لقب «دون جوان» و«كازانوفا» و«زئر نساء»!

ومع كل هذه المغامرات، لا يزال طعم شفتيْ محمد في شفتيها. ويجب أن تستعيده. إنه الرجل الوحيد في حياتها. . نصف التفاحة التي تكملها. . المرأة الغانية مثل الرجل الطاغية، لا يكفيه ملايين الراكعين الخاضعين المستسلمين. يقلقه ويثيره إذا وجد فرداً واحداً بينهم يرفع رأسه، ولا يخضع لسلطانه كأن الفرد الذي لم يخضع قادر أن يزلزل عرشه ويهدم سلطانه. وهو قد يفقد ملايين الناس ليذل رجلاً واحداً يقول له: لا!

لقد أحبت سامي المغربي الموظف في وزارة الخارجية، ثم اكتشفت بعد أيام أنها لم تحبه لشخصه، وإنما لأنه يشبه محمد عبد الكريم، في عينه السوداوين، في شعره الأسود الطويل، في سمرته الجميلة، في قامته الفارعة، في ابتسامته الحلوة. . وبعد أن عرفته افتقدت فيه رجولة محمد، في صوته، في نظراته، في تصرفاته.

سامي كان يركع تحت قدميها، ومحمد كان يرفسها بقدمه. ومع ذلك كانت ترفس سامي وتركع لمحمد. كانت تحن إلى قسوة محمد التي تثير كل ما فيها من أنوثة. إلى قوة محمد التي تجعلها تتلذذ بضعفها. كانت تحن إلى أوامر محمد التي كانت تجد نشوة في الخضوع لها. كانت أحياناً تشعر أنها تخاف منه وكانت تجد في هذا الخوف قشعريرة لذيذة، فتجد في الخضوع له سلطاناً لا تجده في إصدار أوامرها إلى سامي المغربي الذي يطيعها طاعة عمياء. إنها تذوب شوقاً إلى كلمات محمد التي تشبه الصفعات، وتمل الشاب المطيع الأنيق الجميل الذي تلهو به كما تشاء!

وتركت سامي المغربي. وتعرفت إلى السنيور ماركو السكرتير الثاني بالسفارة الايطالية بالقاهرة. كان يشبه تمثال أحد آلهة الرومان، فهو جميل، مهيب، قوي. ولكنها أحست بين ذراعيه أنها تعانق تمثالاً من الرخام، بارداً برودة الرخام. جامداً كالتمثال. لم تسمع في حياتها كلاماً

جميلا عن الحب كما كانت تسمعه منه وهي ترقص معه على أنغام التانجو. كلمات ساخنة، غزلاً دافئاً، معاني ملتهبة، فإذا انفرد بها أصيب بالبكم. تحول إلى تمثال فعلاً. تمثال جميل تضعه في أكبر ميدان، ولكن لا يمكن أن تضعه بجوارها في فراش!

كان محمد يلهب عواطفها وهو مرتد كل ملابسه أضعاف ما كان يثيرها السنيور ماركو وقد خلع كل ملابسه. حتى أنها تصورت أن لسان ماركو في ملابسه، فإذا خلع ملابسه خلع معها لسانه!

كان محمد يشتمها فتذوب حباً وهوى. وكان ماركو يتغزل فيها فتنساه وهو جالس معها وتتذكر محمداً. كان محمد يبتعد عنها في السيارة، فتشعر كأنه يجذبها إليه ويبتعد. وكان ماركو يقترب منها، وهي جالسة بجواره في سيارته، فتنفر منه، وكلما التصق بها، بعدت المسافة بينهما!

كان في محمد أشياء كثيرة تتكلم. لسانه يقول شيئاً، عيناه تقولان شيئاً، أصابعه تقول شيئاً. جسده يقول شيئاً، أما ماركو فكل شيء فيه لا يقول أي شيء!

وتركت ماركو، وعرفت علي عبد الرحمن التشريفاتي الشاب في القصر الملكي، وشعرت أنه يعبدها، ولكنها كرهته لأدبه الجم، لأنه يعتبر لقاءهما أشبه بالتشريفات الملكية، فهو يستأذنها قبل أن يقبلها. ويقدم لها التماساً ليعانقها، ويعتبر كل كلمة سخيفة تقولها نطقاً سامياً. وكانت تحس وهي بين ذراعيه أنه «يتشرف» بعناقها، بل هي تحس وهو مجرد من ثيابه أنه يرتدي بذلة التشريفة وينام بجوارها في الفراش!

صحيح أن وسامته كانت تعجبها، ولكن وسامة الرجل وحدها لا تكفي المرأة. إنها بعد أيام تتحول إلى صورة زيتية معلقة في غرفة

النوم. لقد حاولت أن تجعل منه شاباً جريئاً كمحمد. لقد كان محمد يعاملها وهو طالب في المدرسة السعيدية وهي زوجة سفير وابنة وزير، كأنه هو السفير والوزير، وكأنها هي الطالبة في مدرسة الليسيه، كان ينسى الفروق التي بينهما ولا يذكر إلا أنه رجل وأنها امرأة. لقد قالت نجوى للتشريفاتي علي عبد الرحمن إنك تعاملني كأنني ملكة وأنت تشريفاتي في القصر. لا تنادني يا نجوى هانم! عندما تنطق هذه الكلمة أشعر بأنك ألقيت علي جردلاً من الماء البارد يطفىء لهيبي.. ناديني: يا بنت.. قل لي: يا بنت الكلب.. أشعرني أنني جاريتك.. فكان علي عبد الرحمن يقول لها مرتاعاً مستنكراً: «العفو يا أفندم! العفو يا صاحبة العصمة!».

كل رجل عرفته كانت تبحث فيه عن محمد. كانت في بعض الأحيان تخدع نفسها، وتغمض عينيها لتتصور أنها بين ذراعي محمد، فتلهب مشاعرها، ثم تفتح عينيها، ولا ترى محمداً، فتتحول إلى لوح من الثلج!

وكان أكثر ما أشعل نارها كلمة محمد لها، بأنه يحب امرأة أخرى. لقد قررت أن تراقب محمداً، لتعرف من هي المرأة التي فضلها عليها، وجاءت بسائق سيارة أبيها الأسطى عبد المتعال، وجعلته سائقاً خاصاً لسيارتها، وجعلت والدها يعين سائقاً آخر لسيارته.

وكانت تطمئن للأسطى عبد المتعال، لأنه هو الذي علمها قيادة السيارات، ولأنه كان كاتم أسرارها عندما كانت تلميذة في مدرسة الليسيه، وكان يتستر عليها، عندما تزوغ من المدرسة، وتذهب إلى مواعيد الغرام!

وهكذا تعلمت الحب في مواعيد الدراسة. وقلبت الشبان أكثر مما

قلبت صفحات الكتب.. وأصبح لها تاريخ قبل أن تحفظ دروس التاريخ.. وعرفت قواعد الهوى خيراً مما تعرف قواعد اللغة.. ونجحت في امتحانات الحب أكثر مما نجحت في امتحانات مدرسة الليسيه!

كل هذا بفضل نصف الريال الذي كانت تعطيه يومياً للأسطى عبد المتعال نفقات مدرسة الحب!

فمن هو خير من الأسطى عبد المتعال لتأتمنه على سرها مع محمد؟!

واتفقت مع الأسطى عبد المتعال على أن يراقب محمد، أن يتبعه كظله في كل مكان يذهب إليه. ووعدته أن تدفع له جنيهاً عن كل يوم يقوم فيه بأعمال المراقبة. بحيث يتبعه من ساعة خروجه من بيته في الصباح إلى ساعة عودته إلى البيت في الليل..

وسافرت إلى إيطاليا في المرة الأخيرة بعد أن أوصت الأسطى عبد المتعال بأن عمله الوحيد هو مراقبة محمد..

وعادت من إيطاليا، وقابلت محمداً في سيارتها، وعرضت عليه نفسها للمرة الأخيرة، فعاد يقول لها إنه يحب امرأة أخرى..

وفي اليوم التالي جاءها الأسطى عبد المتعال يبتسم ويقول لها إنه رأى محمداً يركب سيارتها.. وأنه بناء على تعليماتها استقل سيارة أجرة خلفها، وذهب خلفها إلى طريق السويس.. وأنه يظن أن مهمته انتهت ولم تعد في حاجة إلى تقارير!

وقالت نجوى إنها تريد التقارير كاملة عن كل خطوة خطاها محمد منذ يوم سفرها إلى إيطاليا..

وفوجئت نجوى بأن الأسطى عبد المتعال يقول لها إن محمداً يذهب

في الساعة السادسة مساء كل يوم إلى بيت عوني حافظ باشا وزير الدولة في وزارة الداخلية، ويدخل من الباب الخلفي، ويبقى داخل البيت ساعة أو ساعتين، ثم يخرج من الباب الخلفي. .

ولم تتصور نجوى في أول الأمر أن محمد عبد الكريم عشيق زبيدة زوجة وزير الدولة. كانت تعتقد أن زبيدة سيدة محافظة، بعيدة كل البعد عن المغامرات، وفوق مستوى الشبهات.

ولكنها عادت تسترجع في ذاكرتها تصرف زبيدة الغريب، عندما فاجأت نجوى بالزيارة بغير موعد، بعد دخول محمداً إلى بيتها بدقيقة واحدة، بحجة الحصول على حديث لجريدة «الجهاد». ثم إصرار زبيدة على أن تبقى معها طوال مدة وجود محمد، وادعاءها بعد ذلك أنها أصرت على البقاء لأنها تصورت أن محمد سيحاول اغتصابها!

هذه الزيارة المفاجئة لا يمكن أن تكون بريئة. وهذه التصرفات الغريبة دليل قاطع على أن زبيدة تحب محمداً، ولذلك حرصت على ألا تتركه معها دقيقة واحدة حتى لا تخطفه منها!

وجنت نجوى لأن زبيدة استغفلتها. استدرجتها حتى عرفت قصتها مع محمد. عانقتها لتخنقها. عرفت خططها لتفسدها. لولا هذه الخديعة لاستطاعت أن تسترد محمد من زبيدة، وألف زبيدة!

وحقدت نجوى على محمد لأنه روى لزبيدة ما دار بينهما. لولا ذلك لما عرفت بموعده معها. ليس أقسى على المرأة من أن يبوح الرجل الذي تحبه بسرها لامرأة. . وامرأة يحبها!

وقررت أن تخطر عوني باشا حافظ بأن زوجته تخونه مع محمد عبدالكريم. تخونه كل يوم. . في بيت الزوجية!

وعادت تفكر في هذا القرار. إن عوني باشا كأي رجل يشتغل بالسياسة يخشى على سمعته، لن يضبطها معاً بالجرم المشهود، ويزج بها في السجن. إن كل ما سوف يفعله أنه سوف يطلق زبيدة على الفور، وعندئذ سيتزوجها محمد، وهكذا تكون نجوى انتقمت من نفسها بدلاً من أن تنتقم من محمد وزبيدة.

وعادت تفكر في طريقة أخرى لتقضي على العلاقة بين العاشقين.

وفكرت في أن محمداً لا يخفي سراً على زبيدة، وأنه لا بد أن يكون قد روى لها كل ما حدث بينهما عندما صحبته في سيارتها في طريق السويس.. فلماذا لا تستغل القصة، وترويها لزبيدة كما حدثت تماماً، ثم تضيف لها أكذوبة واحدة، إنها أغرته بجسدها، واستسلم في نهاية الأمر، فحملت منه!

وذهبت وزارت زبيدة في بيتها، وألقت قنبلتها، وتلذذت برؤية زبيدة يغمى عليها، وخرجت وهي واثقة أنها نسفت هذه العلاقة إلى الأبد، وأنه لم يمض إلا وقت قليل ويعود محمد إليها!

وفوجئت بالأسطى عبد المتعال يقول لها إن محمداً زار زبيدة في مستشفى الدمرداش، وأنه عاد يتردد عليها يومياً في بيتها كما كان، بل أنه سافر معها إلى الإسكندرية!

عندئذ جن جنون نجوى. إن محمداً يهزمها في كل معركة. يجعل سهامها ترتد إليها. كلما تصورت أنها فرقت بين الحبيبين زاد التصاقهما! وشعرت أنها تكره محمداً أضعاف ما تكره زبيدة. هو عدوها وليست زبيدة. هو المجرم الأول، وزبيدة شريكته. هو الذي سيطر على زبيدة بكل ما فيه من حب وشهوة، بكل ما فيه من رجولة وقوة. إنه يعطيها

كل يوم ما حرمه على نجوى يوماً واحداً. جعل زبيدة تغامر بزوجها الوزير من أجل صحفي صعلوك. كل قبلة يمنحها محمد لزبيدة مسروقة من نجوى. كل لقاء معها كان من حق نجوى. لقد عرضت عليه نجوى أن تكون واحدة من عشيقاته فأبى.. وإذا به يجعل من امرأة واحدة كل عشيقاته.

إنها امرأة. ومن حق المرأة أن تجن إذا عرفت أن امرأة أخرى تحب رجلها. ويزداد جنونها إذا عرفت أن رجلها يحب امرأة أخرى.. ويتضاعف هذا الجنون إذا عرفت اسم المرأة الأخرى!

وهي قد عرفت اسم المرأة الأخرى!

ولكن هذا الجنون يصل إلى أقصى درجاته عندما تجد المرأة رجلاً تعشقه ولا يعشقها، تقبل عليه ويدبر عنها، تنتظره ولا يجيء، ترتمي عليه فينفر منها.. وتتحمل كل هذا.. ثم تكتشف أن القطرات التي تمنتها، وبخل بها، انهمرت كالمطر على غريمتها..

إنها لا تجن فقط.. إنها تموت.. يصبح عشقها هواناً، وانتظارها ذلاً، ومطاردتها فضيحة..

الذين يطاردون الحب ولا يمسكون به، يتحولون إلى أشقياء، ثم يتحولون إلى مجانين، ثم يتحولون إلى أموات على قيد الحياة.. وشر أنواع الموتى هم الذين يموتون ويبقون على قيد الحياة!

وهي لن تموت وحدها.. ستأخذه معها!

وكلما زاد جوعها، وعشقها بغير أمل، زادت رغبتها في الانتقام! إنها لا تريد أن تحرمه فقط من المرأة التي فضلها عليها، بل هي تريد أن تحرم كل امرأة منه!

لا، لن أموت وحدي . .

سآخذه معي . . إلى قبري!

■■■

عاش محمد، في دار جريدة «الجهاد»، بعد عودته من الإسكندرية، أشبه بالسن القلقة وسط صف من الأسنان الثابتة. . الأسنان الثابتة تضيق بالسن القلقة، ولكن السن القلقة تكون أكثر منها ضيقاً، وألما وعذاباً. .

هزه الظلم الذي تعرضت له سميحة شريف. الظلم يؤلمنا ويعذبنا. فإذا عجزنا عن دفعه أو مقاومته، أو حتى الاعتراض عليه، أحسسنا بآلام لا يتحملها بشر، هي آلام الانسحاق!

الحياة في زاوية العميان محتملة، إلى أن يبصر فجأة أحد العميان. فيضيق العميان بالمبصر، كما يضيق المبصر بالعميان!

وكان محمد سعيداً بعماه عندما كان يرى كل ما يراه العميان. كل شيء له لون واحد، ففي الظلام يتساوى كل شيء طولاً وعرضاً، وجمالاً وقبحاً يتساوى شروق الشمس مع غروبه، يتساوى جمال القمر مع ظلام الليل الكئيب.

ولقد عاش هذه السنوات على اتفاق تام مع زملائه، بأن الحزب لا يمكن أن يخطىء. قراراته لا تقبل المناقشة. آراؤه مقدسة. زعماؤه آلهة وأنصاف آلهة، ليس من حقنا أن نناقشهم الحساب. وكان سعيداً بهذه الثقة التي كان يشارك فيها كل من حوله. بالإيمان بأي شيء مريح، كالنوم فوق مرتبة من ريش النعام. وعندما تجيء فترة الشك يتحول الريش الناعم إلى مسامير مدببة، فيحس الراقد فوق هذه المسامير، كأنه

أحد فقراء الهنود. صحيح أنه كان في بعض الأحيان يفكر، ويناقش الأشياء بينه وبين نفسه، ثم لا يلبث أن يعود إلى الصف، يمشي بنفس خطوات زملائه على دقات طبول الكفاح . .

ثم عرف درويش باشا حبيب، وعرف قصة سميحة شريف، وأحس بشيء يشبه الصدمة الهائلة. لم يشعر في أول الأمر بكل آلامها وكل نتائجها. لم يعرف أنها حطمت أشياء كثيرة فيه. كل ما عرفه أنه أحس بحزن عميق. حزن له دموع، دموع تغسل أشياء عديدة كانت لاصقة به، أهمها أن القادة لا يخطئون. أنهم فوق البشر. أن حقهم إصدار القرارات، وحقنا الطاعة العمياء ونحن مغمضو العيون. أصبحت البديهيات في حاجة إلى نسف. أصبحت العقلية التقليدية في حاجة إلى إعادة نظر. كأن الآلهة أصبحت أوثاناً والمعبود أصبح صنماً!

وبدأ محمد يشعر بإحساس جديد لم يشعر به من قبل، هو الإحساس بالرفض!

وبدا الإحساس بالرفض شعوراً لذيذاً في أول الأمر، تماماً كالهروب من السجن. ولكن، بعد أن يحطم المسجون قيوده ويفر من باب السجن، ينتهي شعوره اللذيذ بالانتصار على سجانيه، ويبدأ شعور القلق. . أين يذهب؟ أين يختفي؟ أين يجد الحرية؟

■ ■ ■

لقد وجد أن درويش باشا يتناقض مع المبادىء التي يتزعمها. ينادي بالمساواة بين جميع المصريين، ويرفض أن يتساوى مع محمد. يدعو إلى نصرة الحق والحقيقة ويؤكد أن صدقي باشا ميت، بينما هو على قيد الحياة، وأنه موضوع في ثلاجة منذ ثلاثة أيام، بينما كان محمد يتحدث مع صدقي منذ نصف ساعة فقط. فإذا اكتشف درويش باشا أنه

مخطىء، لا يعترف بالخطأ، وإنما يبادر باتهام محمد بأنه خالف قرار الحزب بزيارة بيت رئيس الوزراء!

ودرويش باشا وعدد من زملائه يؤمنون بالعدالة، ويحاربون الظلم والطغيان عن اقتناع، ويقاومون الاستبداد عن عقيدة، فإذا لم يعجبهم زواج الزعيم من سيدة مطلقة، وفشلوا في إقناعه بالعدول عن الزواج، ظلموا سميحة شريف بغيرحق، وحكموا عليها بلا محاكمة، وأشعلوا النار في امرأة بريئة بنفس البساطة التي يشعلون بها سيجارة! ويتحمس درويش باشا لحرية الرأي، ويهاجم الطغاة الذين يكممون الأفواه ويصادرون الصحف، فإذا اختلف مع محمد في رأيه في سميحة شريف، أصبح محمد في غمضة عين عميلاً لحكومة الطغيان، متهماً في شرفه الوطني، مدسوساً على الحزب لتلويث شرف الزعيم بتشجيع زواجه من هذه المرأة الفاسدة.. كل هذا لأنه دافع عن شرف امرأة مظلومة!

هل الحرية هي حرية أغلبية الشعب، أم هي حرية كل فرد في هذا الشعب؟ الحرية كما يفهمها محمد أنه إذا اجتمع الشعب كله على رأي واحد، وخالفه فرد واحد، فإن واجب الشعب أن يحمي حرية هذا الفرد الواحد بنفس الحماس الذي يحمي به حرية الشعب كله.

والعدالة لا يمكن أن تقتصر على طبقة. أو على فئة بذاتها، حتى لو كانت هذه الفئة هي الملايين بأجمعها. إنك إذا حرمت فرداً واحداً من حقه في العدالة، وأبحتها للملايين، ترتكب جريمة مثلما ترتكب جريمة إباحة العدالة لفرد واحد، وتحريمها على الملايين. ليس من حق البشر أن يجردوا فرداً من حقه الكامل في العدالة. أن يحاكموه محاكمة استثنائية. فيوم يخصونه بنوع استثنائي من المحاكمة، فإنما هم يحكمون عليه قبل أن يحاكموه!

لقد حكموا على سميحة شريف بالإعدام لأنهم حاكموها في الظلام. في اجتماعات سرية، وراء أبواب مغلقة. الهمسات قامت بدور الاتهام، والمستندات المزورة قامت بدور الحيثيات، والملفقون قاموا بدور شهود الإثبات . .

لو كان كل هذا جرى في النور لما حدثت هذه المأساة.

لو أن درويش باشا اتهم محمداً في مواجهته، بدلاً من أن يتهمه خلف ظهره، وفي جلسة سرية للوفد، لعرف كيف يفند هذه الاتهامات، ولما عاشت معلقة فوق رأسه، إلى أن يجيء بالمستندات!

إن الذي نحتاج إليه هو النور. عندما نضيء الأنوار تختفي الأكاذيب كما تختفي الأشباح. وعندما نطفىء الأنوار تنتشر التهم الظالمة كما تنتشر خفافيش الظلام!

لقد حاول محمد، منذ عودته من الإسكندرية، أن يكسب أنصاراً لوجهة نظره هذه بين زملائه محرري جريدة «الجهاد». أراد أن يثبت لهم أن سميحة شريف بريئة، وأنها ضحية، وأن الزعيم نفسه ضحية مثلها. ولكنه وجد أن زملاءه يعرضون عنه، يسدون آذانهم، يهربون إذا سمعوا كلمة دفاع واحدة، ويتجمعون كالذباب إذا سمعوا كلمات الاتهام من الأستاذ حسين توفيق مدير التحرير الذي يؤلف كل يوم كذبة جديدة ليسند بها الكذبة القديمة. كأن الدفاع عن شرف الأبرياء يؤذي الآذان، وتلويث شرفهم بالأباطيل يشجي ويطرب هذه الآذان!

إن زملاء محمد اعتبروا قرار الزعيم بفسخ خطبته قراراً مقدساً لا يقبل مناقشة. وهذا القرار يقفل الباب نهائياً في هذا الموضوع الدقيق. والكلام فيه من جديد هو كفر وزندقة. وإثارة موضوع يجب أن يموت!

لا بأس أن يموت الموضوع، إذا لم يكن متعلقاً بشرف امرأة بريئة، ولكن كيف يموت الموضوع وتموت المرأة معه؟ إنهم لا يصدقون أن القبر الذي دفنت فيه الخطبة، دفنت فيه أيضاً امرأة حية!

وهم يقولون: ما قيمة امرأة واحدة بجانب سمعة زعيم أمة؟ في سبيل مصلحة حزب يضم الملايين، فلتذهب هذه المرأة إلى الجحيم، ما دام في ذلك بقاء الزعيم مقدساً فوق الريب والشبهات. . أسكت ولا تفتح فمك! هذه موضوعات لا يجوز أن يتحدث فيها إلا زعماء الحزب. ومن يناقش هذه الموضوعات يخرج على مبادىء الحزب!

ولم يقتنع محمد بهذه المنطق. الديمقراطية هي أن نتحدث في كل شيء. نناقش كل شيء. نفهم كل شيء. نعترض على ما لا نقتنع به. لا يوجد في الديمقراطية شيء اسمه «تابو». . موضوع فوق المناقشة. موضوع ممنوع. . غير مباح. . لا يوجد في الديمقراطية ما يمنع عضو الحزب أن يناقش قراراته، ويهاجمها، ويعترض عليها، ويهاجم زعماء الحزب أيضاً!

إن مستر تشرشل أحد زعماء حزب المحافظين في انجلترا يهاجم الآن مستر بولدوين رئيس حزب المحافظين، ويعارض قرارات الحزب، ومع ذلك لم يفكر الزعيم في أن يفصله من حزبه. .

ولورد بيفر بروك صاحب جريدة «الديلي إكسبريس» أحد ألسنة حزب المحافظين، التي تنتقد قرارات الحزب، وتسخر من زعيم الحزب، ولم يتبرأ منها حزب المحافظين.

وخطر ببال محمد أن يذهب إلى الدكتور ماهر، ويناقشه بصراحة في هذه المسائل، ويقترح عليه أن يدخل الحزب أنظمة جديدة، تبيح لمستويات الحزب المختلفة أن تناقش قراراته، وتعترض عليها. إن

مناقشة أي قرار يصدره حزب ديمقراطي ليست دليلاً على الخروج على مبادىء الحزب، بل هي على العكس تتيح الوصول إلى الرأي الصحيح، فالمناقشة تصل إلى الإقناع أكثر مما يصل الإلزام..

ثم عرف محمد أن الدكتور ماهر مشغول. مشغول جداً، فهو يعد للمؤتمر البرلماني الذي سيعقد في باريس، وسيكون ماهر أحد مقرري المؤتمر.

وقرر محمد أن يسكت حتى يسافر الدكتور ماهر إلى باريس، ثم يعود، وعندئذ يذهب إليه ويناقشه. يحدثه عن حالة الرفض التي بدأ يحس بها، ورأى أن يمضي هذه الأيام في الدراسة والبحث عن أنظمة الأحزاب في الخارج، وكان يذهب في صباح كل يوم إلى دار الكتب في باب الخلق، يقرأ ويدرس، ويدون الآراء المختلفة.

■ ■ ■

وعاد ذات يوم من دار الكتب إلى دار جريدة «الجهاد»، فقال له عامل تليفون الجريدة إن الدكتور ماهر يبحث عنه.. ودهش محمد لتوارد الخواطر الغريب. فهو يبحث عنه في نفس الوقت الذي يفكر في لقائه.. وأسرع يتصل به بالتليفون، وطلب إليه الدكتور ماهر أن يحضر لمقابلته على الفور.

وأسرع محمد إلى بيت ماهر. ووجده مرهقاً مكدوداً، وحياه مبتسماً كعادته.

وما كاد يجلس حتى قال له الدكتور ماهر:

ـ إنني أردت أن أقابلك قبل سفري. إنني مسافر صباح غد إلى باريس، لحضور المؤتمر البرلماني.

قال محمد باسماً:

- وأنا أيضاً أردت أن أقابلك لأتحدث إليك في فكرة تشغل رأسي ولا تجعلني أنام، وهي ضرورة إدخال الديمقراطية إلى نظام الحزب.

قال ماهر مدهوشاً:

- الديمقراطية؟ هل تريد ديمقراطية أكثر من أن يرغم قادة حزب زعيمهم على ألا يتزوج المرأة التي يحبها، وينزل على إرادتهم ؟ لولا نظامنا الديمقراطي، لطرد الزعيم أعضاء الحزب، وتزوج المرأة التي يحبها.

قال محمد:

- ليته طردهم.. لقد حكم بالظلم، ليشتهر بالعدل!

قال ماهر: هذه عيوب النظام الديمقراطي، إنها ديمقراطية البشر. تخطىء ثم تصلح أخطاءها.. أما النظام الدكتاتوري فهو نظام الآلهة، إذا أخطأت الدكتاتورية مرة واحدة كانت القاضية!

قال محمد:

- ولكن سميحة شريف مظلومة.

قال ماهر:

- أعلم أنها مظلومة. وقد حاولت أن أدافع عنها وفشلت، واضطررت أن أخضع لرأي الأغلبية لأنني ديمقراطي.

قال محمد:

- ولكن الزعماء عندنا هم وحدهم الذين يمارسون هذه الديمقراطية،

ثم يحرمونها على من هم دونهم من أعضاء الحزب.

قال ماهر:

ـ هذا عيب الرجال وليس عيب النظام. ويمكن معالجة هذا بعد انتهائنا من المعركة. وإذا أثرنا هـذه المسائـل الآن أثناء انشغـالنا في المعركة، كنا أشبه بأهل بيزنطة الذين اختلفوا هل الملائكـة ذكور أم أناث.. والعدو على الأبواب؟

قال محمد ساخراً:

ـ معنى هذا أن نترك سميحة شريف تموت ضرباً بالأحذية.. حتى يخرج آخر جندي من جنود الاحتلال.. إنها تموت الآن!

قال ماهر:

ـ ولكن الحقيقـة لا يمكن أن تموت.. سيجيء يـوم يعرف فيـه الجميع أنها بريئة!

قال محمد متحسراً:

ـ إنني أحياناً أتصور أن كل واحد منا قد يكون سميحة شريف في يوم من الأيام.. قد تكون أنت.. وقد أكون أنا!

قال ماهر ضاحكاً:

ـ فعلاً.. أنت الآن يا محمـد مرشـح لتكون سميحـة شريف.. جديداً!...

قال محمد متعجباً:

ـ أنا؟!

قال ماهر:

ـ نعم.. ولهذا دعوتك قبل سفري لأسألك سؤالاً واحداً: هل صحيح أنك تقابل باستمرار عوني باشا حافظ وزير الدولة؟

قال محمد:

ـ إنني لم أقابله إلا ثلاث مرات.. المرة الأولى لأطلق عليه الرصاص. والمرة الثانية عندما ذهبت واقتحمت بيته لأسرق وثائق قضية توفيق دياب وعزيز ميرهم. والمرة الثالثة عندما ضربني بالسياط في سجن الأجانب وهو يحقق معي في قضية إلقاء قنبلة على شيخ الأزهر..

قال ماهر:

ـ إن بعض زملائي يقولون إنك تقدم يومياً تقريراً إلى عوني حافظ بأسرار ما يدور في الحزب، ويقولون إنهم علموا بذلك من أوثق المصادر!

وضحك محمد وقال:

ـ إنني أعرف من الذي قال هذا.. إنه معالي درويش باشا حبيب.. طبعاً!

قال ماهر في استغراب:

ـ كيف عرفت إنه درويش باشا؟

قال محمد:

ـ لأن هذا هو أسلوبه. قال أمامي وأمام الأستاذ مكرم إنه علم أن صدقي باشا مات، وموضوع في ثلاجة منذ ثلاثة أيام، كان ذلك منذ

عدة شهور. وصدقي باشا يذهب الآن إلى مكتبه بانتظام. ولما عرف أن خبره المستند إلى أوثق المصادر كذب، سارع باتهامي بالخيانة الوطنية لأنني زرت صدقي باشا وعرفت أنه لا يزال حياً!

قال ماهر:

ـ لا يكفي هذا لتصورك أن ذرويش باشا هو الذي اتهمك.. إنني قلت لك إن الذي اتهمك هو بعض زملائي، ولم أحدد اسماً.

قال محمد محتداً:

ـ ولكني أرى بصماته فوق هذا الاتهام. لقد اتهمني درويش باشا أنني أعمل لحساب الحكومة عندما فندت اتهام الحكومة لسميحة شريف بسوء السمعة. هل مطلوب منا نحن الصغار أن نقول «آمين» على كل كلام يقوله الكبار، حتى ولو كان كلاماً فارغاً لا يتفق مع ضمائرنا ومعلوماتنا، وإلا نكون خونة وعملاء؟!

هل المخلصون هم الراكعون، والخونة هم الذين يرفعون رؤوسهم؟

قال ماهر:

ـ إهدأ يا محمد، ولا تفقد أعصابك. إن أحداً لم يطلب منك أن تركع، أو تقول ما لا يتفق مع ضميرك. الذي حدث أن أحد الأعضاء، ولست في حل من ذكر اسمه، عرض هذه المسألة في اجتماع الحزب، وأصر على فصلك من جريدة «الجهاد» واضطررت أن أقول لهم كل ما أعرفه عنك. حتى ما وعدتك بأن أكتمه عن كل الناس. لم أفعل ذلك دفاعاً عنك. وإنما دفاعاً عن الحقيقة. قلت إنه ليس من المعقول أن الشاب الذي اشترك أبوه في ثورة ١٩١٩، الذي فقد أبوه

وظيفته وعقله من سياط الطغاة، الذي أطلق النار على وزير الدولة في الشارع العام، الذي اقتحم بيت وزير الدولة بناء على أمري ليحصل على أدلة براءة الزعيم من تهمة التزوير، أن يصبح في نهاية الأمر مرشداً لوزير الدولة. إنني لا يمكن أن أنسى خدمات الجنود المجهولين القدماء، ولن أنسى أولادهم!

قال محمد:

ـ إنك أفحمتهم!

قال ماهر:

ـ للأسف، لم أفحم الذي اتهمك.. إنه علق على هذا بأن إبليس كان أحد الملائكة قبل أن يتحول إلى شيطان!

قال محمد متحسراً:

ـ هل بعد كل ما فعلته لبلادي، أُتهم بهذه التهمة الظالمة الحقيرة؟

قال ماهر:

ـ من طبيعة السياسيين أنهم ضعاف الذاكرة، ينسون الإساءة، وينسون الإحسان، ولهذا، أنا شخصياً، لا أصلح للسياسة!

قال محمد:

ـ ولكنك تشتغل بالسياسة.

قال ماهر:

ـ كلا.. إنني أشتغل بالوطنية! الوطنية وفاء، والسياسة غدر! الوطنية أخلاق والسياسة مؤامرات ومناورات! الوطنية عمل في النور

والسياسة دسائس في الظلام! الوطني لا يأكل لحم الوطني، والسياسي لا يتغذى إلا بلحوم البشر!

وقد يحدث أثناء المعارك الوطنية بعض الأخطاء.. إنني أذكر في أثناء التهاب الشعور الوطني في ثورة سنة ١٩١٩، أن كانت الألوف تجتمع يومياً في الجامع الأزهر. كانت النفوس متوترة. كانت الحرب طاحنة بيننا وبين جيش الاحتلال. وخلال هذه الاجتماعات الصاخبة كان يرتفع صوت أحد الموجودين في الجامع ويشير إلى أحد الواقفين ويقول «جاسوس». فيخلع الأزهريون على الفور مراكيبهم، ويضربون الرجل المشار إليه حيث يموت ضرباً بالمراكيب. ثم اكتشفنا أن بعض ضعاف النفوس أرادوا انتهاز الفورة الوطنية والحماس الشعبي للانتقام من خصومهم الوطنيين الشرفاء ظلماً وعدواناً. وأمرنا على الفور بإيقاف هذه المذابح. وبأنه لا يجوز الاعتداء على أي شخص مشبوه إلا بعد محاكمة علنية عادلة أمام محكمة اختارتها القيادة الوطنية. وأطرف ما عرض علينا قضية أحد التجار الذي اتهم أحد الشبان أنه جاسوس للانجليز، ثم ظهر من التحقيق أن الشاب ينازع التاجر على حب ابنة الجيران. وقد أمرنا بجلد صاحب البلاغ الكاذب في الشارع العام!

قال محمد باسماً:

ـ هل أتوقع أن تجلدوا درويش باشا حبيب في الشارع العام؟

قال ماهر:

ـ إن درويش باشا رجل طيب، ومتحمس، ومخلص. ولكن عيبه أنه متمسك بتقاليد موروثة، وهي أن الأصغر سناً يجب أن يحني رأسه للأكبر سناً. وهو يعتبر اعتراض شاب على رأي شيخ هو إهانة لكرامة هذا الشيخ. وأنا أعترف بأن هذا الشعور غير ديمقراطي. ولكن حزبنا

يمثل الأمة كلها، وفيه كل أنواع العقليات. . ولكن، لكي أطمئنك أذكر لك أنه عندما أثير موضوعك قال الزعيم إنه كان قاضياً، ولا يمكن أن يحكم على رجل بالإعدام، قبل أن يطلع على مستندات إدانتـه. . وقد وعد العضو الذي اتهمك بتقديم المستندات. .

قال محمد ساخراً:

ـ لعلها مثل المستنـدات التي قدمهـا درويش باشـا ضد سميحـة شريف. قد يقدم صورة لي. . ببنطلون؟

قال ماهر:

ـ إنني أعتقد أنه لن يبت في هذه المسألة أثناء غيابي، كل ما أوصيك به أن تكون مؤدباً مع درويش باشا إذا تحدث معك في هذه المسألة، وعلى كل حال، لن أتأخر سوى شهرين.

قال محمد:

ـ وهل تبقى هذه التهمـة الظالمـة معلقة فـوق رأسي شهرين؟ إن المظلوم لا يتحمل أن يبقى الاتهام الظالم معلقـاً على رأسه دقيقة واحدة، دقيقة ظلم هي عمر كامل!

قال ماهر:

ـ أفضل أن يبقى الاتهام الظالم معلقاً على رأسك، من أن يسقط فوق رأسك! إن المثل الشعبي الذي يقول «وقوع البلاء خير من انتظاره» مثل لا مكان له في السياسة. . في السياسة الزمن يحل كل شيء. أخطر مسـألة معقدة في العالم، ويعجز عن حلها عباقرة السياسة، يتولى الزمن حلها!

قال محمد:

ـ إن الـذي يمسك بـالسوط ويضـرب بـه، يحسب الـزمن بعـدد الساعات. . أما المضروب بالسوط، فيحسب الزمن بعدد السياط التي تلهب ظهره!

■ ■ ■

خرج محمد من عند الدكتور ماهـر محزونـاً. شعر أن ابتسـامته وظـرفه وأدبه وكياسته كانت أشبه بمخدر قربه من أنفـه، قبل أن يفتـح قلبه بالسكين. فلما تركه ذهب المخدر، وبقي المسكين!

أحس بذلك الجرح الذي يصاب به المظلوم. فيه عذاب كل آلام الدنيا. فيه فجيعة وحزن ومرارة وألم ويأس وشقاء. لم يشعر برغبة في أن يعدو إلى إدارة جريدة «الجهاد». لم يشعر أنه يريد أن يـرى أحداً أو يتكلم مع أحد. كان يحس بأن سماً بطيئاً سرى في جسده. كل شيء فيه يموت بالتدريج. فالظلم أشبه بالظلام، يجعلنا نشعر بوحـدة مريـرة مخيفة. نحس بأننا فقدنا الرؤية. أو أن كل شيء جميل حولنا سقط ولم تبق إلا الخرائب والأطلال. تتحول نفوسنـا إلى أنقاض، لهـا رائحة الموت وطعم الفناء. . ومشى محمد على غير هدى. يستعيد الكلمات التي قالها ونسي أن يقولها. وهز رأسه في مرارة. إن البريء لا يعرف كيف يدافع عن نفسه، كما يدافع المجرم عن نفسه. البريء يفاجـأ بالتهمة الظالمة فيذهله الظلم ويفقده القدرة على التفكير والدفاع. أما المجرم المحترف فهو يعد دائماً أدلة براءته، قبل ارتكاب الجريمة. .

ومشى يندب حظه. حظه أن يطعن بالسكاكين من أيدي الـذين ضحى بحياته في سبيلهم!

وعندما اقترب من جزيرة بدران، وجد رجلاً عجوزاً يقف بجوار عربة يد، فوقها برتقال. . وتذكر أن أباه قال له منـذ أيام أنـه يريـد

برتقالاً، وسافر إلى الأسكندرية ونسي كل شيء عن البرتقال. ووضع يده في جيبه فلم يجد سوى قرش صاغ. .

واشترى به بضع برتقالات، وحملها وصعد إلى بيته.

ورأى والده ساهراً. . وقدم له البرتقالات معتذراً بأنه لم يكن في جيبه سوى قرش صاغ. .

وابتسم والده وقال: بصلة المحب. . خروف!

ثم لمح الأسطى حنفي على وجه ابنه أسىً دفيناً وحزناً عميقاً فتنهد تنهيدة حارة طويلة، وقال في حنان:

ـ قليل البخت. . يلقى العظم في الكرشة!

واضطرب محمد. كيف عرف أبوه أنه كان من لحظات يندب حظه السيىء. وقطع أبوه عليه اضطرابه وعاد يقول:

ـ معليش، معليش، يا محمد يوم عسل ويوم بصل!

وكان محمد لا ينوي أن يقول لأبيه أو لأمه المشكلة التي يعيش فيها، حتى لا يضاعف عذابها وآلامها. .ولكنه وجد نفسه يجلس ويسند رأسه إلى يده ويقول لأبيه:

ـ تصور أن هناك من يتهمني بأنني أنقل أسرار الحزب!

قال الأسطى حنفي:

ـ إن طلع العيب، من أهل العيب، موش عيب!

قال محمد:

ـ ولكن الذين يتهمونني ليسوا من أهل العيب. . إنهم أهلي. . زعيم في الحزب يقول إنني أبلغ أسرار الحزب إلى الحاكم!

قال الأسطى حنفي:

ـ إن كان دراعك حاكم. . اقطعه!

قال محمد:

ـ ولكن الدكتور ماهر قال إن ابن أحد أبطال ثورة ١٩١٩ لا يمكن أن يكون جاسوساً على الثورة!

وابتسم الأسطى حنفي وقال:

ـ اللي مالوش خير في قديمه، مالوش خير في جديده. . وحبيب أبوك. . برضه حبيبك!

قال محمد:

ـ لقد قال لي اليوم إنه لن ينسى خدمات الجنود المجهولين القدماء.

قال الأسطى حنفي:

ـ القديم أحلى. . حتى ولو كان وحلة!

قال محمد:

ـ إن جريمتي أنني قلت لدرويش باشا إنه أخطأ. . فترجم هذا أنني أحتقره!

قال الأسطى حنفي:

ـ الكبر على أهل الكبر. . صدقة!

ـ قال محمد في مرارة:

ـ إنني في دهشة من أن رجلاً مثل هذا الرجل، لا تفارق المسبحة يده، يصلي الفروض بانتظام، ثم يلفق لي هذه التهمة الظالمة!

قال الأسطى حنفي:

ـ يصلي الفرض.. وينقب الأرض!

قال محمد:

ـ والغريب أن الدكتور ماهر طلب مني أن أكون مؤدباً مع هـذا الرجل! كيف أكون مؤدباً مع ظالم؟

قال الأسطى حنفي:

ـ إن كان لك عند الكلب حاجة... قل له يا سيدي!

قال محمد:

ـ ويدهشني أن يقسم هذا الرجل بالله كذباً!

قال الأسطى حنفي:

ـ قالوا للحرامي إحلف.. قال جالك الفرج!

قال محمد:

ـ والذي يؤلمني أن الذي يظلمني رجل يحارب الظلم!

قال الأسطى حنفي:

ـ اللي نقول عليه موسى... يطلع فرعون!

قال محمد وهو يتنهد:

- يقولون عني كل هذا بعد كل مـا أديت من خدمـات وعرّضت حيـاتي للخطر وسجنت وعذّبت.. وأنت جرى لك كل ما جرى!

وهز الأسطى حنفي رأسه وقال:

- اللي تزرعه يقلعك.. خير تعمل، شر تلقى.. جزاء الأحسان، ضرب الأقلام!

قال محمد وكأنه يحدث نفسه:

- كل هذا لأنني قلت له إن صدقي لا يزال حياً وكان يؤكد أنه ميت. هل مفروض علي أن أعرف الحقيقة ولا أنطق بها؟

قال الأسطى حنفي:

- إن قلت ما تخافش... وإن خفت ما تقولش!

قال محمد:

- وأنا في دهشة إن مسألة هايفة كهذه تكبر.. حتى تبحث في مجلس إدارة الحزب!

قال الأسطى حنفي:

- قال يا ابويا علمني الهيافة.. قال له تعالى في الهايفة واتصدر!

قال محمد:

- إنني أعجب بدلاً من أن نحارب خصوم بلادنا، نقاتل أنفسنا! هذا الرجل لا عمل له إلا تعقب أخطائي، فإذا لم يجد غلطة اخترع لي

غلطة ليحاسبني عليها!

قال الأسطى حنفي:

ـ حبيبك يبلع لك الزلط... وعدوك يتمنى لك الغلط!

قال محمد:

ـ هل تظن يا أبي أنني أخطأت لأنني دافعت عن سميحة شريف خطيبة الزعيم التي اتهموها ظلماً في شرفها؟

وسكت الأسطى حنفي قليلاً ثم قال:

ـ يا داخل بين البصلة وقشرتها.. ما ينوبك إلا صنتها!

قال محمد محتداً:

ـ أترضى أن أرى امرأة بريئة تضرب بالأحذية ظلماً.. فلا أدافع عنها؟

قال الأسطى حنفي:

ـ اردب اللي ما هو لك ما تحضر كيله، تعفر دقنك، وما ينوبك إلا شيله!

قال محمد:

ـ ولكن ليس هذا «أردب». إنها امرأة من دم ولحم. إنها مثل أختي.. مثل أمي.. إنني لم أفعل ما فعلت لأدعى في فرح الزعيم.. إنما فعلت دفاعاً عن الحقيقة.. إننا لا نحضر أفراحهم، وإنما نحضر

مآتمهم. نذهب إلى المعارك بلا دعوة، أما في انتصاراتهم فينسون أن يرسلوا لنا بطاقات الدعوة!

قال الأسطى حنفي ساخراً:

ـ في حزنهم مدعية. . . وفي فرحهم منسية!

وضغط محمد على أسنانه في غيظ وقال:

ـ إنها معركة غير متكافئة بيني وبين درويش باشا، هـو كبير وأنـا صغير، هو غني وأنا فقير، هو صاحب نفوذ وسلطان وأنا محرر بسيط.

قال الأسطى حنفي وهو يربت على كتف محمد:

ـ كل شنب وله مقص!

■ ■ ■

ودخل محمد إلى غرفة نومه وهو يردد مثل أبيه الشعبي «كل شنب وله مقص»!

ولكن أين يجد المقص الذي يقص به شارب درويش باشا الكبير؟

ولو وجد المقص. . . فماذا يستطيع أن يفعل هذا المقص في الرجل الذي أعلن عليه الحرب، بلا جريمة ولا ذنب، إلا أنه قال الحقيقة؟

ثم ما قيمة مقص يقطع الشوارب أمام سيف يقطع الرؤوس؟

لقد نجح درويش باشا قبل ذلك في أن يقطع رقبة سميحة شريف، أن يلوثها أمام الزعماء، أن يلوثها أمام الرجل الذي يحبها. فإذا كان هذا الرجل قد استطاع أن يذبح خطيبة الزعيم، فهل يعجز عن أن يقطع

هل يستطيع القزم المجرد من السلاح، أن يدافع عن نفسه أمام العملاق المدجج بالسلاح؟

صحيح أن الكلمة المكتوبة يمكن أن تقف أمام المدفع. ويمكن أن تصبح أعلى صوتاً من دوي القنابل. وصحيح أنه صحفي، ويستطيع أن يكتب ويدافع عن نفسه. ولكن أين يجد الجريدة التي ستنشر دفاعه؟ إن الأستاذ حسين توفيق مدير التحرير سوف يمزق مقاله ويلقيه في وجهه.

وجرائد الحزب لن تقبل أن تنشر كلمة واحدة ضد أحد زعماء الحزب. ليس أمامه إلا صحفيو الحكومة. ولو نشر دفاعه في جرائد الحكومة فكأنه يثبت الاتهام على نفسه. الكلمة الحرة ستصبح ملوثة. الكلمة الشريفة ستفقد شرفها على صفحات الجرائد التي تؤيد الطغيان.

لم يبق أمامه إلا أن يهاجم درويش باشا في المجالس. إذا كان قد عجز عن الدفاع عن سميحة شريف أمام زملائه محرري الجريدة، فهل يستطيع أن يهاجم أحد زعماء الحزب أمامهم، وهم الذين يؤمنون أن جميع الزعماء فوق النقد وفوق الاتهام؟.

ما أشبهه بالرجل الذي يبصق إلى فوق، فتسقط البصقة على وجهه.. الذي يمسك المنشار ويقطع فرع الشجرة الذي يجلس فوقه، الذي يحاول أن يضرب النجوم بالطوب، فتسقط الأحجار عليه لترجمه، أيكون محرماً على الضعفاء أن يقاوموا الأقوياء؟ كل حقهم أن يحنوا الرؤوس، وليس من حقهم أبداً أن يرفعوها؟ أن يتلقوا

الصفعات، ويطمئنوا عليها خشية أن تكون قد أذاها صفع الخدود؟!

وشعر محمد أنه مشتت الفكر. مضطرب البال. يكاد يفقد رشده. أحس بأن لهيباً من النار يحرق رأسه، كأنه يكاد يجن!

وارتعش عندما خطرت بباله فكرة الجنون! لقد جن أبوه من قبل بسبب الظلم، لم يحتمل عقله الاتهام الظالم فانفجر. ومشى في الشوارع يقول: أنا الذي ذبحت وزير الحربية وألقيت بجثته في النيل السعيد!

هل سوف يؤدي الظلم بالإبن إلى نفس مصير الأب المعتوه؟ هل سيمشي هو أيضاً في الشوارع يقول: أنا الذي حملت أسرار الحزب إلى عوني باشا حافظ وزير الدولة.. وكنت أقدم له التقارير السرية كل يوم؟

وارتعش محمد لهذا الخاطر. أحس برعب غريب. راح يتحسس رأسه، وكأنه يحاول أن يتأكد أن عقله لا يزال باقياً في مكانه!

ولم يستطع أن ينام، بقي ساهراً، يضع يده على رأسه، وكأنه يحرسه، خشية أن ينتهز عقله فرصة نومه، فيطير، كما طار عقل أبيه من قبل!

■ ■ ■

وذهب إلى زبيدة في اليوم التالي كعادته في كل يوم، وقد صمم أن يخفي عنها همومه: يكفي أنه رأى أباه في الصباح، وقد جحظت عيناه، وعادت حالته كما كانت قبل أن يعالجه، وعاد يمشي في البيت وهو يدق يده على صدره ويقول: أنا الذي ذبحت وزير الحربية، وألقيت بجثته في النيل السعيد؟ ولكنه عندما رأى زبيدة لم ينبس ببنت شفة. كأن كلمات الحب والشوق ضاعت من شفتيه. وسادت فترة من الصمت.

وفوجىء بها تقول له: لا تخف الخبر المؤلم! إن قلبي منقبض طوال اليوم ولا أعرف السبب.

وروى محمد لزبيدة الحديث الذي جرى بينه وبين الدكتور ماهر، واتهامه بنقل أسرار الحزب إلى زوجها، وعن اعتقاده بأن درويش باشا هو صاحب الاقتراح بفصله من جريدة «الجهاد».

وقالت له زبيدة في هدوء:

- إنني أرى نجوى المناسترلي خلف هذه المكيدة.

قال محمد هازئاً متبرماً:

- إنك ترين شبح نجوى المناسترلي في كل مكان.. ما الذي يوصل نجوى إلى قيادة الحزب؟

قالت زبيدة:

- إنتقام المرأة المهزومة!

قال محمد:

- ولكني أنا أرى بصمات درويش باشا في هذه المؤامرة.

قالت زبيدة:

- وأنا أشم رائحة نجوى؟ إنني واثقة أنها خلف كل هذا؟

قال محمد:

- وماذا تستفيد نجوى من فصلي من جريدة «الجهاد»؟

قالت زبيدة:

ـ وماذا استفادت من فصلك من المدرسة السعيدية؟

قال محمد :

ـ إنها أرادت أن تجعلني أعرف أنها قادرة على أن تبطش بي؟

قالت زبيدة :

ـ المرأة عندما تنقم تغمض عينيها، لأنها جبانة . . فلا ترى أين تضرب!

قال محمد :

ـ هذا وحده ليس دليلاً على أنها هي التي وراء هذه المكيدة .

قالت زبيدة :

ـ الدليل على أنها وراء المكيدة اختيار اسم عوني حافظ بالذات في المؤامرة . إذا كان درويش باشا هو الذي اخترع القصة ، فكان في إمكانه أن يختار اسم صدقي باشا رئيس الوزراء ، وأنت قلت له بلسانك أنك زرت صدقي باشا أثناء مرضه . . والطبيعي أن يختار صدقي ليكون العدو الذي تمده بأسرار الحزب!

قال محمد :

ـ ولماذا اختارت نجوى عوني حافظ بالذات؟

قالت زبيدة :

ـ إنها لم تختر عوني حافظ . . إنما قصدت زوجة عوني حافظ . . قصدتني أنا!

قال محمد: لا يمكن.. إنها لا تعرف علاقتنا!

قالت زبيدة:

- لا بد أنها اكتشفت علاقتنا.. فالذي دبر المؤامرة هو شخص يعرف علاقتي بك، ويعرف أنك تحضر يومياً إلى بيت عوني حافظ لتقابلني فيه. فهو يقصد قبل كل شيء أن يمنعك من الحضور إلى هنا. يقصد قطع علاقتك بي. يقصد أن يدلك على أن الطريق لتبرىء نفسك من تهمة نقل الأسرار إلى عوني حافظ، أن تبتعد عن زوجة عوني حافظ.. وصاحب المصلحة في كل هذا هو شخص واحد فقط، نجوى المناسترلي.

قال محمد:

- ولكنها جربت كل وسيلة وكل سلاح معنا ففشلت!

قالت زبيدة:

- هذا هو سلاحها الأخير!

قال محمد:

- ولكن المؤكد أن درويش باشا يكرهني.. وقد سبق أن هددني في بيته.

قالت زبيدة:

- درويش باشا آلة في يد نجوى. كوزير المعارف الذي رفتك من المدرسة السعيدية، وصدق أكذوبتها أنك حاولت اغتصابها!

إن لنجوى قدرة غريبة على أن تعرف عناوين كل المغفلين

قال محمد:

ـ لا أعتقد أن درويش باشا على علاقة بنجوى. إنه يقاطع كل رجال العهد. وهو رجل متحمس لقرار الحزب. ويعتبر التردد على بيوتهم خيانة وطنية.. ومن غير المعقول أن تكون له صلة بزوجة أحد كبار رجال القصر!

قالت زبيدة:

ـ إن نجوى قادرة على كل شيء. إنها أستاذة في التلفيق مثل زوجي عوني حافظ. وإذا كان زوجي استعان بسيدة العمشة ملكة البيوت السرية ليلوث الزعيم، فليس كثيراً على امرأة فاجرة مثل نجوى أن تستعين بدرويش باشا ليلوثك!

قال محمد:

ـ ولكن الدكتور ماهر لم يقل إنني أحضر إلى بيت وزير الدولة يومياً.

قالت زبيدة:

ـ إن الحل أن تقول الحقيقة.

قال محمد:

ـ أي حقيقة؟

قالت زبيدة:

ـ تقول له إنك عشيق زوجة عوني باشا حافظ وزير الدولة، وإنك تذهب إلى لقائها في بيتها الساعة السادسة من مساء كل يوم!

قال محمد في هلع:

ـ هل جننت؟! لو عرف رجل مثل درويش بالعلاقة التي بيني وبينك، فسوف يشهر بك في كل مكان، سوف يعفر رأسك بالتراب، سوف يوعز لصحف المعارضة لتقول إن الرجل الذي يسهر على الأمن في البلاد لا يعرف ما يجري في بيته. لن يخجل من هذا ولن يتردد، سيعتبره عملاً وطنياً عظيماً. سيصبح اسمك مضغة في كل الأفواه.

قالت زبيدة:

ـ لن يهمني كل ما يقوله الناس.. كل الذي يهمني هو أنت.. إنني مستعدة لأن أضحي بكل شيء من أجلك.. أنا أرحب بالطلاق من عوني حافظ.. أرحب بأن تتبرأ مني أسرتي.. هل أنا أشرف من سميحة شريف؟ هي لم ترتكب أي إثم وديست بالأقدام.. أما أنا فلن يقولوا عني سوى الحقيقة وهي أنني عشيقتك.. وأنا يشرفني أنني عشيقتك أكثر مما يشرفني أنني زوجة عوني باشا حافظ.

قال محمد والدموع في عينيه:

ـ إنك لست عشيقتي يا زبيدة! إنك زوجتي أمام الله. إن الذي بيننا أكثر قداسة من الزواج.

قالت زبيدة:

ـ ولكن المجتمع لن يغفر لي. لن يعرف أنني لم أكن زوجة عوني حافظ، بل جاريته. وأنني بعت نفسي لأفتدي سجن أبي. هذا المجتمع لا يهمني. المجتمع الذي يحني رأسه لي لأنني أتعس امرأة في العالم، ويدوس بقدمه علي لأنني أسعد امرأة في العالم... كل ما يهمني إنقاذك أنت من هذه المكيدة. إنك تدفع سمعتك ثمناً لإخلاصك لي. لو أنك خنتني مع نجوى المناسترلي لما انهالت عليك التهم والأكاذيب.. إن ما

أفعله الآن هو أقل ما يجب أن أفعله. المجتمع يعتبرني امرأة بلا شرف.. كل المطلوب منك أن تسمي الأشياء بأسمائها. أن تقول لزعمائك إنك عشيقي. وإنك فعلت هذا لتنتقم من الرجل الذي أذل الأشراف وضربهم بالسياط، الرجل الذي أراد أن يلوث شرف الزعيم.. سيعتبرونك بطلاً، وسيحملونك فوق الأعناق!

قال محمد:

ـ لا أقبل أن أكون بطلاً فوق جثة المرأة التي أحبها. كأنك تطلبين مني أن أكذب على الناس ليهتفوا باسمي، أن أخدعهم ليحملوني فوق أعناقهم، أن أكون رجْلاً بلا شرف لأدافع عن شرفي!

قالت زبيدة:

ـ أنا لا أطلب منك أن تكذب، أنا أطلب منك أن تقول الحقيقة.

قال محمد:

ـ ولكن ليست هذه هي الحقيقة! أنا لم أعشقك لأنتقم من عوني باشا حافظ. أنا عشقتك قبل أن أعرف أنك زوجة عوني حافظ.

وأحببتك برغم أنك زوجة عوني حافظ!

قالت زبيدة:

ـ إذهب إلى الدكتور ماهر وقص عليه الحقيقة كاملة، وأعتقد أنه سوف يحترم هذا السر.

قال محمد:

ـ الدكتور ماهر سافر اليوم إلى باريس وسيعود بعد شهرين. ومع

ذلك فإنني أرفض أن أشتري براءتي بإدانة المرأة التي أحبتني، وأنقذت حياتي، وأخفت المسدس الذي أطلقته على زوجها، وساعدتني في الحصول على الوثائق، وقامت بأعمال بطولية من أجل المبادىء التي أؤمن بها. مثل هذه المرأة لا يمكن أن أكافئها على حبها بفضيحتها!

قالت زبيدة:

ـ ولكن الفضيحة لا تهمني. أنا واثقة أنك لن تتخلى عني مهما حدث. وأنت الوحيد الذي يهمني في هذه الحياة. ما قيمة أن يحترم الناس امرأة تكذب عليهم، ويحتقرون امرأة تقول لهم الحقيقة. . إنني مستعدة لأن أذهب الآن إلى زعيمك وأقول له إنني عشيقتك. . لقد لمت سميحة شريف لأنها لم تتحرك، ولم تدافع عن حبها. . وما دمت أنت ترفض أن تتحرك، فسوف أتحرك أنا، سوف أذهب إليهم وأقول لهم إنني عشيقتك! وأنك تأتي إلى بيتي كل يوم! وأنك لا تأتي إلى هنا لتقدم تقارير سرية إلى وزير الدولة وإنما لتعيد الحياة إلى المرأة. . التي ذبحها وزير الدولة!

■ ■ ■

إستقل درويش باشا سيارته الفارعة الأنيقة، وطلب من السائق أن يمضي به إلى شارع شوكولاني بشبرا. طلب من السائق أن يسير بتؤدة في الشارع. مرت السيارة أمام بيت عوني حافظ باشا وزير الدولة، ثم أمام البيت الملاصق به، بيت النائب السابق عبد العزيز إبراهيم عضو الهيئة البرلمانية للحزب. وتطلع درويش باشا إلى البيتين وابتسم ابتسامة غامضة. هنا سيضبط الجريمة الكبرى. هنا سيحصل على المستند الذي يقطع به رقبة المجرم الأثيم.

وعلى بعد مسافة من موقع البيتين طلب من السائق أن يتوقف وغادر

السيارة. ومشى على الرصيف حتى وصل إلى البيت رقم ١٧، فدخل من بابه تحفُّ به المهابة والوقار.

وكان صاحب البيت ينتظره في الحديقة، فأسرع مهرولاً، وحيى الباشا بالتجلة والاحترام، ودعاه إلى الصعود إلى الطابق العلوي، وأشار إلى غرفة وقال:

ـ هذه الغرفة مطلة على الباب الخلفي لبيت وزير الدولة..

وتقدم صاحب البيت نحو إحدى النوافذ وأراد أن يفتحها وهو يقول:

ـ ومن هنا تستطيع أن ترى الباب الخلفي.

وطلب منه درويش باشا أن يترك خشبها مغلقاً، وطلب إليه أن يتركه وحده في الغرفة. ولم يسأل الأستاذ عبد العزيز إبراهيم عما يريد درويش باشا من هذه النافذة. هذا هو نفس ما فعله عندما طلب منه الدكتور ماهر أن يخلي البيت ذات مساء ليدخله شخص مجهول... ولم يكن يعرف أن درويش باشا جاء ليضبط هذا الشخص المجهول!

ووقف درويش باشا ينظر من خلال شيش النافذة الخشبي إلى الباب الخلفي لبيت الوزير. وشعر بالتعب من الوقوف، فجاء بمقعد وجلس عليه بجوار النافذة، وراح ينقل عينيه بين الباب الخلفي، وبين ساعته.

وفي الساعة السادسة مساء تماماً، رأى محمد عبد الكريم يدخل من الباب الخلفي لبيت الوزير، ورأى جندي حرس الوزارات يقف لتحيته. ثم رأى محمداً يسرع في خطواته إلى أن يختفي في سلم البدروم.

وهز درويش باشا رأسه. إنه هو بنصه وفصه. لقد صدقت نجوى

المناسترلي في كل كلمة قالتها. إن إعجابه بوطنية نجوى لا يقل عن إعجابه بجمالها. لقد عثر على المستند الذي طلبه الزعيم قبل أن يحكم على محمد بالإعدام.

وخطر بباله أن يستدعي عبد العزيز إبراهيم صاحب البيت، ليكون شاهد الإثبات الثاني ضد محمد عبد الكريم. ولكنه رأى أن من الأفضل أن يحصل على صورة فوتوغرافية للمجرم في مكان الجريمة. وطلب من عبد العزيز إبراهيم أن يجيء له بآلة التليفون. واتصل بسكرتيره الخاص الأستاذ حسن المنياوي، وطلب منه أن يحضر بسرعة البرق ومعه آلة التصوير التي اشتراها له من باريس. هذه الآلة الحديثة التي تلتقط الصور في الظلام. آخر ما وصلت إليه اختراعات ألمانيا في فن التصوير!

وبعد نصف ساعة كان سكرتيره حسن المنياوي واقفاً بجواره في النافذة، وفي يده آلة التصوير. وفي الساعة السابعة والنصف مساء رأى درويش باشا شبح محمد يخرج من الباب الخلفي. وأسرع المنياوي يلتقط صورة له مع كل خطوة. وكان أهم هذه الصور صورة محمد وقد ظهر إلى جانبه جندي حرس الوزارات!

يا للمجرم الأثيم! ساعة ونصف الساعة يكتب فيها التقارير عن أسرار الحزب وخباياه؟ لا عجب إن ساءت العلاقات بين القصر والحزب. لا عجب إن فشلت العرائض التي يرفعها الحزب إلى جلالة الملك. لا عجب إن فشلت جهود حسين باشا الأشموني زوج نجوى في التوفيق بين القصر والشعب.

وأحس درويش في تلك اللحظة برغبة في أن يعانق نجوى، ويضمها إلى صدره، ويقبلها شكراً لها على وطنيتها وإخلاصها.. لولا

حبها لدرويش باشا وحبها للوطن لبقي هذا المجرم يعبث في أرض الحزب فساداً!

ثم فتح درويش باشا باب الغرفة، ونادى النائب السابق عبد العزيز إبراهيم وقال له باسماً:

ـ إننا في حاجة إلى هذه الغرفة بضعة أيام . . . لمسألة وطنية خطيرة!

قال عبد العزيز إبراهيم:

ـ إن البيت كله تحت تصرف معاليك . . وعائلتي موجودة في الصعيد، وخدمي مع العائلة، ويمكن معاليك أن تأخذ المفتاح لأنني سأسافر غداً إلى الصعيد.

وتسلم درويش باشا المفتاح في يده.

وتطلع إلى الغرفة فوجد فيها فراشاً وثيراً أنيقاً. ولمعت في رأسه فكرة. فكرة أوحاها له الفراش والمفتاح. تحول الفراش في عينيه إلى جنة . . والمفتاح إلى مفتاح الجنة . . لماذا لا يدعو نجوى لتتفرج على المجرم، المجرم الذي استطاع بفضلها، وفضل وطنيتها وحبها، أن يضع يده عليه.

ونقل نظراته بين آلة التليفون التي كانت لا تزال في الغرفة، وبين صاحب البيت وسكرتيره الخاص. لقد خطر بباله أن يدعوها على الفور. ثم تذكر أن محمداً غادر بيت عوني حافظ. وتذكر أنه يجب أن يتخلص أولاً من صاحب البيت ومن سكرتيره المتمسك بمبادىء الأخلاق. ورأى أن في التأني السلامة وفي العجلة الندامة. وقرر أن يؤجل الإتصال التليفوني حتى يعود إلى بيته، حيث يستطيع أن يكون حراً يتكلم مع نجوى كما يشاء!

ونظر درويش باشا إلى الفراش الخالي، وكأنه يعتذر له عن نواياه السيئة، وكأنه يريد أن يقول إنـه لا يقصد إلا خـدمة الـوطن، وأن استعمال الفراش ما هو إلا تمهيد طريقه إلى خدمة الوطن!

■ ■ ■

وفي الساعة الخامسة والنصف، بعد ظهر اليوم التالي، وقفت سيارة أجرة أمام منزل النائب السابق عبدالعزيز إبـراهيم، ونزلت نجـوى من السيارة، وقد وضعت نظارة كبيرة سوداء فوق عينيها، وأسرعت تدخل في خطوات خاطفة إلى داخل البيت.

ووصلت إلى الباب الداخلي، كان درويش باشا يقف في انتظارها. كله لهفة وشبوق ورغبة. وضمها إلى صدره، فارتمت بين ذراعيه وهي تقول هامسة:

ـ إقفل الباب. . . أولاً؟

وأسرع يغلق الباب بالمفتاح، ثم أمسكها بيدها واتجه بها إلى السلم الموصل إلى الطابق العلوي. . وأفلتت من يده، وراحت تقفـز فوق درجات السلم في مرح. .

وحاول درويش باشا أن يتبعها بنفس السرعة، فخـذلته قـدماه، وتقطعت أنفاسه، فتوقف على أوائل الدرجات، وراح يسعل بشدة، بينما وقفت نجوى في أعلى درجات السلم تضحك وتقول:

ـ أسرع. . . أسرع. . . يا دودو!

ولم يستطع دودو أن يسرع. . شعر أنه يلهث وهو واقف في مكانه. . يلهث وهو لا يزال واقفاً على أولى درجات السلم. . ترى ماذا سيفعل

عندما يصل إلى غرفة النوم؟

ومضى يتوكأ على درابزين السلم، آسفاً على سنوات عمره التي ذهبت هباء مع زوجته بسيمة هانم، نادماً على زجاجات الويسكي التي شربت دمه بدلاً من أن يشربها. لولا هذه السنين التي يحملها فوق ظهره، لحمل نجوى بين يديه، وصعد بها قفزاً فوق درجات السلم. لولا هذا الروماتيزم الملعون لكان الآن فوق السرير، لا فوق الدرجة الثالثة من درجات السلم العشرين!

وأحست نجوى بحسرته، بما يكابده من ذل الشيخوخة وهوان العجز، فأسرعت تضع يدها على قلبها، وتستند إلى الجدار وتقول في صوت متهدج:

ـ آه.. قلبي.. لقد تعبت من الجري فوق السلم!

واضطرب درويش باشا اضطراباً لذيذاً. فرح. أراحه تعبها. شفاه مرضها. عاد الدم إلى وجهه. أحس بالقوة تعود إليه. ليس هو وحده الذي يتعب من صعود السلم. نجوى تتعب أيضا. إذن هذه ليست علامة من علامات الشيخوخة. لن تعرف نجوى أنه عجوز. هي أيضاً تعبت من صعود السلم. العجوز يشعر بالصحة عندما يرى الشابة التي يحبها مريضة.. يطمئن على نفسه، على أنه ليس وحده!

عذاب الشيخوخة في وحدتها. إنه يرى سنوات عمره في الوجوه الشابة الصحيحة التي حوله. هي التي تعكس عجزه ومرضه وكهولته. هي المرآة العاكسة التي تظهر فوقها كل ما فقده من صحة وشباب وقوة. فإذا أحس الشيخ بأن الشابة التي يحبها تقاسمه آلام الشيخوخة اطمأن على نفسه. كأنه وجد في الشابة المريضة كنزاً يغنيه عن فقره، يذهب عنه حسرته ويأسه. وهذا يفسر كيف أن العجوز عندما يتزوج شابة

يقل عمره ويزيد عمرها. هـو يزداد شباباً وهي تشيخ. فعندما يلتصق الرجل بالمرأة يصبحان أشبه بنظرية الأواني المستطرقة، تتـوازن كمية المياه في الأنبوبين المتصقين، فيهبط الأنبوب العالي، ويعلو الأنبوب المنخفض!

وكانت نجوى تعرف من تجاربها عقلية الشيـوخ، ونقط الضعف فيهم، فجلست على أول مقعد في الصالة متظاهرة بالتعب والإرهاق. وتضاعفت قوة درويش باشا، وخفت خطواته الثقيلة وهو يصعد باقي الدرجات، ووجد لذة وسعادة أن يدلك قلبها بيده المرتعشة، فقد منحه ضعفها قوة، ومرضها المزعوم صحة وشباباً!

ودخلت نجوى تتوكأ على درويش باشا إلى غرفة النوم.

ولم تلتفت إلى الفراش، وإنما التفتت إلى النافذة المطلة على بيت زبيدة، وقالت:

ـ إن الساعة الآن تقترب من السادسة.. تعال نرقبه من النافذة.

وتقدم درويش باشا إلى النافذة وفتح زجـاجها. ولصقت نجـوى عينيها فوق فتحات شيش النافذة، ترقب البـاب الخلفي لبيت عوني حافظ.. والتصق درويش باشا خلفها، متظاهراً بأنه هو أيضاً ينظر إلى الباب الخلفي، وتركته نجوى يلتصق بها، وهي تبتسم!

ثم رأت محمداً يدخل من الباب الخلفي، فاختفت ابتسامتهـا.. إتسعت حدقتا عينيها.. اضطربت أنفاسها..: كأنها المرة الأولى التي تعرف أن محمداً ذاهب إلى لقاء زبيدة.. كأنها لم تصدق كـل تقاريـر سائقها عن هذا اللقاء اليومي. فرق أن نسمع عن الفاجعة وأن نراها بأعيننا. فرق أن نتصورها وأن نعيشها!

وأحس درويش باشا وهو ملتصق بنجوى بأنها ترتعش، بأنها ترتعد! وسألها: ما لك يا نجوى.. هل تشعرين ببرد؟

ولم تجب على سؤاله.. لم تكن تسمع صوته.. كانت تسمع صوت الغيرة وهي تنهش أحشاءها.. تمزقها.. تفتك بها.. كانت تريد أن تفتح النافذة وتصرخ في محمد قائلة: لا تذهب إلى زبيدة! كانت تريد أن تنادي الجنود تطلب إليهم أن يقبضوا على المجرم الذي يخونها مع زبيدة! ثم تمالكت نفسها. ضغطت على شفتيها من الغيظ. وأحست كأن أسنانها أدمت شفتيها. وما كادت ترى محمداً يختفي في سلم البدروم حتى أغمضت عينيها. كأنها لم تستطع أن ترى أكثر مما رأت. أو كأنها لا تريد أن ترى ماذا يفعل الرجل الذي عشقته بعد أن دخل بيت غريمتها. إنه الآن يمنحها كل ما حرمه على نجوى!

وزادت رعشة جسدها..

ولم يفهم درويش باشا عن رعشة نجوى إلا أنها تشعر بالبرد من الهواء البارد الذي كان يدخل من شيش النافذة.. فقال لها وهو يخلط الرغبة بالحنان:

ـ تعالي نجلس على السرير.. إن الجو بارد بجوار النافذة!

فلم ترد عليه. مضت تمشي في الغرفة ذهاباً وجيئة في خطوات عصبية، ثم تعدو وتنظر إلى نوافذ بيت زبيدة.. ترى أين هي غرفة نوم زبيدة؟ إنها زارتها في بيتها عدة مرات ولم تعرف مكان غرفة نومها. كانت تريد أن تقتحم بعينيها الجدران العالية والنوافذ المغلقة لترى محمد في أحضان زبيدة. ترى هل هما الآن في هذه الغرفة المطفأة أم في تلك الغرفة المضيئة الأنوار؟ هل هما في الطابق الأول أم في الطابق الثاني؟ هل ينامان على الأرض أم ينامان فوق السرير؟ عشرات

الأسئلة. كل جواب لها أشبه بخنجر مسموم يغمد في صدرها. . كانت تنظر إلى ساعتها، وتنظر إلى الباب الخلفي، كأنها تتعجل محمداً أن يخرج لينهي عذابها، ويضع حداً لغيرتها التي تشبه نار الجحيم!

ولكن محمداً لم يخرج. مرت نصف ساعة، وساعة، وساعة ونصف، وساعتان. . وسمعها درويش باشا تردد في صوت مجروح:

ـ الخائن! السافل! القذر!

قال درويش باشا مؤمناً:

ـ نعم إنه خائن! إنه الآن يكتب التقارير السرية عن أسرار الحزب. وسوف يكون هذا آخر تقرير يكتبه!

وهزت نجوى رأسها في حقد. تمنت لو كان محمد حقاً يكتب التقارير السرية، ولا يرتكب جريمة أكبر من كتابة التقارير. . جريمة أن يكون بين ذراعي زبيدة!

والتفتت نجوى إلى درويش باشا وعيناها تقدحان شرراً وقالت:

ـ ماذا تنوي أن تفعل بهذا الكلب؟

قال درويش باشا:

ـ سأذهب فوراً إلى الزعيم، وأطلب دعوة مجلس إدارة الحزب، وأقول لهم ما رأيت بعيني، وأقدم لهم الصور التي التقطناها!

قالت نجوى، وهي تضغط على أسنانها، كأنها وضعت محمداً نفسه بين هذه الأسنان:

ـ ولكنك قلت لي إن الدكتور ماهراً طلب تأجيل البت في هذه المسألة

حتى يعود من رحلته إلى باريس. . ومعنى هذا أن يستمر هذا المجرم كل يوم في ارتكاب جريمته!

قال درويش باشا:

ـ ولكنني سأقدم الصور. . هذا هو المستند الذي طلبه الزعيم!

قالت نجوى:

ـ أنا من رأيي أن تجيء بأعضاء مجلس الإدارة واحداً واحداً، لتجعلهم يرون بعيونهم الجريمة التي رأيناها. . عندئذ سوف يطالبون بفصله فوراً من جريدة «الجهاد» دون أن ينتظروا عودة الدكتور ماهر.

قال درويش باشا وهو يحيطها بذراعيه ليعانقها:

ـ فكرة مدهشة! تعالي نحتفل بهذه الفكرة المدهشة!

ودفعته نجوى بيدها. . إنها لا تريد أن تنتقم من محمد بأن تلقي بنفسها بين ذراعي رجل أكبر من أبيها. . إنها تريد أن تدوس على محمد بقدميها. أن ترى الرجل الذي بين ذراعي زبيدة راكعاً تحت حذائها. . وهي في عجلة من أمرها. . تدهش لهذا البطء الغريب في صدور قرار الحزب. .

وعادت تقول له وهي تتخلص من ذراعيه:

ـ لقد وعدتك بأن يكون الاحتفال عندما يصدر القرار بفصل هذا المجرم الذي أفسد العلاقات بين القصر والشعب. . كلما أسرعتم بالقرار، أسرعت أنا بإقامة الاحتفال!

قال درويش باشا وعيناه تلمعان:

ـ سوف أجيء بأعضاء الحزب كلهم غداً إلى هنا . . وسنصدر القرار غداً!

قالت له نجوى وهي تطبع على شفتيه قبلة خاطفة:

ـ وهذه دفعة على الحساب!

وترنح درويش باشا، وارتمى على الفراش، يتحسس شفتيه بأصابعه!

■ ■ ■

إجتمع مجلس إدارة الحزب برئاسة الزعيم، وقرر فصل محمد عبدالكريم فوراً من عمله في جريدة «الجهاد» وتحريم دخوله بيت الأمة أو النادي السعيدي، وإخطار جميع لجان الحزب العامة والفرعية في المدن والأقاليم بهذا القرار وأسبابه، ومنع أي جريدة أو مجلة من صحف الحزب أن تستخدمه في أي عمل من الأعمال، وحرمانه من أي مكافأة أو من قبض مرتبه ومستحقاته!

كان الأعضاء متجمسين وهم يصدرون قرارهم بالموت الأدبي على محمد عبد الكريم، بتجريده من شرف المواطن، بالحكم عليه بالموت جوعاً . . لقد رأى الأعضاء بأعينهم محمد عبد الكريم في حالة تلبس . . رأوه يرتكب جريمة الخيانة العظمى للحزب ومبادئه . . رأوه يدخل بيت وزير الدولة من الباب الخلفي!

ولم يعرف محمد بالقرار الخطير . .

■ ■ ■

ذهب كعادته إلى دار الكتب في باب الخلق يعاود الاطلاع على أنظمة الأحزاب، ثم ذهب إلى دار جريدة «الجهاد». وإذا ببواب الجريدة يمنعه

من الدخول. . ذهل محمد، فقال له البواب بجفاء إن قراراً صدر بفصله من الجريدة ومنعه من الدخول!

وسأل محمد عن السبب فرفض البواب أن يجيب. وقال محمد إنه لم يقبض مرتب نصف الشهر، وأن لديه في ذمة الجريدة مرتبات متأخرة، فقال له البواب إن الإدارة لن تدفع له مليماً، وأنه حر أن يذهب ويشكو إلى القضاء!

وعجب محمد من أسلوب عم حمودة، ذلك الرجل الطيب الذي كان يغمره دائماً بتحياته ودعواته في دخوله وخروجه. ووقف على باب الجريدة ينتظر خروج أحد زملائه ليسأله عن تفسير هذه التصرفات الغريبة. وكلما خرج محرر، ورأى محمداً، أشاح بوجهه عنه. إذا حيّاه لا يرد التحية، وإذا سأله لا يجيب، وإذا تقدم نحوه أدار ظهره!

وتمزق قلب محمد عندما رأى عمال الجريدة الذين كان يحبهم ويحبونه، يتجاهلونه، أو ينظرون إليه نظرات الاحتقار!

وأحس لأول مرة في حياته بأنه منبوذ، مريض بالجذام، يخشى الناس أن يقتربوا منه أو يصافحوه حتى لا يصابوا بالجرب. . أحس بأنه شحاذ. . شحاذ يستجدي كلمة، يتسول تحية، فيمر به المحسنون متجاهلين يده الممدودة في ذل.

وتذكر توفيق دياب صاحب الجريدة. الرجل الذي ضحّى بحياته من أجل أن يحصل على أدلة براءته من تهمة التزوير. إنه وحده الذي سيعيده إلى عمله. ولكنه مسجون الآن في سجن قره ميدان، يمضي ستة شهور مع الشغل في جريمة سب الحكومة. هل يستطيع أن يذهب إلى توفيق دياب في سجنه؟ إن حراس السجن أشد صلفاً وقسوة من عم حمودة بواب جريدة «الجهاد»!

وتذكر عزيز ميرهم زميل توفيق دياب في القضية، وذهب إلى مكتبه في بولاق، فعلم أنه سافر مع الدكتور ماهر إلى باريس لحضور المؤتمر البرلماني!

وقرر أن يتجه إلى الزعيم. يشكو إليه الظلم الذي أصابه. وذهب إلى بيت الأمة فمنعه عم آدم البواب من الدخول. وذهب إلى النادي السعدي، فقال له عم عبد الكريم فراش النادي إن الأوامر صدرت بألا يدخل النادي!

وذهب إلى إدارة جريدة «البلاغ» وقال للبواب إنه يريد مقابلة الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب الجريدة. ورحب به البواب. وسأله عن اسمه، فما كاد يقول إن اسمه محمد عبد الكريم، حتى انقلبت سحنة البواب، وكأن عقرباً لدغته، وقال إن الأستاذ غير موجود، وكل المحررين غير موجودين!

ووجد الجواب نفسه في جريدة «كوكب الشرق»، وفي مجلة «روز اليوسف» وفي مجلة «الصريح» وفي كل جريدة ومجلة من صحف الحزب.

أغلقت كل الأبواب في وجهه. كل زملائه يتنكرون له. كل أصدقائه يتجاهلونه. تحوّل الناس إلى أعواد مشانق يتعلق وحده في حبالها.. لقد أصبح في يوم وليلة عدو الشعب. نظرات أصدقائه أصبحت كالسياط، شفاههم كالبصقات..

وتطلع إلى الأشجار المغروسة على جوانب الشارع فخيل إليه أنها تغطي وجهها بفروعها حتى لا تراه.. وتطلع إلى فوانيس النور وتصور أنها هي أيضاً تشيح بوجهها عنه.. الدنيا كلها تلعنه.. كأن الدنيا

عضو في الحزب تلعن من يلعنه الحزب، وتنبذ من ينبذه الحزب!

وعادت به قدماه إلى شارع ناظر الجيش من جديد، حيث إدارة جريدة «الجهاد»، ولم يجرؤ أن يضع قدمه في أرض الشارع المحرم. وقف في نهايته على مفترق شارع قصر العيني، فرأى صديقه وزميله القديم أحمد قاسم. وتهلل وجه محمد، وأسرع نحوه، ولكن قاسم أشار بيده أن يبتعد ويتبعه عن بعد، ومضى يمشي وراء أحمد قاسم إلى أن انتحى به في ركن بشارع الإنشا، وقال له وهو يتلفت حوله في ذعر خشية أن يراه أحد يتحدث مع المجرم الأثيم:

ـ لماذا فعلت هذا يا محمد؟ لقد ضبطوك وأنت تدخل بيت عوني باشا حافظ، والتقطوا لك صوراً وأنت تسلم له التقارير السرية بيدك!

وصاح محمد:

ـ هذا كذب!

قال قاسم:

ـ لقد رأى الأستاذ حسين توفيق هذه الصورة بعينه، واطلع بنفسه على صور التقارير السرية وشهد أنها بخط يدك!

قال محمد:

ـ هذا ظلم! إنني سأشكو أمري إلى مجلس إدارة الحزب.

قال قاسم في أسى:

ـ إن مجلس إدارة الحزب نفسه هو الذي أصدر هذا القرار.

■ ■ ■

كانت أنفاس محمد تتلاحق كأنفاس المحموم، وهو يسمع الاتهامات الظالمة تسقط فوق رأسه كالصواعق. الأكذوبة تبدأ صغيرة ثم تكبر، ثم تفرخ وتبيض، ثم تتحول البيضة الواحدة إلى ألوف البيض المختلف الأشكال والأحجام. كأن نفوس البشر هي أفران صناعية لتفريخ بيض الأكاذيب الفاسدة. فإذا امتلأت نفوسنا بهذا البيض، وزعناه على الآخرين ليفقس ويبيض ويتوالد بسرعة توالد الميكروبات!

ولكن، ما ذنب الناس المساكين؟ إنهم يحملون الميكروبات وينقلونها دون أن يعرفوا أنهم حملة هذه الميكروبات. إنهم ضحايا مثل محمد. مخدوعون كما خدع هو من قبلهم مئات المرات. صدق أكاذيب، وآمن بمفتريات، وهاجم أبرياء، وهو يتصور أنه يصدق حقائق ويؤمن بمعلومات صحيحة، ويهاجم مجرمين معترفين!

أيكون قد ظلم بحسن نية بعض الناس، فجاءت الأقدار تعاقبه بهذا الظلم ليذوق طعمه ويعرف مرارته؟ إنه لا يذكر في حياته أنه ظلم إنساناً، أو أنه افترى على بريء، أو أنه لفق اتهاماً على مظلوم، أو طعن صديقاً في الظلام!

هل القدر يظلم الناس كما يظلمهم الطغاة؟ يحكم عليهم بلا محاكمة، يلفق لهم الاتهامات؟ أم أن بعض الناس يلفقون للقدر كما يلفقون للناس؟ ويضعون في فمه أحكاماً لم ينطق بها، وينسبون له تصرفات هو بريء منها؟

لقد تعلم محمد في الكتب أن الحقيقة مثل قطعة الفلين، مهما دفعنا بها إلى القاع فسوف تظهر على السطح! الحقيقة هي إنسان، إذا ذبحناه وألقينا بجثته في النهر تغوص الجثة في أول الأمر، ثم لا تلبث أن تقاوم الماء، وتظهر الجثة المختفية بعد أيام فوق ماء النهر،

إذا كانت جثة رجل ظهرت نائمة على ظهرها، وإذا كانت جثة امرأة ظهرت نائمة على بطنها، كأن القدر يريد أن تخفي المرأة عورتها حتى وهي غريق!

هل يجيء يوم تظهر فيه الحقيقة التي ألقيت في قاع النهر، أم لا بد لكي تظهر الحقيقة من أن تتحول إلى جثة أولاً، حتى ترتفع إلى السطح؟ إذن يجب أن يموت الإنسان لتعرف حقيقته، لتثبت براءته، لتغوص الأكاذيب في القاع، ولا تظهر إلا الحقيقة فوق السطح!

ومضى محمد يقطع شوارع مدينة القاهرة على غير هدى، كأنه يبحث عن ناس يصدقونه. شعر برغبة غريبة في أن يستوقف الناس بالشوارع، ويقص على كل واحد منهم قصة الظلم الذي أصابه!

كان محمد يفضل أن يشنق بمشنقة الحكومة على أن يفصل من عمله بقرار من الذين أحبهم، وعرض حياته للموت من أجلهم. . ليته توقف بعد أن أطلق الرصاص على عوني باشا حافظ، وترك البوليس يقبض عليه، ويزجه في السجن، ويحاكم ويحكم عليه بالإعدام. . ليته اعترف كذباً بأنه هو الذي ألقى القنبلة على شيخ الأزهر، ووفر على نفسه السياط والتعذيب، ومات شهيداً، بدل أن يعيش ليتهم هذه التهمة الظالمة من الذين قالوا أنهم لن ينسوا خدماته لهم طوال الحياة!

طوال الحياة؟! ما أقصر عمر وعود السياسيين. إنها أشبه بعمر الزهور. تورق في الصباح وتذبل في المساء، وتموت في اليوم التالي!

■ ■ ■

وذهب محمد إلى زبيدة، إنها الباب الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامه بعد أن سدت جميع الأبواب. . يا لسخرية القدر! الباب الوحيد

المفتوح في بيت الرجل الذي يخونه كل يوم مع زوجته . . الرجل الذي أطلق عليه الرصاص في يوم من الأيام!

وروى لزبيدة كل ما حدث له. كيف فقدَ عمله. كيف طرد من جريدته. كيف حكم عليه حزبه بالإعدام . . وحاول محمد أن يخفي عنها عذابه ومرارته وهو يـروي لها فجيعتـه حتى لا يضاعـف ألمهـا. وسمعته زبيدة مطرقة الرأس، ولم تنبس ببنت شفة، ثم قالت له إنها ستتركه لحظة لأنها نسيت منديلها في غرفة نومها!

ودهش محمد أن تفكر زبيدة في منديلها، وهو يحدثها عن حياته التي فقدها . . ما أسخف عقول النساء . . تتذكر المرأة المنديل الذي نسيته، وتنسى الجثة التي أمامها تنزف بالدم!

أو لعلها أرادت أن تبكي لهذه المأساة المفجعة، فلما لم تجد منديلها عجزت عن البكاء. فمن عادة النساء أن يخرجن مناديلهن من حقائبهن قبل أن يبدأن في البكاء!

ثم عادت زبيدة تحمل منديلاً. ولكنه لم يكن منديلاً صغيراً لتجفيف الدموع وإنما كان منديلاً كبيراً في شكل صرة . .

وفتحت المنـديل، وظهـرت فيه مجـوهـرات من الـذهب والمـاس والياقوت، وقالت له :

ـ هذه كل مجوهراتي . . خذها وبعها . . واصرف منها إلى أن يجيء الفرج . .

وأحس محمد برغبة في البكاء، إنه مظلوم ويظلم الناس!

ووجد الدموع تملأ عينيه . . . ووجد نفسه يمسك بطرف المنديـل

الذي حوى المجوهرات ويمسح به دموعه!

وقالت زبيدة وهي تبتسم:

ـ لم يكن في مجوهراتي لآلىء.. وها هي ذي دموعك تكمل مجموعة المجوهرات!

قال محمد في صوت يرتجف:

ـ سأبيع أولاً كل شيء في بيتي.. وبعد أن أبيع آخر شيء. سأطلب منك قرضاً!

قالت زبيدة وهي تحتضنه كأنه ابنها:

ـ لقد قلت لي دائماً إنك تشعر بأنني وأنت مخلوق واحد باسمين.. إن هذه المجوهرات تنتقل من يدك اليمنى إلى يدك اليسرى. هل رأيتني يوماً أتزين بهذا العقد، أو هذا الخاتم، أو هذا القرط، أو هذا الدبوس؟ مذ أحببتك أصبح حبك هو الجوهرة الوحيدة الثمينة التي أتزين بها.. وما دمت أحمل هذه الجوهرة، لم أعد في حاجة إلى كل مجوهرات الدنيا!

قال محمد في تصميم:

ـ لا يمكن أن أمس أي شيء من هذه الأشياء قبل أن أبيع كل ما عندي في بيتي.. إنها ليست المرة الأولى التي نبيع فيها عفش البيت.. لقد تعودنا على ذلك؟ إن الأغنياء عندما تزداد أموالهم يغيرون أثاث بيوتهم.. والفقراء عندما لا يجدون مالاً، يغيرون الأثاث ولكن بطريقة أخرى.. إنني أصبحت أحن للنوم على البلاط.. البلاط وحشني.. ربما كان هذا السرير الذي أنام عليه قد فصلني عن

طبقتي. . ربما لو كنت بقيت نائماً على الأرض لكنت أقوى مما أنا الآن. . فالذين ينفصلون عن طبقتهم يسهل ضربهم. . سأعود إلى الأرض لأستعيد قوتي وقدرتي على الصمود!

قالت زبيدة وهي تبكي:

ـ إنك لم تنفصل أبداً يا محمد عن طبقتك. إنني أحببتك لأنك كنت دائماً ملتصقاً في الأرض. لأن جذورك كانت دائماً تحت هذه الأرض. إن هذه المجوهرات لن تفصلك عن أرضك. إنك سوف تنفقها على معركة، معركة دفاع عن الحقيقة، دفاع عن كل مظلوم، قوتك وقوت أمك وقوت أبيك هي جزء من نفقات هذه المعركة.

قال محمد:

ـ دعيني أولاً أبع كل ما أملك حتى أشعر بلذة التضحية!

لا أريد أن أحارب المعركة بنقود امرأة، حتى ولو كانت المرأة التي أحبها!

وأمسك العقد الماسي، ووضعه فوق جيدها. وشبك الدبوس المرصع في صدرها، ووضع القرط الذي يتدلى منه حجر الياقوت في أذنها. .

ثم وقف يتأملها. .

وقال ضاحكاً:

ـ إنك أجمل فعلاً، بغير مجوهرات. . إنني أشعر وأنا أراك الآن بهذه المجوهرات أنك علقت في صدرك وفي عنقك وفي أذنك عوني باشا حافظ!

ثم عاد محمد من جديد يجردها من المجوهرات، ويجمعها في المنديل الكبير، ثم يربط المنديل من أطرافه، لتعود الصرة إلى ما كانت عليه . .

ثم أعاد الصرة إلى زبيدة وهو يقول مبتسماً:

ـ الآن، أنت أجمل فعلاً . . كنت منذ دقائق أشبه بفترينة أحد محلات المجوهرات!

ولاحظت زبيدة أن محمداً يتعمد الدعابة في هذه اللحظة الحزينة. كأنه يحاول بضحكه ومرحه أن يخفي الألم المرير الذي يعتصر قلبه. ألم المظلوم أشد من ألم المذبوح. ألم المذبوح مرة واحدة، وألم المظلوم هو كل دقيقة من الليل والنهار!

كانت تسمع صراخه خلال ضحكاته. كانت ترى دموعاً خلف ابتساماته. كان صمته يعذبها ويشقيها. وكان رفضه أن يأخذ المجوهرات يحزنها ويدمي قلبها . .

وقالت له:

ـ إنني أشعر أنك تريد أن تصرخ . . تريد أن تصفع أحداً على وجهه. أصرخ في وجهي يا محمد . . اصفعني على وجهي!

قال وهو يقبلها:

ـ نعم أريد أن أصرخ، ولكن الظلم سد حنجرتي . . وأريد أن أصفع بعض الناس ولكن الظلم جعلني بلا ذراعين!

■ ■ ■

وخرج محمد من عند زبيدة والدموع تملأ عينيه. الرجال تخلوا عنه،

وامرأة واحدة وقفت بجواره. الذين خدمهم لفظوه وزبيدة تمسكت به. الدنيا كلها نبذته، ولم تبق له إلا هذه المرأة الوفية التي منحته قلبها وجسدها. . . وها هي اليوم تريد أن تعطيه كل ما تملك من مال!

المرأة تنظر إلى مجوهراتها نظرة تختلف عن نظرة الرجال. إنها ليست زينتها إنما هي خط دفاعها الأخير. هي القلعة التي تتحصن فيها من غدر الزمن، والزمن هو أكبر عدو للنساء!

إن زبيدة لا تملك إلا هذه المجوهرات. لو مات عوني باشا غداً فستنتقل أغلب ثروته إلى إخوته وأخواته. ستطرد من البيت الذي تسكنه. ستكون مسؤولة عن إطعام إخوتها السبعة. . ومع ذلك فهي تضحي بكل هذا من أجل أن تمنعه من أن يبيع أثاث بيته. . لقد كانت فقيرة في يوم من الأيام وتعرف جيداً الثمن الذي يدفعه الفقراء ضريبة من أجل الحياة. . لقد دفعت زبيدة هذا الثمن ذات يوم، عندما قدمت حياتها قرباناً لإنقاذ أبيها من السجن والإحالة للمعاش!

قالت له زبيدة كل هذه المعاني وهي تدفع إليه بالمجوهرات. .

ومع ذلك رفض أن يلمسها بيده، وأصر على أن يبيع كل أثاث بيته أولاً!

وتركها تبكي!

وخرج وهو يبكي . . . يبكي لأنه وجدها في هذا الظلام!

المظلوم يعيش في ظلام مخيف، في وحدة قاتلة، في ليل طويل. فإذا وجد عود ثقاب واحداً، رأى فيه نور الشمس. يخيل إليه أنه وجد في هذا العود كل ما بقي في الدنيا من ضوء. . كل ما بقي فيها من نهار. . وهو يخاف على هذا العود الوحيد. . يبخل به على الاشتعال. . يحتفظ

به في قلبه، كأنه رصيد من الإيمان، يتحسس مكانه، ليطمئن دائماً على أنه موجود حقيقة، وليس وهماً من صنع الخيال!!

لقد ترك زبيدة غاضبة حانقة لأنه رفض أن يأخذ المجوهرات ويبيعها. وهو يشعر أنه أخذ المجوهرات فعلاً. ليست قيمة الشيء في أنه في يدنا، قيمته في معناه، في شعورنا أنه موجود. أصحاب الملايين لا يحملون أموالهم فوق رؤوسهم، وهم يمشون في الشوارع، ولكن ثروتهم هي في شعورهم أنهم يملكون هذا المال.. هذا الرصيد غير المنظور أشبه بفرقة من الحرس تسير أمامهم وخلفهم في موكب سحري..

ولقد أحس محمد الفقير بأنه اغتنى بهذا العرض.. اغتنى بالمجوهرات التي تركها في مكانها. شعر في تلك اللحظة أكثر مما شعر في أي وقت من الأوقات أن زبيدة تقف معه، أحس أنه يحبها أكثر مما أحبها في يوم من الأيام. عرف أنها الجوهرة الحقيقية في حياته، وأن كل ما عداها مجوهرات من زجاج تلمع في النور كالماس وتباع في الليالي المظلمة بسعر التراب.. فنحن نعرف البطل عندما يسقط كل من حوله، ويبقى هو وحده صامداً، واقفاً على قدميه، دون أن يهرب أو يستسلم أو ينهار!

شعر محمد لبضع دقائق بشيء من الاطمئنان. إنه ليس وحده، إن معه زبيدة، معه عود ثقاب في الظلام!

وما لبث شعور الاطمئنان هذا أن بدأ يتبخر. سكت صوت العاطفة ليتكلم صوت العقل. هذا العود سوف يضيء له مرة واحدة ثم ينطفىء.. ولكي يضيء يجب أن يحترق أولاً ويتحول إلى رماد!

لو أنه باع كل ما يمتلك من أثاث، ثم مد يده إلى هذه المجوهرات،

فسوف يجيء يوم يسألها فيه زوجها عن مجوهراتها.

قد تكذب وتقول إن المجوهرات سرقت منها، عندئذ ستقوم الدنيا وتقعد لسرقة مجوهرات زوجة وزير الدولة في وزارة الداخلية. سيترك رجال الشرطة في الدولة كل الجرائم والجنايات، ليتفرغوا للبحث عن المجرم الذي سرق مجوهرات زوجة الوزير المسؤول عن الأمن العام. وسيرشد تاجر المجوهرات الذي اشتراها من محمد الشرطة إليه وسيصبح لصاً فوق التهمة الشائنة التي لطخه بها قرار الحزب!

وهو يعرف زبيدة تماماً.. إنها لن تسكت على اتهامه ظلماً بأنه السارق.. ستذهب إلى الشرطة وتقول إنها أعطته المجوهرات لأنه حبيبها.. وستقع المصيبة الكبرى.. سيطلقها زوجها، وسيطرد والدها من وظيفته، وسيشرد أخوتها السبعة ليتضوروا جوعاً.. وسوف يزيد عدد الأفواه التي يجب على محمد أن يطعمها.. إنه الآن عاجز عن إطعام ثلاثة أشخاص، هم أمه وأبوه ونفسه.. فكيف يطعم اثني عشر شخصاً..؟ اثني عشر فماً جائعاً..؟

لقد وعد محمد زبيدة وهو يخرج من عندها أنه سيفكر في عرضها، وكان يقصد من ذلك أن يجفف دموعها..

أما الآن، فقد أصدر قراره..!

يجب أن يحارب هذه المعركة وحده!

إنه لا يريد أن يضاعف عدد الضحايا وعدد الشهداء الأبرياء!

يكفي أن يكون وحده الشهيد!

لا، إنه ليس وحده!

أمه، أيضاً..

ووالده الأسطى حنفي عبد الكريم.

ثلاثة من الشهداء!

■■■

حدّق الأسطى حنفي في عيني محمد، في نظرة امتزج فيها الألم بالحنان، والعذاب بالحب، والدهشة بالحزن، والكرامة بالذل!

ثم جحظت عيناه الصغيرتان، اختلجت شفتاه الرفيعتان، وأخذ يعض على شفته دون أن ينطق بكلمة واحدة.

كأن جميع الحكم والأمثال تبخرت من رأسه، أو أنه أمام حالة جديدة لم يضرب بها مثلاً. فاجعة تجل عن الحكم والأمثال!

وعجب محمد لصمت أبيه، بعد أن روى له التهمة الظالمة التي لفقت ضده، وقرار فصله من عمله. كان واثقاً أنه سيسمع مثلاً شعبياً يصور مأساته. ولكن الأب أصيب بالبكم، لم ينبس بحرف. فالبلاغة أحياناً ألا نقول شيئاً في المواقف التي تجل عن الكلام.

وكان صمت الأسطى حنفي صمتاً عجيباً، صمتاً يبكي ويتكلم، صمتاً يصرخ وينوح، صمت المذهول المفجوع الذي تصور أنه ذاق كل الظلم الذي في الدنيا.. فإذا به يتجرع ظلماً جديداً، أمر وأقسى، والكأس هذه المرة هي ولده الوحيد!

كان محمد يشعر بطعنة السكين، ولكنه رأى الدم ينزف منه في نظرات أبيه الصامتة.. كانت هذه النظرات هي النزيف، وكانت الدموع هي الأنين!

وحاول محمد أن يسري عن أبيه، فسأله متظاهراً بالابتسام عن المثل الشعبي الذي ينطبق على حالته. ولم يرد أبوه إلا بأنفاس متلاحقة، أنفاس لا تكون حروفاً، زفرات لا تصنع كلمات.. وإن كانت تعني الكثير من الحروف والكلمات..

وأحس محمد بأن في أبيه عاصفة هوجاء. عاصفة بلا صوت. زوبعة بلا زئير. شيء ما انفجر في داخله، وخرج الدم يغلي في عروقه. ولكن لسانه بقي أخرس تاركاً لتجاعيد وجهه أن تعبر، وتزأر وتغضب، وتصرخ وتبكي بغير دموع!

ثم رأى والده يلف ويدور حول نفسه، كما يحدث للإنسان عندما تهوي على رأسه مطرقة هائلة. وتوقع محمد أن يسقط أبوه على الأرض، ولكنه لم يسقط، بل استمر يدور حول نفسه. يزمجر بلا صوت، ويدمدم بلا كلام، ويحاول أن يقول أي شيء، فيخذله لسانه عن النطق والتعبير.

وأحس محمد بأنه يتبادل مكانه مع أبيه. أحس بأنه هو الأب، وبأن الأسطى حنفي هو الابن الصغير، فطوقه بذراعه، واحتضنه في حنان وألصق رأسه برأسه، وقال له إن الله لن يتخلى عنا. ورفع الأسطى حنفي رأسه إلى السماء، ثم أطرق إلى الأرض حزيناً، كأنه لم ير السماء، ومضى يعض على شفته دون أن ينطق بكلمة واحدة!

وفشلت كل محاولات محمد مع أبيه كي يتكلم، فتركه ودخل إلى أمه في المطبخ. رآها تعد رطلاً من اللحم على النار، وتطلع إلى رطل اللحم وتنهد.. ترى هل تعرف أمه أن هذا آخر رطل من اللحم يدخل هذا البيت..؟

وبدأ يروي لها المأساة باختصار، ولم ترفع الأم عينيها عن قطعة

اللحم التي تشوى على النار. وكأنها ترى نفسها وابنها وزوجها قطعة اللحم هذه تشوى على نار الظلم، والظالمون يتلذذون من استنشاق رائحة الشواء!

ومد محمد يده وطوق كتفي أمه، وقال وعلى شفتيه ابتسامة حزينة:

ـ يظهر أننا سنضطر يا أمي لأن نبيع العفش لنأكل!

ومضت الأم تشوي قطعة اللحم، بغير أن تضطرب، وراحت تديرها وتقلبها بالملعقة التي في يدها وعلى شفتيها ابتسامة رضا بكل ما يجيء به الله!

وأدهشه أنها استقبلت الصدمة بشجاعة. صمودها أذهله، لقد توقع أن تغضب، وأن تولول، وأن تلعن الزمن وغدره كما تفعل دائماً. .

ولكنها خطت فوق المأساة، ولم تعلق عليها بكلمة واحدة. . إكتفت بأن قالت لمحمد وابتسامة الرضا لا تزال فوق شفتيها:

ـ سأبيع سريري أولاً

وهزته ابتسامتها الشجاعة أضعاف ما كانت تهزه دموعها، وقال لها والدموع في عينيه:

ـ لا يا أمي. . سريري أنا أولاً!

واحتضنته وقالت وهي تبتسم:

ـ لا يا حبيبي، سريري أنا أولاً. . إنني أمك ويجب أن تسمع كلام أمك!

قال محمد:

ـ في المرة الماضية تركتك تبيعين سريرك أولاً . . واليوم جاء دوري!

قالت أم محمد:

ـ عندما يجيء وقت التضحية الأم تبدأ ثم الأب ثم الطفل! وعندما يجيء الطعام الطفل يأكل، ثم الأب، ثم الأم . . هذا هو النظام الذي وضعه الله!

قال محمد:

ـ الله لم يقل هذا . . الله قال الجنة تحت أقدام الأمهات!

قالت أم محمد:

ـ قال ذلك لأنه وضع التضحية على رأس الأمهات في الدنيا، ولهذا وضع الجنة تحت أقدامهن في الآخرة!

قال محمد في تصميم:

ـ لن أدعك تبيعين سريرك . . لقد كانت أمنية حياتي أن أراك تنامين على سرير!

قالت أم محمد وهي تضحك:

ـ لعلك لا تصدق إذا قلت لك إنني لم أشعر بآلام الروماتيزم إلا عندما أصبحت أنام على السرير . . ؟ يظهر أن ظهور الفقراء مثلنا خلقت لتنام على البلاط . . دعني أسترح على البلاط . . إنني أقوم أحياناً مفزوعة من النوم خشية أن يكون والدك قد سقط عن السرير . . إن النائمين على الأرض لا يسقطون أبداً!

■ ■ ■

ما كاد محمد يغادر بيته في صباح اليوم التالي، حتى أمسكت أم محمد يد الهاون، وبدأت تفك السرير الحديد، وحملت أجزاءه على ظهرها، على عدة دفعات، وذهبت به إلى تاجر الأثاث القديم.

ولم تبحث أم محمد طويلاً. من كثرة ما باعت من أثاث بيتها، أصبحت تعرف عناوين كل التجار الذين يشترون الأثاث القديم. الطيبين ومصاصي الدماء، اللصوص وأنصاف اللصوص!

أزمات الجوع والفقر التي مرت بحياتها علمتها أن السرير القديم يساوي مائتين وأربعين رغيفاً من الخبز.. أو ما يساوي ستمائة قطعة طعمية، أو ما يساوي طعام أسرتها لمدة شهر كامل!

ولم تبع أم محمد كل شيء مرة واحدة، خشية أن تغرق السوق.. كانت تبيع كل بضعة أيام قطعة من الأثاث.. اليوم سنأكل هذا المقعد.. هذا الأسبوع سنأكل هذه الكنبة. الوسادة ستشتري لنا طعاماً لمدة ثلاثة أيام!

وكان انشغالها بتدبير النقود، وبالبيع والشراء، ينسيها عذابها. كان كل حديثها عن المفاوضات المالية التي تقوم بها، والصفقات التي تعقدها، وبائع الروبابيكيا الذي أراد أن يغشها!

أما الأسطى حنفي فكان ينظر صامتاً إلى كل قطعة من الأثاث تخرج من بيته. نظرة حزينة مستسلمة. كان يودع كل قطعة بقصيدة من الشعر الصامت. قوافيها زفراته، وأوزانها تنهداته.. مرة واحدة سقطت دمعة من عينيه، عندما رأى أم محمد تحمل سرير محمد فوق رأسها وتخرج من البيت لتبيع السرير!

كان الأسطى حنفي يودع بنظراته كل قطعة تخرج من أثاث البيت،

وكأنه يودع فرداً عزيزاً من الأسرة، حبيباً ذاهباً ولن يعود. . إن أثاث بيوتنا يشبه المخلوقات الحية وهي تعيش معنا، فإذا خرجت من بيوتنا تحولت إلى جثث!

كثيراً ما تحدث الأسطى حنفي إلى هذا المقعد، أو ناجى هذا الدولاب، أو شكا همومه لهذه الكنبة، أو احتضن هذه الوسادة. . كانت بينه وبين قطع الأثاث البسيطة الرخيصة في بيته ألفة غريبة، صداقة وطيدة. أشياء كثيرة باعها عدة مرات، واستعادها عدة مرات. . كان يصر على أن يستعيد الشيء الذي باعه، ويدفع فيه أحياناً ثمناً أكبر من ثمن بيعه. . كان دائماً يحس برابطة قوية تقيده بهذه الأشياء التي قاسمته حياته فترة من الزمن، تماماً كما نشعر نحو صديق شاركنا آلامنا في محنة، أو لازمنا في مأساة، أو أسندنا رأسنا إليه وبكينا على كتفيه، فربطت دموعنا المشتركة بيننا، كما تتحول الآلام المشتركة إلى مادة تشبه الإسمنت!

كان الأسطى حنفي يمضي مع هذه الجمادات أكثر مما يمضي مع الناس. هي وحدها التي لم تضق به. إحتملته في مرضه أكثر مما يحتمله البشر. هي وحدها التي لم تسخر من حكمه وأمثاله. هي وحدها التي فهمته!

ولهذا كان يذوب يوماً بعد يوم، وهو يرى أصدقاءه يتسربون واحداً بعد واحد، تحملهم أم محمد على رأسها إلى سوق العصر، أو سوق الكانتو، أو أي تاجر اعتاد شراء الأثاث الرخيص. . ولم يكن الأسطى حنفي يتصور أن هذه الأشياء الرخيصة الفقيرة سوف تفارقه إلى أن يموت. كان يعتقد بعد أن أصبح محمد محرراً في «الجهاد»، أن أم محمد ستنسى الطريق إلى تجار سوق الكانتو. إن كل الأثاث سيبقى في مكانه

إلى أن يموت، فلما خلا البيت من المقعد الذي كان يجلس عليه كان يتعمد أن يجلس على الأرض في نفس مكان المقعد المبيع، كأنه يحرس هذا المكان، أو كأنه يواسيه، أو كأنه يريد أن يخفيه عن العيون، فلا يعرف الناس أن المقعد الذي كان في هذا المكان قد ذهب ولن يعود!

وذات ليلة جلس الأسطى حنفي مع محمد وأم محمد يتناولون العشاء على الأرض، بعد أن باعوا الطبلية!

وشعر محمد أن العشاء فاخر أكثر من المعتاد!

كان مكوناً من فول مدمس وطعمية وفجل وخبز. . أربعة أصناف من الطعام في مأدبة واحدة. . وقال محمد باسماً: إنها اليوم مأدبة ملكية. . !

وكان المعلم حنفي جائعاً، فمد يده ليلتقط رغيف خبز، فقالت أم محمد باسمة:

ـ إن سجادة الصلاة هي التي جاءت بهذا الطعام العظيم!

وما كاد الأسطى حنفي يسمع قول أم محمد، حتى أعاد الرغيف إلى مكانه وامتنع عن أن يأكل!

ودهش محمد أن يمتنع والده عن الأكل، فإنهم الثلاثة لم يذوقوا إفطاراً ولا غداء وسأله محمد:

ـ ماذا حدث، لماذا لا تأكل يا أبي؟

وبقي الأسطى حنفي صامتاً لا يقول شيئاً. .

ثم انسحب من المكان وانزوى في ركن بعيد. .

وسأل محمد أمه عن سبب امتناع أبيه عن الطعام، فابتسمت أم محمد وقالت:

ـ إنه لا يريد أن يأكل سجادة الصلاة!

وهز محمد رأسه وقال:

ـ إن أبي لا يعرف أن الشفاه الجائعة أطهر من كل سجاجيد الصلاة في الدنيا!

■ ■ ■

كان محمد ينظر إلى ما بقي من أثاث بيته كأنها حصون المقاومة، الحصون التي لم تستسلم بعد!

وفي كل يوم كان يسقط أحد هذه الحصون. فيحس محمد أن قطعة من قلبه قد تمزقت. كان يعتبر بقاء أي قطعة من أثاث البيت بغير بيع، هي علامة لاستمرار مقاومته وصموده. وكان يسخر أحياناً من نفسه، ويتصور أنه وأمه وأباه أكلوا السرير، وأكلوا الدولاب وأكلوا حلل النحاس. ..!

لقد رأى حلل النحاس تختفي واحدة وراء واحدة، وكان يفتقد صوتها. . كثيراً ما سمع صوت هذه الحلل بين يدي أمه في المطبخ كأنها موسيقى نحاسية تعزف. . ولا يزال يذكر أمه في طفولته وهي جالسة في المطبخ بين هذه الحلل، تدق عليها بأصابعها وتنشد الأغنية التي كانت ترددها دائماً «البحر بيضحك ليه». . واستمرت ترددها على أنغام الحلل النحاسية إلى أن أصيب والده بفقد قواه العقلية وأصبح يقول لها «البحر بيضحك. . لأني ذبحت وزير الحربية وألقيت بجثته في النيل

السعيد» . . وامتنعت أمه من ذلك اليوم عن الغناء . . كأن البحر توقف عن الضحك عندما رأى مأساة أبيه . . وبقيت الحلل النحاسية صامتة . . ومع ذلك كان محمد كلما رآها يتصور أنه يسمع صوت أمه وهي تغني «البحر بيضحك ليه؟» .

الآن ، اختفت الحلل النحاسية ، اختفت آلات العزف النحاسية ، إن هذه الآلات لا تعزف إلا أناشيد الفرح والانتصار . . ما حاجة الذين يبكون إلى آلات عزف من نحاس . . ؟

وكان محمد يخرج من بيته في الصباح يبحث عن عمل ، ما أغرب هذه الحياة . لقد كان يخرج في أول الأمر ليبحث عن أدلة تثبت براءته ، ليبحث عن أنصار يقفون معه في معركته ضد الظلم . ليبحث عن أسلحة يحارب بها التلفيق والطغيان والاستبداد!

أما اليوم فهو يخرج ليبحث عن لقمة العيش!

كان يخرج مرفوع الرأس ليصارع الطاغية . واليوم يخرج منكس الرأس ليحارب الجوع!

الجوع كافر مثل الظلم ، يذلنا . يحني رؤوسنا ، يحطم مقاومتنا ، يزلزل عقائدنا . البطون الخاوية أشبه بالقلوب الخالية من الإيمان ، غير قادرة على الثبات ، عاجزة عن الصمود . الطعام للبطن أشبه بالعقيدة في النفس . بطن بغير طعام ، هو رجل بغير روح وبغير عمود فقري!

آلام الجوع تشبه آلام السياط ، ولكنها سياط تحت الجلد لا فوق الجلد . وعندما يحني الجائع رأسه إنما يفعل ذلك بحركة غير إرادية كما يفعل المضروب بالسوط عندما تنهال على رأسه السياط . . وهو عندما يزحف على بطنه لا يفعل ذلك ذلاً وهواناً ، وإنما يفعله ألماً وعذاباً . .

فهو يسند بطنه على الأرض لأنه لا يستطيع أن يسندها على الطعام!

ويزداد ألم الجوع عندما يـرى الجائع الذين يحبهم جـائعين مثله، يتضورون مثله. . هنا يتضاعف ألم الجوع بقدر عدد الجائعين!

وكان محمد يخرج من بيته كل صباح باحثاً عن عمل، يدق على كل باب، يدخل كل دكان، يطرق كل مصنع، يتردد على كل شركـة. ويستقبله الجواب الدائم «لا وظائف خالية». .

وهو جائع يتحمل الإهانة، ولا يغضب للرفض الوقح، ولا يثور على الأبواب التي تغلق بشدة في وجهه، فعندما يذلنا الجوع يصبح كل ذل آخر شرفاً!

وهو يقابل في الطرقات مئات مثله، طردوا من أعمالهم، الأزمـة الاقتصادية الطاحنة أرغمت الشركات والمصانع والمتاجر على الاستغناء عن ألوف العمال، فخرجوا هائمين في الشوارع. . إنهم يشبهونه شبهاً غريباً. . كل واحد منهم توأمه في الجوع والبطالة والشقاء. وجوههم مصفـرة، عيونهم مكفهـرة، ذقونهم طـويلة، شعـورهم منكـوشـة، ملابسهم رثة، أحذيتهم بالية. . البؤس والفقر والحـرمان تـطل من ثقوب بنطلوناتهم المرقعة وجلاليبهم الممزقة. صفوف وراء صفوف من العاطلين، طوابير من المسحوقين التائهين. جوعى لا يجدون طعاماً. عـاطلين لا يجدون عمـلاً. مشردين لا يجـدون مـأوى. يـائسـين لا يجدون أملاً!

ثم يعود محمد إلى البيت يحمل العارين، عار الاتهام الـظالم وعار الجوع القاتل. . ولا تسأله أمه هل وجد عملاً، فإنها تقرأ جوابـه في عينيه الحزينتين!

وتحمل أمه قطعة أخرى من الأثاث، وتخرج صامتة إلى سوق العصر. . !

■ ■ ■

طاف محمد بأرجاء البيت فوجده قد تبخر من أثاثه. خلا من كل شيء يدل على أن فيه سكاناً. لم يعد يرى مقعداً للجلوس، ولا مرتبة للنوم، ولا شماعة لتعليق الملابس، ولا مائدة يكتب فوقها. لم يعد في البيت من أثاث إلا والده المحطم، وأمه العجوز، وهو. خراب في كل مكان. خرق بالية بقيت ملقاة على الأرض لأنها غير صالحة للبيع. علب فارغة. قلة بفم مكسور. فردة حذاء حزينة تشكو الوحدة، لأن زميلتها ضاعت، وكأنها تبحث عنها لتصحبها هي الأخرى إلى سوق العصر لتباع فيه. . بقايا حصيرة فرشتها أمه على الأرض في مكان السرير، سريره هو. . أما مكان سرير أمه فقد جلس فيه الأسطى حنفي يحرسه كما يحرس كل أرض خلاء!

ورأى أمه في ملابس رثة. عاد ثوبها القديم من قبره، بلونه الباهت كما يبهت الزمن!

وسألها محمد:

ـ أين ثوبك الذي اشتريته لك عندما قبضت مرتبي لأول مرة في حياتي. . ؟

وابتسمت أم محمد وقالت:

ـ جاء دوره. بعته لندفع إيجار البيت. العري خير من إلحاح الدائنين. . !

وسألها في حياء:

ـ هل يوجد عشاء؟

قالت باسمة:

ـ خير الله كثير!

وجاءت أم محمد ببقايا خبز قديم، وقطعة من الجبن المش، وثلاث زيتونات..

وجلس الثلاثة يأكلون من خير الله الكثير..

وأمسك محمد بأصابعه الزيتونة السوداء التي كانت من نصيبه.. وقربها من فمه، ثم أبعدها وراح يتأملها!

وتذكر الوحمة التي في ساقه، التي تشبه الزيتونة السوداء، التي أحدثت مشكلة مع زبيدة في يوم من الأيام، عندما كان الخلاف بين زبيدة ونجوى هو أيهما أكلت الزيتونة السوداء! ووضع الزيتونة بين شفتيه، وأحس كأنه يضع زبيدة على شفتيه!

إنه جائع أيضاً إلى زبيدة!

وتنهد. مشاكل الجوع أنسته مشاكل الحب. لم يعد يذهب إلى زبيدة كل يوم كما كان يفعل. وإذا ذهب تحدثا عن مشاكل بطنه أكثر مما يتحدثان عن مشاكل قلبه. قلت عدد قبلاته. كأن الشفاه الجائعة للطعام لا تشعر بحلاوة القبلات. كأن البطون الخاوية لا بد أن تمتلىء بالخبز واللحم والخضار، حتى تجد طعماً للتفاح!

لا يزال محمد يحب زبيدة كما كان يحبها، بل لعله أصبح الآن

يعبدها، ومع ذلك فإن متاعب الجوع تنسيه حلاوة الحب. الوقت الذي كان يمضيه يحسب عدد القبلات التي طبعها على شفتيها في آخر لقاء، ويتحسس صدره بيده وكأنه لا يزال يشعر بصدرها ملتصقاً بصدره.. هذا الوقت نفسه أصبح يمضيه في حساب عدد القروش الباقية معه، ويتحسسها في جيبه، ليتأكد أنها لا تزال موجودة.. وأنه لا يزال أمامه بضعة أيام قبل أن يموت من الجوع!

وتنهد محمد، وتذكر أن الحب يشعل نار العبقرية، الحب هو الذي ألهم الكتاب أعظم قصصهم، وأوحى للموسيقيين بأروع ألحانهم، ودفع الرسامين ليرسموا أخلد رسومهم. كلهم كانوا فقراء معدمين كلهم كانوا مشردين مفلسين. ولكنهم لم يكونوا جوعى مثله، لم يكونوا يعيشون وحولهم كل شيء على فراش الموت. لقد كان محمد يتلفت حوله إلى كل قطعة من أثاث البيت ويتصور أن كل قطعة فيه تشعر بدنو أجلها. كان سريره يشعر بدنو أجله بعد سرير أمه. وكانت المرتبة تعرف بدنو أجلها عندما رأت السرير يباع. وكان المقعد يعرف بدنو أجله عندما خلت الغرفة من السرير والمرتبة والمائدة والشماعة. كل شيء في هذا البيت أصبح يحس بدنو أجله، ينتظر دوره. من لم يسقط اليوم سوف يسقط غداً. الذي لم يبع بالأمس سيباع اليوم!

هل يمكن أن يعيش كيوبيد في هذه المقابر؟ هل يمكن أن نأكل الحب إذا لم نجد الطعام؟ الحب يعطينا قوة للصمود. يسندنا حتى لا نسقط. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل الحب للذين قطعت سيقانهم؟ الحب يحول رغيف العيش الذي يقتسمه حبيبان إلى مائدة ملكية. ولكن ماذا يستطيع الحب أن يفعل عندما لا يجد هذا الرغيف ليصنع منه المأدبة الفاخرة؟ الحب يصنع من البصلة خروفاً كما يقول المثل الشعبي الذي كان يردده الأسطى حنفي.. ولكن ماذا يفعل هذا الطاهي العظيم إذا

لم يجد البصلة التي يحولها إلى خروف؟ فالحب يحتاج الى القوت الضروري ليصنع منه المعجزات. كما يحتاج الكاتب إلى القلم، ويحتاج الرسام إلى الألوان، ويحتاج الموسيقي إلى القيثارة. وبغير القلم يبقى الورق خالياً من الكلمات، وتبقى اللوحة خالية من الرسوم، ويبقى اللحن أنغاماً بلا صوت!

كلما خلت بطوننا قلت قبلاتنا. كأن الشفاه التي لم تذق الطعام تستحي من أن تذوق القبلات. القبلة كالخمر. والجوعى عندما يشربون تنفتح شهيتهم للطعام. لا تغنيهم الكأس عن الخبز. فصراخ البطون هو أعلى أنواع الصراخ في الدنيا. كأن صوتها العالي تضيع فيه خفقات القلب، وهمسات الحب، ونبضات الفكر. فالجوع يشل كل شيء فينا، حتى الرغبة في المرأة التي نحبها. كأنه لا بد أن نغذي بطوننا لنشعر بشهوة الجنس. لنستمتع بلذة الهوى، لنتكهرب بحلاوة العناق!

الحب يهوى أن يعيش في الجو الشاعري، يحلق في سماء الأحلام، يرقص في عالم الخيال. والجوع لا شعر فيه ولا أحلام ولا خيال. هو الواقع بكل ما فيه من حرمان وذل وحضيض. الحب يطرب لسماع الأغاني ويكره سماع حديث الدين والكمبيالات.. يزدهر في الربيع، لأنه الفصل الذي تتفتح فيه الأزهار، وتخضر أوراق الشجر، وتفتتن الطبيعة بأحلى ما في الدنيا من جمال. إنه يحول العشاق إلى ملوك، وكل زهرة في حديقة، وكل وردة فوق عود، وكل نبات أخضر هي رعايا هؤلاء الملوك! فأنت عندما تحب تشعر كأنك أصبحت ملكاً، وتخاف على حبك كما يخاف الملك على عرشه، وتحرس هذا الحب كما يحرس الملوك تيجانهم، وتتلهف على أخبار المرأة التي تحبها كما يتلهف الملك على أن يعرف أخبار شعبه وأسراره وهمساته.. والملوك لا يعرفون الجوع، لأن الجوع لا يعرف الملوك!

صحيح أن زبيدة لم تتأثر بجوعه. لا تزال تحبه اليوم كما كانت تحبه عندما كانا يأكلان التفاحة مساء كل يوم. بل هي تحاول أن تعوضه بحبها وإخلاصها وتفانيها عن هذا الجوع. ولكنه هو. . هو الذي يشعر بأنه تغير. . إنه لم يعد قادراً على أن يسعد المرأة التي يحبها كما كان يسعدها وبطنه ملآن. لم يعد يجد على شفتيه كلمات الحب التي كان يقولها وهو شبعان. لم يعد يشعر بأن ذراعيه قويتان، وهما تضمانها إلى صدره!

وهو يشعر بهذا الشعور كله لأنه جائع، لقد كان ينسى الدنيا كلها بين أحضانها، ولكنه اليوم يجد نفسه يسرح في أمه الجائعة، وفي أبيه الذي لم يجد ثمن الدواء!

وأحس محمد بالخوف على حبه. . أن يموت هو الآخر. . من الجوع!

■■■

فشلت محاولات أم محمد ومحمد في جعل الأسطى حنفي عبدالكريم يتكلم. مضت الأيام وهو صامت، كأنه أتخذ الصمت لغة!

وكان محمد يعجب لإصرار أبيه على الصمت. الأخرس يشير بأصابعه ليعبر عن المعاني. ولكن الأسطى حنفي لم يكن يستعمل أصابعه أبداً. أصابعه لزمت الصمت تضامناً مع شفتيه. بل هو لا يهز رأسه إلى تحت ليقول: نعم. ولا يهز رأسه يميناً وشمالاً ليقول: لا، كأنه لم يعد محتاجاً لكلمتي نعم أو لا!

إننا نستعمل الكلمات لتعبر عما نريد أو عما نرفض. وهو لا يريد شيئاً ولا يرفض شيئاً. لقد جعل من الصمت موقفاً!

وكان محمد يجد في هذا الصمت كلاماً كثيراً. فالصمت أحياناً يكون

له صوت الرعد. كان الأسطى حنفي يحتج بصمته على الظلم الذي وقع على ابنه. كأنه يطلق لعنات بلا صوت، لعنات يسمعها كل من يرى الأسطى حنفي صامتاً!

وتحولت عينا الأسطى حنفي إلى دمعتين ليس فيهما مياه العبرات! لا شيء يسقط من العينين. ولكنك تراهما وقد تحولتا فعلاً إلى دمعتين، دمعتين صامتتين متحجرتين كصمت الأسطى حنفي!

وكان صمت الأسطى حنفي يبدو مخيفاً. كأنه يحارب معركة وحده، بسلاح جديد لم يفكر فيه سواه، كأن الصمت يحتاج إلى شجاعة أكثر مما يحتاج إليه الكلام.

وقد خطر ببال محمد أن في استطاعة الصمت أن يهز الظلم كما تهزه الكلمات!

إذا عجزنا عن أن نقول للظالم: أنت ظالم، فإننا نستطيع أن نحاربه بالصمت. نخيفه بسكوتنا كما نخيفه بصراخنا. إذا لم نستطع أن نهتف بسقوطه، إذا قطع ألسنتنا التي تتكلم، وأيدينا التي تكتب، فإننا نستطيع أن نهزمه بالصمت. نجعل هذا الصمت الكامل موحشاً مرعباً مخيفاً يهز أعصاب الظالم. وهكذا تسمعه شفاهنا الصامتة كلمة: أنت ظالم.. إن مظاهرة الصمت فيها رهبة أكثر مما في مظاهرة الهتافات!

أثناء ثورة ١٩١٩ كانت تخرج جنازات صامتة، ليس فيها هتافات وليس فيها شعارات. وكان الانجليز يطلقون عليها الرصاص، كما كانوا يطلقون الرصاص على المظاهرات التي تهتف بسقوطهم وسقوط الاحتلال.. لماذا؟ لأن الإجماع على الصمت له دوي كالإجماع على الكلام. الكلمة المخنوقة لها صوت كالكلمة المدوية. بل في بعض الأحيان يدوي الصمت أكثر مما تدوي الهتافات!

أي عذاب يشعر به الظالم إذا جلس مع المظلوم دون أن يتبادلا الكلمات؟ الحوار أحياناً يريح الظالم، يعرف منه قدرة المظلوم. أنين المظلوم يشبه في أذنه موسيقى الانتصار. ولكن عندما يسكت المظلوم، ويصر على الصمت الطويل، ولا يشكو، ولا يتألم، ولا يطلب رحمة، عندئذ يبدأ قلق الظالم. يرى في هذا الصمت المريب مؤامرة.. وقلق الظالم هو قبره!

ولقد كان محمد معجباً بصمت أبيه. كان يجد في هذا الصمت قوة. ولكنه كان في الوقت نفسه يشفق على أبيه، وهو يراه يذبل كل يوم. فالكلام المحبوس أشبه بالهواء المحبوس.. وكان يخشى في أي لحظة أن يحدث الانفجار.. وكان يضاعف من خشيته أن والده لم يعد يتناول الدواء، لأن الأسرة تكاد بشق النفس أن تجد الطعام!

ولم يطل انتظار محمد..

لقد سمع صياحاً في الحارة.. ورأى الأولاد الصغار يلقون الطوب على أبيه وهم يجرون وراءه ويصيحون:

ـ المجنون أهوه.. المجنون أهوه!

ودخل والده والدم ينزف من رأسه، فقد أصابه جرح من طوبة ألقاها عليه أحد الأطفال!

ولم يفتح الأسطى حنفي فمه. ولم ينهر الأطفال، ولم يحاول أن يلاحقهم ويمسك بهم.. بل تركهم يضربونه بالطوب كما يشاءون!

وجلس محمد يغسل جرح أبيه ويقول له:

ـ لماذا لم تدافع عن نفسك؟ لماذا لم تمسك الذي ضربك بالطوب؟

ولم يقل الأسطى حنفي شيئاً!

لزم الصمت أيضاً وأيضاً.

وفهم محمد من صمته الجواب. إنه لا يلوم الصغار الذين ضربوه بالطوب، بل يلوم الكبار الذين ضربوا ابنه بما هو أشد إيلاماً من الطوب والأحجار، ضربوه بالاتهام الظالم!

وبدأت صحة الأسطى حنفي في الانهيار!

إزدادت عيناه جحوظاً.. بدت فيهما نظرة مخيفة.. أصبحتا لا تستقران على شيء، ومع ذلك استمر صمته..

وأخافت هذه النظرة أطفال الحي. أرعبتهم. لم يعودوا يجرون وراء الأسطى حنفي ويرمونه بالطوب.. أصبحوا عندما يرونه يفرون مختفين من أمامه.

أصبح صمته يطاردهم. أصبح كل واحد منهم يعتقد أن هذا الصمت يخفي وراءه سكيناً. أحسوا كأنه يتوعد بذبح كل واحد منهم، كل الذين ضربوه بالطوب، كل الذين مشوا وراءه يزفونه ساخرين هازئين!

وبدأت الأمهات يخفن على أولادهن، يمنعنهم من الخروج إلى الشارع خشية أن يذبحهم الصامت المجنون!

ولم يؤذ الأسطى حنفي أحداً. كل ما كان يفعله أنه كان يمشي هائماً على وجهه في شوارع وحارات جزيرة بدران صامتاً، صامتاً، صامتاً..

■ ■ ■

وكان محمد جالساً يتناول طعام الغداء مع أمه وأبيه . .

وسمع سيارة تقف أمام الباب . .

ورأى جموعاً تتجمع حول السيارة، وتشير بأصابعها إلى الشقة التي يقيم فيها.

ونزل من السيارة أفندي ومعه ممرضان يحملان قماشاً أبيض في أيديهما . .

وسمع محمد دقاً عنيفاً على الباب.

وفتح محمد، وامتلأت الصالة بالزائرين الثلاثة يتبعهم عدد من أطفال الحي . .

وقال الأفندي بصوت أجش:

ـ أين الأسطى حنفي عبد الكريم؟

وتقدم الأسطى حنفي . .

وهجم عليه الممرضان العملاقان، ووضعاه في داخل قميص من الكتان.

واندفع محمد إلى الممرضين يحاول تخليص أبيه وهو يصرخ:

ـ ماذا تفعلان بأبي؟

قال الأفندي:

ـ إننا ننقله إلى مستشفى الأمراض العقلية في العباسية. لقد تقدمت شكوى أنه مجنون خطر يهدد حياة السكان، وأيد شيخ الحارة والقسم

هذه الشكوى. . إن الشكوى موقعة من الشيخ فخر الدين إمام المسجد وعدد من الأهالي!

قال محمد متوسلاً:

ـ ولكنه ليس خطراً، إنه لا يعتدي على أحد. . الناس تعتدي عليه وهو يتحمل كل الإهانات!

قال الأفندي:

ـ هذا أمر يقرره أطباء مستشفى الأمراض العقلية!

قال محمد لأبيه متوسلاً والدموع في عينيه:

ـ تكلم يا أبي. . قل لهم إنك عاقل. . قل لهم إنك لست مجنوناً. . تكلم حتى يعرفوا أنك لست مجنوناً. . إنك أعقل منهم جميعاً! تكلم! قل أي شيء!

وبقي الأسطى حنفي صامتاً!

وحمله الممرضان إلى عربة مستشفى المجانين. .

وتحركت العربة ومحمد مذهول، لا يعرف ماذا يفعل. .

وما كاد محمد يرى العربة تحمل والده حتى جرى وراءها وهو يبكي وينادي:

ـ أبي، أبي، قل لهم إنك لست مجنوناً!

ومضت العربة تحمل الأسطى حنفي إلى مصيره المجهول. .

ولم تكن تحمله وحده!

كانت تحمل معها كل آمال محمد في الحياة!

■ ■ ■

وسمع أمه تتنهد وتقول:

- لقد خرج في غير دوره.. كان المفروض أن أذهب أنا أولاً!

وتنهد محمد، فقد عرف أن أمه وضعت آجالاً لكل شيء في البيت!

وضعت نفسها قبل أبيه، في كشف الأثاث الذي يجب الاستغناء عنه ليجدوا لقمة العيش!

تماماً كما وضعت سريرها في الترتيب قبل سرير ابنها محمد!

إختفت سيارة مستشفى المجانين، تاركة خلفها زوبعة من تراب، ودموعاً في عيني محمد.

وتلفت محمد حوله، تطلع في وجوه الناس، وعض على شفته حزناً وأسى. لقد كان وحده الذي يبكي!

وجد رجالاً ونساء وأطفالاً وقد ارتسمت على وجوههم بسمة النصر. وجوه ضاحكة، وجوه ساخرة، وجوه راضية. ما أتعس الذي يبكي وحده في دنيا من الضاحكين!

إنهم سعداء لأنهم تخلصوا من الوحش المخيف الذي خلقته أوهامهم.. تخلصوا من السفاح الذي لا يستطيع أن يذبح فرخة.. تخلصوا من المجنون الذي ربما كان أعقل منهم جميعاً. تخلصوا من البطل الذي فقد كل شيء، عمله، أثاث بيته، عقله، دفاعاً عن كل واحد فيهم!

وبينما كان محمد تائهاً في خواطره هذه سمع الشيخ فخر الدين إمام المسجد يقول بصوت عال لزميله الشيخ فتح الباب:

ـ إنه رجل خطر! أنقذنا الله من شروره. لقد حاول أن يذبح معالي وزير الحربية، فلا عجب إذا حاول أن يذبح أطفالنا الأبرياء!

قال الشيخ فتح الباب هامساً:

ـ إنه لم يحاول ذبح وزير الحربية.. لقد ذبح معالي الوزير فعلاً.. واعترف أمامي بذلك.. اللهم احفظ لنا عقولنا، وقنا شر المجانين!

قال الشيخ فخر الدين:

ـ الإمام أبو حنيفة من رأيه أن المجنون لا يدخل الجنة!

ولم يحس محمد بأي رغبة في أن يرد على الشيخ فخر الدين، وأن يقول له إنه يضع في فم الإمام أبو حنيفة ما لم يقله!

فقَدَ الرغبة في المقاومة. كأنه لم يعد هناك شيء يستحق أن يحارب من أجله. كأنه اقتنع أن يكون تلميذاً في مدرسة الصمت التي كان أبوه أستاذها!

وهزّ رأسه حسرة على عهد ملكي إذا تكلمت فيه، وضعوك في السجن.. وإذا صمت فيه، أودعوك مستشفى المجاذيب!

إذا قاومت فيه الظالم، سقطت المظالم فوق رأسك كالمطارق.. وإذا استسلمت له، داسك الظالم بالأقدام!

إذا دافعت عن البريء لفقوا لك التهم، وإذا سكت عن التلفيق اتهموك بالجبن الذي هو سيد الأخلاق!

إذا قلت الحقيقة، خسرت الناس، وإذا سكت عن الحقيقة، خسرت نفسك!

أنت يا محمد مأكول مأكول.. مأكول أينما ذهبت.. مأكول مهما قلت.. مأكول مهما سكت!

كأن ليس لنا خيار في هذه الدنيا. إما أن نظلم الناس، وإما أن يظلمنا الناس..

في بلدنا رصيفان.. رصيف يمشي فوقه الظالمون.. ورصيف يمشي عليه المظلومون!.

والويل لمن يعبر الرصيف ليحاول أن ينقذ مظلوماً.. أو يوقف ظالماً!

ستدوسه سيارة السجن.. أو سيارة مستشفى المجاذيب!

■ ■ ■

دق الباب..

وتلفتت أم محمد إلى ابنها الراقد فوق الحصيرة بدهشة.. لقد نسيا صوت طرق الباب كما نسيهما الناس.

كان محمد يحاول جاهداً أن ينام بغير جدوى، إن النوم صديق الشبعان وعدو الجائع. مثله مثل كل شيء في هذه الحياة!

إنها الآن الساعة الرابعة بعد الظهر. أمضى اليوم كله من الصباح الباكر حتى موعد انصراف الدواوين والشركات يهيم في الشوارع على غير هدى. يبحث عن لا شيء. لم يعد يرغب في أن يطرق أي باب يبحث عن عمل، فلماذا يعمل، ليأكل! ولماذا يأكل، ليعيش؟ وهو بعد

أن دخل أبوه مستشفى الأمراض العقلية ظلماً لم يعد يريد أن يعيش.

أمضى يومه يتطلع إلى أبواب المصانع والشركات والمتاجر، ولم يحاول أن يعرف هل توجد وظيفة خالية. أصبح يعرف أن الوظيفة الخالية هي وظيفة واحدة، وظيفة «مظلوم». الظلم هو الباب الوحيد المفتوح في عالم أغلقت فيه كل الأبواب. وهو يشغل هذه الوظيفة عن جدارة واستحقاق، ما حاجته إذن إلى وظيفة أخرى؟ إنه رجل محكوم عليه بالإعدام. والمحكوم عليه بالإعدام لا يفكر في المستقبل! ولا يتقدم إلى الوظائف الخالية!

وعاد الباب يدق من جديد.

وقفزت أم محمد من مكانها، وفتحت الباب، فرأت أمامها سيدة جميلة، أنيقة، متشحة بحجاب أسود، وعلى عينيها نظارة سوداء.

وتصورت أم محمد أن السيدة أخطأت الشقة فقالت لها:

ـ هذا بيت الأسطى حنفي عبد الكريم؟

ورفعت السيدة الحجاب الأسود عن وجهها فبدت أكثر جمالاً، وقالت:

ـ أعلم أن هذا بيت الأسطى حنفي.. أنا اسمي زبيدة.. وأريد أن أقابل محمداً..

وفتحت أم محمد فمها دهشة، كأنها عرفت لأول مرة أن ابنها محمداً كبر. وأنه من الممكن أن تسأل عنه امرأة!

وتركتها واقفة عند الباب وأسرعت إلى الغرفة التي يرقد فيها محمد وقالت:

ـ سيدة تريد مقابلتك!

قال محمد في استغراب:

ـ مقابلتي أنا؟

قالت له وهي تدقق النظر فيه:

ـ واسمها زبيدة..

ودهش محمد.. إن موعده اليوم مع الموت.. لا مع زبيدة، فما الذي جاء بها في هذا اليوم بالذات، اليوم الذي اختاره ليموت فيه.. إنها المرة الأولى التي تزوره في بيته.. صدق والده المعلم حنفي عندما كان يقول: القلب للقلب رسول! ونظر محمد إلى جلابيته البيضاء التي يرتديها، ثم قال:

ـ دعيها تدخل!

قالت أم محمد مذهولة:

ـ تدخل؟ كيف تدخل؟ ليس في بيتنا مقعد تجلس عليه.. ليس عندنا قهوة نقدمها.. خير لك أن تقابلها فوق درجات السلم!

قال محمد ضاحكاً:

ـ دعيها تدخل.. إنها تعرف أن ليس في بيتنا مقاعد، ولا فناجين قهوة..!

ولم تتحرك أم محمد من مكانها وقالت:

ـ سأذهب إلى قهوة المعلم وهدان، وأشحذ مقعدين وفنجان قهوة!

وقام محمد من فوق الحصيرة، وفكر في أن يخلع الجلابية، ويرتدي البذلة، ثم عدل، حتى لا يترك زبيدة تنتظر، واتجه إلى الباب وصافحها، ووقفت أم محمد وراءه تحملق في وجه زبيدة المرأة التي نادت ابنها «محمد»، لا «محمد أفندي»، ولا «سي محمد».

قال محمد مشيراً إلى أمه:

ـ هذه أمي يا زبيدة..

وتقدمت زبيدة، وأحنت رأسها، وحاولت أن تمسك بيد أم محمد تقبلها، فسحبت أم محمد يدها، وقالت:

ـ العفو يا بنتي.

قال محمد باسماً:

ـ لم أعد في حاجة إلى أن أقدمك يا زبيدة. لقد عرفتك أمي عندما نادتك «يا بنتي»!

وقبّلت أم محمد زبيدة، وقد فهمت من نظرات محمد إليها أنها ليست بنتها إنما هي حبيبة ابنها.. لقد أسعدها أن محمداً كبر، وأصبح له حبيبة، جميلة، وترتدي ثوباً كالذي اضطرت أن تبيعه لتشتري الطعام. أحست في تلك اللحظة أن ثوبها عاد إليها!

وقال محمد:

ـ تصوري يا زبيدة، أن أمي تريد أن تذهب وتشحذ مقعدين من قهوة المعلم وهدان لنجلس عليهما.

قالت زبيدة وهي تجلس على الأرض:

ـ إنني أحب أن أجلس على الأرض مع محمد!

وتركتهما أم محمد وحدهما، متظاهرة بأنها ذاهبة للمطبخ، المطبخ الذي لم يعد فيه أي شيء!

■ ■ ■

وأخفى محمد عن زبيدة اضطرابه. حاول أن يضحك ويبتسم ليخفي عنها قراره بأنه قرر أن يموت اليوم.

وخدعها هدوؤه. كان قلبها منقبضاً قبل أن تدخل البيت، وزال انقباضها بعض الشيء عندما رأته. قالت زبيدة في صوت حزين:

ـ إنك الآن تهرب مني يا محمد!

قال محمد:

ـ أنا لا أهرب منك، أنا أهرب من نفسي. أنظري إلى هذه الغرفة. لم يعد فيها قطعة واحدة من الأثاث.. سواي!

قالت زبيدة وهي تتطلع إلى الغرفة الخالية:

ـ يكفي أن تكون أنت فيها.. لتصبح قصراً!

قال محمد في ابتسامة مريرة:

ـ هأنذا وأنت فيها.. ولا تزال خراباً!

وألقت زبيدة رأسها على جدار الحائط، وانحدرت الدموع على صفحة خدها وقالت:

ـ ماذا جرى لك يا محمد، إنك لم تعد محمداً الذي عرفته!

قال محمد في حسرة:

ـ أنا محمد الثاني. . محمد المهزوم. . محمد المظلوم يا زبيدة!

قالت زبيدة

ـ ولكنها ليست أول هزيمة ولا أول ظلم. لم تنقطع عني قبل ذلك في أي يوم من الأيام. إنني كنت أراك كل يوم. أحداث الدنيا كلها لم تمنعك من المجيء إلي كل يوم. عملك لم يكن يمنعك من الحضور. أصبحت الآن لا أراك أبداً. تمضي أيام كثيرة وأنا جالسة أنتظرك فلا تجيء. لم أستطع أن أصبر أكثر مما صبرت. جئت إلى بيتك لأبحث عنك. . لأسألك: هل نسيتني يا محمد؟

قال محمد وهو يتنهد:

ـ أنساك؟ لو نسيتك لذكرتني بك شفتاي اللتان طالما قبلتك، لذكرتني بك عيناي اللتان طالما امتلأتا بك، لذكرني بك قلبي الذي لا يخفق إلا بحبك!

قالت زبيدة:

ـ أين هذا من الأيام التي كنت لا تطيق فيها صبراً على البعد عني؟ إنني الآن قلقة عليك أكثر مما كنت، أكثر شوقاً مما كنت، أكثر حباً مما كنت. لماذا تتركني في هذا الجحيم؟ ستقول إنك تبحث عن عمل. أنت تعرف جيداً أنني على استعداد لأن أضحي بحياتي من أجل أن تجد عملاً. ولكني أعرف أنك تعود إلى بيتك كل يوم قبل الساعة الرابعة بعد الظهر. ولقاؤنا في الساعة السادسة مساء، بعد أن تكون كل الوزارات والمصالح والشركات والمتاجر قد أغلقت أبوابها. إذا لم يوافقك موعد الساعة السادسة مساء فلتجعله السابعة. . الثامنة. .

منتصف الليل. . إذا كنت لا تريد أن تجيء إلى بيتي بعد أن اتهموك بأنك تقدم التقارير إلى زوجي، فأنا مستعدة لأن أجيء إليك. . إلى هنا؟ كل ما يهمني هو أن أراك لأطمئن عليك. ولو دقيقة واحدة، دقيقة واحدة كل أربع وعشرين ساعة تكفيني!

وطوقها محمد بذراعيه، ثم طبع على فمها قبلة طويلة. .

قالت زبيدة وهي تبعد شفتيه عن شفتيها:

ـ أنت تحاول أن تسكتني بهذه القبلة. . كلما أردت أن أقول شيئاً قبّلتني في فمي فتضيع مني الكلمات. . هذه المرة لن تضيع الكلمات. . حرارة القبلة أعادت الحياة إلى شفتي الميتتين. ذاب الصمت فوقهما. لا بد أن أتكلم. . لقد جئت إلى هنا لأتكلم، لا لأذوق القبلات. . إن الكلام الذي عندي أكثر من القبلات!

وقبلها محمد مرة أخرى. . وأحست وهي بين ذراعيه أنها تأكل شفتيه بشفتيها، ولكنها ابتعدت عنه وهي تقول:

ـ أعترف أنني جائعة للحب، جوعك للطعام. . أعرف أن جوعك يعذبك، ولكن جوعي قتلني. . أنت تبحث عن لقمة العيش وأنا أبحث عن لقمة الحب. . إنك طعامي الوحيد في هذه الحياة. لقمتي الوحيدة. لا يمكن أن يكون عذاب الجوع للطعام مؤلماً كعذاب الجوع للحب!

وابتسم محمد وقال:

ـ أنت تقولين هذا. . لأنك لم تجربي عذاب الجوع للطعام!

قالت زبيدة محتجة:

ـ لقد كنت في يوم من الأيام فقيرة. . فقيرة جداً!

قال محمد:

ـ فرق بين الفقر والعدم. الفقراء يأكلون الكفاف، والجوعى لا يجدون الكفاف. الفقر مؤلم ولكن الجوع عذاب. الفقر كالنار، والجوع كالجحيم. البطون الخاوية فراغ مخيف تتوه فيه العقول، وتموت العواطف، بل وتضيع المبادىء.

قالت زبيدة:

ـ ولكنك أنت الذي حكمت على نفسك بالجوع. . أنت الذي رفضت مساعدة المرأة التي تحبك. . عرضت عليك أن أعد لك طعاماً فقلت لي إنني لا أذوق طعاماً من مال وزير ظالم. رفضت أن تمس الطعام الذي أعددته لك وأنت جائع بحجة أنه جاء من نقود عوني حافظ. . عرضت عليك مجوهراتي ففضلت الجوع على أن تمس مال امرأة، حتى ولو كانت هذه المرأة التي تحبها وتعبدك. . قلت لك: إعتبر هذا قرضاً. فقلت لي إنك ترفض أن تقترض مبلغاً تعرف أنك عاجز عن سداده. وأن هذا نوع من السرقة. أنت تسد بيدك جميع الأبواب. ثم تعاقبني على عنادك، فتحرمني من رؤيتك. أنت تريد أن تموت من الجوع، وأنا لا أريد أن أموت من الجوع. . أنت كرامتك تمنعك من أن تقبل الطعام، وأنا لا كرامة لي. . أنا أستجدي منك الطعام!

قال محمد:

ـ إني أشعر بأنني ظلمتك بحبي. . إن العاشق يمنح حبيبته السعادة، وأنا منحتك الشقاء. يغمرها بالعطاء، وأنا غمرتك بالحرمان يحملها إلى النعيم وأنا ألقيت بك في الجحيم. يضع على شفتيها البسمات، ولم

أضع على شفتيك إلا مرارة حياتي. أصبحت أشعر كأنه لم يبق عندي ما أعطيه لك سوى عذابي. ولهذا أشفق عليك من لقائي. إنني وعدتك بالهناء وجلبت لك الضنى. وعدتك بالدنيا الباسمة، ولم أحمل لك سوى الدموع!

قالت زبيدة:

ـ ومن قال لك إنني أشكو من هذه الدموع، أو أضيق بهذا الشقاء؟ إنني شريكتك في الحب، ولي الحق في نصف الربح، وعلي أن أدفع نصف الخسارة... لي حق النصف في دموعك، كما لي حق النصف في بسماتك. أنت الآن تسرق مني نصيبي في الدموع والشقاء والعذاب، إنني جئت إليك لأسترد حقي من العذاب!

قال محمد:

ـ إنني بطبيعتي رأسمالي في أحزاني أحتفظ بها كلها لنفسي، واشتراكي في سعادتي أوزعها على كل الناس!

قالت زبيدة:

ـ ولكنني لست كل الناس... أنا قطعة منك. أنا نصفك. إنك أعطيتني أجمل أيام حياتي، ويجب أن أدفع ثمن ما أخذت وهو أن أقف بجوارك في محنتك. أنت رجل أناني في الآلام.. أعطني نصيبي منها، يا حبيبي... لا يمكن أن أراك تموت أمامي وأتركك تموت. لا يمكن أن أقبل أن أقف أتفرج ونصفي يداس أمامي بالأقدام. عندما تشل اليد اليمنى في الجسم تتحرك اليد اليسرى أوتوماتيكياً، وتقوم بكل وظائف اليد اليمني.. دعني أتحرك، دعني أدافع عنك. عيبي أنني أطيعك طاعة عمياء. أفقد إرادتي أمامك. ولكنني اليوم أشعر برغبة غريبة في

أن أثور عليك، أن أتحدى أوامرك. . . لقد جئت إلى هنا بغير أن أستأذنك. سوف أتحرك ما دمت لا تتحرك. سوف أتكلم ما دمت أنت صامتاً. سوف أحارب ما دمت أنت ألقيت السلاح!

قال محمد في قراره:

ـ إنني فقدت كل رغبة في الصراع. ما حدث لأبي حطمني. . كان أبي هو عمودي الفقري، وعندما تحطم العمود الفقري تحولت إلى قطعة مهلهلة من اللحم. العلم المرفوع أصبح خرقة بالية، لأن الصاري الذي كان يحمله تحطم. . . ولم يتحطم عمودي الفقري وحده، هناك أشياء كسرت قلبي. ما حدث لأبي كسر ظهري. وما حدث لي كسر روحي. أصبحت رجلاً مهشماً، كل شيء فيّ محطم ومكسور. فقدت الحياة قيمتها في نظري. لم تعد تساوي أن نحارب من أجلها. . . فقد كل شيء معناه حتى الحقيقة. أصبحت أشعر بأنني لا أستطيع أن أعيش في البلد الذي أحببت كل شبر فيه، الذي أعتبر كل رجل فيه أبي وأخي وابني، الذي أعتبر كل امرأة فيه أمي وأختي وابنتي. . هذا البلد الذي ضحيت بحياتي من أجله. قيمة الوطن أنك تجد فيه الحماية أكثر من أي مكان آخر. قيمة الوطن أنك تجد فيه العدالة أكثر من أي مكان آخر. قيمة الوطن أنك تجد فيه الحب أكثر من أي مكان آخر. وعندما يخلو الوطن من الحماية والعدالة والحب، يصبح المواطن فيه غريباً. . . ومن أجل هذا قررت أن أهاجر!

قالت زبيدة ملتاعة:

ـ تهاجر. . وتتركني؟!

قال محمد:

ـ أنت معي في كل مكان سأذهب إليه لن يفرقنا شيء سوى الموت.

ولكن الآن مكـانـك هنــا، لـديـك واجب يجب أن تؤديـه نحــو أبيـك وإخوتك.

قالت زبيدة:

ـ أنا لا يهمني أبي وأخوتي. الذي يهمني هو أنت.. أنت فقط.. أنا ضحيت لأبي وأخوتي بشبابي. من حقي أن أستمتع بما بقي من عمري مع الرجل الذي أحبه. لا.. لا يمكن أن تتركني وتذهب.

قال محمد:

ـ إنني سأترك أمي هنا.. وأنت تعلمين كم أحب أمي... وأتركها في رعايتك أنت... إنني أريد منك أن تعطيها كل شهر ثلاثة جنيهات لتنفق على طعامها وعلى مصاريف أبي في المستشفى إلى أن تلحق أمي بي.

قالت زبيدة.

ـ وأنا؟!

قال محمد:

ـ وأنت ستلحقين بي أيضاً.

قالت زبيدة:

ـ هل تقسم أنني سألحق بك؟

قال محمد باسماً:

ـ أقسم أنك سوف تلحقين بي.. سأبقى دائماً أنتظرك.

وعانقها، ولاحظت أن دموعه تسقط فوق خدها، فتراجعت مذعـورة وقالت:

ـ لماذا تقبلني هكذا. . . هل هذا وداع؟

قال محمد:

ـ لن يكون بيننا وداع!

قالت زبيدة مرتاعة:

ـ إنك لن تتركني يا محمد. . لن تتركني أبداً.

قال محمد وهو يضمها إلى صدره ويغمض عينيه:

ـ أقسم لك يا زبيدة إنني سأكون معك حتى الموت!

قالت زبيدة:

ـ إنني مستعدة لأن أذهب معك إلى أي مكان. مستعدة لأن أهرب معك إلى أي بلد. . . إلى أين تريد أن تهاجر؟

قال محمد:

ـ لا أعرف إلى أين. . ولكن سوف أنتظرك في أي مكان أذهب إليه.

وأدار ظهره ليخرج، ويخفي دموعه، فجرت خلفه، وتعلقت بـه وهي تقول:

ـ لن تهاجر وحدك يا محمد. خذني معك. خذني خادمة عندك!

قال محمد وهو يبتسم:

ـ المكان الذي سأذهب إليه ليس فيه خادمات!

وعاد يقبلها ويقول لها:

- إنني أحبك يا زبيدة أكثر من حياتي. سأكون إلى آخر لحظة من حياتي لك. لـك وحدك. سأنتظرك. ستلحقـين بي. تأكـدي أنك ستلحقين بي في يوم من الأيام. إنني لم أكذب عليك أبداً!

■■■

واتجه محمد إلى شارع الجبلاية في الجزيرة.

مر أمام بيت نجوى المناسترلي، وتطلع إلى نوافذ البيت وابتسم وكأنه يستعيد ذكرياته في ذلك البيت العجيب. . .

ثم اتجه إلى البيت المجاور، بيت سمير باشا المناسترلي كبير ياوران الملك فؤاد، وسأل البواب عن صديقه إبراهيم المناسترلي فقال إنـه موجود.

وخرج إبراهيم المناسترلي يحمل فوطة الطعام في يده، ويأخذ محمداً بالأحضان، ودعاه لأن يدخل معه ويتناول طعام الغـداء فليس على المائدة سواه، وأراد محمد أن ينتظره في غرفة المكتب، ولكن إبراهيم ألح عليه أن يدخل إلى مائدة الطعام. . .

ووجد محمد فوق المائدة عدداً ضخمـاً من الأصناف، كانت هناك ديـوك وفراخ وحمـام وسمـك وطـواجن وأطبـاق مختلفـة من الحلوى والفاكهة!

ونظر إلى المائدة بدهشة. إن ما فوقها يكفيه هو وأمه طوال العمر!

ولاحظ إبراهيم دهشته فقال له:

- لقد أقام والدي ظهر أمس مأدبة غداء للوزراء. . . وهذا ما بقي منها!

ودعاه لأن يأكل، فرفض محمد أن يأكل. بقي يتفرج على الألوان والأصناف.

إذا كان هذا هو ما بقي من الوزراء.. ترى ماذا أكل الوزراء؟

وهزّ رأسه صامتاً وعجب أنه لم يشعر بضعف أمام هذه المائدة الفاخرة. لم يتلمظ أمامها، وهو الذي لم يذق قطعة من اللحم منذ شهور... لم يفكر في أن يمد يده ليذوق الأطعمة التي يراها لأول مرة. إنها أول مرة يرى فيها ديكاً يرقد على جبل من الأرز... أول مرة في حياته يرى تورته من الشوكولاتة مكونة من عدة أدوار... أول مرة يرى طبق السمك المايونيز، وقد أحيط بالجنبري الأحمر، كحرس شرف لملك البحر... أول مرة يرى فرخة تطل من داخلها حمامة... أطباق غريبة لم يشهدها من قبل، ومع ذلك أحس أمامها بزهد عجيب. فالإنسان بعد فترة طويلة من الجوع، يحتقر الطعام!

وبعد أن مر إبراهيم المناسترلي أمام جميع الأصناف وكأنه قائد يستعرض جنوده واحداً واحداً.. صحب محمداً إلى غرفة المكتب وهو يحدثه عن غرامه الجديد، مادلين بائعة الحلوى الشقراء في محل جروبي!

ولا يصدق إبراهيم أن محمداً لم ير مادلين، فقال له في حماس:

- غير معقول أنك لم تر مادلين... إنها تمثال من المرمر على يدك اليمنى وأنت داخل إلى محل جروبي... إنها أجمل امرأة في العالم... كل من يدخل جروبي ينسى كل شيء فيه ما عدا مادلين... إنها أحلى حلوى في محل الحلويات!

قال محمد:

- إنني لم أدخل محل جروبي في حياتي!

وضرب إبراهيم كفاً بكف وقال:

- محرر عظيم مثلك لم يدخل جروبي؟ إن كل كبار الصحفيين يذهبون إلى جروبي.

وسكت محمد ولم يقل شيئاً! لم يقل إنه لم يعد لا من كبار الصحفيين ولا من صغارهم، وإنه يبحث عن لقمة العيش لا عن حلويات جروبي!

وقطع محمد حديث مادلين وقال:

- إنني أريدك في خدمة. إن عملي يقتضيني أن أعود إلى بيتي في ساعة متأخرة من الليل، والحي الذي أقيم فيه، انتشر فيه قطاع الطرق... فهل يمكنك أن تعطيني مسدساً من مسدساتك لأحمله معي؟

قال إبراهيم وهو يفتح الدرج الذي بجواره:

- طبعاً، إن لدي الآن مجموعة كبيرة من المسدسات... خذ ما تشاء منها!

وقلّب محمد المسدسات في يده... ووجد المسدس الذي يعرفه، المسدس الذي لا ينساه، المسدس الذي أطلقه على عوني حافظ... المسدس الذي سلمه لزبيدة في الشارع... المسدس الذي صنع قصة حبهما!

وأمسك محمد بيد المسدس، وكأنه يمسك بيد صديق قديم وقال لابراهيم:

- هل يمكنني أن آخذ هذا المسدس؟

قال إبراهيم بغير اهتمام:

ـ خذه . . . هناك مسدسات أحدث منه!

قال محمد وهو يتفحص المسدس:

ـ إنه المسدس الذي أردت أن ترتكب به حادث قتل من أجل ابنة خالتك نجوى المناسترلي!

واستغرق ابراهيم في الضحك وقال:

ـ لقد كنت مغفلاً . . . لولاك لارتكبت جريمة قتل في ذلك اليوم!

واستعاد ابراهيم المسدس، وفتحه ونظفه وأخرج الرصاصات التي فيه، وملأه برصاصات أخرى . . . وسلمه إلى محمد لامعاً وهو يقول:

ـ إنه الآن جاهز . . . يستطيع أن يقتل عصابة بأكملها!

■ ■ ■

كان محمد يتحسس المسدس وهو في طريقه إلى حديقة الجبلاية . . . إنه تذكرة السفر، التي ستحمله إلى المكان الذي قرر أن يهاجر إليه!

تذكرة مجانية لا تحتاج إلى جواز سفر، ولا إلى نفقات إقامة!

إنه يوم الأربعاء!
اليوم الذي قرر أن يموت فيه!
لم يبق سوى نصف ساعة على الساعة السادسة!
الساعة التي قرر أن يطلق فيها النار على رأسه . .
واختار حديقة الجبلاية مكاناً للانتحار . .
إنه اختار الساعة واليوم والمكان . . الذي يحبه!

في هذا المكان والزمان أحب زبيدة لأول مرة. أحبها والمسدس نفسه في جيبه!

أحس بأنه يولد من جديد . .

وفي هذا المكان نفسه سيموت!

كيف عرفت زبيدة أنه قرر أن يموت اليوم؟ لماذا اختارت هذا اليوم بالذات لتزوره لأول مرة في بيته؟ أتكون قد شعرت بأنه في خطر وجاءت لتنقذه من الخطر؟ كان قد قــرر ألا يودعها. إن قلبه لم يطاوعه أن يودع أمه. كان السبب الوحيد الذي يمنعه من الموت هو أن يضمن حياة أمه بعد وفاته، وهو سعيد لأنه اتفق مع زبيدة على أن تدفع لها ثلاثة جنيهات كل شهر. إنه واثق أن زبيدة سوف تدفع هذا المبلغ مهما حدث. ستشعر أن هذه الجنيهات الثلاثة هي وردة تضعها فوق قبره مرة كل شهر!

وجلس على الدكة الخشبية التي كان يجلس عليها مع زبيدة. وربت عليها بيده، كأنه يطلب إليها ألا تنزعج عندما تسمع صوت إطلاق النار.

وتأمل الأشجار التي حوله، إنه يكاد يعرف كل شجرة من هذه الأشجار، كل واحدة منها رأت قلقه وهو ينتظر، ورأت سعادته وهو يلتقي بزبيدة. وتطلع إلى الورود الجميلة، لا بد أن في أعوادها بعض أنفاسه وأنفاسها. وحدق في الخضرة التي كانت تركع دائماً تحت أقدامها، وتطلع إلى شجرة ضخمة لها فرعان كبيران، ما أشبهها بيدين ترتفعان إلى السماء تدعوان الله!

وتطلع إلى السماء وكأنه يعتذر إليها!

إنه لا ينتحر. . . إنه يقوم برحلة، رحلة إلى عالم آخر ليس فيه مظالم، ولا اتهامات كاذبة. . . فيه حساب حقيقي، فيه عدالة حقيقية، فيه سلام!

وعاد ينظر إلى كل شجرة يودعها، وإلى كل زهرة يملأ عينيه بجمالها.

وأقبل الحارس وسأله عن الساعة..

فقال له الحارس: السادسة إلا خمس دقائق!

ومضى الحارس...

وهز محمد رأسه... باق من الحياة خمس دقائق!

وعاد ينظر إلى الأشجار والزهور من جديد، وكأنه يريد أن يملأ عينيه بآخر نظرة إلى الحياة!

ووضع يده في جيبه وتحسس المسدس!

هذا المسدس الذي ظن في يوم من الأيام أنه قادر على أن يعيد تنظيم الكون من جديد، قادر على أن يوقف الظلم والظالمين، قادر على أن يعيد العدالة والحرية إلى الناس. يا لسخرية القدر.. هذا المسدس نفسه هو الذي سيقتل مظلوماً ابن مظلوم... هو الذي سينهي حياة شاب طالب بالحرية والعدالة لكل الناس!

لعل هذه الطلقات التي سيفرغها في رأسه تكون عالية بالقدر الكافي، لتنبه الغافلين، ولتوقظ النائمين.. لعلها تكون صرخة احتجاج من فم مخنوق. لعل الشعاع الذي ينطلق من الرصاص يكون بصيصاً من نور يرى فيه شبان غيره طريقهم إلى حياة أفضل!

ورفع المسدس إلى جبهته. وأحس بالخوف. ترددت أصبعه أن تضغط على الزناد!

رأى صورة أمه. رأى صورة زبيدة..

وأغمض عينيه حتى لا يراهما!

وقال لنفسه إنه لا ينتحر! إنه ينقص عدد المظلومين. . . واحداً!

في الساعة السادسة تماماً. كانت زبيدة في بيت الزعيم.

دهش الزعيم عندما قال له البواب إن السيدة حرم عوني باشا حافظ وزير الدولة في وزارة الداخلية تريد أن تقابله فوراً لأمر سري وعاجل وخطير!

ودخل الزعيم إلى الصالون، وصافحها ودعاها إلى الجلوس.

وقالت له زبيدة بغير مقدمات:

ـ إنني ألجأ إليك كإنسان، لا كزعيم للمعارضة، ولا كخصم سياسي لزوجي، إنك أصدرت قراراً بفصل محمد عبد الكريم من جريدة «الجهاد» لأنه يذهب كل يوم إلى بيت عوني حافظ، ويقدم له التقارير عن أسرار الوفد!

قال الزعيم:

ـ نعم. وقد رآه بعض أعضاء الحزب بأعينهم وهو يدخل بيتكم من الباب الخلفي، ورأيت عدة صور له وهو يدخل البيت. لقد حققت هذه المسألة بنفسي، وأنا قاض قبل أن أكون زعيم حزب!

قالت زبيدة:

ـ إنه لم يكن يقدم التقارير لزوجي. . إنه كان يحضر كل يوم لمقابلتي، إنني أحبه وهو يحبني!

وبدت الدهشة على وجه الزعيم، فقالت له زبيدة:

ـ أعلم أنك ستحتقرني! ستقول إنني زوجة تخون زوجها! الزوجة الخائنة لا تقبل شهادتها! ولكنني رأيت من واجبي أن أحضر إليك لأقول الحقيقة!

قال الزعيم:

ـ ولكنه سئل ولم يقل هذا.

قالت زبيدة وهي تبكي:

ـ لأنه لم يشأ أن يفضحني، وفضل أن يفضح نفسه... لأنه أراد أن يشتري براءتي باتهامه. لأنه خشي إذا عرفت المعارضة الحقيقة أن تشهر بي... وأنا لا يهمني أن تشهر بي المعارضة.. إنني مستعدة لأن أكتب لك الآن اعترافاً بإمضائي أنني عشيقة محمد عبد الكريم... ومن حقكم أن تستعملوا هذا الاعتراف ضد زوجي... فأنا أعلم أنه يحاربكم بأحط الأسلحة!

قال الزعيم مذهولاً:

ـ إنني أرفض أن تكتبي مثل هذا الاعتراف... وأؤكد لك أن إنساناً لن يعرف أنك زرتني أو أنك قلت لي هذا. أنا لا ألوث يدي باستعمال نفس الأسلحة التي يستعملها خصومي..

قالت زبيدة:

ـ إن محمد عبد الكريم الذي حكمت عليه بالإعدام ارتكب جريمة واحدة... إن جريمته أنه دافع عن سميحة شريف المرأة التي أحببتها أنت، جريمته أنه عرف مني أن كل الاتهامات التي قيلت عن سميحة شريف هي أكاذيب لفقها زوجي.. وأنه ثار من أجل الظلم الذي

تعرضت له، وهذا ما أغضب درويش باشا حبيب عضو مجلس إدارة حزبك، فأراد أن يعاقبه لأنه دافع عن امرأة بريئة... إن الصور الفوتوغرافية التي عرضوها عليك لسميحة هي صور التقطها أحد مخبري زوجي الذي تنكر كمراكبي في العوامة.. وزوجي هو الذي دس الصور عليك، وقد اعترف لي بذلك!

وقد ذهبت بنفسي إلى سميحة ورويت لها الحقيقة كلها وطلبت منها أن تجيء إليك وتخبرك بها، فرفضت.

قال الزعيم وهو يخفي وجهه بيديه:

- مستحيل.. مستحيل!

قالت زبيدة:

- الحقيقة دائماً هي المستحيل.

قال الزعيم في تأثر:

- لقد قتلوها وقتلوني معها!!

قالت زبيدة:

- وهم يقتلون اليوم شاباً بريئاً آمن بك وبها!

قال الزعيم:

- إنني سألغي هذا القرار. سأعيد لمحمد عبد الكريم اعتباره. أنا لا يمكن أن أظلم بريئاً.

قالت زبيدة:

- لقد قرر أن يهاجر من مصر..

قال الزعيم:

ـ أعطيني عنوانه.. سأرسل له سكرتيري الخاص مأمون الريدي، وأطلب إليه أن يحضره إلى هنا، وسأعتذر له بنفسي، وأصدر قراراً بإعادته إلى عمله.

وأعطاها الزعيم ورقة وقلماً.

وكتبت عنوان محمد عبد الكريم في جزيرة بدران، ثم ناولته الورقة وهي تقول:

ـ يحسن أن يذهب إليه غداً الساعة الرابعة... إنه الوقت الذي يعود فيه إلى بيته.. فهو يغادر بيته عند الفجر بحثاً عن عمل!

قال الزعيم:

ـ سيكون مأمون الريدي في بيته غداً الساعة الرابعة... وسيجيء به إليّ فوراً..

قالت زبيدة والدموع في عينيها:

ـ لي رجاء عندك... لا تخبره أنني جئت إليك. لقد وعدته ألا أفعل ذلك!

قال الزعيم وهو يمسح دموعه:

ـ وأنا عندي رجاء لك.. أن تخبري سميحة أنني مؤمن بأنها مظلومة!

■■■

جلس درويش باشا حبيب يقرأ في داره صحف الصباح، وانتهى

من قراءة الصفحات الهامة، ثم بدأ يقرأ أخبار الحوادث. . . ووجد في نهاية عمود صحيفة الحوادث خبراً صغيراً بغير عنوان «أطلق الصحفي السابق محمد عبد الكريم الرصاص على رأسه في حديقة الجبلاية بعد ظهر أمس. ومات على الفور. وظهر من التحقيق أنه انتحر لضيق ذات اليد»!

وامتلأ وجه درويش باشا بفرحة الانتصار، وضحك ضحكة عالية وقال:

- ضيق ذات اليد؟ إنه انتحر لأننا كشفناه! إن هذا الرصاص هو اعتراف جديد بأنه مجرم، وبأنه كان يسلم أسرار الحزب إلى عوني حافظ باشا!

وفكر درويش باشا على الفور في نجوى المناسترلي. يجب أن يبلغها فوراً نبأ انتصاره العظيم. يجب أن يحتفلا الليلة بهذا الانتصار كما وعدته!

وأمسك بالتليفون وطلب بيت نجوى. .

وردت خادمتها على التليفون. .

وقال درويش باشا بصوت رقيق ناعم:

- نجوى هانم من فضلك.

قالت الخادمة:

- من حضرتك؟

وزاد درويش باشا من نعومة صوته وقال هامساً:

- دودو. . .

وذهبت الخادمة إلى نجوى في غرفة النوم ورأتهـا ممسكة بجـريدة «الأهرام» تقرأ عمود الحوادث . .

وبدت ساهمة . .

وقالت الخادمة :

ـ إن رجلاً اسمه دودو يريد التحدث إليك .

قالت نجوى وهي تلقي الجريدة من يدها :

ـ قولي له : نحن شاكرون . . لقد انتهت مهمتك يا باشا !

ثم سكتت قليلاً وقالت : لا داعي لهذا الرد . . إنه رد مؤدب أكثر من اللازم وهو رجل غبي ولا يمكن أن يفهمه !

وأملتها الرد الذي تجيب به .

وأمسكت الخادمة السماعة وبجوارها نجوى تتسمع عليها وقالت الخادمة :

ـ الست بتقول لك عيب يا باشا . . . فهي سيدة متزوجة ولا تتكلم مع رجل أكبر سناً من أبيها !

وسمعت نجوى شهقة . . وسماعة التليفون تسقط من يد درويش باشا . .

ودوت ضحكة عابثة عالية أطلقتها نجوى من قلبها !

■ ■ ■

في الساعة الرابعة تماماً بعد ظهر اليوم نفسه وقفت سيارة فخمة أمام

منزل محمد عبد الكريم في جزيرة بدران.

ونزل منها الأستاذ مأمون الريذي سكرتير الزعيم.

وتلفت إلى المنزل المتواضع وسأل أحد الأطفال الواقفين:

- هل هذا هو بيت الأستاذ محمد عبد الكريم؟.

قال الطفل:

- نعم:

السكرتير:

- هل هو موجود في المنزل؟

وأشار الطفل إلى نعش يمشي في حارة مفرش الخمص، وقال بصوت مرتعش:

- إنه.. إنه في هذا النعش!

وكان تعداد مصر في تلك الأيام ١٤ مليوناً من السكان!

وأسرع الأستاذ محمد مأمون الريدي يعدو نحو النعش.

ورأى نعشاً بسيطاً من الخشب، لا يغطيه شيء!

ووجد خلفه خمسة أشخاص. يمشون كأنهم موتى، في خطوات بطيئة حزينة متثاقلة!

كانوا رجلين وثلاث سيدات متشحات بالسواد!

كان الرجلان هما المعلم وهدان أبو خطوة صاحب قهوة سيدي

فرج، والحاج مغازي الفقي المكوجي.

وكانت النساء الثلاث هنّ أم محمد، وهي تمشي محطمة تبكي بغير صوت، متكئة على زبيدة عن يمينها، وسميحة شريف عن يسارها.

(تمّـــت)

كتب أخرى للمؤلف

- **أمريكا الضاحكة**

حياة طالب مفلس في أمريكا

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ - (نفدت).

الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ - (نفدت).

الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ - (نفدت).

الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥ «أمريكا الضاحكة . . زمان»

الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة.

- **فاطمة**

مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدي سنة ١٩٤٧م.

- **عمالقة وأقزام**

ساسة مصر قبل الثورة

سنة ١٩٥١ - (نفدت).

- **ليالي فاروق**

قصة حياة الملك السابق

الجزء الأول سنة ١٩٥٤ - (نفدت).

الجزء الثاني سنة ١٩٥٤ -.(نفدت).

- **معبودة الجماهير**

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ - (نفدت).

مثلها للسينما عبد الحليم حافظ وشادية.

● صاحبة الجلالة في الزنزانة

قصة الصحافة المصرية في الأغلال والصراع بين الصحافة والطغيان.

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٥ - (نفدت).

الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥.

[العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

● سنة أولى سجن

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ - (نفدت).

الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ - (نفدت).

الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ - (نفدت).

الطبعة السادسة يناير ١٩٧٨.

الطبعة السابعة ابريل ١٩٨١.

● الكتاب الممنوع

أسرار ثورة ١٩١٩.

الطبعة الأولى ١٩٧٤ - (نفدت).

الطبعة الثانية ١٩٧٥.

● سنة أولى حب

الطبعة الأولى يناير ١٩٧٥..

الطبعة الثانية ١٩٨٥ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

مثلها للسينما محمود ياسين [illegible] فتحي.

● ست الحسن

الطبعة الأولى ١٩٧٦ - (نفدت).

الطبعة الثانية ١٩٨١.

- من واحد إلى عشرة
الطبعة الأولى ١٩٧٧
الطبعة الثانية ١٩٨١

- سنة ثانية سجن
الطبعة الأولى ١٩٧٧.

- سنة ثالثة سجن
الطبعة الأولى ١٩٧٨.

- لا . . .
الطبعة الأولى ١٩٧٧ (نفدت).
الطبعة الثانية ١٩٨٥ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

- لكل مقال أزمة
الطبعة الأولى ١٩٧٩.

- الـ ٢٠٠ فكرة
الطبعة الأولى ١٩٧٩.

- تحيا الديمقراطية
الطبعة الأولى ١٩٨٠.

- من عشرة لعشرين
الطبعة الأولى ١٩٨١

- سنة رابعة سجن
الطبعة الأولى ١٩٨١

- صاحب الجلالة الحب
الطبعة الأولى ١٩٨٢.
الطبعة الثانية ١٩٨٥ [العصر الحديث للنشر والتوزيع - بيروت]

- من فكرة إلى فكرة
الطبعة الأولى ١٩٨٣

- من فكرة إلى فكرة

الطبعة الأولى ١٩٨٤

- الآنسة هيام

الطبعة الأولى يناير ١٩٨٥

الطبعة الثانية يونيه ١٩٨٥ [منشورات العصر الحديث]

- الآنسة كاف

الطبعة الأولى ١٩٨٥

- الفكرة المنوعة

الطبعة الأولى ١٩٨٥